



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليكم يا صابغ
الرميا

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

مكتبة المصنفين

المجلد الرابع

المجلد الرابع

المجلد الرابع



دار الفکر للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختصر الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

سازمان حج و اوقاف امور خيريه - اسوه

رقمى الناشر:

مركز القائميئ باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٧	مختصر الميزان فى تفسير القرآن المجلد ٤
١٧	اشاره
١٧	اشاره
٢٣	سوره الكهف مكيه و هى مائه و عشر آيات
٢٣	اشاره
٢٣	[سوره الكهف (١٨): الآيات ١ الى ٨]
٢٣	اشاره
٢٤	بيان:
٢٧	[سوره الكهف (١٨): الآيات ٩ الى ٢٦]
٢٧	اشاره
٣١	بيان:
٥٢	[سوره الكهف (١٨): الآيات ٢٧ الى ٣١]
٥٢	اشاره
٥٣	بيان:
٥٤	[سوره الكهف (١٨): الآيات ٣٢ الى ٤٦]
٥٤	اشاره
٥٧	بيان:
٦٦	[سوره الكهف (١٨): الآيات ٤٧ الى ٥٩]
٦٦	اشاره
٦٨	بيان:
٧٨	[سوره الكهف (١٨): الآيات ٦٠ الى ٨٢]
٧٨	اشاره
٨٠	بيان:

٩٠ [سوره الكهف (١٨): الآيات ٨٣ الى ١٠٢]

٩٠ اشاره

٩٢ بيان:

١٠١ [سوره الكهف (١٨): الآيات ١٠٣ الى ١٠٨]

١٠١ اشاره

١٠١ بيان:

١٠٣ [سوره الكهف (١٨): آيه ١٠٩]

١٠٣ اشاره

١٠٣ بيان:

١٠٤ [سوره الكهف (١٨): آيه ١١٠]

١٠٤ اشاره

١٠٤ بيان:

١٠٦ سوره مريم مكيه و هي ثمان و تسعون آيه

١٠٦ اشاره

١٠٦ [سوره مريم (١٩): الآيات ١ الى ١٥]

١٠٦ اشاره

١٠٧ بيان:

١١٦ [سوره مريم (١٩): الآيات ١٦ الى ٤٠]

١١٦ اشاره

١١٩ بيان:

١٣٠ [سوره مريم (١٩): الآيات ٤١ الى ٥٠]

١٣٠ اشاره

١٣١ بيان:

١٣٧ [سوره مريم (١٩): الآيات ٥١ الى ٥٧]

١٣٧ اشاره

١٣٧ بيان:

١٣٩ [سوره مريم (١٩): الآيات ٥٨ الى ٦٣] -

١٣٩ اشاره

١٤٠ بيان:

١٤٤ [سوره مريم (١٩): الآيات ٦٤ الى ٦٥] -

١٤٤ اشاره

١٤٤ بيان:

١٤٦ [سوره مريم (١٩): الآيات ٦٦ الى ٧٢] -

١٤٦ اشاره

١٤٦ بيان:

١٥٢ [سوره مريم (١٩): الآيات ٧٣ الى ٨٠] -

١٥٢ اشاره

١٥٢ بيان:

١٥٦ [سوره مريم (١٩): الآيات ٨١ الى ٩٦] -

١٥٦ اشاره

١٥٧ بيان:

١٦٢ [سوره مريم (١٩): الآيات ٩٧ الى ٩٨] -

١٦٢ اشاره

١٦٢ بيان:

١٦٤ سوره طه مكيه و هي مائه و خمس و ثلاثون آيه

١٦٤ اشاره

١٦٤ [سوره طه (٢٠): الآيات ١ الى ٨] -

١٦٤ اشاره

١٦٥ بيان:

١٧١ [سوره طه (٢٠): الآيات ٩ الى ٤٨] -

١٧١ اشاره

١٧٥ بيان:

١٩٢ [سوره طه (٢٠): الآيات ٤٩ الى ٧٩]

١٩٢ اشاره

١٩٤ بيان:

٢٠٧ [سوره طه (٢٠): الآيات ٨٠ الى ٩٨]

٢٠٧ اشاره

٢٠٩ بيان:

٢١٩ [سوره طه (٢٠): الآيات ٩٩ الى ١١٤]

٢١٩ اشاره

٢٢٠ بيان:

٢٢٧ [سوره طه (٢٠): الآيات ١١٥ الى ١٢٦]

٢٢٧ اشاره

٢٢٨ بيان:

٢٣٦ [سوره طه (٢٠): الآيات ١٢٧ الى ١٣٥]

٢٣٦ اشاره

٢٣٧ بيان:

٢٤٣ سوره الأنبياء مكيه و هي مائه و اثنتا عشره آيه

٢٤٣ اشاره

٢٤٣ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١ الى ١٥]

٢٤٣ اشاره

٢٤٤ بيان:

٢٥٢ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١٦ الى ٣٣]

٢٥٢ اشاره

٢٥٤ بيان:

٢٦٨ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٣٤ الى ٤٧]

٢٦٨ اشاره

٢٦٩ بيان:

٢٧٧ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٤٨ الى ٧٧]

٢٧٧ اشاره

٢٧٩ بيان:

٢٨٩ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٧٨ الى ٩١]

٢٨٩ اشاره

٢٩٢ بيان:

٢٩٩ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٩٢ الى ١١٢]

٢٩٩ اشاره

٣٠٢ بيان:

٣١٣ سورة الحج مدنيه و هي ثمان و سبعون آيه

٣١٣ اشاره

٣١٣ [سوره الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٢]

٣١٣ اشاره

٣١٣ بيان:

٣١٥ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٣ الى ١٦]

٣١٥ اشاره

٣١٧ بيان:

٣٢٧ [سوره الحج (٢٢): الآيات ١٧ الى ٢٤]

٣٢٧ اشاره

٣٢٨ بيان:

٣٣٣ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٢٥ الى ٣٧]

٣٣٣ اشاره

٣٣٥ بيان:

٣٤٥ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٣٨ الى ٥٧]

٣٤٥ اشاره

٣٤٧ بيان:

٣٥٩ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٥٨ الى ٦٦]

٣٥٩ اشاره

٣٦٠ بيان:

٣٦٤ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٦٧ الى ٧٨]

٣٦٤ اشاره

٣٦٧ بيان:

٣٧٧ سوره المؤمنون مكيه و هي مائه و ثمانى عشره آيه

٣٧٧ اشاره

٣٧٧ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١ الى ١١]

٣٧٧ اشاره

٣٧٨ بيان:

٣٨٤ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١٢ الى ٢٢]

٣٨٤ اشاره

٣٨٥ بيان:

٣٨٩ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٣ الى ٥٤]

٣٨٩ اشاره

٣٩٣ بيان:

٤٠١ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٥ الى ٧٧]

٤٠١ اشاره

٤٠٣ بيان:

٤١٣ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٨ الى ٩٨]

٤١٣ اشاره

٤١٥ بيان:

٤٢٥ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٩ الى ١١٨]

٤٢٥ اشاره

٤٢٧ بيان:

سوره النور مدنيه و هي أربع و ستون آيه ----- ٤٣٥

اشاره ----- ٤٣٥

[سوره النور (٢٤): الآيات ١ الى ١٠] ----- ٤٣٥

اشاره ----- ٤٣٥

بيان: ----- ٤٣٦

[سوره النور (٢٤): الآيات ١١ الى ٢٦] ----- ٤٤١

اشاره ----- ٤٤١

بيان: ----- ٤٤٣

[سوره النور (٢٤): الآيات ٢٧ الى ٣٤] ----- ٤٥٠

اشاره ----- ٤٥٠

بيان: ----- ٤٥٢

[سوره النور (٢٤): الآيات ٣٥ الى ٤٦] ----- ٤٥٧

اشاره ----- ٤٥٧

بيان: ----- ٤٥٩

[سوره النور (٢٤): الآيات ٤٧ الى ٥٧] ----- ٤٧٨

اشاره ----- ٤٧٨

بيان: ----- ٤٧٩

[سوره النور (٢٤): الآيات ٥٨ الى ٦٤] ----- ٤٨٩

اشاره ----- ٤٨٩

بيان: ----- ٤٩٠

سوره الفرقان مكيه و هي سبع و سبعون آيه ----- ٤٩٧

اشاره ----- ٤٩٧

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ١ الى ٣] ----- ٤٩٧

اشاره ----- ٤٩٧

بيان: ----- ٤٩٧

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤ الى ٢٠] ----- ٥٠٢

٥٠٢ اشاره

٥٠٤ بيان:

٥١٤ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٢١ الى ٣١]

٥١٤ اشاره

٥١٧ بيان:

٥٢٥ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٣٢ الى ٤٠]

٥٢٥ اشاره

٥٢٥ بيان:

٥٣١ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤١ الى ٤٢]

٥٣١ اشاره

٥٣٣ بيان:

٥٤٤ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤٣ الى ٧٧]

٥٤٤ اشاره

٥٤٧ بيان:

٥٥٥ سوره الشعراء مكيه و هي مائتان و سبع و عشرون آيه

٥٥٥ اشاره

٥٥٥ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١ الى ٩]

٥٥٥ اشاره

٥٥٤ بيان:

٥٥٩ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٠ الى ٤٨]

٥٥٩ اشاره

٥٤٣ بيان:

٥٨٠ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٤٩ الى ١٠٤]

٥٨٠ اشاره

٥٨٢ بيان:

٥٩٢ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٠٥ الى ١٢٢]

٥٩٢ اشاره

٥٩٣ بيان:

٥٩٧ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٢٣ الى ١٤٠]

٥٩٧ اشاره

٥٩٨ بيان:

٦٠١ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٤١ الى ١٥٩]

٦٠١ اشاره

٦٠٢ بيان:

٦٠٤ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٦٠ الى ١٧٥]

٦٠٤ اشاره

٦٠٥ بيان:

٦٠٨ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٧٦ الى ١٩١]

٦٠٨ اشاره

٦٠٩ بيان:

٦١١ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٩٢ الى ٢٢٧]

٦١١ اشاره

٦١٣ بيان:

٦٢٤ سوره النمل مكيه و هي ثلاث و تسعون آيه

٦٢٤ اشاره

٦٢٤ [سوره النمل (٢٧): الآيات ١ الى ٦]

٦٢٤ اشاره

٦٢٤ بيان:

٦٢٨ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٧ الى ١٤]

٦٢٨ اشاره

٦٢٩ بيان:

٦٣٣ [سوره النمل (٢٧): الآيات ١٥ الى ٤٤]

٦٢٣ اشاره

٦٢٤ بيان:

٦٥٢ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٤٥ الى ٥٣]

٦٥٢ اشاره

٦٥٣ بيان:

٦٥٥ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٤ الى ٥٨]

٦٥٥ اشاره

٦٥٦ بيان:

٦٥٧ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٩ الى ٨١]

٦٥٧ اشاره

٦٥٩ بيان:

٦٦٨ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٨٢ الى ٩٣]

٦٦٨ اشاره

٦٦٩ بيان:

٦٨٠ سوره القصص مكيه و هي ثمان و ثمانون آيه

٦٨٠ اشاره

٦٨٠ [سوره القصص (٢٨): الآيات ١ الى ١٤]

٦٨٠ اشاره

٦٨١ بيان:

٦٨٩ [سوره القصص (٢٨): الآيات ١٥ الى ٢١]

٦٨٩ اشاره

٦٩٠ بيان:

٦٩٦ [سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٢ الى ٢٨]

٦٩٦ اشاره

٦٩٧ بيان:

٧٠١ [سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٩ الى ٤٢]

٧٠١ اشاره

٧٠٢ بيان:

٧١١ [سوره القصص (٢٨): الآيات ٤٣ الى ٥٦]

٧١١ اشاره

٧١٢ بيان:

٧١٩ [سوره القصص (٢٨): الآيات ٥٧ الى ٧٥]

٧١٩ اشاره

٧٢٢ بيان:

٧٣٤ [سوره القصص (٢٨): الآيات ٧٦ الى ٨٤]

٧٣٤ اشاره

٧٣٥ بيان:

٧٤٢ [سوره القصص (٢٨): الآيات ٨٥ الى ٨٨]

٧٤٢ اشاره

٧٤٣ بيان:

٧٥١ سوره العنكبوت مكيه و هي تسع و ستون آيه

٧٥١ اشاره

٧٥١ [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ١ الى ١٣]

٧٥١ اشاره

٧٥٢ بيان:

٧٦٢ [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ١٤ الى ٤٠]

٧٦٢ اشاره

٧٦٦ بيان:

٧٨١ [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٤١ الى ٥٥]

٧٨١ اشاره

٧٨٢ بيان:

٧٩٤ [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

٧٩٤ اشاره

٧٩٤ بيان:

٧٩٧ [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٤١ الى ٤٩]

٧٩٧ اشاره

٧٩٨ بيان:

٨٠٣ تعريف مركز

سرشناسه: طباطبائی، محمدحسین، ۱۳۶۰ - ۱۲۴۱

عنوان قراردادی: [الميزان في تفسير القرآن. برگزیده]

عنوان و نام پدیدآور: مختصر الميزان في تفسير القرآن / [محمدحسین الطباطبائی]؛ تالیف الیاس کلانتری

مشخصات نشر: تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات اسوه، ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۶

شابک: ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۲-۱۵۰۰۰Xریال: (دوره)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۳-۰۸ (ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۴-۰۶ (ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۵-۰۵-۰۴ (ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۶-۰۲ (ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۷-۰۰ (ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۸-۰۹ (ج.۶)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: عربی

عنوان دیگر: الميزان في تفسير القرآن. برگزیده

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ - ، خلاصه کننده

شناسه افزوده: سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات اسوه

رده بندی کنگره: BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۵۸۷۹

ص: ۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤)
مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا
(٨)

السوره تتضمن الدعوه الى الاعتقاد الحق و العمل الصالح بالإنذار و التبشير كما يلوح اليه ما افتتحت به من الآيتين و ما اختتمت به من قوله تعالى: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**.

و فيها مع ذلك عناية بالغه بنفى الولد كما يدل على ذلك تخصيص إنذار القائلين بالولد بالذكر ثانيا بعد ذكر مطلق الإنذار أولا أعنى وقوع قوله: **«وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا»** بعد قوله: **«لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ»**.

فوجه الكلام فيها الى الوثنيين القائلين بنوه الملائكه و الجن و المصلحين من البشر و النصرى القائلين بنوه المسيح عليه السلام و لعل اليهود يشاركونهم فيه حيث يذكر القرآن عنهم أنهم قالوا: عزير ابن الله.

و غير بعيد أن يقال إن الغرض من نزول السوره ذكر القصص الثلاث العجيبه التى لم تذكر فى القرآن الكريم إلا فى هذه السوره و هى قصه أصحاب الكهف و قصه موسى و فتاه فى مسيرهما الى مجمع البحرين و قصه ذى القرنين ثم استفيد منها ما استفرد فى السوره من الكلام فى نفي الشريك و الحث على تقوى الله سبحانه.

و السوره مكيه على ما يستفاد من سياق آياتها و قد استثنى منها قوله: **«وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ»** الآية؛ و سيجىء ما فيه من الكلام.

قوله تعالى: **الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا الْعِوَجَ بفتح العين و كسرهما الانحراف، قال فى المجمع: العوج بالفتح فيما يرى**

كالقناه و الخشبه و بالكسر فيما لا يرى شخصا قائما كالدين و الكلام.انتهى.

و لعل المراد بما يرى و ما لا- يرى ما يسهل رؤيته و ما يشكل كما ذكره الراغب فى المفردات بقوله:العوج-بالفتح-يقال فيما يدرك بالبصر سهلا كالخشب المنتصب و نحوه و العوج -بالكسر-يقال فيما يدرك بالفكر و البصيره كما يكون فى أرض بسيط يعرف تفاوته بالبصيره و كالدين و المعاش انتهى.فلا يرد عليه ما فى قوله تعالى: **لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا** -بكسر العين- **وَلَا أَمْتًا** (طه/١٠٧) فافهم.

و قوله: **وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا** الضمير للكتاب و الجملة حال عن الكتاب و قوله:

«قِيمًا» حال بعد حال على ما يفيد السباق فإنه تعالى فى مقام حمد نفسه من جهة تنزيهه كتابا موصوفا بأنه لا عوج له و أنه قيم على مصالح المجتمع البشرى فالعنايه متعلقه بالوصفين موزعه بينهما على السواء و هو مفاد كونهما حالين من الكتاب.

و وقوع «عِوَجًا» و هو نكره فى سياق النفي يفيد العموم فالقرآن مستقيم فى جميع جهاته فصيح فى لفظه،بلغ فى معناه،مصيب فى هدايته،حى فى حججه و براهينه،ناصح فى أمره و نهيه،صادق فيما يقصه من قصصه و أخباره،اصل فيما يقضى به،محفوظ من مخالطة الشياطين،لا اختلاف فيه،و لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

و القيم هو الذى يقوم بمصلحه الشىء و تدبير أمره كقيم الدار و هو القائم بمصالحها و يرجع اليه فى امورها،و الكتاب إنما يكون قيما بما يشتمل عليه من المعانى،و الذى يتضمنه القرآن هو الاعتقاد الحق و العمل الصالح كما قال تعالى: **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ** **وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** (الأحقاف/٣٠)،و هذا هو الدين و قد وصف تعالى دينه فى مواضع من كتابه بأنه قيم قال:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ (الروم/٤٣)و على هذا فتوصيف الكتاب بالقيم لما يتضمنه من الدين القيم على مصالح العالم الإنسانى فى دنياهم و اخراهم.

قوله تعالى: **لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ**

الصَّالِحَاتِ الْآيَةِ؛ أى لينذر الكافرين عذاباً شديداً صادراً من عند الله كذا قيل و الظاهر بقريته تقييد المؤمنين المبشرين بقوله: «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ» أن التقدير لينذر الذين لا يعملون الصالحات أعم ممن لا يؤمن أصلاً أو يؤمن و يفسق فى عمله.

و الجملة على أى حال بيان لتزيله الكتاب على عبده مستقيماً قيماً إذ لو لا استقامته فى نفسه و قيمومته على غيره لم يستقيم إنذار و لا تبشير و هو ظاهر.

و المراد بالأجر الحسن الجنة بقريته قوله فى الآية التالية: «مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» و هم عامه الوثنيين القائلين بأن الملائكة أبناء أو بنات له و ربما قالوا بذلك فى الجن و المصلحين من البشر و النصرارى القائلين بأن المسيح ابن الله و قد نسب القرآن إلى اليهود أنهم قالوا: عزير ابن الله.

و ذكر إنذارهم خاصة ثانياً بعد ذكره على وجه العموم أولاً بقوله: «لَيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ» لمزيد الاهتمام بشأنهم.

قوله تعالى: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ كَانَتْ عَامَتُهُمْ يَرِيدُونَ بِقَوْلِهِمْ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا حَقِيقَةَ التَّوْلِيدِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: أُنَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ (الأنعام ١٠١)».

و قد رد سبحانه قولهم عليهم أولاً بأنه قول منهم جهلاً بغير علم و ثانياً بقوله فى آخر الآية: «إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا».

و كان قوله: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ» شاملاً لهم جميعاً من آباء و أبناء لكنهم لما كانوا يحيلون العلم به الى آباءهم قائلين إن هذه مله آباءنا و هم أعلم منا و ليس لنا إلا- أن نتبعهم و نفتدى بهم فرق تعالى بينهم و بين آباءهم فنفى العلم عنهم أولاً- و عن آباءهم الذين كانوا يركنون اليهم ثانياً ليكون إبطالاً لقولهم و لحجتهم جميعاً.

و قوله: «كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ» ذم لهم و إعظام لقولهم: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا لما فيه من

عظيم الاجتراء على الله سبحانه بنسبه الشريك و التجسم و التركب و الحاجه الى المعين و الخليفه اليه، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ هَذَا الْخَبِيثِ اسِفًا البخوع و البعج القتل و الإهلاك و الآثار علامت أقدام الماره على الأرض، و الأسف شده الحزن و المراد بهذا الحديث القرآن.

و الآيه و اللتان بعدها فى مقام تعزیه النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و تسليته و تطيب نفسه و الفاء لتفريع الكلام على كفرهم و جحدهم بآيات الله المفهوم من الآيات السابقه و المعنى يرجى منك أن تهلك نفسك بعد إعراضهم عن القرآن و انصرافهم عنك من شده الحزن، و قد دل على إعراضهم و توليهم بقوله: على آثارهم و هو من الاستعاره.

قوله تعالى: إِذَا جَعَلْنَا مَاءً عَلَى الْمَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. الى آخر الآيتين. الزينه الأمر الجميل الذى ينضم الى الشىء فيفيده جمالا يرغب اليه لأجله و الصعيد ظهر الأرض و الجزر على ما فى المجمع-الأرض التى لا تنبت كأنها تأكل النبات أكلا.

و قوله: مَاءً عَلَيْهِمْ من قبيل وضع الظاهر موضع المضمرة و كان من طبع الكلام أن يقال: «و إنا لجاعلوه، و لعل النكته مزيد العنايه بوصف كونه على الأرض.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٩ الى ٢٦]

اشاره

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحَزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَ إِذِ اعْتَرَّتْهُمُ الْمَوْتُ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦) وَ تَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّصُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَ تَحْسَبُهُمْ آيَاطًا وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشَّمَالِ وَ كَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَ كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لِيَتَلَطَّفْ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (٢٠) وَ كَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَ لَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَ لَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ

ذَلِكَ غَدَاً (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ أذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ
ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ اِزْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ أَضِلَّ بِحَبَابِ الْكُهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا الحسبان هو الظن، والكهف هو المغارة فى الجبل إلا أنه أوسع منها فإذا صغر سمي غارا، والرقيم من الرقم و هو الكتابه و الخط فهو فى الأصل فعيل بمعنى المفعول كالجريح و القتل بمعنى المجروح و المقتول، و العجب مصدر بمعنى التعجب اريد به معنى الوصف مبالغه.

و ظاهر سياق القصة أن أصحاب الكهف و الرقيم جماعه بأعينهم و القصة قصتهم جميعا فهم المسمون أصحاب الكهف و أصحاب الرقيم أما تسميتهم أصحاب الكهف فلدخولهم الكهف و وقوع ما جرى عليهم فيه.

و أما تسميتهم أصحاب الرقيم فقد قيل: إن قصتهم كانت منقوشه فى لوح منصوب هناك أو محفوظ فى خزانة الملوك فبذلك سموا أصحاب الرقيم، و قيل: إن الرقيم اسم الجبل الذى فيه الكهف، أو الوادى الذى فيه الجبل أو البلد الذى خرجوا منه الى الكهف أو الكلب الذى كان معهم أقوال خمس، و سيأتى فى الكلام على قصتهم ما يؤيد القول الأول.

قوله تعالى: إِذْ أَوْىُّ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكُهْفِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الأوى الرجوع و لا كل رجوع بل رجوع الإنسان أو الحيوان الى محل يستقر فيه أو ليستقر فيه و الفتية جمع سماعى لفتى و الفتى الشاب و لا تخلو الكلمه من شائبه مدح.

و التهيئه الإعداد قال البيضاوى: و أصل التهيئه إحداث هينه الشىء. انتهى و الرشد بفتح تين أو الضم فالسكون الاهتداء الى المطلوب، قال الراغب: الرشد و الرشد خلاف الغى يستعمل استعمال الهدايه. انتهى.

و قوله: فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً تفرغ لدعائهم على أويهم كأنهم

اضطروا لفقد القوه و انقطاع الحيله الى المبادره الى المسأله، و يؤيده قولهم: «مِنْ لَدُنْكَ» فلولا أن المذاهب أعتهم و الاسباب تقطعت بهم و اليأس أحاط بهم ما قيدوا الرحمه المسئوله أن تكون من لدنه تعالى بل قالوا: آتانا رحمه كقول غيرهم رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً (البقره ٢٠١) رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ (آل عمران ١٩٤) فالمراد بالرحمه المسئوله التأييد الإلهي إذ لا مؤيد غيره.

و يمكن أن يكون المراد بالرحمه المسئوله من لدنه بعض المواهب و النعم المختصه به تعالى كالهدايه التي يصرح في مواضع من كلامه بأنها منه خاصه، و يشعر به التقييد بقوله:

«مِنْ لَدُنْكَ»، و يؤيده ورود نظيره في دعاء الراسخين في العلم المنقول في قوله: رَبَّنَا لَا تَزُغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً (آل عمران ٨) فما سألوا إلا الهدايه.

و قوله: وَ هَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا المراد من أمرهم الشأن الذي يخصهم و هم عليه و قد هربوا من قوم يتتبعون المؤمنين و يسفكون دماءهم و يكرهونهم على عباده غير الله، و التجئوا الى كهف و هم لا يدرون ما ذا سيجرى عليهم؟ و لا يهتدون أى سبيل للنجاه يسلكون؟ و من هنا يظهر أن المراد بالرشد الاهتداء الى ما فيه نجاتهم.

فالجمله أعنى قوله: «وَ هَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» على أول الاحتمالين السابقين في معنى الرحمه عطف تفسير على قوله: «آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» و على ثانيهما مسأله بعد مسأله.

قوله تعالى: فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا قال في الكشاف:

أى ضربنا عليها حجابا من أن تسمع يعنى أنمناهم إنامه ثقيله لا تنبهم فيها الاصوات كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع و لا يستنبه فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال: بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبه. انتهى.

و قال في المجمع: و معنى ضربنا على آذانهم سلطنا عليهم النوم، و هو من الكلام البالغ في

الفصاحه يقال:ضربه الله بالفالج إذا ابتلاه الله به،قال قطرب:هو كقول العرب:ضرب الأمير على يد فلان إذا منعه من التصرف،قال الأسود بن يعفر و قد كان ضريرا:

و من الحوادث لا أبا لك أننى

ضربت على الارض بالأسداد

وقال:هذا من فصيح لغات القرآن التى لا- يمكن أن يترجم بمعنى يوافق اللفظ انتهى،و ما ذكره من المعنى أبلغ مما ذكره الزمخشري.

و هنا معنى ثالث و إن لم يذكره:و هو أن يكون إشاره الى ما تصنعه النساء عند إنامه الصبى غالبا من الضرب على اذنه بدق الاكف او الانامل عليها دقا نعيما لتتجمع حاسته عليه فيأخذه النوم بذلك فالجمله كناية عن إنامتهم سنين معدوده بشفقه و حنان كما تفعل الام المرضع بطفلها الرضيع.

و قوله: «سِنِينَ عِدَادًا» ظرف للضرب،و العدد مصدر كالعِد بمعنى المعدود فالمعنى سنين معدوده،وقيل بحذف المضاف و التقدير ذوات عدد.

و قد قال فى الكشاف:إن توصيف السنين بالعدد يحتمل أن يراد به التكثير أو التقليل لأن الكثير قليل عنده كقوله:لم يلبثوا إلا ساعه من نهار،و قال الزجاج:ان الشيء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعد و إذا كثر احتاج الى أن يعد.انتهى ملخصا.

و ربما كانت العناية فى التوصيف بالعدد هى أن الشيء إذا بلغ فى الكثرة عسر عدده فلم يعد عادة و كان التوصيف بالعدد أماره كونه قليلا يقبل العد بسهولة،قال تعالى: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ (يوسف ٢٠/اى قليله).

و كون الغرض من التوصيف بالعدد هو التقليل هو الملائم للسياق على ما مر فإن الكلام مسرود لنفى كون قصتهم عجبا و إنما يناسبه تقليل سنى لبثهم لا تكثيرها و معنى الآية ظاهر و قد دل فيها على كونهم نائمين فى الكهف طول المده لا ميتين.

قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا المراد

بالبعث هو الايقاظ دون الاحياء بقرينه الآيه السابقه، قال الراغب: الحزب جماعه فيها غلظ.

انتهى.

وقال: الأمد و الأبد يتقاربان لكن الأبد عباره عن مده الزمان التى ليس لها حد محدود و لا يتقيد لا يقال: أمد كذا، و الأمد مده لها حد مجهول إذا اطلق، و قد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا كما يقال: زمان كذا. و الفرق بين الأمد و الزمان أن الأمد يقال باعتبار الغايه و الزمان عام فى المبدأ و الغايه، و لذلك قال بعضهم: المدى و الأمد يتقاربان. انتهى.

و المراد بالعلم العلم الفعلى و هو ظهور الشىء و حضوره بوجوده الخاص عند الله، و قد كثر ورود العلم بهذا المعنى فى القرآن كقوله: لِيُعَلِّمَ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ (الحديد ٢٥)، و قوله: لِيُعَلِّمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ (الجن ٢٨) و اليه يرجع قول بعضهم فى تفسيره: أن المعنى ليظهر معلوما على ما علمناه.

و قوله: «لِيُعَلِّمَ أَيُّ الْحَزْبَيْنِ أَحْصَى» الخ؛ تعليل للبعث و اللام للغايه و المراد بالحزبين الطائفتان من أصحاب الكهف حين سأل بعضهم بعضا بعد البعث: قاتلا كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم على ما يفيداه قوله تعالى فى الآيات التاليه:

«وَ كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ» الخ.

و قوله: أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمِدًا فَعَلَ ماض من الإحصاء، و «أَمِدًا» مفعوله و الظاهر أن «لِمَا لَبِثُوا» قيد لقوله: «أَمِدًا» و ما مصدرية أى أَيُّ الْحَزْبَيْنِ عد أمد لبثهم و قيل:

أحصى اسم تفضيل من الاحصاء بحذف الزوائد كقولهم: هو أحصى للمال و أفلس من ابن المذلق (١) و أمدنا منصوب بفعل يدل عليه «أَحْصَى» و لا يخلو من تكلف، و قيل غير ذلك.

و معنى الآيات الثلاث أعنى قوله: «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ» الى قوله: «أَمِدًا» إذ رجع الشبان الى

ص: ١٧

الكهف فسألوا عند ذلك ربهم قائلين: ربنا هب لنا من لدنك ما ننجو به مما يهددنا بالتخيير بين عباده غيرك و بين القتل و أعد لنا من أمرنا هدى نهتدى به الى النجاه فأنمناهم فى الكهف سنين معدوده ثم أيقظناهم ليتبين أى الحزبين عد أمدا للبثهم.

قوله تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ شروع فى ذكر ما يهم من خصوصيات قصتهم تفصيلا، و قوله: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ» أى آمنوا إيمانا مرضيا لربهم و لو لا ذلك لم ينسبه اليهم قطعا.

و قوله: «وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى» الهدى بعد أصل الإيمان ملازم لارتقاء درجه الإيمان الذى فيه اهتداء الإنسان الى كل ما ينتهى الى رضوان الله قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (الحديد ٢٨).

قوله تعالى: وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الثلاث؛ الربط هو الشد، و الربط على القلوب كناية عن سلب القلق و الاضطراب عنها، و الشطط الخروج عن الحد و التجاوز عن الحق، و السلطان الحجج و البرهان.

و قوله: لَنْ نَدْعُوًا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا بعد قوله: «رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» - هو جحد و إنكار فيه إشعار و تلويح الى أنه كان هناك تكليف إجبارى بعباده الأوثان و دعاء غير الله.

و قوله: إِذْ قَامُوا فَقَالُوا الخ؛ يشير الى أنهم فى بادئ قولهم كانوا فى مجلس يصدر عنه الأمر بعباده الأوثان و الإجبار عليها و النهى عن عباده الله و السياسه المنتحليه بالقتل و العذاب كمجلس الملك أو ملاءه أو ملاء- عام كذلك فقاموا و أعلنوا مخالفتهم و خرجوا و اعتزلوا القوم و هم فى خطر عظيم يهددهم و يهجم عليهم من كل جانب كما يدل عليه قولهم: وَ إِذْ اغْتَرَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ .

و هذا يؤيد ما وردت به الروايه - و سيجىء الخبر - أن سته منهم كانوا من خواص الملك

يستشيرهم في اموره فقاموا من مجلسه و أعلنوا التوحيد و نفى الشريك عنه تعالى.

قوله تعالى: وَإِذِ اعْرَظْتُمْهُمُومًا وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الاعتزال و التعزل التنحي عن أمر، و النشر البسط، و المرفق بكسر الميم و فتح الفاء و بالعكس و بفتحهما المعامله بلطف.

هذا هو الشطر الثاني من محاورتهم جرت بينهم بعد خروجهم من بين الناس و اعتزالهم إياهم و ما يعبدون من دون الله و تنحيهم عن الجميع يشير به بعضهم عليهم أن يدخلوا الكهف و يتستروا فيه من أعداء الدين.

و قد تفرسوا بهدى الهى أنهم لو فعلوا ذلك عاملهم الله من لطفه و رحمته بما فيه نجاتهم من تحكم القوم و ظلمهم و الدليل على ذلك قولهم بالجزم: فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ الخ؛ و لم يقولوا: عسى أن ينشر أو لعل.

و وهذا اللذان تفرسوا بهما من نشر الرحمه و تهيئه المرفق هما اللذان سألوهما بعد دخول كهف إذ قالوا- كما حكى الله- رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .

و الاستثناء فى قوله: «وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» استثناء منقطع فإن الوثنيين لم يكونوا يعبدون الله مع سائر آلهتهم حتى يفيد الاستثناء إخراج بعض ما دخل أولا- فى المستثنى منه فىكون متصلا فقول بعضهم: إنهم كانوا يعبدون الله و يعبدون الأصنام كسائر المشركين. و كذا قول بعض آخر: يجوز إنه كان فيهم من يعبد الله مع عباده الأصنام فىكون الاستثناء متصلا فى غير محله، إذ لم يعهد من الوثنيين عباده الله سبحانه مع عباده الأصنام، و فلسفتهم لا تجيز ذلك، و قد أشرنا الى حجتهم فى ذلك آنفا.

قوله تعالى: وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ؛ التزاور هو التمايل مأخوذ من الزور بمعنى الميل و القرض القطع، و الفجوه المتسع من الأرض و ساحه الدار و المراد بذات اليمين

و ذات الشمال الجبهه التى تلى اليمين أو الشمال أو الجبهه ذات اسم اليمين أو الشمال و هما جهتا اليمين و الشمال.

و هاتان الآيتان تمثلان الكهف و مستقرهم منه و منظرهم و ما يتقلب عليهم من الحال أيام لبثهم فيه و هم رقود و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بما أنه سامع لا بما أنه هو، و هذا شائع فى الكلام، و الخطاب على هذا النمط يعم كل سامع من غير أن يختص بمخاطب خاص.

فقوله: «وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوِرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ» يصف موقع الكهف و موقعهم فيه و هم نائمون و أما إنامتهم فيه بعد الاوى اليه و مده لبثهم فيه فقد اكتفى فى ذلك بما أشير اليه فى الآيات السابقه من إنامتهم و لبثهم و ما سيأتى من قوله: «وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» الخ؛ إثارة للإيجاز.

و المعنى: و ترى أنت و كل راء يفرض اطلاعه عليهم و هم فى الكهف يرى الشمس إذا طلعت تتراور و تتمايل عن كهفهم جانب اليمين فيقع نورها عليه، و إذا غربت تقطع جانب الشمال فيقع شعاعها عليه و هم فى متسع من الكهف لا تناله الشمس.

و قوله: «وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَ هُمْ رُقُودٌ أَيْقَاظٌ جَمْعٌ يَقِظٌ وَ يَقِظَانٌ وَ الرُقُودُ جَمْعٌ رَاقِدٌ وَ هُوَ النَّائِمُ، وَ فِى الْكَلَامِ تَلْوِيحٌ إِلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مَفْتُوحَى الْأَعْيُنِ حَالِ نَوْمِهِمْ كَالْأَيْقَاظِ.»

و قوله: «وَ نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشَّمَالِ أَيْ وَ نُقَلِّبُهُمْ جِهَةَ الْيَمِينِ وَ جِهَةَ الشَّمَالِ، وَ الْمُرَادُ نُقَلِّبُهُمْ تَارَهُ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الشَّمَالِ وَ تَارَهُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْيَمِينِ لثَلَاثًا تَأْكُلُهُمُ الْأَرْضُ، وَ لَا تَبْلَى ثِيَابَهُمْ، وَ لَا تَبْطُلُ قَوَاهِمُ بَدَنِيهِ بِالرُّكُودِ وَ الْخُمُودِ طَوْلُ الْمَكْتِ.»

و قوله: «وَ كَلَّبَهُمْ بِأَسْطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ الْوَصِيدُ فَنَاءُ الْبَيْتِ وَ قِيلَ: عَتَبَهُ الدَّارُ وَ الْمَعْنَى كَانُوا عَلَى مَا وَصَفَ مِنَ الْحَالِ وَ الْحَالُ أَنَّ كَلْبَهُمْ مَفْتَرَشٌ بِذِرَاعِيهِ بِأَسْطٍ لِهَمَّا بَفَنَاءِ الْكَهْفِ وَ فِيهِ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا لَهُمْ كَلْبٌ يَلْزَمُهُمْ وَ كَانَ مَا كُنَّا مَعَهُمْ طَوْلُ مَكْتِهِمْ فِى الْكَهْفِ.»

و قوله: «لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمَلَيْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا بَيَانٌ»

أنهم و حالهم هذا الحال كان لهم منظر موحش هائل لو أشرف عليهم الإنسان فر منهم خوفا من خطرهم تبعدا من المكروه المتوقع من ناحيتهم و ملاء قلبه الروع و الفزع رعبا و سرى الى جميع الجوارح فملاً الجميع رعبا، و الكلام فى الخطاب الذى فى قوله: «لَوَلَّيْتِ» و قوله:

«وَلَمَلَيْتِ» كالكلام فى الخطاب الذى فى قوله: «وَتَرَى الشَّمْسَ» .

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ التَّسَاؤُلُ سؤَالُ بَعْضِ الْقَوْمِ بَعْضًا، و الورق بالفتح فالكسر: الدراهم، و قيل هو الفضة مضروبه كانت أو غيرها، و قوله: إن يظهروا عليكم أى إن يطلعوا عليكم أو إن يظفروا بكم.

و الإشارة بقوله: «وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ» الى إنامتهم بالصورة التى مثلتها الآيات السابقة أى كما أنماهم فى الكهف دهرا طويلا على هذا الوضع العجيب المدهش الذى كان آيه من آياتنا كذلك بعثناهم و أيقظناهم ليتساءلوا بينهم.

و قوله: «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السَّائِلَ عَنْ لَبِثِهِمْ كَانَ وَاحِدًا مِنْهُمْ خَاطِبُ الْبَاقِينَ و سألهم عن مدة لبثهم فى الكهف نائمين و كأن السائل استشعر طولا فى لبثهم مما وجده من لوته النوم الثقيل بعد التيقظ فقال: كم لبثتم؟

و قوله: «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» ترددوا فى جوابهم بين اليوم و بعض اليوم و كأنهم بنوا الجواب على ما شاهدوا من تغير محل وقوع الشمس كأن أخذوا فى النوم أوائل النهار و انتهوا فى أواسطه أو أواخره ثم شكوا فى مرور الليل عليهم فىكون مكثهم يوما و عدم مروره فىكون بعض يوم فأجابوا بالترديد بين يوم و بعض يوم و هو على أى حال جواب واحد.

و قوله تعالى: «قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ أَى قَالَ بَعْضُ آخِرِ مَنْهُمْ رَدَا عَلَى الْقَائِلِينَ: «لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ»: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ» و لو لم يكن ردا لقالوا ربنا أعلم بما لبثنا.

و بذلك يظهر أن إحواله العلم الى الله تعالى فى قولهم: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ» ليس لمجرد مراعاة

حسن الأدب كما قيل بل لبيان حقيقته من حقائق معارف التوحيد و هي أن العلم بحقيقته معنى الكلمه ليس إلا الله سبحانه فإن الإنسان محجوب عما وراء نفسه لا يملك بإذن الله إلا نفسه و لا يحيط إلا بها و إنما يحصل له من العلم بما هو خارج عن نفسه ما دلت عليه الأمارات الخارجيه و بمقدار ما ينكشف بها و أما الإحاطه بعين الأشياء و نفس الحوادث و هو العلم حقيقته فإنما هو لله سبحانه المحيط بكل شيء الشهد على كل شيء و الآيات الداله على هذه الحقيقه لا تحصى.

و الظاهر أن القائلين منهم: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ» غير القائلين: «لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» فإن السياق سياق المحاوره و المجاوبه كما قيل و لانزمه كون المتكلمين ثانيا غير المتكلمين أولا و لو كانوا هم الأولين بأعيانهم لكان من حق الكلام أن يقال: ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا بدل قوله: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ» الخ.

و من هنا يستفاد أن القوم كانوا سبعة أو أزيد إذ قد وقع في حكاية محاورتهم «قَالَ» مره و «قَالُوا» مرتين و أقل الجمع ثلاثه فقد كانوا لا يقل عددهم من سبعة.

و قوله تعالى: فَابْعَثُوا أَيْدِيَكُمْ بِرِزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ من تتمه المحاوره و فيه أمر أو عرض لهم أن يرسلوا رسولا منهم الى المدينه ليشتري لهم طعاما يتغذون به و الضمير في «أَيُّهَا» راجع الى المدينه و المراد بها أهلها من الكسبه استخداما.

و زكاء الطعام كونه طيبا و قيل: كونه حلالا و قيل: كونه طاهرا و وروده بصيغه أفعال التفضيل «أَزْكَى طَعَامًا» لا يخلو من إشعار بالمعنى الأول.

و الضمير في «مِنْهُ» للطعام المفهوم من الكلام و قيل: للأزكى طعاما و«من» للابتداء أو التبويض أى ليأتكم من ذلك الطعام الأزكى برزق ترتزون به، و قيل: الضمير للورق و«من» للبدايه و هو بعيد لإحواجه الى تقدير ضمير آخر يرجع الى الجملة السابقه و كونه

ضمير التذكير و قد اشير الى الورق بلفظ التانيث من قبل.

وقوله تعالى: **وَ لِيَتَلَطَّفَ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا** التلطف إعمال اللطف و الرفق و إظهاره فقوله: **«وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا»** عطف تفسيري له و المراد على ما يعطيه السياق:

ليتكلف اللطف مع أهل المدينة في ذهابه و مجيئه و معاملته لهم كيلا- يقع خصومه أو منازعه لتؤدي الى معرفتهم بحالكم و إشعارهم بكم، و قيل المعنى ليتكلف اللطف في المعاملة و إطلاق الكلام يدفعه.

وقوله تعالى: **إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذًا** أي إذا تعليل للأمر بالتلطف و بيان لمصلحته.

ظهر على الشيء بمعنى اطلع عليه و علم به و بمعنى ظفر به و قد فسرت الآية بكل من المعنيين و الكلمه على ما ذكره الرغب مأخوذه من الظهر بمعنى الجارحه مقابل البطن فكان هو الأصل ثم استعير للأرض فقيل: ظهر الأرض مقابل بطنها ثم اخذ منه الظهور بمعنى الانكشاف مقابل البطن للملازمه بين الكون على وجه الأرض و بين الرؤيه و الاطلاع و كذا بينه و بين الظفر و كذا بينه و بين الغلبه عاده فقيل: ظهر عليه أى اطلع عليه و علم بمكانه أو ظفر به أو غلبه ثم اتسعوا في الاشتقاق فقالوا: أظهر و ظاهر و تظاهر و استظهر الى غير ذلك.

و ظاهر السياق أن يكون «يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ» بمعنى يطلعوا عليكم و يعلموا بمكانكم فانه أجمع المعانى لأن القوم كانوا ذوى أيد و قوه و قد هربوا و استخفوا منهم فلو اطلعوا عليهم ظفروا بهم و غلبوهم على ما أرادوا.

وقوله: **يَرْجُمُوكُمْ** أى يقتلوكم بالحجاره و هو شر القتل و يتضمن معنى النفره و الطرد، و فى اختيار الرجم على غيره من أصناف القتل إشعار بأن أهل المدينة عامه كانوا يعادونهم لدينهم فلو ظهروا عليهم بادروا اليهم و تشاركوا فى قتلهم و القتل الذى هذا شأنه يكون بالرجم عاده.

وقوله: «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمُ الظاهر أن الإعادة مضمن معنى الإدخال و لذا عدى بفي دون الى.

و كان لازم دخولهم في ملتهم عادة و قد تجاهاوا برفضها و سموها شططا من القول و افتراء على الله بالكذب-أن لا يقنع القوم بمجرد اعترافهم بحقيه المله صوره دون أن يثقوا بصدقهم في الاعتراف و يراقبوهم في أعمالهم فيشاركوا الناس في عباده الأوثان و الإتيان بجميع الوظائف الدينيه التي لهم و الحرمان عن العمل بشيء من شرائع الدين الإلهي و التفوه بكلمه الحق.

و هذا كله لا بأس به على من اضطر على الإقامة في بلاد الكفر و الانحصار بين أهله كالأسير المستضعف بحكم العقل و النقل و قد قال تعالى: **إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** (النحل ١٠٦) و قال تعالى: **إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** (آل عمران ٢٨) فله أن يؤمن بقلبه و ينكره بلسانه و أما من كان بنجوه منهم و هو حر في اعتقاده و عمله ثم ألقى بنفسه في مهلكه الضلال و تسبب الى الانحصار في مجتمع الكفر فلم يستطع التفوه بكلمه الحق و حرم التلبس بالوظائف الدينيه الإنسانيه فقد حرم على نفسه السعاده و لن يفلح أبدا قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (النساء / ٩٧).

و بهذا يظهر وجه ترتب قول: «وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَيْدَاءٌ» على قوله: «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ» و يندفع ما قيل: إن إظهار الكفر بالاكراه مع إبطان الإيمان معفو عنه في جميع الأزمان فكيف رتب على العود في ملتهم عدم الفلاح أبدا مع أن الظاهر من حالهم الكره هذا فانهم لو عرضوا بأنفسهم عليهم أو دلوهم بوجه على مكانهم فأعادوهم في ملتهم و لو على كره كان ذلك منهم تسببا اختياريا الى ذلك و لم يعذروا البته.

وقوله تعالى: «بِوَرِقِكُمْ لِلَّهِ» على ما فيه من الإضافة والإشارة المعنيه لشخص الورق مشعر بعنايه خاصه بذكرها فإن سياق استدعاء أن يبعثوا أحدا لا شراء طعام لهم لا يستوجب بالطبع ذكر الورق التي يشتري بها الطعام والإشارة إليها بشخصها ولعلها إنما ذكرت في الآية مع خصوصيه الاشاره لأنها كانت هي السبب لظهور أمرهم و انكشاف حالهم لأنها حين أخرجها رسومها ليدفعها ثمنا للطعام كانت من مسكوكات عهد مرت عليها ثلاثه قرون و ليس في آيات القصه ما يشعر بسبب ظهور أمرهم و انكشاف حالهم إلا هذه اللفظه.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ قَالَ فِي الْمَفْرَدَات: عشر الرجل يعثر عثرا و عثورا إذا سقط و يتجوز به فيمن يطلع على أمر من غير طلبه قال تعالى: فإن عثر على أنهما استحقا إنما يقال: عثرت على كذا قال: «وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ» أي وقفناهم عليهم من غير أن طلبوا. انتهى.

وقوله: إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ ظرف لقوله: «أَعْتَرْنَا» أو لقوله: «لِيَعْلَمُوا» و التنازع التخاصم قبل: أصل التنازع التجاذب و يعبر به عن التخاصم و هو باعتبار اصل معناه يتعدى بنفسه، و باعتبار التخاصم بيتعدى بفي كقوله تعالى: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ انتهى.

و المراد بتنازع الناس بينهم أمرهم تنازعهم في أمر البعث و إنما اضيف اليهم إشعارا باهتمامهم و اعتنائهم بشأنه فهذه حال الآيه من جهه مفرداتها بشهاده بعضها على بعض.

و المعنى على ما مر: و كما أنماهم ثم بعثناهم لكذا و كذا أطلعنا الناس عليهم في زمان يتنازعون أي الناس بينهم في أمر البعث ليعلموا أن وعد الله بالبعث حق أن الساعه لا ريب فيها.

أو المعنى أعترنا عليهم ليعلم الناس مقارنا لزمان يتنازعون فيه بينهم في أمر البعث أن

وعد الله بالبعث حق.

و أما دلاله بعثهم عن النوم على أن البعث يوم القيامة حق فانما هو من جهه أن انتزاع أرواحهم عن أجسادهم ذاك الدهر الطويل و تعطيل شعورهم و ركود حواسهم عن أعمالها و سقوط آثار القوى البدنيه كالنشو و النماء و نبات الشعر و الظفر و تغير الشكل و ظهور الشيب و غير ذلك و سلامه ظاهر أبدانهم و ثيابهم عن الدثور و البلى ثم رجوعهم الى حالهم يوم دخلوا الكهف بعينها يماثل انتزاع الارواح عن الاجساد بالموت ثم رجوعها الى ما كانت عليها، و هما معا من خوارق العاده لا يدفعهما إلا الاستبعاد من غير دليل.

و قد حدث هذا الأمر فى زمان ظهر التنازع بين طائفتين من الناس موحد يرى مفارقه الارواح الاجساد عند الموت ثم رجوعها إليها فى البعث و مشرك (1) يرى مغايره الروح البدن و مفارقتها له عند الموت لكنه لا يرى البعث و ربما رأى التناسخ.

فحدوث مثل هذه الحادثه فى مثل تلك الحال لا يدع ريبا لاولئك الناس أنها آيه إلهيه قصد بها إزاله الشك عن قلوبهم فى أمر البعث بالدلاله بالمماثل على المماثل و رفع الاستبعاد بالوقوع.

و يقوى هذا الحدس منهم و يشتد بموتهم بعيد الانبعاث فلم يعيشوا بعده إلا سويغات لم تسع أزيد من اطلاع الناس على حالهم و اجتماعهم عليهم و استخبارهم عن قصتهم و إخبارهم بها.

و من هنا يظهر وجه آخر لقوله تعالى: «إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ» و هو رجوع الضميرين الأولين الى الناس و الثالث الى أصحاب الكهف و كون «إِذْ» ظرفا لقوله:

«لِيَعْلَمُوا» و يؤيده قوله بعده: «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» على ما سيجىء.

ص: ٢٦

١- ١). و هذا مذهب عامه الوثنيين فهم لا يرون بطلان الإنسان بالموت و انما يرون نفى البعث و اثبات التناسخ.

و الاعتراض على هذا الوجه أولاً: بأنه يستدعى كون التنازع بعد الإعتار و ليس كذلك، و ثانياً: بأن التنازع كان قبل العلم و ارتفع به فكيف يكون وقته و قته، مدفوع بأن التنازع على هذا الوجه فى الآيه هو تنازع الناس فى أمر أصحاب الكهف و قد كان بعد الإعتار و مقارنة للعلم زماناً، و الذى كان قبل الاعتار و قبل العلم هو تنازعهم فى أمر البعث و ليس بمراد على هذا الوجه.

و قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ الْقَائِلُونَ هُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْقَوْمِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ و المراد ببناء البنيان عليهم على ما قيل أن يضرب عليهم ما يجعلون به وراءه و يسترون عن الناس فلا يطلع عليهم مطلع منهم كما يقال: بنى عليه جداراً إذا حوطه و جعله وراءه.

و فى قوله: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ إشاره الى وقوع خلاف بين الناس المجتمعين عليهم أمرهم، فإنه كلام آيس من العلم بهم و استكشاف حقيقه أمرهم يلوح منه أن القوم لم تنازعوا فى شىء مما يرجع اليهم فتبصر فيه بعضهم و لم يسكن الآخرون الى شىء و لم يرتضوا رأى مخالفهم فقالوا: ابنا لهم بنيانا ربهم أعلم بهم.

فمعنى الجملة أعنى قوله: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ يتفاوت بالنظر الى الوجهين المتقدمين فى قوله:

﴿إِذِ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ إذ للجملة على أى حال نوع تفرع على تنازع بينهم كما عرفت آنفاً فإن كان التنازع المدلول عليه بقوله: ﴿إِذِ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ هو التنازع فى أمر البعث بالإقرار و الإنكار لكون ضمير «أَمْرَهُمْ» للناس كان المعنى انهم تنازعوا فى أمر البعث فأعثرناهم عليهم ليعلموا أن وعد الله حق و أن الساعة لا ريب فيها لكن المشركين لم ينتهوا بما ظهرت لهم من الآيه فقالوا: ابنا على أصحاب الكهف بنيانا و اتركوهم على حالهم ينقطع عنهم الناس فلم يظهر لنا من أمرهم شىء و لم نظفر فيهم على يقين ربهم أعلم بهم، و قال الموحدون: أمرهم ظاهر و آيتهم بينه و لتتخذن عليهم مسجداً يعبد فيه الله و يبقى ببقائه

ذكرهم.

و ان كان التنازع هو التنازع فى أصحاب الكهف و ضمير «أمرهم» راجعا اليهم كان المعنى أنا أعتزنا الناس عليهم بعد بعثهم عن نومتهم ليعلم الناس أن وعد الله حق و أن الساعه لا ريب فيها عند ما توفاهم الله بعد اعمار الناس عليهم و حصول الغرض و هم أى الناس يتنازعون بينهم فى أمرهم أى أمر أصحاب الكهف كأنهم اختلفوا: أ نيام القوم أم أموات؟ و هل من الواجب أن يدفنوا و يقبروا أو يتركوا على هيئتهم فى فجوه الكهف فقال المشركون:

ابنوا عليهم بنيانا و اتركوهم على حالهم ربهم أعلم بهم أ نيام أم أموات؟ قال الموحدون:

«لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» .

لكن السياق يؤيد المعنى الاول لأن ظاهره كون قول الموحدين: «لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» ردا منهم لقول المشركين: «ابنوا لهم بنيانا» الخ؛ و القولان من الطائفتين انما يتنافيان على المعنى الاول، و كذا قولهم: «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» و خاصه حيث قالوا: «رَبُّهُمْ» و لم يقولوا:

ربنا أنسب بالمعنى الاول.

و قوله: قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا هَؤُلَاءِ الْقَائِلُونَ هم الموحدون و من الشاهد عليه التعبير عما اتخذه بالمسجد دون المعبد فإن المسجد فى عرف القرآن هو المحل المتخذ لذكر الله و السجود له قال تعالى: وَ مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ (الحج ٤٠).

و قد جاء الكلام بالفصل من غير عطف لكونه بمنزله جواب عن سؤال مقدر كأن قائل يقول فما ذا قال غير المشركين؟ فقيل: قال الذين غلبوا، الخ؛ و أما المراد بغلبتهم على أمرهم فإن كان المراد بأمرهم هو الامر المذكور فى قوله: «إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ» و الضمير للناس فالمراد بالغلبه غلبه الموحدين بنجاحهم بالآيه التى قامت على حقيه البعث، و ان كان الضمير للفتيه فالغلبه من حيث التصدى لامرهم و الغالبون هم الموحدون و قيل: الملك

ص: ٢٨

و أعوانه، وقيل: أولياؤهم من أقاربهم و هو أسخف الاقوال.

و ان كان المراد بأمرهم غير الأمر السابق و الضمير للناس فالغلبه أخذ زمام امور المجتمع بالملك و ولايه الامور، و الغالبون هم الموحدون أو الملك و أعوانه و ان كان الضمير عائدا الى الموصول فالغالبون هم الولاء و المراد بغلبتهم على امورهم أنهم غالبون على ما أرادوه من الامور قادرون هذا، و أحسن الوجوه أولها.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ -الى قوله- وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ يذكر تعالى اختلاف الناس فى عدد اصحاب الكهف و اقوالهم فيه، و هى على ما ذكره تعالى -و قوله الحق- ثلاثة مترتبة متصاعده احدها انهم ثلاثة رابعهم كلبهم و الثانى انهم خمسة و سادسهم كلبهم و قد عقبه بقوله: «رَجْمًا بِالْغَيْبِ» اى قولاً بغير علم.

و هذا التوصيف راجع الى القولين جميعا: و لو اختص بالثانى فقط كان من حق الكلام أن يقدم القول الثانى و يؤخر الأول و يذكر مع الثالث الذى لم يذكر معه ما يدل على عدم ارتضاءه.

و القول الثالث أنهم سبعة و ثامنهم كلبهم، و قد ذكره الله سبحانه و لم يعقبه بشيء يدل على تزييفه، و لا يخلو ذلك من اشعار بأن القول الحق، و قد تقدم فى الكلام على محاورتهم المحكيه بقوله تعالى: «قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ» أنه مشعر بل دال على أن عددهم لم يكن بأقل من سبعة.

و من لطيف صنع الآيه فى عد الأقوال نظمها العدد من ثلاثة الى ثمانية نظما متواليا ففيها ثلاثة رابعها خمسة سادسها سبعة و ثامنها.

و أما قوله: «رَجْمًا بِالْغَيْبِ» تمييز يصف القولين بأنهما من القول بغير علم و الرجم هو الرمى بالحجاره و كأن المراد بالغيب الغائب و هو القول الذى معناه غائب عن العلم لا يدرى قائله أ هو صدق أم كذب؟ فشبه الذى يلقى كلاما ما هذا شأنه بمن يريد الرجم بالحجاره فيرمى ما

لا يدري أحجر هو يصيب غرضه أم لا؟ ولعله المراد بقول بعضهم: رجما بالغيب أى قذفا بالظن لأن المظنون غائب عن الظان لا علم له به.

وقد قال تعالى: «ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ» وقال: «خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ» فلم يأت بواو ثم قال: «سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ» فأتى بواو قال فى الكشاف: و ثلاثة خبر مبتدأ محذوف أى هم ثلاثة، و كذلك خمسة و سبعة، رابعهم كلبهم جملة من مبتدأ و خبر واقعه صفة لثلاثة، و كذلك سادسهم كلبهم و ثامنهم كلبهم.

قوله تعالى: قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ الى آخر الآيه؛ أمر للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم أن يقضى فى عدتهم حق القضاء و هو أن الله أعلم بها و قد لوح فى كلامه السابق الى القول و هذا نظير ما حكى عن الفتية فى محاورتهم و ارتضاء اذ قال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا:

لبثنا يوما أو بعض يوم. قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم.

و مع ذلك فى الكلام دلالة على أن بعض المخاطبين بخطاب النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم «رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ» الخ؛ كان على علم من ذلك فإن قوله: «مَا يَعْلَمُهُمْ» و لم يقل: لا يعلمهم يفيد نفى الحال فالاستثناء منه بقوله: «إِلَّا قَلِيلٌ» يفيد الإثبات فى الحال و اللائح منه على الذهن أنهم من أهل الكتاب.

و بالجمله مفاد الكلام أن الاقوال الثلاثة كانت محققة فى عهد النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و على هذا فقوله:

«سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ» الخ؛ المفيد للاستقبال، و كذا قوله: «و يَقُولُونَ خَمْسَةٌ» الخ؛ و قوله:

«و يَقُولُونَ سَبْعَةٌ» الخ؛ ان كانا معطوفين على مدخول السين فى «سَيَقُولُونَ» تفيد الاستقبال القريب بالنسبة الى زمن نزول الآيات أو زمن وقوع الحادثه فافهم ذلك.

و قوله تعالى: فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا قال الراغب: المريه التردد فى الامر و هو أخص من الشك، قال: و الامتراء و المماراه المحاجه فيما فيه مريه قال: و أصله من مريت الناقه اذا مسحت ضرعها للحلب. انتهى. فتسميه الجدل مماراه لما فيه من اصرار

الممارى بالبحث ليفرغ خصمه كل ما عنده من الكلام فينتهى عنه.

و المراد بكون المرء ظاهرا أن لا- يتعمق فيه بالاختصار على ما قصه القرآن من غير تجهيل لهم و لا- رد كما قيل، وقيل: المرء الظاهر ما يذهب بحجه الخصم يقال: ظهر اذا ذهب، قال الشاعر:

و تلك شكاه ظاهر عنك عارها

و المعنى: و اذا كان ربك أعلم و قد أنبأك نبأهم فلا- تحاجهم فى الفتيه الا- محاجه ظاهره غير متعمق فيها- أو محاجه ذاهبه لحجتهم- و لا تطلب الفتيا فى الفتيه من أحد منهم فربك حسبك.

قوله تعالى: **وَلَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ الْكَرِيمُ** سواء كان الخطاب فيها للنبي صلى الله عليه و آله و سلم خاصة أو له و لغيره متعرضه للأمر الذى يراه الانسان فعلا لنفسه و يخبر بوقوعه منه فى مستقبل الزمان.

و الذى يراه القرآن فى تعليمه الإلهى ان ما فى الوجود من شىء ذاتا كان او فعلا و اثرا فإنما هو مملوك لله و حده له ان يفعل فيه ما يشاء و يحكم فيه ما يريد لا- معقب لحكمه، و ليس لغيره ان يملك شيئا الا- ما ملكه الله تعالى منه و اقدره عليه و هو المالك لما ملكه و القدر على ما عليه اقدره و الآيات القرآنيه الداله على هذه الحقيقه كثيره جدا لا حاجه الى ايرادها.

فما فى الكون من شىء له فعل أو اثر- و هذه هى التى نسميها فواعل و اسبابا و عللا فعاله- غير مستقل فى سببته و لا مستغن عنه تعالى فى فعله و تأثيره لا يفعل و لا يؤثر الا ما شاء الله ان يفعله و يؤثره اى اقدره عليه و لم يسلب عنه القدره عليه باراده خلافه.

و بتعبير آخر كل سبب من الأسباب الكونيه ليس سببا من تلقاء نفسه و باقتضاء من ذاته بل باقداره تعالى على الفعل و التأثير و عدم ارادته خلافه، و إن شئت فقل: بتسهيله تعالى له سبيل الوصول اليه، و ان شئت فقل باذنه تعالى فالاذن هو الاقدار و رفع المانع و قد تكاثرت

الآيات الداله على ان كل عمل من كل عامل موقوف على اذنه تعالى قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنِهِ أَوْ تَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ (الحشر ٥)﴾ وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (التغابن ١١)﴾ وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِبِئَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف ٥٨)﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (آل عمران ١٤٥)﴾ وقال:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (يونس ١٠٠)﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِنُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (النساء ٦٤)﴾ الى غير ذلك من الآيات الكثيره.

فعلى الانسان العارف بمقام ربه المسلم له ان لا يرى نفسه سببا مستقلا لفعله مستغنيا فيه عن غيره بل مالكا له بتمليك الله قادرا عليه باقداره و أن القوه لله جميعا و اذا عزم على فعل ان يعزم متوكلا على الله قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ إِذَا وَعَدَ بِشَيْءٍ وَ أَخْبَرَ عَمَّا سَيَفْعَلُهُ أَنْ يَقِيدهُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَوْ بَعْدَ مَشِيئَتِهِ خَلَافَهُ.

و هذا المعنى هو الذى يسبق الى الذهن المسبوق بهذا الحقيقه القرآنيه اذا قرع بابه قوله تعالى: ﴿وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ خَاصَهُ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ فِي آيَاتِ الْقِصَّةِ مِنْ بَيَانِ تَوْحِيدِهِ تَعَالَى فِي الْوَهِيئَةِ وَ رَبُوبِيَّتِهِ وَ مَا تَقَدَّمَ قَبْلَ آيَاتِ الْقِصَّةِ مِنْ كَوْنِ مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا سَيَجْعَلُهُ اللَّهُ صَعِيدًا جَرزًا. وَ مِنْ جَمَلِهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ أفعال الانسان التى هى زِينَةٌ جَالِبَةٌ لِلانسان يَمْتَحِنُ بِهَا وَ هُوَ يَرَاهَا مَمْلُوكَةً لِنَفْسِهِ.

و ذلك ان قوله: ﴿وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ نهى عن نسبته فعله الى نفسه، و لا بأس بهذه النسبه قطعاً فانه سبحانه كثيرا ما ينسب فى كلامه الافعال الى نبيه و الى غيره من الناس و ربما يأمره ان ينسب افعالا الى نفسه قال تعالى: ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ (يونس ٤١)﴾، و قال: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (الشورى ١٥)﴾.

فأصل نسبه الفعل الى فاعله مما لا ينكره القرآن الكريم و إنما ينكر دعوى الاستقلال فى الفعل و الاستغناء عن مشيئته و اذنه تعالى فهو الذى يصلحه الاستثناء أعنى

و من هنا يظهر أن الكلام على تقدير باء الملابسه و هو استثناء مفرغ عن جميع الأحوال أو جميع الأزمان، و تقديره: و لا تقولن لشيء-أى لأجل شيء تعزم عليه-انى فاعل ذلك غدا فى حال من الأحوال أو زمان من الأزمنة الا فى حال او فى زمان يلابس قولك المشيه بأن تقول:

انى فاعل ذلك غدا ان شاء الله أن أفعله أو الا ان يشاء الله ان لا افعله، و المعنى على أى حال: ان أذن الله فى فعله.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا اتصال الآيه و اشتراكها مع ما قبلها فى سياق التكليف يقضى أن يكون المراد من النسيان نسيان الاستثناء، و عليه يكون المراد من ذكر ربه ذكره بمقامه الذى كان الالتفات اليه هو الموجب للاستثناء و هو أنه القائم على كل نفس بما كسبت الذى ملكه الفعل و أقدره عليه و هو المالك لما ملكه و القادر على ما عليه أقدره.

و المعنى: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت أنك نسيته فاذا ذكر ربك متى كان ذلك بما لو كنت ذاكرا لذكرته به و هو تسليم الملك و القدره اليه و تقييد الأفعال بإذنه و مشيته.

و إذ كان الأمر بالذكر مطلقا لم يتعين فى لفظ خاص فالمندوب اليه هو ذكره تعالى بشأنه الخاص سواء كان بلفظ الاستثناء بأن يلحقه بالكلام، إن ذكره و لما يتم الكلام أو يعيد الكلام و يستثنى أو يضمم الكلام ثم يستثنى إن كان فصل قصير أو طويل كما ورد فى بعض (1) الروايات أنه لما نزلت الآيات قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: ان شاء الله أو كان الذكر باستغفار و نحوه.

و قوله: وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا حديث الاتصال و الاشتراك فى سياق التكليف بين جمل الآيه يقضى هنا أيضا أن تكون الإشارة بقوله: «هذا»

الى الذكر بعد النسيان، والمعنى وارج أن يهديك ربك الى أمر هو أقرب رشدا من النسيان ثم الذكر و هو الذكر الدائم من غير نسيان فيكون من قبيل الآيات الداعية له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى دوام الذكر كقوله تعالى: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ** (الأعراف ٢٠٥/) و ذكر الشيء كما نسي ثم ذكر و التحفظ عليه كره بعد كره من أسباب دوام ذكره.

قوله تعالى: **وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ اَزْدَادُوا تِسْعًا** بيان لمدته لبثهم في الكهف على حال النوم فإن هذا اللبث هو متعلق العناية في آيات القصة و قد اشير الى إجمال مدته اللبث بقوله في أول الآيات: **«فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا»** .

و قوله: «سِنِينَ» ليس بمميز للعد و إلا لقليل: ثلاثمائة سنة بل هو بدل من ثلاثمائة كما قالوا، و في الكلام مضاهاه لقوله فيما أجمل في صدر الآيات: «سِنِينَ عَدَدًا» .

و لعل النكته في تبديل «سنة» من «سِنِينَ» استكثار مده اللبث، و على هذا فقوله:

«وَ اَزْدَادُوا تِسْعًا» لا يخلو من معنى الإضراب كأنه قيل: و لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة هذه السنين المتماديه و الدهر الطويل بل ازدادوا تسعا، و لا ينافي هذا ما تقدم في قوله: «سِنِينَ عَدَدًا» أن هذا الاستقلال عدد السنين و استحقاره لأن المقامين مختلفان بحسب الغرض فإن الغرض هناك كان متعلقا بنفى العجب من آيه الكهف بقياسها الى آيه جعل ما على الأرض زينه لها بالأنسب به استحقار المده، و الغرض هاهنا بيان كون اللبث آيه من آياته و حجه على منكرى البعث و الأنسب به استكثار المده، و المده بالنسبتين تحتل الوصفين فهي بالنسبه اليه تعالى شيء هين و بالنسبه اليها دهر طويل.

و إضافة تسع سنين الى ثلاثمائة سنة مده اللبث تعطى أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسيه فإن التفاوت في ثلاثمائة سنة إذا أخذت تاره شمسيه و اخرى قمرية بالغ هذا المقدار تقريبا و لا ينبغي الارتياب في أن المراد بالسنين في الآيه السنون القمرية لأن السنه في عرف

القرآن هي القمرية المؤلفه من الشهور الهلاليه و هي المعبره فى الشريعه الإسلاميه.

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ مَضَى فِي حَدِيثِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى خِلَافِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ وَ أَنَّ مَا قَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قِصَّتِهِمْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ.

فقوله: «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» مشعر بأن مده لبثهم المذكوره فى الآيه السابقه لم تكن مسلمه عند الناس فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يحتج فى ذلك بعلم الله و أنه أعلم بهم من غيره.

و قوله: لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تعليل لكونه تعالى أعلم بما لبثوا، واللام للاختصاص الملكى و المراد أنه تعالى وحده يملك ما فى السماوات و الارض من غيب غير مشهود فلا يفوته شىء و ان فات السماوات و الأرض، و إذ كان مالكا للغيب بحقيقه معنى الملك و له كمال البصر و السمع فهو أعلم بلبثهم الذى هو من الغيب.

و على هذا فقوله: «أَبْصِرْ بِهِ وَ أَصْمِعْ» - و هما من صيغ التعجب معناهما كمال بصره و سماعه - لتتميم التعليل كأنه قيل: و كيف لا يكون أعلم بلبثهم و هو يملكهم على كونهم من الغيب و قد رأى حالهم و سمع مقالهم.

و قوله: «مَّا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ الْخ»؛ المراد بالجملة الاولى منه نفى ولايه غير الله لهم مستقلا بالولاية و بالثانيه نفى ولايه غيره بمشاركته إياه فيها أى ليس لهم ولى غير الله لا مستقلا بالولاية و لا غير مستقل.

و الضمير فى قوله: «لَهُمْ» لاصحاب الكهف أو لجميع ما فى السماوات و الأرض المفهوم من الجملة السابقه بتغليب جانب اولى العقل أو لمن فى السماوات و الأرض و الوجوه الثلاثه مترتبه جوده و أجودها أولها.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٢٧ الى ٣١]

اشاره

وَ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أُمْرُهُ قُزْبًا (٢٨) وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَ سَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِذَا لَا نُضِيعَ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ فِيهَا أَثَابًا خَضْرَاءً مِنْ سُندُسٍ وَ اسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الْأَنْوَابُ وَ حَسَنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)

بيان:

قوله تعالى: **وَ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**؛ في المجمع: لحد اليه و التحد أي مال انتهى فالملتحد اسم مكان من الالتحاد بمعنى الميل و المراد بكتاب ربك القرآن أو اللوح

ص: ٣٦

المحفوظ، و كأن الثاني أنسب بقوله: «لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ» .

قوله تعالى: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب: الصبر الإمساك في ضيق يقال: صبرت الدابة حبستها بلا- علف، و صبرت فلانا خلفته خلفه لا- خروج له منها، و الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل و الشرف أو عما يقتضيان حبسها عنه. انتهى مورد الحاجة.

و وجه الشيء ما يواجهك و يستقبلك به، و الأصل في معناه الوجه بمعنى الجارح، و وجهه تعالى أسماؤه الحسنی و صفاته العليا التي بها يتوجه إليه المتوجهون و يدعوه الداعون و يعبده العابدون قال تعالى: وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (الأعراف ١٨٠)، و أما الذات المتعالیه فلا سبيل إليها، و إنما يقصده القاصدون و يريد المريدون لأنه إله رب على عظيم ذو رحمة و رضوان إلى غير ذلك من اسمائه و صفاته.

و المراد بدعائهم ربهم بالغداة و العشى الاستمرار على الدعاء و الجرى عليه دائما لأن الدوام يتحقق بتكرر غداة بعد عشى و عشى بعد غداة على الحس فالكلام جار على الكناية. و قيل:

المراد بدعاء الغداة و العشى صلاة طرفي النهار و قيل: الفرائض اليومية و هو كما ترى.

و قوله تعالى: وَ لَا تَعِدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا اصل معنى العدو كما صرح به الراغب التجاوز و هو المعنى السارى في جميع مشتقاته و موارد استعماله قال في القاموس: يقال: عدا الأمر و عنه جاوزه و تركه انتهى فمعنى «لَا تَعِدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ» لا تجاوزهم و لا تتركهم عيناك و الحال انك تريد زينة الحياة الدنيا.

و قوله تعالى: وَ لَا- تُطْعَمَ مَيْنَ أَغْفَلًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا المراد باغفال قلبه تسليط الغفلة عليه و إنسانه ذكر الله سبحانه على سبيل المجازاة حيث انهم عاندوا الحق فأضلهم الله باغفالهم عن ذكره فإن كلامه تعالى في قوم هذه حالهم نظير ما سيأتى في ذيل الآيات من قوله: «إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا

وقوله تعالى: وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْفُرْطُ التَّجَاوُزُ لِلْحَقِّ وَ الْخُرُوجُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: افْرَطَ إِفْرَاطًا إِذَا اسْرَفَ انْتَهَى، وَ اتَّبَعَ الْهَوَى وَ الْإِفْرَاطُ مِنْ آثَارِ غَفْلَةِ الْقَلْبِ، وَ لِذَلِكَ كَانَ عَطْفُ الْجَمَلَتَيْنِ عَلَى قَوْلِهِ: «أَغْفَلْنَا» بِمَنْزِلِهِ عَطْفُ التَّفْسِيرِ.

قوله تعالى: وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ عَطْفُ عَلَى مَا عَطْفُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَ اتُّلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ» وَ قَوْلُهُ: «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ» فَالسِّيَاقُ سِيَاقُ تَعْدَادِ وَظَائِفِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قِبَالَ كُفْرِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ وَ إِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ وَ الْمَعْنَى لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ وَ اتُّلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْفُقَرَاءِ، وَ قُلْ لِلْكَافِرِينَ: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَنْ يَكْفُرَ فَلْيَكْفُرْ فَلَيْسَ يَنْفَعُنَا إِيمَانُهُمْ وَ لَا يَضُرُّنَا كُفْرُهُمْ بَلْ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضَرَرٍ وَ ثَوَابٍ أَوْ تَبَعَةٍ عَذَابٍ عَائِدٍ إِلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ فَلْيَخْتَارُوا مَا شَاءُوا فَقَدْ اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ كَذَا وَ كَذَا وَ لِلصَّالِحِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ كَذَا.

قوله تعالى: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا إِلَى آخِرِ الْأَيَّهِ؛ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: السَّرَادِقُ الْفَسْطَاطُ الْمَحِيطُ بِمَا فِيهِ، وَ يُقَالُ: السَّرَادِقُ ثَوْبٌ يَدَارُ حَوْلَ الْفَسْطَاطِ، وَ قَالَ: الْمَهْلُ خِثَارُهُ الزَّيْتُ، وَ قِيلَ: هُوَ النَّحَاسُ الذَّائِبُ، وَ قَالَ: الْمَرْتَفِقُ الْمَتَكُّ مِنَ الْمَرْفِقِ يُقَالُ: ارْتَفَقَ إِذَا اتَّكَأَ عَلَى مَرْفِقِهِ انْتَهَى وَ الشَّيْءُ النَّضِجُ يُقَالُ: شَوَى يَشْوَى شَيْئًا إِذَا نَضَجَ.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِذَا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. بَيَانُ لِحِزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَ عَمَلِهِمْ الصَّالِحِ وَ إِنَّمَا قَالَ: «إِنَّا لَا نُضِيعُ» الْخ؛ وَ لَمْ يَقُلْ: وَ اعْتَدْنَا لَهُؤُلَاءِ كَذَا وَ كَذَا لِيَكُونَ دَالًا عَلَى الْعِنَايَةِ بِهِمْ وَ الشُّكْرِ لَهُمْ.

وَ قَوْلُهُ: «إِنَّا لَا نُضِيعُ» الْخ؛ فِي مَوْضِعِ خَبَرٍ، وَ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ وَضْعِ السَّبَبِ مَوْضِعِ الْمَسْبُوبِ وَ التَّقْدِيرُ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُوفِيهِمْ أَجْرَهُمْ فَإِنَّهُمْ مُحْسِنُونَ إِنَّا لَا

نضيع أجر من أحسن عملا.

و إذ عد في الآيه العقاب أثرا للظلم ثم عد الثواب في مقابله أجرا للايمان و العمل الصالح استفدنا منه أن لا ثواب للايمان
المجرد من صالح العمل بل ربما أشعرت الآيه بأنه من الظلم.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** إلى آخر الآيه؛ العدن هو الإقامة و جنات عدن جنات إقامه، و
الأساور قيل: جمع أسوره و هي جمع سوار بكسر السين و هي حليه المعصم، و ذكر الراغب أنه فارسي معرب و أصله دستواره، و
السندس ما رق من الدياتج، و الاستبرق ما غلظ منه، و الاراتك جمع أريكه و هي السرير، و معنى الآيه ظاهر.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٣٢ الى ٤٦]

اشاره

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَ
لَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَ كَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا (٣٤) وَ دَخَلَ
جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا
(٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هِيَ أَلَلَّهُ رَبِّي وَ لَا
أُشْرِكَ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَ لَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَ وَلَدًا (٣٩) فَعَسَى
رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا
(٤١) وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحُ يُقَلَّبُ عَلَيْهِ كَفَيْهِ عَلِيٌّ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَيَّ عُرُوشُهَا وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَ
لَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) وَ اضْرِبْ لَهُمْ
مَثَلِ الْحَيَاهِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيٌّ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا
(٤٥) الْمَالُ وَ النَّبُونُ زِينَةُ الْحَيَاهِ الدُّنْيَا وَ الْبَالِيغَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)

ص: ٣٩

ليتبين لهم أنهم لم يتعلقوا في ذلك إلا بسراب وهمى لا واقع له.

وقوله: جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْدَابٍ أَي من كروم فالثمره كثيرا ما يطلق على شجرتها وقوله: «وَحَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ» أَي جعلنا النخل محيطه بهما حافه من حولهما وقوله: «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا» أَي بين الجنين ووسطهما، وبذلك تواصلت العماره وتمت واجتمعت له الأوقات و الفواكه.

قوله تعالى: كَلْتِمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا الْآيَةَ؛ الأكل بضم التين المأكول، والمراد بإيتائهما الأكل إثمار أشجارهما من الأعناب و النخيل.

وقوله: وَ لَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا الظلم النقص، والضمير للاكل أى ولم تنقص من أكله شيئا بل أثمرت ما فى وسعها من ذلك، وقوله: «وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا» أَي شققنا وسطهما نهرا من الماء يسقيهما ويرفع حاجتهما الى الشرب بأقرب وسيله من غير كلفه.

قوله تعالى: وَ كَانَ لَهُ ثَمْرٌ الضمير للرجل و الثمر أنواع المال كما فى الصحاح و عن القاموس، وقيل: الضمير للنخل و الثمر ثمره، وقيل: المراد كان للرجل ثمر ملكه من غير جنته.

و أول الوجوه اوجهها ثم الثانى و يمكن ان يكون المراد من إيتاء الجنتين اكلها من غير ظلم بلوغ أشجارهما فى الرشد مبلغ الإثمار و أوانه، و من قوله: «وَ كَانَ لَهُ ثَمْرٌ» وجود الثمر على اشجارهما بالفعل كما فى الصيف و هو وجه خال عن التكلف.

قوله تعالى: فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا المحاوره المخاطبه و المراجعة فى الكلام، و نفر الأشخاص يلازمون الإنسان نوع ملازمه سموا نفرا لأنهم ينفرون معه و لذلك فسره بعضهم بالخدم و الولد، و آخرون بالرهط و العشيره، و الأول اوفق بما سيحكيه الله من قول صاحبه له: «إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَ وُلْدًا» حيث بدل نفر من الولد، و المعنى فقال الذى جعلنا له الجنتين لصاحبه و الحال انه يحاوره: انا اكثر منك مالا و اعز نفرا أى ولدا و خدما.

و هذا الذى قاله لصاحبه يحكى عن مزعمه خاصه عنده منحرفه عن الحق فإنه نظر الى نفسه و هو مطلق التصرف فيما خوله الله من مال و ولد لا يزاحم فيما يريد في ذلك فاعتقد انه مالكه و هذا حق لكنه نسى ان الله سبحانه هو الذى ملكه و هو المالك لما ملكه و الذى سخره الله له و سلطه عليه من زينه الحياه الدنيا التى هى فتنه و بلاء يمتحن بها الإنسان ليميز الله الخبيث من الطيب بل اجتذبت الزينه نفسه إليها فحسب انه منقطع عن ربه مستقل بنفسه فيما يملكه، و ان التأثير كله عند الأسباب الظاهرية التى سخرت له.

فنسى الله سبحانه و ركن الى الأسباب و هذا هو الشرك ثم التفت الى نفسه فرأى أنه يتصرف فى الأسباب مهمنا عليها فظن ذلك كرامه لنفسه و أخذه الكبر فاستكبر على صاحبه.

قوله تعالى: **وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** قَالَ الى آخر الآيتين؛ الضمائر الأربع راجعه الى الرجل، و الراد بالجنه جنسها و لذا لم تن، و قيل: لأن الدخول لا يتحقق فى الجنتين معا فى وقت واحد، و إنما يكون فى الواحد بعد الواحد.

و قال فى الكشف: فإن قلت: فلم أفرد الجنه بعد التثنيه؟ قلت: معناه و دخل ما هو جنته ما له جنه غيرها يعنى أنه لا نصيب له فى الجنه التى وعد المؤمنون فما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير، و لم يقصد الجنتين و لا واحده منهما. انتهى و هو وجه لطيف.

و قوله: **وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** و إنما كان ظالماً لأنه تكبر على صاحبه إذ قال: «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً» الخ؛ و هو يكشف عن إعجابه بنفسه و شركه بالله بنسيانه و الركون الى الأسباب الظاهرية، و كل ذلك من الرذائل المهلكه.

و قوله: **قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا** البید و البیدوده الهلاك و الفناء و الإشاره بهذه الى الجنه، و فصل الجمله لكونها فى معنى جواب سؤال مقدر كأنه لما قيل: و دخل جنته قيل: فما فعل؟ فقيل: قال: ما أظن أن تبید، الخ.

وقد عبر عن بقاء جنته بقوله: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ» الخ؛ ونفى الظن بأمر كنايه عن كونه فرضاً وتقديراً لا يلتفت إليه حتى يظن به و يمال إليه فمعنى ما أظن أن تبعد هذه أن بقاءه و دوامه مما تطمئن إليه النفس و لا تتردد فيه حتى تتفكر في بيده و تظن أنه سيفنى.

و قوله: «مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً» هو مبنى على ما مر من التأييد في قوله: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» فإنه يورث استبعاد تغير الوضع الحاضر بقيام الساعة، و كل ما حكاه الله سبحانه من حجج المشركين على نفي المعاد مبنى على الاستبعاد كقولهم: مَنْ يُخِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (يس ٧٨)، و قولهم: إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (الم السجده ١٠).

و قوله: «وَلَيْتَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا» مبنى على ما تقدم من دعوى كرامه النفس و استحقاق الخير، و يورث ذلك في الإنسان رجاء كاذباً بكل خير و سعادته من غير عمل يستدعيه يقول: من المستبعد أن تقوم الساعة و لئن قامت و رددت الى ربي لأجدن بكرامه نفسى - و لا يقول: يؤتىنى ربي - خيراً من هذه الجنة منقلبا أنقلب اليه.

و قد خدعت هذا القائل نفسه فيما ادعت من الكرامه حتى أقسم على ما قال كما يدل عليه لام القسم فى قوله: «وَلَيْتَ رُدِدْتُ» و لام التأكيد و نونها فى قوله: «لَأَجِدَنَّ» و قال: «رُدِدْتُ» و لم يقل: ردنى ربي اليه، و قال: «لَأَجِدَنَّ» و لم يقل: آتانى الله.

و الآيتان كقوله تعالى: «وَلَيْتَ أَذِقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبٍ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَيْتَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ» (حم السجده ٥٠).

قوله تعالى: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا آيَهُ وَ مَا بَعْدَهَا إِلَىٰ تَمَامِ أَرْبَعِ آيَاتِ رَدِّ مَنْ صَاحِبِ الرَّجُلِ يَرُدُّ بِهِ قَوْلَهُ: «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا» ثم قوله إذ دخل جنته: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» و قد حلل الكلام من حيث غرض المتكلم الى جهتين: إحداهما استعلاؤه على الله

سبحانه بدعوى استقلاله فى نفسه و فيما يملكه من مال و نـفر و استثناءه بما عنده من القدره و القوه، و الثانيه استعلاؤه على صاحبه و استهانتـه به بالقله و الذله ثم رد كلا من الدعويين بما يحسم مادتها و يقطعها من اصلها فقوله: «أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ -الى قوله- إِلَّا بِاللَّهِ» ورد لاولى الدعويين، و قوله: «إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلَّ -الى قوله- طَلَبًا» رد للثانيه.

فقوله: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ» فى إعاده جمـله «وَهُوَ يُحَاوِرُهُ» إشاره الى أنه لم ينقلب عما كان عليه من سكينه الإيمان و وقاره باستماع ما استمعه من الرجل بل جرى على محاورته حافظا آدابه و من أبده إرفاقه به فى الكلام و عدم خشونته بذكر ما يعد دعاء عليه يسوؤه عاده فلم يذكر ولده بسوء كما ذكر جنته بل اكتفى فيه بما يرمز اليه ما ذكره فى جنته من إمكان صيرورتها صعيدا زلقا و غور مائها.

و قوله: «أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ» الخ؛ الاستفهام للانكار ينكر عليه ما اشتمل عليه كلامه من الشرك بالله سبحانه بدعوى الاستقلال لنفسه و للأسباب و المسببات كما تقدمت الإشاره اليه و من فروع شرکه استبعاده قيام الساعه و ترده فيه.

و أما ما ذكره فى الكشاف أنه جعله كافرا بالله جاحدا لأنعمه لشكه فى البعث كما يكون المكذب بالرسول كافرا فغير سديد كيف؟ و هو يذكر فى استدراكه نفي الشرك عن نفسه، و لو كان كما قال لذكر فيه الإيمان بالمعاد.

قوله تعالى: لِكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا القراءه المشهوره «لكن» بفتح النون المشدده من غير الف فى الوصل و اثباتها وقفا. و اصله على ما ذكره «لكن أنا» حذفـت الهمزه بعد نقل فتحـتها الى النون و أدغمت النون فى النون فالوصل بنون مشدده مفتوحه من غير الف و الوقف بالألف كما فى «أنا» ضمير التكلم.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ من تتمه قول المؤمن لصاحبه الكافر، و هو تحضيض و توييح لصاحبه إذ قال لما دخل جنته:

﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ لَهُذِهِ أَبَدًا﴾ و كان عليه أن يبده من قوله: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فينسب الأمر كله الى مشيه الله و يقصر القوه فيه تعالى مبنا على ما بينه له أن كل نعمه بمشيه الله و لا قوه إلا به.

و قوله: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إما على تقدير: الأمر ما شاء الله، أو على تقدير: ما شاء الله كائن، و ما على التقديرين موصوله و يمكن أن تكون شرطيه و التقدير ما شاء الله كان، و الأوفق بسياق الكلام هو أول التقادير لأن الغرض بيان رجوع الامور الى مشيه الله تعالى قبل من يدعى الاستقلال و الاستغناء.

و قوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ يفيد قيام القوه بالله و حصر كل قوه فيه بمعنى أن ما ظهر في مخلوقاته تعالى من القوه القائمه بها فهو بعينه قائم به من غير أن ينقطع ما أعطاه منه فيستقل به الخلق قال تعالى: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (البقره ١٦٥).

و قد تم بذلك الجواب عما قاله الكافر لصاحبه و ما قاله عند ما دخل جنته.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ الى آخر الآيتين؛ قال في الجمع:

أصل الحساب السهام التي ترمى لتجرى في طلق واحد و كان ذلك من رمى الأساوره، و أصل الباب الحساب، و إنما يقال لما يرمى به: حساب لأنه يكثر كثره الحساب. قال: و الزلق الأرض الملساء المستويه لا نبات فيها و لا شيء و أصل الزلق ما تزلق عنه الأقدام فلا تثبت عليه. انتهى.

و قد تقدم أن الصعيد هو سطح الأرض مستويا لا نبات عليه، و المراد بصيروره الماء غورا صيرورته غائرا ذاهبا في باطن الارض.

و معنى الآية ان ترني أنا أقل منك مالا و ولدا فلا بأس و الأمر في ذلك الى ربي فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك و يرسل أى على جنتك مرامى من عذابه السماوى كبرد أو ريح سموم أو صاعقه أو نحو ذلك فتصبح أرضا خاليه ملساء لا شجر عليها و لا زرع، أو يصبح ماؤها غائرا

فلن تستطيع أن تطلبه لإمعانه في الغور.

قوله تعالى: «وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الإحاطة بالشئ كناية عن هلاكه، وهي مأخوذة من احاطه العدو و استدارته به من جميع جوانبه بحيث ينقطع عن كل معين و ناصر و هو الهلاك، قال تعالى: وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ (يونس ٢٢)».

و قوله: «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ» كناية عن الندامة فإن الندام كثيرا ما يقرب كفيه ظهر البطن، و قوله: «وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» كناية عن كمال الخراب كما قيل فإن البيوت الخربة المنهدمه تسقط أولا عروشها و هي سقوفها على الأرض ثم تسقط جدرانها على عروشها الساقطة و الخوى السقوط و قيل: الأصل في معناه الخلو.

و قوله: «وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا» أى يا ليتنى لم أتعلق بما تعلقت به و لم أركن و لم أطمئن الى هذه الأسباب التى كنت أحسب أن لها استقلالاً فى التأثير و كنت أرجع الأمر كله الى ربي فقد ضل سعيي و هلكت نفسى.

و المعنى: و أهلك أنواع ماله أو فسد ثمر جنته فأصبح نادماً على المال الذى أنفق و الجنه خربه و يقول يا ليتنى لم اشرك بربى أحداً و لم أسكن الى ما سكنت اليه و اغتررت به من نفسى و سائر الأسباب التى لم تنفعنى شيئاً.

قوله تعالى: «وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا الْفِئَةُ الْجَمَاعَةُ، وَ الْمُنْتَصِرُ الْمَمْتَنِعُ.»

و كما كانت الآيات الخمس الاولى أعنى قوله: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ - إِلَى قَوْلِهِ - طَلَبًا» بيانا قوليا لخطأ الرجل فى كفره و شركه كذلك هاتان الآيتان أعنى قوله: «وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا» بيان فعلى له أما تعلقه بدوام الدنيا و استمرار زينتها فى قوله: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» فقد جلى له الخطأ فيه حين احيط بثمره فأصبحت جنته خاويه على

عروشها، و أما سكونه الى الأسباب و ركونه إليها و قد قال لصاحبه: «أنا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَ أَعَزُّ نَفْراً» فبين خطأؤه فيه بقوله تعالى: «وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» و أما دعوى استقلاله بنفسه و تبجحه بها فقد أشير الى جهه بطلانها بقوله تعالى: «وَ مَا كَانَ مُتَتَّصِراً» .

قوله تعالى: هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً القراءه المشهوره «الْوَلَايَةُ» بفتح الواو و قرئ بكسرهما و المعنى واحد، و ذكر بعضهم أنها بفتح الواو بمعنى البصره و بكسرهما بمعنى السلطان، و لم يثبت و كذا «الْحَقُّ» بالجبر، و الثواب مطلق التبعه و الأجر و غلب في الأجر الحسن الجميل، و العقب بالضم فالسكون و بضمين: العاقبه.

ذكر المفسرون أن الإشاره بقوله: «هُنَالِكَ» الى معنى قوله: «أُحِيطَ بِثَمَرِهِ» أى فى ذلك الموضع أو فى ذلك الوقت و هو موضع الإهلاك و وقته الولايه لله، و أن الولايه بمعنى النصره أى إن الله سبحانه هو الناصر للانسان حين يحيط به البلاء و ينقطع عن كافه الأسباب لا ناصر غيره.

و هذا معنى حق فى نفسه لكنه لا- يناسب الغرض المسوق له الآيات و هو بيان أن الأمر كله لله سبحانه و هو الخالق لكل شىء المدبر لكل أمر، و ليس لغيره إلا- سراب الوهم و تزيين الحياه لغرض الابتلاء و الامتحان، و لو كان كما ذكره لكان الأنسب توصيفه تعالى فى قوله: «لِلَّهِ الْحَقُّ» بالقوه و العزه و القدره و الغلبه و نحوها لا- بمثل الحق الذى يقابل الباطل، و أيضا لم يكن لقوله: «هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً» وجه ظاهر و موقع جميل.

و الحق و الله أعلم أن الولايه بمعنى مالكيه التدبير و هو المعنى السارى فى جميع اشتقاقاتها كما مر فى الكلام على قوله تعالى: «إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ (المائدہ ٥٥)» أى عند إحاطه الهلاك و سقوط الأسباب عن التأثير و تبين عجز الإنسان الذى كان يرى لنفسه الاستقلال و الاستغناء و لايه أمر الإنسان و كل شىء و ملك تدبيره لله لأنه إله حق له التدبير و التأثير بحسب واقع الأمر و غيره من الأسباب الظاهرية المدعوه شركاء له فى التدبير و التأثير باطل

فى نفسه لا- يملك شيئاً من الأثر إلا ما أذن الله له و ملكه إياه، و ليس له من الاستقلال إلا اسمه بحسب ما توهمه الإنسان فهو باطل فى نفسه حق بالله سبحانه و الله هو الحق بذاته المستقل الغنى فى نفسه.

قوله تعالى: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ نَخِ؛ هذا هو المثل الثانى ضرب لتمثيل الحياه الدنيا بما يقارنها من الزينه السريعه الزوال.

و الهشيم فعيل بمعنى مفعول من الهشم، و هو على ما قال الراغب كسر الشىء الرخو كالنبات، و ذرا يذروا ذروا أى فرق، و قيل: أى جاء به و ذهب، و قوله: «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ» و لم يقل: اختلط بنبات الأرض إشاره الى غلبته فى تكوين النبات على سائر أجزائه، و لم يذكر مع ماء السماء غيره من مياه العيون و الأنهار لأن مبدأ الجميع ماء المطر، و قوله: «فَأَضْيَبَ حَشِيمًا» أصبح فيه- كما قيل- بمعنى صار فلا يفيد تقييد الخبر بالصباح.

و المعنى: و اضرب لهؤلاء المتوليين بزينه الدنيا المعرضين عن ذكر ربهم مثل الحياه الدنيا كما انزلناه من السماء و هو المطر فاختلط به نبات الأرض فرف نضاره و بهجه و ظهر بأجمل حليه فصار بعد ذلك هشيمًا مكسرا متقطعا تعبت به الرياح تفرقه و تجيء به و تذهب و كان الله على كل شىء مقتدرا.

قوله تعالى: الْمَالُ وَ النَّبُوتَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الى آخر الآيه؛ الآيه بمنزله النتيجة للمثل السابق و هى أن المال و البنين و إن تعلقت بها القلوب و تآقت إليها النفوس تتوقع منها الانتفاع و تحف بها الآمال لكنها زينه سريعه الزوال غاره لا يسعها أن تشبهه و تنفعه فى كل ما أرادها منها و لا أن تصدقه فى جميع ما يأمله و يتمناه بل و لا فى أكثره ففى الآيه- كما ترى- انعطاف الى بدء الكلام أعنى قوله: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا» الآيتين.

و قوله وَ النَّبَاتِ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمْلًا- المراد بالباقيات الصالحات الأعمال الصالحه فإن أعمال الانسان محفوظه له عند الله بنص القرآن

فهى باقيه و إذا كانت صالحه فهى باقيات صالحات، و هى عند الله خير ثوابا لأن الله يجازى الانسان الجائى بها خير الجزاء، و خير أملا- لأن ما يؤمل بها من رحمه الله و كرامته ميسور للانسان فهى أصدق أملا من زينات الدنيا و زخارفها التى لا تفى للانسان فى أكثر ما تعد، و الآمال المتعلقة بها كاذبه على الأغلب و ما صدق منها غار خدوع.

و قد ورد من طرق الشيعة و أهل السنه عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و من طرق الشيعة عن أئمه أهل البيت عليهم السلام عدده من الروايات: أن الباقيات الصالحات التسبيحات الأربع: سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر، و فى أخرى انها الصلاه و فى أخرى موده اهل البيت و هى جميعا من قبل الجرى و الانطباق على المصدق.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٤٧ الى ٥٩]

اشاره

و يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَا هُمْ فَلَم نَعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَ عَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صِيًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَ وَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صِفْخِرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ وَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَ مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَ يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَ يَشْتَغِفُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ مَا أُنذِرُوا هُزُوعًا (٥٦) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَ تِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)

قوله تعالى: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا الظرف متعلق بمقدر و التقدير «و اذكر يوم نسير» و تسيير الجبال بزوالها عن مستقرها و قد عبر سبحانه عنه بتعبيرات مختلفه كقوله: وَ كَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيْبًا مَّهِيلًا (المزمل ١٤)، و قوله: وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (القارعه ٥)، و قوله:

فَكَانَتْ هَبَاءً مُبْتَثًا (الواقعه ٦)، و قوله: وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (النبا ٢٠).

و المستفاد من السياق أن بروز الأرض مترتب على تسيير الجبال فإذا زالت الجبال و التلال ترى الأرض بارزه لا تغيب ناحيه منها عن اخرى بحائل حاجز و لا يستتر صقع منها عن صقع بساتر، و ربما احتمل أن تشير الى ما فى قوله: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (الزمر ٦٩).

و قوله: «وَ حَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» أى لم نترك منهم أحدا فالحشر عام للجميع.

قوله تعالى: وَ عَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَِّمَا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ الْخ؛ السياق يشهد على أن ضمير الجمع فى قوله: «عَرَضُوا» و كذا ضمير الجمع فى الآيه السابقه للمشركين و هم الذين اطمأنوا الى أنفسهم و الأسباب الظاهرية التى ترتبط بها حياتهم، و تعلقوا بزينة الحياه كالمعلق بأمر دائم باق فكان ذلك انقطاعا منهم عن ربهم، و إنكارا للرجوع اليه، و عدم مبالاه بما يأتون به من الأعمال أرضى الله أم أسخطه.

فقوله: وَ عَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَِّمَا اشاره أولا- الى أنهم ملجئون الى الرجوع الى ربهم و لقاءه فيعرضون عليه عرضا من غير أن يختاروه لأنفسهم، و ثانيا أن لا كرامه لهم فى هذا اللقاء، و يشعر به قوله: «عَلَيَّ رَبِّكَ» و لو أكرموا ل قيل: ربهم كما قال: جَزَأُوْهُمْ عِنْدَ

رَبِّهِمْ جَنَاتٌ عَدْنٍ (البينه ٨) وقال: إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ (هود ٢٩)، أو قيل: عرضوا علينا جريا على سياق التكلم السابق، و ثالثا أن أنواع التفاضل و الكرامات الدنيويه التي اختلقتها لهم الأوهام الدنيويه من نسب و مال و جاه قد طاحت عنهم فصفوا صفا واحدا لا تميز فيه لعال من دان و لا لغنى من فقير و لا لمولى من عبد، وإنما الميز اليوم بالعمل و عند ذلك بتبين لهم أنهم أخطئوا الصواب فى حياتهم الدنيا و ضلوا السبيل فيخاطبون بمثل قوله: «لَقَدْ جِئْتُمُونَا» الخ.

و قوله: لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ مَقُولُ الْقَوْلِ وَ التَّقْدِيرِ وَ قَالَ لَهُمْ أَوْ قُلْنَا لَهُمْ: لَقَدْ جِئْتُمُونَا، الخ؛ و فى هذا بيان خطئهم و ضلالهم فى الدنيا إذ تعلقوا بزینتها و زخرها فشغلهم ذلك عن سلوك سبيل الله و الأخذ بدينه.

و قوله: يَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا فى معنى قوله: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (المؤمنون ١١٥)، و الجملة إن كانت إضرابا عن الجملة السابقه على ظاهر السياق فالتقدير ما فى معنى قولنا: شغلتم زينه الدنيا و تعلقكم بأنفسكم و بظاهر الأسباب عن عبادتنا و سلوك سبيلنا بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا تلقوننا فيه فتحاسبوا و بتعبير آخر: إن اشتغالكم بالدنيا و تعلقكم بزینتها و إن كان سببا فى الاعراض عن ذكرنا و اقرار الخيئات لكن كان هناك سبب هو أقدم منه و هو الأصل و هو أنكم ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا فنسيان المعاد هو الأصل فى ترك الطريق و فساد العمل قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص / ٢٦).

و من الجائز ان يكون قوله: «بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا» إضرابا عن اعتذار لهم مقدر بالجهل و نحوه و الله اعلم.

قوله تعالى: وَ وُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ

يَا وَيْلَتَنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ وَضَعِ الْكِتَابَ نَصْبَهُ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ، وَ مُشْفِقِينَ مِنْ الشَّفَقَةِ وَ اصْلَهَا الرِّقَةَ، قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْإِشْفَاقُ عِنَايَةٌ مُخْتَلِطَةٌ بِخَوْفٍ لِأَنَّ الْمَشْفِقَ يُحِبُّ الْمَشْفُوقَ عَلَيْهِ وَ يَخَافُ مَا يَلْحَقُهُ قَالَ تَعَالَى: وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ فَإِذَا عَدَى بِمَنْ فَمَعْنَى الْخَوْفِ فِيهِ أَظْهَرَ، وَ إِذَا عَدَى بِمَعْنَى الْعِنَايَةِ فِيهِ أَظْهَرَ، قَالَ تَعَالَى: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ مُشْفِقُونَ مِنْهَا أَنْتَهَى.

وَ الْوَيْلُ الْهَلَاكُ، وَ نِدَاؤُهُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ - كَمَا قِيلَ - كِنَايَةٌ عَنْ كَوْنِ الْمَصِيبَةِ أَشَدَّ مِنَ الْهَلَاكِ فَيَسْتَعَاثُ بِالْهَلَاكِ لِيُنْجِيَ مِنَ الْمَصِيبَةِ كَمَا رَبَّمَا يَتَمَنَّى الْمَوْتَ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ قَالَ تَعَالَى: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا (مَرْيَمُ ٢٣).

وَ قَوْلُهُ: وَ وُضِعَ الْكِتَابُ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّهُ كِتَابٌ وَاحِدٌ يَوْضَعُ لِحِسَابِ أَعْمَالِ الْجَمِيعِ وَ لَا يَنَافِي ذَلِكَ وَضِعَ كِتَابٌ خَاصٌ بِكُلِّ إِنْسَانٍ وَ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ دَالَةٌ عَلَيْهِ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابًا وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ كِتَابًا وَ لِلِكُلِّ كِتَابًا قَالَ تَعَالَى: وَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَلَزَمْنَاهُ طَائِرَةً فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا بِالْآيَةِ؛ (الْإِسْرَاءُ ١٣) وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهَا، وَ قَالَ: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَىٰ كِتَابِهَا (الْجَاثِيَةُ ٢٨) وَ قَالَ: هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ (الْجَاثِيَةُ ٢٩)، وَ سَيَجِيءُ الْكَلَامُ فِي الْآيَتَيْنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَ قَوْلُهُ: فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ تَفْرِيعُ الْجُمْلَةِ عَلَى وَضْعِ الْكِتَابِ وَ ذِكْرِ إِشْفَاقِهِمْ مِمَّا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِهِ كِتَابُ الْأَعْمَالِ أَوْ كِتَابًا فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَ ذَكَرَهُمْ بِوَصْفِ الْأَجْرَامِ لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ عِلَّةِ الْحُكْمِ وَ أَنَّ إِشْفَاقَهُمْ مِمَّا فِيهِ لِكَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ فَالْحُكْمُ يَعْمُ كُلَّ مُجْرِمٍ وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُشْرَكًا.

وَ قَوْلُهُ: وَ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَيْغِرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا الصَّغِيرَةَ وَ الْكَبِيرَةَ وَ صَفَانِ قَامَتَا مَقَامَ مَوْصُوفِهِمَا وَ هُوَ الْخَطِيئَةُ أَوْ الْمَعْصِيَةُ أَوْ الْهِنَةُ وَ نَحْوُهَا.

وقوله: وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ظاهر السياق كون الجملة تأسيسا لا عطف تفسير لقوله: «لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً» الخ؛ و عليه فالحاضر عندهم نفس الأعمال بصورها المناسبة لها لا كتابتها كما هو ظاهر أمثال قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم ٧)، و يؤيده قوله بعده: «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» فإن انتفاء الظلم بناء على تجسم الأعمال أوضح لأن ما يجزون به إنما هو عملهم يرد اليهم و يلحق بهم لا صنع فى ذلك لأحد فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ تذكير ثان لهم بما جرى بينه تعالى و بين ابليس حين أمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن فتمرد عن أمر ربه.

أى و اذكر هذه الواقعة حتى يظهر لهم أن ابليس -و هو من الجن- و ذريته عدو لهم لا يريدون لهم الخير فلا ينبغي لهم أن يفتنوا بما يزينه لهم هو و ذريته من ملاذ الدنيا و شهواتها و الاعراض عن ذكر الله و لا أن يطيعوهم فيما يدعونهم اليه من الباطل.

وقوله: أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِنِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ تفریع على محصل الواقعة و الاستفهام للانكار أى و يتفرع على الواقعة أن لا تتخذوه و ذريته أولياء و الحال انهم اعداء لكم معشر البشر، و على هذا فالمراد بالولاية و لايه الطاعة حيث يطيعونه و ذريته فيما يدعونهم فقد اتخذوهم مطاعين من دون الله، و هكذا فسرها المفسرون.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بالولاية و لايه الملك و التدبير و هو الربوبية.

قوله تعالى: مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَ مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ظاهر السياق كون ضميرى الجمع لا بليس و ذريته و المراد بالإشهاد الإحضار و الإعلام عيانا كما أن الشهود هو المعاينة حضورا، و العضد ما بين المرفق و الكتف من الانسان و يستعار للمعين كاليد و هو المراد هاهنا.

وقد اشتملت الآيه فى نفي ولايه التدبير عن إبليس و ذريته على حجتين إحداهما: أن ولايه تدبير امور شىء من الأشياء تتوقف على الإحاطه العلميه-بتمام معنى الكلمه-بتلك الامور من الجبهه التى تدبر فيها و بما لذلك الشىء و تلك الامور من الروابط الداخليه و الخارجيه بما يتدئ منه و ما يقارنه و ما ينتهى اليه و الارتباط الوجودى سار بين أجزاء الكون؛ وهؤلاء و هم إبليس و ذريته لم يشهدهم الله سبحانه خلق السماوات و الأرض و لا خلق أنفسهم فلا كانوا شاهدين إذ قال للسماوات و الأرض: كن فكانت و لا- إذ قال لهم: كونوا فكانوا فهم جاهلون بحقيقه السماوات و الأرض و ما فى أوعيه وجوداتها من اسرار الخلقه حتى بحقيقه صنع أنفسهم فكيف يسعهم أن يلوا تدبير أمرها أو تدبير امر شطر منها فيكونوا آلهه و أربابا من دون الله و هم جاهلون بحقيقه خلقتها و خلقه أنفسهم.

و أما أنهم لم يشهدوا خلقها فلأن كلا- منهم شىء محدود لا- سبيل له الى ما وراء نفسه فغيره فى غيب منه مضروب عليه الحجاب، و هذا بين و قد أنبأ الله سبحانه عنه فى مواضع من كلامه؛ و كذا كل منهم مستور عنه شأن الاسباب التى تسبق وجوده و اللواحق التى ستلحق وجوده.

و هذه حجه برهانيه غير جدليه عند من أجاد النظر و أمعن فى التدبر حتى لا يختلط عنده هذه الالعوبه الكاذبه التى نسميها تدبيرا بالتدبير الكونى الذى لا يلحقه خطأ و لا ضلال، و كذا الظنون و المزاعم الواهيه التى نتداولها و نركن إليها بالعلم العيانى الذى هو حقيقه العلم و كذا العلم بالامور الغائبه عنا بالظفر على أماراتها الأغلبيه بالعلم بالغيب الذى يتبدل به الغيب شهاده.

و الثانيه أن كل نوع من أنواع المخلوقات متوجه بفطرته نحو كماله المختص بنوعه و هذا ضرورى عند من تتبعها و أمعن النظر فى حالها فالهدايه الالهيه عامه للجميع كما قال: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿طه ٥٠﴾/و الشياطين أشرار مفسدون مضلون فتصديهم تدبير شىء من السماوات و الأرض أو الإنسان-و لن يكون إلا بإذن من الله سبحانه-مؤد الى

نفضه السنه الالهيه من الهدايه العامه اى توسله تعالى الى الاصلاح بما ليس شأنه إلا الافساد و الى الهدايه بما خاصته الاضلال و هو محال.

و هذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ تُتَّخَذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ الظاهر فى أن سنته تعالى أن لا يتخذ المضلين عضدا فافهم.

و فى قوله: ﴿مَا أَشْهَدُ تُهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ و لم يقل: و ما شهدوا و ما كانوا دلالة على أنه سبحانه هو القاهر المهيمن عليهم على كل حال، و القائلون بإشراك الشياطين أو الملائكة أو غيرهم بالله فى أمر التدبير لم يقولوا باستقلالهم فى ذلك بل بأن أمر التدبير مملوك لهم بتملكك من الله تعالى مفوض اليهم بتفويض منه و أنهم أرباب و آلهه و الله رب الأرباب و إله الآلهه.

و ما تقدم من معنى الآيه مبنى على حمل الاشهاد على معناه الحقيقى و إرجاع الضميرين فى ﴿مَا أَشْهَدُ تُهُمْ﴾ و ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ الى إبليس و ذريته كما هو الظاهر المتبادر من السياق.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الى آخر الآيه؛ هذا تذكير ثالث يذكر فيه ظهور بطلان الرابطه بين المشركين و بين شركائهم يوم القيامة و يتأكد بذلك أنهم ليسوا على شىء مما يدعيه لهم المشركون.

فقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ الْخَائِفُ الضَّمِيرُ لَهُ تَعَالَى بِشَهَادَةِ السِّيَاقِ، وَ الْمَعْنَى وَ اذْكَرْ لَهُمْ يَوْمَ يَقُولُ اللَّهُ لَهُمْ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ لِي شُرَكَاءُ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ بَانَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا لِي شُرَكَاءَ وَ لَوْ كَانُوا لاسْتَجَابُوا.

و قوله: ﴿وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا الْمَوْبِقُ بِكسْرِ الْبَاءِ اسْمُ مَكَانٍ مِنْ وَبِقٍ وَ بَوْقًا بِمَعْنَى هَلَكٍ، وَ الْمَعْنَى جَعَلْنَا بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَ شُرَكَائِهِمْ مَحَلَّ هَلَاكٍ وَ قَدْ فُسِّرَ الْقَوْمُ هَذَا الْمَوْبِقُ وَ الْمَهْلِكُ بِالنَّارِ أَوْ بِمَحَلٍّ مِنَ النَّارِ يَهْلِكُ فِيهِ الْفَرِيقَانِ الْمُشْرِكُونَ وَ شُرَكَاءَهُمْ لَكِنِ التَّدْبِيرُ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى لَا يَسَاعِدُ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْآيَةَ قَدْ اِطْلَقَتْ الشُّرَكَاءَ وَ فِيهِمْ - وَ لَعَلَّهُمْ الْأَكْثَرُ - الْمَلَائِكَةُ

و بعض الأنبياء و الأولياء، و أرجع اليهم ضمير اولى العقل مره بعد مره، و لا دليل على اختصاصهم بمرده الجن و الإنس، و كون جعل الموبق بينهم دليلا على الاختصاص أول الكلام.

فلعل المراد من جعل موبق بينهم إبطال الرابطه و رفعها من بينهم و قد كانوا يرون فى الدنيا أن بينهم و بين شركائهم رابطه الربوبيه و المربوبيه أو السببيه و المسببيه فكنى عن ذلك بجعل موبق بينهم يهلك فيه الرابطه و العلقه من غير أن يهلك الطرفان، و يومى الى ذلك بلطيف الإشاره تعبيره عن دعوتهم أولا بالنداء حيث قال: «نَادُوا شُرَكَائِيَ» و النداء إنما يكون فى البعيد فهو دليل على بعد ما بينهما.

و الى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى فى موضع آخر من كلامه: «وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفِّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤/١)، و قوله تعالى: «ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ (يونس ٢٨/١)».

قوله تعالى: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوقَعُونَ فِيهَا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا فِي أَخَذَ الْمُجْرِمِينَ مَكَانَ الْمُشْرِكِينَ دَلَالَهُ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ عَامٌ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْإِجْرَامِ، وَ الْمُرَادُ بِالظَّنِّ هُوَ الْعِلْمُ - عَلَى مَا قِيلَ - وَ يَشْهَدُ بِهِ قَوْلُهُ: «وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا» .

و المراد بمواقعه النار الوقوع فيها - على ما قيل و لا - يبعد أن يكون المراد حصول الوقوع من الجانبين فهم واقعون فى النار بدخولهم فيها و النار واقعه فيهم باشتعالهم بها. و قوله: «وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا» المصرف بكسر الراء اسم مكان من الصرف أى لم يجدوا محلا ينصرفون اليه و يعدلون عن النار و لا مناص.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ صَيَّرَ قَوْمًا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي نَظِيرِ صَدْرِ الْآيَةِ فِي سُوْرَةِ أُسْرِ آيَةِ ٨٩»

و الجدل الكلام على سبيل المنازعه و المشاجرہ و الآيه الى تمام ست آيات مسوقه للتهديد بالعذاب بعد التذكيرات السابقه.

قوله تعالى: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ وَ «يَسْتَغْفِرُوا» عطف على قوله: «يُؤْمِنُوا» أى و ما منعهم من الإيمان و الاستغفار حين مجيء الهدى.

و قوله: إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَى إِلَّا- طلب أن تأتيهم السنه الجاريه فى الامم الأولين و هى عذاب الاستئصال، و قوله: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا» عطف على سابقه أى أو طلب أن يأتيهم العذاب مقابله و عيانا و لا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه إيمان بعد مشاهدته البأس الإلهى قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ (المؤمن ٨٥).

فمحصل المعنى أن الناس لا يطلبون إيمانا ينفعهم و الذى يريدونه أن يأخذهم عذاب الاستئصال على سنه الأولين فيهلكوا و لا يؤمنوا أو يقابلهم العذاب عيانا فيؤمنوا اضطرارا فلا ينفعهم الإيمان.

و هذا المنع و الاقتضاء فى الآيه أمر ادعائى يراد به أنهم معرضون عن الحق لسوء سريرتهم فلا جدوى للإطنا ب الذى وقع فى التفاسير فى صحه ما مر من التوجيه و التقدير إشكالا و دفعا.

قوله تعالى: وَمَا نُزِّلُ الْمُزْسِلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ الخ؛ تعزیه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يضيق صدره من إنكار المنكرين و إعراضهم عن ذكر الله فما كانت وظيفه المرسلين إِلَّا- التبشير و الإنذار و ليس عليهم وراء ذلك من بأس ففیه انعطاف الى مثل ما مر فى قوله فى أول السوره: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا و فى الآيه أيضا نوع تهديد للكفار المستهزئين.

و الدحض الهلاك و الإدحاض الإهلاك و الإبطال، و الهزوء: الاستهزاء و المصدر بمعنى اسم المفعول و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِعْظَامًا وَ تَكْبِيرًا لَظَلَمَ يَعْظُمُ وَ يَكْبُرُ بِحَسَبِ مَتَعَلِّقِهِ، و إذا كان هو الله سبحانه بآياته فهو أكبر من كل ظلم.

و المراد بنسيان ما قدمت يدها عدم مبالاته بما يأتيه من الاعراض عن الحق و الاستهزاء به و هو يعلم أنه حق، و قوله: إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا كَأَنَّهُ تَلْعَلُ لِعَرَضِهِمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَسُوا مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، و قد تقدم الكلام فى معنى جعل الأكنه على قلوبهم و الوقر فى آذانهم فى الكتاب مرارا.

و قوله: وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا إِيثَاسًا مِنْ إِيْمَانِهِمْ بَعْدَ مَا ضَرَبَ اللَّهُ الْحِجَابَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ آذَانِهِمْ فَلَا يَسْمَعُونَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَهْتَدُوا بِأَنْفُسِهِمْ بِتَعْقَلِ الْحَقِّ وَ لَا أَنْ يَسْتَرْتَدُّوا بِهَدَايِهِمْ غَيْرِهِمْ بِالسَّمْعِ وَ الْإِتْبَاعِ، و الدليل على هذا المعنى قوله: «وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا» حيث دل على تأييد النفى و قيده بقوله: «إِذًا» و هو جزاء و جواب.

قوله تعالى: وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْآيَاتِ - كما سمعت - مسروده لتهديدهم بالعذاب و هم فاسدون فى أعمالهم فسادا لا يرجى منهم صلاح و هذا مقتضى لنزول العذاب و أن يكون معجلا لا يمهلهم إذ لا أثر لبقائهم إلا الفساد لكن الله سبحانه لم يجعل لهم العذاب و إن قضى به قضاء حتم بل أخره الى أجل مسمى عينه بعلمه.

فقوله: «وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ» صدرت به الآيه المتضمنه لصريح القضاء فى تهديدهم ليعدل به بواسطه اشتماله على الوصفين: الغفور ذى الرحمة ما يقتضى العذاب المعجل فيقضى و يمضى أصل العذاب أداء لحق مقتضيه و هو عملهم، و يؤخر وقوعه لأن الله

فالجمله أعنى قوله: «الْغُفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ» مع قوله: «لَمَّا يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ» بمنزله متخاصمين متنازعين يحضران عند القاضى، وقوله: «بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا» أى ملجأً ليجئون منه اليه بمنزله الحكم الصادر عنه بما فيه إرضاء الجانيين و مراعاة الحقين فاعطى وصف الانتقام الإلهى باستدعاء مما كسبوا أصل العذاب، واعطيت صفه المغفره و الرحمه أن يؤجل العذاب و لا يعجل؛ و عند ذلك أخذت المغفره الالهيه تمحو أثر العمل الذى هو استعجال العذاب، و الرحمه تفيض عليهم حياه معجله.

و محصل المعنى: لو يؤاخذهم ربك لعجل لهم العذاب لكن لم يعجل لأنه الغفور ذو الرحمه بل حتم عليهم العذاب بجعله لهم موعداً لا- ملجأً لهم ليجئون منه اليه. فقوله: «بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ» الخ؛ كلمه قضاء و ليس بحكايه محضه و إلا- قيل: بل جعل لهم موعداً، الخ؛ فافهم ذلك.

و الغفور صيغه مبالغه تدل على كثره المغفره، و ذو الرحمه- و لامه للجنس- صفه تدل على شمول الرحمه لكل شىء فهى أشمل معنى من الرحمن و الرحيم الدالين على الكثره أو الثبوت و الاستمرار فالغفور بمنزله الخادم لذى الرحمه فإنه يصلح المورد لذى الرحمه يامحاء ما عليه من و صمه الموانع فإذا صلح شمله ذو الرحمه، فللغفور السعى و كثره العمل و لذى الرحمه الانبساط و الشمول على ما لا مانع عنده، و لهذه النكته جىء فى المغفره بالغفور و هو صيغه مبالغه و فى الرحمه بذى الرحمه الحاوى لجنس الرحمه فأفهم ذلك و دع عنك ما أطنبوا فيه من الكلام فى الاسمين.

قوله تعالى: وَ تِلْكَ الْقُرَىٰ أَمْهَلَكُنَّاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا المراد بالقرى أهلها مجازاً بدليل الضمائر الراجعه إليها، و المهلك بكسر اللام اسم زمان.

و معنى الآيه ظاهر و هى مسوقه لبيان أن تأخير مهلكهم و تأجيله ليس ببدع منا بل السنه

الالهيه فى الامم الماضين الذين اهلكهم الله لما ظلموا كانت جاريه على ذلك فكان الله يهلكهم و يجعل لمهلكهم موعدا.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٦٠ الى ٨٢]

اشاره

وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحَوْتَ وَ مِمَّا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أذْكَرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا
(٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلِ اتَّبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا
عَلَّمْتَ رُسُلًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
صَابِرًا وَ لَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي
السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالِ أَمْ حَرَقْتُهَا لِتُعْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تَأْخُذْنِي
بِمَا نَسِيتُ وَ لَا تُزهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَفِيًّا غُلَامًا فَفَقَلَهُ قَالَ أَ قَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا
(٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا
(٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتِ
لَأَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُبْنُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ
يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَ كَانَ وَّرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ
يُزْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَ أَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي
الْمَدِينَةِ وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ يَسْرِخَ حَتَّىٰ كُنَّا كُنْتَهِمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

ص: ٦١

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرُحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا الظرف متعلق بقدر، والجمله معطوفه على ما عطف عليه التذكيرات الثلاثه المذكوره سابقا، وقوله: «لا- أَبْرُحُ» بمعنى لا- أزال و هو من الأفعال الناقصه حذف خبره إجازا لدلاله قوله: «حَتَّىٰ أَبْلُغُ» عليه و التقدير لا- أبرح أمشى أو أسير، و مجمع البحرين قيل: هو الذى ينتهى اليه بحر الروم من الجانب الشرقى و بحر الفرس من الجانب (1) الغربى، و الحقب الدهر و الزمان و تنكيره يدل على وصف محذوف و التقدير حقا طويلا.

و المعنى- و الله أعلم- و اذكر إذ قال موسى لفتاه: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى دهرا طويلا.

قوله تعالى: فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ

سَرَبًا الظاهر أن قوله: «مَجْمَعٌ بَيْنَهُمَا» من إضافه الصفه الى الموصوف و أصله بين البحرين الوصف بأنه مجمعهما.

و قوله: «نَسِيًا حُوتَهُمَا» الآيتان التاليتان تدلان على أنه كان حوتا مملوحا أو مشويا حملاه ليرتزقا به فى المسير و لم يكن حيا و إنما حى هناك و اتخذ سبيله فى البحر و رآه الفتى و هو حى يغوص فى البحر و نسى أن يذكر ذلك لموسى و نسى موسى أنه يسأله عنه أين هو؟ و على هذا فمعنى «نَسِيًا حُوتَهُمَا» بنسبه النسيان اليهما معا: نسيا حال حوتهما فموسى نسى كونه فى المكتل فلم يتفقده و الفتى نسيه إذ بلم يخبر موسى بعجيب ما رأى من أمره. هذا ما ذكره.

و قوله: «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا» السرب المسلك و المذهب و السرب و النفق الطريق المحفور فى الأرض لا نفاذ فيه كأنه شبه السبيل الذى اتخذته الحوت داخل الماء بالسرب الذى يسلكه السالك فيغيب فيه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَيِّفَرْنَا هَذَا نَصِيبًا قَالَ فى المجمع: النصب و الوصب و التعب نظائر، و هو الوهن الذى يكون عن كد انتهى، و المراد بالغداء ما يتغدى به و فيه دلالة على أن ذلك كان فى النهار.

و المعنى: و لما جاوزا مجمع البحرين أمر موسى فتاه أن يأتى بالغداء و هو الحوت الذى حملاه ليتغدىا به و لقد لقيا من سفرهما تعباً.

قوله تعالى: قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِلَى الصَّخْرَةِ الى آخر الآية؛ يريد حال بلوغهم مجمع البحرين و مكثهم هناك فقد كانت الصخره هناك و الدليل عليه قوله: «وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ» الخ؛ و قد ذكر فى ما مر أنه كان بمجمع البحرين، يقول لموسى: لا غداء عندنا نتغدى به فإن غداءنا و هو الحوت حى و دخل البحر و ذهب حينما بلغنا مجمع البحرين و أينا الى الصخره التى كانت هناك و إنى نسيت أن اخبرك بذلك.

فقوله: «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ» يذكره حال اويهما الى الصخره و نزولهما عندها

ليستريحا قليلا، و قوله: «فَأِنِّي نَسَيْتُ الْحُوتَ» أى نسيت حال الحوت التى شاهدها منه فلم أذكرها لك، والدليل على هذا- كما قيل- قوله: «وَمَا أَنْسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أذْكُرَهُ» فان «أَنْ أذْكُرَهُ» بدل من ضمير «أَنْسَانِيَهُ» و التقدير «و ما أنساني ذكر الحوت لك إلا الشيطان» فهو لم ينس نفس الحوت و إنما نسي أن يذكر حاله التى شاهد منه لموسى.

و لا- ضمير فى نسبه الفتى نسيانه الى تصرف من الشيطان بناء على أنه كان يوشع بن نون النبى و الأنبياء فى عصمه إلهيه من الشيطان لأنهم معصومون مما يرجع الى المعصيه و أما مطلق إيذاء الشيطان فيما لا يرجع الى معصيه فلا دليل يمنعه قال تعالى: وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (ص ٤١).

و قوله: وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا أى اتخذها عجباً، فعجباً وصف قام مقام موصوفه على المفعوليه المطلقه، و قيل: إن قوله: «وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ» قول الفتى و قوله:

«عَجَبًا» من قول موسى، و السياق يدفعه.

و اعلم أن ما تقدم من الاحتمال فى قوله: «نَسِيًا حُوتَهُمَا» الخ؛ جار هاهنا و الله أعلم.

قوله تعالى: قَالَ ذَلِكُمْ كَمَا نَبَغِ فَارْتَدًّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا الْبَغَى الْبَغَى الْبَغَى، و الارتداد العود على بدء، و المراد بالآثار آثار أقدمهما، و القصص اتباع الأثر و المعنى قال موسى: ذلك الذى وقع من أمر الحوت هو الذى كنا نطلبه فرجعا على آثارهما يقصانها قصصا و يتبعانها اتباعا.

و قوله: «ذَلِكُمْ كَمَا نَبَغِ فَارْتَدًّا» يكشف عن أن موسى كان مأمورا من طريق الوحي ان يلقى العالم فى مجمع البحرين و كان علامه المحل الذى يجده و يلقاه فيه ما وقع من أمر الحوت إما خصوص قضيه حياته و ذهابه فى البحر أو بنحو الابهام و العموم كفقده الحوت أو حياته أو عود الميت حيا و نحو ذلك، و لذلك لما سمع موسى من فتاه ما سمع من أمر الحوت قال ما قال، و رجعا الى المكان الذى فارقه فوجدا عبدا، الخ.

قوله تعالى: فَوَحَّيْنَا عِبَادَنَا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا السَّخ. كل نعمه فإنها رحمه منه تعالى لخلقه لكن منها ما تتوسط فيه الأسباب الكونية و تعمل فيه كالنعم الظاهرية بأنواعها، و منها ما لا يتوسط فيه شيء منها كالنعم الباطنية من النبوه و الولايه بشعبها و مقاماتها، و تقييد الرحمه بقوله: «مِنْ عِنْدِنَا» الظاهر في أنها من موهبته لا صنع لغيره فيها يعطى أنها من القسم الثاني أعنى النعم الباطنيه ثم اختصاص الولايه بحقيقتها به تعالى كما قال: فَالَّذِي هُوَ الْوَلِيُّ (الشورى ٩/١)، و كون النبوه مما للملائكه الكرام فيه عمل كالوحي و نحوه يؤيد أن يكون المراد بقوله: «رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا» حيث جىء بنون العظمه و لم يقل: من عندى هو النبوه دون الولايه، و بهذا يتأيد تفسير من فسر الكلمه بالنبوه و الله أعلم.

و أما قوله: وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَمَدْنَا عِلْمًا فَهُوَ أَيْضًا كَالرَّحْمَةِ الَّتِي مِنْ عِنْدِهِ عِلْمٌ لَا صَنَعَ فِيهِ لِلْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ كَالْحَسَنِ وَ الْفَكْرِ حَتَّى يَحْصَلَ مِنْ طَرِيقِ الْاِكْتِسَابِ وَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: «مِنْ لَمَدْنَا» فَهُوَ عِلْمٌ وَهَبِي غَيْرِ اِكْتِسَابِي يَخْتَصُّ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَ آخِرُ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ عِلْمًا بِتَأْوِيلِ الْحَوَادِثِ.

قوله تعالى: قَالَ لَهُ مُوسَى هَيْلُ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا الرُّشْدَ خِلَافَ الْغَى وَ هُوَ إِصَابَةُ الصَّوَابِ، وَ هُوَ فِي الْآيَةِ مَفْعُولٌ لَهُ أَوْ مَفْعُولٌ بِهِ، وَ الْمَعْنَى قَالَ لَهُ مُوسَى: هَلْ أَتَّبِعُكَ اتِّبَاعًا مَبْنِيًّا عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ وَ هُوَ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ لِأَرْشُدَ بِهِ أَوْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ أَمْرًا ذَا رُشْدٍ.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسِيَّطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا نَفِيٌّ مُؤَكَّدٌ لِصَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَشَاهِدُهُ مِنْهُ فِي طَرِيقِ التَّعْلِيمِ وَ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ تَأْكِيدُ الْكَلَامِ بِإِنْ، وَ إِيْرَادُ الصَّبْرِ نَكَرَهُ فِي سِيَاقِ النَفْيِ الدَّالِّ عَلَى إِيْرَادِهِ الْعَمُومِ، وَ نَفْيُ الصَّبْرِ بِنَفْيِ الْاِسْتِطَاعَةِ الَّتِي هِيَ الْقُدْرَةُ فَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُقَالَ: لَنْ تَصْبِرَ، وَ إِيْرَادُ النَفْيِ بِلَنْ وَ لَمْ يُقَلَّ: لَا تَصْبِرُ وَ لِلْفِعْلِ تَوْقُفٌ عَلَى الْقُدْرَةِ فَهُوَ نَفْيُ الْفِعْلِ بِنَفْيِ أَحَدِ أَسْبَابِهِ ثُمَّ نَفْيُ الصَّبْرِ بِنَفْيِ سَبَبِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَ هُوَ إِحْاطَةُ الْخَبْرِ وَ الْعِلْمُ بِحَقِيقَةِ الْوَاقِعِ

و تأويلها حتى يعلم أنها يجب أن تجرى على ما جرت عليه.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا الخبر العلم و هو تمييز و المعنى لا يحيط به خبرك.

قوله تعالى: قَالَ سَيَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا وعده الصبر لكن قيده بالمشيه فلم يكذب إذ لم يصبر، وقوله: «وَلَا أَعْصِي» الخ؛ عطف على «صَابِرًا» لما فيه من معنى الفعل فعدم المعصيه الذى وعده أيضا مقيد بالمشيه و لم يخلف الوعد إذ لم ينتهى بنهيه عن السؤال.

قوله تعالى: قَالَ فَإِنْ أَبْتَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا الظاهر أن «مِنْهُ» متعلق بقوله: «ذِكْرًا» و إحداث الذكر من الشيء الابتداء به من غير سابقه و المعنى فإن اتبعتنى فلا- تسألنى عن شيء تشاهده من أمرى تشق عليك مشاهدته حتى أبتدئ أنا بذكر منه، و فيه إشارة الى أنه سيشاهد منه امورا تشق عليه مشاهدتها و هو سيبينها له لكن لا ينبغى لموسى أن يبتدئه بالسؤال و الاستخبار بل ينبغى أن يصبر حتى يبتدئه هو بالإخبار.

قوله تعالى: فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَ حَقَّتْ لِي عُقُوبَةُ اللَّهِ عَلَيَّ بِمَا كَفَرْتُ وَأَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ العظيمه، و قوله: «فَأَنْطَلَقَا» تفریع على ما تقدمه، و المنطلقان هما موسى و الخضر و هو ظاهر فى أن موسى لم يصحب فتاه فى سيره مع الخضر، و اللام فى قوله: «لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا» للغايه فإن الغرق و إن كان عاقبه للخرق و لم يقصده الخضر البتة لكن العاقبه الضروريه ربما تؤخذ غايه مقصوده ادعاه لوضوحها كما يقال: أ تفعل كذا لتهلك نفسك؟ و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا إنكار لسؤال موسى و تذكير لما قاله من قبل: «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ» الخ.

قوله تعالى: قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا الرَّهَقِ الْغَثِيانِ بِالْقَهْرِ وَالْأَرْهَاقِ التَّكْلِيفِ، وَالْمَعْنَى لَا تُؤَاخِذْنِي بِنَسْيَانِي الْوَعْدِ وَغَفَلَتِي عَنْهُ وَلَا تَكْلِفْنِي عُسْرًا مِنْ أَمْرِي، وَرَبَّمَا يَفْسِرُ النِّسْيَانَ بِمَعْنَى التَّرْكَ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ، وَالْكَلَامُ اعْتِدَارٌ عَلَى أَى حَالٍ.

قوله تعالى: فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا فِي الْكَلَامِ بَعْضُ الْحَذْفِ لِلإِيجَازِ وَالتَّقْدِيرِ: فَخَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ وَانْطَلَقَا.

و فِي قَوْلِهِ: «حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ» الْخ؛ «فَقَتَلَهُ» مَعْطُوفٌ عَلَى الشَّرْطِ بِفَاءِ التَّفْرِيعِ وَ «قَالَ» جَزَاءُ «إِذَا» عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ الْكَلَامِ: وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ الْعَمْدَةَ فِي الْكَلَامِ ذَكَرَ اعْتِرَاضَ مُوسَى لِذِكْرِ الْقَتْلِ، وَنَظِيرَتَهُ الْآيَةَ الْوَالِيَةَ الْوَاحِدَةَ «فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ إِلَى قَوْلِهِ - قَالَ لَوْ شِئْنَا لَكُنَّا بِهَا مُبْدِئِينَ» الْخ؛ بِخِلَافِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبْنَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ» فَإِنَّ جَزَاءَ «إِذَا» فِيهَا «خَرَقَهَا» وَ قَوْلِهِ: «قَالَ» كَلَامٌ مَفْصُولٌ مُسْتَأْنَفٌ.

و قَوْلِهِ: «أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً» الزَّكِيَّةُ الطَّاهِرَةُ، وَ الْمُرَادُ طَهَارَتِهَا مِنَ الذَّنُوبِ لِعَدَمِ الْبُلُوغِ كَمَا يَشْعُرُ بِهِ قَوْلُهُ: «غُلَامًا» وَ الْاسْتِفْهَامُ لِلانْكَارِ، وَ الْقَائِلُ مُوسَى.

و قَوْلِهِ: «بِغَيْرِ نَفْسٍ» أَى بِغَيْرِ قَتْلِ مِنْهَا لِنَفْسٍ قَتْلًا - مَجُوزًا لِقَتْلِهَا قِصَاصًا وَ قُودًا فَإِنَّ غَيْرَ الْبَالِغِ لَا - يَتَحَقَّقُ مِنْهُ الْقَتْلُ الْمَوْجِبُ لِلْقِصَاصِ، وَ رَبَّمَا اسْتِفِيدَ مِنْ قَوْلِهِ: «بِغَيْرِ نَفْسٍ» أَنَّهُ كَانَ شَابًا بِالْغَا، وَ لَا دَلَالَةَ فِي إِطْلَاقِ الْغُلَامِ عَلَيْهِ عَلَى عَدَمِ بُلُوغِهِ لِأَنَّ الْغُلَامَ يُطْلَقُ عَلَى الْبَالِغِ وَ غَيْرِهِ فَالْمَعْنَى أَقْتَلْتُ بِغَيْرِ قِصَاصِ نَفْسِ بَرِيئِهِ مِنَ الذَّنُوبِ الْمُسْتَوْجِبَةِ لِلْقَتْلِ؟ إِذْ لَمْ يَظْهَرِ لِهَمَا مِنَ الْغُلَامِ شَيْءٌ يَسْتَوْجِبُهُ.

و قَوْلِهِ: لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا أَى مُنْكَرًا يَسْتَنْكِرُهُ الطَّبِيعُ وَ لَا يَعْرِفُهُ الْمَجْتَمَعُ وَ قَدْ عَدَّ خَرَقَ السَّفِينَةِ إِمْرًا أَى دَاهِيَةً يَسْتَعْقِبُ مَصَائِبَ لَمْ يَقَعْ شَيْءٌ مِنْهَا بَعْدَ وَ قَتْلِ النَّفْسِ نَكَرًا أَوْ مُنْكَرًا

و هو أفضع و أفجع عند الناس من الخرق الذى يستوجب عادة هلاك النفوس لكن لا بالمباشرة فعلا.

قوله تعالى: قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا معناه ظاهر و زياده «لَكَ» نوع تفریع له أنه لم يصغ الى وصيته و إيماء الى كونه كأنه لم يسمع قوله له أول مره: «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» أو سمعه و حسب أنه لا- يعنيه بل يقصد به غيره كأنه يقول:

إنما عنيت بقوله: إنك لن تستطيع، الخ؛ إياك دون غيرك.

قوله تعالى: قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعِيدًا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا الضمير فى «بَعِيدًا» راجع الى هذه المره أو المسأله اى ان سألتك بعد هذه المره او هذه المسأله فلا تصاحبني اى يجوز لك ان لا تصاحبني.

و قوله: «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا» اى بلغت عذرا و وجدته كائنا ذلك من لدنى اذ بلغ عذرك النهايه من عندى.

قوله تعالى: فَانْطَلِقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيْتُمَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْتُمَا أَهْلَهَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الكلام فى قوله: «فَانْطَلِقَا» «فَأَبْوَا» «فَوَحِيدًا» «فَأَقَامَهُ» كالكلام فى قوله فى الآيه السابقه:

«فَانْطَلِقَا»

«فَقَاتَلَهُ» .

و قوله: «اسْتَطَعْتُمَا أَهْلَهَا» صفة لقريه و لم يقل «استطعماهم» لرداءه قولنا: قريه استطعماهم بخلاف مثل قولنا: أتى قريه على إرادته أتى أهل قريه لأن للقريه نصيبا من الاتيان فيجوز وضعها موضع أهلها مجازا بخلاف الاستطعام لأنه لأهلها خاصه، و على هذا فليس قوله: «أَهْلَهَا» من وضع الظاهر موضع المضمير.

و لم يقل: حتى إذ أتيا قريه استطعما أهلها لأن القريه كانت تتمحض حينئذ فى معناها الحقيقى و الغرض العمده- كما عرفت- متعلق بالجزاء أعنى قوله: «قَالَ لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا» و فيه ذكر أخذ الأجر و هو إنما يكون من أهلها لا منها فقوله: «أَتَيْتُمَا أَهْلَ قَرْيَةٍ» دليل

على أن إقامة الجدار كانت بحضور من أهل القرية و هو الذى أغنى أن يقال: لو شئت لتخذت عليه منهم أو من أهلها أجراً، فافهم ذلك.

و المراد بالاستطعام طلب الطعام بالإضافة و لذا قال: «فَأَبْوَأُ أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا» و قوله:

«فَوَجِدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ» الانقضاض السقوط، و إرادته الانقضاض مجاز عن الاشراف على السوق و الانهدام، و قوله: «فَأَقَامَهُ» أى أثبتته الخضر باصلاح شأنه و لم يذكر سبحانه كيف أقامه؟ بنحو خرق العاده أم ببناء أو ضرب دعامة؟ غير أن قول موسى «لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا» مشعر بأن كان بعمل غير خارق فإن المعهود من أخذ الأجر، ما كان على العاديات.

و قوله: «قَالَ لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ (1) عَلَيْهِ أَجْرًا» و أخذ بمعنى واحد، و ضمير «عَلَيْهِ» للاقامه المفهومه من «فَأَقَامَهُ» و هو مصدر جائز الوجهين، و السياق يشهد أنهما كانا جائعين فذكره موسى أخذ الاجره على عمله إذ لو كان أخذ أجراً أمكنهما أن يشتريا به شيئاً من الطعام يسدان به جوعهما.

قوله تعالى: «قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْهَيْتَ عَلَيْهِ صَبْرًا» الإشاره بهذا الى قول موسى أى هذا القول سبب فراق بينى و بينك أو الى الوقت أى هذا الوقت وقت فراق بينى و بينك كما قيل، و يمكن أن تكون الإشاره الى نفس الفراق، و المعنى هذا الفراق قد حضر كأنه كان أمراً غائباً فحضر عند قول موسى «لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ» الخ؛ و قوله: «بَيْنِي وَ بَيْنِكَ» و لم يقل بيننا للتأكيد، و إنما قال الخضر هذا القول بعد الاعتراض الثالث لأن موسى كان قبل ذلك يعتذر اليه كما فى الأول أو يستمهله كما فى الثانى، و أما الفراق بعد الاعتراض الثالث فقد أعذره موسى فيه إذ قال بعد الاعتراض الثانى: «إِنْ

ص : ٧٠

(١- ١). قرئ بالتشديد من «اتخذ» و بالتخفيف من «تخذ».

سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي» الخ؛ و الباقي ظاهر.

قول تعالى أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ الخ؛ شروع فى تفصيل ما وعد إجمالاً بقوله: «سَأَلْتُكَ» الخ؛ وقوله: «أَنْ أَعْيَبَهَا» أى أجعلها معيبة و هذه قرينه على أن المراد بلك سفينه كل سفينه غير معيبة.

وقوله: وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ وراء بمعنى الخلف و هو الظرف المقابل للظرف الآخر الذى يواجهه الانسان و يسمى قدام و أمام لكن ربما يطلق على الظرف الذى يغفل عنه الانسان و فيه من يريد به سوء أو مكروه و إن كان قدامه أو فيه ما يعرض عنه الانسان أو فيه ما يشغل الانسان بنفسه عن غيره كأن الانسان ولى وجهه الى جهه تخالف جهته قال تعالى:

فَمَنْ ابْتَغَىٰ وِرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (المؤمنون ٧٧)، و قال: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا - وَحِيًّا أَوْ مِنْ وِرَاءِ حِجَابٍ (الشورى ٥١)، و قال: وَاللَّهُ مِنْ وِرَائِهِمْ (البروج ٢٠).

و محصل المعنى: أن السفينه كانت لعدده من المساكين يعملون بها فى البحر و يتعيشون به و كان هناك ملك جبار أمر بغصب السفن فأردت بخرقها أن أحدث فيها عيباً فلا يطمع فيها الجبار و يدعها لهم.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا الأظهر من سياق الآيه و ما سيأتى من قوله: «وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» أن يكون المراد بالخشية التحذر عن رأفه و رحمه مجازاً لا معناه الحقيقى الذى هو التأثير القلبى الخاص المنفى عنه تعالى و عن أنبيائه كما قال: وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب ٣٩)، و أن يكون المراد بقوله: «أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا» أن يغشيها ذلك أى يحمل والديه على الطغيان و الكفر بالاغواء و التأثير الروحى لمكان جبهما الشديد له لكن قوله فى الآيه التالىة:

«وَ أَقْرَبَ رُحْمًا» لا تخلو من تأييد لكون «طُغْيَانًا وَ كُفْرًا» تمييزين عن الارهاق أى وصفين

للغلام دون أبويه.

قوله تعالى: فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا المراد بكونه خيرا منه زكاه كونه خيرا منه صلاحا و ايمانا بقرينه مقابلته الطغيان و الكفر فى الآيه السابقه، و أصل الزكاه فيما قيل الطهاره، و المراد بكونه أقرب منه رحما كونه أوصل للرحم و القرابه فلا- يرهقهما، و أما تفسيره بكونه أكثر رحمه بهما فلا يناسبه قوله: «أقرب منه» تلك المناسبه، و هذا- كما عرفت- يؤيد كون المراد من قوله: «يُرْهِقُهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا» فى الآيه السابقه إرهاقه اياهما بطغيانه و كفره لا تكليفه إياهما الطغيان و الكفر و إغشاؤهما ذلك.

و الآيه- على أى حال- تلوح الى أن إيمان أبويه كان ذا قدر عند الله و يستدعى ولدا مؤمنا صالحا يصل رحمهما و قد كان المقضى فى الغلام خلاف ذلك فأمر الله الخضر بقتله ليبدلهما خيرا منه زكاه و أقرب رحما.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا لَا يُعَدُّ أَنْ يَسْتَظْهَرِ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْمَدِينَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرَ الْقَرِيَةِ الَّتِي وَجَدَا فِيهَا الْجِدَارَ فَأَقَامَهُ، اذ لو كانت هى هى لم يكن كثير حاجه الى ذكر كون الغلامين اليتيمين فيها فكأن العنايه متعلقه بالاشاره الى أنهما و من يتولى أمرهما غير حاضرين فى القرية.

و ذكر يتم الغلامين و وجود كنز لهما تحت الجدار و لو انقض لظهر و ضاع و كون أبيهما صالحا كل ذلك توطئه و تمهيد لقوله: «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا» و قوله:

«رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» تعليل للاراده.

و فى الآيه دلالة على أن صلاح الإنسان ربما ورث أولاده أثرا جميلا و أعقب فيهم السعاده و الخير فهذه الآيه فى جانب الخير نظيره قوله تعالى: وَ لِيُخْشَى الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ (النساء/٩).

و قوله: **وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** كناية عن أنه إنما فعل ما فعل عن أمر غيره و هو الله سبحانه لا عن أمر أمرته به نفسه.

و قوله: **ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا** أى ما لم تستطع عليه صبرا من اسطاع يسطيع بمعنى استطاع و قد تقدم فى أول تفسير سورة آل عمران أن التأويل فى عرف القرآن هى الحقيقة التى يتضمنها الشىء و يؤول إليها و يبنى عليها كتأويل الرؤيا و هو تعبيرها، و تأويل الحكم و هو ملاكه و تأويل الفعل و هو مصلحته و غايته الحقيقية، و تأويل الواقعة و هو علتها الواقعيه و هكذا.

فقوله: **«ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»** الخ؛ إشاره منه الى أن الذى ذكره للوقائع الثلاث و أعماله فيها هو السبب الحقيقى لها لا ما حسبه موسى من العناوين المترائيه من أعماله كالتسبب الى هلاك الناس فى خرق السفينه و القتل من غير سبب موجب فى قتل الغلام و سوء تدبير المعاش فى إقامة الجدار (١)(٢).

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٣ الى ١٠٢]

إشارة

و يَسْتَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا (٨٤) فَاتَّبِعْ سَبِيًّا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَحَدَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَحَدَّ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُتَّخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا (٨٧) وَ أَمَا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَ سَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ اتَّبِعْ سَبِيًّا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَحَدَّهَا تَطُّعَ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا (٩٠) كَذَلِكَ وَ قَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ اتَّبِعْ سَبِيًّا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَحَدَّ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا (٩٦) فَمَا اسَّيَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسَّيَطَعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كَانُوا لَا يَسْتَشْعِرُونَ سَمْعًا (١٠١) أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)

ص: ٧٣

١- ١). الكهف ٦٠-٨٢: بحث تاريخى فى فصلين (قصه موسى و الخضر فى القرآن، قصه الخضر).

٢- ٢). الكهف ٦٠-٨٢: بحث روائى حول قصه موسى و الخضر.

قوله تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا أَى يسألونك عن شأن ذى القرنين. و الدليل على ذلك جوابه عن السؤال بذكر شأنه لا تعريف شخصه حتى اكتفى بلقبه فلم يتعد منه الى ذكر اسمه.

و الذكر إما مصدر بمعنى المفعول و المعنى قل سأتلو عليكم منه أى من ذى القرنين شيئاً مذكوراً، وإما المراد بالذكر القرآن—و قد سماه الله في مواضع من كلامه بالذكر و المعنى قل سأتلو عليكم منه أى من ذى القرنين أو من الله قرآنا و هو ما يتلو هذه الآية من قوله: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ» الى آخر القصة؛ و المعنى الثانى أظهر.

قوله تعالى: إِذْ نَا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا التمكن الإقدار يقال: مكنته و مكنت له أى أقدرته فالتمكن فى الأرض القدره على التصرف فيه

بالمملك كيفما شاء و أراد. و ربما يقال: إنه مصدر مصوغ من المكان بتوهم أصاله الميم فالتمكين إعطاء الاستقرار و الثبات بحيث لا يزيله عن مكانه أى مانع مزاحم.

و السبب الوصله و الوسيله فمعنى إيتائه سببا من كل شىء لله أن يؤتى من كل شىء يتوصل به الى المقاصد الهامه الحيويه ما يستعمله و يستفيد منه كالعقل و العلم و الدين و قوه الجسم و كثره المال و الجند وسعه الملك و حسن التدبير و غير ذلك و هذا امتنان منه تعالى على ذى القرنين و إعظام لأمره بأبلغ بيان، و ما حكاه تعالى من سيرته و فعله و قوله المملوءه حكمه و قدره يشهد بذلك.

قوله تعالى: فَأَتَّبَعَ سَبَبًا الْاِتِّبَاعِ اللَّحُوقِ أَى لِحَقِّ سَبَبًا و اتخذ وصله وسيله يسير بها نحو مغرب الشمس.

قوله تعالى: حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا تَدُلُّ «حَتَّى» عَلَى فِعْلِ مَقْدَرٍ وَ تَقْدِيرِهِ «فَسَارَ حَتَّى إِذَا بَلَغَ» وَ الْمُرَادُ بِمَغْرِبِ الشَّمْسِ آخِرَ الْمَعْمُورَةِ يَوْمَئِذٍ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا» .

و ذكروا أن المراد بالعين الحمئه العين ذات الحمأه و هى الطين الأسود، و أن المراد بالعين البحر فربما تطلق عليه، و أن المراد بوجودان الشمس تغرب فى عين حمئه أنه وقف على ساحل بحر لا مطمع فى وجود بر وراءه فرأى الشمس كأنها تغرب فى البحر لمكان انطباق الافق عليه قيل: و ينطبق هذه العين الحمئه على المحيط الغربى و فيه الجزائر الخالدات التى كانت مبدأ سابقا ثم غرقت.

و قرئ «فى عين حامية» أى حاره، و ينطبق على النقاط القريبه من خط الاستواء من المحيط الغربى المجاوره لإفريقيه و لعل ذا القرنين فى رحلته الغربيه بلغ سواحل إفريقيه.

قوله تعالى: قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا

القول المنسوب اليه تعالى في القرآن يستعمل في الوحي النبوي و في الابلاغ بواسطه الوحي كقوله تعالى: وَ قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ (البقره ٣٥) وقوله: وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (البقره ٥٨)، و يستعمل في الالهام الذي ليس من النبوه كقوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ (القصص ٧).

و به يظهر أن قوله: «قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْيَيْنِ» الخ؛ لا يدل على كونه نبيا يوحى اليه لكون قوله تعالى أعم من الوحي المختص بالنبوه و لا يخلو قوله: «ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ» الخ؛ حيث أورد في سياق الغيبه بالنسبه اليه تعالى من إشعار بأن مكالمته كانت بتوسط نبى كان معه فملكه نظير ملك طالوت في بنى إسرائيل بإشاره من نبينهم و هدايته.

و قوله: «إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا» أى إما أن تعذب هؤلاء القوم و إما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن، فحسنا مصدر بمعنى الفاعل قائم مقام موصوفه أو هو وصف للمبالغه، و قد قيل: إن في مقابله العذاب باتخاذ الحسن إيماء الى ترجيحه و الكلام ترديد خبرى بداعى الاباحه فهو إنشاء فى صورته الإخبار، و المعنى لك أن تعذبهم و لك أن تعفو عنهم كما قيل، لكن الظاهر أنه استخبار عما سيفعله بهم من سياسه أو عفو، و هو الأوفق بسياق الجواب المشتمل على التفصيل بالتعذيب و الإحسان «إِمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ» الخ؛ إذ لو كان قوله: «إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» الخ؛ حكما تخييريا لكان قوله: «إِمَّا مَنْ ظَلَمَ» الخ؛ تقريرا له و إيدانا بالقبول و لا كثير فائده فيه.

و محصل المعنى: استخبرناه ما ذا تريد أن تفعل بهم من العذاب و الإحسان و قد غلبتهم و استوليت عليهم؟ فقال: نعذب الظالم منهم ثم يرد الى ربه فيعذبه العذاب النكر، و نحسن الى المؤمن الصالح و نكلفه بما فيه يسر.

و لم يذكر المفعول فى قوله: «إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» بخلاف قوله: «إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا» لأن جميعهم لم يكونوا ظالمين، و ليس من الجائز تعميم العذاب لقوم هذا شأنهم بخلاف تعميم

قوله تعالى: **أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا** المنكر غير المعهود أى يعذبه عذابا لا عهد له به، ولا يحتسبه و يترقبه.

وقد فسر الظلم بالإشراك. و التعذيب بالقتل فمعنى **«أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ»** أما من أشرك و لم يرجع عن شركه فسوف نقتله، و كأنه مأخوذ من مقابله **«مَنْ ظَلَمَ»** بقوله: **«مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا»** لكن الظاهر من المقابلة أن يكون المراد بالظالم أعم ممن أشرك و لم يؤمن بالله أو آمن و لم يشرك لكنه لم يعمل صالحا بل أفسد فى الأرض، و لو لا تقييد مقابله بالإيمان لكان ظاهر الظلم هو الافساد من غير نظر الى الشرك لأن المعهود من سيره الملوك إذا عدلوا أن يطهروا أرضهم من فساد المفسدين، و كذا لا دليل على تخصيص التعذيب بالقتل.

قوله تعالى: **وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ** الخ؛ **«صَالِحًا»** وصف اقيم مقام موصوفه و كذا الحسنى، و **«جَزَاءً»** حال أو تمييز أو مفعول مطلق و التقدير: و أما من آمن و عمل عملا صالحا فله المثوبه الحسنى حال لكونه مجزيا أو من حيث الجزاء أو نجزيه جزاء.

و قوله: **وَ سَيَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسِيرًا** اليسر بمعنى الميسور وصف اقيم مقام موصوفه و الظاهر أن المراد بالأمر الأمر التكليفى و تقدير الكلام: و سنقول له قولا ميسورا من أمرنا أى نكلفه بما يتيسر له و لا يشق عليه.

قوله تعالى: **ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا** حتى إذا بلغ مطلع الشمس الخ؛ أى ثم هيا سببا للسير فسار نحو المشرق حتى إذا بلغ الصحراء من الجانب الشرقى فوجد الشمس تطلع على قوم بدويين لم نجعل لهم من دونها سترا.

و المراد بالستر ما يستتر به من الشمس، و هو البناء و اللباس أو خصوص البناء أى كانوا يعيشون على الصعيد من غير أن يكون لهم بيوت يأوون إليها و يستترون بها من الشمس

و عراه لا- لباس عليهم، و إسناد ذلك الى الله سبحانه في قوله: «لَمْ نَجْعَلْ لَهُمُ» الخ؛ إشاره الى أنهم لم يتنبهوا بعد لذلك و لم يتعلموا بناء البيوت و اتخاذ الخيام و نسج الأثواب و خياطتها.

قوله تعالى: كَذَلِكَ وَ قَدْ أَحْطَأْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا الظاهر أن قوله: «كَذَلِكَ» إشاره الى وصفهم المذكور فى الكلام، و تشبيه الشىء بنفسه مبنيًا على دعوى المغايره يفيد نوعا من التأكيد، و قد قيل فى المشار اليه بذلك وجوه آخر بعيدة عن الفهم.

و قوله: «وَ قَدْ أَحْطَأْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا» الضمير لذى القرنين، و الجملة حاله و المعنى أنه اتخذ و سيله السير و بلغ مطلع الشمس و وجد قوما كذا و كذا فى حال أحاط فيها علمنا و خبرنا بما عنده من عده و عده و ما يجريه أو يجرى عليه، و الظاهر أن إحاطه علمه تعالى بما عنده كناية عن كون ما اختاره و أتى به بهدايه من الله و أمر، فما كان يرد و لا يصدر إلا عن هدايه يهتدى بها و أمر يأتمره كما أشار الى مثل هذا المعنى عند ذكر مسيره الى المغرب بقوله: «قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ» الخ.

فالآيه أعنى قوله: «وَ قَدْ أَحْطَأْنَا» الخ؛ فى معناها الكنائى نظيره قوله: «وَ اصْبِرْ فُلُوكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا» (هود ٣٧)، و قوله: «أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» (النساء ١٦٦)، و قوله: «وَ أَحْطَأْنَا بِمَا لَدَيْهِمْ» (الجن ٢٨).

قوله تعالى: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ السد الجبل و كل حاجز يسد طريق العبور و كأن المراد بهما الجبلان، و قوله: «وَ وَجَدَ مِنْ دُونَهُمَا قَوْمًا» أى قريبا منهما، و قوله: «لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» كناية عن بساطتهم و سداجه فهمهم، و ربما قيل: كناية عن غرابه لغتهم و بعدها عن اللغات المعروفة عندهم، و لا يخلو عن بعد.

قوله تعالى: قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ الخ؛ الظاهر أن القائلين هم القوم الذين وجدهم من دون الجبلين، و يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ جيلان من الناس

كانوا يأتونهم من وراء الجبلين فيغيرون عليهم و يعمونهم قتلا و سبيا و نهبا و الدليل عليه السياق بما فيه من ضمائر اولى العقل و عمل السد بين الجبلين و غير ذلك.

و قوله: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا» الخرج ما يخرج من المال ليصرف فى شىء من الحوائج عرضوا عليه أن يعطوه مالا على أن يجعل بينهم و بين يأجوج و مأجوج سدا يمنع من تجاوزهم و تعديهم عليهم.

قوله تعالى: «قَالَ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا أَصْل «مَكَّنِّي» مَكَّنِي ثم ادغمت إحدى النونين فى الاخرى، و الردم السد و قيل السد القوى، و على هذا فالتعبير بالردم فى الجواب و قد سألوه سدا إجابته و وعد بما هو فوق ما استدعوه و أملوه.

و قوله: «قَالَ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ» استغناء من ذى القرنين عن خرجهم الذى عرضوه عليه على أن يجعل لهم سدا يقول: ما مكننى فيه و أقرنى عليه ربي من السعه و القدره خير من المال الذى تعدوننى به فلا حاجه لى اليه.

و قوله: «فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» الخ؛ القوه ما يتقوى به على الشىء و الجملة تفريع على ما يتحصل من عرضهم و هو طلبهم منه أن يجعل لهم سدا، و محصل المعنى أما الخرج فلا حاجه لى اليه، و أما السد فإن أردتموه فأعينونى بما أتقوى به على بنائه كالرجال و ما يستعمل فى بنائه- و قد ذكر منها زبر الحديد و القطر و النفخ بالمنافخ- أجعل لكم سدا قويا.

قوله تعالى: «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ» الى آخر الآيه؛ الزبر بالضم فالفتح جمع زبره كغرف و غرفه و هى القطعه، و ساوى بمعنى سوى على ما قيل و قرئ «سوى» و الصدفين تشبيه الصدف و هو أحد جانبي الجبل ذكر بعضهم أنه لا يقال إلا إذا كان هناك جبل آخر يوازيه بجانبه فهو من الأسماء المتضايفه كالزوج و الضعف و غيرهما و القطر النحاس أو الصفر المذاب و إفراغه صبه على الثقب و الخلل و الفرج.

وقوله: «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ» أى أعطوني إياها لأستعملها فى السد و هى من القوه التى استعانهم فيها، و لعله خصها بالذكر و لم يذكر الحجارة و غيرها من لوازم البناء لأنها الركن فى استحكام بناء السد فجمله «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ» بدل البعض من الكل من جملة «فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ» او الكلام بتقدير قال، و هو كثير فى القرآن.

وقوله: «حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا فِي الْكَلَامِ إِيْجَازًا بِالْحَذْفِ وَالتَّقْدِيرِ فاعانوه بقوة و آتوه ما طلبه منهم فبنى لهم السد و رفعه حتى إذا سوى بين الصدفين قال: انفخوا.

وقوله: «قَالَ انْفُخُوا» الظاهر أنه من الإعراض عن متعلق الفعل للدلالة على نفس الفعل و المراد نصب المنافخ على السد لإحماء ما وضع فيه من الحديد و إفراغ القطر على خلله و فرجه.

وقوله: «حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ» الخ؛ فى الكلام حذف و إيجاز، و التقدير فنفخ حتى إذا جعله أى المنفوخ فيه أو الحديد نارا أى كالنار فى هيئته و حرارته فهو من الاستعاره.

وقوله: «قَالَ آتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا» أى آتوني قطرا افرغه و أصبه عليه ليسد بذلك خلله و يصير السد به مصمتا لا ينفذ فيه نافذ.

قوله تعالى: «فَمَا اسْتَبَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَبَاعُوا لَهُ نَقْبًا اسطاع و استطاع واحد، و الظهور العلو و الاستعلاء، و النقب الثقب، قال الراغب فى المفردات: النقب فى الحائط و الجلد كالثقب فى الخشب انتهى و ضمائر الجمع ليأجوج و مأجوج. و فى الكلام حذف و إيجاز، و التقدير فبنى السد فما استطاع يأجوج و مأجوج أن يعلوه لارتفاعه و ما استطاعوا ان ينقبوه لاستحكامه.

قوله تعالى: «قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَيْدٌ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعَيْدُ رَبِّي حَقًّا الدكاء الدك و هو أشد الدق مصدر بمعنى اسم المفعول، و قيل:

المراد الناقه الدكاء وهى التى لا سنام لها و هو على هذا من الاستعاره و المراد به خراب السد كما قالوا.

و قوله: «قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي» أى قال ذو القرنين-بعد ما بنى السد-:هذا أى السد رحمه من ربي أى نعمه و وقايه يدفع به شر يأجوج و مأجوج عن امم من الناس.

و قوله: «فَإِذَا جَاءَ وَعْغِدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَاةً» فى الكلام حذف و إيجاز و التقدير و تبقى هذه الرحمه الى مجيء و وعد ربي فإذا جاء و وعد ربي جعله مدكوكا و سوى به الأرض.

و المراد بالوعد إما وعد منه تعالى خاص بالسد أنه سيندك عند اقتراب الساعه فيكون هذا ملحمة أخبر بها ذو القرنين، و إما وعده تعالى العام بقيام الساعه الذى يدك الجبال و يخرب الدنيا، و قد أكد القول بجمله «وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا» .

قوله تعالى: «و تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ الخ؛ ظاهر السياق أن ضمير الجمع للناس و يؤيده رجوع ضمير «فَجَمَعْنَاهُمْ» الى الناس قطعاً لأن حكم الجمع عام.

و فى قوله: «بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ» استعاره، و المراد أنهم يضطربون يومئذ من شدة الهول اضطراب البحر باندفاع بعضه الى بعض فيرتفع من بينهم النظم و يحكم فيهم الهرج و المرج و يعرض عنهم ربههم فلا- يشملهم برحمته، و لا- يصلح شأنهم بعنايته.

و الآيه من كلام الله سبحانه و ليست من تمام كلام ذى القرنين و الدليل عليه تغيير السياق من الغيبه الى التكلم مع الغير الذى هو سياق كلامه «إِذَا مَكَتَا لَهُ» «قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ»، و لو كان من تمام كلام ذى القرنين لقليل: و ترك بعضهم على حذاء قوله: «جَعَلَهُ دَكَاةً» .

و قوله: «و نُفِخَ فِي الصُّورِ الخ؛ هى النفخه الثانيه التى فيها الإحياء بدليل قوله:

«فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا» .

قوله تعالى: الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كَانُوا لَا

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا تَفْسِيرًا لِلْكَافِرِينَ وَهُؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ ضَرَبَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذِكْرِهِ سَدًا حَاجِزًا - وَبِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ تَعْرُضُ لِحَالِهِمْ بَعْدَ ذِكْرِ سَدِ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ - فَجَعَلَ أَعْيُنَهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنِ ذِكْرِهِ وَأَخَذَ اسْتَطَاعَةَ السَّمْعِ عَنِ آذَانِهِمْ فَانْقَطَعَ الطَّرِيقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَقِّ وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ.

فإن الحق إنما ينال إما من طريق البصر بالنظر إلى آيات الله سبحانه والاهتداء إلى ما تدل عليه وتهدى إليه، وإما من طريق السمع باستماع الحكمة والموعظة والقصاص والعبر، ولا بصر لهؤلاء ولا سمع.

قوله تعالى: أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ الخ؛ الاستفهام للانكار قال في المجمع: معناه أ فحسب الذين جحدوا توحيد الله أن يتخذوا من دوني أربابا ينصرونهم و يدفعون عقابي عنهم قال: ويدل على هذا المحذوف قوله: «إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا» انتهى.

وقوله: «إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا» أي شيئاً يتمتعون به عند أول نزولهم الدار الآخرة شبه الدار الآخرة بالدار ينزلها الضيف و جهنم بالنزل الذي يكرم به الضيف النزول لدى أول وروده، ويزيد هذا التشبيه لطفًا وجمالًا ما سيأتي بعد آيتين أنهم لا يقيم لهم وزن يوم القيامة فكأنهم لا يلبثون دون أن يدخلوا النار، وفي الآية من التهكم ما لا يخفى، وكأنما قوبل به ما سيحكي من تهكمهم في الدنيا بقوله: «وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا» (١)(٢).

ص: ٨٣

١- ١). الكهف ٨٣-١٠٢: بحث روائي حول ذى القرنين.

٢- ٢). الكهف ٨٣-١٠٢: كلام حول قصه ذى القرنين وهو بحث قرآني و تاريخي في فصول (قصه ذى القرنين في القرآن؛ ذكرى ذى القرنين و السد و يأجوج و مأجوج؛ من هو ذو القرنين و اين سده؛ بناء السد؛ يأجوج و مأجوج).

اشاره

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا- ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين و هو مسوق سوق الكنايه و هم المعنيون بالتوصيف و سيقرب من التصريح في قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ» فالمنكرون للنبوه و المعاد هم المشركون.

قوله تعالى: الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا إنباء بالأخسرين أعمالا و هم الذين عرض في الآيه السابقه على المشركين أن ينبئهم بهم و يعرفهم إياهم فعرفهم بأنهم الذين ضل سعيهم في الحياه الدنيا، و ضلال السعي خسران ثم عقبه بقوله: «وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» و بذلك تم كونهم

قوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ** تعريف ثانٍ و تفسير بعد تفسير للأخسرين أعمالاً، والمراد بالآيات-على ما يقتضيه إطلاق الكلمة-آياته تعالى في الآفاق و الأنفس و ما يأتي به الأنبياء و الرسل من المعجزات لتأييد رسالتهم فالكفر بالآيات كفر بالنبوه، على أن النبي نفسه من الآيات، والمراد بلقاء الله الرجوع إليه و هو المعاد.

قال تعريف الأخسرين أعمالاً الى أنهم المنكرون للنبوه و المعاد و هذا من خواص الوثنيين.

قوله تعالى: **فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** وجه حبط أعمالهم أنهم لا يعملون عملاً لوجه الله و لا يريدون ثواب الدار الآخرة و سعادته حياتهم و لا أن الباعث لهم على العمل ذكر يوم الحساب و قد مر كلام في الحبط في مباحث الأعمال في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

و قوله: **«فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا»** تفریع على حبط أعمالهم الوزن يوم القيامة بثقل الحسنات على ما يدل عليه قوله تعالى: **وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** و **مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** (الأعراف/٩)، و إذا لا حسنه للحبط فلا ثقل فلا وزن.

قوله تعالى: **ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ** بما كفروا و **اتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا** الإشارة الى ما أورده من وصفهم، و اسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف و التقدير: الأمر ذلك أى حالهم ما وصفناه و هو تأكيد و قوله: **«جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ»** كلام مستأنف ينبئ عن عاقبه أمرهم. و قوله: **«بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُؤًا»** فى معنى بما كفروا و ازدادوا كفراً استهزاءً آياتى و سلى.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ**

الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا- الفردوس يذكر و يؤنث قيل: هي البستان بالرومية، وقيل: الكرم بالنبطيه و أصله فرداسا، وقيل: جنه الأعتاب بالسريانيه، وقيل الجنه بالحبيشه، وقيل:

عريبه و هي الجنه الملتفه بالأشجار و الغالب عليه الكرم.

و قد استفاد بعضهم من عده جنات الفردوس نزلا و قد عد سابقا جهنم للكافرين نزلا أن وراء الجنه و النار من الثواب و العقاب ما لم يوصف بوصف و ربما أيده أمثال قوله تعالى: لَّهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥) و قوله: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (الم السجده ١٧)، و قوله: وَ بَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ .

قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا بَغِيَ الطلب، و الحول التحول، و الباقي ظاهر.

[سوره الكهف (١٨): آيه ١٠٩]

اشاره

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي الى آخر الآيه، الكلمه تطلق على الجملة كما تطلق على المفرد و منه قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ الْآيَه (آل عمران ٦٤)، و قد استعملت كثيرا فى القرآن الكريم فيما قاله الله و حكم به كقوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا (الأعراف ١٣٧)، و قوله: كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (يونس ٣٣)، و قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّتَ بَيْنَهُمْ (يونس / ١٩) الى غير ذلك من الآيات الكثيره جدا.

و من المعلوم انه تعالى لا يتكلم بشق الفم و إنما قوله فعله و ما يفيضه من وجود كما قال:

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (النحل ٤٠/) و إنما تسمى كلمه لكونها آيه داله عليه تعالى و من هنا سمي المسيح كلمه فى قوله: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ (النساء ١٧١/).

و من هنا يظهر أنه ما من عين يوجد أو واقعه تقع إلا- و هى من حيث كونها آيه داله عليه كلمه منه إلا- أنها خصت فى عرف القرآن بما دللته ظاهره لا خفاء فيها و لا بطلان و لا تغيير كما قال: وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤/)، و قال: مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ (ق ٢٩/)، و ذلك كالمسيح عليه السلام و موارد القضاء المحتوم.

و قوله: وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا أَى و لو أمددنا ببحر آخر لنفد أيضا قبل أن تنفذ كلمات ربي.

[سوره الكهف (١٨): آيه ١١٠]

اشاره

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ الْقَصْرُ الْأَوَّلُ قَصْرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِي الْبَشَرِيهِ الْمِمَاتِلَهُ لِبَشَرِيهِ النَّاسِ لَا يَزِيدُ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ وَ لَا يَدْعِبُهُ لِنَفْسِهِ قِبَالَ مَا كَانُوا يَزْعَمُونَ أَنَّهُ إِذَا ادْعَى النَّبُوهُ فَقَدْ ادْعَى كَيْنُونَهُ إِلَهِيهِ وَ قَدْرَهُ غَيْبِيهِ وَ لَذَا كَانُوا يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ لَكِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ نَفَى ذَلِكَ كُلَّهُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَنِ

نفسه و لم يثبت لنفسه إلا أنه يوحى اليه.

و القصر الثانى قصر الإله الذى هو إلههم فى إله واحد و هو التوحيد الناطق بأن إله الكل إله واحد.

و قوله: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ** الخ؛ مشتمل على إجمال الدعوه الدينيه و هو العمل الصالح لوجه الله وحده لا شريك له و قد فرعه على رجاء لقاء الرب تعالى و هو الرجوع اليه إذ لو لا الحساب و الجزاء لم يكن للأخذ بالدين و التلبس بالاعتقاد و العمل موجب يدعو اليه كما قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** (ص ٢٦).

و قد رتب على الاعتقاد بالمعاد العمل الصالح و عدم الإشراك بعباده الرب لأن الاعتقاد بالوحدانيه مع الاشراك فى العمل متناقضان لا يجتمعان فالإله تعالى لو كان واحدا فهو واحد فى جميع صفاته و منها المعبوديه لا شريك له فيها.

و قد رتب الأخذ بالدين على رجاء المعاد دون القطع به لأن احتمالاه كافى فى وجوب التحذر منه لوجوب دفع الضرر المحتمل، و ربما قيل: إن المراد باللقاء لقاء الكرامه و هو مرجو لا مقطوع به.

و قد فرع رجاء لقاء الله على قوله: **«أَنْتُمْ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»** لأن رجوع العباد الى الله سبحانه من تمام معنى الألوهيه فله تعالى كل كمال مطلوب و كل وصف جميل و منها فعل الحق و الحكم بالعدل و هما يقتضيان رجوع عباده اليه و القضاء بينهم قال تعالى: **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بِاطِّلَاءٍ ذَلِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** (ص ٢٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي
وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِمُدْعَاكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً
فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ
لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ
عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ
عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَاناً
مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا
(١٥)

غرض السوره على ما ينبي عنه قوله تعالى فى آخرها: «فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» الخ؛ هو التبشير و الإنذار غير أنه ساق الكلام فى ذلك سوقا بديعا فأشار أولا- الى قصه زكريا و يحيى و قصه مريم و عيسى و قصه إبراهيم و إسحاق و يعقوب و قصه موسى و هارون و قصه إسماعيل و قصه إدريس و ما خصّهم به من نعمه الولاية كالنبوه و الصدق و الإخلاص ثم ذكر أن هؤلاء الذين أنعم عليهم كان المعروف من حالهم الخضوع و الخشوع لربهم لكن أخلافهم أعرضوا عن ذلك و أهملوا أمر التوجه الى ربهم و اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا و يضل عنهم الرشد إلا أن يتوب منهم تائب و يرجع الى ربه فإنه

يلحق بأهل النعمة.

ثم ذكر نبذه من هفوات أهل الغي و تحكّماتهم كنفى المعاد، و قولهم: اتخذ الله ولدا، و عبادتهم الأصنام، و ما يلحقهم بذلك من النكال و العذاب.

فالبيان فى السوره أشبه شىء ببيان المدعى بإيراد أمثله كأنه قيل: إن فلانا و فلانا و فلانا الذين كانوا أهل الرشد و الموهبه كانت طريقتهم الانقلاع عن شهوات النفس و التوجه الى ربهم و سييلهم الخضوع و الخشوع إذا ذكروا بآيات ربهم فهذا طريق الإنسان الى الرشد و النعمه لكن أخلافهم تركوا هذا الطريق بالإعراض عن صالح العمل، و الإقبال على مذموم الشهوه و لا يؤديهم ذلك إلا الى الغي خلاف الرشد، و لا يقّرهم إلا على باطل القول كنفى الرجوع الى الله و إثبات الشركاء لله و سدّ طريق الدعوه و لا يهديهم إلا الى النكال و العذاب.

فالسوره كما ترى تفتح بذكر أمثله ثم تعقبها باستخراج المعنى الكلى المطلوب بيانه و ذلك قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» الآيات، فالسوره تقسم الناس الى ثلاث طوائف: الذين أنعم الله عليهم من النبيين و أهل الإجتباء و الهدى. و أهل الغي، و الذين تابوا و آمنوا و عملوا صالحا و هم ملحقون بأهل النعمه و الرشد ثم تذكر ثواب التائبين المسترشدين و عذاب الغاوين و هم قرناء الشياطين و أولياؤهم.

و السوره مكيه بلا ريب تدل على ذلك مضامين آياتها و قد نقل على ذلك اتفاق المفسرين.

قوله تعالى: كهيعص قد تقدم فى تفسير أول سوره الأعراف أن السور القرآنيه المصدّره بالحروف المقطعه لا تخلو من ارتباط بين مضامينها و بين تلك الحروف المشتركه تكشف عن مضامين مشتركه.

و يؤيد ذلك ما نجده من المناسبه و المجانسه بين هذه السوره و سوره ص فى سرد قصص الأنبياء، و سيوافيك بحث جامع إن شاء الله فى روابط مقطّعات الحروف و مضامين السور التى

صدرت بها، وكذا ما بين السور المشتركة في بعض هذه الحروف كهذه السوره و سوره يس و قد اشتركتا في الياء، وهذه السوره و سوره الشورى و قد اشتركتا في العين.

قوله تعالى: ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ظاهر لسياق أن الذكر خبر لمبتدأ محذوف و المصدر بمعنى المفعول، و المآل بحسب التقدير: هذا خبر رحمه ربك المذكور، و المراد بالرحمه استجابته سبحانه دعاء زكريا على التفصيل الذى قصه بدليل قوله تلوا: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ». .

قوله تعالى: إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا الظرف متعلق بقوله: «رَحْمَهُ رَبِّكَ» و النداء و المناداه الجهر بالدعوه خلاف المناجاه، و لا ينافيه توصيفه بالخفاء لإمكان الجهر بالدعوه فى خلاء من الناس لا يسمعون معه الدعوه، و يشعر بذلك قوله الآتى: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ». .

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تمهيد لما سيسأله و هو قوله: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا». .

و قد قدم قوله: «رَبِّ» للاسترحام فى مفتتح الدعاء، و التأكيد بأن للدلاله على تحققه بالحاجه، و الوهن هو الضعف و نقصان القوه و قد نسبه الى العظم لأنه الدعامة التى يعتمد عليها البدن فى حركته و سكونه، و لم يقل: العظام منى و لا عظمى للدلاله على الجنس و ليأتى بالتفصيل بعد الإجمال.

و قوله: وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً الاشتعال انتشار شواظ النار و لهيبتها فى الشىء المحترق قال فى المجمع: و قوله: «وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً» من أحسن الاستعارات و المعنى اشتعل الشيب فى الرأس و انتشر، كما ينتشر شعار النار، و كأن المراد بالشعار الشواظ و اللهب.

و قوله: وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا الشقاوه خلاف السعاده، و كأن المراد بها

الحرمان من الخير و هو لازم الشقاوه أو هو هي، و قوله: «بِدُعَائِكَ» متعلق بالشقى و الباء فيه للسببيه أو بمعنى فى و المعنى و كنت سعيدا بسبب دعائى إياك كلما دعوتك استجبت لى من غير أن تشقيني و تحرمنى، أو لم أكن محروما خائبا فى دعائى إياك عودتنى الإجابة إذا دعوتك و التقبل إذا سألتك، و الدعاء على أى حال مصدر مضاف الى المفعول.

و فى تكرار قوله: «رَبِّ» و وضعه متخللا- بين اسم كان و خبره فى قوله: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبًّا شَقِيًّا» من البلاغه ما لا يقدر بقدر، و نظيره قوله: «وَاجْعَلْهُ رَبًّا رَضِيًّا» .

قوله تعالى: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا» تتمه التمهيد الذى قدمه لدعائه، و المراد بالموالى العمومه و بنو العم، و قيل: الكلاله و قيل: العصبه، و قيل: بنو العم فحسب، و قيل: الورثه، و كيف كان فهم غير الأولاد من صلب و المراد خفت فعل الموالى من ورائى أى بعد موتى و كان عليه السلام يخاف أن يموت بلا عقب من نسله فيرثوه، و هو كناية عن خوفه أن يموت بلا عقب.

و قوله: «وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا» العاقر المرأه التى لا تلد يقال: امرأه عاقر لا تلد و رجل عاقر لا يولد له ولد. و فى التعبير بقوله: «وَكَانَتِ امْرَأَتِي» دلالة على أن امرأته على كونها عاقرا جازت حين الدعاء سن الولاده.

و ظاهر عدم تكرار إن فى قوله: «وَكَانَتِ امْرَأَتِي» الخ؛ أن الجملة حالیه و مجموع الكلام أعنى قوله: «وَإِنِّي خِفْتُ» -الى قوله- «عَاقِرًا» فصل واحد أريد به أن كون امرأتى عاقرا اقتضى أن أخاف الموالى من ورائى و بعد وفاتى، فمجموع ما مهّده للدعاء يثول الى فصلين أحدهما أن الله سبحانه عوّده الاستجابة مدى عمره حتى شاخ و هرم و الآخر أنه خاف الموالى بعد موته من جهة عقر امرأته، و يمكن تصوير الكلام فصولا ثلاثة بأخذ كل من شيخوخته و عقر امرأته فصلا مستقلا.

قوله تعالى: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ

رَبِّ رَضِيًّا هَذَا هُوَ الدَّعَاءُ، وَ قَدْ قَبِدَ الْمَوْهَبَةَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي سَأَلَهَا بِقَوْلِهِ: «مِنْ لَدُنْكَ» لَكُونَهُ آيَسًا مِنَ الْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ وَ هِيَ نَفْسُهُ وَ قَدْ صَارَ شَيْخًا هَرَمًا سَاقِطَ الْقُوَى.

وَ امْرَأَتُهُ وَ قَدْ شَاخَتْ وَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ عَاقِرًا.

وَ وُلِيَ الْإِنْسَانَ مِنْ يَلَى أَمْرِهِ، وَ وُلِيَ الْمَيِّتَ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِأَمْرِهِ وَ يَخْلُفُهُ فِيمَا تَرَكَ، وَ آلَ الرَّجُلِ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ يَثُولُ إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ كَوَلَدِهِ وَ أَقَارِبِهِ وَ أَصْحَابِهِ وَ قِيلَ: أَصْلُهُ أَهْلٌ، وَ الْمُرَادُ بِعُقُوبٍ عَلَى مَا قِيلَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَ قِيلَ هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ مَائِثَانَ أَخُو عِمْرَانَ بْنِ مَائِثَانَ أَبِي مَرْيَمَ وَ كَانَتْ امْرَأَتُهُ زَكْرِيَّا أُخْتُ مَرْيَمَ وَ عَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: «يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» يَرِثُنِي وَ يَرِثُ امْرَأَتَهُ وَ هِيَ بَعْضُ آلِ يَعْقُوبَ، وَ الْأَشْبَهُ حِينَئِذٍ أَنْ تَكُونَ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ: «مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» لِلتَّبَعِيضِ وَ إِنْ صَحَّ كَوْنُهَا ابْتِدَائِيَّةً أَيْضًا.

وَ قَوْلُهُ: «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» الرِّضَى بِمَعْنَى الْمَرْضَى، وَ إِطْلَاقُ الرِّضَا يَقْتَضِي شُمُولَهُ لِلْعِلْمِ وَ الْعَمَلِ جَمِيعًا فَالْمُرَادُ بِهِ الْمَرْضَى فِي اعْتِقَادِهِ وَ عَمَلِهِ أَيْ اجْعَلْهُ رَبِّ مَحَلِّيً بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ (١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا فِي الْكَلَامِ حَذْفُ إِجْزَاءِ، وَ التَّقْدِيرُ «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَادَيْنَاهُ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ» السُّخ؛ وَ قَدْ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقِصَّةِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ هَبْنَا لَهُ يَحْيَى (الأنبياء ٩٠)، وَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى (آل عمران ٣٩).

وَ تَشْهَدُ آيَةُ آلِ عِمْرَانَ عَلَى أَنْ قَوْلُهُ: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ» السُّخ؛ كَانَ وَحْيًا بِتَوْسِطِ الْمَلَائِكَةِ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى أَدَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى زَكَرِيَّا، وَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ثَانِيًا: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ

ص: ٩٤

عَلَى هَيِّئُ» الخ؛ أظهر.

و فى الآيه دلالة على أن الله سبحانه هو الذى سَمَّاه يحيى، و هو قوله: «اسْمُهُ يَحْيَى» و أنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد، و هو قوله: «لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا» أى شريكا فى الاسم.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انى يكون لى غلامٌ و كانت امرأتى عاقراً و قد بلغت من الكبر عتياً قال الراغب: الغلام الطار الشارب (١) يقال: غلام بين الغلومه و الغلومية، قال تعالى: «انى يكون لى غلامٌ». قال: و اغتلم الغلام: إذا بلغ حد الغلمه. انتهى.

و قال فى المجمع: العتّى و العسى بمعنى يقال: عتا يعتو عتوا و عتياً و عسا يعسو عسوا و عسياً فهو عات و عاس إذا غيره طول الزمان الى حال اليبس و الجفاف. انتهى. و بلوغ العتّى كناية عن بطلان شهوه النكاح و انقطاع سبيل الإيلااد.

و استفهامه عليه السلام عن كون الغلام مع عقر امرأته و بلوغه العتّى مع كره الأمرين فى ضمن دعائه إذ قال: «رَبِّ انى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنى» الخ؛ مبنى على استعجاب البشرى و استفسار خصوصياتها دون الاستبعاد و الإنكار فإن من بشر بما لا يتوقعه لتوفر الموانع و فقدان الأسباب تضطرب نفسه بادئ ما يسمعها فى أخذ فى السؤال عن خصوصيات ما بشر به ليطمئن قلبه و يسكن اضطراب نفسه و هو مع ذلك على يقين من صدق ما بشر به فإن الخطورات النفسانية ربما لا تنقطع مع وجود العلم و الإيمان و قد تقدم نظيره فى تفسير قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّ ارنى كيف تُحيى الموتى قال أ و لم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبى (البقره ٢٦٠).

قوله تعالى: قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيِّئُ وَ قَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً جواب عما استفهمه و استفسره لتطيب به نفسه، و يسكن جأشه، و ضمير قال

ص: ٩٥

(١-١). غلام طر شاربه من باب نصر و ضرب: أى طلع.

راجع اليه تعالى، وقوله: «كَذَلِكَ» مقول القول و هو خير مبتدأ محذوف و التقدير «هو كذلك» أى الأمر واقع على ما أخبرناك به فى البشرى لا ريب فيه.

و قوله: «قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» مقول ثان لقال الأول، و هو بمنزله التعليل لقوله:

«كَذَلِكَ» يرتفع به أى استعجاب فلا يتخلف عن إرادته مراد و إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن، فخلق غلام من رجل بالغ فى الكبر و امرأه عاقر هين سهل عليه.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لِيَالٍ سَوِيًّا» قد تقدم فى القصة من سورة آل عمران أن إلقاء البشرى الى زكريا كان بتوسط الملائكة «فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى»، و هو عليه السلام إنما سأل الآيه ليميز به الحق من الباطل فتدله على أن ما سمعه من النداء و حى ملكى لا إلقاء شيطانى و لذلك أجيب بآيه إلهيه لا سبيل للشيطان إليها و هو أن لا ينطلق لسانه ثلاثه أيام إلا بذكر الله سبحانه فإن الأنبياء معصومون بعصمه إلهيه ليس للشيطان أن يتصرف فى نفوسهم.

فقوله: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً» سؤال لآيه مميزه، و قوله: «قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لِيَالٍ سَوِيًّا» إجابته ما سأل، و هو أن يعتقل لسانه ثلاثه أيام من غير ذكر الله و هو سوى أى صحيح سليم من غير مرض و آفه.

فالمراد بعدم تكليم الناس عدم قدره على تكليمهم، من قبيل إطلاق اللازم و إرادته الملزوم كناية، و المراد بثلاث ليال ثلاث ليال بأيامها و هو شائع فى الاستعمال فكان عليه السلام يذكر الله فنون الذكر و لا يقدر على تكليم الناس إلا رمزا و إشاره، و الدليل على ذلك كله قوله تعالى فى القصة من سورة آل عمران: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَ اذْكُرْ رَبُّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (آل عمران ٤١)».

قوله تعالى: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» قال فى المجمع: و سمي المحراب محراباً لأن المتوجه اليه فى صلاته كالمحارب

الشیطان علی صلاته، والأصل فیہ مجلس الأشراف الذی یحارب دونه ذبا عن أهله. وقال:

الإیحاء إلقاء المعنی الی النفس فی خفیة بسرعه، وأصله من قولهم: الوحی الوحی أى الإسراع الإسراع. انتهى ومعنی الآیه ظاهر.

قوله تعالى: **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** قد تكرر فی كلامه تعالى ذكر أخذ الكتاب بقوه و الأمر به كقوله: **فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** (الأعراف / ١٤٥)، وقوله: **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ** (البقره / ٦٣)، وقوله: **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا** (البقره / ٩٣) الی غیر ذلك من الآيات، والسابق الی الذهن من سياقها أن المراد من أخذ الكتاب بقوه التحقق بما فیة من المعارف و العمل بما فیة من الأحكام بالعنايه و الاهتمام.

قوله تعالى: **وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكَاةً فَسَّرَ الْحُكْمَ بِالْفَهْمِ وَ بِالْعَقْلِ وَ بِالْحِكْمَةِ وَ بِمَعْرِفَةِ آدَابِ الْخِدْمَةِ وَ بِالْفِرَاسَةِ الصَّادِقَةِ وَ بِالنَّبُوَّةِ**، لكن المستفاد من مثل قوله تعالى: **وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ** (الجاثیه / ١٦)، و قوله: **أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ** (الأنعام / ٨٩)، و غیرهما من الآيات أن الحكم غیر النبوه، فتفسير الحكم بالنبوه ليس علی ما ينبغي، و كذا تفسيره بمعرفته آداب الخدمه أو بالفراسه الصادقه أو بالعقل إذ لا دليل من جهة اللفظ و لا من جهة المعنی علی شىء من ذلك.

نعم ربما يستأنس من مثل قوله: **يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ** (البقره / ١٢٩)، و قوله: **يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ** (الجمعه / ٢)، -و الحكمه بناء نوع من الحكم- أن المراد بالحكم العلم بالمعارف الحقه الإلهيه و انكشاف ما هو تحت أستار الغيب بالنسبه الی الأنظار العاديه و لعله اليه مرجع تفسير الحكم بالفهم. و على هذا يكون المعنی إنا أعطيناك العلم بالمعارف الحقيقيه و هو صبی لم يبلغ

الحلم بعد.

و قوله: «وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا» معطوف على الحكم أى و أعطيناه حنانا من لدننا و الحنان:

العطف و الإشفاق، قال الراغب: و لكون الإشفاق لا ينفك من الرحمه عبّر عن الرحمه بالحنان

فى قوله تعالى: «وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا» و منه قيل: الجَنَانُ المَنَّانُ و حنانيك إشفاقا بعد إشفاق.

و فسر الحنان فى الآيه بالرحمه و لعل المراد بها النبوه أو الولايه كقول نوح عليه السلام وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ (هود ٢٨)، و قول صالح: وَ آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً (هود ٦٣).

و فسر بالمحبه و لعل المراد بها محبه الناس له على حد قوله: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي (طه ٣٩)، أى كان لا يراه أحد إلا أحبه.

و فسر بتعطفه على الناس و رحمته و رفته عليهم فكان رءوفا بهم ناصحا لهم يهديهم الى الله و يأمرهم بالتوبه و لذا سمى فى العهد الجديد بيوحنا المعمد.

و فسر بحنان الله عليه كان إذا نادى ربه لباه الله سبحانه على ما فى الخبر فيدلّ على أنه كان لله سبحانه حنان خاص به على ما يفيدته تنكير الكلمه.

و الذى يعطيه السياق و خاصه بالنظر الى تقييد الحنان بقوله: «مِنْ لَدُنَّا» - و الكلمه إنما تستعمل فيما لا مجرى فيه للأسباب الطبيعیه العاديه أو لا- نظر فيه إليها- أن المراد به نوع عطف و انجذاب خاص إلهى بينه و بين ربه غير مألوف و بذلك يسقط التفسير الثانى و الثالث ثم تعقبه بقوله: «زَكَاةً» و الأصل فى معناه النمو الصالح، و هو لا يلائم المعنى الأول كثير ملاءمه فالمراد به إما حنان من الله سبحانه اليه بتولى أمره و العناية بشأنه و هو ينمو عليه، و إما حنان و انجذاب منه الى ربه فكان ينمو عليه، و النمو نمو الروح.

قوله تعالى: وَ كَانَ تَقِيًّا وَ بَرًّا بِالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا التقى صفة مشبهه من التقوى مثال واوى و هو الورع عن محارم الله و التجنب عن اقتراف المناهى المؤدى الى عذاب الله، و البر بفتح الباء صفة مشبهه من البر بكسر الباء و هو الإحسان، و الجبار قال

فى المجمع: الذى لا يرى لأحد عليه حقا و فيه جبريه و جبروت، و الجبار من النخل ما فات اليد. انتهى. فيقول معناه الى أنه المستكبر المستعلى الذى يحمل الناس ما أراد و لا يتحمل عنهم، و يؤيده تعقيبه بالعصى فإنه صفة مشبهه من العصيان و الأصل فى معناه الامتناع.

قوله تعالى: وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا السَّلام قريب المعنى من الأمن، و الذى يظهر من موارد استعمالها فى الفرق بينهما أن الأمن خلوّ المحل مما يكرهه الإنسان و يخاف منه و السَّلام كون المحل بحيث كل ما يلقاه الإنسان فيه فهو يلائمه من غير أن يكرهه و يخاف منه.

و تنكير السَّلام لإفاده التفخيم أى سلام فخيم عليه مما يكرهه فى هذه الأيام الثلاثة التى كل واحد منها مفتتح عالم من العوالم التى يدخلها الإنسان و يعيش فيها فسلام عليه يوم ولد فلا يمسه مكروه فى الدنيا يزاحم سعادته، و سلام عليه يوم يموت، فسيعيش فى البرزخ عيشه نعيمه، و سلام عليه يوم يبعث حيا فيحى فيها بحقيقه الحياه و لا نصب و لا تعب.

و اختلاف التعبير فى قوله: «وُلِدَ» «يَمُوتُ» «يُبْعَثُ» لتمثيل أن التسليم فى حال حياته عليه السَّلام (١)(٢)(٣).

[سوره مريم (١٩): الآيات ١٦ الى ٤٠]

اشاره

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) فَوَدَّعَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَبِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِي عَيْنًا فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) فَأشارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْمَدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَ أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا يُرْجِعُونَ (٤٠)

- ٢-٢. مريم ١-١٥: قصه زكريا في القرآن (وصفه، تاريخ حياته).
- ٣-٣. مريم ١-١٥: قصه يحيى عليه السلام في القرآن (الثناء عليه، تاريخ حياته، قصه زكريا و يحيى في الانجيل).

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَيْتُ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا المراد بالكتاب القرآن أو السوره فهى جزء من الكتاب و جزء الكتاب كتاب و الاحتمالان من حيث المآل واحد فلا كثير جدوى فى اصرار بعضهم على تقديم الاحتمال الثانى و تعيينه.

و النبذ-على ما ذكره الراغب-طرح الشىء الحقير لا يعبأ به يقال نبذه إذا طرحه مستحقرا له غير معتن به، و الانتبأذ الاعتزال من الناس و الانفراد.

و مريم هى ابنه عمران أم المسيح عليهما السّلام، و المراد بمريم نبأ مريم و قوله: «إذا» ظرف له،

وقوله: «اتَّيَيْدَتْ» الى آخر القصه تفضيل المظروف الذى هو نبأ مريم، والمعنى واذكر يا محمد فى هذا الكتاب نبأ مريم حين اعتزلت من أهلها فى مكان شرقى، و كأنه شرقى المسجد.

قوله تعالى: فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا الْحِجَابُ مَا يَحْجُبُ الشَّيْءَ لَلَّهِ وَيَسْتَرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَ كَأَنَّهَا اتَّخَذَتْ الْحِجَابَ مِنْ دُونِ أَهْلِهَا لِتَنْقَطِعَ عَنْهُمْ وَ تَعْتَكِفَ لِلْعِبَادَةِ كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا (آل عمران ٣٧) وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَ أَمَّا قَوْلُهُ: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - إِلَى أَنْ قَالَ - قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٤٧).

وَ إِضَافَةُ الرُّوحِ إِلَيْهِ تَعَالَى لِلتَّشْرِيفِ مَعَ إِشْعَارٍ بِالتَّعْظِيمِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ فِي مَعْنَى الرُّوحِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ الْآيَةَ (الإسراء ٨٥) (١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ابْتَدَرْتُ إِلَى تَكْلِيمِهِ لَمَّا أَدْهَشَهَا حُضُورُهُ عِنْدَهَا وَ هِيَ تَحْسَبُ أَنَّهُ بَشَرٌ هَجَمَ عَلَيْهَا لِأَمْرِ يَسُوءُهَا وَ اسْتِعَاذَتْ بِالرَّحْمَنِ اسْتِدْرَارًا لِلرَّحْمَةِ الْعَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ آمَالِ الْمُنْقَطِعِينَ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْقَنُوتِ.

وَ اشْتِرَاطُهَا بِقَوْلِهَا: «إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا» مِنْ قَبِيلِ الْإِشْتِرَاطِ بِوَصْفِ يَدَّعِيَةِ الْمُخَاطَبِ لِنَفْسِهِ أَوْ هُوَ مُحَقَّقٌ فِيهِ لِيَفِيدَ إِطْلَاقَ الْحُكْمِ الْمَشْرُوطِ وَ عَلَيْهِ الْوَصْفُ لِلْحُكْمِ، وَ التَّقْوَى وَصْفٌ جَمِيعٌ يَشُقُّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْفِيهِ عَنِ نَفْسِهِ وَ يَعْتَرِفُ بِفَقْدِهِ فَيَتَوَلَّى الْمَعْنَى إِلَى مِثْلِ قَوْلِنَا: إِنِّي أَعُوذُ وَ أَعْتَصِمُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا وَ مِنْ الْوَاجِبِ أَنْ تَكُونَ تَقِيًّا فَلْيُرِدْ عَكَ تَقْوَاكَ عَنْ أَنْ تَتَعَرَّضَ بِي وَ تَقْصِدَنِي بِسُوءٍ.

ص: ١٠٢

فَالآيَةِ مِنْ قِبَلِ خُطَابِ الْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (المائدة ٥٧)، وقوله: وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (المائدة ٢٣).

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا جواب الروح لمريم و قد صدر الكلام بالقصر ليفيد أنه ليس ببشر كما حسبه فيزول بذلك روعها ثم يطيب نفسها بالبشرى، و الزكى هو النامى نموا صالحا و النابت نباتا حسنا.

و من لطيف التوافق فى هذه القصص المورده فى السوره أنه تعالى ذكر زكريا و أنه وهب له يحيى، و ذكر مريم و أنه وهب لها عيسى، و ذكر إبراهيم و أنه وهب له إسحاق و يعقوب، و ذكر موسى و أنه وهب له هارون عليه السلام.

قوله تعالى: قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا مَسَّ الْبَشَرِ بَقْرِيْنِهِ مَقَابَلَتَهُ لِلْبَغْيِ وَ هُوَ الزَّانَا كِتَابِيَه عَنِ النِّكَاحِ وَ هُوَ فِي نَفْسِهِ أَعْمٌ وَ لَذَا اِكْتَفَى فِي الْقِصَّةِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِقَوْلِهِ: «وَ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ» وَ اِلِسْتِفْهَامُ لِلتَّعْجَبِ أَى كَيْفَ يَكُونُ لى و لد و لم يخالطنى قبل هذا الحين رجل لا من طريق الحلال بالنكاح و لا من طريق الحرام بالزنا.

و السياق يشهد أنها فهمت من قوله: «لَأَهَبَ لَكِ غُلَامًا» الخ؛ أنه سيهبه حالا و لذا قالت:

«وَ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا» فنفت النكاح و الزنا فى الماضى.

قوله تعالى: قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ الخ؛ أى قال الروح: الأمر كذلك أى كما وصفته لك ثم قال: «قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ»، و قد تقدم فى قصه زكريا و يحيى عليهما السلام توضيح ما للجملتين.

و قوله: «و ليكون آيه للناس و رحمه منا» ذكر بعض ما هو الغرض من خلق المسيح على هذا النهج الخارق، و هو معطوف على مقدر أى خلقناه بنفخ الروح من غير أب لكذا و كذا و لنجعله آيه للناس بخلقته و رحمه منا برسالته و الآيات الجارية على يده و حذف بعض

كانت تهمه لا سبيل لها الى الدفاع عن نفسها و كانت الحجّه للخصم عليها، و لذا أشار أن لا تتكلم مع أحد و تكفل هو الدفاع عنها و تلك حجه لا يدفعها دافع.

و قوله: قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سِرِّيًّا السرى جدول الماء، و السرى هو الشريف الرفيع، و المعنى الأول هو الأنسب للسياق، و هو القرينه عليه قوله بعد: «فَكَلِمَى وَ أَشْرَبَى» كما لا يخفى.

و قوله: وَ هَزَى إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا الهز هو التحريك الشديد، و نقل عن الفراء أن العرب تقول: هزّه و هزّ به، و المساقطه هى الإسقاط، و ضمير «تُسَاقِطُ» للنخله، و نسبه الهز الى الجذع و المساقطه الى النخله لا تخلو من إشعار بأن النخله كانت يابسه و إنما اخضرت و أوردت و أثمرت رطبا جتيا لساعتها، و الرطب هو نضيج البسر، و الجنى هو المجنى و ذكر فى القاموس-على ما نقل- أن الجنى إنما يقال لما جنى من ساعته.

قوله تعالى: فَكَلِمَى وَ أَشْرَبَى وَ قَرَى عَيْنًا قرار العين كناية عن المسره يقال: أقرّ الله عليك أى سرّك، و المعنى: فكلمى من الرطب الجنى الذى تسقط و اشربى من السرى الذى تحتك و كونى على مسره من غير أن تحزنى، و التمتع بالأكل و الشرب من أمارات السرور و الابتهاج فإن المصاب فى شغل من التمتع بلذيذ الطعام و مرىء الشراب و مصيبتة شاغله، و المعنى: فكلمى من الرطب الجنى و أشربى من السرى و كونى على مسره-مما حباك الله به-من غير أن تحزنى، و أما ما تخافين من تهمه الناس و مساءلتهم فالزمى السكوت و لا تكلمى أحدا فأنا أكفيكمهم.

قوله تعالى: فَأَمَّا تَرِينٌ مِّنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا المراد بالصوم الصمت كما يدلّ عليه التفريع الذى فى قوله:

«فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا» و كذا يستفاد من السياق أنه كان أمرا مسنونا فى ذلك الوقت و لذاك

أرسل عذرا إرسال المسلم، والإنسى منسوب الى الإنس مقابل الجن و المراد به الفرد من الإنسان.

وقوله: **فَأَمَّا تَرِينٌ** ما زائده و الأصل إن ترى بشرا فقولى، الخ؛ والمعنى: إن ترى بشرا و كلمك أو سألك عن شأن الولد فقولى، الخ؛ و المراد بالقول التفهيم بالإشارة فربما يسمى التفهيم بالإشارة قولاً، و عن الفراء أن العرب تسمى كل ما وصل الى الإنسان كلاماً بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد لم يكن إلا حقيقه الكلام.

و ليس ببعيد أن يستفاد من قوله: **«فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا»** بمعونه السياق أنه أمرها أن تنوى الصوم لوقتها و تنذره لله على نفسها فلا يكون إخباراً بما لا حقيقه له.

وقوله: **«فَأَمَّا تَرِينٌ»** الخ، على أى حال متفرع على قوله: **«وَقَرَى عَيْنًا»** و المراد لا تكلمى بشراً و لا تجيبى أحدا سألك عن شأنى بل ردى الأمر الى فأنا أكفيك جواب سؤالهم و أدافع خصامهم.

قوله تعالى: **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا الضميران فى «بِهِ» و «تَحْمِلُهُ»** ليعسى، و الاستفهام إنكارى حملهم عليه ما شاهدوه من عجيب أمرها مع ما لها من سابقه الزهد و الاحتجاب و كانت ابنه عمران و من آل هارون القديس، و الفرى هو العظيم البديع و قيل: هو من الافتراء بمعنى الكذب كناية عن القبيح المنكر و الآيه التالیه تؤيد المعنى الأول، و معنى الآيه واضح.

قوله تعالى: **يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ذكر فى المجمع أن فى المراد من هارون أربعة أقوال: أحدها: أنه كان رجلاً صالحاً من بنى إسرائيل ينسب اليه كل صالح، و على هذا فالمراد بالآخوه الشباهه و معنى **«يَا أُخْتِ هَارُونَ»** يا شبيهه هارون، و الثانى: أنه كان أخاها لأبيها لا من امها، و الثالث: أن المراد به هارون أخو موسى الكليم و على هذا فالمراد بالآخوه الانتساب كما يقال: أخو تميم، و الرابع: أنه كان رجلاً

معروفا بالعهر و الفساد انتهى ملخصا و البغى الزانية، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا إشارتها إليها إرجاع لهم اليه حتى يجيبهم و يكشف لهم عن حقيقته الأمر، و هو جرى منها على ما أمرها به حينما ولد بقوله: «فَأَمَّا تَرِينٌ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا» على ما تقدم البحث عنه.

و المهد السرير الذى يهيا للصبي فيوضع فيه و ينوم عليه، و قيل: المراد بالمهد فى الآية حجر أمه، و قيل المرباه أى المرجحه، و قيل المكان الذى استقر عليه كل ذلك لأنها لم تكن هيأت له مهدا، و الحق أن الآية ظاهره فى ذلك و لا دليل على أنها لم تكن هيأت وقتئذ له مهدا فلعل الناس هجموا عليها و كلموها بعد ما رجعت الى بيتها و استقرت فيه و هيأت له مهدا أو مرجحه و تسمى أيضا مهدا.

قوله تعالى: قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا شروع منه عليه السلام فى الجواب و لم يتعرض لمشكله الولاده التى كانوا يكرّون بها على مريم عليها السلام لأن نطقه على صباه و هو آيه معجزه و ما أخبر به من الحقيقه لا يدع ريبا لمرتاب فى أمره على أنه سلم فى آخر كلامه على نفسه فشهد بذلك على نزاهته و أمته من كل قذاره و خباثه و من نزاهته طهاره مولده.

و قد بدأ بقوله: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» اعترافا بالعبوديه لله ليبطل به غلّ الغالين و تتمّ الحجه عليهم، كما ختمه بمثل ذلك إذ يقول «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» .

و فى قوله: «آتَانِيَ الْكِتَابَ» إخبار بإعطاء الكتاب و الظاهر أنه الإنجيل و فى قوله:

«وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا» إعلام بنبوته، و قد تقدم فى مباحث النبوه فى الجزء الثانى من الكتاب الفرق بين النبوه و الرساله، فقد كان يومئذ نبيا فحسب ثم اختاره الله للرساله، و ظاهر الكلام أنه كان أوتى الكتاب و النبوه لا أن ذلك إخبار بما سيقع.

قوله تعالى: وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا كونه عليه السَّلام مباركا أينما كان هو كونه محلا لكل بركة و البركة نماء الخير كان نفاعا للناس يعلمهم العلم النافع و يدعوهم الى العمل الصالح و يرئبهم تربيه زاكيه و يبرئ الأكمه و الأبرص و يصلح القوى و يعين الضعيف.

و قوله: «وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ» الخ؛ إشاره الى تشريع الصلاه و الزكاه فى شريعته، و الصلاه هى التوجه العبادى الخاص الى الله سبحانه و الزكاه الإنفاق المالى و هذا هو الذى استقرّ عليه عرف القرآن كلما ذكر الصلاه و الزكاه و قارن بينهما و ذلك فى تيف و عشرين موضعا فلا يعتدّ بقول من قال: إن المراد بالزكاه تركيه النفس و تطهيرها دون الإنفاق المالى.

قوله تعالى: وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا أى جعلنى حنينا رءوفا بالناس و من ذلك أنى برّ بوالدتى و لست جبارا شقيا بالنسبه الى سائر الناس، و الجبار هو الذى يحمّل الناس و لا يتحمّل منهم، و نقل عن ابن عطاء أن الجبار الذى لا ينصح و الشقى الذى لا ينتصح.

قوله تعالى: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا تسليم منه على نفسه فى المواطن الثلاثه الكليه التى تستقبله فى كونه و وجوده، و قد تقدم توضيحه فى آخر قصه يحيى المتقدمه.

نعم بين التسليمتين فرق، فالسلام فى قصه يحيى نكره يدلّ على النوع، و فى هذه القصه محلى بلام الجنس يفيد بإطلاقه الاستغراق، و فرق آخر و هو أن المسلم على يحيى هو الله سبحانه و على عيسى هو نفسه.

قوله تعالى: ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ الظاهر أن هذه الآيه و التى تليها معترضتان، و الآيه الثالثه «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ» من تمام قول عيسى عليه السَّلام.

وقوله: «ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» الإشارة فيه الى مجموع ما قصّ من أمره و شرح من وصفه أى ذلك الذى ذكرنا كيفيه ولادته و ما وصفه هو للناس من عبوديته و إيتائه الكتاب و جعله نبيا هو عيسى بن مريم.

وقوله: «قَوْلَ الْحَقِّ» منصوب بمقدّر أى أقول قول الحق، وقوله: «الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ» أى يشكّون أو يتنازعون، وصف لعيسى، والمعنى: ذلك عيسى بن مريم الذى يشكّون أو يتنازعون فيه.

قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ نَفَىٰ وَإِبْطَالٌ لِمَا قَالَتْ بِهِ النَّصَارَىٰ مِنْ بَنَوِّهِ الْمَسِيحِ، وَقَوْلُهُ: «إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ» حجه اقيمت على ذلك، وقد عبر بلفظ القضاء للدلاله على ملاك الاستحاله.

و ذلك أن الولد إنما يراد للاستعانه به فى الحوائج، والله سبحانه غنى عن ذلك لا تتخلف مراد عن إرادته إذ قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

و أيضا الولد هو أجزاء من وجود الوالد يعزلها ثم يربيه بالتدرج حتى يصير فردا مثله، والله سبحانه غنى عن التوسل فى فعله الى التدرج و لا- مثل له بل ما أراد كما أراد من غير مهله و تدرج من غير أن يماثله، وقد تقدم نظير هذا المعنى فى تفسير قوله: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ الْآيَةُ (البقره ١١٦) فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ مَعطوف على قوله: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» و هو من قول عيسى عليه السلام، و من الدليل عليه وقوع الآية بعينها فى المحكى من دعوته قومه فى قصته من سوره آل عمران، و نظيره فى سوره الزخرف حيث قال:

«إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاسْتَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (الزخرف ٦٥).

قوله تعالى: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ الأ-حزاب جمع حزب و هو الجمع المنقطع فى رأيه عن غيره فاختلف الأحزاب هو قول كل منهم فيه عليه السلام خلاف ما يقوله الآخرون، وإنما قال: «مِنْ بَيْنِهِمْ» لأن فيهم من ثبت على الحق، وربما قيل «مِنْ» زائده و الأصل اختلف الأحزاب بينهم، و هو كما ترى.

قوله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أى ما أسمعهم و أبصرهم بالحق يوم يأتونا و يرجعون إلينا و هو يوم القيامة فيتبين لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه كما حكى اعترافهم به فى قوله: رَبَّنَا أَبْصِرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (الم السجده ١٢/).

و أما الاستدراك الذى فى قوله: «لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» فهو لدفع توهم أنهم إذا سمعوا و أبصروا يوم القيامة و انكشف لهم الحق سيهتدون فيسعدون بحصول المعرفة و اليقين فاستدرك أنهم لا- ينتفعون بذلك و لا يهتدون بل الظالمون اليوم فى ضلال مبين لظلمهم.

و ذلك أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فلا يواجهون اليوم إلا ما قدموه من العمل و أثره و ما اكتسبوه فى أمسهم ليومهم و أما أن يستأنفوا يوم القيامة عملا- يتوقعون جزاءه غدا فليس لليوم غدا، و بعبارة أخرى هؤلاء رسخت فيهم ملكة الضلال فى الدنيا و انقطعوا عن موطن الاختيار بحلول الموت فليس لهم إلا أن يعيشوا مضطرين على ما هيئوا لأنفسهم من الضلال لا معدل عنه فلا ينفعهم انكشاف الحق و ظهور الحقيقة.

قوله تعالى: وَ أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَشْرِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ظاهر السياق أن قوله: «إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» بيان لقوله: «يَوْمَ الْحَشْرِ» ففيه إشارة الى أن الحسره إنما تأتيهم من ناحية قضاء الأمر و القضاء إنما يوجب الحسره إذا كان بحيث

يفوت به عن المقضى عليه ما فيه قره عينه و أمنيه نفسه و مَخَّ سعادته الذى كان يقدر حصوله لنفسه و لا يرى طيبا للعيش دونه
تعلق قلبه به و توله فيه، و معلوم أن الإنسان لا يرضى لفوت ما هذا شأنه و إن احتمل فى سبيل حفظه أى مكروه إلا أن يصرفه
عنه الغفله فيفترط فى جنبه و لذلك عقب الكلام بقوله: «وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» .

فالمعنى -و الله أعلم- و خوفهم يوما يقضى فيه الأمر فيتحتم عليهم الهلاك الدائم فينقطعون عن سعادتهم الخالده التى فيها قره
أعينهم فيتحسرون عليها حسره لا تقدر بقدر إذ غفلوا فى الدنيا فلم يسلكوا الصراط الذى يهديهم و يوصلهم إليها بالاستقامه و
هو الإيمان بالله وحده و تنزيهه عن الولد و الشريك.

و فيما قدمناه كفايه عن تفاريق الوجوه التى أوردوها فى تفسير الآيه و الله الهادى.

قوله تعالى: إِذَا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا لَنُورِثُهَا لِمَن نَّشَاءُ وَ إِنَّا لَعَالِمُونَ قال الراغب فى المفردات: الوراثة و الإرث انتقال قنيه اليك عن
غيرك من غير عقد و لا ما يجرى العقد و سُمى بذلك لمنتقل عن الميت-الى أن قال- و يقال: ورثت مالا عن زيد و ورثت زيدا.
انتهى.

و الآيه- كأنها- تثبيت و نوع تقريب لقوله فى الآيه السابقه: «قُضِيَ الْأَمْرُ» فالمعنى و هذا القضاء سهل يسير علينا فإننا نرث الأرض و
إياهم و الينا يرجعون و وراثه الأرض أنهم يتركونها بالموت فيبقى لله تعالى و وراثه من عليها أنهم يموتون فيبقى ما بأيديهم لله
سبحانه، و على هذا فالجملتان «نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا» فى معنى جملة واحده «نرث عنهم الأرض».

و يمكن أن نحمل الآيه على معنى أدق من ذلك و هو أن يراد أن الله سبحانه هو الباقي بعد فناء كل شىء فهو الباقي بعد فناء
الأرض يملك عنها ما كانت تملكه من الوجود و آثار الوجود و هو الباقي بعد فناء الإنسان يملك ما كان يملكه كما قصر
الملك لنفسه فى قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦)، و قوله: وَ نَرِيهِ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَرْدًا (مريم ٨٤).

و يرجع معنى هذه الوراثه الى رجوع الكل و حشرهم اليه تعالى فيكون قوله: «وَ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» عطف تفسير و بمنزله التعليل للجملة الثانيه أو لمجموع الجملتين بتغليب أولى العقل على غيرهم او لبروز كل شىء يومئذ أحياء عقلاء.

و هذا الوجه أسلم من شبهه التكرار اللازم للوجه الأول فإن الكلام عليه نظير أن يقال:

ورثت مال زيد و زيدا.

و اختتام الكلام على قصه عيسى عليه السلام بهذه الآيه لا يخلو عن مناسبه فإن وراثته تعالى من الحجج على نفى الولد فإن الولد إنما يراد ليكون وارثا لوالده فالذى يرث كل شىء فى غنى عن الولد (١).

[سوره مريم (١٩): الآيات ٤١ الى ٥٠]

اشاره

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ اِبْرَاهِيمَ اِنَّهٗ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا (٤١) اِذْ قَالَ لِاَبِيهِ يَا اَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا اَبَتِ اِنِّىۤ اَفْتَدِىٓ نَفْسِيۤ مِنَ الْكُفْرِ الَّذِى كَفَرْتُمْ بِىۤ اِنَّ لِىۤ اِلٰهًا غَيْرَكَ اِنَّ اَبَتِىۤ لَمِنَ الْكٰفِرِيۤنَ (٤٣) يَا اَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ اِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا اَبَتِ اِنِّىۤ اَخَافُ اَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطٰنِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ اَرَاغِبُ اَنْتَ عَنِ الْاِلٰهِيۤنَ يَا اِبْرٰهِيْمَ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَمَّا رَجَمْنٰكَ وَ اُهْجَرْنِيۤ مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَاَسِىۤ تَغْفِرُ لَكَ رَبِّىۤ اِنَّهٗ كَانَ بِيۤ حَفِيًّا (٤٧) وَ اَعْتَرَلُكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِّنْ دُوۡنِ اللّٰهِ وَ اَدْعُوا رَبِّىۤ عَسٰى اَلَّا اَكُوۡنَ بِدُعَاۡىِۡ رَبِّىۤ شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اِعْتَرَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُوۡنَ مِّنْ دُوۡنِ اللّٰهِ وَ هَبْنَا لَهُۥٓ اِسْحٰقَ وَ يَعْقُوۡبَ وَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَ وَهَبْنَا لَهُم مِّنْ رَّحْمٰتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

ص: ١١٢

(١-١). مريم ١٦-٤٠: بحث روائى حول قصه مريم و ولاده عيسى عليه السلام؛ الجنة و النار.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ اِبْرَاهِيمَ اِنَّهٗ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا الظاهر أن الصديق اسم مبالغه من الصدق فهو الذى يبالغ فى الصدق فيقول ما يفعل و يفعل ما يقول لا مناقضه بين قوله و فعله، و كذلك كان إبراهيم عليه السلام قال بالتوحيد فى عالم وثنى و هو وحده فحاج أباه و قومه و قاوم ملك بابل و كسر الآلهه و ثبت على ما قال حتى ألقى فى النار ثم اعتزلهم و ما يعبدون كما وعد أباه أول يوم فوهب الله له إسحاق و يعقوب الى آخر ما عدّه تعالى من مواهبه.

و النبى على وزن فعيل مأخوذ من النبأ سمى به النبى لأنه عنده نبأ الغيب بوحي من الله، و قيل: هو مأخوذ من النبوه بمعنى الرفعه سمي به لرفعه قدره.

قوله تعالى: اذْ قَالَ لِاَبِيهِ يَا اَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ظرف لإبراهيم حيث إن المراد بذكره و ذكر نبائه و قصته كما تقدم نظيره فى

قوله: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ» و أما قول من قال بكونه ظرفاً لقوله: «صِدِّيقًا» أو قوله:

«نَبِيًّا» فهو تكلف يستبشعه الطبع السليم.

و قد نبه إبراهيم أباه فيما ألقى إليه من الخطاب أولاً ان طريقه الذى يسلكه بعباده الأصنام لغو باطل، و ثانياً أن له من العلم ما ليس عنده فليتبعه ليهديه الى طريق الحق لأنه على خطر من ولايه الشيطان.

فقوله: «يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ» الخ؛ إنكار توبيخى لعبادته الأصنام و قد عدل من ذكر الأصنام الى ذكر أوصافها «مَا لَا يَسْمَعُ» الخ؛ ليشير الى الدليل فى ضمن إلقاء المدلول و يعطى الحجة فى طىّ المدعى و هو أن عباده الأصنام لغو باطل من وجهين: أحدهما أن العبادة إظهار الخضوع و تمثيل التذلل من العابد للمعبود فلا يستقيم إلا مع علم المعبود بذلك، و الأصنام جمادات مصوّره فاقده للشعور لا تسمع و لا تبصر فعبادتها لغو لا أثر لها، و هذا هو الذى أشار اليه بقوله: «لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ» .

و ثانيهما: أن العبادة و الدعاء و رفع الحاجه الى شىء إنما ذلك ليجلب للعابد نفعاً أو يدفع عنه ضرراً فيتوقف و لا محاله على قدره فى المعبود على ذلك، و الأصنام لا قدره لها على شىء فلا تغنى عن عابدها شيئاً بجلب نفع أو دفع ضرر فعبادتها لغو لا أثر لها، و هذا هو الذى أشار اليه بقوله: «وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا» .

و قد تقدم فى تفسير سورة الأنعام أن هذا الذى كان يخاطبه إبراهيم عليه السلام بقوله: «يَا أَبَتِ» لم يكن والده و إنما كان عمه أو جده لأمه أو زوج أمه بعد وفاه والده فراجع.

و المعروف من مذهب النحاه فى لفظ «يَا أَبَتِ» أن التاء عوض من ياء المتكلم و مثله «يا أمّت» و يختص التعويض بالنداء فلا يقال مثلاً قال أبت و قالت أمّت.

قوله تعالى: «يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا لِمَا بَيْنَ لَه بَطْلَانِ عِبَادَتِهِ لِلْأَصْنَامِ وَ لَغْوِيَّتِهَا وَ كَانَ لَازِمَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَالِكُ طَرِيقِ

غير سوى عن جهل تبته أن له علما بهذا الشأن ليس عنده و عليه أن يتبعه حتى يهديه الى صراط-و هو الطريق الذى لا يضل
سالكه لوضوحه-سوى هو فى غفله من أمره،ولذا نكره إذ قال: «أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا» و لم يقل:أهدك الصراط سوى كأنه
يقول:إذ كنت تسلك صراطا و لا محاله من سلوكه فلا تسلك هذا الصراط غير سوى بجهاله بل اتبعنى أهدك صراطا سويا
فإنى لذو علم بهذا الشأن.

و فى قوله: «قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ» دليل على أنه أوتى بالحق قبل دعوته و حاجته هذه و فيه تصديق ما قدمناه فى قصته عليه
السلام من سورة الأنعام أنه أوتى العلم بالله و مشاهده ملكوت السماوات و الارض قبل أن يلقى أباه و قومه و يحاجهم.

و المراد بالهدايه فى قوله: «أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا» الهدايه بمعنى إراءه الطريق دون الإيصال الى المطلوب فإنه شأن الإمام و لم
يجعل إماما بعد،و قد فصلنا القول فى هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (البقره ١٣٤).

قوله تعالى: يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا الى آخر الآيتين؛الوثنيون يرون وجود الجن-و إبليس من
الجن-و يعبدون أصنامهم كما يعبدون أصنام الملائكه و القديسين من البشر،غير أنه ليس المراد بالنهى النهى عن العباده بهذا
المعنى إذ لا- موجب لتخصيص الجن من بين معبوديهم بالنهى عن عبادتهم بل المراد بالعباده الطاعه كما فى قوله تعالى: أَلَمْ
أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ الْآيَه (يس ٦٠)،فالنهى عن عباده الشيطان نهى عن طاعته فيما يأمر به و مما يأمر به
عباده غير الله.

لما دعاه الى اتباعه ليهديه الى صراط سوى أراد أن يحرضه على الاتباع بقلعه عما هو عليه فنبهه على أن عباده الاصنام ليست
مجرد لغو لا يضر و لا ينفع بل هى فى معرض أن تورث صاحبها مورد الهلاك و تدخله تحت ولايه الشيطان التى لا مطمع بعدها
فى صلاح و فلاح و لا

و ذلك أن عبادتها-و المستحق للعبادة هو الله سبحانه لكونه رحمانا تنتهى إليه كل رحمته- و التقرب إليها إنما هي من الشيطان و تسويله، و الشيطان عصي للرحمن لا يأمر بشيء فيه رضاه و إنما يوسوس بما فيه معصيته المؤديه الى عذابه و سخطه و العكوف على معصيته و خاصة فى أخص حقوقه و هي عبادته وحده، فيه مخافه أن ينقطع عن العاصي رحمته و هي الهدايه الى السعاده و ينزل عليه عذاب الخذلان فلا يتولى الله أمره فيكون الشيطان هو مولاه و هو ولي الشيطان و هو الهلاك.

فمعنى الآيتين-و الله أعلم-يا أبت لا تطع الشيطان فيما يأمرك به من عباده الأصنام لأن الشيطان عصي مقيم على معصيه الله الذى هو مصدر كل رحمته و نعمه فهو لا- يأمر إلا- بما فيه معصيته و الحرمان عن رحمته، و إنما أنهاك عن معصيته فى طاعه الشيطان لأنى أخاف يا أبت أن يأخذك شىء من عذاب خذلانه و ينقطع عنك رحمته فلا يبقى لتولى أمرك إلا الشيطان فتكون وليا للشيطان و الشيطان مولاك.

قوله تعالى: قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ رَأَيْتَ أَنَّكَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا الرَّغْبَةُ عَنِ الشَّيْءِ نَقِيضُ الرَّغْبَةِ فِيهِ كَمَا فِي الْمَجْمَعِ، وَ الْإِنْتِهَاءُ: الْكُفُّ عَنِ الْفِعْلِ بَعْدَ النَّهْيِ، وَ الرَّجْمُ: الرَّمْيُ بِالْحِجَارِ، وَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَعْنَاهِ الْقَتْلُ بِرَمْيِ الْحِجَارِ، وَ الْهَجْرُ هُوَ التَّرِكُ وَ الْمَفَارِقَةُ، وَ الْمَلِيًّا: الدَّهْرُ الطَّوِيلُ.

و فى الآية تهديد لإبراهيم بأخزى القتل و أذله و هو الرجم الذى يقتل به المطرودون، و فيها طرد آزر لإبراهيم عن نفسه.

قوله تعالى: قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا الْحَفِيُّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ: الْبَرُّ اللَّطِيفُ وَ هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُ دَقَائِقَ الْحَوَائِجِ فَيُحَسِّنُ وَ يَرْفَعُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، يُقَالُ: حَفَا يَحْفُو حَفْوً وَ حَفْوَهُ، وَ إِحْفَاءُ السُّؤَالِ وَ الْإِحْفَاءُ فِيهِ: الْإِلْحَاحُ

قابل إبراهيم عليه السلام أباه فيما أساء اليه و هدّده و فيه سلب الأمن عنه من قبله بالسلام الذي فيه إحسان و إعطاء أمن، و وعده أن يستغفر له ربه و أن يعتزلهم و ما يدعون من دون الله كما أمره أن يهجره ملياً.

أما السلام فهو من دأب الكرام قابل به جهاله أبيه إذ هدّده بالرجم و طرده لكلمه حق قالها، قال تعالى: **وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** (الفرقان ٧٢)، و قال: **وَ إِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** (الفرقان ٦٣)، و أما ما قيل: إنه كان سلام توديع و تحية مفارقه و هجره امتثالاً لقوله: «اهْجُرْنِي مَلِيًّا» ففيه أنه اعتزله و قومه بعد مده غير قصيره.

و أما استغفاره لأبيه و هو مشرك فظاهر قوله: **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا** أنه عليه السلام لم يكن وقتئذ قاطعاً بكونه من أولياء الشيطان أي مطبوعاً على قلبه بالشرك جاحداً معانداً للحق عدواً لله سبحانه و لو كان قاطعاً لم يعبر بمثل قوله: «إِنِّي أَخَافُ» بل كان يحتمل أن يكون جاهلاً مستضعفاً لو ظهر له الحق اتبعه، و من الممكن أن تشمل الرحمة الإلهية لأمثال هؤلاء قال تعالى: **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لِيَسْتَتِيبِعُونَ حِيلَهُ وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** (النساء ٩٩)، فاستعطفه عليه السلام بوعده الاستغفار و لم يحتم له المغفرة بل أظهر الرجاء بدليل قوله: «إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا» و قوله تعالى: **إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** (المتحنه ٤).

و يؤيد ما ذكر قوله تعالى: **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**، و **مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** (التوبة /)، فتبرّيه بعد تبين عداوته دليل على أنه كان قبل ذلك عند الموعدة يرجو أن يكون غير

عدو لله مع كونه مشركا، وليس ذلك إلا الجاهل غير المعاند.

ويؤيد هذا النظر قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ -التي أن قال- لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ الخ (الممتحنة/٨).

قوله تعالى: وَاعْتَرَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِمَدْعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا وعد باعتزالهم و الابتعاد منهم و من أصنامهم ليخلو بربه و يخلص الدعاء له رجاء أن لا يكون بسبب دعائه شقيا و إنما أخذ بالرجاء لأن هذه الأسباب من الدعاء و التوجه الى الله و نحوه ليست بأسباب موجبه عليه تعالى شيئا بل الإثابه و الإسعاد و نحوه بمجرد التفضل منه تعالى. على أن الامور بخواتمها لا يعلم الغيب إلا الله فعلى المؤمن أن يسير بين الخوف و الرجاء.

قوله تعالى: فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا الى آخر الآيتين. لعل الاقتصار على ذكر إسحاق لتعلق الغرض بذكر توالى النبوه فى الشجره الإسرائيلىه و لذلك عقب إسحاق بذكر يعقوب فإن فى نسله جما غفيرا من الأنبياء، و يؤيد ذلك أيضا قوله: «وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا» .

و قوله: وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا من الممكن أن يكون المراد به الإمامه كما وقع فى قوله:

وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا (الأنبياء ٧٣)، أو التأييد بروح القدس كما يشير اليه قوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ الْآيَةِ (الأنبياء ٧٣) على ما سيجىء من معناه أو مطلق الولاية الإلهيه.

و قوله: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا اللسان-على ما ذكروا-هو الذكر بين الناس بالمدح أو الذم و إذا أضيف الى الصديق فهو الثناء الجميل الذى لا كذب فيه، و العلى هو الرفيع و المعنى و جعلنا لهم ثاء جميلا صادقا رفيع القدر.

اشاره

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)

بيان:

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا قد تقدم معنى المخلص بفتح اللام و أنه الذي أخلصه الله لنفسه فلا- نصيب لغيره تعالى فيه لا- في نفسه و لا- في عمله، و هو أعلى مقامات العبودية. و تقدم أيضا الفرق بين الرسول و النبي.

قوله تعالى: وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا الْأَيْمَنِ: صفه لجانب أي الجانب الأيمن من الطور، و في المجمع: النجى بمعنى المناجى كالجلس و الضجيع.

و ظاهر أن تقرّبه عليه السلام كان تقريبا معنويا و إن كانت هذه الموهبة الإلهية في مكان و هو الطور ففيه كان التكليم، و مثاله من الحسن أن ينادى السيد العزيز عبده الذليل فيقرّبه من

مجلسه حتى يجعله نجياً ينجيه ففيه نيل ما لا سبيل لغيره اليه.

قوله تعالى: وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا إشاره الى إجابته ما دعا به موسى عند ما أوحى اليه لأول مره فى الطور إذ قال: وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (طه ٣٢).

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ اى آخر الآيتين؛ اختلفوا فى «إِسْمَاعِيلَ» هذا فقال الجمهور هو إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، و إنما ذكر وحده و لم يذكر مع إسحاق و يعقوب اعتناء بشأنه، و قيل: هو غيره، و هو إسماعيل بن حزقيل من أنبياء بنى إسرائيل، و لو كان هو ابن إبراهيم لذكر مع إسحاق و يعقوب.

و يضعف ما وجه به قول الجمهور: إنه استقلّ بالذكر اعتناء بشأنه، أنه لو كان كذلك لكان الأنسب ذكره بعد إبراهيم و قبل موسى عليهم السّلام لا بعد موسى.

قوله تعالى: وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا المراد بأهله خاصته من عترته و عشيرته و قومه كما هو ظاهر اللفظ، و قيل: المراد بأهله أمته و هو قول بلا دليل.

و المراد بكونه عند ربه مرضيًّا كون نفسه مرضيًّا دون عمله كما ربما فسّره به بعضهم فإن إطلاق اللفظ لا يلائم تقييد الرضا بالعمل.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا اى آخر الآيتين؛ قالوا: إن إدريس النبى كان اسمه أخنوخ و هو من أجداد نوح عليهما السّلام على ما ذكر فى سفر التكوين من التوراه، و إنما اشتهر بإدريس لكثرة اشتغاله بالدرس.

و قوله: وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا من الممكن أن يستفاد من سياق القصص المسروده فى السوره و هى تعدّ مواهب النبوه و الولايه و هى مقامات إلهيه معنويه أن المراد بالمكان العلىّ الذى رفع اليه درجه من درجات القرب إذ لا- مزيه فى الارتفاع المادى و الصعود الى أقاصى

[سوره مريم (١٩): الآيات ٥٨ الى ٦٣]

اشاره

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

ص: ١٢١

١-١. مريم ٥١-٥٧: قصه اسماعيل صادق الوعد.

٢-٢. مريم ٥١-٥٧: قصه ادريس النبي عليه السلام.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ** الخ؛ الإشاره بقوله:

«**أُولَئِكَ**» الى المذكورين قبل الآيه فى السوره و هم زكريا و يحيى و مريم و عيسى و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و موسى و هارون و إسماعيل و إدريس عليهم السلام.

وقوله: «**مِنَ النَّبِيِّينَ**» من فيه للتبعيض و عديله قوله الآتى: «**وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا**» على ما سيأتى توضيحه. و قد جوز المفسرون كون «**مِنَ**» بيانيه و أنت خير بأن ذلك لا يلائم كون «**أُولَئِكَ**» مشير الى المذكورين من قبل، لأن النبيين أعم، اللهم إلا أن يكون إشاره اليهم بما هم أمثله لأهل السعاده و يكون المعنى أولئك المذكورون و أمثالهم الذين أنعم الله عليهم هم النبيون و من هدينا و اجتبينا.

وقوله: **مِمَّنْ ذُرِّيَّهُ آدَمَ** فى معنى الصفه للنبيين و من فيه للتبعيض أى من النبيين الذين هم بعض ذريه آدم، و ليس بيانا للنبيين لاختلال المعنى بذلك.

وقوله: **وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ** معطوف على قوله: «**مِنَ ذُرِّيِّهِ آدَمَ**» و المراد بهم المحمولون فى سفينه نوح عليه السلام و ذريتهم و قد بارك الله عليهم، و هم من ذريه نوح لقوله تعالى:

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (الصافات ٧٧).

وقوله: **وَمِنَ ذُرِّيِّهِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ** معطوف كسابقه على قوله: «**مِنَ النَّبِيِّينَ**» .

و قد قسم الله تعالى الذين أنعم عليهم من النبيين على هذه الطوائف الأربع أعنى ذريه آدم و من حملة مع نوح و ذريه إبراهيم و ذريه إسرائيل و قد كان ذكر كل سابق يغنى عن ذكر لاحقه لكون ذريه إسرائيل من ذريه إبراهيم و الجميع ممن حمل مع نوح و الجميع من ذريه آدم عليهم السلام.

وقوله: **وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا** معطوف على قوله: «**مِنَ النَّبِيِّينَ**» و هؤلاء غير

النبيين من الذين أنعم الله عليهم فإن هذه النعمة غير خاصة بالنبيين ولا منحصره فيهم بدليل قوله تعالى: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (النساء ٦٩) وقد ذكر الله سبحانه بين من قص قصته مريم عليها السلام معتنيا بها إذ قال: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ» وليست من النبيين فالمراد بقوله: «وَ مِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْنَا» غير النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين لا- محاله، وكانت مريم من الصديقين لقوله تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ (المائدة ٧٥).

وقوله: إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا السجد جمع ساجد و البكى على فعول جمع باكى و الجملة خبر للذين فى صدر الآية و يحتمل أن يكون الخرور سجدا و بكيا كناية عن كمال الخضوع و الخشوع فإن السجده ممثل لكمال الخضوع و البكاء لكمال الخشوع و الأنسب على هذا أن يكون المراد بالآيات و تلاوتها ذكر مطلق ما يحكى شأننا من شئونه تعالى.

و أما قول القائل إن المراد بتلاوه الآيات قراءه الكتب السماويه مطلقا أو خصوصا ما يشتمل على عذاب الكفار و المجرمين، أو أن المراد بالسجود الصلاة أو سجده التلاوه أو أن المراد بالبكاء البكاء عند استماع الآيات أو تلاوتها فكما ترى.

فمعنى الآية-و الله أعلم-أولئك المنعم عليهم الذين بعضهم من النبيين من ذريه آدم و ممن حملنا مع نوح و من ذريه إبراهيم و إسرائيل و بعضهم من أهل الهدايه و الاجتباء خاضعون للرحمن خاشعون إذا ذكر عندهم و تليت آياته عليهم.

و لم يقل: كانوا إذا تلى عليهم، الخ؛ لأن العنايه فى المقام متعلقه ببيان حال النوع من غير نظر الى ماضى الزمان و مستقبه بل بتقسيمه الى سلف صالح و خلف طالح و ثالث تاب و آمن و عمل صالحا و هو ظاهر.

قوله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا قَالُوا: الخلف بسكون اللام البدل السيئ و يفتح اللام ضده و ربما يعكس على ندره، و ضياع الشيء فساده أو افتقاده بسبب ما كان ينبغي أن يتسلط عليه يقال: أضاع المال إذا أفسده بسوء تدبيره أو أخرجه من يده بصرفه فيما لا ينبغي صرفه فيه، و الغى خلاف الرشد و هو إصابه الواقع و هو قريب المعنى من الضلال خلاف الهدى و هو ركوب الطريق الموصل الى الغايه المقصوده.

فقوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ الخ؛ أى قام مقام اولئك الذين أنعم الله عليهم و كانت طريقتهم الخضوع و الخشوع لله تعالى بالتوجه اليه بالعباده قوم سوء أضاعوا ما أخذوا منهم من الصلاه و التوجه العبادى الى الله سبحانه بالتهاون فيه و الإعراض عنه، و اتبعوا الشهوات الصارفه لهم عن المجاهده فى الله و التوجه اليه.

و قوله: «فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» أى جزاء غيهم على ما قيل فهو كقوله: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا» .

و من الممكن أن يكون المراد به نفس الغى بفرض الغى غايه للطريق التى يسلكونها و هى طريق إضاعه الصلاه و اتباع الشهوات فإذا كانوا يسلكون طريقا غايتها الغى فسيلقونه إذا قطعوها إما بانكشاف غيهم لهم يوم القيامة حيث ينكشف لهم الحقائق أو برسوخ الغى فى قلوبهم و صيرورتهم من أولياء الشيطان كما قال: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢/١)، و كيف كان فهو استعاره بالكنايه لطيفه.

قوله تعالى: إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا استثناء من الآيه السابقه فهؤلاء الراجعون الى الله سبحانه ملحقون باولئك الذين أنعم الله عليهم و هم معهم لا منهم كما قال تعالى: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ

و قوله: «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» من وضع المسبب موضع السبب و الأصل فاولئك يوفون أجرهم، و الدليل على ذلك قوله بعده: «وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا» فإنه من لوازم توفيه الأجر لا من لوازم دخول الجنة.

قوله تعالى: جَنَاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعِدُهُ مَأْتِيًا العدن الإقامة ففي تسميتها به إشاره الى خلودها لدخلها، و الوعد بالغيب هو الوعد بما ليس تحت إدراك الموعود له، و كون الوعد مأتيا عدم تخلفه، قال في المجمع: و المفعول هنا بمعنى الفاعل لأن ما أتته فقد أتاك و ما أتاك فقد أتته يقال: أتيت خمسين سنة و أتت علي خمسون سنة، و قيل: إن الموعود الجنة و الجنة يأتيها المؤمنون انتهى.

قوله تعالى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا عدم سمع اللغو من أخص صفات الجنة و قد ذكره الله سبحانه و امتنّ به في مواضع من كلامه و سنفصل القول فيه إن شاء الله في موضع يناسبه، و استثناء السلام منه استثناء منفصل، و السلام قريب المعنى من الأمن - و قد تقدم الفرق بينهما - فقولك: أنت منى فى أمن معناه لا منى ما يسوؤك، و قولك: سلام منى عليك معناه كل ما تلقاه منى لا - يسوؤك. و إنما يسمعون السلام من الملائكة و من رفقاءهم فى الجنة، قال تعالى حكاية عن الملائكة:

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ (الزمر ٧٣)، و قال: فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (الواقعه / ٩١).

و قوله: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» الظاهر أن إتيان الرزق بكره و عشيا كناية عن تواليه من غير انقطاع.

قوله تعالى: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا الإرث و الوراثه هو أن ينتقل مال أو ما يشبهه من شخص الى آخر بعد ترك الأول له بموت أو جلاء أو

نحوهما، و إذ كانت الجنة في معرض العطاء لكل إنسان بحسب الوعد الإلهي المشروط بالإيمان والعمل الصالح فاختصاص المتقين بها بعد حرمان غيرهم عنها بإضاعه الصلاة و اتباع الشهوات ورائته المتقين، و نظير هذه العناية ما في قوله تعالى: أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (الأنبياء ١٠٥)، و قوله: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْزَنَا الْأَرْضَ نَسَبًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (الزمر ٧٤)، و الآية- كما ترى- جمعت بين الإيراث و الأجر.

[سوره مريم (١٩): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

اشاره

وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

بيان:

قوله تعالى: وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ إِلَى آخر الآية؛ التنزل هو النزول على مهل و توده فإن تنزل مطاوع نزل يقال: نزله فتنزل و النفي و الاستثناء يفيدان الحصر فلا- يتنزل الملائكة إلا- بأمر من الله كما قال: لَا- يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (التحریم / ٦٠).

و قوله: لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ يقال: كذا قدامه و أمامه و بين يديه و المعنى واحد غير أن قولنا: بين يديه إنما يطلق فيما كان بقرب منه و هو مشرف عليه له فيه نوع من التصرف و التسلط فظاهر قوله: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا» أن المراد به ما نشرف عليه مما

هو مكشوف علينا مشهود لنا: و ظاهر قوله: «وَمَا خَلَقْنَا» بالمقابلة ما هو غائب عنا مستور علينا.

و على هذا فلو أريد بقوله: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ» المكان شمل بعض المكان الذى أمامهم و المكان الذى هم فيه و جميع المكان الذى خلفهم و لم يشمل كل مكان، و كذا لو أريد به الزمان شمل الماضى كله و الحال و المستقبل القريب فقط و سياق قوله: «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ»، ينادى بالإحاطه و لا يلائم التبعض.

فالوجه حمل «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا» على الأعمال و الآثار المتفرعه على وجودهم التى هم قائمون بها متسلطون عليها، و حمل «مَا خَلْفَنَا» على ما هو من أسباب وجودهم مما تقدمهم و تحقق قبلهم، و حمل «مَا بَيْنَ ذَلِكَ» على وجودهم أنفسهم و هو من أبداع التعبير و ألطفه و بذلك تتم الإحاطه الإلهيه بهم من كل جهه لرجوع المعنى الى أن الله تعالى هو المالك لوجودنا و ما يتعلق به وجودنا من قبل و من بعد.

قوله تعالى: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا صدر الآيه أعنى قوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» تعليل لقوله فى الآيه السابقه: «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا» الى آخر الآيه؛ أى كيف لا يملك ما بين أيدينا و ما خلفنا و ما بين ذلك و كيف يكون نسيا و هو تعالى ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما؟ و رب الشىء هو مالكه، المدبر لأمره، فملكه و عدم نسيانه مقتضى ربوبيته.

و قوله: «فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ» تفریع على صدر الآيه و المعنى إذا كنا لا نتنزل إلا بأمر ربك و قد نزلنا عليك هذا الكلام المتضمن للدعوه الى عبادته فالكلام كلامه و الدعوه دعوته فاعبده وحده و اصطبر لعبادته فليس هناك من يسمّى ربا غير ربك حتى لا تصطبر على عبادته ربك و تنتقل الى عبادته ذلك الغير الذى يسمّى ربا فتكتفى بعبادته عن عبادته ربك أو تشرك به و ربما قيل: إن الجملة تفریع على قوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أو على قوله:

«وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» أى لم ينسك ربك فاعبده، الخ؛ والوجهان كما ترى.

[سوره مريم (١٩): الآيات ٦٦ الى ٧٢]

اشاره

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا- يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ إِذَا خُلِقَ لَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَو رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَغْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا- وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا (٧٢)

بيان:

قوله تعالى: وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا إنكار للبعث فى صورته الاستبعاد، وهو قول الكفار من الوثنيين و من يلحق بهم من منكرى الصانع بل مما يميل اليه طبع الانسان قبل الرجوع الى الدليل، قيل: ولذلك نسب القول الى الانسان حينما كان مقتضى طبع الكلام أن يقال: ويقول الكافر، أو: ويقول الذين كفروا، الخ؛ وفيه أنه لا يلائم قوله الآتى: «فَو رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ -الى قوله- صِلِيًّا» .

و ليس ببعيد أن يكون المراد بالانسان القائل ذلك هو الكافر المنكر للبعث و إنما عبّر بالانسان لكونه لا يتقرب منه ذلك و قد جهّزه الله تعالى بالإدراك العقلى و هو يذكر أن الله خلقه من قبل و لم يك شيئا، فليس من البعيد أن يعيده ثانيا فاستبعاده مستبعد منه، و لذا كرّر

لفظ الانسان حيث أخذ في الجواب قائلاً: «أَ وَ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا» أى إنه إنسان لا ينبغي له أن يستبعد وقوع ما شاهد وقوع مثله و هو غير ناسيه.

و لعل التعبير بالمضارع فى قوله: «وَ يَقُولُ الْإِنْسَانُ» للإشارة الى استمرار هذا الاستبعاد بين المنكرين للمعاد و المرتابين فيه.

قوله تعالى: أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا الاستفهام للتعجب و الاستبعاد و معنى الآية ظاهر و قد أخذ فيها برفع الاستبعاد بذكر وقوع المثل ليثبت به الإمكان، فالآية نظيره قوله تعالى فى موضع آخر: وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ - الى أن قال- أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ (يس ٨١).

قوله تعالى: فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنَنْحَضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا الجثى فى أصله على فعول جمع جاشى و هو البارك على ركبتيه، و نسب الى ابن عباس أنه جمع جثوه و هو المجتمع من التراب و الحجارة، و المراد أنهم يحضرون زمرا و جماعات متراكما بعضهم على بعض، و هذا المعنى أنسب للسياق.

و ضمير الجمع فى «لَنَحْشُرَنَّهُمْ» و «لَنَنْحَضِرَنَّهُمْ» للكفار، و الآية الى تمام ثلاث آيات متعرضه لحالهم يوم القيامة و هو ظاهر و ربما قيل: إن الضميرين للناس أعم من المؤمن و الكافر كما أن ضمير الخطاب فى قوله الآتى: «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» كذلك و فيه أن لحن الآيات الثلاث و هو لحن السخط و العذاب يأبى ذلك.

و المراد بقوله: «لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ» جمعهم خارج القبور مع أوليائهم من الشياطين لأنهم لعدم إيمانهم غاؤون كما قال: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» و الشياطين أولياؤهم قال تعالى:

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا - مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢)، و قال: إِذَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأعراف ٢٧)، أو المراد حشرهم مع قرنائهم

من الشياطين كما قال: وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (الزخرف ٣٩).

و المعنى: فاقسم بربك لنجمعنهم-يوم القيامة- أو ولياءهم أو قرنائهم من الشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم لإذاقه العذاب و هم باركون على ركبهم من الذله أو وهم جماعات و زمره زمرة.

و فى قوله: «فَو رَبُّكَ» النفات من التكلم مع الغير الى لغيبه و لعل النكته فيه ما تقدم فى قوله: «بِأَمْرِ رَبِّكَ» و نظيره قوله الآتى: «كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا» .

قوله تعالى: ثُمَّ لَنْ نَزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أُمَّةً أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا النزع هو الاستخراج، و الشيعة الجماعة المتعاونون على أمر أو التابعون لعقيده و العتى على فعول مصدر بمعنى التمرد فى العصيان و الظاهر أن قوله: «أُمَّةً أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا» جملة استفهاميه وضع موضع مفعول لنتزعن للدلالة على العناية بالتعيين و التمييز فهو نظير قوله:

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ (الإسراء ٥٧).

و المعنى: ثم لنستخرجن من كل جماعة متشكلة أشدهم تمردا على الرحمن و هم الرؤساء و أئمة الضلال، و قيل المعنى لنستخرجن الأشد ثم الأشد حتى يحاط بهم.

و فى قوله: «عَلَى الرَّحْمَنِ» النفات و النكته تلويح أن تمردهم عظيم كونه تمردا على من شملت رحمته كل شىء و هم لم يلقوا منه إلا الرحمة و التمرد على من هذا شأنه عظيم.

قوله تعالى: ثُمَّ لَنْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِدْقًا لِيَا الصَّلَىٰ فى الأصل على فعول مصدر يقال: صلى النار يصلها صليا و صلينا إذا قاسى حرها فالمعنى ثم أقسم لنحن أعلم بمن أولى بالنار مقاساه لحرها أى إن الأمر فى دركات عذابهم و مراتب استحقاقهم لا يشتهه علينا.

قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا-وَأَرِدُهَا كَمَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا الْخَطَابُ لِلنَّاسِ عَامَهُ مُؤْمِنِيهِمْ وَكَافِرِيهِمْ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا» وَ الضَّمِيرُ فِي «وَأَرِدُهَا» لِلنَّارِ، وَرَبَّمَا قِيلَ: إِنَّ الْخَطَابَ لِلْكَفَّارِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الْمَاضِيَةِ وَ فِي الْكَلَامِ التَّفَاتِ مِنَ الْغَيْبِ إِلَى الْحُضُورِ وَ فِيهِ أَنْ سِيَاقُ الْآيَةِ التَّالِيَةِ يُبَيِّنُ ذَلِكَ.

وَالْوُرُودُ خِلَافَ الصُّدُورِ وَ هُوَ قَصْدُ الْمَاءِ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ كِتَابِ اللُّغَةِ قَالَ الرَّائِبِيُّ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْوُرُودُ أَصْلُهُ قَصْدُ الْمَاءِ ثُمَّ يَسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِهِ يُقَالُ: وَرَدَتِ الْمَاءُ أُرْدَهُ، وَوَرَدْنَا وَارِدًا وَ الْمَاءُ مُورُودٌ، وَ قَدْ أُورِدَتِ الْإِبِلَ الْمَاءَ قَالَ تَعَالَى: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ» وَ الْوَرْدُ الْمَاءُ الْمُرْشِحُ لِلْوُرُودِ، وَ الْوَرْدُ خِلَافُ الصُّدُورِ، وَ الْوَرْدُ يَوْمَ الْحَمَى إِذَا وَرَدَتْ، وَ اسْتَعْمَلَ فِي النَّارِ عَلَى سَبِيلِ الْفِطْرَةِ قَالَ تَعَالَى: «فَمَا وَرَدَهُمُ الدَّارَ» «وَ بَشَّرَ الْمُرُودُ» «إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا» «أَنْتُمْ لَهَا وَأَرِدُونَ» «م» وَرَدُّوهُمَا» وَ الْوَارِدُ الَّذِي يَتَقَدَّمُ الْقَوْمَ فَيَسْقِي لَهُمْ قَالَ تَعَالَى: «فَأَرْسَلُوا وَأَرَدَهُمْ» أَيْ سَاقِيَهُمْ مِنَ الْمَاءِ الْمُرُودِ أَنْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ.

وَ إِلَى ذَلِكَ اسْتَدَانَ مَنْ قَالَ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَحْضُرُونَ النَّارَ وَ يَشْرَفُونَ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلُوهَا وَ اسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ» (الْقَصَصُ ٢٣)، وَ قَوْلِهِ: «فَأَرْسَلُوا وَأَرَدَهُمْ فَأَذَلَّيْ دَلْوَةً» (يُوسُفُ ١٩)، وَ قَوْلِهِ:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا (الْأَنْبِيَاءُ / ١٠٢).

وَ فِيهِ أَنْ اسْتَعْمَالَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ» وَ قَوْلِهِ: «فَأَرْسَلُوا وَأَرَدَهُمْ» فِي الْحُضُورِ بِعَلَاقَةِ الْإِشْرَافِ لَا يَنَافِي اسْتَعْمَالَهُ فِي الدُّخُولِ عَلَى نَحْوِ الْحَقِيقَةِ كَمَا ادَّعَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى، وَ أَمَا قَوْلُهُ: «أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا» فَمِنْ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ الْإِبْعَادُ بَعْدَ الدُّخُولِ كَمَا سَيَظْهَرُ مِنْ قَوْلِهِ: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا»، وَ أَنْ يَحْجُبَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ أَنْ يَسْمَعُوا حَسِيسَهَا إِكْرَامًا لَهُمْ كَمَا حَجَبَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَ بَيْنَ حَرَارَةِ النَّارِ، إِذْ قَالَ

للنار: كوني بردا و سلاما على إبراهيم.

و قال آخرون و لعلمهم أكثر المفسرين بدلالة الآية على دخولهم النار استنادا الى مثل قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا (الأنبياء ٩٩/)، وقوله في فرعون: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ (هود ٩٨/)، و يدل عليه قوله في الآية التالية: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا» أى نتركهم باركين على ركبهم و إنما يقال: نذر و نترك فيما إذا كان داخلا مستقرا فى المحل قبل الترك ثم أبقي على ما هو عليه و لعدة من الروايات الواردة فى تفسير الآية.

و هؤلاء بين من يقول بدخول عامه الناس فيها و من يقول بدخول غير المتقين مدعيا أن قوله: «منكم» بمعنى منهم على حد قوله: وَ سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا، إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً (الدهر ٢٢/)، هذا و لكن لا يلائمه سياق قوله: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا» الآية.

و فيه أن كون الورود فى مثل قوله: «لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا» بمعنى الدخول ممنوع بل الأنسب كونه بمعنى الحضور و الإشراف فإنه أبلغ كما هو ظاهر و كذا فى قوله: «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ» فإن شأن فرعون و هو من أئمه الضلال هو أن يهدى قومه الى النار و أما إدخالهم فيها فليس اليه.

و أما قوله: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا» فالآية دالة على كونهم داخلين فيها بدليل قوله: «نَذَرُ» لكن دلالتها على كونهم داخلين غير كون قوله: «وَأَوْرَدَهُمُ» مستعملا فى معنى الدخول، و كذا تنجيه المتقين لا تستلزم كونهم داخلين فيها فإن النتيجة كما تصدق مع إنقاذ من دخل المهلكة تصدق مع إبعاد من أشرف على الهلاك و حضر المهلكة من ذلك.

و أما الروايات فإنما وردت فى شرح الواقعة لا- فى تشخيص ما استعمل فيه لفظ «وَأَوْرَدَهُمُ» فى الآية فالاستدلال بها على كون الورود بمعنى الدخول ساقط.

فإن قلت: لم لا يجوز أن يكون المراد شأنه الدخول والمعنى: ما من أحد منكم إلا من شأنه أن يدخل النار و إنما ينجو من ينجو بإنحاء الله على حد قوله: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا (النور ٢١)».

قلت: معناه كون ورود مقتضى طبع الانسان من جهة أن ما يناله من خير و سعادته فمن الله و لا يبقى له من نفسه إلا الشر و الشقاء لكن ينافيه ما فى ذيل الآية من قوله: «كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا» فإنه صريح فى أن هذا الورد بإيراد من الله و بقضائه المحتم لا باقتضاء من طبع الأشياء.

و الحق أن الورد لا يدل على أزيد من الحضور و الإشراف عن قصد-على ما يستفاد من كتب اللغة-فقوله: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» إنما يدل على القصد و الحضور و الإشراف، و لا ينافى دلالة قوله فى الآية التالية: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا» على دخولهم جميعا أو دخول الظالمين خاصة فيها بعد ما وردوها.

و قوله: «كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا» ضمير كان للورد أو للجمله السابقه باعتبار أنه حكم، و الحتم و الجزم و القطع بمعنى واحد أى هذا الورد أو الحكم كان واجبا عليه تعالى مقضيا فى حقه و إنما قضى ذلك نفسه على نفسه إذ لا حاكم يحكم عليه.

قوله تعالى: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا» قد تقدم الإشاره الى أن قوله: «وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا» يدل على كون الظالمين داخلين فيها ثم يتركون على ما كانوا عليه، و أما تنجيه الذين اتقوا فلا تدل بلفظها على كونهم داخلين إذ التنجيه ربما تحققت بدونه اللهم إلا أن يستظهر ذلك من ورود اللفظين مقترنين فى سياق واحد.

و فى التعبير بلفظ الظالمين إشاره الى عليه الوصف للحكم.

و معنى الآيتين: ما من أحد منكم-متق أو ظالم-إلا و هو سيرد النار كان هذا الإيراد واجبا مقضيا على ربك ثم ننجى الذين اتقوا منها و نترك الظالمين فيها لظلمهم باركين على

[سوره مريم (١٩): الآيات ٧٣ الى ٨٠]

اشاره

وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَ رِءْيَاً (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّعَاةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أضعفُ جُنْدًا (٧٥) وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَ الْبَاطِلَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لِمَأْوَتَيْنِ مَا لِيَ وَ وَلَدًا (٧٧) أَ طَلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَكَتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَ يُأْتِنَا فَوْدًا (٨٠)

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا الى آخر الآية؛ المقام اسم مكان من القيام

ص: ١٣٤

١- ١). مريم ٦٦-٧٢: بحث روائي حول معنى ورود الناس في جهنم.

٢- ٢). مريم ٦٦-٧٢: كلام في معنى وجوب الفعل و جوازه و عدم جوازه على الله سبحانه.

فهو المسكن، و الندى هو المجلس و قيل خصوص مجلس المشاوره، و معنى «قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا» أنهم خاطبواهم فاللام للتبليغ كما قيل، و قيل: تفيد معنى التعليل أى قالوا لأجل الذين آمنوا أى لأجل إغوائهم و صرفهم عن الإيمان، و الأول أنسب للسياق كما أن الأنسب للسياق أن يكون ضمير عليهم راجعا الى الناس أعم من الكفار و المؤمنين دون الكفار فقط حتى يكون قوله: «قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» من قبيل وضع الظاهر موضع المضمّر.

و قوله: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا» أى للاستفهام و الفريقان هما الكفار و المؤمنون، و كان مرادهم أن الكفار هم خير مقاما و أحسن نديًا من المؤمنين الذين كان الغالب عليهم العبيد و الفقراء لكنهم أوردوه فى صورته السؤال و كئوا عن الفريقين لدعوى أن المؤمنين عالمون بذلك يجيبون بذلك لو سئلوا من غير تردد و ارتياب.

و المعنى: و إذا تتلى على الناس -و هم الفريقان الكفار و المؤمنون- آياتنا و هى ظاهرات فى حجتها و اوضحات فى دلالتها لا تدع ريبا لمرتاب، قال فريق منهم و هم الذين كفروا للفريق الآخر و هم الذين آمنوا: أى هذين الفريقين خير من جهة المسكن و أحسن من حيث المجلس -و لا محاله هم الكفار- يريدون أن لازم ذلك أن يكونوا هم سعداء فى طريقتهم و ملتهم إذ لا سعاده وراء التمتع بأمته الحياه الدنيا فالحق ما هم عليه.

قوله تعالى: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاً وَ رِءْيَاً الْقَرْنَ:

الناس المقترنون فى زمن واحد، و الأثا: متاع البيت، قيل: لا- يطلق إلا- على الكثير و لا- واحد له من لفظه، و الرئى بالكسر فالسكون: ما رئى من المناظر، نقل فى مجمع البيان عن بعضهم: أنه اسم لما ظهر و ليس بالمصدر و إنما المصدر الرأى و الرؤيه يدلّ على ذلك قوله:

«يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ» فالرأى: الفعل، و الرئى: المرئى كالطحن و الطحن و السقى و الرمى و الرمى. انتهى.

قوله تعالى: «قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا إِلَى آخِرِ

الآية؛ لفظه كان في قوله: «مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ» تدلّ على استمرارهم في الضلاله لا مجرد تحقق ضلاله ما، و بذلك يتم التهديد بمجازاتهم بالإمداد و الاستدراج الذي هو إضلال بعد الضلال.

و قوله: «فَلْيَمْدُدْ» صيغه أمر غائب و يثول معناه الى أن من الواجب على الرحمن أن يمدّه مدّاً، فإن أمر المتكلم مخاطبه أن يأمره بشيء معناه إيجاب المتكلم ذلك على نفسه.

و المد و الإمداد واحد لكن ذكر الراغب في المفردات أن أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب و المدّ في المكروه و المراد أن من استقرت عليه الضلاله و استمر هو عليها-و المراد به الكفار كناية-فقد أوجب الله على نفسه أن يمدّه بما منه ضلالته كالزخارف الدنيويّه في مورد الكلام فينصرف بذلك عن الحق حتى يأتيه أمر الله من عذاب أو ساعه بالمفاجأه و المباهته فيظهر له الحق عند ذلك و لن ينتفع به.

فقوله: حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ الخ؛ دليل على أن هذا المد خذلان في صورته إكرام و المراد به أن ينصرف عن الحق و اتباعه بالاشتغال بزهره الحياه الدنيا الغارّه فلا يظهر له الحق إلا في وقت لا ينتفع به و هو وقت نزول البأس أو قيام الساعه.

كما قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّتْ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ (المؤمن ٨٥)، و قال: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا (الأنعام ١٥٨).

و في إرجاع ضمير الجمع في قوله: «رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ» الى «مَنْ» رعايه جانب معناه كما أن في إرجاع ضمير الافراد في قوله: «فَلْيَمْدُدْ لَهُ» اليه رعايه جانب لفظه.

و قوله: «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضْعَفُ جُنْدًا» قوبل به قولهم السابق: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا» أما مكانهم حين يرون العذاب-و الظاهر أن المراد به

عذاب الدنيا- فحيث يحل بهم عذاب الله و قد كان مكان صنديد قريش المتلو عليهم الآيات حين نزول العذاب، قلب بدر التي ألقيت فيها أجسادهم و أما مكانهم يوم يرون الساعة فالنار الخالده التي هي دار البوار، و أما ضعف جندهم فلأنه لا عاصم لهم اليوم من الله و يعود كل ما هيئوه لأنفسهم من عده و عده سدى لا أثر له.

□
قوله تعالى: وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى إِلَى آخِرِ الْأَيَّامِ، الباقيات الصالحات الأعمال الصالحه التي تبقى محفوظه عند الله و تستعقب جميل الشكر و عظيم الأجر و قد وعد الله بذلك في مواضع من كلامه.

و الثواب جزاء العمل قال في المفردات: أصل الثوب رجوع الشيء الى حالته الاولى التي كان عليها أو الى الحاله المقدره المقصوده بالفكره- الى أن قال- و الثواب ما يرجع الى الانسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثوابا تصورا أنه هو- الى أن قال- و الثواب يقال في الخير و الشر لكن الأكثر المتعارف في الخير. انتهى و المراد اسم مكان من الردّ و المراد به الجنه.

و في قوله: «عِنْدَ رَبِّكَ» إشاره الى أن الحكم بخيريّه ما للمؤمنين من ثواب و مرد حكم إلهي لا يخطئ و لا يغلط البته.

قوله تعالى: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَ لَعَدًا كَمَا أَنَّ سِيَّاقِ الْآيَاتِ الْاَتْرِيعِ السَّابِقِ يَعْطَى أَنْ الْحَجَّهِ الْفَاسِدِ الْمَذْكُورِ قَوْلِ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ تَلَى عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فَقَالَ مَا قَالَ دَحْضًا لِكَلِمَةِ الْحَقِّ وَ اسْتِغْوَاءً وَ اسْتِخْفَافًا لِلْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سِيَّاقِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْاَتْرِيعِ وَ قَدْ افْتَتَحَتْ بِكَلِمَةِ التَّعْجِيبِ وَ اشْتَمَلَتْ بِقَوْلِ يَشْبَهُ الْقَوْلِ السَّابِقِ وَ اخْتَتَمَتْ بِمَا يَنَاسِبُهُ مِنَ الْجَوَابِ يَعْطَى أَنْ بَعْضُ النَّاسِ مِمَّنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ أَوْ كَانَ فِي مَعْرُضِ ذَلِكَ بَعْدَ مَا سَمِعَ قَوْلَ الْكُفَّارِ مَالِ الْيَهُمِ وَ لِحَقِّ بِهِمْ قَائِلًا- لَأُوتِينَ مَالًا- وَ وَلَدًا يَعْنِي فِي الدُّنْيَا بِاتِّبَاعِ مَلَّةِ الشَّرْكَ كَأَنَّ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ شُؤْمًا وَ فِي اتِّخَاذِ الْآلِهَةِ مَيْمَنَةً. فَرَدَّهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ:

«أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» الخ.

قوله تعالى: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا رَدَّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «لَا أُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا بِكُفْرِي» أَنَّهُ رَجِمَ بِالْغَيْبِ لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَى الْعِلْمِ فَلَيْسَ بِمَطَّلَعٍ عَلَى الْغَيْبِ حَتَّى يَعْلَمَ بِأَنَّهُ سَيُؤْتَى بِكُفْرِهِ مَا يَأْمَلُهُ وَلَا بِمُتَّخِذِ عَهْدٍ عِنْدَ اللَّهِ حَتَّى يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَ قَدْ جَاءَ بِالنَّفْيِ فِي صُورِهِ الِاسْتِفْهَامَ الْإِنْكَارِيَّ.

قوله تعالى: «كَلَّا سَيَنكُتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا كَلَّا كَلِمَةٌ رَدَعٌ وَزَجْرٌ وَذِيلٌ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَرُدُّ بِهَا مَا يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُ هَذَا الْقَائِلِ مِنْ تَرْتِيبِ إِيْتَاءِ الْمَالِ وَالْوَلَدِ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَحْضَلِهِ أَنَّ الَّذِي يَتَرْتَبُ عَلَى قَوْلِهِ هَذَا لَيْسَ هُوَ إِيْتَاءُ الْمَالِ وَالْوَلَدِ فَإِنَّ لَذَلِكَ أَسْبَابًا أُخْرَى هُوَ مَدُّ الْعَذَابِ عَلَى كُفْرِهِ وَرَجْمُهُ فَهُوَ يَطْلُبُ بِمَا يَقُولُ فِي الْحَقِيقَةِ عَذَابًا مَمْدُودًا يَتَلَوُّ بَعْضُهُ بَعْضًا لِأَنَّهُ هُوَ تَبَعُهُ قَوْلُهُ لَا إِيْتَاءَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ وَ سَنَكْتُبُ قَوْلُهُ وَ نَرْتَبُ عَلَيْهِ أَثْرَهُ الَّذِي هُوَ مَدُّ الْعَذَابِ فَالْآيَةُ نَظِيرُهُ قَوْلُهُ: فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (العلق ١٨).

قوله تعالى: «وَنَرِيئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا» المراد بورائه ما يقول أنه سيموت ويفنى ويترك قومه: «لَا أُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا»، وقد كان خطيئه لازمه له لزوم المال للانسان محفوظه عند الله كأنه مال ورثه بعده ففي الكلام استعاره لطيفه.

و قوله: «وَيَأْتِينَا فَرْدًا» أى وحده و ليس معه شىء مما كان ينتصر به و يركن اليه بحسب و همه فمحض الآيه أنه سيأتينا وحده و ليس معه إلا قوله الذى حفظناه عليه فنحاسبه على ما قال و نمد له من العذاب مدا.

[سوره مريم (١٩): الآيات ٨١ الى ٩٦]

اشاره

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّاطِطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُوزُهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ يُخْرَجُ الْجِبَالُ هَيْدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَ مَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)

ص: ١٣٨

قوله تعالى: وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا هُوَ الْآلِهَةُ هَم

الملائكة و الجنّ و القديسون من الإنس و جبابره الملوك فإن أكثرهم كانوا يرون الملك قداسه سماويه.

و معنى كونهم لهم عزا كونهم شفعاء لهم يقربونهم الى الله بالشفاعة فينالون بذلك العزه فى الدنيا ينجرّ اليهم الخير و لا يمسهم الشر، و من فسّر كونهم لهم عزا بشفاعتهم لهم فى الآخرة خفى عليه أن المشركين لا يقولون بالبعث.

قوله تعالى: **كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** الضد بحسب اللغه المنافى الذى لا يجتمع مع الشىء، و عن الأخفش أن الضد يطلق على الواحد و الجمع كالرسول و العدو و أنكر ذلك بعضهم و وجه إطلاق الضد فى الآيه و هو مفرد على الآلهه و هى جمع بأنها لما كانت متفقه فى عداوه هؤلاء و الكفر بعبادتهم كانت فى حكم الواحد و صحّ بذلك إطلاق المفرد عليها.

و ظاهر السياق أن ضميرى «سَيَكْفُرُونَ» و «يَكُونُونَ» للآلهه و ضميرى «بِعِبَادَتِهِمْ» و «عَلَيْهِمْ» للمشركين المتخذين للآلهه و المعنى: سيكفر الآلهه بعباده هؤلاء المشركين و يكون الآلهه حال كونهم على المشركين لا لهم، ضدا لهم يعادونهم و لو كانوا لهم عزا لثبتوا على ذلك دائما و قد وقع ذلك فى قوله تعالى: **وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَّكَاهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ** (النحل ٨٦).

و أوضح منه قوله: **وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**، **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ** (فاطر ١٤).

و المراد بكفر الآلهه يوم القيامه بعبادتهم و كونهم عليهم ضدا هو ظهور حقيقه الأمر يومئذ فإن شأن يوم القيامه ظهور الحقائق فيه لأهل الجمع لا حدودها و لو لم تكن الآلهه كافرين بعبادتهم فى الدنيا و لا عليهم ضدا بل بدا لهم ذلك يوم القيامه لم تتم حجه الآيه فافهم ذلك، و على هذا المعنى يترتب قوله: «أَلَمْ تَرَ» على قوله: «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ» الخ.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزُهُمْ أَرْزًا الْأَزَّ وَالْهَزَّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَهُوَ التَّحْرِيكُ بِشَدَّةٍ وَإِزْعَاجٌ وَالْمُرَادُ تَهْيِيجُ الشَّيَاطِينِ إِيَّاهُمْ إِلَى الشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَتَحْرِيطُهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ الْبَاطِلِ وَإِضْلَالُهُمْ بِالتَّرْتِلِيزِ عَنِ الثَّبَاتِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى الْحَقِّ.

وَالْأَمْرُ فِي نَسْبِهِ إِسْرَالِ الشَّيَاطِينِ إِلَيْهِ تَعَالَى بَعْدَ مَا كَانَ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازَاهِ فَإِنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ فَجَازَاهُمُ اللَّهُ بِزِيَادَةِ الْكُفْرِ وَالِاضْلَالِ وَيَشْهَدُ بِذَلِكَ قَوْلُهُ: «عَلَى الْكَافِرِينَ» وَ لَوْ كَانَ إِضْلَالًا ابْتِدَائِيًّا لَقِيلَ «عَلَيْهِمْ» مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوضَعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ.

وَالْآيَةُ وَ هِيَ مَصْدَرُهُ بِقَوْلِهِ: «أَلَمْ تَرَ» الْمَفِيدُ مَعْنَى الْاسْتِشْهَادِ مَسْوُوقَةٌ لِتَأْيِيدِ مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ كَوْنِ آلِهِتِهِمْ عَلَيْهِمْ ضِدًّا، فَإِنَّ تَهْيِيجَ الشَّيَاطِينِ إِيَّاهُمْ لِلشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَ اتِّبَاعِ الْبَاطِلِ مَعَادَاهُ وَ ضِدِّيهِ وَ الشَّيَاطِينِ وَ هُمْ مِنْ الْجَنِّ مِنْ جَمَلِهِ آلِهِتِهِمْ وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ الْآلِهَةُ عَلَيْهِمْ ضِدًّا مَا دَعَوْهُمْ إِلَى مَا فِيهِ هَلَاكُهُمْ وَ شِقَاؤُهُمْ.

فَالْآيَةُ بِمَنْزِلِهِ أَنْ يُقَالَ: هَؤُلَاءِ الْآلِهَةُ الَّذِينَ يُحْسِبُونَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ عِزًّا هُمْ عَلَيْهِمْ ضِدٌّ وَ تَصْدِيقٌ ذَلِكَ أَنَّ الشَّيَاطِينِ وَ هُمْ مِنْ آلِهِتِهِمْ يُحْرَكُونَهُمْ بِإِزْعَاجٍ نَحْوِ مَا فِيهِ شِقَاؤُهُمْ وَ لَيْسُوا مَعَ ذَلِكَ مُطْلَقِي الْعِنَانِ بَلْ إِنَّمَا هُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ يُسَمَّى إِسْرَالًا وَ عَلَى هَذَا فَالْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِسَابِقَتِهَا وَ هُوَ الظَّاهِرُ.

وَ جَعَلَ صَاحِبُ رُوحِ الْمَعَانِي هَذِهِ الْآيَةَ مُتْرَبَّةً عَلَى مَجْمُوعِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: «وَ يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا» إِلَى قَوْلِهِ: «وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» وَ مُتَّصِلَةٌ بِهِ وَ أَطْنَبَ فِي بَيَانِ كَيْفِيَةِ الْإِتِّصَالِ بِمَا لَا يُجَدَى نَفْعًا وَ أَفْسَدَ بِذَلِكَ سِيَاقَ الْآيَاتِ وَ اتِّصَالَ مَا بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَّا نَعِدُّ لَهُمْ عِدًّا الْعَدُوُّ هُوَ الْإِحْصَاءُ وَ الْعِدُّ يَفْنَى الْمَعْدُودَ وَ يَنْفَدُهُ وَ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ قَصِدَ بِهِ إِتِّفَاقَ أَعْمَارِهِمْ وَ الْإِتِّتِهَاءَ إِلَى آخِرِ أَنْفَاسِهِمْ كَأَنَّ أَنْفَاسَهُمْ كَانَتْ أَنْفَاسَهُمْ الْمَمْدُودَةَ لِأَعْمَارِهِمْ مَذْخُورَةً بَعْدُهَا عِنْدَ اللَّهِ فَيَنْفَدُهَا بِإِسْرَالِهَا وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ حَتَّى تَنْتَهِيَ وَ هُوَ

اليوم الموعود عليهم.

قوله تعالى: **يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا** الوفد هم القوم الواردون لزياره أو استنجاز حاجه أو نحو ذلك ولا يسمون وفدا إلا إذا كانوا ركبانا و هو جمع واحده وافد.

و ربما استفيد من مقابله قوله فى هذه الآيه: **إِلَى الرَّحْمَنِ** قوله فى الآيه التاليه: **إِلَى جَهَنَّمَ** أن المراد بحشرهم الى الرحمن حشرهم الى الجنه و إنما سمى حشرا الى الرحمن لأن الجنه مقام قربه تعالى فالحشر إليها حشر اليه. و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا** فسّر الورد بالعطاش و كأنه مأخوذ من ورود الماء أى قصده ليشرب و لا يكون ذلك إلا- عن عطش فجعل بذلك الورد كناية عن العطاش، و فى تعليق السوق الى جهنم بوصف الإجماع إشعار بالعليه و نظيره تعليق الحشر الى الرحمن فى الآيه السابقه بوصف التقوى. و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: **لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا** و هذا جواب ثان عن اتخاذهم الآلهه للشفاعه و هو أن ليس كل من يهوى الانسان شفاعته فاتخذها لها ليشفع له يكون شفيعا بل إنما يملك الشفاعه بعهده من الله و لا عهد إلا لأحد من مقرّبي حضرته، قال تعالى: **وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ** (الزخرف ٨٦).

قوله تعالى: **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا** من قول الوثنيين و بعض خاصتهم، و إن قال ببنوّه الآلهه أو بعضهم لله سبحانه تشريفا أو تجليلا- لكن عامتهم و بعض خاصتهم فى مقام التعليم- قال بذلك تحقيقا بمعنى الاشتقاق من حقيقه اللاهوت و اشتمال الولد على جوهره والده، و هذا هو المراد بالآيه و الدليل عليه التعبير بالولد دون الابن، و كذا ما فى قوله: **«إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»** الى تمام ثلاث آيات من الاحتجاج على نفيه.

ص: ١٤٢

قوله تعالى: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا إِلَى تَمَامِ ثَلَاثِ آيَاتٍ، الإِدْبَ بِكَسْرِ الهمزة: الشئ المنكر الفظيع، و التفظر الانشقاق، و الخور السقوط، و الهد الهدم.

و الآيات فى مقام إعظام الذنب و إكبار تبعته بتمثيله بالمحسوس يقول: لقد أتيتكم بقولكم هذا أمرا منكرا فظيعا تكاد السماوات يتفطرن و ينشققن منه و تشق الأرض و تسقط الجبال على السهل سقوط انهدام أن دعوا للرحمن ولدا.

قوله تعالى: وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ ذَلًّا وَلَسَدًا إِنَّ كُلَّ مِيزٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا إِلَى تَمَامِ أَرْبَعِ آيَاتٍ. المراد بإتيان كل منهم عبدا له توجه الكل اليه و مثوله بين يديه فى صفة المملوكية المحضه فكل منهم مملوك له لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرًا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا و ذلك أمر بالفعل ملازم له ما دام موجودا، و لذا لم يقيد الإتيان فى الآيه بالقيامه بخلاف ما فى الآيه الرابعه.

و المراد بإحصائهم و عدّهم تثبيت العبوديه لهم فإن العبيد إنما لهم أرزاقهم و تبين وظائفهم و الامور التى يستعملون فيها بعد الإحصاء و عدّهم و ثبتهم فى ديوان العبيد و به تسجل عليهم العبوديه.

و المراد بإتيانه له يوم القيامه فردا إتيانه يومئذ صفر الكفر لا يملك شيئا مما كان يملكه بحسب ظاهر النظر فى الدنيا و كان يقال: إن له حولا و قوه و مالا و ولدا و أنصارا و وسائل و أسبابا الى غير ذلك فيظهر يومئذ إذ تقطع بهم الأسباب أنه فرد ليس معه شئ يملكه و أنه كان عبدا بحقيقه معنى العبوديه لم يملك قط و لن يملك أبدا فشان يوم القيامه ظهور الحقائق فيه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا الْوَدَّ وَ الموده المحبه و فى الآيه وعد جميل منه تعالى أنه سيجعل للذين آمنوا و عملوا الصالحات موده فى القلوب و لم يقيد بما بينهم أنفسهم و لا بغيرهم و لا بدنيا و لا بآخره أو جنه

فلا موجب لتقييد بعضهم ذلك بالجنه و آخرين بقلوب الناس فى الدنيا الى غير ذلك.

و قد ورد فى أسباب النزول من طرق الشيعة و أهل السنه أن الآيه نزلت فى على عليه السلام، و فى بعضها ما ورد من طرق أهل السنه أنها نزلت فى مهاجرى الحبشه و فى بعضها غير ذلك و سيجىء فى البحث الروائى الآتى.

و على أى حال فعموم لفظ الآيه فى محله، و الظاهر أن الآيه متصله بقوله السابق:

«سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا»

(١)

[سوره مريم (١٩): الآيات ٩٧ الى ٩٨]

اشاره

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا^١ بِلِسَانِكَ^٢ لِنُبَشِّرَ بِهِ^٣ الْمُتَّقِينَ^٤ وَ تُنذِرَ بِهِ^٥ قَوْمًا^٦ لُدًّا^٧ (٩٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا^٨ قَبْلَهُمْ^٩ مِنْ قَوْمٍ^{١٠} هَلْ تَحِسُّ^{١١} مِنْهُمْ^{١٢} مِنْ أَحَدٍ^{١٣} أَوْ تَسْمَعُ^{١٤} لَهُمْ^{١٥} رِكْرًا^{١٦} (٩٨)

بيان:

قوله تعالى: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا^١ بِلِسَانِكَ^٢ لِنُبَشِّرَ بِهِ^٣ الْمُتَّقِينَ^٤ وَ تُنذِرَ بِهِ^٥ قَوْمًا^٦ لُدًّا^٧ هو التسهيل^١ بنبى عن حال سابقه ما كان يسهل معها تلاوته و لا فهمه و قد أنبا سبحانه عن مثل هذه الحاله لكتابه فى قوله: وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ^٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ^٣ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ^٤ وَ إِنَّهُ^٥ فى أُمِّ الْكِتَابِ^٦ لَمَدِينًا^٧ لَعَلِّي^٨ حَكِيمٌ^٩ (الزخرف ٤)، فأخبر أنه لو أبقاء على ما كان عليه عنده-و هو الآن كذلك-من غير أن يجعله عربيا مقرأ لم يرج أن يعقله الناس و كان كما كان عليا حكيما أى آبيا متعصيا أن يرقى اليه أفهامهم و ينفذ فيه عقولهم.

ص: ١٤٤

١- ١). مريم ٨١-٩٦: بحث روائى فى المشركين و آلهتهم؛ حشر المتقين الى الرحمن وفدا، معنى الود الذى جعل الله للمؤمنين.

و من هنا يتأيد أن معنى تيسيره بلسانه تنزيله على اللسان العربي الذى كان هو لسانه صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم فتنبئ الآية أنه تعالى يسره بلسانه ليتيسر له التبشير و الإنذار.

و قوله: «و تُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» المراد قومه صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم، و اللد جمع ألد من اللدد و هو الخصومه.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا الإحساس هو الإدراك بالحس، و الرکز هو الصوت، قيل: و الأصل فى معناه الحس، و حصّل المعنى أنهم و إن كانوا خصماء مجادلين لكنهم غير معجزى الله بخصامهم فكم أهلكنا قبلهم من قرن فبادوا فلا يحس منهم أحد و لا يسمع لهم صوت.

ص: ١٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكَّرَهُ لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ
وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ
تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)

غرض السوره التذكره من طريق الإنذار تغلب فيها آيات الإنذار و التخويف على آيات التبشير غلبه واضحه، فقد اشتملت على قصص تختتم بهلاك الطاغين و المكذبين لآيات الله و تضمنت حججا بينه تلزم العقول على توحيده تعالى و الإجابة لدعوه الحق و تنتهى الى بيان ما سيستقبل الإنسان من أهوال الساعه و مواقف القيامة و سوء حال المجرمين و خسران الظالمين.

و قد افتتحت الآيات-على ما يلوح من السياق-بما فيه نوع تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يتعب نفسه الشريفه فى حمل الناس على دعوته التى يتضمنها القرآن فلم ينزل ليتكلف به بل هو تنزيل إلهى يذكر الناس بالله و آياته رجاء أن تستيقظ غريزه خشيتهم فيتذكروا فيؤمنوا به و يتقوا فليس عليه إلا-التبليغ فحسب فإن خشوا و تذكروا و إلا-غشيتهم غاشيه عذاب الاستئصال أو ردوا الى ربهم فأدر كههم وبال ظلمهم و فسقهم و وفيت لهم أعمالهم من غير أن يكونوا معجزين لله سبحانه بطغيانهم و تكذيبهم.

و سياق آيات السوره تعطى أن تكون مكيه و فى بعض الآثار أن قوله: فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ (الآيه ١٣٠ مدنيه) و فى بعضها الآخر أن قوله: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ (الآيه ١٣١ مدنيه)، و لا دليل على شىء من ذلك من ناحيه اللفظ.

و من غرر الآيات فى السوره قوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» .

قوله تعالى: طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ طه حرفان من الحروف المقطعه افتتحت بهما السوره كسائر الحروف المقطعه التى افتتحت بهما سورها نحو الم الر و نظائرها و قد نقل عن جماعه من المفسرين فى معنى الحرفين أمور ينبغى أن يجلّ البحث التفسيرى عن إيرادها و الغور فى أمثالها، و سلّوح إليها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

و الشقاوه خلاف السعاده قال الراغب: و الشقاوه كالسعاده من حيث الإضافه فكما أن السعاده فى الأصل ضربان: سعاده أخرويه و سعاده دنيويه ثم السعاده الدنيويه ثلاثه أضرب: سعاده نفسه و بدنيه و خارجيه كذلك الشقاوه على هذه الأضرب-الى أن قال- قال بعضهم: قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت فى كذا، و كل شقاوه تعب، و ليس كل تعب شقاوه، فالتعب أعم من الشقاوه. انتهى، فالمعنى ما أنزلنا القرآن لتتعب نفسك فى سبيل تبليغه بالتكلف فى حمل الناس عليه.

□
قوله تعالى: **إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَاءَاتِ الْعُلَى** التذكرة هى إيجاد الذكر فىمن نسى الشىء و إذ كان الإنسان ينال حقائق الدين الكليه بفطرته كوجوده تعالى و توحيده فى وجوده و ألوهيته و ربوبيته و النبوه و المعاد و غير ذلك كانت أمورا مودعه فى الفطره غير أن إخلاد الإنسان الى الأرض و إقباله الى الدنيا و اشتغاله بما يهواه من زخارفها اشتغالا لا يدع فى قلبه فراغا أنساه ما أودع فى فطرته و كان إلقاء هذه الحقائق إلفاتا لنفسه إليها و تذكره له بها بعد نسيانها.

□
و الاستثناء فى قوله: **«إِلَّا تَذَكَّرَ»** استثناء منقطع-على ما قالوا-و المعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب به نفسك و لكن ليكون مذكرا يتذكر به من من شأنه أن يخشى فيخشى فيؤمن بالله و يتقى.

فالسباق على رسله يستدعى كون **«تَذَكَّرَ»** مصدرا بمعنى الفاعل و مفعولا له لقوله: **«مَا أَنْزَلْنَا»** كما يستدعى كون قوله: **«تَنْزِيلًا»** بمعنى اسم المفعول حالا من ضمير **«تَذَكَّرَ»** الراجع الى القرآن، و المعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب به نفسك و لكن لتذكر الخاشعين بكلام إلهي منزل من عنده.

و قوله: **«تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَاءَاتِ الْعُلَى** العلى جمع عليا مؤنث أعلى كفضلى و فضل، و اختيار خلق الأرض و السماوات صله للموصول و بيانا لإبهام المنزل

لمناسبته معنى التنزيل الذى لا يتم إلا بعلو و سفلى يكونان مبدأ و منتهى لهذا التسيير، و قد خصصا بالذكر دون ما بينهما إذ لا غرض يتعلق بما بينهما و إنما الغرض بيان مبدأ التنزيل و منتهاه بخلاف قوله: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» إذ الغرض بيان شمول الملك للجمع.

قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى استئناف يذكر فيه مسأله توحيد الربوبية التى هى مخ الغرض من الدعوه و التذكرة و ذلك فى أربع آيات «الرَّحْمَنُ -الى قوله- لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» .

و قد تقدم فى قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ (الأعراف ٥٤)، أن الاستواء على العرش كناية عن الاحتواء على الملك و الأخذ بزمام تدبير الامور و هو فيه تعالى -على ما يناسب ساحه كبريائه و قدسه- ظهور سلطنته على الكون و استقرار ملكه على الأشياء بتدبير امورها و إصلاح شئونها.

فاستواؤه على العرش يستلزم إحاطه ملكه بكل شىء و انبساط تدبيره على الأشياء سماويها و أرضيها جليلها و دقيقها خطيرها و يسيرها، فهو تعالى رب كل شىء المتوحد بالربوبية إذ لا نعى بالرب إلا المالك للشىء المدبر لأمره، و لذلك عقب حديث الاستواء على العرش بحديث ملكه لكل شىء و علمه بكل شىء و ذلك فى معنى التعليل و الاحتجاج على الاستواء المذكور.

و معلوم أن «الرَّحْمَنُ» و هو مبالغه من الرحمه التى هى الإفاضه بالإيجاد و التدبير و هو يفيد الكثرة أنسب بالنسبه الى الاستواء من سائر الأسماء و الصفات و لذلك اختص من بينها بالذكر.

و قد أشبعنا الكلام فى معنى العرش فى ذيل الآيه ٥٤ من سورة الأعراف فى الجزء الثامن من الكتاب، و سيأتى بعض ما يختص بالمقام فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: لَّهُ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ الثَّرَىٰ الشَّرَىٰ على ما قيل: هو التراب الرطب أو مطلق التراب، فالمراد بما تحت الثرى ما فى جوف الأرض دون التراب و يبقى حينئذ لما فى الأرض ما على بسطها من أجزائها و ما يعيش فيها مما نعلمه و نحس به كالانسان و أصناف الحيوان و النبات و ما لا نعلمه و لا نحس به.

و إذا عمّ الملك ما فى السماوات و الأرض و من ذلك أجزاءهما عمّ نفس السماوات و الأرض فليس الشيء إلا نفس أجزائه.

و قد بين فى هذه الآيه أحد ركنى الربوبية و هو الملك، فإن معنى الربوبية كما تقدم آنفا هو الملك و التدبير.

قوله تعالى: وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى الْجَهْرُ بِالْقَوْلِ رفع الصوت به، و الإسرار خلافه، قال تعالى: وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ (الملك ١٣)، و السرّ هو الحديث المكتوم فى النفس، و قوله: «وَأَخْفَى» أفعل التفضيل من الخفاء على ما يعطيه سياق الترقى فى الآيه و لا يصغى الى قول من قال: إن «أَخْفَى» فعل ماض فاعله ضمير راجع اليه تعالى، و المعنى: إنه يعلم السر و أخفى علمه. هذا. و فى تنكير «أَخْفَى» تأكيد للخفاء.

و ذكر الجهر بالقول فى الآيه أولا ثم إثبات العلم بما هو أدق منه و هو السر و الترقى الى أخفى يدلّ على أن المراد إثبات العلم بالجميع، و المعنى: و إن تجهر بقولك و أعلنت ما تريده—و كأن المراد بالقول ما فى الضمير من حيث إن ظهوره إنما هو بالقول غالبا—أو أسرته فى نفسك و كتمته أو كان أخفى من ذلك بأن كان خفيا حتى عليك نفسك فإن الله يعلمه.

فالأصل ترديد القول بين المجهور به و السر و أخفى و إثبات العلم بالجميع ثم وضع إثبات العلم بالسر و أخفى موضع الترديد الثانى و الجواب إيجازا. فدللّ على الجواب فى شقّى الترديد معا و على معنى الأولويه بأوجز بيان كأنه قيل: و إن تسأل عن علمه بما تجهر به من قولك فهو

يعلمه و كيف لا يعلمه؟ و هو يعلم السر و أخفى منه فهو فى الكلام من لطيف الصنعه.

قوله تعالى: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** بمنزله النتيجة لما تقدم من الآيات و لذلك كان الأنسب أن يكون اسم الجلاله خبرا لمبتدأ محذوف و التقدير هذا المذكور فى الآيات السابقه هو **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... الخ**؛ و إن كان الأقرب بالنظر الى استقلال الآيه و جامعيتها فى مضمونها أن يكون اسم الجلاله مبتدأ و قوله: **«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** خبره، و قوله:

«لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» خبرا بعد خبر.

و كيف كان فقوله: **«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** يمكن أن يعلل بما ثبت فى الآيات السابقه من توحيده تعالى بالربوبيه المطلقه و يمكن أن يعلل بقوله بعده: **«لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»**.

أما الأول فلأن معنى الإله فى كلمه التهليل إما المعبود و إما المعبود بالحق فمعنى الكلام **اللَّهُ** لا معبود حق غيره أو لا معبود بالحق موجود غيره و المعبوديه من شئون الربوبيه و لواحقها فإن العباده نوع تمثيل و ترسيم للعبوديه و المملوكيه و إظهار للحاجه اليه فمن الواجب أن يكون المعبود مالكا لعبده مدبرا أمره أى ربا له و إذ كان تعالى رب كل شىء لا رب سواه فهو المعبود لا معبود سواه.

و أما الثانى فلأن العباده لأحد ثلاث خصال إما رجاء لما عند المعبود من الخير فيعبد طمعا فى الخير الذى عنده لينال بذلك، و إما خوفا مما فى الإعراض عنه و عدم الاعتناء بأمره من الشر و إما لأنه أهل للعباده و الخضوع.

و **اللَّهُ** سبحانه هو المالك لكل خير لا يملك شىء شيئا من الخير إلا ما ملكه هو إياه و هو المالك مع ذلك لما ملكه و القادر على أقدره و هو المنعم المفضل المحيى الشافى الرازق الغفور الرحيم الغنى العزيز و له كل اسم فيه معنى الخير فهو سبحانه المستحق للعباده رجاء لما عنده من الخير دون غيره.

و **اللَّهُ** سبحانه هو العزيز القاهر الذى لا يقوم لقهرة شىء و هو المنتقم ذو البطش شديد

العقاب لا شرّ لأحد عند أحد إلا ياذنه فهو المستحق لأن يعبد خوفا من غضبه لو لم يخضع لعظمته و كبريائه.

و الله سبحانه هو الأهل للعبادة وحده لأن أهليه الشيء لأن يخضع له لنفسه ليس إلا لكمال فالكمال وحده هو الذى يخضع عنده النقص الملازم للخضوع و هو إما جمال تنجذب اليه النفس انجذابا أو جلال يخزّ عنده اللبّ و يذهب دونه القلب و له سبحانه كل الجمال و ما من جمال إلا و هو آيه لجماله، و له سبحانه كل الجلال و كل ما دونه آيته. فالله سبحانه لا إله إلا هو و لا معبود سواه لأنه له الأسماء الحسنى.

و معنى ذلك أن كل اسم هو أحسن الأسماء التى هى نظائره له تعالى، توضيح ذلك أن توصيف الاسم بالحسن يدل على أن المراد به ما يسمى فى اصطلاح الصرف صفه كاسم الفاعل و الصفه المشبهه دون الاسم بمعنى علم الذات لأن الاعلام إنما شأنها الإشاره الى الذوات و الاتصاف بالحسن أو القبح من شأن الصفات باشتمالها على المعانى كالعادل و الظالم و العالم و الجاهل، فالمراد بالأسماء الحسنى الألفاظ الدالّه على المعانى الوصفية الجميله البالغه فى الجمال كالحى و العليم و القدير، و كثيرا ما يطلق التسميه على التوصيف، قال تعالى: «قل سمّوهن» أى صفوهن.

و يدلّ على ذلك أيضا قوله تعالى: **وَ لِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** (الأعراف ١٨٠)، أى يميلون من الحق الى الباطل فيطلقون عليه من الأسماء ما لا يليق بساحه قدسه.

فالمراد بالأسماء الحسنى ما دلّ على معان و صفيه كالإله و الحىّ و العليم و القدير دون اسم الجلاله الذى هو علم الذات، ثم الأسماء تنقسم الى قبيحه كالظالم و الجائر و الجاهل، و الى حسنه كالعادل و العالم، و الأسماء الحسنه تنقسم الى ما فيه كمال ما و إن كان غير خال عن شوب النقص و الإمكان نحو صبيح المنظر و معتدل القامه و جعد الشعر و ما فيه الكمال من غير

شوب كالحى و العليم و القدير بتجريد معانيها عن شوب الماده و التركيب و هى أحسن الأسماء لبراءتها عن النقص و العيب و هى التى تليق أن تجرى عليه تعالى و يتصف بها.

و لا يختص ذلك منها باسم دون اسم بل كل اسم أحسن فله تعالى لمكان الجمع المحلى باللام المفيد للاستغراق فى قوله تعالى: «لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» و تقديم الخبر يفيد الحصر فجميعها له وحده.

و معنى كونها له تعالى أنه تعالى يملكها لذاته و الذى يوجد منها فى غيره فهو بتمليك منه تعالى على حسب ما يريد كما يدل عليه سوق الآيات الآتية سوق الحصر كقوله: «هُوَ الْحَىُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (المؤمن ٦٥)، و قوله: وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (الروم ٥٤)، و قوله: هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (المؤمن ٥٦)، و قوله: أَنْ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (البقره ١٦٥)، و قوله:

فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (النساء ١٣٩)، و قوله: وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (البقره ٢٥٥)، الى غير ذلك.

و لا محذور فى تعميم ملكه بالنسبه الى جميع أسمائه و صفاته حتى ما كان منها عين ذاته كالحى و العليم و القدير و كالحياه و العلم و القدره فإن الشىء ربما ينسب الى نفسه بالملك كما فى قوله تعالى: رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي (المائد ٢٥) (١).

[سوره طه (٢٠): الآيات ٩ الى ٤٨]

اشاره

وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّمْعَاءَ آتِيَهُ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَزِدَى (١٦) وَ مَا تَلَكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَ أَهْشُ بِهَا عَلَى عَمِي وَ لِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَ لَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى (٢٢) لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) إِذْ هَبَّ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَ اخْلُفْ عَقِبَهُ مِنَ الْمُنَى (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَ اشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ اقْضِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْضِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ الْفَيْتُ عَلَيْهِ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَ لِتُضَيِّعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتْنَاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلِيًّا قَدِيرًا يَا مُوسَى (٤٠) وَ اضْطَنْعُكَ لِنَفْسِي (٤١) إِذْ هَبْتَ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِي وَ لَا تَبَيَّنَا فِي ذِكْرِي (٤٢) إِذْ هَبْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَ أَرَى (٤٦) فَأَلْيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٤٨)

١ - ١). طه ٨-١: بحث روائي حول: حروف المقطعه (طه)؛ معنى الآية «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»؛ العرش و الكرسي؛ تفسير القرآن.

قوله تعالى: وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ الاستفهام للتقرير و الحديث،القصه.

قوله تعالى: إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ المكث اللبث،و الإيناس إبصار الشيء أو وجدانه و هو من الانس خلاف النفور و لذا قيل: إنه إبصار شيء يونس به فيكون أبصارا قويا،و القبس بفتحتين هو الشعلة المقتبسه على رأس عود و نحوه و الهدى مصدر بمعنى اسم الفاعل أو مضاف اليه لمضاف مقدر أى ذا هدايه،و المراد -على أى حال-من قام به الهدايه.

و سياق الآية و ما يتلوها يشهد أن كان فى منصرفه من مدين الى مصر و معه أهله و هم بالقرب من وادى طوى فى طور سيناء فى ليله شاتيه مظلمه و قد ضلوا الطريق إذ رأى نارا فرأى أن يذهب إليها فإن وجد عندها أحدا سأله الطريق و إلا أخذ قبسا من النار ليضرموا به

نارا فيصطلوا بها.

و في قوله: «فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا» إشعار بل دلالة على أنه كان مع أهله غيره كما أن في قوله:

«إِنِّي آنَسْتُ نَارًا» مع ما يشتمل عليه من التأكيد و التعبير بالإيناس دلالة على أنه إنما رآها هو وحده و ما كان يراها غيره من أهله و يؤيد ذلك قوله أيضا أولا: «إِذْ رَأَى نَارًا»، و كذا قوله:

«لَعَلِّي آتِيكُمْ» الخ؛ يدل على أن في الكلام حذفاً و التقدير امكثوا لأذهب إليها لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هاديا نهتدى بهداه.

قوله تعالى: فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ -الى قوله- طُوى طوى اسم لواد بطور و هو الذى سمّاه الله سبحانه بالوادى المقدس، و هذه التسميه و التوصيف هى الدليل على أن أمره بخلع النعلين إنما هو لاحترام الوادى أن لا يداس بالنعل ثم تفرّيع خلع النعلين مع ذلك على قوله: «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» يدلّ على أن تقديس الوادى إنما هو لكونه حظيره لقرب و موطن الحضور و المناجاة فيؤول معنى الآية الى مثل قولنا نودى يا موسى ها أنا ذا ربك و أنت بمحضر منى و قد تقدّس الوادى بذلك فالترم شرط الأدب و اخلع نعليك.

و على هذا النحو يقدّس ما يقدّس من الأمكنه و الأزمنه كالكعبه المشرفه و المسجد الحرام و سائر المساجد و المشاهد المحترمه فى الإسلام و الأعياد و الأيام المتبركه فإنما ذلك قدس و شرف اكتسبته بالانتساب الى واقعه شريفه وقعت فيها أو نسك و عباده مقدّسه شرّعت فيها و إلا فلا تفاضل بين أجزاء المكان و لا بين أجزاء الزمان.

و لما سمع موسى عليه السلام قوله تعالى: «يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» فهم من ذلك فهم يقين أن الذى يكلمه هو ربه و الكلام كلامه و ذلك أنه كان وحيا منه تعالى و قد صرح تعالى بقوله: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ» (الشورى ٥١/)، أن لا- واسطه بينه تعالى و بين من يكلمه من حجاب أو رسول إذا كان تكليم وحي و إذ لم يكن هناك أى واسطه مفروضه لم يجد الموحى اليه مكلما لنفسه و لا

توهمه إلا- الله و لم يجد الكلام إلا- كلامه و لو احتمل أن يكون المتكلم غيره أو الكلام كلام غيره لم يكن تكليما ليس بين الإنسان و بين ربه غيره.

و هذا حال النبي و الرسول في أول ما يوحى اليه بالنبوه و الرساله لم يختلجه شك و لا اعتراضه ريب في أن الذى يوحى اليه هو الله سبحانه من غير أن يحتاج الى أعمال نظر أو التماس دليل أو إقامة حجه و لو افتقر الى شىء من ذلك كان اكتسابا بواسطه القوه النظرية لا تلقيا من الغيب من غير توسط واسطه.

فإن قلت: قوله تعالى في القصه في موضع آخر من كلامه: «وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا» .

و قوله في موضع آخر: «من جانب الطور الأيمن من الشجره» يثبت الحجاب في تكليمه عليه السلام.

قلت: نعم لكن ثبوت الحجاب أو الرسول في مقام التكليم لا ينافى تحقق التكليم بالوحى فإن الوحى كسائر أفعاله تعالى لا يخلو من واسطه و إنما يدور الأمر مدار التفات المخاطب الذى يتلقى الكلام فإن التفات الى الواسطه التى تحمل الكلام و احتجب بها عنه تعالى كان الكلام رساله أرسل اليه بملك مثلا و وحيا من الملك، و إن التفات الى تعالى كان وحيا منه و إن كان هناك واسطه لا يلتفت إليها، و من الشاهد على ما ذكرنا قوله فى الآية التاليه خطابا لموسى:

«فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» فسماه وحيا، و قد أثبت فى سائر كلامه فيه الحجاب.

و بالجمله قوله: «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ الْخ» تنبيه لموسى على أن الموقف موقف الحضور و مقام المشافهه و قد خلى به و خصه من نفسه بمزيد العنايه، و لذا قيل: «إني أنا ربك»، و لم يقل: «أنا الله أو أنا رب العالمين»، و لذا أيضا لم يلزم من قوله ثانيا: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» تكرار، لأن الأول تخليه للمقام من الأغيار لإلقاء الوحى، و الثانى من الوحى.

و فى قوله: «نُودِيَ» حيث طوى ذكر الفاعل و لم يقل: ناديناه أو ناداه الله من اللطف ما

لا يقدر بقدر، وفيه تلويح أن ظهور هذه الآية لموسى كان على سبيل المفاجأة.

قوله تعالى: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» الاختيار مأخوذ من الخير، وحقيقته أن يتردد أمر الفعل مثلا بين أفعال يجب أن يرجح واحدا منها ليفعله فيميز ما هو خيرها ثم يبنى على كونه خيرا من غيره فيفعله، فبناؤه على كونه خيرا من غيره هو اختيار فالاختيار دائما لغايه هو غرض الفاعل من فعله.

فاختياره تعالى لموسى إنما هو لغايه إلهيه و هي إعطاء النبوه و الرساله و يشهد بذلك قوله على سبيل التفريع على الاختيار: «فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» فقد تعلق المشيه الإلهيه ببعث إنسان يتحمل النبوه و الرساله و كان موسى في علمه تعالى خيرا من غيره و أصلح لهذا الغرض فاختره عليه السلام.

و قوله: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ» على ما يعطيه السياق من قبيل إصدار الأمر بنبوتة و رسالته فهو إنشاء لا إخبار، و لو كان إخبارا لقل: و قد اخترتك لكنه إنشاء الاختيار للنبوه و الرساله بنفس هذه الكلمه ثم لما تحقق الاختيار بإنشائه فرع عليه الأمر بالاستماع للوحي المتضمن لنبوتة و رسالته فقال: «فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» و الاستماع لما يوحى الإصغاء اليه.

قوله تعالى: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي هَذَا هُوَ الْوَحْيُ الَّذِي أَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِسْتِمَاعِ لَهُ فِي إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى النَّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ مَعَا أَمَّا النَّبُوَّةُ فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالْآيَتِينَ بَعْدَهُ، وَأَمَّا الرِّسَالَةُ فَتَأْخُذُ مِنْ قَوْلِهِ: «وَمَا تَلَكَ بِمِثْلِكَ يَا مُوسَىٰ» وَتَنْتَهِي فِي قَوْلِهِ: «أَذْهَبْ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ» وَ قَدْ نَصَّ تَعَالَى أَنَّهُ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (مريم ٥١).

و قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي» كلمه التوحيد مرتبه على قوله: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» لفظا لترتبه عليه حقيقه فإنه إذا كان هو الذى منه يبدأ كل شىء و به يقوم و اليه يرجع فلا- ينبغى أن يخضع خضوع العباده إلا- له فهو الإله المعبود بالحق لا إله غيره و لذا فرع على ذلك الأمر

بعبادته حيث قال: «فَاعْبُدْنِي» .

وقوله: «وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» خص الصلاة بالذكر- وهو من باب ذكر الخاص بعد العام اعتناء بشأنه-لأن الصلاة أفضل عمل يمثل به الخضوع العبودي و يتحقق بها ذكر الله سبحانه تحقق الروح بقلبه.

و على هذا المعنى فقوله: «لِذِكْرِي» من إضافه المصدر الى مفعوله و اللام للتعليل و هو متعلق بأقم محصله أنه: حقق ذكر ك لي بالصلاة، كما يقال: كل لتشبع و اشرب لتروى و هذا هو المعنى السابق الى الذهن من مثل هذا السياق.

قوله تعالى: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادٌ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ لِعَلِّيلِ لِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «فَاعْبُدْنِي» و لا يناقض ذلك كون «فَاعْبُدْنِي» متفرعا على كلمه التوحيد المذكوره قبله لأن وجوب عبادته تعالى و إن كان بحسب نفسه متفرعا على توحيده لكنه لا- يؤثر أثرا لولا- ثبوت يوم يجزى فيه الإنسان بما عمله و يتميز فيه المحسن من المسيء و المطيع من العاصي فيكون التشريع لغوا و الأمر و النهي سدى لا أثر لهما، و لذلك كانت مقضيه قضاء حتما و تكرر في كلامه تعالى نفى الريب عنها.

وقوله: أَكَادٌ أُخْفِيهَا ظاهر إطلاق الإخفاء أن المراد يقرب أن أخفيها و أكتمها فلا أخبر عنها أصلا حتى يكون وقوعها أبلغ في المباغته و أشد في المفاجأه و لا تأتي إلا فجأه كما قال تعالى: لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً (الأعراف ١٨٧)، أو يقرب أن لا- أخبر بها حتى يتميز المخلصون من غيرهم فإن أكثر الناس إنما يعبدونه تعالى رجاء في ثوابه أو خوفا من عقابه جزاء للطاعه و المعصيه، و أصدق العمل ما كان لوجه الله لا طمعا في جنه أو خوفا من نار و لو أخفى و كتم يوم الجزاء تميز عند ذلك من يأتي بحقيقه العباده من غيره.

وقوله: «لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ» متعلق بقوله: «آتِيَةٌ» و المعنى واضح.

قوله تعالى: فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ الصَّدَّ

الصدق، و الردى الهلاك، و الضميران فى «عَنْهَا» و «بِهَا» للساعه، و معنى الصدّ عن الساعه الصدق عن ذكرها بما لها من الشأن و هو أنها يوم تجزى فيه كل نفس بما تسعى، و كذا معنى عدم الإيمان بها هو الكفر بها بما لها من الشأن.

و قوله: وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ كعطف التفسير بالنسبه الى قوله: «مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا» أى إن عدم الإيمان بها مصداق اتباع الهوى و إذ كان مع ذلك صالحا للتعليل أفاد الكلام عليه الهوى لعدم الإيمان بها، و استفيد من ذلك بالالتزام أن الإيمان بالساعه هو الحق المخالف للهوى و المنجى من الردى.

فمحصل معنى الآيه أنه إذا كانت الساعه آتية و الجزاء واقعا فلا يصرفنك عن الإيمان بها و ذكرها بما لها من الشأن الذين اتبعوا أهواءهم فصاروا يكفرون بها و يعرضون عن عباده ربهم فلا يصرفنك عنها حتى تنصرف فتهلك.

و لعل الإتيان فى قوله: «وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ» بصيغه الماضى مع كون المعطوف عليه بصيغه المضارع للتلويح الى عليه اتباع الهوى لعدم الإيمان.

قوله تعالى: وَ مَا تَلَمَّكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى شروع فى وحى الرساله و قد تمّ وحى النبوه فى الآيات الثلاث الماضيه و الاستفهام للتقرير، سئل عليه السلام عما فى يده اليمنى و كانت عصاه، ليسمّيها و يذكر أوصافها فيتبين أنها جماد لا حياه له حتى يأخذ بتديلها حيثه تسعى مكانه فى نفسه عليه السلام.

و الظاهر أن المشار اليه بقوله: «تِلْكَ» العوده أو الخشبه، و لو لا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: و ما ذلك بجعل المشار اليه هو الشىء لمكان التجاهل بكونها عصا و إلا لم يستقم الاستفهام كما فى قوله: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَتْ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ (الأنعام/٧٨).

قوله تعالى: قَالَتْ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَ أَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَ لِي فِيهَا مِآرِبٌ أُخْرَى العصا معروفه و هى من المؤنثات السماعيه، و التوكى و الاتكاء على

العصا الاعتماد عليها، والهش هو خبط ورق الشجره و ضربه بالعصا لتساقط على الغنم فيأكله،و المآرب جمع مأربه مثلثه الرء و هى الحاجه،و المراد بكون مأربه فيها تعلق حوائجه بها من حيث إنها وسيله رفعها.و معنى الآيه ظاهر.

و إطنابه عليه السّلام بالاطاله فى ذكر أوصاف العصا و خواصها قبل:لأن المقام و هو مقام المناجاه و المسارّه مع المحبوب يقتضى ذلك لأن مكالمه المحبوب لذيدّه و لذا ذكر أولاً أنه عصاه ليرتب عليه منافعها العامه و هذه هى النكته فى ذكر أنها عصاه.

و قد قدمنا فى ذيل الآيه السابقه وجهها آخر لهذا الاستفهام و جوابه و ليس الكلام عليه من باب الاطناب و خاصه بالنظر الى جمعه سائر منافعها فى قوله: «وَلِيَّ فِيهَا مَّأْرِبٌ أُخْرَى» .

قوله تعالى: قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى -الى قوله- سِيرَتَهَا الْأُولَى السيره الحاله و الطريقه و هى فى الأصل بناء نوع من السير كجلسه لنوع من الجلوس.

أمر سبحانه موسى أن يلقى عصاه عن يمينه و هو قوله: «قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى» فلما ألقى العصا صارت حيه تتحرك بجهد و جلاده و ذلك أمر غير مترقب من جماد لا حياه له و هو قوله:

«فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى» و قد عبر تعالى عن سعيها فى موضع آخر من كلامه بقوله:

رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهُا جَانٌّ (القصص ٣١)،و عبر عن الحيه أيضا فى موضع آخر بقوله:

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (الأعراف ١٠٧)،(الشعراء ٣٢)و الثعبان:الحيه العظيمه.

و قوله: قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَبْعُهَا سِيرَتَهَا أَي حالتها «الْأُولَى» و هى أنها عصا فيه دلالة على خوفه عليه السّلام مما شاهده من حيه ساعيه و قد قصه تعالى فى موضع آخر إذ قال: فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهُا جَانٌّ وَلَى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ (القصص ٣١)،و الخوف و هو الأخذ بمقدمات التحرز عن الشر غير الخشيّه التى هى تأثر القلب و اضطرابه فإن الخشيّه رذيله تنافى فضيله الشجاعه بخلاف الخوف الأنبياء عليهم السّلام

يجوز عليهم الخوف دون الخشية كما قال الله تعالى: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب/٣٩).

قوله تعالى: وَاضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى الضم الجمع، والجناح جناح الطائر و اليد و العضد و الابط و لعل المراد به المعنى الأخير ليثول الى قوله فى موضع آخر: «أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ» و السوء كل رداءه و قبح قيل: كنى به فى الآيه عن البرص و المعنى أجمع يدك تحت ابطك أى أدخلها فى جيبك تخرج بيضاء من غير برص أو حاله سيئه أخرى.

و قوله: آيَةٌ أُخْرَى حال من ضمير تخرج و فيه اشاره الى أن صيروره العصا حيه آيه أولى و اليد البيضاء آيه أخرى و قال تعالى فى ذلك: فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ (القصص/٣٢).

قوله تعالى: لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اللام للتعليل و الجملة متعلقة بمقدر كأنه قيل: أجرينا ما أجرينا على يدك لنريك بعض آياتنا الكبرى.

قوله تعالى: إِذْ هَبَّ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ هذا هو أمر الرسالة و كانت الآيات السابقة «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ» الخ؛ مقدمه له.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي -الى قوله- إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا الآيات- و هى إحدى عشره آيه- متن ما سأله موسى عليه السلام ربه حين سجل عليه حكم الرسالة و هى بظاهاها مربوطه بأمر رسالته لأنه أحوج ما يكون إليها فى تبليغ الرسالة الى فرعون و ملائته و إنجاء بنى إسرائيل و إداره أمورهم لا فى أمر النبوه.

و قوله: وَ اخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي سؤال له آخر يرجع الى عقده فى لسانه و التنكير فى «عُقْدَةً» للدلاله على النوعيه فله وصف مقدر و هو الذى يلوح من قوله:

«يَفْقَهُوا قَوْلِي» أى عقده تمنع من فقه قولى.

وقوله: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي سؤال له آخر وهو رابع الأسئلة و آخرها، والوزير فعيل من الوزر بالكسر فالسكون بمعنى الحمل الثقيل سمى الوزير وزيرا لأنه يحمل ثقل حمل الملك، وقيل: من الوزر بفتحين بمعنى الجبل الذي يلتجأ إليه سمي به لأن الملك يلتجئ إليه في آرائه و أحكامه.

و بالجمله هو يسأل ربه أن يجعل له وزيرا من أهله و يتبينه أنه هارون أخى و إنما يسأل ذلك لأن الأمر كثير الجوانب متباعده الأطراف لا يسع موسى أن يقوم به وحده بل يحتاج الى وزير يشاركه فى ذلك فيقوم ببعض الأمر فيخفف عنه فيما يقوم به هذا الوزير و يكون مؤيدا لموسى فيما يقوم به موسى و هذا معنى قوله-و هو بمنزله التفسير لجعله وزيرا-: «أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» .

فمعنى قوله: «وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» سؤال الإشراك فى أمر كان يخصه و هو تبليغ ما بلغه من ربه بادى مره فهو الذى يخصه و لا يشاركه فيه أحد سواه و لا له أن يستنيب فيه غيره و أما تبليغ الدين أو شىء من أجزائه بعد بلوغ بتوسط النبى فليس مما يختص بالنبى بل هو وظيفه كل من آمن به ممن يعلم شيئا من الدين و على العالم أن يبلغ الجاهل و على الشاهد أن يبلغ الغائب و لا معنى لسؤال إشراك أخيه معه فى أمر لا يخصه بل يعمّه و أخاه و كل من آمن به من الإرشاد و التعليم و البيان و التبليغ فتبين أن معنى إشراكه فى أمره أن يقوم بتبليغ بعض ما يوحى إليه من ربه عنه و سائر ما يختص به من عند الله كافتراض الطاعة و حجيه الكلمه.

و أما الإشراك فى النبوه خاصه بمعنى تلقى الوحي من الله سبحانه فلم يكن موسى يخاف على نفسه التفرد فى ذلك حتى يسأل الشريك و إنما كان يخاف التفرد فى التبليغ و إداره الامور فى إنجاء بنى إسرائيل و ما يلحق بذلك، و قد نقل ذلك عن موسى نفسه فى قوله: وَ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي (القصص ٣٤).

على أنه صح من طرق الفريقين أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم دعا بهذا الدعاء بألفاظه فى حق على عليه السلام

و لم يكن نيبا.

وقوله: كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ظاهر السياق وقد ذكر في الغايه تسيبهما معا و ذكرهما معا أن الجملة غايه لجعل هارون وزيرا له إذ لا تعلق لتسيبهما معا و ذكرهما معا بمضامين الأدعيه السابقه و هي شرح صدره و تيسير أمره و حل عقده من لسانه و يترتب على ذلك أن المراد بالتسيب و الذكر تنزيههما معا لله سبحانه و ذكرهما له بين الناس علنا لا في حال خلوتهما أو في قلبيهما سرا إذ لا تعلق لذلك أيضا بجعله وزيرا بل المراد أن يسبحاه و يذكره معا بين الناس في مجامعهم و نواديهم و أي مجلس منهم حلا فيه و حضرا فتكثر الدعوه الى الإيمان بالله و رفض الشركاء.

و بذلك يرجع ذيل السياق الى صدره كأنه يقول: إن الأمر خطير و قد غرّ هذا الطاغيه و ملأه و أمته عزهم و سلطانهم و نشب الشرك و الوثنيه بأعراقه في قلوبهم و أنساهم ذكر الله من أصله و قد امتلئت أعين بنى إسرائيل بما يشاهدونه من عزه فرعون و شوكة ملئه و اندهشت قلوبهم من سطوه آل فرعون و ارتاعت نفوسهم من سلطتهم فنسوه الله و لا يذكرون إلا الطاغيه، فهذا الأمر أمر الرساله و الدعوه في نجاحه و مضيه في حاجه شديده الى تنزيهك بنفى الشريك كثيرا و الى ذكرك بالربوبيه و الالويه بينهم كثيرا ليتبصروا فيؤمنوا و هذا أمر لا أقوى عليه و حدى فاجعل هارون وزيرا لي و أيدنى به و أشركه في أمرى كى نسبحك كثيرا و نذكرك كثيرا لعل السعى ينجع و الدعوه تنفع.

وقوله: إِنَّكَ كُنْتَ بِنًا بَصِيرًا هو بظاهره تعليل كالحجه على قوله: «كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا» الخ؛ أي إنك كنت بصيرا بي و بأخى منذ خلقتنا و عرفتنا نفك و تعلم أننا لم نزل نعبدك بالتسيب و الذكر ساعين مجددين في ذلك فإن جعلته وزيرا لي و أيدنى به و أشركته في أمرى تم أمر الدعوه و سبحناك كثيرا و ذكرناك كثيرا، و المراد بقوله: «بِنًا» على هذا هو و أخوه. و يمكن أن يكون المراد بالضمير في «بِنًا» أهله، و المعنى: إنك كنت بصيرا بنا أهل البيت أنا أهل

ص: ١٦٥

تسيح و ذكر فإن جعلت هارون أخی، و هو من أهلی، وزیرا لی سبحناك كثيرا و ذكرناك كثيرا، و هذا الوجه أحسن من سابقه لأنه یفی بیان النكته فی ذكر الأهل فی قوله السابق:

«وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي» أيضا فافهم ذلك.

قوله تعالى: «قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ إجابة لأدعيته جميعا و هو إنشاء نظير ما مر من قوله: «وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» .

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ» -الى قوله- كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ يذكّره تعالى بمنّ آخر له عليه قبل أن يختاره للنبوّه و الرساله و يؤتى سؤاله و هو منه عليه حينما تولد فقد كان بعض الكهنة أخبر فرعون أن سيولد في بني إسرائيل مولود يكون بيده زوال ملكه فأمر فرعون بقتل كل مولود يولد فيهم فكانوا يقتلون المواليد الذكور حتى إذا ولد موسى أوحى الله الى أمه أن لا تخاف و ترضعه فإذا خافت عليه من عمال فرعون و جلاوزته تقذفه في تابوت فنقذفه في النيل فيلقيه اليم الى الساحل حيال قصر فرعون فيأخذه فيتخذه ابنا له و كان لا عقب له و لا يقتله ثم إن الله سيرده إليها.

ففعلت كما أوحى إليها فلما جرى التابوت بجران النيل أرسل بنتا لها و هي أخت موسى أن تجس أخباره فكانت تطوف حول قصر فرعون حتى وجدت نفرا يطلبون بأمر فرعون مرضعا ترضع موسى فدلّتهم أخت موسى على أمها فاسترضعوها له فأخذت ولدها و قرّت به عينها و صدق الله وعده و قد عظم منه على موسى.

فقوله: «وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ» امتنان بما صنعه به أول عمره و قد تغير السياق من التكلم وحده الى التكلم بالغير لأن المقام مقام إظهار العظمه و هو ينبئ عن ظهور قدرته التامه بتخييب سعي فرعون الطاغية و إبطال كيده لإخماد نور الله و ردّ مكره اليه و تربيّه عدوه في حجره، أما موقف نداء موسى و تكليمه إذ قال: «يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» الخ؛ فسياق التكلم وحده أنسب له.

و قوله: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ المراد به الالهام و هو نوع من القذف فى القلب فى يقظه أو نوم، و الوحى فى كلامه تعالى لا ينحصر فى وحى النبوه كما قال تعالى:

وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ (النحل ٦٨/١)، و أما وحى النبوه فالنساء لا- يتنبأ و لا يوحى اليهن بذلك قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ (يوسف ١٠٩/١)

و قوله: «أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ» الى آخر الآيه؛ هو مضمون ما أوحى الى ام موسى و «أَنْ» للتفسير، و قيل: مصدرية متعلق باوحى و التقدير أوحى بأن أقذفيه، و قيل:

مصدرية و الجمله بدل من «مَا يُوحَىٰ» .

و التابوت الصندوق و ما يشبهه و القذف الوضع و الإلقاء و كأن القذف الأول فى الآيه بالمعنى الأول و القذف الثانى بالمعنى الثانى و يمكن أن يكونا معا بالمعنى الثانى بعنايه أن وضع الطفل فى التابوت و إلقاءه فى اليم إلقاء و طرح له من غير أن يعبا بحاله، و اليم البحر: و قيل:

البحر العذب، و الساحل شاطئ البحر و جانبه من البر، و الصنع و الصنيعة الإحسان.

و قوله: فَلْيَلْقِهِ الْيَوْمَ أمر عبّر به إشاره الى تحقق وقوعه و مفاده أنا أمرنا اليم بذلك أمرا تكوينيا فهو وقع حتما مقضيا، و كذا قوله: «يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي» الخ؛ و هو جزاء مترتب على هذا الأمر.

و معنى الآيتين إذ أوحينا و ألهمنا امك بما يوحى ويلهم و هو أن ضعيه- أو ألقيه- فى التابوت و هو الصندوق فألقيه فى اليم و البحر و هو النيل فمن المقضى من عندنا أن يلقىه البحر بالساحل و الشاطئ يأخذه عدو لى و عدو له و هو فرعون لأنه كان يعادى الله بدعوى الالوهيه و يعادى موسى بقتله الأطفال و كان طفلا هذا ما أوحينا الى امك.

و قوله: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَ لُتْصِيْعَ عَلَيَّ عَيْنِي ظاهر السياق أن هذا الفصل الى قوله: «وَ لَا تَخْزَنَ» فصل ثان تال للفصل السابق متمم له و المجموع بيان للمشار اليه بقوله: «وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ»

فالفصل الأول يقص الوحى الى أمه بقذفه فى التابوت ثم فى البحر لينتهى الى فرعون فيأخذه عدو الله و عدوه و الفصل الثانى يقص إلقاء المحبه عليه لينصرف فرعون عن قتله و يحسن اليه حتى ينتهى الأمر الى رجوعه الى أمه و استقراره فى حجرها لتقر عينها و لا تحزن و قد وعدھا الله ذلك كما قال فى سورة القصص: فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (القصص ١٣/١)، و لازم هذا المعنى كون الجملة أعنى «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ» الخ؛ معطوفا على قوله: «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمَّكَ» .

و معنى إلقاء محبه منه عليه كونه بحيث يحبه كل من يراه كأن المحبه الإلهيه استقرت عليه فلا- يقع عليه نظر ناظر إلا- تعلق المحبه بقلبه و جذبته الى موسى، ففى الكلام استعاره تخيبيه و فى نكير المحبه إشاره الى فخامتها و غرابه أمرها.

و اللام فى قوله: «وَ لَتُضَيِّنَّ عَلَيَّ عَيْنِي» للغرض، و الجملة معطوفه على مقدّر و التقدير ألقى عليك محبه منى لامور كذا و كذا و ليحسن اليك على عيني أى بمرأى منى فإنى معك أراقب حالك و لا أغفل عنك لمزيد عنايتى بك و شفقتى عليك. و ربما قيل: إن المراد بقوله:

«وَ لَتُضَيِّنَّ عَلَيَّ عَيْنِي» الإحسان اليه بإرجاعه الى أمه و جعل تربيته فى حجرها.

و كيف كان فهذا اللسان و هو لسان كمال العنايه و الشفقه يناسب سياق التكلم وحده و لذا عدل اليه من لسان التكلم بالغير.

و

قوله: إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ الظرف- على ما يعطيه السياق- متعلق بقوله:

«لَتُضَيِّنَّ» و المعنى: و ألقى عليك محبه منى يحبك كل من يراك لكذا و كذا و ليحسن اليك بمرأى منى و تحت مراقبتى فى وقت تمشى اختك لتجوس خبرك و ترى ما يصنع بك فتجد عمال فرعون يطلبون مرضعا ترضعك فتقول لهم- و الاستقبال فى الفعل لحكاية الحال الماضيه- عارضه عليهم: هل أدلكم على من يكفله بالحضانه و الإرضاع فرددناك الى امك كى تسرّ و لا

تحن.

و قوله: **فَرَجَعْنَاكَ** بصيغه المتكلم مع الغير رجوع الى السياق السابق و هو التكلم بالغير و ليس بالثفات.

قوله تعالى: **وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ** الى آخر الآيه، إشاره الى مَنْ أو ممن اخرى ملحقه بالمتنين السابقين و هو قصه قتله عليه السلام القبطى و اثمار الملاء أن يقتلوه و فراره من مصر و تزوجه هناك بنت شعيب النبى و بقائه عنده بين أهل مدين عشر سنين أجيرا يرمى غنم شعيب، و القصه مفصلة مذكوره فى سوره القصص.

فقوله: **وَقَتَلْتَ نَفْسًا** هو قتله القبطى بمصر، و قوله: **فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ** و هو ما كان يخافه أن يقتله الملاء من آل فرعون فأخرجه الله الى أرض مدين فلما أحضره شعيب و ورد عليه و قص عليه القصص قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

و قوله: **وَفَتَّنَاكَ** فتونا أى ابتليناك و اختبارناك ابتلاء و اختبارا، قال الراغب فى المفردات: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، و استعمال فى إدخال الإنسان النار، قال: **«يَوْمَ هُمْ عَلَى الدَّارِ يُفْتَنُونَ»** «ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ» أى عذابكم، قال: و تاره يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنه فيستعمل فيه نحو قوله: **«أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا»** و تاره فى الاختبار، نحو **«وَفَتَّنَاكَ** فتونا» و جعلت الفتنه كالبلاء فى أنهما تستعملان فيما يدفع اليه الإنسان من شدة و رخاء و هما فى الشدة أظهر معنى و أكثر استعمالا و قد قال فيهما: **«وَنَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً»** انتهى موضع الحاجه من كلامه.

و قوله: **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ** متفرع على الفتنه. و قوله: **«ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى»** لا يبعد أن يستفاد من السياق أن المراد بالقدر هو المقدر و هو ما حصّله من العلم و العمل عن الابتلاءات الوارده عليه فى نجاته من الغم بالخروج من مصر و لبثه فى أهل مدين.

ص: ١٦٩

و على هذا فمجموع قوله: وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَجَّيْنَاكَ -الى قوله- يَا مُوسَىٰ مِنْ وَاحِدٍ وَ هُوَ أَنَّهُ ابْتَلَىٰ ابْتِلَاءً بَعْدَ ابْتِلَاءٍ حَتَّىٰ جَاءَ عَلِيٌّ قَدْرًا وَ هُوَ مَا اكْتَسَبَهُ مِنْ فَعْلِيهِ الْكَمَالِ.

قوله تعالى: وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي الاصطناع افتعال من الصنع بمعنى الإحسان -على ما ذكروا- يقال: صنعه أى أحسن اليه و اصطنعه أى حقق إحسانه اليه و ثبته فيه، و نقل عن القفال أن معنى الاصطناع أنه يقال: اصطنع فلان فلانا إذا أحسن اليه حتى يضاف اليه فيقال: هذا صنيع فلان و خريجه. انتهى.

و على هذا يؤول معنى اصطناعه إياه الى اخلاصه تعالى إياه لنفسه و يظهر موقع قوله:

«لِنَفْسِي» أتم ظهور و أما على المعنى الأول فالأنسب بالنظر الى السياق أن يكون الاصطناع مضمنا معنى الاخلاص، و المعنى على أى حال و جعلتك خالصا لنفسى فيما عندك من النعم فالجميع منى و إحسانى و لا يشاركنى فيك غيرى فأنت لى مخلصا و ينطبق ذلك على قوله:

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا (مريم ٥١).

قوله تعالى: اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِنَا وَ لَا تَبَيِّنَا فِي ذِكْرِي تَجْدِيدًا لِلأَمْرِ السَّابِقِ خَطَابًا لِمُوسَىٰ وَ حده فى قوله: «اذْهَبْ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ» بتغيير ما فيه بإلحاق أخى موسى به لتغيير ما فى المقام بإيتاء سؤال موسى أن يشرك هارون فى أمره فوجه الخطاب ثانيا اليهما معا.

و أمرهما أن يذهبا بآياته و لم يؤت وقتئذ إلا آيتين وعد جميل بأنه مؤيد بغيرهما و سيئاته حين لزومه، و أما القول بأن المراد هما الآيتان و الجمع ربما يطلق على الآيتين، أو أن كلا من الآيتين ينحل الى آيات كثيرة مما لا ينبغى الركون اليه.

و قوله: وَ لَا تَبَيِّنَا فِي ذِكْرِي نهى عن الونى و هو الفتور، و الأنسب للسياق السابق أن يكون المراد بالذكر الدعوه الى الايمان به تعالى وحده لا ذكره بمعنى التوجه اليه قلبا أو لسانا كما قيل.

قوله تعالى: اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ جمعهما في الامر ثانيا فخطب موسى و هارون معا و كذلك في النهى الذى قبله فى قوله: «وَلَا تَتَّبِعُنِي» و قد مهّد لذلك يالحاق هارون بموسى فى قوله: «اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ» و ليس ببعيد أن يكون نقلا لمشافهه اخرى و تخاطب وقع بينه تعالى و بين رسوليّه مجتمعين أو متفرّقين بعد ذاك الوقف و يؤيده سياق قوله بعد: «قَالَ رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا» الخ.

و المراد بقوله: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا المنع من أن يكلماه بخشونه و عنف و هو من أوجب آداب الدعوه.

و قوله: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ رجاء لتذكره أو خشيته و هو قائم بمقام المحاوره لا به تعالى العالم بما سيكون، و التذكر مطاوعه التذكير فيكون قبولاً و التزاماً لما تقتضيه حجه المذكر و إيمانه به و الخشيه من مقدمات القبول و الإيمان فماآل المعنى لعله يؤمن أو يقرب من ذلك فيجيبكم الى بعض ما تسألانه.

قوله تعالى: قَالَ رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ الفرط التقدم و المراد به بقرينه مقابلته الطغيان أن يعجّل بالعقوبه و لا يصبر الى إتمام الدعوه و إظهار الآيه المعجزه، و المراد بأن يطغى أن يتجاوز حدّه فى ظلمه فيقابل الدعوه بتشديد عذاب بنى إسرائيل و الاجترأ على ساحه القدس بما كان لا يجترئ عليه قبل الدعوه و نسبه الخوف اليهما لا بأس بها كما تقدم الكلام فيها فى تفسير قوله تعالى: «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ» .

قوله تعالى: قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَ أَرَىٰ أَى لَا تخافا من فرطه و طغيانه إننى حاضر معكما أسمع ما يقال و أرى ما يفعل فأنصركما و لا- أخذلكما فهو تأمين بوعد النصره، فقوله: «لَا تَخَافَا» تأمين، و قوله: «إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَ أَرَىٰ» تعليل للتأمين بالحضور و السمع و الرؤيه، و هو الدليل على أن الجملة كناية عن المراقبه و النصره و إلا- فنفس الحضور و العلم يعم جميع الأشياء و الأحوال.

قوله تعالى: فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ الى آخر الآية؛ جدد أمرهما بالذهاب الى فرعون بعد تأمينهما و وعدهما بالحفظ و النصر و بين تمام ما يكلفان به من الرسالة و هو أن يدعوا فرعون الى الإيمان و الى رفع اليد عن تعذيب بنى إسرائيل و إرسالهما معهما فكلما تحوّل حال فى المحاوره جدد الأمر حسب ما يناسبه و هو قوله أولا لموسى: «اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ»، ثم قوله ثانيا لما ذكر أسئلته و أجيب إليها: «اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ» «اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ»، ثم قوله لما ذكر خوفهما و أجيبا بالأمن: «فَأَيُّهَا فَقُولَا» الخ؛ و فيه تفصيل ما عليهما أن يقولا له.

فقوله: «فَأَيُّهَا فَقُولَا» إِذَا رَسُولَا رَبِّكَ» تبلغ أنهما رسولا الله، و فى قوله بعد: «وَ السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ» الخ؛ دعوته الى بقية أجزاء الإيمان.

و قوله: فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ تكليف فرعى متوجه الى فرعون.

و قوله: قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ استناد الى حجه تثبت رسالتهما و فى تنكير الآية سكوت عن العدد و إشاره الى فخامه أمرها و كبر شأنها و وضوح دلالتها.

و قوله: وَ السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ كالتحيه للوداع يشار به الى تمام الرسالة و يبين به خلاصه ما تتضمنه الدعوه الدينيه و هو أن السلامه منبسط على من اتبع الهدى و السعاده لمن اهتدى فلا- يصادف فى مسير حياته مكروها يكرهه لا فى دنيا و لا فى عقبى.

و قوله: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ فى مقام التعليل لسابقه أى إنما نسلم على المهتدين فحسب لأن الله سبحانه أوحى الينا أن العذاب و هو خلاف السلام على من كذب بآيات الله-أو بالدعوه الحقه التى هى الهدى-و تولى

قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا
 عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهِيدًا وَ سَبَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ لَبَتِ شَتَّى كُلُوا وَ ارْزُقُوا أَنْعَامُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ
 وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَجَى (٥٦) قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى
 (٥٧) فَلَنبَأَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَ أَنْ
 يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَ يَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيَسْحَتَكُمْ بِعَذَابٍ
 وَ قَدْ خَابَ مِنْ إِفْتِرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
 بِسِحْرِهِمَا وَ يُذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (٦٣) فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صِيْفًا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنَ اسْتِعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ
 تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَ عَصِيْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي
 نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَيَّرْنَا بِمَا صَيَّرْنَا سَاحِرًا وَ لَا
 يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السَّحْرَهُ سَاجِدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
 لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي هُدُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَ
 أَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا
 بِرَبِّنَا لِنُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا
 يَحْيَى (٧٤) وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ (٧٦) وَ لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَ لَا
 تَخْشَى (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ (٧٨) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَى (٧٩)

قوله تعالى: قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ حكاية لمحاورة موسى و فرعون و قد علم مما نقله تعالى من أمره تعالى لهما أن يذهبا الى فرعون و يدعواه الى التوحيد و يكلماه فى إرسال بنى إسرائيل معهما، ما قالوا له فهو محذوف و ما نقل من كلام فرعون جوابا دالّ عليه.

فقول فرعون «فَمَنْ رَبُّكُمْ؟» ليس إنكارا لوجود خالق الكل و لا- إنكار أن يكون له إله كما يظهر من قوله: وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ (الأعراف ١٢٧)، و إنما هو طلب منه للمعرفة بحال من اتخذاه إلهها و ربا من هو غيره؟ و هذا معنى ما تقدم أن فرعون يتغافل فى قوله هذا عن دعوتهما الى الله سبحانه و هما فى أول الدعوه فهو يقدر و لو كتقدير المتجاهل أن موسى و أخاه يدعوانه الى بعض الآلهة التى يتخذ فيهما بينهم ربا من دون الله فيسأل عنه، و قد كان من دأب الوثنيين

التفنن فى اتخاذ الآلهة يتخذ كل منهم من يهواه إلهها و ربما بدل إلهها من إله فتلك طريقتهم و سيأتى قول الملا «وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتَأَلَّي» نعم، ربما تفوه عامتهم ببعض ما لا يوافق اصولهم كنسبه الخلق و التدبير الى نفس الأصنام دون أربابها.

قوله تعالى: قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ سيق الآيه - و هى واقعه فى جواب سؤال فرعون «فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ» - يعطى أن «خَلْقَهُ» بمعنى اسم المصدر و الضمير للشىء فالمراد الوجود الخاص بالشىء.

و الهدايه إراءه الشىء الطريق الموصل الى مطلوبه أو إيصاله الى مطلوبه و يعود المعنيان فى الحقيقه الى معنى واحد و هو نوع من إيصال الشىء الى مطلوبه إما بإيصاله اليه نفسه أو الى طريقه الموصل اليه. و قد اطلق الهدايه من حيث المهدي و المهدي اليه، و لم يسبق فى الكلام إلا الشىء الذى اعطى خلقه فالظاهر أن المراد هدايه كل شىء - المذكور قبلا - الى مطلوبه و مطلوبه هو الغايه التى يرتبط بها وجوده و ينتهى إليها و المطلوب هو مطلوبه من جهه خلقه الذى اعطيه و معنى هدايته له إليها تسييره نحوها كل ذلك بمناسبه البعض للبعض.

فيؤول المعنى الى إلقائه الرابطه بين كل شىء بما جهز به فى وجوده من القوى و الآلات و بين آثره التى تنتهى به الى غايه وجوده فالجنين من الإنسان مثلا و هو نطفه مصوره بصوره مجهز فى نفسه بقوى و أعضاء تناسب من الأفعال و الآثار ما ينتهى به الى الإنسان الكامل فى نفسه و بدنه فقد اعطيت النطفه الإنسانيه بما لها من الاستعداد خلقها الذى يخصها و هو الوجود الخاص بالإنسان ثم هديت و سيرت بما جهزت به من القوى و الأعضاء نحو مطلوبها و هو غايه الوجود الإنساني و الكمال الأخير الذى يختص به هذا النوع.

قوله تعالى: قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قِيلَ: البال فى الأصل بمعنى الفكر و منه قولهم: خطر ببالي كذا، ثم استعمل بمعنى الحال، و لا يثنى و لا يجمع، و قولهم: بالات، شاذ.

فقوله: ﴿فَمَا بِآلِ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ أى ما حال الامم و الأجيال الإنسانيه الماضيه التى ماتوا و فنوا لا خبر عنهم و لا أثر كيف يجزون بأعمالهم و لا عامل فى الوجود و لا عمل و ليسوا اليوم إلا أحاديث و أساطير؟ فالآيه نظيره ما نقل عن المشركين فى قوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (الم السجده ١٠)، و ظاهر الكلام أنه مبنى على الاستبعاد من جهة انتفاء العلم بهم بأعمالهم للموت و الفوت كما يشهد به جواب موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أجاب عليه السلام عن سؤاله بإثبات علمه تعالى المطلق بتفاصيل تلك القرون الخاليه فقال:

«عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي» فأطلق العلم بها فلا يفوته شىء من أشخاصهم و أعمالهم و جعلها عند الله فلا تغيب عنه و لا تفوته، و قد قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِاقٍ﴾ ثم قيد ذلك بقوله: «فِي كِتَابٍ» -و كأنه حال من العلم- ليؤكد به أنه مثبت محفوظ من غير أن يتغير عن حاله و قد نكر الكتاب ليدلّ به على فخامه أمره من جهة سعه إحاطته و دقتها فلا يغادر صغيره و لا كبيره إلا أحصاها.

فيؤول معنى الكلام الى أن جزاء القرون الاولى إنما يشكل لو جهل و لم يعلم بها لكنها معلومه لربى محفوظه عنده فى كتاب لا يتطرق اليه خطأ و لا تغيير و لا غيبه و زوال.

و قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ نفى للجهل الابتدائى و الجهل بعد العلم على ما نقل عن بعضهم و لكن الظاهر أن الجمله مسوقه لنفى الجهل بعد العلم بقسميه فإن الضلال هو قصد الغايه بسلك سبيل لا يؤدي إليها بل الى غيرها فيكون الضلال فى العلم هو أخذ الشىء مكان غيره و إنما يتحقق ذلك بتغير المعلوم من حيث هو معلوم عما كان عليه فى العلم أولاً، و النسيان خروج الشىء من العلم بعد دخوله فيه فهما معا من الجهل بعد العلم، و نفيه هو المناسب لإثبات العلم أولاً فيفيد مجموع الآيه أنه عالم بالقرون الاولى و لا سبيل اليه للجهل بعد العلم فيجازيهم على ما علم.

قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا - الى قوله - لآيَاتٍ لِأُولَى النَّهْيِ قد عرفت أن لسؤاله «فَمَا بِالْقُرُونِ الْأُولَى؟» ارتباطا بما وصف الله به من الهدية العامه التي منها هدايه الإنسان الى سعادته فى الحياه و هو الحياه الخالده الاخرويه و كذا الجواب عنه بقوله: «عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي» السخ؛ مرتبط فقوله: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا» مضى فى الحديث عن الهدايه العامه و ذكر شواهد بارزه فى ذلك.

و الباء فى «به» للسببيه و فيه تصديق السببيه و المسببيه بين الامور الكونيه، و المراد بكونه النبات أزواجا كونها أنواعا و أصنافا متقاربه كما فسره القوم أو حقيقه الازدواج بين الذكور و الإناث من النبات و هى من الحقائق التى تبه عليها الكتاب العزيز.

و قوله: فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ لِبَاتٍ شَتَى فِيهِ التَّفَاتِ مِنَ الْغَيْبِ الى التكلم بالغير، قيل: و الوجه فيه ما فى هذا الصنع العجيب و إبداع الصور المتشتمه و الأزواج المختلفه على ما فيها من تنوع الحياه من ماء واحد، من العظمه و الصنع العظيم لا يصدر إلا من العظيم و العظماء يتكلمون عنهم و عن غيرهم من أعوانهم و قد ورد الالتفات فى معنى إخراج النبات بالماء فى مواضع من كلامه تعالى كقوله: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا (فاطر ٢٧)، و قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ (النمل ٦٠)، و قوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ لِبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام ٩٩).

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولَى النَّهْيِ النهى جمع نهيه بالضم فالسكون:

و هو العقل سُمى به لنهيه عن اتباع الهوى.

قوله تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى الضمير للأرض و الآيه تصف ابتداء خلق الإنسان من الأرض ثم إعادته فيها و صيرورته جزء منها ثم إخراجه منها للرجوع الى الله ففهيها دوره الكامله من هدايه الإنسان.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَبِي الظاهر أن المراد بالآيات العصا و اليد و سائر الآيات التي أراها موسى فرعون أيام دعوته قبل الغرق كما مرّ في قوله:

«أَذْهَبَ أَنْتَ وَ أَحْوَكُ بآيَاتِي» فالمراد جميع الآيات التي أريها و إن لم يؤت بها جميعا في أول الدعوه كما أن المراد بقوله: «فَكَذَّبَ وَ أَبِي» مطلق تكذيبه و إباطه لا ما أتى به منهما في أول الدعوه.

قوله تعالى: قَالَ أَ جِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى الضمير لفرعون و قد اتهم موسى أولا بالسحر لثلاثا يلزمه الاعتراف بصدق ما جاء به من الآيات المعجزه و حقيقه دعوته، و ثانيا بأنه يريد إخراج القبط من أرضهم و هي أرض مصر، و هي تهمة سياسيه يريد بها صرف الناس عنه و إثارة أفكارهم عليه بأنه عدو يريد أن يطردهم من بيئتهم و وطنهم بمكيدته و لا حياه لمن لا بيئه له.

قوله تعالى: فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَانًا سِوَى الظاهر كما يشهد به الآيه التاليه أن الموعد اسم زمان و إخلاف الوعد عدم العمل بمقتضاه، و مكان سوى بضم السين أى واقع فى المنتصف من المسافه أو مستوى الأطراف من غير ارتفاع و انخفاض، قال فى المفردات: و مكان سوى و سواء وسط، و يقال: سواء و سوى و سوى-بضم السين و كسرهما- أى يستوى طرفاه، و يستعمل ذلك وصفا و ظرفا، و أصل ذلك مصدر. انتهى.

و المعنى: فاقسم لنا تينك بسحر يماثل سحر ك لقطع حجّتك و إبطال إرادتك فاجعل بيننا و بينك زمان وعد لا نخلفه فى مكان بيننا أو فى مكان مستوى الأطراف أو اجعل بيننا و بينك مكانا كذلك.

قوله تعالى: قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى الضمير لموسى و قد جعل الموعد يوم الزينه، و يظهر من السياق أنه كان يوما لهم يجرى بينهم مجرى

العبيد، و يظهر من لفظه أنهم كانوا يتزينون فيه و يزینون الأسواق، و حشر الناس-على ما ذكره الراغب-إخراجهم عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها، و الضحى وقت انبساط الشمس من النهار.

□ و قوله: وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى معطوف على الزينه أو على يوم بتقدير اليوم أو الوقت و نحوه و المعنى قال موسى موعدكم يوم الزينه و يوم حشر الناس فى الضحى، و ليس من لبعيد أن يكون مفعولاً- معه و المعنى موعدكم يوم الزينه مع حشر الناس فى الضحى و يرجع لى الاشتراط. و إنما اشترط ذلك ليكون ما يأتى به و يأتون به على أعين الناس فى ساعه بصره.

□ قوله تعالى: فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ظاهر السياق أن المراد بتولى فرعون انصرافه عن مجلس المواعده للتهيؤ لما واعد، و المراد بجمع كيده جمع ما يكاد به من السحره و سائر ما يتوسل به الى تعميهِ الناس و التلبيس عليهم و يمكن أن يكون المراد بجمع كيده جمع ذوى كيده بحذف المضاف و المراد بهم السحره و سائر عماله و أعوانه و قوله: «ثُمَّ أَتَىٰ» أى ثم أتى الوعد و حضره.

□ قوله تعالى: قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَبَنَّكُمْ بِعَذَابٍ وَ قَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ الويل كلمه عذاب و تهديد، و الأصل فيه معنى العذاب و معنى ويلكم عذبكم الله عذاباً، و السحت بفتح السين استيصال الشعر بالحلق و الإسحات الاستئصال و الإهلاك.

□ و قوله: قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ضمائر الجمع غيبه و خطاباً لفرعون و كيده و هم السحره و سائر أعوانه على موسى عليه السلام و قد مرّ ذكرهم فى الآيه السابقه، و أما رجوعها الى السحره فقط فلم يسبق لهم ذكر و لا دل عليهم دليل من جهة اللفظ.

وقوله: **فَيْسُحِّتَكُم بِعَذَابٍ تَفْرِيعٍ عَلَى النَّهْيِ أَى لَا تَشْرَكُوا بِاللَّهِ حَتَّى يَسْتَأْصِلَكُم وَيَهْلِكَكُم بِعَذَابٍ بِسَبَبِ شُرُكِكُمْ**، و تنكير العذاب للدلاله على شدته و عظمته.

قوله: **وَ قَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى الْخَيْبَةَ الْيَأْسِ مِنْ بُلُوغِ التَّيْجَةِ الْمَأْمُولَةِ** و قد وضعت الجملة فى الكلام وضع الأصل الكلى الذى يتمسك به و هو كذلك فإن الافتراء من الكذب و سببته سببه كاذبه و الأسباب الكاذبه لا تهتدى الى مسببات حقه و آثار صادقه فتأنتجها غير صالحه للبقاء و لا هي تسوق الى سعادته فليس فى عاقبتها إلا الشؤم و الخسران فالآيه أشمل معنى من قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ** (يونس ٦٩).

لإثباتها الخيبة فى مطلق الافتراء بخلاف الآيه الثانيه و قد تقدم كلام فى أن الكذب لا يفلح فى ذيل قوله: **وَ جَاءُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** (يوسف ١٨) فى الجزء الحادى عشر من الكتاب.

قوله تعالى: **فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى** -الى قوله- **مَنِ اسْتَعْلَى التَّنَازَعِ قَرِيبَ الْمَعْنَى مِنَ الْاِخْتِلَافِ**، من النزاع بمعنى جذب الشىء من مقره لينقلع نه و التنازع يتعدى بنفسه كما فى الآيه و بفى كقوله: **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ (النساء ٥)**.

و النجوى الكلام الذى يسار به، و أصله مصدر بمعنى المناجاة و هى المسارّه فى الكلام، و المثلى مؤنث أمثل كفضلى و أفضل و هو الأقرب الأشبه و الطريقه المثلى السنه التى هى أقرب من الحق أو من امنيتهم و هى سنه الوثنيه التى كانت مصر اليوم تدار بها و هى عباده الآلهه و فى مقدمتها فرعون إله القبط، و الإجماع -على ما ذكره الراغب- جمع الشىء عن فكر و ترو، و الصف جعل الأشياء على خط مستو كالإنسان و الاشجار و نحو ذلك و يستعمل مصدرا و اسم مصدر و قوله: **«ثُمَّ اتَّوَا صَفًّا»** يحتتمل أن يكون مصدرا، و أن يكون بمعنى صافين أى اتتوه فاتحاد و اتفاق من دون أن تختلفوا و تفرقوا فتضعفوا و كونوا كيد واحده عليه.

وقوله: وَ أَسْرُوا النَّجْوَى^١ إشارة الى مسارتهم فى أمر موسى و اجتهادهم فى رفع الاختلاف الناشئ من استماعهم وعظ موسى عليه السلام، وقوله: «قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يَسْحَرَ بِالنَّجْوَى الَّذِي أَسْرَوْهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَقَدْ مَرَّ تَوْضِيحٌ مَعْنَاهُ.

وقوله: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ الْقِرَاءَةُ الْمَعْرُوفَةُ «إِنَّ» بِكسرة الهمزة و سكون النون و هى «إِنَّ» المشبهة بالفعل خفت فالغيت عن العمل بنصب الاسم و رفع الخبر.

قوله تعالى: قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى إِلَى آخِرِ الْآيَةِ التَّالِيَةِ، الْحَبَالُ جَمْعُ حَبْلٍ وَ الْعَصَى جَمْعُ عَصَا، وَ قَدْ كَانَ السِّحْرُ اسْتَعْمَلَهَا لِيَصَوِّرُوا بِهَا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ حَيَاتٍ وَ ثَعَابِينَ أَمْثَالَ مَا كَانَ يَظْهَرُ مِنْ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: فَإِذَا جَابَهُمْ وَ عَصَتْ يَهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فِيهِ حَذْفٌ، وَ التَّقْدِيرُ: فَأَلْقُوا إِذَا جَابَهُمْ وَ عَصَتْ يَهُمْ، الْخ؛ وَ إِنَّمَا حَذْفٌ لِتَأْكِيدِ الْمَفْاجَأَةِ كَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: بَلِ الْقَوَا، لَمْ يَلْبَثْ دُونَ أَنْ شَاهَدَ مَا شَاهَدَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَوَسَّطَ هُنَاكَ إِلْقَاؤُهُمُ الْحَبَالُ وَ الْعَصَى.

و الذى خَيَّلَ إِلَى مُوسَى خَيَّلَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ النَّاطِرِينَ مِنَ النَّاسِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ سَيَحْرُوْا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَبْرَهَبُوهُمْ (الأعراف ١١٦)، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ هَاهُنَا مُوسَى مِنْ بَيْنَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ لِيَكُونَ تَمْهِيدًا لِمَا فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ.

قوله تعالى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ:

الوجس الصوت الخفى، و التوجس التسمع، و الإيجاس وجود ذلك فى النفس، قال:

«فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» فَالْوَجَسُ هُوَ حَالُهُ تَحْصُلُ مِنَ النَّفْسِ بَعْدَ الْهَاجَسِ لِأَنَّ الْهَاجَسَ مَبْتَدَأُ التَّفَكِيرِ ثُمَّ يَكُونُ الْوَجَسُ الْخَاطِرَ. انْتَهَى.

فإيجاس الخيفة فى النفس إحساسها فيها و لا يكون إلا خفيفا خفيا لا يظهر أثره فى ظاهر البشره و يتبع وجوده فى النفس ظهور خاطر سوء فيها من غير إذعان بما يوجبه من تحدر

و تحرّز و إلا- لظهر أثره في ظاهر البشره و عمل الإنسان قطعاً، و الى ذلك يومئ تنكير الخيفه كأنه قيل: أحسّ في نفسه نوعاً من الخوف لا يعبا به، و من العجيب قول بعضهم: إن التنكير للتفخيم و كان الخوف عظيماً و هو خطأ و لو كان كذلك لظهر أثره في ظاهر بشرته و لم يكن لتقييد الخيفه بكونها في نفسه وجه.

فظهر أن الخيفه التي أوجسها في نفسه كانت إحساساً آتياً لها نظيره الخاطر الذي عقبها فقد خطرت بقلبه عظمه سحرهم و أنه بحسب التخيل مماثل أو قريب من آيته فأوجس الخيفه من هذا الخطور و هو كنفس الخطور لا أثر له.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ - الى قوله - حَيْثُ أَتَى نَهَى بداعى التقويه و التأييد و قد علله بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ فالمعنى: إنك فوقهم من كل جهه و إذا كان كذلك لم يضر ك شىء من كيدهم و سحرهم فلا موجب لأن تخاف.

و قوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَيَّرُوا خَبْءًا﴾ أمر بإلقاء العصا لتكون حيه و تلقف ما صنعوا بالسحر و التعبير عن العصا بما في يمينك من ألطف التعبير و أعمقه فإن فيه إشاره الى أن ليس للشىء من الحقيقه إلا ما أراد الله فإن أراد لما في اليمين أن يكون عصا كان عصا و إن أراد أن يكون حيه كان حيه فما له من نفسه شىء ثم التعبير عن حياتهم و ثعابينهم بقوله: ﴿مَا صَنَعُوا﴾ يشير الى أن المغالبه واقع بين تلك القدره المطلقه التي تتبعها الأشياء في أساميتها و حقائقها و بين هذا الصنع البشرى الذي لا يعدو أن يكون كيدا باطلا و كلمه الله هي العليا و الله غالب على أمره فلا ينبغي له أن يخاف.

و في هذه الجملة أعنى قوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ بيان لكونه عليه السلام أعلى بحسب ظاهر الحس كما أن في ذيله بيانا لكونه أعلى بحسب الحقيقه إذ لا حقيقه للباطل فمن كان على الحق فلا ينبغي له أن يخاف الباطل على حقه.

و قوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ تعليل بحسب اللفظ لقوله:

«تَلَقَّفَ مَا صَيَّنَعُوا» و «مَا» مصدرية أو موصولة و بيان بحسب الحقيقة لكونه عليه السلام أعلى لأن ما معهم كيد ساحر لا حقيقة له و ما معه آية معجزه ذات حقيقة و الحق يعلو و لا يعلو عليه.

و قوله: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى» بمنزله الكبرى لقوله: «إِنَّمَا صَيَّنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ» فإن الذى يناله الساحر بسحره خيال من الناظرين باطل لا حقيقة له و لا فلاح و لا سعادة حقيقه يظفر بها فى أمر موهوم لا واقع له.

فقوله: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى» نظير قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الأنعام ١١٤٤)» و «اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ (المائدة ١٠٨)» و غيرهما و الجميع من فروع إن الباطل كَانَ زَهُوقاً (الإسراء ٨١)» و «يَمْحُ اللَّهُ البَاطِلَ وَ يُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ (الشورى ٢٤)» فلا يزال الباطل يزيد أمورا و يشبهها بالحق و لا يزال الحق يمحوه و يلطف ما أظهره لوهم الناظرين سريعا أو بطيئا فمثل عصا موسى و سحر الساحر يجرى فى كل باطل يبدو و حق يلقفه و يزهقه، و قد تقدّم فى تفسير قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا (الرعد ١٧)» كلام نافع فى المقام.

قوله تعالى: «فَأَلْقَى السَّحْرَهُ سَاجِدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى» فى الكلام حذف و إيجاز و التقدير فألقى ما فى يمينه فتلقف ما صنعوا فالقى السحره و فى التعبير بقوله: «فَأَلْقَى السَّحْرَهُ» بالبناء للمفعول دون أن يقال: فسجد السحره إشارة الى إذلال القدره الإلهيه لهم و غشيان الحق بظهوره إياهم بحيث لم يجدوا بدّا دون أن يخروا على الأرض ساجدا كأنهم لا إرادته لهم فى ذلك و إنما ألقاهم ملق غيرهم دون أن يعرفوه من هو؟.

و قولهم: «آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى» شهادة منهم بالإيمان و إنما أضافوه تعالى الى موسى و هارون ليكون فيه الشهاده على ربوبيته تعالى و رساله موسى و هارون معا و فصل قوله: «قَالُوا» الخ؛ من غير عطف لكونه كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل: فما قالوا فقيل:

قالوا، الخ.

ص: ١٨٤

قوله تعالى: **قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** الى آخر الآية؛ الكبير الرئيس و قطع الأيدي و الأرجل من خلاف أن يقطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى و التصليب تكثير الصلب و تشديده كالتقطع الذى هو تكثير القطع و تشديده و الجذوع جمع جذع و هو ساقه النخل.

و قوله: **«آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ»** تهديد من فرعون للسحره حيث آمنوا و الجملة استفهاميه محذوفه الأداة و الاستفهام للإنكار أو خبريه مسوقه لتقرير الجرم، و قوله: **«إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ»** رمى لهم بتوطئه سياسيه على المجتمع القبطى فى أرض مصر كأنهم تواطئوا مع رئيسهم أن يتبأ موسى فيدعو أهل مصر الى الله و يأتى فى ذلك بسحر فيستنصروا بالسحره حتى إذا حضروه و اجتمعوا على مغالبتة تخاذلوا و انهزموا عنه و آمنوا و اتبعتهم العامه فذهبت طريقتهم المثلى من بينهم و أخرج من لم يؤمن منهم قال تعالى فى موضع آخر: **إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا** (الأعراف ١٢٣)، و إنما رماهم بهذا القول تهييجا للعامه عليهم كما رمى موسى عليه السلام بمثله فى أول يوم.

و قوله: **فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ** الى آخر الآية، إيعاد لهم و تهديد بالعذاب الشديد و لم يذكر تعالى فى كلامه أنجز فيهم ذلك أم لا؟

قوله تعالى: **قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيْنَا مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** كلام بليغ فى منظوقه بالغ فى مفهومه بعيد فى معناه رفيع فى منزلته يغلى و يفور علما و حكمه، فهؤلاء قوم كانوا قبل ساعه و قد ملأت هيبه فرعون و أبهته قلوبهم و أذلت زينات الدنيا و زخارفها التى عنده - ليست إلا أكاذيب خيال و أباطيل و هم - نفوسهم يسمونه ربا أعلى و يقولون حينما ألقوا بحالهم و عصيهم **«بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِذْنا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ»** فما لبثوا دون أن ظهرت لهم آيات الحق فبهرت أبصارهم فطاحت عند ذلك ما كانوا يرون لفرعون من عزه و سلطان و لما عنده من زينه الدنيا

و زخرفها من قدر و منزله و غشيت قلوبهم فأزالت منها رذيله الجبن و الملق و أتباع الهوى و التولّه الى سراب زينه الحياه الدنيا و مكنت فيها التعلق بالحق و الدخول تحت ولايه الله و الاعتزاز بعزته فلا يريدون إلا ما أراد الله و لا يرجون إلا الله و لا يخافون إلا الله عز اسمه.

و فى قولهم: «مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ» تلويح الى أنهم عدّوا ما شاهدوه من أمر العصا آيات عديده كصيرورتها ثعبانا و تلقفها الحبال و العصى و رجوعها ثانيا الى حالتها الاولى، و يمكن أن يكون «مِنْ» للتبعيض فيفيد أنهم شاهدوا آيه واحده و آمنوا بأن لله آيات اخرى كثيره و لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: «إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى الْخَطَايَا جَمْعَ خَطِيئَةٍ وَ هِيَ قَرِيبَةٌ مِّنَ السَّيِّئَةِ، وَ قَوْلُهُ: «وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ» معطوف على «خَطَايَانَا» و «مِنَ السِّحْرِ» بيان له و المعنى و ليغفر لنا السحر الذى أكرهتنا عليه و فيه دلالة على أنهم أكرهوا عليه إما حين حشروا الى فرعون من خلال ديارهم و إما حين تنازعوا أمرهم بينهم و أسروا النجوى فحملوا على المقابله و المغالبه.

و أول الآيه تعليل لقولهم: «لَنْ نُؤْتِرَكَ» الخ؛ أى إنما اخترنا الله الذى فطرنا عليك و آمنا به ليغفر لنا خطايانا و السحر الذى أكرهتنا عليه، و ذيل الآيه «وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» من تمام البيان و بمنزله التعليل لصدرها كأنه قيل: و إنما آثرنا غفرانه على إحسانك لأنه خير و أبقى، أى خير من كل خير و أبقى من كل باق-لمكان الإطلاق-فلا يؤثر عليه شىء و فى هذا الذليل نوع مقابله لما فى ذيل كلام فرعون «وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى» .

و قد عبروا عنه تعالى أولا بالذى فطرنا، و ثانيا بربنا، و ثالثا بالله، أما الأول فلأن كونه تعالى فاطرا لنا اى مخرجا لنا عن كتم العدم الى الوجود و يتبعه انتهاء كل خير حقيقى اليه و ان ليس عند غيره إذا قوبل به إلا سراب البطلان، منشأ كل ترجيح و المقام مقام الترجيح بينه تعالى و بين فرعون.

و اما الثانى فلأن فيه إخبارا عن الإيمان به و أمس صفاته تعالى بالإيمان و العبوديه صفه ربوبيته المتضمنه لمعنى الملك و التدبير.

و أما الثالث فلأن ملاك خيريه الشىء لكمال و عنده تعالى جميع صفات الكمال القاضيه بخيريته المطلقه فناسب التعبير بالعلم الدال على الذات المستجمعه لجميع صفات الكمال، و على هذا فالكلام فى المقامات الثلاثه على بساطته ظاهرا مشتمل على الحجه على المدعى و المعنى بالحقيقه: لن نؤثر ك على الذى فطرنا لأنه فطرنا، و إنا آمننا بربنا لأنه ربنا، و الله خير لأنه الله عز اسمه.

قوله تعالى: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ تَعْلِيلٌ لَجَعْلِ غَفْرَانِ الْخَطَايَا غَايَةً لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَيْ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَغْفِرْ خَطَايَاهُ كَانَ مُجْرِمًا وَ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا، الخ.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ التَّالِيَةِ؛ الدَّرَجَةُ - عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ - هِيَ الْمَنْزِلَةُ لَكِنْ يُعْتَبَرُ فِيهَا الصُّعُودُ كَدَرَجَاتِ السُّلْمِ وَ تَقَابُلُهَا الدَّرَكَةُ فَهِيَ الْمَنْزِلَةُ حُدُورًا وَ لِذَا يُقَالُ: دَرَجَاتُ الْجَنَّةِ وَ دَرَكَاتُ النَّارِ، وَ التَّرَكِيُّ هُوَ التَّنْمِيُّ بِالمَاءِ الصَّالِحِ وَ الْمُرَادُ بِهِ أَنْ يَعِيشَ الْإِنْسَانُ بِاعْتِقَادِ حَقِّ وَ عَمَلِ صَالِحٍ.

و الآيتان تصفان ما يستتبعه الإيمان و العمل الصالح كما كانت الآيه السابقه تصف ما يستتبعه الإجمام الحاصل بكفر أو معصيه و الآيات الثلاث الواصفه لتبعه الإجمام و الإيمان ناظره الى وعيد فرعون و وعده لهم فقد أوعدهم فرعون على إيمانهم لموسى بالقطع و الصلب و ادعى أنه أشد العذاب و أبقاه فقابلوه بأن للمجرم عند ربه جهنم لا يموت فيها و لا يحيى لا يموت فيها حتى ينجو من مقاساه ألم عذابها لكن منتهى عذاب الدنيا الموت و فيه نجاه المجرم المعذب، و لا يحيى فيها إذ ليس فيها شىء مما تطيب به الحياه و لا خير مرجوا فيها حتى يقاسى

و وعدهم قبل ذلك المنزله يجعلهم من مقربيه و الأجر كما حكي الله تعالى قالوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (الأعراف ١١٤)، فقابلوا ذلك بأن من يأتاه مؤمنا قد عمل الصالحات فاولئك-و في الإشاره البعيده تفخيم شأنهم- لهم الدرجات العلى- و هذا يقابل وعد فرعون لهم بالتقريب- جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك جزاء من تركى- بالإيمان و العمل الصالح و هذا يقابل وعده لهم بالأجر.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا - الى قوله- وَ مَا هَدَىٰ. الإسراء السير بالليل و المراد بعبادى بنو إسرائيل و قوله: فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا» قيل المراد الضرب بالعصا كما يدل عليه كلامه تعالى فى غير هذا الموضع و إن «طَرِيقًا» مفعول به لا ضرب على الاتساع و هو مجاز عقلى و الأصل اضرب البحر ليكون لهم طريقا. انتهى. و يمكن أن يكون المراد بالضرب البناء و الإقامه من باب ضربت الخيمه و ضربت القاعده.

و اليس- على ما ذكره الراغب- المكان الذى كان فيه ماء ثم ذهب، و الدرر بفتحتين تبعه الشىء، و فى نسبه الغشيان الى ما الموصوله المبهمه و جعله صله لها أيضا من تمثيل هول الموقف ما لا يخفى، قيل: و فى قوله: «وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَىٰ» تكذيب لقول فرعون لقومه فيما خاطبهم وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٢٩)، و على هذا فقوله: «وَ مَا هَدَىٰ» ليس تأكيدا و تكرارا لمعنى قوله: «وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ» .

[سوره طه (٢٠): الآيات ٨٠ الى ٩٨]

اشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ السَّلْوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَ عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَ لَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَ إِلَهَ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَ فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا (٨٩) وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنِّي رَأَيْتُكُمْ الرَّاكِبِينَ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي أَخَاكُمْ وَإِنِّي عَلَىٰكُمْ شَهِيدٌ قُلُوا لِمَ كَذَبْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَ تَرْتَابُونَ (٩٤) قَالَ قَالُوا لِمَ كَذَبْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَ تَرْتَابُونَ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَ أَنْظِرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)

قوله تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ كَأَنَّ الْكَلَامَ بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ أَيْ قَلْنَا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَوْلُهُ: «قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ» الْمُرَادُ بِهِ فِرْعَوْنَ أَغْرَقَهُ اللَّهُ وَ أَنْجَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُ بَعْدَ طَوْلِ الْمَحْنَةِ.

وقوله: وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ بِنُصْبِ أَيْمَنٍ عَلَى أَنَّهُ صَفْهُ جَانِبٍ وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْمَوَاعِدِ مَوَاعِدَ مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لِإِنزَالِ التَّوْرَةِ وَ قَدِ مَرَّتِ الْقِصَّةُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَ غَيْرِهَا وَ كَذَا قِصَّةُ إِنزَالِ الْمَنِّ وَ السَّلْوَى.

وقوله: كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ إِبَاحَةً فِي صُورِهِ الْأَمْرُ وَ إِضَافَةُ الطَّيِّبَاتِ إِلَى «مَا رَزَقْنَاكُمْ» مِنْ إِضَافَةِ الصَّفْهِ إِلَى الْمَوْصُوفِ إِذْ لَا مَعْنَى لِأَنَّ يَنْسَبُ الرِّزْقَ إِلَى نَفْسِهِ ثُمَّ يَقْسَمُهُ إِلَى طَيِّبٍ وَ غَيْرِهِ كَمَا يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ فِي آخِرِ: وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ (الْجَاثِيَةُ ١٦).

قوله: وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ ضَمِير فِيهِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَكْلِ الْمُتَعَلِّقِ بِالطَّيِّبَاتِ وَ ذَلِكَ بِكُفْرَانِ النِّعْمَةِ وَ عَدَمِ أَدَاءِ شُكْرِهِ
كَمَا قَالُوا: يَا مُوسَىٰ لَنْ نُّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَ
بَصَلِهَا (البقره ٦١).

و قوله: «فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي» أى يجب غضبى و يلزم من حلّ الدين يحلّ من باب ضرب إذا وجب أدائه، و الغضب من صفاته
تعالى الفعلية مصداقه إرادته تعالى إصابه المكروه للعبد بتهيئه الأسباب لذلك عن معصيه عصاها.

و قوله: وَ مَنْ يَحِلِّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ أى سقط من الهوى بمعنى السقوط و فسّر بالهلاك.

قوله تعالى: وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ وَعَدَ بِالرَّحْمَةِ الْمُؤَكَّدَةِ عَقِيبَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَ لَذَا وَصَفَ
نَفْسَهُ بِكَثْرَةِ الْمَغْفَرَةِ فَقَالَ: «وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ» وَ لَمْ يَقُلْ: وَ أَنَا غَافِرٌ أَوْ سَأْغُفِرُ.

و التوبه و هى الرجوع كما تكون عن المعصيه الى الطاعه تكون من الشرك الى التوحيد، و الإيمان أيضا كما يكون بالله
كذلك يكون بآيات الله من أنبيائه و رسله و كل حكم جاءوا به من عند الله تعالى، و قد كثر استعمال الإيمان فى القرآن فى
كل من المعنيين كما كثر استعمال التوبه فى كل من المعنيين المذكورين و بنو إسرائيل كما تلبسوا بمعاصى فسقوا بها كذلك
تلبسوا بالشرك كعباده العجل و على هذا فلا موجب لصرف الكلام عن ظاهر إطلاقه فى التوبه عن الشرك و المعصيه جميعا و
الإيمان بالله و آياته كذلك إطلاقه بالنسبه الى التائبين و المؤمنين من بنى إسرائيل و غيرهم و إن كان بنو إسرائيل مورد الخطاب
فإن الصفات الإلهيه كالمغفره لا تختص بقوم دون قوم.

فمعنى الآية-و الله أعلم-و إنى لكثير المغفره لكل انسان تاب و آمن سواء تاب عن شرك أو

عن معصيه و سواء آمن بي أو بآياتي من رسلي، أو ما جاءوا به من أحكامي بأن يندم على ما فعل و يعمل عملا صالحا بتبديل المخالفه و التمرد فيما عصى فيه بالطاعه فيه و هو المحقق لأصل معنى الرجوع من شيء و قد مرّ تفصيل القول فيه في تفسير قوله: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ (النساء ١٧)، في الجزء الرابع من الكتاب.

و أما قوله: ثُمَّ اهْتَدَى فَالاهتداء يقابل الضلال كما يشهد به قوله تعالى: مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا (الإسراء ١٥)، و قوله: لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (المائدة ١٠٥)، فهل المراد أن لا يضل في نفس ما تاب فيه بأن يعود الى المعصيه ثانيا فيفيد أن التوبه عن ذنب إنما تنفع بالنسبه الى ما اقترفه قبل التوبه و لا تكفي عنه لو عاد اليه ثانيا أو المراد أن لا يضل في غيره فيفيد أن المغفره إنما تنفعه بالنسبه الى المعصيه التي تاب عنها و بعبارة أخرى إنما تنفعه نفعاً تاماً إذا لم يضل في غيره من الأعمال، أو المراد ما يعم المعنيين؟.

فقوله: وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً ينطبق على آيه النساء و يبقى فيه شرط زائد يقيد حكم المغفره و هو مدلول قوله: «ثُمَّ اهْتَدَى» و هو الاهتداء الى الطريق و يظهر أن المغفره إنما يسمح بها للمؤمن العامل بالصالحات إذا قصد ذلك من طريقه و دخل عليه من بابه.

و لا نجد في كلامه تعالى ما يقيد الإيمان بالله و العمل الصالح في تأثيره و قبوله عند الله إلا الإيمان بالرسول بمعنى التسليم له و طاعته في خطير الامور و يسيرها و أخذ الدين عنه و سلوك الطريق التي يخطها و اتباعه من غير استبداد و ابتداء يتول الى اتباع خطوات الشيطان و بالجمله ولايته على المؤمنين في دينهم و دنياهم فقد شرع الله تعالى ولايته و فرض طاعته و أوجب الأخذ عنه و التأسي به في آيات كثيرة جدا لا حاجة الى إيرادها و لا مجال لاستقصائها فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

و كان جل بنى إسرائيل على إيمانهم بالله سبحانه و تصديقهم رساله موسى و هارون متوقفين فى ولايتهما أو كالمتوقف كما هو صريح عامه قصصهم فى كتاب الله و لعل هذا هو الوجه فى وقوع الآية-و إني لغفار لمن تاب و آمن و عمل صالحا ثم اهتدى بعد نهيهم عن الطغيان و تخويفهم من غضب الله.

فقد تبين أن المراد بالاهتداء فى الآية على ما يهدى اليه سائر الآيات هو الإيمان بالرسول باتباع فى أمر الدين و الدنيا و بعبارة اخرى هو الاهتداء الى ولايته.

قوله تعالى: **وَ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى** -الى قوله- **لِتَرْضَى** حكاية مكالمه وقعت بينه تعالى و بين موسى عليه السلام فى ميعاد الطور الذى نزلت عليه فيه التوراه كما قصّ فى سوره الاعراف تفصيلا.

و ظاهر السياق أنه سؤال عن السبب الذى أوجب لموسى أن يستعجل عن قومه فيحضر ميعاد الطور قبلهم كأنه كان المترقب أن يحضروا الطور جميعا فتقدم عليهم موسى فى الحضور و خلفهم فقيل له **«وَ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى»** فقال: **«هُمْ أَوْلَاءُ عَلِيٍّ أَثْرَى»** أى إنهم لسائرون على أثرى و سيلحقون بى عن قريب **«وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى»** أى و السبب فى عجلى هو أن احصل رضاك يا رب.

و الظاهر أن المراد بالقوم و قد ذكر أنهم على أثره هم السبعون رجلا الذين اختارهم لميقات ربه، فإن ظاهر تخليفه هارون على قومه بعده و سائر جهات القصة و قوله: **«أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ»** أنه لم يكن من القصد أن يحضر بنو إسرائيل كلهم الطور.

قوله تعالى: **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ اضْلَمَهُمُ السَّامِرِيُّ** الفتنه الامتحان و الاختبار و نسبه الإضلال الى السامرى-و هو الذى سبك العجل و أخرجه لهم فعبدوه و ضلّوا-لأنه أحد أسبابه العامله فيه.

و الفاء فى قوله: **«فإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ»** للتعليل يعلل به ما يفهم من سابق الكلام فإن المفهوم

من قول موسى «هُمُ أَوْلَاءِ عَلِيٍّ أَثْرَى» أن قومه على حسن حال لم يحدث فيهم ما يوجب قلقا فكأنه قيل: لا تكن واثقا على ما خَلَفْتَهُمْ فِيهِ فَإِنَا قَدْ فَتَنَاهُمْ فَضَلُّوا.

وقوله: «قَوْمِيكَ» من وضع الظاهر موضع المضمرة ولعل المراد غير المراد به في الآية السابقة أن يكون ما هاهنا عامه القوم و ما هناك السبعون رجلا الذين اختارهم موسى للميقات.

قوله تعالى: فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا - الى قوله - فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي الْغَضْبَانَ صفة مشبهة من الغضب، وكذا الاسف من الاسف بفتح الحين وهو الحزن و شدة الغضب، و الموعد الوعد، و إلا فهم موعده هو تركهم ما وعدوه من حسن الخلافة بعده حتى يرجع اليهم، و يؤيده قوله في موضع آخر: «بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي» .

و المعنى: فرجع موسى الى قومه و الحال أنه غضبان شديد الغضب - أو حزين - و أخذ يلومهم على ما فعلوا، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا - و هو أن ينزل عليهم التوراه فيها حكم الله و فى الأخذ بها سعادته دنياهم و أخراهم - أو وعده تعالى أن ينجيهم من عدوهم و يمكّنهم فى الأرض و يخصّهم بنعمه العظام «أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ» و هو مده مفارقه موسى إياهم حتى يكونوا آيسين من رجوعه فيختل النظم بينهم «أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ» فطغوتم بالكفر به بعد الإيمان و عبدتم العجل «فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» و تركتم ما وعدتمونى من حسن الخلافة بعدى.

قوله تعالى: قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا الى آخر الآية الملك بالفتح فالسكون مصدر ملك يملك و كأن المراد بقولهم: «مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا» ما خالفناك و نحن نملك من أمرنا شيئا - كما قيل - و من الممكن أن يكون المراد أنا لم نصرف فى صوغ العجل شيئا من أموالنا حتى نكون قاصدين لهذا الأمر متعمدين فيه و لكن كنا حاملين لأثقال من خلّى القوم فطر حناها فأخذها السامرى و ألقاها فى النار فأخرج العجل.

و الأوزار جمع وزر و هو الثقل، و الزينه الحلى كالعقد و القرط و السوار و القذف و الإلقاء و النبذ متقاربه معناها الطرح و الرمى.

و معنى قوله: «و لَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا» الخ؛ لكن كانت معنا أنقال من زينه القوم و لعل المراد به قوم فرعون- فطرحناها فكذلك ألقى السامرى- ألقى ما طرحناها فى النار أو ألقى ما عنده كما القينا ما عندنا مما حملنا- فأخرج العجل.

قوله تعالى: فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ فِي لَفْظِ الْإِخْرَاجِ دَلَالَهُ عَلَىٰ أَنْ كَيْفِيهِ صَنَعَ الْعِجْلُ كَانَتْ خَفِيهِ عَلَى النَّاسِ فِي غَيْرِ مَرَأَى مِنْهُمْ حَتَّىٰ فَاجَأَهُمْ بِإِظْهَارِهِ وَإِرَاءَتِهِ، وَ الْجَسَدُ هُوَ الْجِثَّةُ الَّتِي لَا رُوحَ فِيهِ فَلَا يُطْلَقُ الْجَسَدُ عَلَىٰ ذِي الرُّوحِ الْبَتَّةِ، وَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْعِجْلَ لَمْ يَكُنْ لَهُ رُوحٌ وَلَا- فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَاةِ، وَ الْخُورُ بضم الخاء صوت العجل.

و ربما أخذ قوله: «فَكَذَّبَكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ» الخ؛ كلاما مستقلا إما من كلام الله سبحانه باختتام كلام القوم فى قولهم: «فَقَدَفْنَاهَا» و إما من كلام القوم و على هذا فضمير «قالوا» لبعض القوم و ضمير «فَأَخْرَجَ لَهُمْ» لبعض آخر كما هو ظاهر.

و ضمير «نسى» قيل: لموسى و المعنى قالوا هذا إلهكم و إله موسى فنسى موسى إلهه هذا و هو هنا و ذهب يطلبه فى الطور و قيل: الضمير للسامرى و المراد به نسيانه تعالى بعد ذكره و الإيمان به أى نسى السامرى ربه فأتى بما أتى و أضل القوم.

و ظاهر قوله: «فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ» حيث نسب القول الى الجمع أنه كان مع السامرى فى هذا الأمر من يساعده.

قوله تعالى: أَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا تَوْبِيخًا لَهُمْ حَيْثُ عَبْدُوهُ وَ هُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ قَوْلًا بِأَنْ يَسْتَجِيبَ لِمَنْ يَدْعُوهُ، وَ لَا- يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا فَيُدْفَعُهُ عَنْهُمْ وَ لَا نَفْعًا بِأَنْ يَجْلِبَهُ وَ يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِمْ، وَ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ عَقُولِهِمْ أَنَّ الرَّبَّ يَجِبُ

أن يستجيب لمن دعاه لدفع ضرر أو لجلب نفع و أن يملك الضر و النفع لمربوبه.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي تَأْكِيدَ لَتُوبِيخِهِمْ** و زياده تقرير لجرمهم،و المعنى:

أنهم مضافا الى عدم تذكرهم به ضروره عقولهم و عدم انتهائهم عن عباده العجل الى البصر و العقل لم يعتنوا بما قرعهم من طريق السمع أيضا،فلقد قال لهم نبيهم هارون إنه فتنه فتنوا به و إن ربهم الرحمن عز اسمه و إن من الواجب عليهم أن يتبعوه و يطيعوا أمره.

فردّوه على هارون قائلين: لن نبرح و لن نزال عليه عاكفين أى ملازمين لعبادته حتى يرجع الينا موسى فنرى ما ذا يقول فيه و ما ذا يأمرنا به.

قوله تعالى: **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي رَجِعْ عَلَيْهِ السَّلَامِ** بعد تكليم القوم فى أمر العجل الى تكليم أخيه هارون إذ هو أحد المسئولين الثلاثة فى هذه المحنة استخلفه و أوصاه حين كان يوادعه قائلا «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» .

و كأن قوله: «مَنَعَكَ» مضمّن معنى دُعاك، أى ما دعاك الى أن لا تتبع مانعا لك عن الاتباع أو ما منعك داعيا لك الى عدم اتباعى فهو نظير قوله: **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** (الأعراف ١٢).

و المعنى: قال موسى معاتباً لهارون: ما منعك عن اتباع طريقي و هو منعهم عن الضلال و الشده فى جنب الله أفعصيت أمرى أن تتبعنى و لا تتبع سبيل المفسدين؟

قوله تعالى: **قَالَ يَا بَنِ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي الخ؛ «يَا بَنِ أُمَّ»** أصله يا بن أمى و هى كلمه استرحام و استترآف قالها لإسكات غضب موسى، و يظهر من قوله:

«لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي» أنه أخذ بلحيته و رأسه غضبا ليضربه كما أخبر به فى موضع آخر و **أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ** (الأعراف ١٥٠).

وقوله: إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَلَّمْتَ قَوْلِي تَعْلِيلَ لِمَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَمَحْصَلُهُ لَوْ كُنْتُ مَانِعْتَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ وَقَاوَمْتَهُمْ بِالْغَيْهِ مَا بَلَغْتَ لَمْ يَطْعَنِي إِلَّا بَعْضُ الْقَوْمِ وَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَفَرُّقِهِمْ فَرَقْتَيْنِ: مُؤْمِنٍ مَطْعِمٍ، وَمَشْرُكٍ عَاصٍ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ إِفْسَادُ حَالِ الْقَوْمِ بِتَبْدِيلِ اتِّحَادِهِمْ وَاتِّفَاقِهِمُ الظَّاهِرَ تَفَرُّقًا وَاجْتِلَافًا وَرَبَّمَا انْجَرَّ إِلَى قِتَالٍ وَقَدْ كُنْتُ أَمْرْتَنِي بِالْإِصْلَاحِ إِذْ قُلْتُ لِي «أَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» فَخَشِيتُ أَنْ تَقُولَ حِينَ رَجَعْتَ وَشَاهَدْتَ مَا فِيهِ الْقَوْمُ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّحْزَبِ: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَلَّمْتَ قَوْلِي. هَذَا مَا اعْتَذَرَ بِهِ هَارُونَ وَقَدْ عَذَرَهُ مُوسَى وَدَعَا لَهُ وَنَفْسَهُ كَمَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بِقَوْلِهِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (الأعراف ١٥١).

قوله تعالى: قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ رجوع منه عليه السلام بعد الفراغ من تكليم أخيه إلى تكليم السامري وهو أحد المسئولين الثلاثة وهو الذي أضلَّ القوم.

و الخطب: الأمر الخطير الذي يهيمك، يقول: ما هذا الأمر العظيم الذي جئت به؟

قوله تعالى: قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي قَالَ الرَّابِعُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْبَصْرُ يُقَالُ لِلْجَارِحَةِ النَّاضِرَةِ نَحْوُ قَوْلِهِ: «كَلِمَةُ الْبَصِيرِ» (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ) وَلِلْقُوَّةِ الَّتِي فِيهَا، يُقَالُ لِقُوَّةِ الْقَلْبِ الْمَدْرُكَةِ بَصِيرَةٌ وَبَصْرٌ نَحْوُ قَوْلِهِ: «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» وَقَالَ: «مَا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمَا طَغَى» وَجَمَعَ الْبَصْرَ أَبْصَارَهُمْ وَجَمَعَ الْبَصِيرَةَ بَصَائِرًا، قَالَ تَعَالَى: «فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سِيْمَعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ» وَلَا يَكَادُ يُقَالُ لِلْجَارِحَةِ: بَصِيرَةٌ، وَيُقَالُ مِنَ الْأُولَى: أَبْصَرْتُ، وَمِنَ الثَّانِي: أَبْصَرْتَهُ وَبَصَرْتَهُ، وَقَلَّمَا يُقَالُ فِي الْحَاسَةِ بَصَرْتُ إِذَا لَمْ تَضَامَّهُ رُؤْيَاهُ الْقَلْبِ.

انتهى.

وقوله: «فَقَبَضْتُ قَبْضَهُ» قِيلَ: إِنَّ الْقَبْضَةَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ وَأُورِدَ عَلَيْهِ أَنَّ الْمَصْدَرَ إِذَا اسْتَعْمَلَ كَذَلِكَ لَمْ تَلْحَقْ بِهِ التَّاءُ، يُقَالُ: هَذِهِ حَلَّةٌ نَسَجَ الْيَمَنُ، وَلَا يُقَالُ: نَسَجَهُ.

اليمن، فالمتعين حملة في الآيه على أنه مفعول مطلق. و ردّ بأن الممنوع لحوق التاء الداله على التحديد و المره لا- على مجرد التأنيث كما هنا، و فيه أن كون التاء هنا للتأنيث لا دليل عليه فهو مصادره.

و قوله: «مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ» الاثر شكل قدم الماره على الطريق بعد المرور، و الأصل في معناه ما بقى من الشىء بعده بوجه بحيث يدلّ عليه كالبناء أثر البانى و المصنوع أثر الصانع و العلم أثر العالم و هكذا، و من هذا القبيل أثر الأقدام على الأرض من الماره.

و الرسول هو الذى يحمل رساله و قد أطلق في القرآن على الرسول البشرى الذى يحمل رساله الله تعالى الى الناس و أطلق بهذه اللفظه على جبريل ملك الوحي، قال تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (التكوير ١٩)، و كذا أطلق لجمع من الملائكه الرسول كقوله: بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُيُونَ (الزخرف ٨٠)، و قال أيضا في الملائكه: جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ (فاطر ١).

و الآيه تتضمن جواب السامرى عما سأله موسى عليه السّلام بقوله: «فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ» و هو سؤال عن حقيقه ذاك الأمر العظيم الذى أتى به و ما حملة على ذلك، و السياق يشهد على أن قوله: «وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي» جوابه عن السبب الذى دعاه اليه و حملة عليه و أن تسويل نفسه هو الباعث له الى فعل ما فعل و أما بيان حقيقه ما صنع فهو الذى يشير اليه بقوله:

«بَصِيرَةٌ بَلَىٰ لَمْ يُبْصِرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ» و لا- نجد فى كلامه فى هذه القصة و لا فيما يرتبط بها فى الجمله ما يوضح المراد منه و لذا اختلفوا فى تفسيره.

ففسره الجمهور وفاقا لبعض الروايات الواردة فى القصة أن السامرى رأى جبريل و قد نزل على موسى للوحى أو رآه و قد نزل راكبا على فرس من الجنه قدام فرعون و جنوده حين دخلوا البحر فاغرقوا فأخذ قبضه من تراب أثر قدمه أو أثر حافر فرسه و من خاصه هذا التراب أنه لا يلقى على شىء إلا حلت فيه الحياه و دخلت فيه الروح فحفظ التراب حتى إذا

صنع العجل ألقى فيه من التراب فحى و تحرك و خار.

قوله تعالى: **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ** هذه مجازاه له من موسى عليه السلام بعد ثبوت الجرم.

فقوله: **«قَالَ فَاذْهَبْ»** قضاء بطرده عن المجتمع بحيث لا يخالط القوم و لا يمس أحدا و لا يمسه أحد بأخذ أو عطاء أو إيواء أو صحبه أو تكليم و غير ذلك من مظاهر الاجتماع الإنساني و هو من أشق أنواع العذاب، وقوله: **«فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ»** -محصله أنه تقرّر و حقّ عليك أن تعيش فردا ما دمت حيا- كناية عن تحسره المداوم من الوحده و الوحشه.

و قوله: **وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ** ظاهره أنه إخبار عن هلاكه في وقت عينه الله و قضاه قضاء محتوما و يحتمل الدعاء عليه، و قيل: المراد به عذاب الآخرة.

قوله تعالى: **«وَ أَنْظِرْ إِلَىٰ إِيَّاهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْ نَحْرُقَ ثَمَّ لَنْ نَسْفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا»** قال في المجمع: يقال: نسف فلان الطعام إذا ذراه بالمنسف ليطير عنه قشوره. انتهى.

و قوله: **وَ أَنْظِرْ إِلَىٰ إِيَّاهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا** أى ظلت و دمت عليه عاكفا لازما، و فيه دلالة على أنه كان اتخذه إلهًا له يعبد.

و قوله: **«لَنْ نَحْرُقَ ثَمَّ لَنْ نَسْفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا»** أى أقسم لنحرقه بالنار ثم لنذريته في البحر ذروا، و قد استدلّ بحديث إحراقه على أنه كان حيوانا ذا لحم و دم و لو كان ذهبا لم يكن لإحراقه معنى، و هذا يؤيد تفسير الجمهور السابق أنه صار حيوانا ذا روح بإلقاء التراب المأخوذ من أثر جبريل عليه. لكن الحق أنه إما يدلّ عليه أنه لم يكن ذهبا خالصا لا غير.

قوله تعالى: **إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** الظاهر أنه من تمام كلام موسى عليه السلام يخاطب به السامري و بنى إسرائيل و قد قرّر بكلامه هذا توّحده تعالى في ألوهيته فلا يشاركه فيها غيره من عجل أو أى شريك مفروض، و هو بسياقه من لطيف الاستدلال فقد استدلّ فيه بأنه تعالى هو الله على أنه لا إله إلا هو و بذلك على أنه لا

اشاره

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَهُ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)

قوله تعالى: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا الظاهر أن الإشاره الى خصوصيه قصه موسى و المراد بما قد سبق الامور و الحوادث الماضيه و الامم الخاليه أى على هذا النحو قصصنا قصه موسى و على شاكلته نقص عليك من أخبار ما قد مضى من الحوادث و الامم.

و قوله: وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا المراد به القرآن الكريم أو ما يشتمل عليه من المعارف المتنوعه التى يذكر بها الله سبحانه من حقائق و قصص و عبر و أخلاق و شرائع و غير ذلك.

قوله تعالى: مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ضمير «عنه» للذكر و الوزر الثقل و الإثم و الظاهر بقريته الحمل إرادته المعنى الأول و تنكيره للدلاله على عظم خطره، و المعنى: من أعرض عن الذكر فإنه يحمل يوم القيامة ثقلا- عظيم الخطر و مَرَّ الأثر، شبه الإثم من حيث قيامه بالإنسان بالثقل الذى يحمله الإنسان و هو شاق عليه

فاستعير له اسمه.

قوله تعالى: **خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا** المراد من خلودهم في الوزر خلودهم في جزائه وهو العذاب بنحو الكناية و التعبير في «خَالِدِينَ» بالجمع باعتبار معنى قوله: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ» كما أن التعبير في «أَعْرَضَ» و «فَإِنَّهُ يَحْمِلُ» فاعتبار لفظه، فالآيه كقوله: **وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا** (الجن ٢٣).

و مع الغض عن الجهات اللفظية فقوله: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدًا فِيهِ» من أوضح الآيات دلالة على أن الإنسان إنما يعذب بعمله و يخلد فيه و هو تجسّم الأعمال.

و قوله: **«وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا»** ساء من أفعال الذم كبتس، و المعنى: و بس الحمل حملهم يوم القيامة، و الحمل بكسر الحاء و فتحها واحد، غير أن ما بالكسر هو المحمول في الظاهر كالمحمول على الظهر و ما بالفتح هو المحمول في الباطن كالولد في البطن.

قوله تعالى: **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا** «يَوْمَ يُنْفَخُ» الخ؛ بدل من يوم القيامة في الآيه السابقه، و نفخ في الصور كناية عن الإحضار و الدعوه و لذا أتبعه فيما سيأتي بقوله: **يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ** (الآيه ١٠٨/١) من السوره.

و الزرق جمع أزرق من الزرقه و هى اللون الخاص، و عن الفراء أن المراد بكونهم زرقا كونهم عميا لأن العين إذا ذهب نورها أزرق ناظرها و هو معنى حسن و يؤيده قوله تعالى:

وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَ (الإسراء ٩٧).

قوله تعالى: **يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا** -الى قوله- **إِلَّا يَوْمًا** التخافت تكليم القوم بعضهم بعضا بخفض الصوت و ذلك من أهل المحشر لهول المطلع، و قوله:

«إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا» بيان لكلامهم الذى تخافتون فيه، و معنى الجملة على ما يعطيه السياق:

يقولون ما لبثتم فى الدنيا قبل المحشر إلا عشره أيام، يستقلون لبثهم فيها بقياسه الى ما يلوح

لهم من حكم الخلود و الأبدية.

و قوله: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَهُ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا» أى لنا إحاطه علميه بجميع ما يقولون فى تقرير لبتهم إذ يقول أمثلهم طريقه أى الأقرب منهم الى الصدق إن لبتتم فى الأرض إلا- يوما و إنما كان قائل هذا القول أمثل القوم طريقه و أقربها الى الصدق لأن اللبث المحدود الأرضى لا مقدار له إذا قيس من اللبث الأبدى الخالد، و عدّه يوما و هو أقل من العشره أقرب الى الواقع من عدّه عشره، و القول مع ذلك نسبى غير حقيقى و حقيقه القول فيه ما حكاه سبحانه فى قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِن كُنْتُمْ كُفَّارًا تَعْلَمُونَ (الروم ٥٦)»، و سيجىء استيفاء البحث فى معنى هذا اللبث فى تفسير الآيه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ - الى قوله- وَ لَا أَمْتًا تَدُلُّ الْآيَةَ عَلَى أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ عَنْ حَالِ الْجِبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاجِيبْ عَنْهُ بِالْآيَاتِ».

و قوله: «فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا أَى يَذَرُهَا وَ يَثِيرُهَا فَلَا يَبْقَى مِنْهَا فِى مَسْتَقَرِّهَا شَيْءٌ»، و قوله: «فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا مَا الْقَاعِ الْأَرْضِ الْمَسْتَوِيَةِ وَ الصَّفْصَفُ الْأَرْضُ الْمَسْتَوِيَةُ الْمَلْسَاءُ»، و المعنى فيتركها أرضا مستويه ملساء لا شىء عليها، و كأن الضمير للأرض باعتبار أنها كانت جبالا، و قوله: «لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لَا أَمْتًا» قيل: العوج ما انخفض من الأرض و الأمت ما ارتفع منها، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آلِهِ وَ سَلِمَ وَ الْمَرَادُ كُلُّ مَنْ لَهُ أَنْ يَرَى وَ الْمَعْنَى لَا يَرَى رَأْيَ فِيهَا مَنْخَفُضًا كَالْأُودِيَةِ وَ لَا مَرْتَفَعًا كَالرُّوَابِي وَ التلال.

قوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا نَفَى الْعِوَجِ إِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِالْإِتْبَاعِ - بَأَن يَكُونَ «لَا عِوَجَ لَهُ» حَالًا عَنِ ضَمِيرِ الْجَمْعِ وَ عَامِلِهِ يَتَّبِعُونَ - فَمَعْنَاهُ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ إِذَا دَعُوا إِلَّا الْإِتْبَاعَ مُحْضًا مِنْ غَيْرِ أَى تَوَقَّفَ أَوْ اسْتَكْفَأَ أَوْ تَثَبَّطَ أَوْ مَسَاهَلَهُ فِيهِ لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فِرْعُ الْقَدْرَةِ وَ الْإِسْتِطَاعَةِ أَوْ

توهم الإنسان ذلك لنفسه و هم يعاينون اليوم أن الملك و القدره لله سبحانه لا شريك له قال تعالى: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦)، وقال: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (البقره ١٦٥).

و إن كان متعلقا بالداعى كان معناه أن الداعى لا يدع أحدا إلا دعاه من غير أن يهمل أحدا بسهو أو نسيان أو مساهله فى الدعوه.

لكن تعقيب الجملة بقوله: «وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ» الخ؛ يناسب المعنى الأول فإن ارتفاع الأصوات عند الدعوه و الاحضار إنما يكون للتمرد و الاستكبار عن الطاعه و الاتباع.

و قوله: «وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا» قال الراغب:

الهمس الصوت الخفى و همش الاقدام أخفى ما يكون من صوتها قال تعالى: «فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا». انتهى. و الخطاب فى قوله: «فَلَا تَسْمَعُ» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المراد كل سامع يسمع و المعنى و انخفضت الأصوات لاستغراقهم فى المدله و المسكنه لله فلا يسمع السامع إلا صوتا خفيا.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا نَفَى نفع الشفاعة كناية عن أن القضاء بالعدل و الحكم الفصل على حسب الوعد و الوعيد الإلهيين جار نافذ يومئذ من غير أن يسقط جرم مجرم أو يغمض عن معصيه عاص لمانع يمنع منه فمعنى نفع الشفاعة تأثيرها.

و قوله: «إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» الاستثناء يدل على أن العنايه فى الكلام متعلقه بنفى الشفعاء لا بتأثير الشفاعة فى المشفوع لهم، و المراد الإذن فى الكلام للشفاعة كما بيئنه قوله بعده: «وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» فإن التكلم يومئذ منوط بإذنه تعالى، قال:

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ (هود ١٠٥)، وقال: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَابًا (النبا ٣٨). و قد مر القول فى معنى الإذن فى التكلم فى تفسير سوره هود فى الجزء العاشر من الكتاب.

و أما كون القول مرضيا فمعناه أن لا- يخالطه ما يسخط الله من خطأ أو خطيئه قضاء لحق الإطلاق و لا يكون ذلك إلا ممن أخلص الله سريره من الخطأ في الاعتقاد و الخطيئه في العمل و طهر نفسه من رجس الشرك و الجهل في الدنيا أو من الحقه بهم فإن البلاء و الابتلاء اليوم مع السرائر قال تعالى: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ» و للبحث ذيل طويل سيمرّ بك بعضه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا إن كان ضمائر الجمع في الآيه راجعه الى «مَنْ أَدْرَكَ لَهُ» باعتبار معناه كان المراد أن مرضى قولهم لا يخفى على الله فإن علمه محيط بهم و هم لا يحيطون به علما فليس في وسعهم أن يغزوه بقول مزوّق غير مرضى.

و إن كانت راجعه الى المجرمين فالآيه تصف علمه تعالى بهم في موقف الجزاء و هو ما بين أيديهم و قبل أن يحضروا الموقف في الدنيا حيا أو ميتا و هو ما خلفهم فهم محاطون لعلمه و لا يحيطون به علما فيجزئهم بما فعلوا و قد عنت وجوههم للحى القيوم فلا يستطيعون ردا لحكمه و عند ذلك خيبتهم. و هذا الاحتمال أنس لسياق الآيات.

قوله تعالى: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ الْعَنُوهِ هى الذله قبال قهر القاهر و هى شأن كل شىء دون الله سبحانه يوم القيامة بظهور السلطنه الإلهيه كما قال: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦)، فلا يملك شىء شيئا بحقيقه معنى الكلمه و هو الذله و المسكنه على الإطلاق و إما نسبت العنوه الى الوجوه لأنها أول ما تبدوا تظهر فى الوجوه، و لازم هذه العنوه أن لا يمنع حكمه و لا نفوذه فيهم مانع و لا يحول بينه و بين ما أراد بهم حائل.

و اختير من أسمائه الحى القيوم لأن مورد الكلام الأموات أحيوا ثانيا و قد تقطعت عنهم الأسباب اليوم و المناسب لهذا الظرف من صفاته حياته المطلقه و قيامه بكل أمر.

قوله تعالى: وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا بَيَانٌ لجزائهم أما قوله: «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا» فالمراد بهم المجرمون غير المؤمنين فلهم الخيبة بسوء الجزاء لا كل من حمل ظلما ما أى ظلم كان من مؤمن أو كافر فإن المؤمن لا يخيب يومئذ بالشفاعة.

و لو كان المراد العموم و أن كل من حمل ظلما ما فهو خائب فالمراد بالخبية الخيبة من السعادة التى يضادها ذلك دون الخيبة من السعادة مطلقا.

و أما قوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» الخ؛فهو بيان استترادى لحال المؤمنين الصالحاء جىء به لاستيفاء الأقسام و تتميم القول فى الفريقين الصالحاء و الجرمين، و قد قيد العمل الصالح بالإيمان لأن الكفر يحبط العمل الصالح بمقتضى آيات الحبط، و الهضم هو النقص، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ظاهراً سياقها أن الإشاره بكذلك الى خصوصيات بيان الآيات، و «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» حال من الضمير فى «أَنْزَلْنَاهُ»، و التصريف هو التحويل من حال الى حال، و المعنى و على ذلك النحو من البيان المعجز أنزلنا الكتاب و الحال أنه قرآن مقرر عربى و أتينا فيه ببعض ما أوعدناهم فى صوره بعد صوره.

و قوله: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا قد أورد فيما تقدم من قوله: «لعله يذكر أو يخشى» الذكر مقابلاً للخشية و يستأنس منه أن المراد بالاتقاء هاهنا هو التحرز من المعاداة و اللجاج الذى هو لازم الخشية باحتمال الضرر دون الاتقاء المترتب على الإيمان بإتيان الطاعات و اجتناب المعاصى، و يكون المراد بإحداث الذكر لهم حصول التذكر فيهم و تتم المقابلة بين الذكر و التقوى من غير تكلف.

و المعنى -و الله أعلم- لعلهم يتحرزون المعاداة مع الحق لحصول الخشية فى قلوبهم باحتمال الخطر لاحتمال كونه حقا أو يحدث لهم ذكرا للحق فيعتقدوا به.

قوله تعالى: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ تَسْبِيحٌ وَتَنْزِيهٌ لَهُ عَنِ كُلِّ مَا لَّا يَلِيْقُ بِسَاحَةِ قُدْسِهِ، وَهُوَ يَقْبَلُ التَّفَرُّعَ عَلَى أَنْزَالِ الْقُرْآنِ وَتَصْرِيفِ الْوَعِيدِ فِيهِ لِهَدَايَةِ النَّاسِ وَالتَّفَرُّعَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَا ذَكَرَ قَبْلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْحَشْرِ وَالْجِزَاءِ وَهَذَا هُوَ الْأَنْسَبُ نَظْرًا إِلَى انْسِلَاكِ الْجَمِيعِ فِي سَلْكِ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى مُلْكٌ يَتَصَرَّفُ فِي مُلْكِهِ بِهَدَايَةِ النَّاسِ إِلَى مَا فِيهِ صِلَاحٌ أَمْرُهُمْ ثُمَّ إِحْضَارُهُمْ وَجَزَائِهِمْ عَلَى مَا عَمَلُوا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

قوله تعالى: وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا السِّيَاقُ يَشْهَدُ بِأَنَّ الْكَلَامَ تَعَرُّضًا لِتَلْقَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَحَى الْقُرْآنَ، فَضَمِيرُ «وَحْيُهُ» لِلْقُرْآنِ، وَقَوْلُهُ: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ» نَهَى عَنِ الْعَجَلِ بِقِرَاءَتِهِ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «مَنْ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ» مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّ وَحْيُهُ مِنْ مُلْكِ الْوَحْيِ.

فَيُفِيدُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا جَاءَهُ الْوَحْيُ بِالْقُرْآنِ يَعْجَلُ بِقِرَاءَتِهِ مَا يُوْحَى إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ الْوَحْيُ فَنَهَى عَنِ أَنْ يَعْجَلَ فِي قِرَاءَتِهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْوَحْيِ وَتَمَامِهِ فَيَكُونُ الْآيَةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (الْقِيَامَةُ ١٨).

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ بَعْدَ: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا» فَإِنَّ سِيَاقَ قَوْلِهِ: لَا تَعْجَلْ بِهِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي، يُفِيدُ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ الْاسْتِبْدَالُ أَيْ بَدَلُ الْاسْتَعْجَالِ فِي قِرَاءَتِهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بَعْدَ، طَلْبِكَ زِيَادَةَ الْعِلْمِ وَيُؤَوِّلُ الْمَعْنَى إِلَى أَنَّكَ تَعْجَلُ بِقِرَاءَتِهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بَعْدَ لِأَنَّ عِنْدَكَ عِلْمًا بِهِ فِي الْجُمْلَةِ لَكِنْ لَا تَكْتَفِ بِهِ وَاطْلُبْ مِنَ اللَّهِ عِلْمًا جَدِيدًا بِالصَّبْرِ وَاسْتِمَاعِ بَقِيَةِ الْوَحْيِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا يُؤَيِّدُ مَا وَرَدَ مِنَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ لِلْقُرْآنِ نَزُولًا دَفْعَةً وَاحِدَةً غَيْرَ نَزُولِهِ نَجْوَمَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَوْلَا عِلْمُ مَا مِنْهُ بِالْقُرْآنِ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِعَجَلِهِ بِقِرَاءَتِهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ مِنْهُ بَعْدَ مَعْنَى.

وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَكُنَّا
يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَ أَنْتَ لَا
تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا
فَيَدَّتْ لُهُمَا سَوَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ
(١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَ مَنْ
أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥)
قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسىٰ (١٢٦)

قوله تعالى: **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** المراد بالعهد الوصيه و بهذا المعنى يطلق على الفرامين و الدساتير العهود، و النسيان معروف و ربما يكنى به عن الترك لأنه لازمه إذ الشيء إذا نسى ترك، و العزم القصد الجازم الى الشيء قال تعالى: **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** (آل عمران ١٥٩)، و ربما أطلق على الصبر و لعله لكون الصبر أمراً شاقاً على النفوس فيحتاج الى قصد أرسخ و أثبت فسمى الصبر باسم لازمه قال تعالى: **«إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»**.

فالمعنى و أقسم لقد وصينا آدم من قبل فترك الوصيه و لم نجد له قصداً جازماً الى حفظها أو صبراً عليها و العهد المذكور -على ما يظهر من قصته عليه السلام في موضع من كلامه تعالى- هو النهي عن أكل الشجره، بمثل قوله: **لَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** (الأعراف ١٩).

قوله تعالى: **وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ** معطوف على مقدر و التقدير اذكر عهدنا اليه و اذكر وقتنا أمرنا الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس حتى يظهر أنه نسى و لم يعزم على حفظ الوصيه، و قوله: **«أَبَىٰ»** جواب سؤال مقدر تقديره ما ذا فعل إبليس؟ فقيل: أبى.

قوله تعالى: **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لَزُوجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** تفریع على إباء إبليس عن السجده أى فلما أبى قلنا إرشاد لآدم الى ما فيه صلاح أمره و نصحا: إن هذا الأبي عن السجده -إبليس- عدو لك و لزوجك الخ.

و قوله: **«فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ»** توجيه نهى إبليس عن إخراجهما من الجنة الى آدم كناية عن نهيه عن طاعته أو عن الغفله عن كيده و الاستهانه بمكره أى لا تطعه أو لا تغفل عن و تسويله حتى يتسلط عليكما و يقوى على إخراجكما من الجنة و إشقائكما.

وقوله: فَتَشَقَّى تفریع علی خروجهما من الجنة و المراد بالشقاء التعب أى فتعب إن خرجتما من الجنة و عشتما فى غيرها و هو الارض عيشه أرضیه لتهاجم الحوائج و سعيك فى رفعها كالحاجه الى الطعام و الشراب و اللباس و المسكن و غيرها.

و الدليل على أن المراد بالشقاء التعب الآيتان التاليتان المشيرتان الى تفسيره «إن لك أن لا تجوع فيها و لا تعرى و أنك لا تظمؤا فيها و لا تضحى».

و هو أيضا دليل على أن النهى إرشادى ليس فى مخالفته إلا الوقوع فى المفسده المترتبه على نفس الفعل و هو تعب السعى فى رفع حوائج الحياه و اكتساب ما يعاش به و ليس بمولوى تكون نفس مخالفته مفسده يقع فيها العبد و تستتبع مؤاخذه أخرويه. على أنك عرفت أنه عهد قبل تشريع أصل الدين الواقع عند الأمر بالخروج من الجنة و الهبوط الى الأرض.

و أما أفراد قوله: «فَتَشَقَّى» و لم يقل فتشقىا بصيغه التثنيه فلأن العهد إنما نزل على آدم عليه السلام و كان التكليم متوجها اليه، و لذلك جىء بصيغه الإفراد فى جميع ما يرجع اليه كقوله: «فَنَسِىَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» «فَتَشَقَّى» «أن لا تجوع فيها و لا تعرى» «لا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لا تَضْحَى» «فَوْسُوسَ إِلَيْهِ» الخ؛ «فَعَصَى» الخ؛ «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ» نعم جىء بلفظ التثنيه فيما لا غنى عنه كقوله: «عِدُّوْا لَكُمْ وَ لَزَوْجِكُمْ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمْ» «فَأَكَلَا مِنْهَا فَيَدَّتْ لَهُمَا» «وَ طَفِقَا يَخْصِمَانِ عَلَيْهِمَا» «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» فتدبر فيه.

قوله تعالى: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرِى وَ أَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَى يقال: ضحى يضحى كسعى يسعى ضحوا و ضحيا إذا أصابته الشمس أو برز لها و كأن المراد بعدم الضحو أن ليس هناك أثر من حراره الشمس حتى تمس الحاجه الى الاكتنان فى مسكن يقى من الحرّ و البرد.

قوله تعالى: فَوْسُوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَّا يَبْلَى الشَّيْطَانُ هُوَ الشَّرِيرُ لَقَّبَ بِهِ إِبْلِيسَ لشرارته، و المراد بشجره

الخلد الشجره المنهيه و البلى صيروره الشىء خلقا خلاف الجديد.

و المراد بشجره الخلد شجره يعطى أكلها خلود الحياه، و المراد بملك لا يبقى سلطنه لا تتأثر عن مرور الدهور و اصطكاك المزاومات و الموانع فيؤول المعنى الى نحو قولنا هل أدلك على شجره ترزق بأكل ثمرتها حياه خالده و ملكا دائما فليس قوله: «لَا يَبْلَى» تكرارا لإفاده التأكيد كما قيل.

و الدليل على ما ذكره ما فى سوره الأعراف فى هذا المعنى من قوله: مَا نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونُوا مِنَ الْخَالِدِينَ (الأعراف ٢٠) و لا منافاه بين جمع خلود الحياه و دوام الملك هاهنا بواو الجمع و بين الترديد بينهما فى سوره الأعراف لإمكان أن يكون الترديد هناك لمنع الخلو لا لمنع الجمع، أو يكون الجمع هاهنا باعتبار الاتصاف بهما جميعا و الترديد هناك باعتبار تعلق النهى كأنه يقيل: إن فى هذه الشجره صفتين و إنما نهاكما ربكما عنها إما لهذه أو لهذه، أو إنما نهاكما ربكما عنها أن لا تخلدا فى الجنه مع ملك خالد أو أن لا تخلدا بناء على أن الملك الخالد يستلزم حياه خالده فافهم ذلك و كيف كان فلا منافاه بين الترديد فى آيه و الجمع فى أخرى.

قوله تعالى: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ تقدم تفسيره فى سوره الأعراف.

قوله تعالى: وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى الغى خلاف الرشده الذى هو بمعنى إصابه الواقع و هو غير الضلال الذى هو الخروج من الطريق، و الهدى يقابلهما و يكون بمعنى الإرشاد إذا قابل الغى كما فى الآيه التالیه و بمعنى إراءه الطريق، أو الإيصال الى المطلوب بتركيب الطريق إذا قابل الضلال فليس من المرضى تفسير الغى فى الآيه بمعنى الضلال.

و معنى آدم ربه- كما أشرنا اليه آنفا و قد تقدم تفصيله- إنما هى معصيه أمر إرشادى لا مولوى و الأنبياء عليهم السلام معصومون من المعصيه و المخالفه فى أمر يرجع الى الدين الذى يوحى

اليهم من جهه تلقيه فلا- يخطئون،و من جهه حفظه فلا- ينسون و لا- يحرفون،و من جهه إلقائه الى الناس و تبليغه لهم قولا- فلا يقولون إلا- الحق الذى أوحى اليهم و فعلا- فلا- يخالف فعلهم قولهم و لا يقترفون معصيه صغيره و لا كبيره لأن فى لفعل تبليغا كالكقول،و أما المعصيه بمعنى مخالفه الأمر الإرشادى الذى لا- داعى فيه إلا إحراز الأمور خيرا أو منفعه من خيرات حياته و منافعها بانتخاب الطريق الأصح كما يأمر و ينهى المشير الناصح نصحا فإطاعته و معصيته خارجتان من مجرى أدله العصمه و هو ظاهر.

قوله تعالى: **ثُمَّ اجْبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ** الإجتباء- كما تقدم مرارا- بمعنى الجمع على طريق الاصطفاء ففيه جمعه تعالى عبده لنفسه لا يشاركه فيه أحد و جعله من المخلصين بفتح اللام،و على هذا المعنى يتفرع عليه قوله: **«فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ»**، كأنه كان ذا أجزاء متفرقه متشتمه فجمعها من هنا و هناك الى مكان واحد ثم تاب عليه و رجع اليه و هداه و سلك به الى نفسه.

و إنما فسّرنا قوله: **«هَدَىٰ»** و هو مطلق بهدائته الى نفسه بقريته الاجتباء،و لا ينافى مع ذلك إطلاق الهدايه لأن الهدايه اليه تعالى أصل كل هدايه و محتدها،نعم يجب تقييد الهدايه بما يكون فى أمر الدين من اعتقاد حق و عمل صالح،و الدليل عليه تفرع الهدايه فى الآيه على الاجتباء،فافهم ذلك.

قوله تعالى: **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** تقديم تفسير مثله فى سورتي البقره و الأعراف.

و فى قوله: **«قَالَ اهْبِطَا»** التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و الإفراد و لعل الوجه فيه اشتمال الآيه على القضاء و الحكم و هو مما يختص به تعالى قال: **وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ** (المؤمن ٢٠)،و قال: **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ** (يوسف ٦٧).

قوله تعالى: **فَأَمَّا يَا تَيْنُكُمْ مَنِ هَدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا**

يَشْقَى فِي الْآيَةِ قِضَاءٌ مِنْهُ تَعَالَى مُتَفَرِّعٌ عَلَى الْهَبُوطِ وَ لَذَا عَطْفٌ بِفَاءِ التَّفْرِيعِ، وَ أَصْلُ قَوْلِهِ:

«فَأَمَّا يَا تَيْبُكُمْ» فَإِنْ يَأْتِكُمْ زَيْدٌ عَلَيْهِ مَا وَ نُونُ التَّأَكِيدِ لِلإِشَارَةِ إِلَى وَقُوعِ الشَّرْطِ كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ يَأْتِكُمْ مِنْى هَدَى- وَ هُوَ لَا مَحَالَةَ آتٍ- فَمَنْ اتَّبَعَ، الْخ.

وَ فِي قَوْلِهِ: «فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَاىَ» نَسَبَهُ الْإِتْبَاعَ إِلَى الْهَدَى عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِعَارَةِ بِالْكَنَايَةِ، وَ أَصْلُهُ: مَنْ اتَّبَعَ الْهَادِيَ الَّذِى يَهْدِى بِهَدَاىَ.

وَ قَوْلُهُ: «فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى» أَى لَا يَضِلُّ فِي طَرِيقِهِ وَ لَا يَشْقَى فِي غَايَتِهِ الَّتِى هِىَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ، وَ إِطْلَاقُ الضَّلَالِ وَ الشَّقَاءِ يَقْضِى بِنَفْسِ الضَّلَالِ وَ الشَّقَاءِ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ جَمِيعًا وَ هُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْهَدَى الْإِلَهِيَّ هُوَ الدِّينُ الْفَطْرِيَّ الَّذِى دَعَا إِلَيْهِ بِلِسَانِ أَنْبِيَائِهِ، وَ دِينُ الْفَطْرِ هُوَ مَجْمُوعُ الْإِعْتِقَادَاتِ وَ الْأَعْمَالِ الَّتِى تَدْعُو إِلَيْهَا فَطْرُهُ الْإِنْسَانِ وَ خَلْقَتُهُ بِحَسَبِ مَا جَهَّزَ بِهِ مِنَ الْجِهَازَاتِ، وَ الْمَعْلُومُ أَنَّ سَعَادَةَ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ مَا تَسْتَدْعِيهِ خَلْقَتُهُ بِمَا لَهَا مِنَ التَّجْهِيزِ لَا سَعَادَةَ لَهُ وَرَاءَهُ، قَالَ تَعَالَى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الرُّومُ ٣٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ الرَّاعِبُ: الْعَيْشُ الْحَيَاةُ الْمُخْتَصَمَةُ بِالْحَيَوَانَ وَ هُوَ أَخْصُ مِنَ الْحَيَاةِ لِأَنَّ الْحَيَاةَ يُقَالُ فِي الْحَيَوَانَ وَ فِي الْبَارِي تَعَالَى وَ فِي الْمَلِكِ وَ يَشْتَقُّ مِنْهُ الْمَعِيشَةُ لَمَّا يَتَعَيْشُ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: «نَحْنُ قَسِدٌ مِمَّا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» «مَعِيشَةٌ ضَنْكًا» أَنْتَهَى، وَ الضَّنْكَ هُوَ الضِّيْقُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ يَسْتَوِى فِيهِ الْمَذْكَرُ وَ الْمَوْثُ، يُقَالُ: مَكَانٌ ضَنْكٌَ وَ مَعِيشَةٌ ضَنْكٌَ وَ هُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ ضَنْكٌَ يَضْنُكَ مِنْ بَابِ شَرَفٍ يَشْرَفُ أَى ضَاقَ.

وَ قَوْلُهُ: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى يُقَابَلُ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَاىَ» وَ كَانَ مُقْتَضَى الْمَقَابَلَةِ أَنْ يُقَالَ: «وَ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ هُدَاىَ» وَ إِنَّمَا عَدَلَ عَنْهُ إِلَى ذِكْرِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الذِّكْرِ لِإِشِيرَةِ بِهِ إِلَى عِلَّةِ الْحُكْمِ لِأَنَّ نَسْيَانَهُ تَعَالَى وَ الْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِهِ هُوَ السَّبَبُ لَضَنْكَ

العيش و العمى يوم القيامة، و ليكون توطئه و تمهيدا لما سيدكر من نسيانه تعالى يوم القيامة من نسيه فى الدنيا.

و المراد بذكره تعالى إما المعنى المصدرى فقوله: «ذِكْرِي» من إضافه المصدر الى مفعوله أو القرآن أو مطلق الكتب السماويه كما يؤيده قوله الآتى: «أَتَتَّكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا» أو الدعوه الحقه و تسميتها ذكرا لأن لازم اتباعها و الأخذ بها ذكره تعالى.

و قوله: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً أى ضيقه و ذلك أن من نسى ربه و انقطع عن ذكره لم يبق له إلا أن يتعلق بالدنيا و جعلها مطلوبه الوحيد الذى يسعى له و يهتم بإصلاح معيشته و التوسع فيها و التمتع منها، و المعيشه التى أوتىها لا تسعه سواء كانت قليله أو كثيره لأنه كلما حصل منها و اقتناها لم يرض نفسه بها و انتزعت الى تحصيل ما هو أزيد و أوسع من غير أن يقف منها على حد فهو دائما فى ضيق صدر و حنق مما وجد متعلق القلب بما وراءه مع ما يهجم عليه من الهم و الغم و الحزن و القلب و الاضطراب و الخوف بنزول النوازل و عروض العوارض من موت و مرض و عاهه و حسد حاسد و كيد كائد و خيبه سعى و فراق حبيب.

و لو أنه عرف مقام ربه ذاكرا غير ناس أيقن أن له حياه عند ربه لا- يخالطها موت و ملكا لا يعتريه زوال و عزه لا يشوبها ذله و فرحا و سرورا و رفعه و كرامه لا تقدر بقدر و لا تنتهى الى أمد و أن الدنيا دار مجاز و ما حياتها فى الآخره إلا متاع فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قد عرف له من الدنيا و وسعه ما أوتيه من المعيشه من غير ضيق و ضنك.

و قيل: المراد بالمعيشه الضنك عذاب القبر و شقاء الحياه البرزخيه بناء على أن كثيرا من المعرضين عن ذكر الله ربما نالوا من المعيشه أوسعها و ألفت اليهم أمور الدنيا بأزمّتها فهم فى عيشه و سيعه سعيده.

و فيه أنه مبنى على مقايسه معيشه الغنى من معيشه الفقير بالنظر الى نفس المعيشتين و الإمكانيات التى فىهما و لا يتعلق نظر القرآن بهما من هذه الجبهه البتة، و إنما تبحث الآيات فىهما

بمقاييسه المعيشه المضافه الى المؤمن و هو مسلح بذكر الله و الإيمان به من المعيشه المضافه الى الكافر الناسى لربه المتعلق النفس بالحياه الدنيا الأ-عزل من الإيمان و لا-ريب أن للمؤمن حياه حره سعيده يسعه ما أكرمه ربه به من معيشه و إن كانت بالعفاف و الكفاف أو دون ذلك، و ليس للمعرض عن ذكر ربه إلا عدم الرضا بما وجد و التعلق بما وراءه.

نعم عذاب القبر من مصاديق المعيشه الضنك بناء على كون قوله: «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» متعرضا لبيان حالهم فى الدنيا و قوله: «وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» لبيان حالهم فى الآخره و البرزخ من أذنب الدنيا.

و قوله: «وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» أى بحيث لا يهتدى الى ما فيه سعاده و هو الجنه و الدليل على ذلك ما يأتى فى الآيتين التاليتين.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا» يسبق الى الذهن أن عمى يوم القيامه يتعلق ببصر الحس فإن الذى يسأل عنه هو ذهاب البصر الذى كان له فى الدنيا و هو بصر الحس دون بصر القلب الذى هو البصيره، فيشكل عليه ظاهر ما دل على أن المجرمين يبصرون يوم القيامه أهوال اليوم و آيات العظمه و القهر كقوله تعالى: «إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا» (الم السجده ١٢)، و قوله: «إِقرأُ كِتَابِيكَ» (الإسراء ١٤)، و لذلك ذكر بعضهم أنهم يحشرون أولا- مبصرين ثم يعمون، و بعضهم أنهم يحشرون مبصرين ثم عميا ثم مبصرين.

و هذا قياس أمور الآخره و أحوالها بما لها من نظير فى الدنيا و هو قياس مع الفارق فإن من الظاهر المسلّم من الكتاب و السنه أن النظام الحاكم فى الآخره غير النظام الحاكم فى الدنيا الذى نألفه من الطبيعه و كون البصير مبصرا لكل مبصر و الأعمى غير مدرك لكل ما من شأنه أن يرى كما هو المشهود فى النظام الدنيوى لا دليل على عمومه للنظام الاخرى فمن الجائز أن يتبعض الأمر هناك فيكون المجرم أعمى لا يبصر ما فيه سعاده حياته و فلاحه و فوزه

بالكرامه و هو يشاهد ما يتم به الحجه عليه و ما يفرعه من أهوال القيامة و ما يشتد به العذاب عليه من النار و غيرها، قال تعالى:
إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين: ١٥).

قوله تعالى: قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى الآيه جواب سؤال السائل: رب لم حشرتنى أعمى و قد كنت بصيرا؟ و الإشاره فى قوله: «كَذَلِكَ أَتَتْكَ» الى حشره أعمى المذكور فى السؤال، و فى قوله: «وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ» الى معنى قوله:

«أَتَيْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا» و لمعنى قال: كما حشرناك أعمى أتتك آياتنا فنسيتها و كما أتتك آياتنا فنسيتها نساك اليوم أى إن حشرك اليوم أعمى و تركك لا تبصر شيئا مثل تركك آياتنا فى الدنيا كما يترك الشىء المنسى و عدم اهتدائك بها مثل تركنا لك اليوم و عدم هدايتك بجعلك بصيرا تهتدى الى النجاه، و بعبارة أخرى إنما جازيناك فى هذا اليوم بمثل ما فعلت فى الدنيا كما قال تعالى: وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا (الشورى ٤٠).

و قد سمى الله سبحانه معصيه المجرمين و هم المعرضون عن ذكره التاركون لهواه نسيانا لآياته، و مجازاتهم بالإعلاء يوم القيامة نسيانا منه لهم و انعطف بذلك آخر الكلام الى أوله و هو معصيه آدم التى سماها نسيانا لعهد إذ قال: «وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى» فكان قصه جنه آدم بما لها من الخصوصيات كانت مثلا من قبل يمثل به ما سيجرى على بنيه من بعده الى يوم القيامة فيمثل بنهيه عن اقتراب الشجره الدعوه الدينيه و لهدى الإلهى بعده، و بمعصيته التى كانت نسيانا للعهد معاصى بنيه التى هى نسيان لذكره تعالى و آياته المذكرة، و إنما الفرق أن ابتلاء آدم كان قبل تشريع الشرائع فكان النهى المتوجه اليه إرشاديا و ما ابتلى به من المخالفه من قبيل ترك الاولى بخلاف الأمر فى بنيه (١).

ص: ٢١٦

١- (١). طه ١١٥-١٢٦: بحث روائى حول قصه آدم عليه السلام، بدء خلق الانسان، من يحشره الله يوم القيامة اعمى.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزُوقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَقَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِنَاهُمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَ لَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقَى الإسراف التجاوز عن الحد و الظاهر أن الواو في قوله: «وَ كَذَلِكَ» للاستيناف، و الإشارة الى ما تقدم من مؤاخذه من أعرض عن ذكر الله و نسي آيات ربه فإنه تجاوز منه عن حد العبودية و كفر آيات ربه فجزاؤه جزاء من نسي آيات ربه و تركها بعد ما عهد اليه معرضا عن ذكره.

و قوله: «وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقَى» أى من عذاب الدنيا و ذلك لكونه محيطا بباطن الإنسان كظاهرة و لكونه دائما لا يزول.

قوله تعالى: أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ السخ؛ الظاهر أن «يَهْدِ» مضمّن معنى يبين، و المعنى أ فلم يبين لهم طريق الاعتبار و الإيمان بالآيات كثره إهلاكنا القرون التى كانوا قبلهم و هم يمشون فى مساكنهم كما كانت تمر أهل مكة فى أسفارهم بمساكن عاد بأحقاف اليمن و مساكن ثمود و أصحاب الأيكة بالشام و مساكن قوم لوط بفلسطين «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى» أى أرباب العقول.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِكَانَ لِرِزَامًا وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى مَقْتَضَى السّياق السابق أن يكون «لِرِزَامًا» بمعنى الملازمه و هما مصدرا لازم يلازم، و المراد بالمصدر معنى اسم الفاعل و على هذا فاسم كان هو الضمير الراجع الى الهلاك المذكور فى الآيه السابقه، و أن قوله: «وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى» معطوف على «كَلِمَةٌ سَبَقَتْ» و التقدير و لو لا كلمه سبقت من ربك و أجل مسمى لكان الهلاك ملازما لهم إذ أسرفوا و لم يؤمنوا بآيات ربهم.

و قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ تكرر هذه الكلمه منه سبحانه فى حق بنى إسرائيل و غيرهم فى مواضع من كلامه كقوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ (يونس ١٩)/(هود ١١٠)/(حم السجده ٤٥)، وقد عاها بالأجل المسمى فى قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ (الشورى ١٤)، وقد تقدم فى تفسير سورتى يونس و هود أن المراد بها الكلمه التى قضى بها عند إهباط آدم الى الأرض بمثل قوله: وَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (الأعراف ٢٤).

فالناس آمنون من الهلاك و عذاب الاستئصال على إسرافهم و كفرهم ما بين استقرارهم فى الارض و أجلهم المسمى إلا أن يجيئهم رسول فيقضى بينهم، قال تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس ٤٧) و اليه يرجع عذاب الاستئصال عن الآيات المقترحه إذا لم يؤمن بها بعد ما جاءت و هذه الامه حالهم حال سائر الامم فى الأمن من عذاب الاستئصال بوعد سابق من الله، و أما القضاء بينهم و بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقد أخره الله الى أمد كما تقدم استفادته من قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ الْآيَه من سوره يونس.

و قوله: وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى قد تقدم فى تفسير أول سوره الأنعام أن الأجل المسمى هو الأجل المعين بالتسميه الذى لا يتخطا و لا يتخلف كما قال تعالى: مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (الحجر ٥)، و ذكر بعضهم أن المراد بالأجل المسمى يوم القيامة، و قال آخرون: إن الأجل المسمى هو الكلمه التى سبقت من الله فيكون عطف الأجل على الكلمه من عطف التفسير، و لا معول على القولين لعدم الدليل.

فمحصل معنى الآيه أنه لو لا أن الكلمه التى سبقت من ربك-و فى إضافه الرب الى ضمير الخطاب إغزاز و تأييد للنبى صلى الله عليه و آله و سلم-تقضى بتأخير عذبهم و الأجل المسمى يعين وقته فى ظرف التأخير لكان الهلاك ملازما لهم بمجرد الإسراف و الكفر.

و من هنا يظهر أن مجموع الكلمه التى سبقت و الأجل المسمى سبب واحد تام لتأخير العذاب عنهم لا أن كل واحد منهما سبب مستقل فى ذلك كما اختاره كثير منهم.

قوله تعالى: فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا؛ يَا مَرْءَ الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَيَفْرِعَهُ عَلَىٰ مَا تَقَدَّمُ كَأَنَّهُ قِيلَ: إِذَا كَانَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ أَنْ يُوخَّرَ عَذَابَهُمْ وَلَا يَعْجَلُهُمْ بِالْإِنْتِقَامِ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ فَلَا يَبْقَىٰ لَكَ إِلَّا أَنْ تَصْبِرَ رَاضِيًا عَلَىٰ مَا قَضَاهُ اللَّهُ مِنَ الْأَمْرِ وَتَنْزِهِهِ عَمَّا يَقُولُونَ مِنْ كَلِمَةِ الشَّرْكِ وَيُوجِّهُونَكَ بِهِ مِنَ السُّوءِ، وَتَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا تَوَاجَّهُ مِنْ آثَارِ قَضَائِهِ فَلَيْسَ إِلَّا الْجَمِيلُ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ.

وقوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» أى نزهه متلبسا بحمده و الثناء عليه فإن هذه الحوادث التى يشقّ تحملها و الصبر عليها لها نسبة الى فواعلها و ليست إلا سيئه يجب تنزيهه تعالى عنها و لها نسبة بالإذن اليه تعالى و هى بهذه النسبه جميله لا يترتب عليها إلا مصالح عامه يصلح بها النظام الكونى ينبغى أن يحمد الله و يشنى عليه بها.

و قوله: «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» ظرفان متعلقان بقوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» .

و قوله: «وَمِنْ أَدْنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ الْجَمْلَةَ نَظِيرَهُ قَوْلُهُ: وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونَ (البقره ٤٠)»، و الأثناء على أفعال جمع إنى أو إنو بكسر الهمزة بمعنى الوقت و «مِنْ» للتبعيض و الجار و المجرور متعلق بقوله: «فَسَبِّحْ» دال على ظرف فى معناه متعلق بالفعل و التقدير و بعض آناء الليل سبح فيها.

و قوله: «وَأَطْرَافَ النَّهَارِ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ عَلَىٰ مَا ذَكَرُوا مَعْطُوفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ:

«وَمِنْ أَدْنَاءِ» و التقدير و سبح فى أطراف النهار، و هل المراد بأطراف النهار ما قبل طلوع الشمس و ما قبل غروبها، أو غير ذلك؟ اختلفت فيه كلمات المفسرين و سنشير اليه.

و قوله: «لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ» السياق السابق و قد ذكر فيه إعراضهم عن ذكر ربهم و نسيانهم آياته و إسرافهم فى أمرهم و عدم إيمانهم ثم ذكر تأخير الانتقام منهم و أمره بالصبر و التسبيح و التحميد يقضى أن يكون المراد بالرضا الرضا بقضاء الله و قدره، و المعنى: فاصبر

و سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ لِيَحْصَلَ لَكَ الرِّضَا بِمَا قَضَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ فَيَعُودَ إِلَى مِثْلِ مَعْنَى قَوْلِهِ:

«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ».

و الوجه فيه أن تكرار ذكره تعالى بتنزيه فعله عن النقص و الشين و ذكره بالثناء الجميل و المداومه على ذلك يوجب أنس النفس به و زيادته و زياده الانس بجمال فعله و نزاهته توجب رسوخه فيها و ظهوره في نظرها و زوال الخطورات المشوشه للإدراك و الفكر، و النفس مجبولة على الرضا بما تحبه و لا تحب غير الجميل المنزه عن القبح و الشين فإدامه ذكره بالتسبيح و التحميد تورث الرضا بقضائه.

قوله تعالى: «وَلَا تَمِدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ السَّخِّ؛ مد العين مد نظرها و إطالته ففيه مجاز عقلي ثم مد النظر و إطالته الى شيء كناية عن التعلق به و حبه، و المراد بالأزواج - كما قيل - الأصناف من الكفار أو الأزواج من النساء و الرجال منهم و يرجع الى البيوتات و تنكير الأزواج للتقليل و إظهار أنهم لا يعبا بهم.

و قوله: «زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» بمنزل التفسير لقوله: «مَا مَتَّعْنَا بِهِ» و هو منصوب بفعل مقدر و التقدير نعنى به - أو جعلنا لهم - زهره الحياه الدنيا و هى زينتها و بهجتها، و الفتنة الامتحان و الاختبار، و قيل: المراد بها العذاب لأن كثره الأموال و الأولاد نوع عذاب من الله كما قال:

«وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (التوبه ٨٥)».

و قوله: «وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى» المراد به بقرينه مقابله لما متعوا به من زهره الحياه الدنيا هو رزق الآخرة و هو خير و أبقى.

و المعنى: لا تطل النظر الى زينه الحياه الدنيا و بهجتها التى متعنا بها أصنافا أو أزواجا معدوده منهم لمتحنهم فيما متعنا به، و الذى سيرزقك ربك فى الآخرة خير و أبقى.

قوله تعالى: وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْيَاطِرُّ عَلَيْهَا لَا نَسِيئُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزُوقُكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى الْآيَةَ ذات سياق يلتئم بسياق سائر آيات السورة فهي مكيه كسائرهما على أَنَا لم نظفر بمن يستثنيها و يعدّها مدنيه، و على هذا فالمراد بقوله: «أَهْلَكَ» بحسب انطباقه على وقت النزول خديجه زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و على عليه السَّلام و كان من أهله و فى بيته أو هما و بعض بنات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم.

و قوله: «لَا نَسِيئُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزُوقُكَ» ظاهر المقابله بين الجملتين أن المراد سؤال تعالى الرزق لنفسه و هو كناية عن أَنَا فى غنى منك و أنت المحتاج المفتقر الينا فيكون فى معنى قوله:

وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْبِائِسَ إِلَّا لِيُعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (الذاريات ٥٦-٥٨)، و أيضا هو من جهه تذييله بقوله:

«وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» فى معنى قوله: لَنْ يَدَّالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَ لَا دِمَائُهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ (الحج ٣٧)، بتفسيرهم سؤال الرزق بسؤال الرزق للخلق أو لنفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم ليس بسديد.

قوله تعالى: وَ قَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى حكاية قول مشركى مكه و إنما قالوا هذا تعريضا للقرآن أنه ليس بآيه دالّة على النبوه فليأتنا بآيه كل أرسل الأولون و البيئته الشاهد المبين أو البيئتين و قيل هو البيان.

و كيف كان فقولهم: «لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ» تحضيض بداعى إهانته القرآن و تعجيز النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم باقتراح آيه معجزه اخرى، و قوله: «أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ» السخ؛ جواب عنه و معناه على الوجه الأول من معنى البيئته: أ و لم تأتتهم بينه و شاهد يشهد على ما فى الصحف الاولى - و هى التوراه و الإنجيل و سائر الكتب السماويه - من حقائق المعارف و الشرائع و بيئتها و هو القرآن و قد أتى به رجل لا عهد له بمعلم يعلمه و لا ملقن يلقنه ذلك.

و على الوجه الثانى: أ و لم تأتتهم بيان ما فى الصحف الاولى من أخبار الامم الماضين الذين

اقترحوا على أنبيائهم الآيات المعجزة فأتوا بها و كان إتيانها سببا لهلاكهم و استئصالهم لما لم يؤمنوا بها بعد إذ جاءتهم فلم لا ينتهون عن اقتراح آيه بعد القرآن؟ و لكل من المعنيين نظير فى كلامه تعالى.

قوله تعالى: «لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبَعِ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزَى الظاهر أن ضمير «مِن قَبْلِهِ» للبينه-فى الآيه السابقه-باعتبار أنها القرآن، و المعنى لا و لو أننا أهلكتناهم لإسرافهم و كفرهم بعذاب من قبل أن تأتيتهم البينه لم تتم عليهم الحججه و لكانت الحججه لهم علينا و لقالوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فتتبع آياتك و هى التى تدلّ عليها البينه من قبل أن نذلّ بعذاب الاستئصال و نخزى.

و قيل الضمير للرسول المعلوم من مضمون الآيه السابقه بشهادته قولهم: «لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا» و هو قريب من جهه اللفظ و المعنى الأول من جهه المعنى و يؤيده قوله: «فَتَتَّبَعِ آيَاتِكَ» و لم يقل: فتتبع رسولك.

قوله تعالى: «قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَيَتَّعَلَّمُونَ مِمَّنْ أَضِيَ حَابُّ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدَى التَّرَبُّصُ الانتظار، و الصراط السوى الطريق المستقيم، و قوله:

«كُلُّ مُتَرَبِّصٍ» أى كل منا و منكم متربص منتظر فنحن ننتظر ما وعده الله لنا فيكم و فى تقدم دينه و تمام نوره و أنتم تنتظرون بنا الدوائر لتبطلوا الدعوه الحقه و كل منا و منكم يسلك سبيلا الى مطلوبه فتربصوا و انتظروا و فيه تهديد فستعلمون أى طائفه منا و منكم أصحاب الطريق المستقيم الذى يوصله الى مطلوبه و من الذين اهدوا الى المطلوب و فيه ملحمه و إخبار بالفتح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَقَدْ تَقَرَّبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُخْبِرًا إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَيِّنًا قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِالْبَيِّنَاتِ كَمَا أَرْسَلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَوْمِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ مَا أَتْرَقْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)

غرض السوره الكلام حول النبوه بانيا ذلك على التوحيد و المعاد فتفتتح بذكر اقتراب الحساب و غفله الناس عن ذلك و
إعراضهم عن الدعوه الحقه التى تتضمن الوحي السماوى فهى ملاك حساب يوم الحساب و تنتقل من هناك الى موضوع النبوه
و استهزاء الناب بنبوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و رميهم إياه بأنه بشر ساحر بل ما أتى به أضغاث أحلام بل مفتر بل
شاعر! ترد ذلك بذكر أوصاف الأنبياء الماضين الكليه إجمالاً و أن النبى لا يفقد شيئاً مما وجدوه و لا ما جاء به يغير شيئاً مما
جاءوا به.

ثم تذكر قصص جماعه من الأنبياء تأييدا لما تقدم من الإجمال و هم موسى و هارون و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و لوط و نوح و داود و سليمان و أيوب و إسماعيل و إدريس و ذو الكفل و ذو النون و زكريا و يحيى و عيسى.

ثم تتخلص الى ذكر يوم الحساب و ما يلقاه المجرمون و المتقون فيه، و أن العاقبه للمتقين و أن الأرض يرثها عباده الصالحون ثم تذكر أن إعراضهم عن النبوه إنما هو لإعراضهم عن التوحيد فتقيم الحجه على ذلك كما تقيمها على النبوه و الغلبه فى السوره للوعيد على الوعد و للإنداز على التبشير. و السوره مكيه بلا خلاف فيها و سياق آياتها يشهد بذلك.

قوله تعالى: **اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** الاقتراب افتعال من القرب و اقترب و قرب بمعنى واحد غير أن اقترب أبلغ لزياده بنائه و يدل على مزيد عنايه بالقرب، و يتعدى القرب و الاقتراب بمن و إلى يقال: قرب أو اقترب زيد من عمرو أو إلى عمرو و الأول يدل على أخذ نسبه القرب من عمرو و الثانى على أخذها من زيد لأن الأصل فى معنى من ابتداء الغايه كما أن الأصل فى معنى الى انتهاؤها.

و من هنا يظهر أن اللام فى «لِلنَّاسِ» بمعنى إلى لا- بمعنى «من» لأن المناسب للمقام أخذ نسبه الاقتراب من جانب الحساب لأنه الذى يطلب الناس بالاقتراب منهم و الناس فى غفله معرضون.

و المراد بالحساب- هو محاسبه الله سبحانه أعمالهم يوم القيامه- نفس الحساب لا زمانه بنحو التجوز أو بتقدير الزمان و إن أصر بعضهم عليه و وجهه بعض آخر بأن الزمان هو الأصل فى القرب و البعد و إنما ينسب القرب و البعد إلى الحوادث الواقعه فيه بتوسطه.

و ذلك لأن الغرض فى المقام متعلق بتذكرة نفس الحساب لتعلقه بأعمال الناس إذ كانوا مسئولين عن أعمالهم فكان من الواجب فى الحكمة أن ينزل عليهم ذكر من ربهم ينبههم على ما فيه مسئوليتهم، و من الواجب عليهم أن يستمعوا له مجدين غير لاعبين و لا لاهيه قلوبهم نعم

لو كان الكلام مسوقا لبيان أهوال الساعه و ما أعدّ من العذاب للمجرمين كان الأنسب التعبير بيوم الحساب أو تقدير الزمان و نحو ذلك.

و المراد بالناس الجنس و هو المجتمع البشرى الذى كان أكثرهم مشركين يومئذ لا-المشركون خاصه و إن كان ما ذكر من أوصافهم كالغفله و الإعراض و الاستهزاء و غيرها أوصاف المشركين فليس ذلك من نسبه حكم البعض الى الكل مجازا بل من نسبه حكم المجتمع الى نفسه حقيقه ثم استثناء البعض الذى لا يتصف بالحكم كما يلوح اليه أمثال قوله:

«وَ أَسِرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» و قوله: «فَأَنْجِيْنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ» على ما هو دأب القرآن فى خطاباتة الاجتماعيه من نسبه الحكم الى المجتمع ثم استثناء الأفراد غير المتصفه به.

و بالجمله فرق بين أخذ المجتمع موضوعا للحكم و استثناء أفراد منه غير متصفه به و بين أخذ أكثر الأفراد موضوع الحكم ثم نسبه حكمه الى الكل مجازا و ما نحن فيه من القبيل الأول دون الثانى.

و قوله: «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ» ذلك أنهم تعلقوا بالدنيا و اشتغلوا بالتمتع فامتأمت قلوبهم من حجبها فلم يبق فيها فراغ يقع فيها ذكر الحساب و قوعا تتأثر به حتى أنهم لو ذكروا لم يذكروا و هو الغفله فإن الشىء كما يكون مغفولا عنه لعدم تصوّره من أصله قد يكون مغفولا عنه لعدم تصوّره كما هو حقه بحيث تتأثر النفس به.

قوله تعالى: «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجْدِبٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ لَأَهَبَهُ قُلُوبُهُمْ الْآيَةَ بِمَنْزِلِهِ التعليل لقوله: «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ» إذ لو لم يكونوا فى غفله معرضين لم يلعبوا و لم يتلّوها عند استماع الذكر الذى لا ينبههم إلا على ما يهمهم التنبيه له و يجب عليهم التهيؤ له، و لذلك جىء بالفصل من غير عطف.

و المراد بالذكر ما يذكر به الله سبحانه من وحي إلهى كالكتب السماويه و منها القرآن الكريم، و المراد بإتيانه لهم نزوله على النبى و إسماعه و تبليغه، و محدث بمعنى جديد و هو معنى إضافى و هو

وصف ذكر فالقرآن مثلا- ذكر جديد أتاهم بعد الإنجيل و الإنجيل كان ذكرا جديدا أتاهم بعد التوراه و كذلك بعض سور القرآن و آياته ذكر جديد أتاهم بعد بعض.

و قوله: **إِلَّا اسْتَمَعُوهُ** استثناء مفرغ عن جميع أحوالهم و «**اسْتَمَعُوهُ**» حال و «**هُمْ يَلْعَبُونَ**» **لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**» حالان من ضمير الجمع في «**اسْتَمَعُوهُ**» فهما حالان متداخلتان.

و اللعب فعل منتظم الأجزاء لا غايه له إلا الخيال كلعب الأطفال و اللهو اشتغالك عما يهملك يقال: ألها كذا أى شغله عما يهمله و لذلك تسمى آلات الطرب آلات اللهو و ملاهى، و اللهو من صفه القلب و لذلك قال: «**لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**» فنسبه الى قلوبهم.

و معنى الآية: و ما يأتيهم-بالنزول و البلوغ-ذكر جديد من ربهم فى حال من الأحوال !:

و الحال أنهم لا-عبون لاهيه قلوبهم فاستمعوه فيها أى إن إحداث الذكر و تجديده لا يؤثر فيهم و لا أثرا قليلا و لا يمنعهم عن الاشتغال بلعب الدنيا عما وراءها و هذا كناية عن أن الذكر لا يؤثر فيهم فى حال لا أن جديده لا يؤثر و قديمه يؤثر و هو ظاهر.

و استدلال بظاهر الآية على كون القرآن محدثا غير قديم، و أولها الأشاعره بأن توصيف الذكر بالمحدث من جهة نزوله و هو لا ينافى قدمه فى نفسه و ظاهر الآية عليهم و للكلام تتمه نوردها فى بحث مستقل (1).

قوله تعالى: **وَ اسْرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ** **أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** الإسرار يقابل الإعلان فإسرار القول يفيد وحده معنى النجوى فإضافته الى النجوى تفيد المبالغه.

و ضمير الفاعل فى «**أَسْرُّوا النَّجْوَى**» راجع الى الناس غير أنه لما لم يكن الفعل فعلا لجميعهم و لا لأكثرهم فإن فيهم المستضعف و من لا شغل له به و إن كان منسوبا الى الكل من

ص: ٢٢٨

جبهه ما فى مجتمعهم من الغفله و الإعراض أوضح النسبه بقوله: «الَّذِينَ ظَلَمُوا» فهو عطف بيان دل به على أن النجوى إنما كان من الذين ظلموا منهم خاصه.

و قوله: «هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» هو الذى تناجوا به، و قد كانوا يصرحون بتكذيب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و يعلنون بأنه بشر و أن القرآن سحر من غير أن يخفوا شيئاً من ذلك لكنهم إنما أسروا فى نجواهم إذ كان ذلك منهم شورى يستشير بعضهم فيه بعضاً ما ذا يقابلون به النبى صلى الله عليه و آله و سلم و يجيبون عما يسألهم من الإيمان بالله و برسالته؟فما كان يسعهم إلا كتمان ما يذكر فيما بينهم و إن كانوا أعلنوا به بعد الاتفاق على رد الدعوه.

و قد اشتمل نجواهم على قولين قطعوا عليهما أوردوهما بطريق الاستفهام الإنكارى و هما قوله: «هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» و قد اتخذوه حجه لإبطال نبوته و هو أنه كما تشاهدونه-و قد أتوا باسم الإشاره دون الضمير فقالوا:هل هذا؟و لم يقولوا:هل هو؟للدلاله على العلم به بالمشاهده-بشر مثلكم لا يفارقكم فى شىء يختص به فلو كان ما يدّعيه من الاتصال بالغيب و الارتباط باللاهوت حقاً لكان عندكم مثله لأنكم بشر مثله،فإذ ليس عندكم من ذلك نبأ فهو مثلكم لا خير عنده فليس بنى كما يدّعى.

و قولهم: «أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» و هو تفرع بفاء التفریع على نفى النبوه بإثبات البشریه فيرجع المعنى الى أنه لما لم يكن نبيا متصلاً بالغيب فالذى أتاكم به مدّعياً أنه آية النبوه ليس بآيه معجزه من الله بل سحر تعجزون عن مثله،و لا ينبغى لذى بصر سليم أن يدّعن بالسحر و يؤمن بالساحر.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أَى إنه تعالى محيط علماً بكل قول سرا أو جهراً و فى أى مكان و هو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم فالأمر اليه و ليس لى من الأمر شىء.

و الآيه حكاية قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم لهم لما أسروا النجوى و قطعوا على تكذيب نبوته و رمى

بشيء مما اقترحوه من آيات الأولين.

و محصل المعنى على ما يعطيه السياق أنهم كاذبون في وعدهم و لو أنزلنا شيئاً مما اقترحوه من آيات الأولين لم يؤمنوا بها و كان فيها هلاكهم فإن الأولين من أهل القرى اقترحوها فأنزلناها فلم يؤمنوا بها فأهلكناهم، و طباع هؤلاء طباع أوليهم فى الإسراف و الاستكبار فليسوا بمؤمنين فالآيه بوجه مثل قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يونس / ٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جواب عما احتجوا به على نفي نبوته صلى الله عليه و آله و سلم بقولهم: «هل هذا إلا بشرٌ مثلكم» بأن الماضين من الأنبياء لم يكونوا إلا رجلاً من البشر فالبشرية لا تنافي النبوه.

و توصيف «رجالاً» بقوله: «نوحى إليهم» للإشارة الى الفرق بين الأنبياء و غيرهم و محصله أن الفرق الوحيد بين النبي و غيره هو أننا نوحى الى الأنبياء دون غيرهم و الوحي موهبه و من خاص لا يجب أن يعم كل بشر فيكون إذا تحقق تحقق فى الجميع و إذا لم يوجد فى واحد لم يوجد فى الجميع حتى تحكموا بعدم وجدانه عندكم على عدم وجوده عند النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك كسائر الصفات الخاصه التى لا توجد إلا فى الواحد بعد الواحد من البشر ما لا سبيل الى إنكارها.

و قوله: ﴿فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تأييد و تحكيم لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أى إن كنتم تعلمون به فهو و إن لم تعلموا فارجعوا الى أهل الذكر و اسألوهم هل كانت الأنبياء الأولون إلا رجلاً من البشر؟.

و المراد بالذكر الكتاب السماوى و بأهل الذكر أهل الكتاب فإنهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و كان المشركون يعظموهم و ربما شاوروهم فى أمره و سألوهم عن مسائل يمتحنونه بها و هم القائلون للمشركين على المسلمين هؤلاء أهدى من الذين آمنوا

سَيِّئًا (النساء ٥١/)، و الخطاب فى قوله: «فَسِدُّوا» الخ؛ للنبى صلى الله عليه وآله وسلم و كل من يقرع سمعه هذا الخطاب عالما كان أو جاهلا و ذلك لتأييد القول و هو شائع فى الكلام.

قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ - الى قوله- الْمُسْرِفِينَ أى هم رجال من البشر و ما سلبنا عنهم خواص البشرىه بأن نجعلهم جسدا خاليا من روح الحياه لا يأكل و لا يشرب و لا عصمناهم من الموت فيكونوا خالدين بل هم بشر ممن خلق يأكلون الطعام و هو خاصه ضروريه و يموتون و هو مثل الأكل.

قوله تعالى: ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ عطف على قوله المتقدم: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا» و فيه بيان عاقبه إرسالهم و ما انتهى اليه أمر المسرفين من أممهم المقترحين عليهم الآيات، و فيه أيضا توضيح ما أشير اليه من هلاكهم فى قوله: «مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا» و تهديد للمشركين.

و المراد بالوعد فى قوله: «ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ» ما وعدهم من النصره لدينهم و إعلاء كلمتهم كلمه الحق كما فى قوله: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (الصافات ١٧٣/)، الى غير ذلك من الآيات.

و قوله: «فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءُ» أى الرسل و المؤمنين و قد وعدهم النجاه كما تدلّ عليه قوله: حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (يونس ١٠٣/)، و المسرفون هم المشركون المتعدّون طور العبوديه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ امتنان منه تعالى بإنزال القرآن على هذه الامه، فالمراد بذكرهم الذكر المختص بهم اللائق بحالهم و هو آخر ما تسعه حوصله الإنسان من المعارف الحقيقيه العالیه و أقوم ما يمكن أن يجرى فى المجتمع البشرى من الشريعه الحنيفيه و الخطاب لجميع الامه.

قوله تعالى: وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً إِلَى آخِرِ آيَاتِ الْخَمْسِ،

القسم فى الأصل الكسر، يقال: قسم ظهره أى كسره، ويكنى به عن الهلاك، والإنشاء الإيجاد، والإحساس الإدراك من طريق الحس، والبأس العذاب، والركض العدو بشده الوطء، والإتراف التوسعه فى النعمه، والحصيد المقطوع و منه حصاد الزرع، والخمود السكون و السكوت.

و المعنى «و كَمَّ قَصِيْمًا» و أهلكننا «مِنْ قَزِيْيِهِ» أى أهلها «كَانَتْ ظَالِمَةً» لنفسها بالإسراف و الكفر «وَأَنْشَأْنَا» و أوجدنا «قَوْمًا آخِرِينَ فَلَمَّا أَحْسُوا» و وجدوا بالحس أى أهل القرية الظالمه «بَأْسِنَا» و عذابنا «إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ» و يعدون هاربين كالمنهزمين فيقال لهم توبيخا و تقريعا: «لَا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ» من النعم «وَمَا سَاكِنِكُمْ» و الى مساكنكم «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أى لعل المساكين و أرباب الحوائج يهجمون عليكم بالسؤال فتستكبروا عليهم و تختالوا أو تحتجبوا عنهم و هذا كناية عن اعتزازهم و استعلائهم و عد المتبوعين أنفسهم أربابا للتابعين من دون الله.

«قَالُوا» تندما «يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ» و هى كلمتهم يا ويلنا المشتمله على الاعتراف بربوبيته تعالى و ظلم أنفسهم «دَعَاؤُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاَهُمْ حَصِيدًا» محصودا مقطوعا «خَامِدِينَ» ساكنين ساكتين كما تخمد النار لا يسمع لهم صوت و لا يذكر لهم صيت.

[سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١٦ الى ٣٣]

إشارة

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَاتَّخِذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فِيهِ دَمْعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرِكُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعْنَىٰ وَ ذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَوْ لِمَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَ جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سِيلًا لَعَلَّهُمْ يَرْهَتُونَ (٣١) وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَافًا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ الْآيَاتَانِ توجهاً
نزول العذاب على القرى الظالمه التي ذكر الله سبحانه قصمها، و هما بعينهما-على ما يعطيه السياق السابق- حجه برهانيه على
ثبوت المعاد ثم فى ضوءه النبوه و هى الغرض الأصيل من سرد الكلام فى السوره.

فمحصل ما تقدم-أن هناك معادا سيحاسب فيه أعمال الناس فمن الواجب أن يميزوا بين الخير و الشر و صالح الأعمال و طالحها
بهدايه إلهيه و هى الدعوه الحلقه المعتمده على النبوه و لو لا- ذلك لكانت الخلقه عبثا و كان الله سبحانه لاعبا لاهيا بها تعالى
عن ذلك.

فمقام الآيتين-كما ترى-مقام الاحتجاج على حقيقه المعاد لتثبت بها حقيقه دعوه النبوه لأن دعوه النبوه-على هذا-من مقتضيات
المعاد من غير عكس.

و حجه الآيتين-كما ترى-تعتمد على معنى اللعب و اللهو و اللعب هو الفعل المنتظم الذى له غايه خياليه غير واقعيه كملاعب
الصبيان التى لا أثر لها إلا مفاهيم خياليه من تقدم و تأخر و ربح و خساره و نفع و ضرر كلها بحسب الفرض و التوهم و إذ كان
اللعب بما تنجذب النفس

اليه يصرفها عن الأعمال الواقعيه فهو من مصاديق اللهو هذا.

فلو كان خلق العالم المشهود لا لغايه يتوجه إليها و يقصد لأجلها و كان الله سبحانه لا يزال يوجد و يعدم و يحيى و يميت و يعمر و يخرب لا- لغايه تترتب على هذه الأفعال و لا- لغرض يعمل لأجله ما يعمل بل إنما يفعلها لأجل نفسها و يريد أن يراها واحدا بعد واحد فيشتغل بها دفعا لضجر أو ملل أو كسل أو فرارا من الوحده أو انطلاقا من الخلوه كحالتنا نحن إذا اشتغلنا بعمل نلعب به و نتلهى لنُدفع به نقضا طراً علينا و عارضه سوء لا نستطيعها لأنفسنا من ملال أو كلال أو كسل أو فشل و نحو ذلك.

فاللعب بنظر آخر لهو، و لذلك نراه سبحانه عبر في الآيه الاولى باللعب «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعِينٍ» ثم بدله- في الآيه الثانيه التي هي في مقام التعليل لها- لهوا فوضع اللهو مكان اللعب لتتم الحججه.

و تلهيه تعالى بشيء من خلقه محال لأن اللهو لا يتم لهوا إلا برفع حاجه من حوائج اللاهى و دفع نقيصه من نقائصه نفسه فهو من الأسباب المؤثره، و لا معنى لتأثير خلقه تعالى فيه و احتياجه الى ما هو محتاج من كل جهه اليه فلو فرض تلهيه تعالى بلهو لم يجوز أن يكون أمرا خارجا من نفسه، و خلقه فعله، و فعله خارج من نفسه، بل و جب أن يكون بأمر غير خارج من ذاته.

و بهذا يتم البرهان على أن الله ما خلق السماء و الارض و ما بينهما لعبا و لهوا و ما أبدعها عبثا و لغير غايه و غرض،

و هو قوله: «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَا مِنْ لَدُنَّا» .

و أما اللهو بأمر غير خارج عن ذاته فهو و إن كان محالا في نفسه لاستلزامه حاجه في ذاته الى ما يشغله و يصرفه عما يجده في نفسه فيكون ذاته مركبه من حاجه حقيقيه متقررره فيها و أمر رافع لتلك الحاجه، و لا- سبيل للنقص و الحاجه الى ذاته المتعاليه لكن البرهان لا يتوقف عليه لأنه في مقام بيان أن لا لعب و لا لهو في فعله تعالى و هو خلقه، و أما أنه لا لعب و لا لهو في

ذاته تعالى فهو خارج عن غرض المقام و إنما أشير الى نفى هذا الاحتمال بالتعبير بلفظه «لَوْ» الدالّ على الامتناع ثم أكده بقوله: «إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ» فافهم ذلك.

و بهذا البيان يظهر أن قوله: «لَوْ أَرَدْنَا» الخ؛ في مقام التعليل للنفي في قوله: «وَمَا خَلَقْنَا» الخ؛ و أن قوله: «مِنْ لَدُنَّا» معناه من نفسنا، و في مرحلة الذات دون مرحلة الخلق الذى هو فعلنا الخارج من ذاتنا، و أن قوله: «إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ» إشاره استقلاليه الى ما يدل عليه لفظه «لَوْ» فى ضمن الجملة فيكون نوعا من التأكيد.

و بهذا البيان يتم البرهان على المعاد ثم النبوه و يتصل الكلام بالسياق المتقدم و محصله أن للناس رجوعا الى الله و حسابا على أعمالهم ليحجزوا عليها ثوابا و عقابا فمن الواجب أن يكون هناك نبوه و دعوه ليدلّوا بها الى ما يجازون عليه من الاعتقاد و العمل فالمعاد هو الغرض من الخلقه الموجب للنبوه و لو لم يكن معاد لم يكن للخلق غرض و غايه فكانت الخلقه لعبا و لهوا منه تعالى و هو غير جائز، و لو جاز عليه اتخاذ اللهو لوجب أن يكون بأمر غير خارج من نفسه لا بالخلق الذى هو فعل من ذاته لأن من المحال أن يؤثر غيره فيه و يحتاج الى غيره بوجه و إذ لم يكن الخلق لعبا فهناك غايه و هو المعاد و يستلزم ذلك النبوه و من لوازمه أيضا نكال بعض الظالمين إذا ما طغوا و أسرفوا و توقف عليه إحياء الحق كما يشير اليه قوله بعد: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» .

و قوله: «إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ» الظاهر أن «أَنْ» شرطيه كما تقدمت الإشارة اليه، و على هذا فجزاؤه محذوف يدل عليه قوله: «لَا تَخَذَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا» ، و قال بعضهم: إن «أَنْ» نافية و الجملة نتيجة البيان السابق، و عن بعضهم أن إن النافية لا تفارق غالبا اللام الفارقة، و قد ظهر مما تقدم من معنى الآيه أن كون إن شرطيه أبلغ بحسب المقام من كونها نافية.

قوله تعالى: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» وَ لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ الْقَذْفَ الرمى البعيد، و الدمغ -على ما فى مجمع البيان- شجّ الرأس

حتى يبلغ الدماغ، يقال: دماغه يدماغه إذا أصاب دماغه، و زهوق النفس تلفها و هلاكها، يقال:

زهق الشيء يزهب أي هلك.

و الحق و الباطل مفهومان متقابلان، فالحق هو الثابت العين، و الباطل ما ليس له عين ثابتة لكنه يتشبه بالحق تشبهاً فيظن أنه هو حتى إذا تعارضوا بقي الحق و زهب الباطل كالماء الذي هو حقيقته من الحقائق، و السراب الذي ليس بالماء حقيقته لكنه يتشبه به في نظر الناظر فيحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

و المعنى: ما خلقنا العالم لعب أو لم نرد اتخاذ اللهو بل سئنا أن نرمى بالحق على الباطل رمياً بعيداً فيهلكه فيفاجئه الذهاب و التلف، فإن كان الباطل حجه أو عقيدته فحجه الحق تبطلها، و إن كان عملاً و سنه كما في القرى المسرفه الظالمه فالعذاب المستأصل يستأصله و يبطله، و إن كان غير ذلك فغير ذلك.

و قوله: «و لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» و عيد للناس المنكرين للمعاد و النبوه على ما تقدم من توضيح مقتضى السياق.

و يظهر من الآيه حقيقه الرجوع الى الله تعالى و هو أنه تعالى لا يزال يقذف بالحق على الباطل فيحق الحق و يخلصه من الباطل الذي يشوبه أو يستره حتى لا يبقى إلا الحق المحض و هو الله الحق عز اسمه قال: «و يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور ٢٥)»، فيسقط يومئذ ما كان يظن للأسباب من استقلال التأثير و يزعم لغيره من القوه و الملك و الأمر كما قال: «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مِمَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤)»، و قال: «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (البقره ١٦٥)»، و قال: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦)»، و قال: «و الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩)»، و الآيات المشيره الى هذا المعنى كثيره.

قوله تعالى: «و لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ دَفْعَ الْأَحْتِمَالَاتِ الْمَنَافِيهِ لِلْمَعَادِ فِي الْجَمَلِ وَ هُوَ أَنْ لَا يَتَسَلَطَ سَبْحَانَهُ عَلَى بَعْضٍ أَوْ كُلِّ النَّاسِ فَيَنْحُو مِنْ لَا يَمْلِكُهُ مِنْ

الرجوع اليه و الحساب و الجزاء فاجيب بأن ملكه تعالى عام شامل لجميع من فى السماوات و الأرض فله أن يتصرف فيها أى تصرف أراد.

و من المعلوم أن هذا الملك حقيقى من لوازم الإيجاد بمعنى قيام الشىء بسببه الموجد له بحيث لا- يعصيه فى أى تصرف تصرف فيه، و الإيجاد يختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه غيره حتى عند الوثنيين المثبتين لآلهه اخرى للتدبير و العباده فكل من فى السماوات و الأرض مملوك لله لا مالك غيره.

قوله تعالى: **وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ** الى آخر الآيه التالیه، قال فى مجمع البيان: الاستحسار الانقطاع عن الإعياء يقال: بعير حسير أى معى، و أصله من قولهم: حسر عن ذراعيه، فالمعنى أنه كشف قوته بإعياء. انتهى.

و المراد بقوله: **«وَمَنْ عِنْدَهُ»** المخصوصون بموهبه القرب و الحضور و ربما انطبق على الملائكه المقربين، و قوله: **«يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ»** بمنزله التفسير لقوله: **«وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ»** أى لا يأخذهم عى و كلال بل يسبحون الليل و النهار من غير فتور، و التسبيح بالليل و النهار كناية عن دوام التسبيح من غير انقطاع.

يصف تعالى حال المقربين من عباده و المكرمين من ملائكته أنه مستغرقون فى عبوديته مكبون على عبادته لا يشغلهم عن ذلك شاغل و لا يصرفهم صارف، و كأن الكلام مسوق لبيان خصوصيه مالكيته و سلطنته المذكوره فى صدر الآيه.

قوله تعالى: **أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ** الإنشاز إحياء الموتى فالمراد به المعاد، و فى الآيه دفع احتمال آخر ينافى المعاد و الحساب المذكور سابقا و هو الرجوع الى الله بأن يقال: إن هناك آلهه أخرى دون الله يعثون الأموات و يحاسبونهم و ليس لله سبحانه من أمر المعاد شىء حتى نخافه و نضطر الى إجابته رسله و اتباعهم فى دعوتهم بل نعبدهم و لا جناح.

و تقييد قوله: «أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً» بقوله: «مِنَ الْأَرْضِ» قيل: ليشير به الى أنهم إذا كانوا من الأرض كان حكمهم حكم عامه أهل الأرض من الموت ثم البعث فمن الذى يميئتهم ثم يبعثهم؟.

ويمكن أن يكون المراد اتخاذ آلهه من جنس الأرض كالأصنام المتخذة من الحجارة والخشب والفلزات فيكون فيه نوع من التهكم والتحقير و يؤول المعنى الى أن الملائكة الذين هم الآلهه عندهم إذا كانوا من عباده تعالى و عباده و انقطع هؤلاء عنهم و يسوا من ألوهيتهم ليلتجئوا اليهم فى أمر المعاد فهل يتخذون أصنامهم و تماثيلهم آلهه من دون الله مكان أرباب الأصنام و التماثيل.

قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ قد تقدم فى تفسير سوره هود و تكررت الإشارة اليه بعده أن النزاع بين الوثنيين و الموحدين ليس فى وحده الإله و كثرته بمعنى الواجب الوجود الموجود لذاته الموجد لغيره فهذا مما لا نزاع فى أنه واحد لا شريك له، و إنما النزاع فى الإله بمعنى الرب المعبود و الوثنيون على أن تدبير العالم على طبقات أجزاء مفوضه الى موجودات شريفه مقربين عند الله ينبغى أن يعبدوا حتى يشفعوا لعبادهم عند الله و يقربوهم اليه زلفى كرب السماء و رب الأرض و رب الإنسان و هكذا و هم آلهه من دونهم و الله سبحانه إله الآلهه و خالق الكل كما يحكيه عنهم قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (الزخرف ٨٧) و قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (الزخرف ٩).

و الآيه الكريمة إنما تنفى الإلهيه من دون الله فى السماء و الأرض بهذا المعنى لا بمعنى الصانع الموجد الذى لا قائل بتعددده، و المراد بكون الإله فى السماء و الأرض تعلق ألوهيته بالسماء و الأرض لأسكناه فيهما فهو كقوله تعالى: هُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ (الزخرف ٨٤).

و تقرير حجه الآيه أنه لو فرض للعالم آلهه فوق الواحد لكانوا مختلفين ذاتا متبائنين حقيقه و تباين حقائقهم يقضى بتباين تدبيرهم فيتفاسد التدبيرات و تفسد السماء و الأرض لكن النظام الجارى نظام واحد متلائم الأجزاء فى غاياتها فليس للعالم آلهه فوق الواحد و هو المطلوب.

قوله تعالى: فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ تنزيه له تعالى عن وصفهم و هو أن معه آلهه هم ينشرون أو أن هناك آلهه من دونه يملكون التدبير فى ملكه فالعرش كناية عن الملك، وقوله: «عَمَّا يَصِفُونَ» «ما» فيه مصدرية و المعنى: عن وصفهم. و للكلام تتمه ستوافيك.

قوله تعالى: لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ الضمير فى «لَا يُسْئَلُ» له تعالى بلا إشكال، و الضمير فى «وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» للآلهه الذين يدعونهم أو للآلهه و الناس جميعا أو للناس فقط، و أحسن الوجوه أولها لأن ذلك هو المناسب للسياق و الكلام فى الآلهه الذين يدعونهم من دونه، فهم المسئولون و الله سبحانه لا يسأل عن فعله.

و السؤال عن الفعل هو قولنا لفاعله: لم فعلت كذا؟ و هو سؤال عن جهه المصلحه فى الفعل فإن الفعل المقارن للمصلحه لا مؤاخذه عليه عند العقلاء، و الله سبحانه لما كان حكيما على الإطلاق كما وصف به نفسه فى مواضع من كلامه، و الحكيم هو الذى لا يفعل فعلا إلا لمصلحه مرجحه لا جرم لم يكن معنى للسؤال عن فعله بخلاف غيره فإن من الممكن فى حقهم أن يفعلوا الحق و الباطل و أن يقارن فعلهم المصلحه و المفسده فجاز فى حقهم السؤال حتى يؤاخذوا بالذم العقلى أو العقاب المولوى إن لم يقارن الفعل المصلحه.

هذا ما ذكره جماعه من المفسرين فى توجيه الآيه و هو معنى صحيح فى الجملة لكن يبقى عليه أمران:

الأمر الأول: أن الآيه مطلقه لا دليل فيها من جهه اللفظ على كون المراد فيها هو هذا المعنى

فإن كون المعنى صحيحا في نفسه لا يستلزم كونه هو المراد من الآية.

و لذلك وجه بعضهم عدم السؤال بأنه مبنى على كون أفعال الله لا- تعلق بالأغراض لأن الغرض ما يبعث الفاعل الى الفعل ليستكمل به و ينتفع و إذ كان تعالى أجل من أن يحتاج الى ما هو خارج عن ذاته و يستكمل بالانتفاع من غيره فلا يقال له: لم فعلت كذا سؤالا عن الغرض الذي دعاه الى الفعل.

و إن رد بأن الفاعل التام الفاعليه إنما يصدر عنه الفعل لذاته فذاته هي غايته و غرضه في فعله من غير حاجه الى غرض خارج عن ذاته كالإنسان البخيل الذي يكثر الإنفاق ليحصل ملكه الجود حتى إذا حصلت الملكة صدر عنها الإنفاق لذاتها لا لتحصيل ما هو حاصل فنفسها غايه لها في فعلها.

و لذلك أيضا وجه بعض آخر عدم السؤال في الآية بأن عظمته تعالى و كبريائه و عزته و بهاءه تقهر كل شيء من أن يسأله عن فعله أو يعترض له في شيء من شئون إرادته فغيره تعالى أذل و أحقر من أن يجترئ عليه بسؤال أو مؤاخذه على فعل لكن له سبحانه أن يسأل كل فاعل عن فعله و يؤاخذ كل من حقت عليه المؤاخذه هذا.

و إن كان مردودا بأن عدم السؤال من جهه أن ليس هناك من يتمكن من سؤاله اتقاء من قهره و سحقه كالمملوك الجبارين و الطغاه المتفرعين غير كون الفعل بحيث لا يتسم بسمه النقص و الفتور و لا يعتريه عيب و قصور، و الذي يدل عليه عامه كلامه تعالى أن فعله من القبيل الثاني دون الأول كقوله: **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** (الم السجده ٧)، و قوله:

لَهُ **الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** (الحشر ٢٤)، و قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا** (يونس / ٤٤)، الى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله قولهم: إنه تعالى إنما لا يسأل عن فعله لكونه حكيمًا على الإطلاق يؤول الى أن عدم السؤال عن فعله ليس لذات فعله بما هو فعله بل لأمر خارج عن ذات الفعل و هو كون

فاعله حكيمًا لا- يفعل إلا ما فيه مصلحة مرجحه، وقوله: لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا دلالة في لفظه على التقييد بالحكمة فكان عليهم أن يقيموا عليه دليلًا.

و لو جاز الخروج في تعليل عدم السؤال في الآية لفظها لكان أقرب منه التمسك بقوله- وهو متصل بالآية-: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» فإن الآية تثبت له الملك المطلق و الملك متبع في إرادته مطاع في أمره لأنه ملك- أى لذاته- لا لأن فعله أو قوله موافق لمصلحه مرجحه و إلا لم يكن فرق بينه و بين أدنى رعيته و كانت المصلحة هي المتبعة و لم تكن طاعته مفترضة في بعض الأحيان، و كذلك المولى متبع و مطاع لعبده فيما له من المولوية من جهة أنه مولى ليس للعبد أن يسأله فيما يريد منه و يأمره به عن وجه الحكمة و المصلحة فالملك على ما له من السعة مبدأ لجواز التصرفات و سلطنه عليها لذاته.

فألله سبحانه ملك و مالك لكل و الكل مملوكون له محضاً فله أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و ليس لغيره ذلك، و له أن يسألهم عما يفعلون و ليس لغيره أن يسأله عما يفعل نعم هو سبحانه أخبرنا أنه حكيم لا يفعل إلا ما فيه مصلحة و لا يريد إلا ذلك فليس لنا أن نسيء به الظن فيما ينسب إليه من الفعل بعد هذا العلم الإجمالى بحكمته المطلقة فضلاً عن سؤاله عما يفعل، و من أطف الآيات دلالة على هذا الذى ذكرنا قوله حكاية عن عيسى بن مريم: **إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (المائدة ١١٨) حيث يوجه عذابهم بأنهم مملوكون له و يوجه مغفرتهم بكونه حكيمًا.

و من هنا يظهر أن الحكمة بوجه ما أعم من قوله: **«لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ»** بخلاف الملك فالملك أقرب الى توجيه الآية منها كما أشرنا إليه.

الأمر الثانى: أن الآية على ما وجهها به خفيه الاتصال بالسياق السابق و غايه ما قيل فى اتصالها بما قبلها ما فى مجمع البيان: أنه تعالى لما بين التوحيد عطف عليه بيان العدل، و أنت خبير بأن مآله الاستطراد و لا موجب له.

و نظيره ما نقل عن أبي مسلم أنها تتصل بقوله في أول السوره: «أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ» و الحساب هو السؤال عما أنعم الله عليهم به، و هل قابلوا نعمه بالشكر أم قابلوها بالكفر؟ و فيه أن للآيات التاليه لهذه الآيه اتصالا واضحا بما قبلها فلا معنى لاتصالها وحدها بأول السوره.

على أن قوله على تقدير تسليمه يوجه اتصال ذيل الآيه و الصدر باق على ما كان.

و أنت خبير أن توجيه الآيه بالملك دون الحكمة كما قدمناه يكشف عن اتصال الآيه بما قبلها من قوله: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» فالعرش - كما تقدم - كناية عن الملك فتتصل الآيتان و يكون قوله: «لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» بالحقيقه برهاننا على ملكه تعالى كما أن ملكه و عدم مسؤوليته برهان على ربوبيته، و برهاننا على مملوكتهم كما أن مملوكتهم و مسؤوليتهم برهان على عدم ربوبيتهم فإن الفاعل الذى ليس بمسئول عن فعله بوجه هو الذى يملك الفعل مطلقا لا محاله، و الفاعل الذى هو مسئول عن فعله هو الذى لا يملك الفعل إلا إذا كان ذا مصلحة و المصلحه هى التى تملكه و ترفع المؤاخذه عنه، و رب العالم أو جزء من أجزائه هو الذى يملك تدبيره باستقلال من ذاته أى لذاته لا بإعطاء من غيره فالله سبحانه هو رب العرش و غيره مربوبون له (١).

قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» تثبيت لما قيل فى الآيه السابقه إن الذكر يذكر توحيدَه و وجوب عبادته و لا يخلو من تأييد ما للمعنى الثانى من معنى الذكر.

و قوله: «نُوحِي إِلَيْهِ» مفيد للاستمرار، و قوله: «فَاعْبُدُونِ» خطاب للرسول و من معهم من أممهم و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ» ظاهر

ص: ٢٤٤

(١- ١). الانبياء ١٦-٣٣: بحث فى حكمته تعالى و معنى كون فعله مقارنا للمصلحه و هو بحث فلسفى و قرآنى.

السياق يشهد أنه حكاية قول الوثنيين إن الملائكة أولاده سبحانه فالمراد بالعباد المكرمين الملائكة، وقد نزه الله نفسه عن ذلك بقوله: «سُبْحَانَهُ» ثم ذكر حقيقته حالهم بالإضراب.

و إذ كان قوله بعد: «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» الخ؛ بيان كمال عبوديتهم من حيث الآثار و صفاتها من جهة الخواص و التبعات و قد ذكر قبلا- كونهم عبادا كان ظاهر ذلك أن المراد بإكرامهم إكرامهم بالعبودية لا بغيرها فيؤول المعنى الى أنهم عباد بحقيقته معنى العبودية و من الدليل عليه صدور آثارها الكاملة عنهم.

فالمراد بكونهم عبادا- و جميع أرباب الشعور عباد الله- إكرامهم في أنفسهم بالعبودية فلا يشاهدون من أنفسهم إلا أنهم عباد، و المراد بكونهم مكرمين إكرامه تعالى لهم بإفضاه العبودية الكاملة عليهم، و هذا نظير كون البعد مخلصا- بكسر اللام- لربه و مقابلته تعالى ذلك بجعله مخلصا- بفتح اللام- لنفسه، و إنما الفرق بين كرامه الملائكة و البشر أنها في البشر اكتسابي بخلاف ما في الملائكة، و أما إكرامه تعالى فهو موهبي في القبيلين جميعا فافهم ذلك.

قوله تعالى: «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ لَا يَسْبِقُ فُلَانٌ فُلَانًا بِالْقَوْلِ أَى لَا يَقُولُ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ فَقَوْلُهُ تَبِعَ، وَ رَبَّمَا يَكْنَى بِهِ عَنِ الْإِرَادَةِ وَ الْمَشِيَّةِ أَى إِرَادَتِهِ تَبِعَ إِرَادَتَهُ، وَ قَوْلُهُ: «وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» الظرف متعلق بـيَعْمَلُونَ قَدَّمَ عَلَيْهِ لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ أَى يَعْمَلُونَ بِأَمْرِهِ لَا- بغير أمره، و ليس المراد لا- يعملون بأمر غيره ففعلهم تابع لأمره أَى لِإِرَادَتِهِ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُمْ تَابِعَ لِقَوْلِهِ فَهَمْ تَابِعُونَ لِرَبِّهِمْ قَوْلًا وَ فِعْلًا.

و بعبارة أخرى إرادتهم و عملهم تابعان لإرادته- نظرا الى كون القول كناية عن الإرادة- فلا يريدون إلا ما أراد و لا يعملون إلا ما أراد و هو كمال العبودية فإن لازم عبودية العبد أن يكون إرادته و عمله مملوكين لمولاه.

هذا ما يفيدده ظاهر الآيه على أن يكون المراد بالأمر ما يقابل النهى، و تفيد الآيه أن الملائكة لا يعرفون النهى إذ النهى فرع جواز الإتيان بالفعل المنهى عنه و هم لا يفعلون إلا عن

ويمكن أن يستفاد من قوله تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ** (يس ٨٣)، وقوله: **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَفَحٍ بِالْبَصِيرِ** (القمر ٥٠)، حقيقة معنى أمره تعالى وقد تقدم في بعض المباحث السابقة كلام في ذلك وسيجيء استيفاء البحث في كلام خاص بالملائكة فيما يعطيه القرآن في حقيقة الملك.

قوله تعالى: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ فَسِرُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** بما قدموا من أعمالهم وما آخروا، والمعنى: يعلم ما عملوا وما هم عاملون.

فقوله: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** استئناف في مقام التعليل لما تقدمه من قوله: **لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** كأنه قيل: إنما لم يقدموا على قول أو عمل بغير أمره تعالى لأنه يعلم ما قدموا من قول وعمل وما آخروا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث إنهم يعلمون ذلك.

وهو معنى جيد في نفسه لكنه إنما يصلح لتعليل عدم إقدامهم على المعصية لا- لتعليل قصر عملهم على مورد الأمر وهو المطلوب، على أن لفظ الآية لا دلالة فيه على أنهم يعلمون ذلك ولو لا ذلك لم يتم البيان.

وقوله: **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ** تعرض لشفاعتهم لغيرهم وهو الذي تعلق به الوثنيون في عبادتهم الملائكة كما ينبىء عنه قولهم: **«هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ»** **«مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ»** فردّ تعالى عليهم بأن الملائكة إنما يشفعون لمن ارتضاه الله والمراد به ارتضاه دينه لقوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** (النساء ٤٨)، فالإيمان بالله من غير شرك هو الارتضاء، والوثنيون مشركون، ومن عجيب أمرهم أنهم يشركون بنفس الملائكة الذين لا يشفعون إلا لغير المشركين من

وقوله: وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ هي الخشية من سخطه و عذابه مع الأمن منه بسبب عدم المعصية و ذلك لأن جعله تعالى إياهم في أمن من العذاب بما أفاض عليهم من العصمة لا يحدد قدرته تعالى و لا يتتزع الملك من يده، فهو يملك بعد الأمن عين ما كان يملكه قبله، و هو على كل شيء قدير، و بذلك يستقيم معنى الآية التالية.

قوله تعالى: وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أَي من قال كذا كان ظالماً و نجزيه جهنم لأنها جزاء الظالم، و الآية قضيه شرطيه و الشرطيه لا تقتضى تحقق الشرط.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ المراد بالرؤية العلم الفكرى و إنما عبّر بالرؤية لظهوره من حيث إنه نتيجة التفكير فى أمر محسوس.

و الرتق و الفتق معنيان متقابلان، قال الراغب فى المفردات: الرتق الضمّ و الالتحام خلقه كان أم صنعه، قال تعالى: كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا و قال: الفتق الفصل بين المتصلين و هو ضد الرتق. انتهى. و ضمير التثنيه فى « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » للسماوات و الأرض بعدّ السماوات طائفه و الأرض طائفه فهما طائفتان اثنتان، و مجيء الخبر أعنى رتقا مفردا لكونه مصدرًا و إن كان بمعنى المفعول و المعنى كانت هاتان الطائفتان منضمتين متصلتين ففصلناهما.

و هذه الآيه و الآيات الثلاث التالية لها برهان على توحيدته تعالى فى ربوبيته للعالم كله أوردتها بمناسبه ما انجزّ الكلام الى توحيدته و نفى ما اتخذوها آلهه من دون الله و عدوا الملائكه و هم من الآلهه عندهم أولاداً له، بانين فى ذلك على أن الخلقه و الإيجاد لله و الربوبيه و التدبير للآلهه. فأورد سبحانه فى هذه الآيات أشباء من الخليقه خلقتها ممزوجه بتدبير أمرها فتبين بذلك أن التدبير لا ينفك عن الخلقه فمن الضرورى أن يكون الذى خلقها هو الذى يدبر أمرها

و ذلك كالسماوات و الأرض و كل ذى حياه و الجبال و الفجاج و الليل و النهار و الشمس و القمر فى خلقها و أحوالها التى ذكرها سبحانه.

فقوله: «أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» المراد بالذين كفروا-بمقتضى السياق-هم الوثنيون حيث يفرقون بين الخلق و التدبير بنسبه الخلق الى الله سبحانه و التدبير الى الآلهه من دونه و قد بين خطأهم فى هذه التفرقه بعطف نظرهم الى ما لا- يرتاب فيه من فتق السماوات و الأرض بعد رتقهما فإن فى ذلك خلقا غير منفك عن التدبير، فكيف يمكن قيام خلقهما بواحد و قيام تدبيرهما بآخرين.

و

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ قَالَ فى المجمع:الرواسى الجبال رست ترسو رسوا إذا ثبتت بثقلها فهى راسيه كما ترسو السفينه إذا وقفت متمكنه فى وقوفها،و المييد الاضطراب بالذهاب فى الجهات،و الفج الطريق الواسع بين الجبلين.انتهى.

و المعنى:و جعلنا فى الأرض جبالا ثابت لثلاث ميل و تضطرب الأرض بهم و جعلنا فى تلك الجبال طرقا واسعه هى سبل لعلمهم يهتدون منها الى مقاصدهم و مواطنهم.

و فيه دلالة على أن للجبال ارتباطا خاصا بالزلازل و لولاها لاضطربت الأرض بقشرها.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَدًّا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ كأن المراد بكون السماء محفوظه حفظها من الشياطين كما قال: وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (الحجر ١٧/)،و المراد بآيات السماء الحوادث المختلفه السماويه التى تدل على وحده التدبير و استناده الى موجدتها الواحد.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ الآية ظاهره فى إثبات الفلك لكل من الليل و هو الظل المخروطى الملازم لوجه

الأرض المخالف لمسامته الشمس، والنهار وهو خلاف الليل، والشمس والقمر فالمراد بالفلك مدار كل منها.

و المراد مع ذلك بيان الأوضاع والأحوال الحادثة بالنسبة الى الأرض وفي جوها وإن كانت حال الأجرام الأخر على خلاف ذلك فلا ليل ولا نهار يقابله للشمس وسائر الثوابت، التي هي تيره بالذات والقمر وسائر السيارت الكاسبه للنور من الليل والنهار غير ما لنا.

وقوله: «يَسْبِحُونَ» من السبح بمعنى الجرى في الماء بخرقه قيل: وإنما قال: يسبحون لأنه أضاف إليها فعل العقلاء كما قال: وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ (يوسف ٤/١).

[سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٣٤ الى ٤٧]

إشاره

وَمَا جَعَلْنَا لِيَشْرَ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِتُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبَلُّوكُم بِالْمِشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا نُرْجِعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أ هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَ لَقَدْ اسْتَهْرَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أ فَهُمْ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَىٰ بِنَاسٍ حَاسِبِينَ (٤٧)

ص: ٢٤٩

١- ١). الانبياء ١٦-٣٣: بحث روائي في الحق والباطل، وصف الملائكة، معنى قوله تعالى «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ».

قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ يُلوح من الآيه أنهم كانوا يسألون أنفسهم بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيموت فيتخلصون من دعوته و تنجو آلهتهم من طعنه كما حكى ذلك عنهم فى قولهم: نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُؤْمِنِينَ (الطور / ٣٠)، فأجاب عنه بأننا لم نجعل لبشر من قبلك الخلد حتى يتوقع ذلك لك بل إنك ميت و إنهم

ميتون، و لا ينفعهم موتك شيئاً فلا أنهم يقبضون على الخلود بموتك، فالجميع ميتون، و لا أن حياتهم القصيره المؤجله تخلو من الفتنة و الامتحان الإلهى فلا يخلو منه إنسان فى حياته الدنيا، و لا أنهم خارجون بالآخره من سلطاننا بل الينا يرجعون فنحاسبهم و نجزيهم بما عملوا.

و قوله: «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ» و لم يقل: فهم خالدون و الاستفهام للإنكار يفيد نفي قصر القلب كأنه قيل: إن قولهم: نتربص به ريب المنون كلام من يرى لنفسه خلوداً أنت مزاحمه فيه فلو مت لذهب بالخلود و قبض عليه و عاش عيشه خالد طيبه ناعمه و ليس كذلك بل نفس ذائقه الموت، و الحياه الدنيا مبنيه على الفتنة و الامتحان، و لا معنى للفتنة الدائمه و الامتحان الخالد بل يجب أن يرجعوا الى ربهم فيجازيهم على ما امتحنهم و ميّزهم.

قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبِّئُكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ لفظ النفس -على ما يعطيه التأمل فى موارد استعماله- أصل معناه هو معنى ما أضيف اليه فنفس الشىء معناه الشىء و نفس الإنسان معناه هو الإنسان و نفس الحجر معناه هو الحجر فلو قطع عن الإضافه لم يكن له معنى محصل، و على هذا المعنى يستعمل لتأكيد اللفظى كقولنا: جاءنى زيد نفسه أو لإفاده معناه كقولنا: جاءنى نفس زيد.

و بهذا المعنى يطلق على كل شىء حتى عليه تعالى كما قال: كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِهِ الرَّحْمَهُ (الأنعام ١٢)، و قال: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ (آل عمران ٢٨)، و قال: تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ (المائدة ١١٦).

ثم شاع استعمال لفظها فى شخص الإنسان خاصه و هو الموجود المركب من روح و بدن فصار ذا معنى فى نفسه و إن قطع عن الإضافه قال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا أَي من شخص إنسانى واحد، و قال: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (المائدة ٣٢)،

أى من قتل إنسانا و من أحيا إنسانا، وقد اجتمع المعنيان في قوله: كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا فالنفس الاولى بالمعنى الثانى و الثانى بالمعنى الأول.

ثم استعملوها في الروح الإنسانى لما أن الحياه و العلم و القدره التى بها قوام الإنسان قائمه بها و منه قوله تعالى: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ (الأنعام ٩٣).

و لم يطرد هذان الإطلاقان أعنى الثانى و الثالث في غير الإنسان كالنبات و سائر الحيوان إلا بحسب الاصطلاح العلمى فلا يقال للواحد من النبات و الحيوان عرفا نفس و لا للمبدإ المدبر لجسمه نفس نعم ربما سميت الدم نفسا لأن الحياه توقفا عليها و منه النفس السائله.

و كذا لا- يطلق النفس في اللغه بأحد الإطلاقين الثانى و الثالث على الملك و الجن و إن كان معتقدهم أن لهما حياه، و لم يرد استعمال النفس فيهما في القرآن أيضا و إن نطقت الآيات بأن للجن تكليفا كالإنسان و موتا و حشرا قال: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات ٥٦)، و قال: فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ (الأحقاف / ١٨)، و قال: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ (الأنعام / ١٢٨)، هذا ما يتحصل من معنى النفس بحسب عرف اللغه.

و أما الموت فهو فقد الحياه و آثارها من الشعور و الإراده عما من شأنه أن يتصف بها قال تعالى: وَكُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ (البقره ٢٨)، و قال في الأصنام: أََمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ (النحل ٢١)، و أما أنه مفارقه النفس للبدن بانقطاع تعلقها التدبيرى كما يعرفه الأبحاث العقلية أو أنه الانتقال من دار الى دار كما في الحديث النبوى فهو معنى كشف عنه العقل أو النقل غير ما استقر عليه الاستعمال و من المعلوم أن الموت بالمعنى الذى ذكر إنما يتصف به الإنسان المركب من الروح و البدن باعتبار بدنه فهو الذى يتصف بفقدان الحياه بعد وجدانه و أما الروح فلم يرد في كلامه تعالى ما ينطق باتصافه بالموت كما لم يرد ذلك في الملك، و أما قوله: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (القصص ٨٨)، و قوله: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ (الزمر ٦٨) فسيجيء إن شاء الله أن الهلاك و الصعق غير الموت و إن انطبعا عليه أحيانا.

فقد تبين مما قدمناه أولا: أن المراد بالنفس في قوله: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» الإنسان - و هو الاستعمال الثاني من استعمالاتها الثلاث - دون الروح الإنساني إذ لم يعهد نسبة الموت إلى الروح في كلامه تعالى حتى تحمل عليه.

و ثانيا: أن الآيه إنما تعم الإنسان لا - غير كالمملك و الجن و سائر الحيوان و إن كان بعضها مما يتصف بالموت كالجن و الحيوان، و من القرينه على اختصاص الآيه بالإنسان قوله قبله: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ و قوله بعده: «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً عَلَى مَا سَنُوضِّحُهُ».

قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْتَحِدُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا هَذَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ» إن نافية و المراد بقوله: «إِنْ يَنْتَحِدُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا» قصر معاملتهم معه على اتخاذهم إياه هزوا أي لم يتخذوك إلا هزوا يستهزئ به.

و قوله: «أَهَذَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ» - و التقدير يقولون أو قائلين: أ هذا الذي، الخ؛ حكاية كلمه استهزائهم، و الاستهزاء في الإشاره إليه بالوصف، و مرادهم ذكره آلتهم بسوء و لم يصرحوا به أدبا مع آلتهم و هو نظير قوله: «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ الْآيَةَ ٦٠ من السوره».

و قوله: «وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ» في موضع الحال من ضمير «إِنْ يَنْتَحِدُونَكَ» أو من فاعل يقولون المقدر و هو أقرب و محصله أنهم يأنفون لآلتهم عليك إذ تقول فيها إنها لا تنفع و لا تضر - و هو كلمه حق - فلا يواجهونك إلا بالهزاء و الإهانه و لا يأنفون لله إذ يكفر بذكره و الكافرون هم أنفسهم.

و المراد بذكر الرحمن ذكره تعالى بأنه مفيض كل رحمه و منعم كل نعمه و لازمه كونه تعالى هو الرب الذى تجب عبادته، و قيل: المراد بالذكر القرآن.

و المعنى: و إذ رآك الذين كفروا و هم المشركون ما يتخذونك و لا يعاملون معك إلا بالهزاء و السخرية قائلين بعضهم لبعض أ هذا الذى يذكر آلهتكم أى بسوء فيأنفون لآلهتهم حيث تذكرها و الحال أنهم بذكر الرحمن كافرون و لا يعدونه جرما و لا يأنفون له.

قوله تعالى: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ كَانَ المشركون على كفرهم بالدعوة النبويه يستهزءون بالنبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم كلما رأوه، و هو زياده فى الكفر و العتو، و الاستهزاء بشيء إنما يكون بالبناء على كونه هزلا غير جد فيقابل الهزل بالهزل لكنه تعالى أخذ استهزاءهم هذا أخذ جد غير هزل فكان الاستهزاء بعد الكفر تعرضا للعذاب الإلهى بعد تعرض و هو الاستعجال بالعذاب فإنهم لا يقنعون بما جاءتهم من الآيات و هم فى عافيه و يطلبون آيات تجازيهم بما صنعوا، و لذلك عد سبحانه استهزاءهم بعد الكفر استعجالا برؤيه الآيات و هى الآيات الملازمه للعذاب و أخبرهم أنه سيريبهم إياها.

فقوله: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ كناية عن بلوغ الانسان فى العجل كأنه خلق من عجل و لا يعرف سواه نظير ما يقال: فلان خير كله أو شر كله و خلق من خير أو من شر و هو أبلغ من قولنا، ما أعجله و ما أشد استعجاله، و الكلام وارد مورد التعجيب. و فيه استهانته بأمرهم و أنه لا يعجل بعذابهم لأنهم لا يفوتونه.

و قوله: سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ الآيه الآتية تشهد بأن المراد بإرادته الآيات تعذيبهم بنار جهنم و هى قوله: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ الْخ.

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ القائلون هم الذين كفروا و المخاطبون هم النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و المؤمنون و كان مقتضى الظاهر أن يقولوا؟ إِنْ كُنْتُمْ من الصادقين لكنهم عدلوا الى ما ترى ليضيفوا الى تعجيز النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم بمطالبته ما لا يقدر عليه

إضلال المؤمنين به و إغراءهم عليه، و الوعد هو ما اشتملت عليه الآيه السابقه و تفسره الآيه اللاحقه.

قوله تعالى: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لَا هُمْ يُنصِرُونَ «لَوْ» للتمنى و «حِينَ» مفعول يعلم على ما قيل، و قوله: «لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ» أى لا يدفعونها حيث تأخذهم من قدامهم و من خلفهم و فيه إشاره الى إحاطتها بهم.

و قوله: «وَ لَا هُمْ يُنصِرُونَ» معطوف على ما تقدمه لرجوع معناه الى الترديد بالمقابله و المعنى لا يدفعون النار باستقلال من أنفسهم و لا ينصر من ينصرهم على دفعه.

و الآيه فى موضع الجواب لسؤالهم عن الموعد، و المعنى ليت الذين كفروا يعلمون الوقت الذى لا يدفعون النار عن وجوههم و لا عن ظهورهم لا باستقلال من أنفسهم و لا هم ينصرون فى دفعها.

قوله تعالى: بَلْ تَأْتِيهمُ بَغْتَهُ فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَشْتَطِيعُونَ رَدَّها وَ لا هُمْ يُنظَرُونَ الذى يقتضيه السياق أن فاعل تأتيهم ضمير راجع الى النار دون الساعه كما ذهب اليه بعضهم، و الجملة إضراب عن قوله فى الآيه السابقه: «لَا يَكْفُونَ» الخ؛ لا عن مقدر قبله تقديره لا تأتيهم الآيات بحسب اقتراحهم بل تأتيهم بغته، و لا عن قوله: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بدعوى أنه فى معنى النفى و التقدير لا يعلمون ذلك بل تأتيهم بغته فإن هذه كلها وجوه يأبى عنها السياق.

و معنى إتيان النار بغته أنها تفاجئهم حيث لا يدرون من أين تأتيهم و تحيط بهم فإن ذلك لازم ما وصفه الله من أمرها بقوله: نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (الهمزه ٧)، و قوله: الدَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ (البقره ٢٤)، و قوله: إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ (الآيه ٩٨ من السوره)، و النار التى هذا شأنه تأخذ باطن الإنسان كظاهره

على حد سواء لا كئار الدنيا حتى تتوجه من جهه الى جهه و تأخذ الظاهر قبل الباطن و الخارج قبل الداخل حتى تمهلهم بقطع مسافه أو بتدرج فى عمل أو مفارقه فى جهه فيحتال لدفعها بتجاف أو تجنب أو إبداء حائل أو الالتجاء الى ركن بل هى معهم كما أن أنفسهم معهم لا تستطيع ردا إذ لا اختلاف جهه و لا تقبل مهله إذ لا مسافه بينها و بينهم فلا تسمح لهم فى نزولها عليهم إلا البهت و الحيره.

فمعنى الآيه -و الله أعلم- لا يدفعون النار عن وجوههم و ظهورهم بل تأتيهم من حيث لا يشعرون بها و لا يدرون فتكون مباغته لهم فلا يستطيعون ردها و لا يمهلون فى إتيانها.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ اسْتَهْزَأَتْ بَرُؤْسٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قال فى المجمع: الفرق بين السخرية و الهزاء أن فى السخرية معنى طلب الدله لأن التسخير التذليل فأما الهزاء فيقتضى طلب صغر القدر بما يظهر فى القول. انتهى و الحيق الحلول، و المراد بما كانوا به يستهزءون، العذاب و فى الآيه تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تخويف و تهديد للذين كفروا.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ الكلاءه الحفظ و المعنى أسألهم من الذى يحفظهم من الرحمن إن أراد أن يعذبهم ثم أضرب عن تأثير الموعظه و الإنذار فيهم فقال: «بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ» أى القرآن «مُعْرِضُونَ» فلا يعتنون به و لا يريدون أن يصغوا اليه إذا تلوته عليهم و قيل المراد بالذكر مطلق المواعظ و الحجج.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ أم منقطعه و الاستفهام للإنكار، و كل من «تَمْنَعُهُمْ» و «مِنْ دُونِنَا» صفه آلهه، و المعنى بل أسألهم ألهم آلهه من دوننا تمنعهم منا.

و قوله: «لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ» الخ؛ تعليل للنفى المستفاد من الاستفهام الإنكارى

و لذا جىء بالفصل و التقدير ليس لهم آلهه كذلك لأنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم بأن ينصر بعضهم بعضا و لا هم منا يجارون و يحفظون فكيف ينصرون عبادهم من المشركين أو يجيرونهم، و ذكر بعضهم أن ضمائر الجمع راجعه الى المشركين و السياق يأباه.

قوله تعالى: **يَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** الى آخر الآيه؛ هو إضراب عن مضمون الآيه السابقه كما كان قوله: **«بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ»** إضرابا عما تقدمه و المضامين - كما ترى - متقاربه.

و قوله: **«حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ»** غايه لدوام التمتع المدلول عليه بالجمله السابقه و التقدير بل متعنا هؤلاء المشركين و آباءهم و دام لهم التمتع حتى طالب عليهم العمر فاغترتوا بذلك و نسوا ذكر الله و أعرضوا عن عبادته، و كذلك كان مجتمع قريش فإنهم كانوا بعد أبيهم إسماعيل قاطنين فى حرم آمن متمتعين بأنواع النعم التى تحمل اليهم حتى تسلطوا على مكه و أخرجوا جرهما منها فنسوا ما هم عليه من دين أبيهم إبراهيم و عبدوا الأصنام.

و قوله: **أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** الأنسب للسياق أن يكون المراد من نقص الأرض من أطرافها هو انقراض بعض الامم التى تسكنها فإن لكل أمه أجلا ما تسبق من أمه أجلها و ما يستأخرون - و قد تقدمت الإشارة الى أن المراد بطول العمر عليهم طول عمر مجتمعهم.

و المعنى: أ فلا يرون أن الأرض تنقص منها أمه بعد أمه بالانقراض بأمر الله فما ذا يمنعه أن يهلكهم أفهم الغالبون إن أرادهم الله سبحانه بضر أو هلاك و انقراض.

قوله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ** أى إن الذى أُنذركم به وحى إلهى لا ريب فيه و إنما لا يؤثر فيكم أثره و هو الهدايه لأن فيكم صما لا تسمعون الإنذار فالنقص فى ناحيتكم لا فيه.

قوله تعالى: **وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا**

ظَالِمِينَ النَّفْحَةَ لَوَقَعَهُ مِنَ الْعَذَابِ، وَ الْمَرَادُ أَنَّ الْإِنذَارَ بِآيَاتِ الذِّكْرِ لَا يَنْفَعُهُمْ بَلْ هُوَ لَاءٌ يَحْتَاجُونَ إِلَى نَفْحِهِ مِنَ الْعَذَابِ حَتَّى يَضْطَرُوا فَيُؤْمِنُوا وَيَعْتَرِفُوا بِظُلْمِهِمْ.

قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً الْقِسْطُ الْعَدْلُ وَ هُوَ عَظْفٌ بَيَانٌ لِلْمَوَازِينِ أَوْ صَفْهُ لِلْمَوَازِينِ بِتَقْدِيرِ مِضَافٍ وَ التَّقْدِيرُ الْمَوَازِينُ ذَوَاتُ الْقِسْطِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الْمِيزَانِ الْمُنْصُوبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

وَ قَوْلُهُ: وَ إِنَّ كَمَا نَ مِثْقَالَ حَبِّهِ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا الضَّمِيرُ فِي «وَ إِنَّ كَانَ» لِلْعَمَلِ الْمَوْزُونِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ الْمَوَازِينِ أَى وَ إِنَّ كَانَ الْعَمَلُ الْمَوْزُونُ مِقْدَارَ حَبِّهِ مِنْ خَرْدَلٍ فِي ثِقَلِهِ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِينَ وَ حَبُّ الْخَرْدَلِ يَضْرِبُ بِهَا الْمِثْلُ فِي دَقَّتِهَا وَ صَغَرِهَا وَ حَقَارَتِهَا، وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْوِزْنَ مِنَ الْحِسَابِ.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٨ الى ٧٧]

إشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَ هَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَ فَاتَّخَذْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠) وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَ حَيْدْنَا أَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَ جِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْنِي النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِ يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَارْجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُؤْسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ (٦٥) أَفْ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٦٦) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سِلَافًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَ نَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْنَا هُمْ أئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ آتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَ لُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخِلْيَابَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِيءٍ فَاسِتِّمِينَ (٧٤) وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَ نُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِيءٍ فَأَعْرِضْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ** رجوع بوجه الى تفصيل ما أجمل في قوله سابقا: **وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمُ الْآيَةَ**؛ بذكر ما أوتى النبيون من المعارف و الشرائع و أيدوا بإهلاك أعدائهم بالقضاء بالقسط.

و الآية التاليه تشهد أن المراد بالفرقان و الضياء و الذكر التوراه آتاهها الله موسى و أخاه هارون شريكه في النبوه.

و الفرقان مصدر كالفرق لكنه أبلغ من الفرق، و ذكر الراغب أنه على ما قيل اسم لا مصدر و تسميه التوراه الفرقان لكونها فارقه أو لكونها يفرق بها بين الحق و الباطل في الاعتقاد و العمل، و الآية نظيره قوله: **وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** (البقره/ ٥٣) و تسميتها ضياء لكونها مضيئه لمسيرهم الى السعاده و الفلاح في الدنيا و الآخره، و تسميتها ذكرا لاشتمالها على ما يذكر به الله من الحكم و المواعظ و العبر.

و لعل كون الفرقان أحد أسماء التوراه هو الموجب لإتيانه باللام بخلاف ضياء و ذكر،

و بوجه آخر هي فرقان للجميع لكنها ضياء و ذكر للمتقين خاصه لا ينتفع بها غيرهم و لذا جىء بالضياء و الذكر منكرين ليتقيدا بقوله: «لِلْمُتَّقِينَ» بخلاف الفرقان و قد سميت التوراه نورا و ذكرا في قوله تعالى: فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ (المائدة ٤٤/) و قوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ (الآيه ٧ من السوره).

قوله تعالى: وَ هَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ الإشاره بهذا الى القرآن و إنما سمي ذكرا مباركا لأنه ثابت دائم كثير البركات ينتفع به المؤمن و الكافر في المجتمع البشرى و تنعم به الدنيا سواء عرفته أو أنكرته أو أقرت بحقه أو جحدته.

يدل على ذلك تحليل ما نشاهد اليوم من آثار الرشد و الصلاح في المجتمع العام البشرى و الرجوع بها القهقري الى عصر نزول القرآن فما قبله فهو الذكر المبارك الذي يسترشد بمعناه و ان جهل الجاهلون لفظه، و أنكر الجاحدون حقه و كفروا بعظيم نعمته، و أعانهم على ذلك المسلمون بإهمالهم في أمره، و قال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ انعطاف الى ما قبل موسى و هارون و نزول التوراه كما يفيد قوله: «مِنْ قَبْلُ» و المراد أن إيتاء التوراه لموسى و هارون لم يكن بدعا من أمرنا بل أقسم لقد آتينا قبل ذلك إبراهيم رشده.

و الرشد خلاف الغي و هو إصابه الواقع، و هو في إبراهيم عليه السلام اهتداؤه الفطرى التام الى التوحيد و سائر المعارف الحقه، و إضافه الرشد الى الضمير الراجع الى إبراهيم تفيد الاختصاص و تعطى معنى اللياقه، و يؤيد ذلك قوله بعده: «وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ» و هو كناية عن العلم بخصوصيه حاله و مبلغ استعداده.

و المعنى: و أقسم لقد أعطينا إبراهيم ما يستعد له و يليق من الرشد و إصابه الواقع و كنا عالمين بمبلغ استعداده و لياقته، و الذى آتاه الله سبحانه- كما تقدم- هو ما أدركه بصفاء فطرته و نور بصيرته من حقيقه التوحيد و سائر المعارف الحقه من غير تعليم معلم أو تذكير مذكر أو

قوله تعالى: إِذْ قَالَ لِأَيِّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ التمثال الشيء المصور و الجمع تماثيل، و العكوف الإقبال على الشيء و ملازمته على سبيل التعظيم له كذا ذكره الراغب فيهما.

يريد عليه السلام بهذه التماثيل الأصنام التي كانوا نصبوها للعبادة و تقرب القرايين و كان سؤاله عن حقيقتها ليعرف ما شأنها و قد كان أول وروده في المجتمع و قد ورد في مجتمع ديني يعبدون التماثيل و الأصنام، و السؤال مع ذلك مجموع سؤالين اثنين و سؤاله أباه عن الأصنام كان قبل سؤاله قومه على ما أشير إليه في سورة الأنعام و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا وَحَيْدُنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ هو جواب القوم و لما كان سؤاله عليه السلام عن حقيقة الأصنام راجعا بالحقيقة الى سؤال السبب لعبادتهم اياها تمسكوا في التعليل بذيل السنه القوميه فذكروا أن ذلك من سنه آباءهم و جدودهم يعبدونها.

قوله تعالى: قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ و وجه كونهم في ضلال مبين ما سيورده في محاجه القوم بعد كسر الأصنام من قوله: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَ لَا يَضُرُّكُمْ» .

قوله تعالى: قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ سؤال تعجب و استبعاد و هو شأن المقلد التابع من غير بصيره إذا صادف إنكارا لما هو فيه استبعد و لم يكذب يدعن بأنه مما يمكن أن ينكره منكر و لذا سأله أ جئنا بالحق أم أنت من اللاعبين و المراد بالحق-على ما يعطيه السياق-الجد أى أ تقول ما تقوله جدا أم تلعب به؟

قوله تعالى: قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ هو عليه السلام-كما ترى-يحكم بأن ربهم هو رب السماوات و أن هذا الرب هو الذى فطر السماوات و الأرض و هو الله سبحانه، و فى ذلك مقابله تامه لمذهبهم فى

الربوبية و الالوهيه فإنهم يرون أن لهم إلهاً أو آلهه غير ما للسموات و الأرض من الإله أو الآلهه، و هم جميعاً غير الله سبحانه و لا يرونه تعالى إلهاً لهم و لا لشيء من السموات و الأرض بل يعتقدون أنه إله الآلهه و رب الأرباب و فاطر الكل.

فقوله: **بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ** رد لمذهبهم فى الالوهيه بجميع جهاته و إثبات أن لا إله إلا الله و هو «التوحيد».

ثم كشف عليه السلام بقوله: **«وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ»** عن أنه معترف مقر بما قاله ملتزم بلوازمه و آثاره شاهد عليه شهادته إقرار و التزام فإن العلم بالشيء غير الالتزام به و ربما تفارقا كما قال تعالى: **وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤)**.

و بهذا التشهد يتم الجواب عن سؤالهم أ هو مجد فيما يقول أم لاعب؟ و الجواب لا بل أعلم بذلك و أتدين به.

هذا ما يعطيه السياق فى معنى الآية، و لهم فى تفسيرها أقاويل أخرى، و كذا فى معانى آيات القصه السابقه و اللاحقه وجوه آخر أضربنا عنها لعدم جدوى فى التعرض لها فلا سياق الآيات يساعد عليها و لا مذاهب الوثنيه توافقها.

قوله تعالى: **وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعِيدَ أَنْ تُؤَلُّوا مُدْبِرِينَ** معطوف على قوله: **«بَلْ رَبُّكُمْ»** الخ؛ أى قال لأكيدن أصنامكم، الخ؛ و الكيد التدبير الخفى على الشيء بما يسوؤه، و فى قوله: **«بَعِيدَ أَنْ تُؤَلُّوا مُدْبِرِينَ»** دلالة على أنهم كانوا يخرجون من البلد أو من بيت الأصنام أحيانا بعيد كان لهم أو نحوه فيبقى الجو خاليا.

قوله تعالى: **فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ** قال الراغب:

الجد كسر الشيء و تفتيته و يقال لحجاره الذهب المكسوره و لفتات الذهب جذاذا و منه قوله تعالى: **«فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا»** انتهى فالمعنى فجعل الأصنام قطعاً مكسوره إلا صنماً كبيراً من بينهم.

وقوله: لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ظاهر السياق أن هذا الترجي لبيان ما كان يمثله فعله أى كان فعله هذا حيث كسر الجميع إلا واحدا كبيرا لهم فعل من يريد بذلك أن يرى القوم ما وقع على أصنامهم من الجذو و يجدوا كبيرهم سالما بينهم فيرجعوا اليه و يتهموه فى أمرهم كمن يقتل قوما و يترك واحدا منهم ليتهم فى أمرهم.

و على هذا فالضمير فى قوله: «إِلَيْهِ» راجع الى «كَبِيرًا لَهُمْ» و يؤيد هذا المعنى أيضا قول إبراهيم الآتى «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» فى جواب قولهم: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانَا».

قوله تعالى: قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَانَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ استفهام بداعى التأسف و تحقيق الأمر للحصول على الفاعل المرتكب للظلم و يؤيد ذلك قوله تلو: قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ الْحَقُّ فَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: «إِنْ مِنْ مَوْصُولِهِ» ليس بسديد.

و قوله: إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قضاء منهم بكونه ظالما يجب أن يساس على ظلمه إذ قد ظلم الآلهة بالتعدى الى حقهم و هو التعظيم و ظلم الناس بالتعدى الى حقهم و هو احترام آلهتهم و تقديس مقدساتهم و ظلم نفسه بالتعدى الى ما ليس له بحق و ارتكاب ما لم يكن له أن يرتكبه.

قوله تعالى: قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبراهيمُ المراد بالذكر-على ما يستفاد من المقام-الذكر بالسوء أى سمعنا فتى يذكر الآلهة بالسوء فإن يكن فهو الذى فعل هذا بهم إذ لا يتجرأ لارتكاب مثل هذا الجرم إلا مثل ذاك المتجرى.

و قوله: يُقَالُ لَهُ إِبراهيمُ برفع إبراهيم و هو خير لمبتدأ محذوف و التقدير هو إبراهيم كذا ذكره الزمخشري.

قوله تعالى: قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ المراد بإتيانه على أعين الناس إحضاره فى مجمع من الناس و مرآهم و هو حيث كسرت الأصنام كما يظهر من قول إبراهيم عليه السلام «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» بالإشارة الى كبير الأصنام.

و كأن المراد بشهادتهم أن يشهدوا عليه بأن كان يذكرهم بالسوء فيكون ذلك ذريعه الى أخذ الإقرار منه بالجد و الكسر، و أما ما قيل: أن المراد شهادتهم عقاب إبراهيم على ما فعل فبعيد.

قوله تعالى: **قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِ يَا إِبْرَاهِيمَ** الاستفهام - كما قيل - للتقرير بالفاعل فإن أصل الفعل مفروغ عنه معلوم الوقوع، و فى قولهم: **«بِالْهَيْتِ»** تلويح الى أنهم ما كانوا يعدونه من عبده الأصنام.

قوله تعالى: **قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ** إن كانوا ينطقون ما أخبر عليه السلام به بقوله: **«بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا»** دعوى بداعى إلزام الخصم و فرض و تقدير قصد به إبطال ألوهيتها كما سيصرح به فى قوله: **«أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ»** الخ؛ و ليس بخبر جدى البتة، و هذا كثير الورد فى المخاصمات و المناظرات فالمعنى قال: بل شاهد الحال و هو صيروره الجميع جذاذا و بقاء كبيرهم سالما يشهد أن قد فعله كبيرهم هذا و هو تمهيد لقوله: **«فَسَأَلُوهُمْ»** الخ.

و قوله: **«فَسَأَلُوهُمْ»** إن كانوا ينطقون أمر بأن يسألوا الأصنام عن حقيقه الحال و أن الذى فعل بهم هذا من هو؟ فيخبروهم به إن كانوا ينطقون فقوله: **«إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ»** شرط جزاؤه محذوف يدل عليه قوله: **«فَسَأَلُوهُمْ»**.

فتحصل أن الآيه على ظاهرها من غير تكلف إضمار أو تقديم و تأخير أو محذور تعقيد، و أن صدرها المتضمن لدعوى استناد الفعل الى كبيرهم إلزام للخصم و توطئه و تمهيد لذيلها و هو أمرهم بسؤال الأصنام إن نطقوا لينتهى الى اعتراف القوم بأنهم لا ينطقون.

قوله تعالى: **فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ** تفريع على قوله: **«فَسَأَلُوهُمْ»** إن كانوا ينطقون فإنهم لما سمعوا منه ذلك و هم يرون أن الأصنام جمادات لا شعور لها و لا نطق تمت عند ذلك عليهم الحجه ففضى كل منهم على نفسه أنه هو الظالم دون

ابراهيم فقوله: «فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ» استعاره بالكناية عن تنبههم و تفكرهم في أنفسهم، و قوله: «فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» أى قال كل نفسه مخاطبا لها: إنك أنت الظالم حيث تعبد جمادا لا ينطق.

قوله تعالى: «ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ» قال الراغب: النكس قلب الشىء على رأسه و منه نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه قال تعالى: «ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ». انتهى فقوله: «ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ» كناية أو استعاره بالكناية عن قلبهم الباطل على مكان الحق الذى ظهر لهم و الحق على مكان الباطل كأن الحق علا فى قلوبهم الباطل فنكسوا على رؤوسهم فرفعوا الباطل و هو كون ابراهيم ظالما على الحق و هو كونهم هم الظالمين فخصموا ابراهيم بقوله: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ»

و معنى قولهم: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ» الخ؛ أن دفاعك عن نفسك برمى كبير الأصنام بالفعل و هو الجذ و تعليق ذلك باستنطاق الآلهة مع العلم بأنهم لا ينطقون دليل على أنك أنت الفاعل الظالم فالجملة كناية عن ثبوت الجرم و قضاء على ابراهيم.

قوله تعالى: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ» -الى قوله- «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» لما تفوهوا بقولهم: «مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ» و سمعه ابراهيم لم يشتغل بالدفاع فلم يكن قاصدا لذلك من أول بل استفاد من كلامهم لدعوته الحقه فخصمهم بلازم قولهم و أتم الحججه عليهم فى كونهم أصنامهم غير مستحقه للعباده أى غير آلهه.

فما حصل تفریح قوله: «أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ» أن لازم كونهم لا ينطقون أن لا يعلموا شيئا و لا يقدروا على شىء، و لازم ذلك أن لا ينفعوكم شيئا و لا يضرؤكم، و لازم ذلك أن يكون عبادتهم لغوا إذ العباده إما لرجاء خير أو لخوف شرّ و ليس عندهم شىء من ذلك فليسوا بآلهه.

و قوله: «أَفْ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ تَزَجْرُ وَ تَبْرَّ مِنْهُمْ» و من آلهتهم بعد

إبطال ألوهيتها، وهذا كشهادته على وحدانيته تعالى بعد إثباتها في قوله فيما مر: **وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**، وقوله: **«أَفَلَا تَعْقِلُونَ»** توبيخ لهم.

قوله تعالى: **«قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** هو عليه السلام وإن أبطل بكلامه السابق ألوهية الأصنام و كان لازمه الضمني أن لا يكون كسرهم ظلما و جرما لكنه لَوَّح بكلامه الى أن رمية كبير الأصنام بالفعل و أمرهم أن يسألوا الآلهة عن ذلك لم يكن لدفع الجرم عن نفسه بل كان تمهيدا لإبطال ألوهية الإلهية و بهذا المقدار من السكوت و عدم الرد قضاوا عليه بثبوت الجرم و أن جزاءه أن يحرق بالنار.

و لذلك قالوا: حرقوه و انصروا آلِهَتكم بتعظيم أمرهم و مجازاه من أهان بهم و قولهم: **«إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ»** تهيج و إغراء.

قوله تعالى: **«قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** خطاب تكويني للنار تبذلت به خاصة حرارتها و إحراقها و إفنائها بردا و سلاما بالنسبة الى إبراهيم عليه السلام على طريق خرق العادة، و بذلك يظهر أن لا- سبيل لنا الى الوقوف على حقيقه الأمر فيه تفصيلا إذ الأبحاث العقلية عن الحوادث الكونية إنما تجرى فيما لنا علم بروابط العلية و المعلوليه فيه من العاديات المتكرره، و أما الخوارق التي نجهل الروابط فيها فلا- مجرى لها فيها. نعم نعلم إجمالا- أن لهمم النفوس دخلا- فيها و قد تكلمنا في ذلك في مباحث الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب.

و الفصل في قوله: **«قُلْنَا»** الخ؛ لكونه في معنى جواب سؤال مقدر و تقدير الكلام بما فيه من الحذف إيجازا نحو من قولنا: فأضرموا نارا و ألقوه فيها فكأنه قيل: فماذا كان بعده فقيل: قلنا يا نور كوني بردا و سلاما على إبراهيم، و على هذا النحو الفصل في كل **«قَالَ»** و **«قَالُوا»** في الآيات السابقه من القصه.

قوله تعالى: **«وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ** أي احتالوا عليه ليطفئوا

نوره و يبطلوا حجته فجعلناهم الأخرين حيث خسروا بطلان كيدهم و عدم تأثيره و زادوا خساره حيث أظهره الله عليهم بالحفظ و الإنجاء.

قوله تعالى: وَ نَجِّنَا لَهُ وَ لُوطاً إِلَى الْمَأْزُجِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ الْأَرْضِ الْمَذْكُورَةِ هِيَ أَرْضُ الشَّامِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ، وَ لُوطٌ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ هَاجَرَ مَعَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي (العنكبوت ٢٦).

قوله تعالى: وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً النَّافِلَةُ الْعَطِيَّةُ وَ قَدْ تَكَرَّرَ الْبَحْثُ عَنْ مَضْمُونِ الْآيَتَيْنِ.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر - كما يشير إليه ما يدل من (١) الآيات على جعل الإمامه في عقب إبراهيم عليه السلام - رجوع الضمير في «جَعَلْنَاهُمْ» إلى إبراهيم و إسحاق و يعقوب.

و ظاهر قوله: أئمة يهتدون بأمرنا أن الهدايه بالأمر يجرى مجرى المفسر لمعنى الإمامه، و قد تقدم الكلام فى معنى هدايه الإمام بأمر الله فى الكلام على قوله تعالى: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (البقره ١٢٤) فى الجزء الأول من الكتاب.

و الذى يخص المقام أن هذه الهدايه المجهوله من شئون الإمامه ليست هى بمعنى إراءه الطريق لأن الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماماً بعد ما جعله نبياً - كما أوضحناه فى تفسير قوله: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا فيما تقدم - و لا تنفك النبوه عن الهدايه بمعنى إراءه الطريق فلا - يبقى للإمامه إلا - الهدايه بمعنى الإيصال الى المطلوب و هى نوع تصرف تكوينى فى النفوس بتسييرها فى سير الكمال و نقلها من موقف معنوى الى موقف آخر.

و إذ كانت تصرفاً تكوينياً و عملاً باطنياً فالمراد الذى تكون به الهدايه ليس هو الأمر

ص: ٢٦٨

١ - ١). كقوله تعالى: «وَ جَعَلْنَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» (الزخرف ٢٨) و غيره.

التشريعي الاعتباري بل ما يفسره في قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسَيُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣) فهو الفيوضات المعنويه و المقامات الباطنيه التي يهتدى إليها المؤمنون بأعمالهم الصالحه و يتلبسون بها رحمه من ربهم.

و إذ كان الإمام يهدى بالأمر-و الباء للسببيه أو الآله-فهو متلبس به أولاً و منه ينتشر في الناس على اختلاف مقاماتهم فالإمام هو الرابط بين الناس و بين ربهم في إعطاء الفيوضات الباطنيه و أخذها كما أن النبي رابط بين الناس و بين ربهم في أخذ الفيوضات الظاهرية و هي الشرائع الإلهيه تنزل بالوحي على النبي و تنتشر منه و بتوسطه الى الناس و فيهم،و الإمام دليل هاد للنفوس الى مقاماتها كما أن النبي دليل يهدى الناس الى الاعتقادات الحقه و الأعمال الصالحه،و ربما تجتمع النبوه و الإمامه كما في إبراهيم و ابنه.

و قوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ إضافة المصدر الى معموله تفيد تحقق معناه في الخارج فإن أريد أن لا يفيد الكلام ذلك جيء بالقطع عن الإضافة أو بأن و أن الدالتين على تأويل المصدر نص على ذلك الجرجاني في دلائل الإعجاز فقولنا: يعجبني إحسانك و فعلك الخير، و قوله تعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ (البقره ٤٣) يدل على الوقوع قبلاً، و قولنا: يعجبني أن تحسن و أن تفعل الخير و قوله تعالى:

أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ (البقره ١٨٤) لا يدل على تحقق قبله، و لذا كان المؤلف في آيات الدعوه و آيات التشريع و الإتيان بأن و الفعل دون المصدر المضاف كقوله: أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ (الرعد ٣٦)، و أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ (يوسف ٤٠) وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ (الأنعام ٧٢).

و على هذا فقوله: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» الخ؛ يدل على تحقق الفعل أى أن الوحي تعلق بالفعل الصادر عنهم أى أن الفعل كان يصدر عنهم بوحي مقارن له و دلالة إلهيه باطنيه هو غير الوحي المشرع الذي يشرع الفعل أولاً و يترتب عليه إتيان الفعل على ما

شَرَعَ.

و يؤيد هذا الذى ذكره قوله بعد: «وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» فإنه يدل بظاهره على أنهم كانوا قبل ذلك عابدين لله ثم أيدوا بالوحي و عبادتهم لله إنما كانت بأعمال شرعها لهم الوحي المشرع قبلا- فهذا الوحي المتعلق بفعل الخيرات وحي تسديد ليس وحي تشريع.

فالمحصل أنهم كانوا مؤيدين بروح القدس و الظهاره مسددين بقوه ربانيه تدعوهم الى فعل الخيرات و إقام الصلاه و إيتاء الزكاه و هى الإنفاق المالى الخاص بشريعتهم.

قوله تعالى: وَ لُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. الحكم بمعنى فصل الخصومات أو بمعنى الحكمة و القرية التى كانت تعمل الخبائث سدوم التى نزل بها لوط فى مهاجرته مع إبراهيم عليهما السلام، و المراد بالخبائث الأعمال الخبيثة، و المراد بالرحمه الولايه أو النبوه و لكل وجه، و قد تقدمت قصه لوط عليه السلام فى تفسير سوره هود من الكتاب.

قوله تعالى: وَ نُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، أى و اذكر نوحا إذ نادى ربه قبل إبراهيم و من ذكر معه فاستجبنا له، و نداؤه ما حكاه سبحانه من قوله:

رَبِّهِ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَاتَّصِرْ لِي وَ الْمَرَادُ بِأَهْلِهِ خَاصَتَهُ إِلَّا- امرأته و ابنه الغريق، و الكرب الغم الشديد، و قوله: «وَ نَصَرْنَا مِنْ الْقَوْمِ» كأن النصر مضمن معنى الإنجاء و نحوه و لذا عدى بمن، و الباقي ظاهر.

و قد تقدمت قصه نوح عليه السلام فى تفسير سوره هود من الكتاب (١).

[سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٧٨ الى ٩١]

إشارة

وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كَذَّابًا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كَلَّمَآ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَ عَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لِيَبْسُطَ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ كَذَّابًا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذَكَرْنَا لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكُفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَ إِدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَنْقُذَهُ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمَمِ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَ رَبَّآ رَغْبًا وَ رَهْبًا وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

١-١). الانبياء ٤٨-٧٧: بحث روائى فى قصه ابراهيم عليه السلام و قومہ.

قوله تعالى: وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ -الى قوله- حُكْمًا وَ عِلْمًا الْحَرْثِ الزَّرْعِ وَ الْحَرْثِ أَيضًا الْكَرَمُ، وَ النَفْسُ رَعَى الْمَاشِيَةَ بِاللَّيْلِ، وَ فِي الْمَجْمَعِ: النَفْسُ بَفَتْحِ الْفَاءِ وَ سَكُونِهَا أَنْ تَنْتَشِرَ الْإِبِلُ وَ الْغَنَمُ بِاللَّيْلِ فَتَرعى بِلَا رَاعٍ. انتهى.

و قوله: وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ السِّيَاقُ يعطى أَنهَا وَاقِعُهُ وَاحِدُهُ بعينها رفع حكمها الى داود لكونه هو الملك الحاكم فى بنى إسرائيل و قد جعله الله خليفه فى الأرض كما قال: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (ص / ٢٦)، فإن كان سليمان يداخل فى حكم الواقعة فمن إذن منه و لحكمه ما و لعلها إظهار أهليته للخلافه بعد داود.

و من المعلوم أن لا- معنى لحكم حاكمين فى واقعه واحد شخصيه مع استقلال كل واحد منهما فى الحكم و نفوذه، و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «إِذْ يَحْكُمَانِ» إذ يتناظران أو يتشاوران فى الحكم لا إصدار الحكم النافذ، و يؤيده كمال التأييد التعبير بقوله: «إِذْ يَحْكُمَانِ» على نحو حكاية الحال الماضيه كأنهما أخذتا فى الحكم أخذًا تدريجيا لم يتم بعد و لن يتم إلا حكما واحدا

نافذا و كان الظاهر أن يقال: إذ حكما.

و يؤيده أيضا قوله: «وَ كَذًا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» فإن الظاهر أن ضمير «لِحُكْمِهِمْ» للأنبياء و قد تكرر في كلامه تعالى أنه آتاهم الحكم لا- كما قيل: إن الضمير لداود و سليمان و المحكوم لهم إذ لا وجه يوجه به نسبة الحكم الى المحكوم لهم أصلا، فكان الحكم حكما واحدا هو حكم الأنبياء و الظاهر أنه ضمان صاحب الغنم للمال الذي أتلفته غنمه.

فكان الحكم حكما واحدا اختلفا في كيفية إجراءاته عملا إذ لو كان الاختلاف في أصل الحكم لكان فرض صدور حكمين منهما بأحد وجهين إما بكون كلا الحكمين حكما واقعا لله ناسخا أحدهما- و هو حكم سليمان- الآخر و هو حكم داود لقوله تعالى: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» و إما بكون الحكمين معا عن اجتهاد منهما بمعنى الرأى الظنى مع الجهل بالحكم الواقعى و قد صدق تعالى اجتهاد سليمان فكان هو حكمه.

أما الأول و هو كون حكم سليمان ناسخا لحكم داود فلا- ينبغى الارتياح في أن ظاهر جمل الآية لا يساعد عليه إذ الناسخ و المنسوخ متباينان و لو كان حكماهما من قبيل النسخ و متباينين لقل: و كنا لحكهما أو لحكميهما ليدل على التعدد و التباين و لم يقل: «وَ كَذًا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» المشعر بوحده الحكم و كونه تعالى شاهدا له الظاهر في صونهم عن الخطاء، و لو كان داود حكم في لواقعه بحكم منسوخ لكان على الخطاء، و لا يناسبه أيضا قوله: «وَ كَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا» و هو مشعر بالتأييد ظاهر في المدح.

و أما الثانى و هو كون الحكمين عن اجتهاد منهما مع الجهل بحكم الله الواقعى فهو أبعد من سابقه لأنه تعالى يقول «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» و هو العلم بحكم الله الواقعى و كيف ينطبق على الرأى الظنى بما أنه رأى ظنى. ثم يقول: و كلاً- آتينا حكما و علما فيصدق بذلك أن الذى حكم به داود أيضا كان حكما علميا لا ظنيا و لو لم يشمل قوله: «وَ كَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا» حكم داود في لواقعه لم يكن وجه لإيراد الجملة فى المورد.

على أنك سمعت أن قوله: «وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» لا- يخلو من إشعار بل دلالة على أن الحكم كان واحدا و مصونا عن الخطاء. فلا يبقى إلا أن يكون حكمهما واحدا في نفسه مختلفا من حيث كيفية الإجراء و كان حكم سليمان أوفق و أرفق.

و قد وردت في روايات الشيعة و أهل السنه ما إجماله أن داود حكم لصاحب الحرث برقاب الغنم و سليمان حكم له بمنافعها في تلك السنه من ضرع و صوف و نتاج.

و لعل الحكم كان هو ضمان ما أفسدته الغنم من الحرث على صاحبها و كان ذلك مساويا لقيمه رقاب الغنم فحكم داود لذلك برقابها لصاحب الحرث، و حكم سليمان بما هو أرفق منه و هو أن يستوفى ما أتلفت من ماله من منافعها في تلك السنه و المنافع المستوفاه من الغنم كل سنه تعدل قيمتها قيمه الرقبه عاده.

فقوله: «وَدَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ أَي و اذكر داود و سليمان «إِذْ» حين يحكمان في الحرث «إِذْ» حين «نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ» أى تفرقت فيه ليلا و أفسدته «وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ» أى لحكم الأنبياء، و قيل: الضمير راجع الى داود و سليمان و المحكوم له، و قد عرفت ما فيه، و قيل:

الضمير لداود و سليمان لأن الاثنين جمع و هو كما ترى «شَاهِدِينَ» حاضرين نرى و نسمع و نوقفهم على وجه الصواب فيه «فَفَهَّمْنَاهَا» أى الحكومه و القضييه «سُلَيْمَانَ وَ كُلًّا» من داود و سليمان «آتَيْنَاهُ حِكْمًا وَ عِلْمًا» و ربما قيل: إن تقدير صدر الآيه «و لقد آتينا داود و سليمان علما» إذ يحكمان، الخ.

قوله تعالى: «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ التسخير هو تدليل الشىء بحيث يكون عمله على ما هو عليه فى سبيل مقاصد المسخر -بكسر الخاء- وهذا غير الإجبار و الإكراه و القسر فإن الفاعل فيها خارج عن مقتضى اختياره أو طبقه بخلاف الفاعل المسخر-بفتح الخاء- فإنه جار على مقتضى طبعه و اختياره كما أن إحراق الإنسان الحطب بالنار فعل تسخيرى من النار و ليست بمقسوره و كذا فعل

الأجبر لمؤجره فعل تسخيري من الأجبر و ليس بمجبر و لا مكره.

و من هنا يظهر أن معنى تسخير الجبال و الطير مع داود يسبحن معه أن لهما تسبيحا في نفسيهما و تسخيرهما أن يسبحن مع داود بمواطاه تسبيحه فقوله: «يسبحن معه» بيان لقوله:

«وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ» و قوله: «وَ الطَّيْرَ» معطوف على الجبال.

و قوله: «وَ كُنَّا فَاعِلِينَ» أى كانت أمثال هذه المواهب و العنايات من سنتنا و ليس ما أنعمنا به عليهما ببدع منا.

قوله تعالى: «وَ عَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّصَ نَكْمُكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ» قال فى المجمع: اللبوس اسم للسلاح كله عند العرب-الى أن قال-وقيل: هو الدرع انتهى. و فى المفردات: و قوله تعالى: «صَنَعَهُ لَبُوسٍ لَكُمْ» يعنى به الدرع.

و البأس شده القتال و كأن المراد به فى الآيه شده وقع السلاح و ضمير «وَ عَلَّمْنَاهُ» لداود كما قال فى موضع آخر: «وَ أَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ» و المعنى و علمنا داود صنعه درعكم-أى علمناه كيف يصنع لكم الدرع لتحززكم و تمنعكم شده وقع السلاح و قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ» تقرير على الشكر.

قوله تعالى: «وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ الْخ» عطف على قوله:

«لِداوُدَ» أى و سخرنا لسليمان الريح عاصفه أى شديده الهبوب تجرى الريح بأمره الى الأرض التى باركنا فيها و هى أرض الشام التى كان يأوى إليها سليمان و كنا عالمين بكل شىء.

و ذكر تسخير الريح عاصفه مع أن الريح كانت مسخره له فى حالتى شدتها و رخائها كما قال: «رُخَاءٌ حَيْثُ أَصَابَ» (ص ٣٦) لأن تسخير الريح عاصفه أعجب و أدل على القدره.

قوله تعالى: «وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُغْوِصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ» كان الغوص لاستخراج أمتعته البحر من اللئالى و غيرها، و المراد

بالعمل الذى دون ذلك ما ذكره بقوله: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَائِيلَ وَ جِفَانَ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ (سبأ ١٣)، و المراد بحفظ الشياطين حفظهم فى خدمته و منعهم من أن يهربوا أو يمتنعوا أو يفسدوا عليه الأمر، و المعنى ظاهر و ستجىء قصتا داود و سليمان عليهما السلام فى سورة سبأ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ الضر بالضم خصوص ما يمس النفس من الضرر كالمرض و الهزال و نحوهما و بالفتح أعم.

و قد شملته عليه السلام البليه فذهب ماله و مات أولاده و ابتلى فى بدنه بمرض شديد مده مديده ثم دعا الله و شكى اليه حاله فاستجاب الله له و نجاه من مرضه و أعاد عليه ماله و ولده و مثلهم معهم

و هو قوله فى الآيه التاليه: «فَأَسِيَّبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ» أى نجيناه من مضره و شفيناه «وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ» أى من مات من أولاده «وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ» ليتذكروا و يعلموا أن الله يبتلى أولياءه امتحانا منه لهم ثم يؤتيهم أجرهم و لا يضيع أجر المحسنين.

و ستجىء قصه أيوب عليه السلام فى سورة ص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكُفْلِ الخ؛ أما إدريس عليه السلام فقد تقدمت قصته فى سورة مريم، و أما إسماعيل فستجىء قصته فى سورة الصافات، و تأتى قصه ذى الكفل فى سورة ص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ الخ؛ النون الحوت و ذو النون هو يونس النبى ابن متى صاحب الحوت الذى بعث الى أهل نينوى فدعاهم فلم يؤمنوا فسأل الله أن يعذبهم فلما أشرف عليهم العذاب تابوا و آمنوا فكشفه الله عنهم ففارقهم يونس فابتلاه الله أن ابتلعه حوت فناداه تعالى فى بطنه فكشف عنه و أرسله ثانيا الى

و قوله: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أَى و اذكر ذا النون إذ ذهب مغاضبا أى لقومه حيث لم يؤمنوا به فظن أن لن نقدر عليه أى لن نصيق عليه من قدر عليه رزقه أى ضاق كما قيل .

و يمكن أن يكون قوله: «إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» واردا مورد التمثيل أى كان ذهابه هذا و مفارقه قومه ذهاب من كان مغاضبا لمولاه و هو يظن أن مولاه لن يقدر عليه و هو يفوته بالابتعاد منه فلا يقوى على سياسته و أما كونه عليه السلام مغاضبا لربه حقيقه و ظنه أن الله لا يقدر عليه جدا فمما يجلب ساحه الأنبياء الكرام عن ذلك قطعا و هم معصومون بعصمه الله .

و قوله: فَذَادَى فِي الظُّلُمَاتِ الخ؛فيه إيجاز بالحذف و الكلام متفرع عليه و التقدير فابتلاه الله بالحوت فالتقمه فى بطنه ربه،و الظاهر أن المراد بالظلمات كما قيل -ظلمه البحر و ظلمه بطن الحوت و ظلمه الليل .

و قوله: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ تبر منه عليه السلام مما كان يمثله ذهابه لوجهه و مفارقه قومه من غير أن يؤمر فان ذهابه ذلك كان يمثله -و إن لم يكن قاصدا ذلك متعمدا فيه- أن هناك مرجعا يمكن أن يرجع اليه غير ربه فتبرأ من ذلك بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» و كان يمثله أن من الجائر أن يعترض على فعله فيغاضب منه و أن من الممكن أن يفوته تعالى فائت فيخرج من حيطه قدرته فتبرأ من ذلك بتزيهه بقوله: سبحانك .

و قوله: إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ اعتراف بالظلم من حيث إنه أتى بعمل كان يمثله الظلم و إن لم يكن ظلما فى نفسه و لا هو عليه السلام قصد به الظلم و المعصيه غير أن ذلك كان تأديبا منه تعالى و تربييه لنبيه ليطأ بساط القرب بقدم مبرأه فى مشيتها من تمثيل الظلم فضلا عن نفس الظلم .

قوله تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ

هو عليه السلام وإن لم يصرح بشيء من الطلب و الدعاء، وإنما أتى بالتوحيد و التنزيه و اعترف بالظلم لكنه أظهر بذلك حاله و أبدى موقفه من ربه و فيه سؤال النجاه و العافيه فاستجاب الله له.

و نجاه من الغم و هو الكرب الذى نزل به.

و قوله: **وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ** وعد بالإنجاء لمن ابتلى من المؤمنين بغم ثم نادى ربه بمثل ما نادى به يونس عليه السلام و ستجىء قصته عليه السلام فى سورة الصافات إن شاء الله.

قوله تعالى: **وَ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ** معطوف على ما عطف عليه ما قبله أى و اذكر زكريا حين نادى ربه يسأل ولدا و قوله: **«رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا»** بيان لندائه، و المراد بتركه فردا أن يترك و لا ولد له يرثه.

و قوله: **«وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ** ثناء و تحميد له تعالى بحسب لفظه و نوع تنزيه له بحسب المقام إذ لما قال: **«لَا تَذَرْنِي فَرْدًا»** و هو كناية عن طلب الوارث و الله سبحانه هو الذى يرث كل شىء نزهه تعالى عن مشاركه غيره له فى معنى الوراثه و رفعه عن مساواه غيره فقال: **«وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ»**.

قوله تعالى: **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَاصْبِلِحْنَا لَهُ زَوْجَهُ**؛ ظاهر الكلام أن المراد بإصلاح زوجه أى زوج زكريا له جعلها شابه ولودا بعد ما كانت عاقرا كما يصرح به فى دعائه **وَ كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا** (مريم/٨).

و قوله: **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ظاهر السياق أن ضمير الجمع لبيت زكريا، و كأنه تعليل لمقدر معلوم من سابق الكلام و التقدير نحو من قولنا: انعمنا عليهم لأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات.

و الرغب و الرهب مصدران كالرغبه و الرهبه بمعنى الطمع و الخوف و هما تمييزان إن كانا باقين على معنهما المصدرى و حالان إن كانا بمعنى الفاعل، و الخشوع هو تأثير القلب من مشاهدته العظمه و الكبرياء.

و المعنى: أنعمنا عليهم لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات من الأعمال و يدعوننا رغبة في رحمتنا أو ثوابنا رهبة من غضبنا أو عقابنا أو يدعوننا راغبين راهبين و كانوا لنا خاشعين بقلوبهم.

و قد تقدمت قصه زكريا و يحيى عليهما السلام فى أوائل سورة مريم.

قوله تعالى: وَ الَّتِي أَحْصَيْتِ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوْحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ المراد بالتي أحصنت فرجها مريم ابنة عمران و فيه مدح لها بالعفة و الصيانة و ردّ لما اتهمها به اليهود.

و قوله: فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوْحِنَا الضمير لمريم و النفخ فيها من الروح كناية عن عدم استناد ولاده عيسى عليه السلام الى العاده الجارية فى كينونه الولد من تصور النطفه أولا ثم نفخه الروح فيها فإذا لم يكن هناك نطفه مصوره لم يبق إلا نفخ الروح فيها و هى الكلمه الإلهيه كما قال: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران / ٥٩) أى مثلهما واحد فى استغناء خلقهما عن النطفه.

و قوله: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ أفرد الآيه فعدهما أعنى مريم و عيسى عليهما السلام معا آيه واحده للعالمين لأن الآيه هى الولاده كذلك و هى قائمه بهما معا و مريم أسبق قدما فى إقامه هذه الآيه و لذا قال تعالى: «وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً» و لم يقل: و جعلنا ابنها و إياها آيه. و كفى لها فخرا أن يدخل ذكرها فى ذكر الأنبياء عليهم السلام فى كلامه تعالى و ليست منهم (١).

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٢ الى ١١٢]

إشارة

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَذَلِكِ الْبَيْتِ الرَّاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَ حَرَامٌ عَلَى قَرْبِهِ أَهْلُكِنَاهُمْ لَأَنْهُمْ لَا يَزْعَمُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَا أُجُوجَ وَ مَا أُجُوجَ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حُدُبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَ عِيدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَ إِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ أَعْصِمْنِي مِنَ الْهَمِّ وَ رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُشْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

١-١) الانبياء ٧٨-٩١: بحث روائي في قصة داود و سليمان و ذا النون.

قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ الامه جماعه يجمعها مقصد واحد، و الخطاب فى الآيه على ما يشهد به سياق الآيات -خطاب عام يشمل جميع الأفراد المكلفين من الإنسان، والمراد بالامه النوع الانسانى الذى هو نوع واحد، و تأنيث الإشاره فى قوله: «هَذِهِ أُمَّتُكُمْ» لتأنيث الخبر.

و المعنى: أن هذا النوع الإنسانى أمتكم معشر البشر و هى أمه واحده و أنا-لله الواحد عز اسمه-ربكم إذ ملكتكم و دبرت أمركم فاعبدونى لا غير.

و فى قوله: أُمَّةً وَاحِدَةً إشاره الى حجه الخطاب بالعباده لله سبحانه فإن النوع الإنسانى لما كان نوعا واحدا و أمه واحده ذات مقصد واحد و هو سعادته الحياه الإنسانيه لم

يكن له إلا رب واحد إذ الربوبية والالوهية ليست من المناصب التشريفيه الوضعيه حتى يختار الإنسان منها لنفسه ما يشاء وكم يشاء وكيف يشاء بل هي مبدئيه تكوينيه لتدبير أمره، والإنسان حقيقه نوعيه واحده، والنظام الجارى فى تدبير أمره نظام واحد متصل مرتبط بعضى أجزائه ببعض، ونظام التدبير الواحد لا يقوم به إلا مدبر واحد فلا معنى لأن يختلف الإنسان فى أمر الربوبيه فيتخذ بعضهم ربا غير ما يتخذه الآخر أو يسلك قوم فى عبادته غير ما يسلكه الآخرون فالإنسان نوع واحد يجب أن يتخذ ربا واحد هو رب بحقيقه الربوبيه.

و هو الله عز اسمه.

قوله تعالى: «وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ راجِعُونَ التَّقَطُّعُ عَلَى مَا قَالَ فى مجمع البيان بمعنى التقطيع و هو التفريق، وقيل: هو بمعناه المتبادر و هو التفرق و الاختلاف و «أَمْرَهُمْ» منصوب بنزع الخافض، و التقدير فتقطعوا فى أمرهم وقيل «تَقَطُّعُوا» مضمن معنى الجعل و لذا عدى الى المفعول بنفسه.

و كيف كان فقوله: «فَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ» استعاره بالكنايه و المراد به أنهم جعلوا هذا الأمر الواحد و هو دين التوحيد المندوب اليه من طريق النبوه و هو أمر وحدانى قطعاً متقطعاً وزعوه فيما بينهم أخذ كل منهم شيئاً منه و ترك شيئاً كالوثنيين و اليهود و النصرى و المجوس و الصابئين على اختلاف طوائفهم و هذا نوع تقريع للناس و ذم لاختلافهم فى الدين و تركهم الأمر الإلهى أن يعبدوه وحده.

و قوله: «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ راجِعُونَ» فيه بيان أن اختلافهم فى أمر الدين لا يترك سدى لا أثر له بل هؤلاء راجعون الى الله جميعاً و هم مجزيون حسب ما اختلفوا كما يلوح اليه التفصيل المذكور فى قوله بعد: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ» الخ.

و الفصل فى جملة «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ راجِعُونَ» لكونها فى معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فى أى م ينتهى اختلافهم فى أمر الدين؟ و ما ذا ينتج؟ فقيل: كل الينا راجعون فجازيهم كما

قوله تعالى: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِذَا لَهُ كَاتِبُونَ** تفصيل لحال المختلفين بحسب الجزاء الاخرى و سياتى ما فى معنى تفصيل جزائهم فى الدنيا من قوله: **«وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ»**.

فقوله: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ** أى من يعمل منهم شيئا من الأعمال الصالحات و قد قيد عمل بعض الصالحات بالإيمان إذ قال: **«وَهُوَ مُؤْمِنٌ»** فلا أثر للعمل الصالح بغير إيمان.

و المراد بالإيمان-على ما يظهر من السياق و خاصه قوله فى الآيه الماضيه: **«وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونِ»**-الإيمان بالله قطعاً غير أن الإيمان بالله لا يفارق الإيمان بأنبيائه من دون استثناء لقوله: **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ**-الى قوله- **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** (النساء ١٥١/).

و قوله: **فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ** أى لا ستر على ما عمله من الصالحات و الكفران يقابل الشكر و لذا عبر عن هذا المعنى فى موضع آخر بقوله: **وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا** (الدهر / ٢٢).

و قوله: **وَ إِذَا لَهُ كَاتِبُونَ** أى مثبتون فى صحائف الأعمال إثباتا لا ينسى معه فالمراد بقوله: **«فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ»** أن عمله الصالح لا ينسى و لا يكفر.

و الآيه من الآيات الداله على أن قبول العمل الصالح مشروط بالإيمان كما تؤيده آيات حبط الأعمال مع الكفر، و تدل أيضا على أن المؤمن العامل لبعض الصالحات من أهل النجاه.

قوله تعالى: **وَ حَرَامٌ عَلَى قَوْمِهِ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** الذى يستبق من

الآية الى الذهن بمعونه من سياق التفصيل أن يكون المراد أن أهل القرية التي أهلكتها لا يرجعون ثانيا الى الدنيا ليحصلوا على ما فقدوه من نعمه الحياه و يتداركوا ما فوتوه من الصالحات و هو واقع محل أحد طرفي التفصيل الذي تضمن طرفه الآخر قوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» الخ؛ فيكون الطرف الآخر من طرفي التفصيل أن من لم يكن مؤمنا قد عمل من الصالحات فليس له عمل مكتوب و سعى مشكور و إنما هو خائب خاسر ضل سعيه في الدنيا و لا سبيل له الى حياه ثانيه في الدنيا يتدارك فيها ما فاته.

غير أنه تعالى وضع المجتمع موضع الفرد إذ قال: «وَ حَرَامٌ عَلَيَّ قَوْلِيهِ أَهْلَكْتُهَا» و لم يقل:

و حرام على من أهلكتها لأن فساد الفرد يسرى بالطبع الى المجتمع و ينتهى الى طغيانهم فيحق عليهم كلمه العذاب فيهلكون كما قال: «وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا (الإسراء ٥٨)».

و يمكن -على بعد- أن يكون المراد بالإهلاك الإهلاك بالذنوب بمعنى بطلان استعداد السعاده و الهدى كما فى قوله: «وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (الأنعام ٢٦)» فتكون الآية فى معنى قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ (النحل ٣٧)»، و المعنى و حرام على قوم أهلكتهم بذنوبهم و قضينا عليهم الضلال أن يرجعوا الى التوبه و حال الاستقامه.

و معنى الآية و القرية التى لم تعمل من الصالحات و هى مؤمنه و انجز أمرها الى الإهلاك ممتنع عليهم أن يرجعوا فيتداركوا ما فاتهم من السعى المشكور و العمل المكتوب المقبول.

و أما قوله: «أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» و كان الظاهر أن يقال: أنهم يرجعون فالحق أنه مجاز عقلى وضع فيه نتيجة تعلق الفعل بشيء -أعنى ما يؤول اليه حال المتعلق بعد تعلقه به- موضع نفس المتعلق فنتيجة تعلق الحرمة برجوعهم عدم الرجوع فوضعت هذه النتيجة موضع نفس الرجوع الذى هو متعلق الحرمة و فى هذا الصنع إفاده نفوذ الفعل كأن الرجوع يصير بمجرد تعلق الحرمة عدم رجوع من غير تخلل فصل.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ الحدب بفتحين الارتفاع من الأرض بين الانخفاض، والنسول الخروج بإسراع ومنه نسلان الذئب، والسياق يقتضى أن يكون قوله: «حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ» الخ؛ غايه للتفصيل المذكور فى قوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ» الى آخر الآيتين؛ و أن يكون ضمير الجمع راجعا الى يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ.

و المعنى: لا- يزال الأمر يجرى هذا المجرى نكتب الأعمال الصالحة للمؤمنين و نشكر سعيهم و نهلك القرى الظالمة و نحرم رجوعهم بعد الهلاك الى الزمان الذى يفتح فيه يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أى سدهم أو طريقيهم المسدود و هم أى يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ يخرجون الى سائر الناس من ارتفاعات الأرض مسرعين نحوهم و هو من أشرط الساعه و أمارات القيامه كما يشير اليه بقوله: فَمَآذَا جَاءَ وَعِيدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعِيدُ رَبِّي حَقًّا وَ تَرَكَنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (الكهف/٩٩) و قد استوفينا الكلام فى معنى يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ و السد المضروب دونهم فى تفسير سوره الكهف.

قوله تعالى: وَ اقْتَرَبَ الْوَعِيدُ الْحَقُّ فَمَآذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛ المراد بالوعد الحق الساعه، و شخوص البصر نظره بحيث لا- تطرف أجفانه، و كذا ذكره الراغب و هو لازم كمال اهتمام الناظر بما ينظر اليه بحيث لا يشتغل بغيره و يكون غالبا من الشر الذى يظهر للإنسان بغيته.

و قوله: يَا وَيْلَتَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا حِكَايَه قول الكفار إذا شاهدوا الساعه بغيته فدعوا لأنفسهم بالويل مدعين أنهم غفلوا عما يشاهدونه كأنهم أغفلوا إغفالا ثم أضربوا عن ذلك بالاعتراف بأن الغفله لم تنشأ إلا عن ظلمهم بالاشتغال بما ينسى الآخره و يغفل عنها من أمور الدنيا فقالوا: «بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ» .

قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا

وَأَرِدُونَ الْحَصْبَ الْوَقُودَ، وَقِيلَ: الْحَطْبُ، وَقِيلَ: أَصْلُهُ مَا يرمى فِي النَّارِ فَيَكُونُ أَعْمَ.

والمراد بقوله: وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و لم يقل: و من تعبدون-مع تعبيره تعالى عن الأصنام في أغلب كلامه بألفاظ تختص بأولى العقل كما في قوله بعد: «مَا وَرَدُوهَا» - الأصنام و التماثيل التي كانوا يعبدونها دون المعبودين من الأنبياء و الصلحاء و الملائكة كما قيل و يدل على ذلك قوله بعد: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ» الخ.

و الظاهر أن هذه الآيات من خطابات يوم القيامة للكفار و فيها القضاء بدخولهم في النار و خلودهم فيها لا أنها إخبار في الدنيا بما سيجرى عليهم في الآخرة و استدلال على بطلان عبادة الأصنام و اتخاذهم آلهة من دون الله.

و قوله: أَنْتُمْ لَهُمْ وَإِرْدُونَ اللَّامِ لِتَأْكِيدِ التَّعْدِي أَوْ بِمَعْنَى الْي، و ظاهر السياق أن الخطاب شامل للكفار و الآلهة جميعا أي أنتم و آلهتكم تردون جهنم أو تردون إليها.

قوله تعالى: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ تفریع و إظهار لحقيقته حال الآلهة التي كانوا يعبدونها لتكون لهم شفعاء، و قوله: «وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ» أي كل منكم و من الآلهة.

قوله تعالى: لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ الزفير هو الصوت برد النفس الى داخل و لذا فسر بصوت الحمار، و كونهم لا يسمعون جزاء عدم سمعهم في الدنيا كلمة الحق كما أنهم لا يبصرون جزاء لإعراضهم عن النظر في آيات الله في الدنيا.

و في الآيه عدول عن خطاب الكفار الى خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم إعراضا عن خطابهم ليبين سوء حالهم لغيرهم، و عليه فضمائر الجمع للكفار خاصة لا لهم و لآلهة معا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ الْحُسْنَىٰ مؤنث أحسن و هي وصف قائم مقام موصوفه و التقدير العدة أو الموعدة الحسنى بالنجاه أو بالجنة و الموعدة بكل منهما وارد في كلامه تعالى قال: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذُرُ

الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (مريم ٧٢)، و قال: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ (التوبه / ٧٢).

قوله تعالى: لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً بِهَا - الى قوله- تُوعَدُونَ الحسيس الصوت الذى يحس به، و الفزع الأكبر الخوف الأعظم و قد أخبر سبحانه عن وقوعه فى نفخ الصور حيث قال: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (النمل ٨٧).

و قوله: وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ» أى بالبشرى و هى قولهم: «هذا يومكم الذى كنتم تُوعَدُونَ» .

قوله تعالى: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ الى آخر الآيه؛ قال فى المفردات: و السجل قيل: حجر كان يكتب فيه ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلا قال تعالى: «كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكِتَابِ» أى كطيه لما كتب فيه حفظا له، انتهى.

و هذا أوضح معنى قيل فى معنى هذه الكلمه و أبسطه.

و على هذا فقوله: لِلْكِتَابِ مفعول طى كما أن السجل فاعله و المراد أن السجل و هو الصحيفة المكتوب فيها الكتاب إذا طوى انطوى بطيه الكتاب و هو الألفاظ أو المعانى التى لها نوع تحقق و ثبوت فى السجل بتوسط الخطوط و النقوش فغاب الكتاب بذلك و لم يظهر منه عين و لا أثر كذلك السماء تنطوى بالقدره الإلهيه كما قال: وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر / ٦٧) فتغيب عن غيره و لا يظهر منها عين و لا أثر غير أنها لا تغيب عن عالم الغيب و إن غاب عن غيره كما لا يغيب الكتاب عن السجل و إن غاب عن غيره.

فطى السماء على هذا رجوعها الى خزائن الغيب بعد ما نزلت منها و قدرت كما قال تعالى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١) و قال مطلقا:

وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (آل عمران ٢٨) و قال: إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعِي (العلق ٨).

و لعله بالنظر الى هذا المعنى قيل: إن قوله «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» ناظر الى رجوع كل

شيء الى حاله التي كان عليه حين ابتدئ خلقه و هي أنه لم يكن شيئاً مذكوراً كما قال تعالى:

وَ قَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً (مريم ٩)، و قال: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (الدهر ١).

و قوله: وَ عِدّاً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ أَي وعدناه وعد الزمنا ذلك و وجب علينا الوفاء به و إنا كنا فاعلين لما وعدنا و سنتنا ذلك.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْمَأْرُضَ يَرِيئُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ الظاهر أن المراد بالزبور كتاب داود عليه السلام و قد سمي بهذا الاسم في قوله:

وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (النساء ١٦٣)، (الإسراء ٥٥)، و قيل: المراد به القرآن، و قيل:

مطلق الكتب المنزلة على الأنبياء أو على الأنبياء بعد موسى و لا دليل على شيء من ذلك.

و المراد بالذكر قيل: هو التوراه و قد سماها الله به في موضعين من هذه السوره و هما قوله:

فَسَيُلْأُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (الآيه ٧) و قوله: وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (الآيه ٤٨)، و قيل: هو القرآن و قد سماه الله ذكرا في مواضع من كلامه و كون الزبور بعد الذكر على هذا القول بعديه رتبيه لا زمانيه و قيل: هو اللوح المحفوظ و هو كما ترى.

و قوله: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِيئُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ الوراثه و الإرث على ما ذكره الراغب انتقال قنيه اليك من غير معامله.

و المراد من وراثه الأرض انتقال التسلط على منافعها اليهم و استقرار بركات الحياه بها فيهم، و هذه البركات إما دنيويه راجعه الى الحياه الدنيا كالتمتع الصالح بأمعتها و زيناتها فيكون مؤدى الآيه أن الأرض ستتطهر من الشرك و المعصيه و يسكنها مجتمع بشري صالح يعبدون الله و لا- يشركون به شيئا كما يشير اليه قوله تعالى: وَ عِبَادَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ - الى قوله - يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً (النور ٥٥).

و إما أخرويّه و هي مقامات القرب التي اكتسبها في حياتهم الدنيا فإنها من بركات الحياه الأرضيه و هي نعيم الآخره كما يشير اليه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَبِيًّا وَمِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ (الزمر ٧٤)، و قوله: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ (المؤمنون ١١).

قوله تعالى: إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ البلاغ هو الكفايه، و أيضا ما به بلوغ البغيه، و أيضا نفس البلوغ، و معنى الآيه مستقيم على كل من المعاني الثلاثة، و الإشاره بهذا الى ما بين في السوره من المعارف.

و المعنى: أن فيما بيناه في السوره- أن الرب واحد لا رب غيره يجب أن يعبد من طريق النبوه و يستعد بذلك ليوم الحساب، و أن جزاء المؤمنين كذا و كذا و جزاء الكافرين كيت و كيت- كفايه لقوم عابدين إن أخذوه و عملوا به كفاهم و بلغوا بذلك بغيتهم.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ أَى أنك رحمة مرسله الى الجماعات البشريه كلهم- و الدليل عليه الجمع المحلى اللام- و ذلك مقتضى عموم الرساله.

و هو صَلَّى الله عليه و آله و سلم رحمه لأهل الدنيا من جهة إتيانه بدين في الأخذ به سعادته أهل الدنيا في دنياهم و أخراهم.

و هو صَلَّى الله عليه و آله و سلم رحمه لأهل الدنيا من حيث الآثار الحسنه التي سرت من قيامه بالدعوه الحقه في مجتمعاتهم مما يظهر ظهورا بالغيا بقياس الحياه العامه البشريه اليوم الى ما قبل بعثته صَلَّى الله عليه و آله و سلم و تطبيق إحدى الحياتين على الاخرى.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّكُمْ إِلهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَى إن الذي يوحى الى من الدين ليس إلا التوحيد و ما يتفرع عليه و ينحل اليه سواء كان عقيده أو حكما و الدليل على هذا الذي ذكرنا ورود الحصر و ظهوره في الحصر الحقيقي.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتَكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ الْإِيذَانِ- كما قيل -إفعال من الإذن و هو العلم بالإجازة فى شىء و ترخيصه ثم تجوز به عن مطلق العلم و اشتق منه الأفعال و كثيرا ما يتضمن معنى التحذير و الإنذار.

و قوله: عَلَىٰ سَوَاءٍ الظاهر أنه حال من مفعول «آذَنْتَكُمْ» و المعنى فإن أعرضوا عن دعوتك و تولوا عن الإسلام لله بالتوحيد فقل: أعلمتكم أنكم على خطرها لكونكم مساوين فى الإعلام أو فى الخطر، و قيل: أعلمتكم بالحرب و هو بعيد فى سورة مكيه.

قوله تعالى: وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبَٰ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعِدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ تتمه قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم المأمور به.

و المراد بقوله: «مَّا تُوعِدُونَ» ما يشير اليه قوله: «آذَنْتَكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ» من العذاب المهدد به أمر صلى الله عليه و آله و سلم أولا أن يعلمهم الخطر إن تولوا عن الإسلام، و ثانيا أن ينفى عن نفسه العلم بقرب وقوعه و بعده و يعلله بقصر العلم بالجهر من قولهم -و هو طعنهم فى الإسلام و استهزاءؤهم علنا- و ما يكتمون من ذلك، فى الله سبحانه فهو العالم بحقيقه الأمر.

و منه يعلم أن منشأ توجه العذاب اليهم هو ما كانوا يطعنون به فى الإسلام فى الظاهر و ما يبطنون من المكر كأنه قيل: إنهم يستحقون العذاب بإظهارهم القول فى هذه الدعوه الإلهيه و إضمارهم المكر عليه فهدهم به لكن لما كنت لا تحيط بظاهر قولهم و باطن مكرهم و لا تقف على مقدار اقتضاء جرمهم العذاب من جهه قرب الأجل و بعده فأنف العلم بخصوصيه قربه و بعده عن نفسك و ارجع العلم بذلك الى الله سبحانه و وحده.

و قد علم بذلك أن المراد بالجهر من القول ما أظهره المشركون من القول فى الإسلام طعنا و استهزاء، و بما كانوا يكتمون ما أبطنوه عليه من المكر و الخدعه.

قوله تعالى: وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ من تتمه قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم المأمور به و ضمير «لَعَلَّهُ» على ما قيل كناية عن غير مذكور و لعله راجع الى

الإيذان المأمور به، والمعنى و ما أدري لعل هذا الإيذان الذى أمرت به أى مراده تعالى من أمره لى بإعلام الخطر امتحان لكم ليظهر به ما فى باطنكم فى أمر الدعوه فهو يريد به أن يمتحنكم و يمتعكم الى حين و أجل استدراجا و إمهالا.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ الضمير فى «قَالَ» للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و الآيه حكاية قول النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم عن دعوتهم الى الحق و ردهم له و توليهم عنه فكأنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم لما دعاهم و بلغ اليهم ما أمر بتبليغه فأنكروا و شددوا فيه أعرض عنهم الى ربه منيبا اليه و قال: «رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ» و تقييد الحكم بالحق توضيحي لا احترازي فإن حكمه تعالى لا يكون إلا حقا فكأنه قيل: رب احكم بحكمك الحق و المراد ظهور الحق لمن كان و على من كان.

ثم التفت صَلَّى الله عليه و آله و سلم اليهم و قال: «وَ رَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ» و كأنه يشير به الى سبب إعراضه عنهم و رجوعه الى الله سبحانه و سؤاله أن يحكم بالحق فهو سبحانه ربه و ربهم جميعا فله أن يحكم بين مربوبيه، و هو كثير الرحمه لا يخيب سائله المنيب اليه، و هو الذى يحكم لا معقب لحكمه و هو الذى يحق الحق و يبطل الباطل بكلماته فهو صَلَّى الله عليه و آله و سلم فى كلمته «رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ» راجع الذى هو ربه و ربهم و سأله برحمته أن يحكم بالحق و استعان به على ما يصفونه من الباطل و هو نعتهم دينهم بما ليس فيه و طعنهم فى الدين الحق بما هو برىء من ذلك (١).

ص: ٢٩١

١- ١). الانبياء ٩٢-١١٢: بحث روائى فى المشركين و ما يعبدون من دون الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

السوره تخاطب المشركين بأصول الدين إنذارا و تخويفا كما كانوا يخاطبون فى السور النازله قبل الهجره فى سياق يشهد بأن لهم بعد شوكة و قوه، و تخاطب المؤمنين بمثل الصلاه و مسائل الحج و عمل الخير و الإذن فى القتال و الجهاد فى سياق يشهد بأن لهم مجتمعا حديث العهد بالانعقاد قائما على ساق لا يخلو من عده و عده و شوكة.

و يتعين بذلك أن السوره مدنيه نزلت بالمدينه ما بين هجره النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و غزوه بدر

و غرضها بيان أصول الدين بيانا تفصيليا ينتفع بها المشرك و الموحد و فروعها بيانا اجماليا ينتفع بها الموحدون من المؤمنين إذ لم يكن تفاصيل الأحكام الفرعية مشرعه يومئذ إلا مثل الصلاة و الحج كما فى السوره.

و لكون دعوه المشركين الى الاصول من طريق الإنذار و كذا ندب المؤمنين الى إجمال الفروع بلسان الأمر بالتقوى بسط الكلام فى وصف يوم القيامة و افتتح السوره بالزلزله التى هى من أشراطها و بها خراب الأرض و اندكاك الجبال.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ الزلزله و الزلزال شده الحركه على الحال الهائله و كأنه مأخوذ بالاشتقاق الكبير من زل بمعنى زلق فكرر للمبالغه و الإشاره الى تكرار الزله، و هو شائع فى نظائره مثل ذب و ذبذب و دم و دمدم و كب و كبكب و دك و دكدك و رف و رفرف و غيرها.

الخطاب يشمل الناس جميعا من مؤمن و كافر و ذكر و أنثى و حاضر و غائب و موجود بالفعل و من سيوجد منهم، و ذلك بجعل بعضهم من الحاضرين وصله الى خطاب الكل لاتحاد الجميع بالنوع.

و هو أمر الناس أن يتقوا ربهم فيتقيه الكافر بالإيمان و المؤمن بالتجنب عن مخالفه أوامره و نواهيه فى الفروع، و قد علل الأمر بعظم زلزله الساعه فهو دعوه من طريق الإنذار.

و إضافه الزلزله الى الساعه لكونها من أشراطها و أماراتها، و قيل: المراد بزلزله الساعه شدتها و هولها، و لا يخلو من بعد من جهة اللفظ.

قوله تعالى: يَوْمَ تَرُوثُهَا تَذَهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ الذهول الذهاب عن الشىء مع دهشه، و الحمل بالفتح الثقل المحمول فى الباطن كالولد فى البطن و بالكسر الثقل المحمول فى الظاهر كحمل بعير قاله الراغب. و قال فى مجمع البيان: الحمل بفتح الحاء ما كان فى بطن أو على رأس شجره، و الحمل بكسر الحاء ما كان على ظهر أو على رأس.

قال في الكشاف: إن قيل: لم قيل «مُرَضَّةٌ بِهِ» دون مرضع؟ قلت: المرضعه التي هي في حال الإرضاع ملقمه ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل: مرضعه ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعتة عن فيه لما يلحقها من الدهشه.

وقال: فإن قلت: لم قيل أولاً: ترون ثم قيل: ترى على الافراد؟ قلت: لأن الرؤيه أولاً علقته بالزلزله فجعل الناس جميعاً راثين لها، وهي معلقه أخيراً بكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم راثياً لسائرهم. انتهى.

وقوله: وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ نَفَى السُّكْرَ بَعْدَ إِثْبَاتِهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ سُكْرَهُمْ وَ هُوَ ذَهَابُ الْعُقُولِ وَ سَقُوطُهَا فِي مَهْبَطِ الدَّهْشَةِ وَ الْبَهْتِ لَيْسَ مَعْلُولًا لِلْخَمْرِ بَلْ شَدَّ عَذَابُ اللَّهِ هِيَ الَّتِي أَوْقَعْتَهَا فِيمَا وَقَعَتْ وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (هود ١٠٢).

و ظاهر الآيه أن هذه الزلزله قبل النفخه الاولى التي يخبر تعالى عنها بقوله: وَ نَفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ (الزمر ٦٨) وذلك لأن الآيه تفرض الناس في حال عاديه تفاجئهم فيها زلزله الساعة فتقلب حالهم من مشاهدتها الى ما وصف، وهذا قبل النفخه التي تموت بها الأحياء قطعاً.

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٣ الى ١٦]

اشاره

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مَخْلُقَةٍ لِّتَبَيَّنَ لَكُمْ وَ نَقُفُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنتَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًىٰ وَ لَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ (٨) ذَانِهِ عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ اِنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَسِّ الْمَوْلَىٰ وَ لِبَسِّ الْعَشِيرِ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

قوله تعالى: **وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ** المرید الخبيث و قيل: المتجرد و المعرى من الخير، و المجادله فى الله بغير علم التكلم فيما يرجع اليه تعالى من صفاته و أفعاله بكلام مبنى على الجهل بالاصرار عليه.

و قوله: **وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ** بيان لمسلكه فى الاعتقاد و العمل بعد بيان مسلكه فى القول كأنه قيل: إنه يقول فى الله بغير علم و يصر على جهله، و يعتقد بكل باطل و يعمل به و إذ كان الشيطان هو الذى يهدى الإنسان الى الباطل و الإنسان إنما يميل اليه بإغوائه فهو يتبع فى كل ما يعتقد و يعمل به الشيطان فقد وضع اتباع الشيطان فى الآيه موضع الاعتقاد

و العمل للدلالة على الكيفيه و ليسين فى الآيه التاليه أنه ضال عن طريق الجنه سالك الى عذاب السعير.

و قد قال تعالى: **وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ** و لم يقل: و يتبع الشيطان المرید و هو إبليس للدلالة على تلبسه بفنون الضلال و أنواعه فإن أبواب الباطل مختلفه و على كل باب شيطاناً من قبيل إبليس و ذريته و هناك شياطين من الإنس يدعون الى الضلال فيقلدهم أولياؤهم الغاؤون و يتبعونهم و إن كان كل تسويل و وسوسه متتها الى إبليس لعنه الله.

و الكلمه أعنى قوله: **«وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ»** مع ذلك كناية عن عدم انتهائه فى اتباع الباطل الى حد يقف عليه لبطان استعداده للحق و كون قلبه مطبوعاً عليه فهو فى معنى قوله: **وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** - **وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** (الأعراف / ١٤٦).

قوله تعالى: **كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ** و **يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** التولى أخذه و ليا متبعاً، و قوله: **«فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ»** الخ؛ مبتدأ محذوف الخبر، و المعنى و يتبع كل شيطان مرید من صفته أنه كتب عليه أن من اتخذه و ليا و اتبعه فإضلاله له و هدايته إياه الى عذاب السعير ثابت لازم.

و المراد بكتابتته عليه القضاء الإلهى فى حقه بإضلاله متبعيه أولاً و إدخاله إياهم النار ثانياً، و هذان القضاءان هما اللذان أشار اليهما فى قوله: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ** و **إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** (الحجر ١٤٣) و قد تقدم الكلام فى توضيح ذلك فى الجزء الثانى عشر من الكتاب.

قوله تعالى: **إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ** - الى قوله - **شَيْئاً المراد بالبعث إحياء الموتى و الرجوع الى الله سبحانه و هو ظاهر، و العلقه القطعه من الدم الجامد، و المضغه القطعه من اللحم المضوغه و الخلقه على ما قيل**

-تامه الخلقه و غير المخلقه غير تامتها و ينطبق على تصوير الجنين الملازم لنفخ الروح فيه، و عليه ينطبق القول بأن المراد بالتخليق التصوير.

و قوله: لُتَبَيَّنَ لَكُمْ ظاهر السياق أن المراد لنبيين لكم أن البعث ممكن و نزيل الريب عنكم فإن مشاهدته الانتقال من التراب الميت إلى النطفه ثم إلى العلقه ثم إلى المضغه ثم إلى الإنسان الحى لا تدع ريبا فى إمكان تلبس الميت بالحياه و لذلك وضع قوله: «لُتَبَيَّنَ لَكُمْ» فى هذا الموضع و لم يؤخر إلى آخر الآيه.

و قوله: وَ نُفِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَيَّءٍ أَى و نقر فيها ما نشاء من الأجنه و لا نسقطه الى تمام مده الحمل ثم نخرجكم طفلا، قال فى المجمع: أى نخرجكم من بطون أمهاتكم و أنتم أطفال، و الطفل الصغير من الناس، و إنما وحد و المراد به الجمع لأنه مصدر كقولهم: رجل عدل و رجال عدل، و قيل: أراد ثم نخرج كل واحد منكم طفلا. انتهى، و المراد ببلوغ الأشد حال اشتداد الأعضاء و القوى.

و قوله: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ المقابله بين الجملتين تدل على تقييد الاولى بما يميزها من الثانيه و التقدير و منكم من يتوفى من قبل أن يرد الى أردل العمر، و المراد بأردل العمر أحقره و أهونه و ينطبق على حال الهرم فإنه أردل الحياه إذا قيس الى ما قبله.

و قوله: لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا أَى شيئا يعتد به أرباب الحياه و يبنون عليه حياتهم، و اللام للغايه أى ينتهى أمره الى ضعف القوى و المشاعر بحيث لا يبقى له من العلم الذى هو أنفس محصول للحياه شىء يعتد به لها.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ قال الراغب: يقال: همدت النار طففت، و منه أرض هامده لا نبات فيها، و نبات هامد يابس، قال تعالى: «وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً» انتهى و يقرب

منه تفسيرها بالأرض الهالكة.

وقال أيضا: الهز التحريك الشديد يقال: هزرت الرمح فاهتز و اهتز النبات إذا تحرك لنضارته، وقال أيضا: ربا إذا زاد و علا، قال تعالى: «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ» أى زادت زياده المتربى. انتهى بتلخيص ما.

وقوله: وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أى و أنبتت الأرض من كل صنف من النبات متصف بالبهجه و هى حسن اللون و ظهور السرور فيه، أو المراد بالزوج ما يقابل الفرد فإن كلامه يثبت للنبات ازدواجا كما يثبت له حياه، و قد وافقته العلوم التجريبيه اليوم.

و المحصل أن للأرض فى إنباتها و إنمائها له شأن يماثل شأن الرحم فى إنباته الحيوى للتراب الصائر نطفه ثم علقه ثم مضغه الى أن يصير إنسانا حيا.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ذلك إشاره الى ما ذكر فى الآيه السابقه من خلق الإنسان و النبات و تدبير أمرهما حدوثا و بقاء خلقا و تدبيرا واقعيين لا ريب فيهما.

و الذى يعطيه السياق أن المراد بالحق نفس الحق-أعنى أنه ليس وصفا قائما مقام موصوف محذوف هو الخبر-فهو تعالى نفس الحق الذى تحقق كل شىء حق و يجرى فى الأشياء النظام الحق فكونه تعالى حقا يتحقق به كل شىء حق هو السبب لهذه الموجودات الحقه و النظمات الحقه الجاربه فيها، و هى جميعا تكشف عن كونه تعالى هو الحق.

وقوله: وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ معطوف على ما قبله أى المذكور فى الآيه السابقه من صيروره التراب الميت بالانتقال الى حال إنسانا حيا و كذا صيروره الأرض الميتة بنزول الماء نباتا و استمرار هذا الأمر بسبب أن الله يحيى الموتى و يستمر منه ذلك.

وقوله: وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ معطوف على سابقه كسابقه و المراد أن ما ذكرناه بسبب أن الله على كل شىء قدير و ذلك أن إيجاد الإنسان و النبات و تدبير أمرهما فى الحدوث

والبقاء مرتبط بما فى الكون من وجود أو نظام جار فى الوجود و كما أن إيجادهما و تدبير أمرهما لا يتم إلا مع القدره عليهما كذلك القدره عليهما لا تتم إلا مع القدره على كل شىء فخلقهما و تدبير أمرهما بسبب عموم القدره و إن شئت فقل: ذلك يكشف عن عموم القدره.

قوله تعالى: **وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ الْجَمَلَتَانِ** معطوفتان على «أن» فى قوله: **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ»**.

و أما الوجه فى اختصاص هذه النتائج الخمس المذكوره فى الآيتين بالذكر مع أن بيان السابقه ينتج نتائج أخرى مهمه فى أبواب التوحيد كربوبيته تعالى و نفى شركاء العباده كونه تعالى عليما و منعما و جوادا و غير ذلك.

فالذى يعطيه السياق-والمقام مقام إثبات البعث-و عرض هذه الآيات على سائر الآيات المثبتة للبعث أن الآيه تؤم إثبات البعث من طريق إثبات كونه تعالى حقا على الإطلاق فإن الحق المحض لا يصدر عنه إلا الفعل الحق دون الباطل، و لو لم يكن هناك نشأه أخرى يعيش فيها الإنسان بماله من سعادته أو شقاءه و اقتصر فى الخلقه على الإيجاد ثم الإعدام ثم الإعدام و هكذا كان لعبا باطلا-فكونه تعالى حقا لا يفعل إلا الحق يستلزم نشأه البعث استلزاما بينا فإن هذه الحياه الدنيا تنقطع بالموت فبعدها حياه أخرى باقيه لا محاله.

فالآيه أعني قوله: **«فَأَنزَلْنَا خَلْقَنَا كُمْ مِنْ تَرَابٍ - إِلَى قَوْلِهِ - ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ»** فى مجرى قوله: **«وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (الدخان / ٣٩)»**، و قوله: **«وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا (ص / ٢٧)»** و غيرهما من الآيات المتعرضه لإثبات المعاد، و إنما الفرق أنها تثبتته من طريق حقيه فعله تعالى و الآيه المبحوث عنها تثبتته من طريق حقيته تعالى فى نفسه المستلزمه لحقيه فعله.

ثم لما كان من الممكن أن يتوهم استحاله إحياء الموتى فلا ينفع البرهان حينئذ دفعه بقوله:

«وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى» فإحياءه تعالى الموتى بجعل التراب الميت إنسانا حيا و جعل الأرض الميتة نباتا حيا واقع مستمر مشهود فلا ريب في إمكانه و هذه الجملة أيضا في مجرى قوله تعالى:

قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (يس ٧٩) و سائر الآيات المثبتة لإمكان البعث و الإحياء ثانيا من طريق ثبوت مثله أولا.

ثم لما أمكن أن يتوهم أن جواز الإحياء الثاني لا يستلزم الوقوع بتعلق قدره به استبعادا له و استصعابا دفعه بقوله: «وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فإن قدره لما كانت غير متناهية كانت نسبتها الى الإحياء الأول و الثاني و ما كان سهلا في نفسه أو صعبا على حد سواء فلا يخالطها عجز و لا يطرأ عليها عي و تعب.

و هذه الجملة أيضا في مجرى قوله تعالى: أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ (ق ١٥) و قوله: إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (حم السجده ٣٩)، و سائر الآيات المثبتة للبعث بعموم قدره و عدم تناهيتها.

فهذه أعنى ما في قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ» الى آخر الآيه؛نتائج ثلاث مستخرجه من الآيه السابقه عليها مسوقه جميعا لغرض واحد و هو ذكر ما يثبت به البعث و هو الذى تتضمنه الآيه الأخيره «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» .

و لم تتضمن الآيه إلا- بعث الاموات و الظرف الذى يبعثون فيه فأما الظرف و هو الساعه فذكره في قوله: «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا» و لم ينسب إتيانها الى نفسه بأن يقال مثلا:

وَأَنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّاعَةِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ وَ لعل الوجه في ذلك اعتبار كونها لا تأتى إلا بغيره لا يتعلق به علم قط كما قال: «لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتُهُ» .

و قال: قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ» (الأعراف ١٨٧) و قال: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا (طه ١٥) فكان عدم نسبتها الى فاعل كعدم ذكر وقتها و كتمان مرساها مبالغه في إخفائها و تأييدا لكونها مباغته مفاجئه، و قد كثر ذكرها في كلامه و لم يذكر في شيء منه لها

فاعل بل كان التعبير مثل «آيَتِهِ» «تَأْتِيهِمْ» «قَائِمُهُ» «تَقُومُ» و نحو ذلك.

و أما المظروف و هو إحياء الموتى من الإنسان فهو المذكور فى قوله: «وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» .

قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ صنف آخر من الناس المعرضين عن الحق، قال فى كشف الكشاف على ما نقل: إن الأظهر فى النظم و الأوفق للمقام أن هذه الآيه فى المقلدين بفتح اللام و الآيه السابقه «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ» -الى قوله- مَرِيدٍ فى المقلدين بكسر اللام انتهى محصلا.

و هو كذلك بدليل قوله هنا ذيلًا: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» و قوله هناك: «وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ» و الإضلال من شأن المقلد بفتح اللام و الاتباع من شان المقلد بكسر اللام.

قوله تعالى: ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الى آخر الآيه؛ الثنى الكسر و العطف بكسر العين الجانب، و ثنى العطف كناية عن الإعراض كأن المعرض يكسر أحد جانبيه على الآخر.

و قوله: لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ متعلق بقوله: «يُجَادِلُ» و اللام للتعليل أى يجادل فى الله بجهل منه مظهر للإعراض و الاستكبار ليتوصل بذلك الى إضلال الناس و هؤلاء هم الرؤساء المتبوعون من المشركين.

و قوله: لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ تهديد بالخزى-و هو الهوان و الذله و الفضيحة-فى الدنيا، و الى ذلك آل أمر صناديق قريش و أكابر مشركى مكه، و إبعاد بالعذاب فى الآخرة.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ إشاره الى ما تقدم فى الآيه السابقه من الإيعاد بالخزى و العذاب، و الباء فى «بِمَا قَدَّمْتَ» للمقابلة كقولنا:

بعث هذا بهذا أو للسببيه أى إن الذى تشاهده من الخزى و العذاب جزاء ما قدمت يداك أو

بسبب ما قدمت يداك من المجادله في الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب معرضا مستكبرا لإضلال الناس و في الكلام التفات من الغيبه الى الخطاب لتسجيل اللوم و العتاب.

و قوله: «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ مَعْطُوفٍ عَلَيَّ بِمَا قَدَّمْتُ» أى ذلك لأن الله لا يظلم عباده بل يعامل كلا منهم بما يستحقه بعمله و يعطيه ما يسأله بلسان حاله.

قوله تعالى: «وَمَنْ النَّاسِ مَنِ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَيَّ حَرْفٍ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ الحرف و الطرف و الجانب بمعنى، و الاطمئنان: الاستقرار و السكون، و الفتنة- كما قيل- المحنة و الانقلاب الرجوع.

و هذا صنف آخر من الناس غير المؤمنين الصالحين و هو الذى يبعد الله سبحانه بانبا عبادته على جانب واحد دون كل جانب و على تقدير لا- على كل تقدير و هو جانب الخير و لازمه استخدام الدين للدنيا فإن أصابته خير استقر بسبب ذلك الخير على عباده الله و اطمأن إليها، و إن أصابته فتنة و محنة انقلب و رجع على وجهه من غير أن يلتفت يمينا و شمالا و ارتد عن دينه تشؤما من الدين أو رجاء أن ينجو بذلك من المحنة و المهلكة و كان ذلك دأبهم فى عبادتهم الأصنام فكانوا يعبدونها لينالوا بذلك الخير أو ينجو من الشر بشفاعتهم فى الدنيا و أما الآخرة فما كانوا يقولون بها فهذا المذبذب المنقلب على وجهه خسر الدنيا بوقوعه فى المحنة و المهلكة، و خسر الآخرة بانقلابه عن الدين على وجهه و ارتداده و كفره ذلك هو الخسران المبين.

هذا ما يعطيه التدبر فى معنى الآيه، و عليه فقوله: «يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَيَّ حَرْفٍ» من قبيل الاستعاره بالكنايه، و قوله: «فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ» الخ؛ تفسير لقوله: «يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَيَّ حَرْفٍ» و تفصيل له، و قوله: «خَسِرَ الدُّنْيَا» أى بإصابه الفتنة، و قوله: «وَ الْآخِرَةَ» أى بانقلابه على وجهه.

قوله تعالى: يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ

الضَّلَالُ البَعِيدُ المدعو هو الصنم فإنه لفقده الشعور و الإرادة لا يتوجه منه الى عابده نفع أو ضرر و الذى يصيب عابده من ضرر و خسران فإنما يصيبه من ناحيه العباده التى هى فعل له منسوب اليه.

قوله تعالى: يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْسِ الْمَوْلَىٰ وَ لِبَيْسِ الْعَشِيرِ المولى الولى الناصر، و العشير الصاحب المعاشر.

ذكروا فى تركيب جمل الآيه أن «يَدْعُوا» بمعنى يقول، و قوله: «لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» الخ؛ مقول القول، و «لِمَنْ» مبتدأ دخلت عليه لام الابتداء و هو موصول صلته «ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ». و قوله: «لِبَيْسِ الْمَوْلَىٰ وَ لِبَيْسِ الْعَشِيرِ» جواب قسم محذوف و هو قائم مقام الخبر دال عليه.

و المعنى: يقول هذا الذى يعبد الأصنام يوم القيامة واصفا لصنمه الذى اتخذه مولى و عشيرا، الصنم الذى ضره أقرب من نفعه مولى سوء و عشير سوء أقسم لبئس المولى و لبئس العشير.

و إنما يعد ضره أقرب من نفعه لما يشاهد يوم القيامة ما تستتبعه عبادته له من العذاب الخالد و الهلاك المؤبد.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ الخ؛ لما ذكر الأصناف الثلاثة من الكفار و هم الأئمة المتبوعون المجادلون فى الله بغير علم و المقلده التابعون لكل شيطان مرید المجادلون كأئمتهم و المذبذبون العابدون لله على حرف، و وصفهم بالضلال و الخسران قابلهم بهذا الصنف من الناس و هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات و وصفهم بكريم المثوى و حسن المنقلب و أن الله يريد بهم ذلك.

و ذكر هؤلاء الأصناف كالتوطئه لما سيدكر من القضاء بينهم و بيان حالهم تفصيلا.

قوله: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» أنزلنا القرآن و هو آيات واضحة الدلالات كما في الآيات السابقة من هذه السوره.

و قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ خبر لمبتدأ محذوف أى و الأمر أن الله يهدى من يريد و أما من لم يرد أن يهديه فلا هادى له فمجرد كون الآيات بينات لا يكفى فى هدايه من سمعها أو تأمل فيها ما لم يرد الله هدايته.

و قيل: الجملة معطوفه على ضمير «أَنْزَلْنَا» و التقدير و كذلك أنزلنا أن الله يهدى من يريد، و الوجه الأول أوضح اتصالا بأول الآية و هو ظاهر (١).

[سوره الحج (٢٢): الآيات ١٧ الى ٢٤]

إشاره

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّضَارِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ (٢٤)

ص: ٣٠٦

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْخ؛ المراد بالذين آمنوا بقرينه المقابله هم الذين آمنوا بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَكُتَابِهِمُ الْقُرْآنَ.

والذين هادوا هم المؤمنون بموسى و من قبله من الرسل الواقفون فيه و كتابهم التوراه و قد أحرقتها بخت نصر ملك بابل حينما استولى عليهم فى أوساط القرن السابع قبل المسيح فافتقدوها برهه ثم جدد كتابتها لهم عزراء الكاهن فى أوائل القرن السادس قبل المسيح حينما فتح كوروش ملك إيران بابل و تخلص بنو إسرائيل من الإساره و رجعوا الى الأرض المقدسه.

و الصابئون ليس المراد بهم عبده الكواكب من الوثنيه بدليل ما فى الآيه من المقابله بينهم و بين الذين أشركوا بل هم-على ما قيل-قوم متوسطون بين اليهوديه و المجوسيه و لهم كتاب ينسبونه الى يحيى بن زكريا النبى و يسمى الواحد منهم اليوم عند العامه «صبى» و قد تقدم لهم ذكر فى ذيل قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ (البقره ٦٢).

و النصارى هم المؤمنون بالمسيح عيسى بن مريم عليه السّلام و من قبله من الأنبياء و كتبهم المقدسه الأناجيل الأربعة لوقا و مرقس و متى و يوحنا و كتب العهد القديم على ما اعتبرته و قدسته الكنيسه لكن القرآن يذكر أن كتابهم الإنجيل النازل على عيسى عليه السّلام.

و المجوس المعروف أنهم المؤمنون بزرتشت و كتابهم المقدس «أوستا» غير أن تاريخ حياته و زمان ظهوره مبهم جدا كالمنقطع خبره و قد افتقدوا الكتاب باستيلاء اسكندر على إيران ثم جددت كتابته فى زمن ملوك ساسان فأشكل بذلك الحصول على حاق مذهبهم؛ و المسلم أنهم يثبتون لتدبير العالم مبدأين مبدأ الخير و مبدأ الشر-يزدان و أهريمن أو النور و الظلمه- و يقدسون الملائكه و يتقربون اليهم من غير أن يتخذوا لهم أصناما كالوثنيه، و يقدسون البسائط العنصريه و خاصه النار و كانت لهم بيوت نيران بايران و الصين و الهند و غيرها و ينهون الجميع الى «اهورا مزدا» موجد الكل.

و الذين أشركوا هم الوثنيه عبده الأصنام، و أصول مذاهبهم ثلاثه: الوثنيه الصابئه، و البرهمانيه، و البوذيه، و قد كان هناك أقوام آخرون يعبدون من الأصنام ما شاءوا كما شاءوا من غير أن يبنوه على أصل منظم كعرب الحجاز و طوائف فى أطراف المعموره و قد تقدم تفصيل القول فيهم فى الجزء العاشر من الكتاب.

□
و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَراد به فصل القضاء فيما اختلف فيه أصحاب هذه المذاهب و اختصموا فيفصل المحق منهم و يتميز من المبطل انفصالا و تميزا لا يستره ساتر و لا يحجبه حاجب.

و تكرار إن فى الآيه للتأكيد دعا الى ذلك الفصل بين «إِنَّ» فى صدر الآيه و بين خبرها و نظيره ما فى قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (النحل ١١٠)، و قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (النحل ١١٩).

وقوله: إِنَّ اللَّهَ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ تَعْلِيلٌ لِلْفَصْلِ أَنَّهُ فَصْلٌ بِالْحَقِّ.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر أن الخطاب لكل من يرى ولا يصلح لأن يخاطب، والمراد بالرؤية العلم، ويمكن أن يختص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ويكون المراد بالرؤية القلبية كما قال فيه: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتِمَارُونَهُ عَلِيٌّ مَا يَرَى (النجم ١٢).

و تعميم السجده لمثل الشمس والقمر والنجوم والجبال من غير أولى العقل دليل على أن المراد بها السجده لتكوينيه وهى التذلل والصغار قبال عزته وكبريائه تعالى وتحت قهره وسلطنته، ولازمه أن يكون «مَنْ فِي الْأَرْضِ» شاملا لنوع الإنسان من مؤمن وكافر إذ لا استثناء فى السجده التكوينية والتذلل الوجودى.

و عدم ذكر نفس السماوات والأرض فى جملة الساجدين مع شمول الحكم لهما فى الواقع يعطى أن معنى الكلام: أن المخلوقات العلوية والسفلية من ذى عقل وغير ذى عقل ساجده لله متذلل فى وجودها تجاه عزته وكبريائه، ولا تزال تسجد له تعالى سجودا تكوينيا اضطراريا.

وقوله: وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَظِفَ عَلِيٌّ «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ» الخ؛ أى ويسجد له كثير من الناس، وإسناد السجود الى كثير من الناس بعد شموله فى الجملة السابقة لجميعهم دليل على أن المراد بهذا السجود نوع آخر من السجود غير السابق وإن كانا مشتركين فى أصل معنى التذلل، وهذا النوع هو السجود التشريعى الاختيارى بالخروج على الأرض تمثيلا للسجود والتذلل التكوينى الاضطرارى وإظهارا لمعنى العبودية.

وقوله: وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ الْمَقَابَلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَابِقِهِ يعطى أن معناه وكثير منهم يأبى عن السجود، وقد وضع موضعه ما هو أثره اللازم المترتب عليه وهو ثبوت العذاب على من استكبر على الله وأبى أن يخضع له تعالى، وإنما وضع ثبوت العذاب موضع الإباء عن

السجده للدلاله على أنه هو عملهم يرد اليهم، و ليكون تمهيدا لقوله تلوا «وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ» الدال على أن ثبوت العذاب لهم إثر إياهم عن السجود هوان و خزي يتصل بهم ليس بعده كرامه و خير.

فإبأؤهم عن السجود يستتبع بمشيه الله تعالى ثبوت العذاب لهم و هو إهانته ليس بعده إكرام أبدا إذ الخير كله بيد الله كما قال: بِيَدِكَ الْخَيْرُ (آل عمران ٢٦) فإذا منعه أحدا لم يكن هناك من يعطيه غيره.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ كناية عن عموم قدره و تعليل لما تقدمه من حديث إثباته العذاب للمستكبرين عن السجود له و إهانته إهانته لا إكرام بعده.

فالمعنى -و الله أعلم- أن الله يميز يوم القيامة بين المختلفين فإنك تعلم أن الموجودات العلوية و السفلية يخضعون و يتذللون له تكويننا لكن الناس بين من يظهر في مقام العبودية الخضوع و التذلل له و بين من يستكبر عن ذلك و هؤلاء هم الذين حق عليهم العذاب و أهانهم الله إهانته لا إكرام بعده و هو قادر على ما يشاء فعال لما يريد. و من هنا يظهر أن للآية اتصالا بما قبلها.

قوله تعالى: هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُمْسِكُونَ بِرُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «هَذَانِ» الى القبيلين الذين دل عليهما قوله سابقا: «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» و قوله بعده: «و كثير من الناس و كثير حق عليهم العذاب».

و يعلم من حضر المختلفين على كثره أديانهم و مذاهبهم في خصمين اثنين أنهم جميعا منقسمون الى محق و مبطل إذ لو لا الحق و الباطل لم ينحصر الملل و النحل على تشتتها في اثنين البتة، و المحق و المبطل هما المؤمن بالحق و الكافر به فهذه الطوائف على تشتت أقوالهم ينحسرون في خصمين اثنين و على انحصارهم في خصمين اثنين لهم أقوال مختلفه فوق

اثنين فما أحسن تعبيره بقوله: «خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا» حيث لم يقل: خصوم اختصموا و لم يقل:

خصمان اختصما.

وقد جعل اختصاصهم فى ربهم أى أنهم اختلفوا فى وصف ربوبيته تعالى فألى وصف الربوبية يرجع اختلافات المذاهب بالغه ما بلغت فهم بين من يصف ربه بما يستحقه من الأسماء والصفات وما يليق به من الأفعال فيؤمن بما وصف و هو الحق و يعمل على ما يقتضيه وصفه و هو العمل الصالح فهو المؤمن العامل بالصالحات، و من لا يصفه بما يستحقه من الأسماء والصفات كمن يثبت له شريكا أو ولدا فينفى وحدانيته أو يسند الصنع والإيجاد الى الطبيعه أو الدهر أو ينكر النبوه أو رساله بعض الرسل أو ضروريا من ضروريات الدين الحق فيكفر بالحق و يستره و هو الكافر فالمؤمن بربه و الكافر بالمعنى الذى ذكرهما الخصمان.

ثم شرع فى جزاء الخصمين و بين عاقبه أمر كل منهما بعد فصل القضاء و قدم الذين كفروا فقال: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ شِرَاطٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ» أى الماء الحار المغلى.

قوله تعالى: يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ الصَّهْرُ الإذابه أى يذوب و ينضج بذاك الحميم ما فى بطونهم من الأمعاء و الجلود.

قوله تعالى: وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ المقامع جمع مقمعه و هى المدقه و العمود.

قوله تعالى: كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ضمير «مِنْهَا» للنار و «مِنْ غَمٍّ» بيان له أو من بمعنى السببيه و الحريق بمعنى المحرق كالأليم بمعنى المؤلم.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْأَسَاوِرَ عَلَى مَا قِيلَ - جمع أسوره و هى جمع سوار و هو على ما ذكره الراغب معاب «دستواره» و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ

ص: ٣١١

الطيب من القول ما لا - خباثه فيه و خبيث القول باطله على أقسامه، وقد جمع القول الطيب كله قوله تعالى إخبارا عنهم: دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (يونس ١٠) فهدايتهم الى الطيب من القول تيسيره لهم، و هدايتهم الى صراط الحميد و الحميد من أسمائه تعالى أن لا يصدر عنهم إلا محمود الفعل كما لا يصدر عنهم إلا طيب القول.

و بين هذه الآيه و قوله: «كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» مقابله ظاهره (١).

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٢٥ الى ٣٧]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥) وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكْعِ السُّجُودِ (٢٦) وَ أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يُذَكِّرُوا إِسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْهِمِهِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمْ شِعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيُذَكَّرُوا إِسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْهِمِهِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُتَّقِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَ الْبَيْدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شِعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا إِسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطْعِمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاكُمْ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَ لَا دِمَاؤها وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)

ص: ٣١٢

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَكَنًا الصَّدَ الْمَنعُ، و«سَوَاءً» مصدر بمعنى الفاعل، والعكوف في المكان الإقامه فيه، والبادى من البدو و هو الظهور، والمراد به- كما قيل- الطارئ أى الذى يقصده من خارج فيدخله، والإلحاد الميل الى خلاف الاستقامه و أصله إلحاد حافر الدابه.

و المراد بالذين كفروا مشركوا مكه الذين كفروا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فِي أَوَّلِ الْبَعَثَةِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَ كَانُوا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَ هُوَ سَبِيلُ اللَّهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِطَوَافِ الْكَعْبَةِ وَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَ سَائِرِ الْمَنَاسِكِ فَقَوْلُهُ: «يَصُدُّونَ» لِلإِسْتِمْرَارِ وَ لَا ضَيْرَ فِي عَطْفِهِ عَلَى الْفِعْلِ الْمَاضِي فِي قَوْلِهِ: «الَّذِينَ كَفَرُوا» وَ الْمَعْنَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَ وَ يَسْتَمِرُّونَ عَلَى مَنَعِ النَّاسِ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

و بذلك يظهر أن قوله: «وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» عطف على «سَبِيلِ اللَّهِ» و المراد بصددهم منعهم المؤمنين عن أداء العبادات و المناسك فيه و كان من لوازمه منع القاصدين للبيت من خارج مكه من دخولها.

و به يتبين أن المراد بقوله: «الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ» - و هو وصف المسجد الحرام- جعله لعباده الناس لا تمليك رقبته لهم فالناس يملكون أن يبعدوا الله فيه ليس لأحد أن يمنع أحدا من ذلك ففيه إشارة الى أن منعهم و صددهم عن المسجد الحرام تعد منهم الى حق الناس و إلحاد بظلم كما أن إضافه السبيل الى الله تعد منهم الى حق الله تعالى.

و يؤيد ذلك أيضا تعقيبه بقوله: «سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ» أى المقيم فيه و الخارج منه مساويان فى أن لهما حق العباده فيه لله، و المراد بالإقامه فيه و فى الخارج منه إما الإقامه بمكه

و فى الخارج منها على طريق المجاز العقلى أو ملازمه المسجد للعباده و الطرو عليه لها.

و قوله: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ بيان لجزاء من ظلم الناس فى هذا الحق المشروع لهم فى المسجد و لازمه تحريم صد الناس عن دخوله للعباده فيه و مفعول «يُرِدْ» محذوف للدلاله على العموم، و الباء فى «يَالْحَادِ» للملابسه و فى «بِظُلْمٍ» للسببيه و الجملة تدل على خبر قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» فى صدر الآيه.

و المعنى الذين كفروا و لا يزالون يمنعون الناس عن سبيل الله و هو دين الإسلام و يمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام الذى جعلناه معبدا للناس يستوى فيه العاكف فيه و البادى نذيقهم من عذاب أليم لأنهم يريدون الناس فيه بالحاد بظلم و من يرد الناس فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم.

قوله تعالى: وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرَّكْعِ السُّجُودِ بوء له مكانا كذا أى جعله مباءه و مرجعا له يرجع اليه و يقصده، و المكان ما يستقر عليه الشىء فمكان البيت القطعه من الأرض التى بنى فيها، و المراد بالقائمين على ما يعطيه السياق هم الناصبون أنفسهم للعباده و الصلاه. و الركع جمع راع كسجد جمع ساجد و السجود جمع ساجد كالركوع جمع راع.

و قوله: وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ الظرف فيه متعلق بمقدر أى و اذكر وقت كذا و فيه تذكير لقصه جعل البيت معبدا للناس ليتضح به أن صد المؤمنين عن المسجد الحرام ليس إلا الحادا بظلم.

و تبوئته تعالى مكان البيت لإبراهيم هى جعل مكانه مباءه و مرجعا لعباده لا لأن يتخذ بيت سكنى يسكن فيه، و يلوح اليه قوله بعد: «ظهر بيتى» بإضافه البيت الى نفسه، و لا ريب أن هذا الجعل كان و حيا لإبراهيم فقوله: «بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ» فى معنى قولنا: أوحينا الى إبراهيم أن اتخذ هذا المكان مباءه و مرجعا لعبادتي و إن شئت فقل: أوحينا اليه أن اقصد

هذا المكان لعبادتي، وعباره أخرى أن اعبدني في هذا المكان.

و بذلك يتضح أنّ «أَنْ» في قوله: «أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» مفسره تفسر الوحي السابق باعتباره أنه قول من غير حاجه الى تقدير أوحينا أو قلنا و نحوه.

و يتضح أيضا أن قوله: «أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» ليس المراد به-و هو واقع في هذا السياق- النهي عن الشرك مطلقا و إن كان منها عنه مطلقا بل المنهى عنه فيه هو الشرك في العباده التي يأتي بها حينما يقصد البيت للعباده و بعباره واضحه الشرك فيما يأتي به من أعمال الحج كالتلبيه للأوثان و الإهلال لها و نحوهما.

و كذا قوله: وَ طَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ وَ التَّطَهِيرِ إِزَالَةَ الْأَقْدَارِ وَ الْأَدْنَسِ عَنِ الشَّيْءِ ليعود الى ما يقتضيه طبعه الأولى، و قد أضاف البيت الى نفسه إذ قال: «بَيْتِي» أي بيتا يختص بعبادتي، و تطهير المعبد بما أنه معبد تنزيهه من الأعمال الدنسه و الأرجاس التي تفسد العباده و ليست إلا الشرك و مظهره.

فتطهير بيته إما تنزيهه من الأرجاس المعنويه خاصه بأن يشرع إبراهيم عليه السّلام للناس و يعلمهم طريقا من العباده لا يداخلها قذاره شرك و لا- يدنسها دنسه كما امر لنفسه بذلك، و إما إزاله مطلق النجاسات عن البيت أعم من الصوريه و المعنويه لكن الذي يمس سياق الآيه منها هو الرجس المعنوي فمحصل تطهير المعبد عن الأرجاس المعنويه و تنزيهه عنها للعباده الذين يقصدونه بالعباده وضع عباده فيه خالصه لوجه الله لا يشوبها شائب شرك يعبدون الله سبحانه بها و لا يشركون به شيئا.

فالمعنى بناء على ما يهدى اليه السياق و اذكر إذ أوحينا الى إبراهيم أن اعبدني في بيتي هذا بأخذه مباءه و مرجعا لعبادتي و لا تشرك بي شيئا في عبادتي و سن لعبادي القاصدين بيتي من الطائفين و القائمين و الركع السجود عباده في بيتي خالصه من الشرك.

قوله تعالى: وَ أَدِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ التَّائِدِينَ: الإعلام برفع الصوت و لندا فسّر بالنداء، و الحج القصد سمي به العمل الخاص الذي شرعه أولاً إبراهيم عليه السّلام و جرت عليه شريعته محمد صلى الله عليه و آله و سلم لما فيه من قصد البيت الحرام، و رجال جمع راجل خلاف الراكب، و الضامر المهزول الذي أضمره السير، و الفج العميق-على ما قيل-الطريق البعيد.

و قوله: وَ أَدْنَىٰ فِي الدَّاسِ بِالْحَجِّ أَي نَادِ النَّاسِ بِقِصْدِ الْبَيْتِ أَوْ بِعَمَلِ الْحَجِّ وَ الْجَمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: «لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً» وَ الْمَخَاطَبُ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مَا قِيلَ: إِنَّ الْمَخَاطَبَ بَيْنَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَعِيدٌ مِنَ السِّيَاقِ.

و قوله: يَأْتُوكَ رِجَالًا السَّخَّ؛ جَوَابُ الْأَمْرِ أَي أَدْنَىٰ فِيهِمْ وَ إِنْ تَوَذَّنَ فِيهِمْ يَأْتُوكَ رَاجِلِينَ وَ عَلَى كُلِّ بَعِيرٍ مَهْزُولٌ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ بَعِيدٍ، وَ لَفْظُهُ «كُلٌّ» تَفِيدُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ مَعْنَى الْكَثْرَةِ دُونَ الْاسْتِغْرَاقِ.

قوله تعالى: لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ السَّخَّ؛ اللام للتعليل أو الغاية و الجار و المجرور متعلق بقوله: «يَأْتُوكَ» و المعنى يأتوك لشهادته منافع لهم أو يأتوك فيشهدوا منافع لهم و قد أطلقت المنافع لهم و لم تتقيد بالدينيوه أو الاخرويه.

و قوله: وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَمَرٍ رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ قال الراغب: و البهيمه ما لا نطق له و ذلك لما فى صوته من الإبهام لكن خصّ فى التعارف بما عدا السباع و الطير فقال تعالى: «أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ». انتهى.

و قال: و النعم مختص بالإبل و جمعه أنعام و تسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم نعمه، لكن الأنعام تقال للإبل و البقر و الغنم، و لا يقال لها: أنعام حتى تكون فى جملتها الإبل. انتهى.

فالمراد ببهيمه الأنعام الأنواع الثلاثة: الإبل و البقر و الغنم من معز أو ضأن و الإضافه بيانيه.

و الجملة أعنى قوله: «وَ يَذْكُرُوا» الخ؛ معطوف على قوله: «لِيَشْهَدُوا» أى و ليذكروا اسم الله فى أيام معلومات أى فى أيام التشريق على ما فسرها أئمة أهل البيت عليهم السلام و هى يوم الأضحى عاشر ذى الحجة و ثلاثه أيام بعده.

و ظاهر قوله: «عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» أنه متعلق بقوله: «يَذْكُرُوا» و قوله: «مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» بيان للموصول و المراد ذكرهم اسم الله على البهيمه-الاضحية-عند ذبحها أو نحرها على خلاف ما كان المشركون يهلونها لأصنامهم.

و قوله: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ» البائس من البؤس و هو شدة الضر و الحاجة، و الذى اشتمل عليه الكلام حكم ترخيصى إلزامى.

قوله تعالى: ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ التفت شعث البدن، و قضاء التفت إزاله ما طرأ بالإحرام من الشعث بتقليم الأظفار و أخذ الشعر و نحو ذلك و هو كناية عن الخروج من الإحرام.

و المراد بقوله: «وَ لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ» إتمام ما لزمهم بنذر أو نحوه، و بقوله: «وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» طواف النساء على ما تفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام فإن الخروج من الإحرام يحل له كل ما حرم به إلا النساء فتحل بطواف النساء و هو آخر العمل.

و البيت العتيق هو الكعبه المشرفه سميت به لقدمه فإنه أول بيت بنى لعباده الله كما قال تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ (آل عمران ٩٦/١)، و قد مضى على هذا البيت اليوم زهاء أربعة آلاف سنه و هو معمور و كان له يوم نزول الآيات أكثر من ألفين و خمسمائه سنه.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ وَ مَنْ يُعْظَمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِلَىٰ آخِرِ آيَاتِهِ؛ الحرمة مما لا-يجوز انتهاكه و وجب رعايته، و الأوثان جمع وثن و هو الصنم، و الزور الميل عن الحق و لذا يسمى الكذب و قول الباطل زورا.

وقوله: ذَلِكْ أَى الْأَمْرِ ذَلِكْ أَى الذى شرعناه لإبراهيم عليه السّلام و من بعده من نسك الحج هو ذلك الذى ذكرناه و أشرنا اليه من الإحرام و الطواف و الصلاة و التضحية بالإخلاص لله و التجنب عن الشرك.

و قوله: وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ نَدب الى تعظيم حرّمات الله و هى الامور التى نهى عنها و ضرب دونها حدودا منع عن تعديها و اقرارها ما وراءها و تعظيمها الكف عن التجاوز إليها.

و الذى يعطيه السياق أن هذه الجملة توطئه و تمهيد لما بعدها من قوله: «و أُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» فإن انضمام هذه الجملة الى الجملة قبلها يفيد أن الأنعام-على كونها مما رزقهم الله و قد أحلّها لهم-فيها حرمة إلهيه و هى التى يدلّ عليها الاستثناء-إلا ما يتلى عليكم-.

و المراد بقوله: «مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» استمرار التلاوه، فإن محرّمات الأكل نزلت فى سورة الأنعام و هى مكيه و فى سورة النحل و هى نازله فى آخر عهده صلّى الله عليه و آله و سلم بمكه و أول عهده بالمدينه، و فى سورة البقره و قد نزلت فى أوائل الهجره بعد مضى سته أشهر منها-على ما روى-و لا موجب لجعل «يُتْلَى» للاستقبال و أخذه إشاره الى آيه سورة المائده كما فعلوه.

و الآيات المتضمنه لمحرّمات الأكل و إن تضمنت منها عدّه امور كالميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهلّ به لغير الله إلا أن العناية فى الآيه بشهاده سياق ما قبلها و ما بعدها بخصوص ما أهلّ به لغير الله فإن المشركين كانوا يتقرّبون فى حجهم-و هو السنّه الوحيدّه الباقيه بينهم من مله إبراهيم-بالأصنام المنصوبه على الكعبه و على الصفا و على المروه و بمنى و يهلّون بضحاياهم لها فالتجنب منها و من الإهلال بذكر أسمائها هو الغرض المعنى به من الآيه و إن كان أكل الميته و الدم و لحم الخنزير أيضا من جملة حرّمات الله.

و يؤيد ذلك أيضا تعقيب الكلام بقوله: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ

الزُّورِ» فَإِن اجْتَنَابِ الْأَوْثَانِ وَاجْتِنَابِ قَوْلِ الزُّورِ وَإِن كَانَ مِنْ تَعْظِيمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ وَ لِذَلِكَ تَفَرَّعَ «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ» عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: «وَ مَنْ يُعْظَمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ» لَكِنْ تَخْصِيصُ هَاتَيْنِ الْحُرْمَتَيْنِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْحُرْمَاتِ فِي سِيَاقِ آيَاتِ الْحَجِّ بِالذِّكْرِ لَيْسَ إِلَّا لِكُونِهِمَا مَبْتَلَىٰ بِهِمَا فِي الْحَجِّ يَوْمئِذٍ وَ إِصْرَارِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى التَّقَرُّبِ مِنَ الْأَصْنَامِ هُنَاكَ وَ إِهْلَالِ الضَّحَايَا بِاسْمِهَا.

وَ بِذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» نَهَىٰ عَمَّا عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَى الْأَصْنَامِ وَ قَوْلِ الْبَاطِلِ أُوْرِدَ لِعَرْضِ التَّقَرُّبِ إِلَى الْأَصْنَامِ فِي عَمَلِ الْحَجِّ كَمَا كَانَتْ عَادَةُ الْمُشْرِكِينَ جَارِيَةً عَلَيْهِ، وَ عَنِ التَّسْمِيَةِ بِاسْمِ الْأَصْنَامِ عَلَى الذَّبَائِحِ مِنَ الضَّحَايَا، وَ عَلَى ذَلِكَ يَبْتَنَى التَّفْرِيعُ بِالْفَاءِ.

وَ فِي تَعْلِيْقِ حُكْمِ الْاجْتِنَابِ أَوْلَا- بِالرِّجْسِ ثُمَّ بَيَّانُهُ بِقَوْلِهِ: «مِنَ الْأَوْثَانِ» إِشْعَارًا بِالْعَلِيَّةِ كَأَنَّهُ قِيلَ: اجْتَنِبُوا الْأَوْثَانَ لِأَنَّهَا رِجْسٌ، وَ فِي تَعْلِيْقِهِ بِنَفْسِ الْأَوْثَانِ دُونَ عِبَادَتِهَا أَوْ التَّقَرُّبِ أَوْ التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا أَوْ مَسِّهَا وَ نَحْوِ ذَلِكَ- مَعَ أَنَّ الْاجْتِنَابَ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْأَعْمَالِ دُونَ الْأَعْيَانِ-مِبَالِغَةً ظَاهِرَةً.

وَ قَدْ تَبَيَّنَ بِمَا مَرَّ أَنَّ «مَنْ» فِي قَوْلِهِ: «مِنَ الْأَوْثَانِ» بَيَّانِيٌّ، وَ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا ابْتِدَائِيَّةٌ، وَ الْمَعْنَى: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الْكَائِنَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ هُوَ عِبَادَتُهَا، وَ ذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهَا تَبْعِيضِيَّةٌ، وَ الْمَعْنَى: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِي هُوَ بَعْضُ جِهَاتِ الْأَوْثَانِ وَ هُوَ عِبَادَتُهَا، وَ فِي الْوَجْهِينِ مِنَ التَّكْلِيفِ وَ إِخْرَاجِ مَعْنَى الْكَلَامِ عَنِ اسْتِقَامَتِهِ مَا لَا يَخْفَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: حُنْفَاءٌ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ الْخ؛ الْحُنْفَاءُ جَمْعُ حَنِيفٍ وَ هُوَ الْمَائِلُ مِنَ الْأَطْرَافِ إِلَى حَاقِ الْوَسْطِ. وَ كُونُهُمْ حُنْفَاءٌ لِلَّهِ مِيلُهُمْ عَنِ الْأَغْيَارِ وَ هِيَ الْآلِهَةُ مِنْ دُونَ اللَّهِ إِلَيْهِ فَيَتَّحِدُ مَعَ قَوْلِهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ مَعْنَى.

سخطه تعالى و التورع عن محارمه أمر معنوى يرجع الى القلوب و هى النفوس و ليست هى جسد الأعمال التى هى حركات و سكنات فإنها مشتركة بين الطاعة و المعصية كالمس فى النكاح و الزنا، و إزهاق الروح فى القتل قصاصا أو ظلما و الصلاة المأتى بها قربه أو رياء و غير ذلك، و لا هى العناوين المنتزعه من الأفعال كالإحسان و الطاعة و نحوها.

قوله تعالى: لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ المحل بكسر الحاء اسم زمان بمعنى وقت حلول الأجل، و ضمير «فيها» للشعائر، و المعنى على تقديم كون المراد بالشعائر بدن الهدى أن لكم فى هذه الشعائر—و هى البدن—منافع من ركوب ظهرها و شر ألبانها عند الحاجة الى أجل مسمى هو وقت نحرها ثم محلها أى وقت حلول أجلها للنحر منته الى البيت العتيق أو بانتهائها اليه، و الجملة فى معنى قوله:

«هَذَا بِأَلْحِ الْكَعْبَةِ» هذا على تفسير أئمه أهل البيت عليهم السلام.

و أما على القول بكون المراد بالشعائر مناسك الحج فقول: المراد بالمنافع التجاره الى أجل مسمى ثم محل هذه المناسك و منتهاها الى البيت العتيق لأن آخر ما يأتى به من الأعمال الطواف بالبيت.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ المنسك مصدر ميمى و اسم زمان و مكان، و ظاهر قوله:

«لِيذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ» الخ؛ أنه مصدر ميمى بمعنى العبادة و هى العبادة التى فيها ذبح و تقرب قربان.

و المعنى: و لكل أمة—من الأمم السالفة المؤمنة—جعلنا عبادة من تقرب القرابين ليدكروا اسم الله على بهيمه الأنعام التى رزقهم الله أى لستم معشر أتباع إبراهيم أول أمة شرعت لهم التضحية و تقرب قربان فقد شرعنا لمن قبلكم ذلك.

و قوله: فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا أى إذ كان الله سبحانه هو الذى شرع لكم

و للامم قبلكم هذا الحكم فإلهمكم و إله من قبلكم إله واحد فأسلموا و استسلموا له يا خلاص عملكم له و لا تتقربوا في قرايبكم الى غيره فالفاء في «فَالِهَكُمْ» لتفريع السبب على المسبب و في قوله: «فَلَهُ أَسْلَمُوا» لتفريع المسبب على السبب.

و قوله: وَ بَشَّرِ الْمُخْبِتِينَ فيه تلويح الى أن من أسلم لله في حجه مخلصا فهو من المخبتين، و قد فسره بقوله: «الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» و انطباق الصفات المعدودة في الآية و هي الوجل و الصبر و إقامة الصلاة و الإنفاق، على من حج البيت مسلما لربه معلوم.

قوله تعالى: وَ الْيَدَيْنِ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ الى آخر الآية؛ البدن بالضم فالسكون جمع بدنه بفتحيتين و هي السمينه الضخمه من الإبل، و السياق أنها من الشعائر باعتبار جعلها هديا.

و قوله: فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ الصَّوِافِّ جمع صافه و معنى كونها صافه أن تكون قائمه قد صفت يداها و رجلاها و جمعت و قد ربطت يداها.

و قوله: فَإِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ الوجوب السقوط يقال: وجبت الشمس أى سقطت و غابت، و الجنوب جمع جنب، و المراد بوجوب جنوبها سقوطها على الأرض على جنوبها و هو كناية عن موتها، و الأمر فى قوله: «فَكُلُوا مِنْهَا» للاباحه و ارتفاع الحظر، و القانع هو الفقير الذى يقنع بما أعطيه سواء سأل أم لا، و المعتر هو الذى أتاك و قصدك من الفقراء، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَ لَا دِمَائُهَا وَ لَكِنْ يَبَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ الى آخر الآية؛ بمنزله دفع الدخلى كأن متوهما بسيط الفهم يتوهم أن لله سبحانه نفعاً فى هذه الضحايا و لحومها و دمائها فاجيب ان الله سبحانه لن يناله شىء من لحومها و دمائها لتنزهه عن الجسميه و عن كل حاجه و إنما يناله التقوى نيلا معنويا فيقرب المتصفين به منه تعالى.

أو يتوهم أن الله سبحانه لما كان منزها عن الجسميه و عن كل نقص و حاجه و لا ينتفع بلحم أو دم فما معنى التضحيه بهذه الضحايا فاجيب بتقرير الكلام و أن الأمر كذلك لكن هذه التضحيه يصحبها صفه معنويه لمن يتقرب بها و هذه الصفه المعنويه من شأنها أن تنال الله سبحانه بمعنى أن تصعد اليه تعالى و تقرب صاحبها منه تقريبا لا يبقى معه بينه و بينه حجاب يحجبه عنه.

و قوله: كَذَلِكَ سَيَخْرُهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ الظاهر أن المراد بالتكبير ذكره تعالى بالكبرياء و العظمه، فالهدايه هي هدايته الى طاعته و عبوديته و المعنى كذلك سخرها لكم ليكون تسخيرها وصله الى هدايتكم الى طاعته و التقرب اليه بتضحيتها فتذكروه بالكبرياء و العظمه على هذه الهدايه.

و قوله: وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ أى الذين يأتون بالأعمال الحسنه أو بالإحسان و هو الانفاق فى سبيل الله (١).

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٣٨ الى ٥٧]

اشاره

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ الدَّاسِ بِغَضِهِمْ بَعْضٌ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) وَ إِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ ثَمُودٌ (٤٢) وَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَ أَصْحَابُ مَدْيَنَ وَ كَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَ بُرٌّ مُعْتَظِلٌ وَ قَصِيرٌ مَشِيدٌ (٤٥) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَ يَسِّرْ يَنْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَ إِلَى الْمَصِيرِ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَ لَمَّا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمَّتَيْهِ فَيَشِيخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنْ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنْ اللَّهُ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيضَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٥٥) الْمَلْسَكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)

ص: ٣٢٤

و المراد بكل خَوَّان كفور المشركون، و إنما كانوا مكثرين فى الخيانه و الكفران لأن الله حملهم أمانه الدين الحق و جعلها وديعه عند فطرتهم لينالوا بحفظه و رعايته سعادته الدارين و عرفهم إياه من طريق رساله فخانو به بالجدد و الإنكار و غمرهم بنعمه الظاهره و الباطنه فكفروا بها و لم يشكروه بالعبوديه.

و فى الآيه تمهيد لما فى الآيه التاليه من الإذن فى القتال و فذكر تمهيدا أن الله يدافع عن الذين آمنوا و إنما يدفع عنهم المشركين لأن يحب هؤلاء و لا يحب أولئك لخيانتهم و كفرهم فهو إنما يحب هؤلاء لأمانتهم و شكرهم فهو إنما يدافع عن دينه الذى عند المؤمنين.

فهو تعالى مولاهم و وليهم الذى يدفع عنهم أعداءه كما قال: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (سوره محمد ١١).

قوله تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ ظاهر السياق أن المراد بقوله: «أُذِنَ» إنشاء الإذن دون الاخبار عن إذن سابق و إنما هو إذن فى القتال كما يدل عليه قوله: «لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ» الخ؛ و لذا بدّل قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» من قوله: «الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ» ليدل على المأذون فيه.

و القراءه الدائره «يقاتلون» بفتح التاء مبني للمفعول أى الذين يقاتلهم المشركون لأنهم الذين أرادوا القتال و بدؤهم به، و الباء فى «بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا» للسببيه و فيه تعليل الإذن فى القتال أى أذن لهم فيه بسبب أنهم ظلموا، و أما ما هو الظلم فتفسيره قوله: «الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ» الخ.

و فى عدم التصريح بفاعل «أُذِنَ» تعظيم و تكبير و نظيره ما فى قوله: «وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ» من ذكر القدره على النصر دون فعليته فإن فيه إشاره الى أنه مما لا يهتم به لأنه هين على من هو على كل شىء قدير.

و المعنى أذن-من جانب الله-للذين يقاتلهم المشركون و هم المؤمنون بسبب أنهم ظلموا -من جانب المشركين-و إن الله على نصرهم لقدير،و هو كناية عن النصر.

قوله تعالى: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ بيان جهه كونهم مظلومين و هو أنهم أُخرجوا من ديارهم و قد أخرجهم المشركون من ديارهم بمكة بغير حق يجوز لهم إخراجهم.

و لم يخرجوهم بحمل و تسفير بل آذوهم و بالغوا في إيذائهم و شدوا بالتعذيب و التفتين حتى اضطروهم الى الهجره من مكه و التغرب عن الوطن و ترك الديار و الأموال فقوم الى الحبشه و آخرون الى المدينه بعد هجره النبي صلى الله عليه و آله و سلم،فإخراجهم إياهم إلجاؤهم الى الخروج.

و قوله: إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ استثناء منقطع معناه و لكن أُخرجوا بسبب أن يقولوا ربنا الله،و فيه إشاره الى أن المشركين انحرفوا في فهمهم و ألدوا عن الحق الى حيث جعلوا قول القائل ربنا الله و هو كلمه الحق يبيح لهم أن يخرجوه من داره.

و قوله: وَلَا دَفْعَ لِلَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَيْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا الصوامع جمع صومعه و هى بناء فى أعلاه حده كان يتخذ فى الجبال و البرارى و يسكنه الزهاد و المعتزلون من الناس للعباده، و البيع جمع بيعه بكسر الباء معبد اليهود و النصرارى،و الصلوات جمع صلاه و هى مصلى اليهودسمى بها تسميه للمحل باسم الحال كما أريد بها المسجد فى قوله تعالى: لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَىٰ -الى قوله- وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ .

و قوله: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ قسم مع تأكيد بالغ على نصره تعالى من ينصره بالقتال ذبا عن الدين الالهى و لقد صدق الله وعده فنصر المسلمين فى حروبهم و مغازيهم فأيدهم على أعدائه و رفع ذكره ما كانوا ينصرونه.

و المعنى أقسم لينصرن الله من ينصره بالدفاع عن دينه إن الله لقوى لا يضعفه أحد و لا

يمنعه شيء عما أراد عزيز منيع الجانب لا يتعدى إلى ساحه عزته و لا يعادله شيء في سلطنته و ملكه.

و من يظهر من الآيه أنه كان في الشرائع السابقه حكم دفاعى فى الجمه و ان لم يبين كيفيته.

قوله تعالى: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ الخ؛ توصيف آخر للذين آمنوا المذكورين فى أول الآيات، و هو توصيف المجموع من حيث هو مجموع من غير نظر الى الأشخاص و المراد من تمكينهم فى الأرض إقذارهم على اختيار ما يريدونه من نحو الحياه من غير مانع يمنعهم أو مزاحم يزاحمهم.

يقول تعالى: إِنْ مِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ إِنْ تَمَكَّنُوا فِي الْأَرْضِ وَ أَعْطُوا الْحَرِيَّةَ فِي اخْتِيَارِ مَا يَسْتَحِبُّونَهُ مِنْ نَحْوِ الْحَيَاةِ عَقَدُوا مَجْتَمَعًا صَالِحًا تَقَامُ فِيهِ الصَّلَاةُ وَ تُؤْتَى فِيهِ الزَّكَاةُ وَ يُؤْمَرُ فِيهِ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَى فِيهِ عَنِ الْمُنْكَرِ، و تخصيص الصلاه من بين الجهات العباديه و الزكاه من بين الجهات الماليه بالذكر لكون كل منهما عمده فى بابها.

و إذ كان الوصف للذين آمنوا المذكورين فى صدر الآيات و المراد به عقد مجتمع صالح و حكم الجهاد غير خاص بطائفه خاصه فالمراد بهم عامه المؤمنين يومئذ بل عامه المسلمين الى يوم القيامه و الخصيصه خصيصتهم بالطبع فمن طبع المسلم بما هو مسلم الصلاح و إن كان ربما غشيته الغواشى.

و ليس المراد بهم خصوص المهاجرين بأعيانهم سواء كانت الآيات مكيه أو مدنيه و إن كان المذكور من جهه المظلوميه هو إخراجهم من ديارهم و ذلك لمنافاته عموم الموصوف المذكور فى صدر الآيات و عموم حكم الجهاد لهم و لغيرهم قطعاً.

على أن المجتمع الصالح الذى عقد لأول مره فى المدينه ثم انبسط فشمّل عامه جزيره العرب فى عهد النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هو أفضل مجتمع متكون فى تاريخ الاسلام تقام فيه الصلاه و تؤتى فيه

الزكاه و تؤمر فيه بالمعروف و تنهى فيه عن المنكر مشمول للآيه قطعاً و كان السبب الأول ثم العامل الغالب فيه الأنصار دون المهاجرين.

و لم يتفق فى تاريخ الاسلام للمهاجرين، خاصه أن يعقدوا و حدهم مجتمعاً من غير شركه من الأنصار فيقيموا الحق و يميظوا الباطل فيه اللهم إلا أن يقال: إن المراد بهم أشخاص الخلفاء الراشدين أو خصوص على عليه السلام على الخلاف بين أهل السنه و الشيعة، و فى ذلك إفساد معنى جميع الآيات.

على أن التاريخ يضبط من أعمال الصدر الأول و خاصه المهاجرين منهم أموراً لا يسعنا أن نسميها إحياء للحق و إيمانه للباطل سواء قلنا بكونهم مجتهدين معذورين أم لا فليس المراد توصيف أشخاصهم بل المجموع من حيث هو مجموع.

□
□[□] و قوله: وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ تأكيد لما تقدم من الوعد بالنصر و إظهار المؤمنين على أعداء الدين الظالمين لهم.

□
□[□] قوله تعالى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ -الى قوله- فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فيه تعزیه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن تكذب قومه له ليس ببدع فقد كذبت أمم قبلهم لأنبيائهم. و إنذار و تخويف للمكذبين بالإشاره الى ما انتهى اليه تكذيب من قبلهم من الامم و هو الهلاك بعذاب من الله تعالى.

و قد عدّ من تلك الامم قوم نوح و عاداً و هم قوم هود و ثمود و هم قوم صالح و قوم إبراهيم و قوم لوط و أصحاب مدين و هم قوم شعيب، و ذكر تكذيب موسى. قيل: و لم يقل: و قوم موسى لأن قومه بنو إسرائيل و كانوا آمنوا به، و إنما كذبه فرعون و قومه.

□
□[□] و قوله: فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ الإملاء الإمهال و تأخير الأجل، و النكير الإنكار، و المعنى فأمهلت الكافرين -الذين كذبوا رسلهم من هذه الامم- ثم أخذتهم و هو كناية عن العقاب فكيف كان إنكارى لهم فى تكذبيهم و كفرهم؟ و هو

كنايه عن بلوغ الإنكار و شده الأخذ.

قوله تعالى: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ بئْرٌ مُعَطَّلَةٌ وَ قَصْرٌ مَشِيدٌ قريه خاويه على عروشها أى ساقطه جدرانها على سقوفها فهى خربه، و البئر المعطله الخاليه من الواردين و المستقين و شاد القصر أى جصصه و الشيد بالكسر الجص.

و قوله: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ظاهر السياق أنه بيان لقوله فى الآيه السابقه: «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» و قوله: «وَ بئْرٌ مُعَطَّلَةٌ وَ قَصْرٌ مَشِيدٌ» عطف على قريه.

و المعنى: فكم من قريه أهلكتنا أهلها حال كونهم ظالمين فهى خربه ساقطه جدرانها على سقوفها، و كم من بئر معطله باد النازلون عليها فلا وارد لها و لا مستقى منها، و كم من قصر مجصص هلك سكانها لا يرى لهم أشباح و لا يسمع منهم حسيس، و أصحاب الآبار أهل البدو و أصحاب القصور أهل الحضر.

قوله تعالى: أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا الخ؛ حثّ و تحضيض على الاعتبار بهذه القرى الهالكه و الآثار المعطله و القصور المشيده التى تركتها تلك الامم البائده بالسير فى الأرض فإن السير فيها ربما بعث الإنسان الى أن يتفكر فى نفسه فى سبب هلاكهم و يستحضر الحجج فى ذلك فيتذكر أن الذى وقع بهم إنما وقع لشركهم بالله و إعراضهم عن آياته و استكبارهم على الحق بتكذيب الرسل فيكون له قلب يعقل به و يردعه عن الشرك و الكفر هذا إن وسعه أن يستقل بالتفكير.

و إن لم يسعه ذلك بعثه الاعتبار الى أن يصغى الى قول المشفق الناصح الذى لا يريد به إلا الخير و عظه الواعظ الذى يميز له ما ينفعه مما يضره و لا عظه ككتاب الله و لا ناصح كرسوله فيكون له أذن يسمع بها ما يهتدى به الى سعاده.

قوله تعالى: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ

رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ كَانَ الْقَوْمَ يَكْذِبُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَعَدَهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فَكَانُوا يَسْتَعْجِلُونَهُ الْعَذَابَ اسْتَهْزَاءً بِهِ وَتَعْجِيزًا لَهُ قَائِلِينَ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ» فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْعَذَابِ عَذَابَ مُشْرِكِي مَكَّةَ فَالَّذِي وَعَدَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ هُوَ مَا ذَاقُوهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ مَا يَقْضَى بِهِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أُمَّتِهِ بِعَذَابٍ مُوَعَّدٍ لَمْ يَنْزَلْ بَعْدَ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ:

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ (يونس ٤٧) إلى آخر الآيات.

وقوله: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ حِكْمًا بِتَسَاوَى الْيَوْمِ الْوَاحِدِ وَالْأَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَلَا يَسْتَقِلُّ هَذَا وَلَا يَسْتَكْثُرُ ذَلِكَ حَتَّى يَتَأَثَّرَ مِنْ قِصْرِ الْيَوْمِ الْوَاحِدِ وَطُولِ الْأَلْفِ سَنَةٍ فَلَيْسَ يَخَافُ الْفُوتَ حَتَّى يَعْجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ هُوَ حَلِيمٌ ذُو أَنْهٍ يَمْهَلُهُمْ حَتَّى يَسْتَكْمِلُوا دَرَكَاتِ شِقَايَتِهِمْ ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ فِيمَا قَدَّرَ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ، وَلِذَا عَقَّبَ الْكَلَامَ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ: «وَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ أَمَلَتْ لَهُمْ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ».

وقوله «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ» رَدَّ لاسْتَعْجَالِهِمْ بِالْعَذَابِ بِأَنَّ اللَّهَ يَسْتَوِي عِنْدَهُ قَلِيلُ الزَّمَانِ وَكَثِيرُهُ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: «وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ» تَسْلِيَةٌ وَتَأْيِيدٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَرَدٌّ لِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ وَتَعْجِيزُهُمْ لَهُ وَاسْتَهْزَاءُهُمْ بِهِ.

قوله تعالى: «وَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ أَمَلَتْ لَهُمْ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ الْآيَةَ - كَمَا مَرَّ - مَتَمِّمَةً لِقَوْلِهِ: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ» بِمَنْزِلِهِ الشَّاهِدِ عَلَى صِدْقِ الْمَدْعَى، وَالْمَعْنَى: قَلِيلُ الزَّمَانِ وَكَثِيرُهُ عِنْدَ رَبِّكَ سَوَاءٌ وَقَدْ أَمَلَى لِكَثِيرٍ مِنَ الْقَرَى الظَّالِمَةِ وَآمَهَلَهَا ثُمَّ أَخَذَهَا بَعْدَ مَهَلٍ.

وقوله: «وَإِلَى الْمَصِيرِ» بَيَانٌ لَوْجِهٍ عَدَمِ تَعْجِيلِهِ الْعَذَابَ لِأَنَّ مَا كَانَ مَصِيرَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَلَا يَخَافُ الْفُوتَ حَتَّى يَأْخُذَ الظَّالِمِينَ بِعَجَلٍ.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ -الى قوله- أَصْحَابُ الْجَحِيمِ أمر بإعلام الرساله بالإنذار و بيان ما للإيمان به و العمل الصالح من الأجر الجميل و هو المغفره بالإيمان و الرزق الكريم و هو الجنه بما فيها من النعيم،بالعمل الصالح،و ما للكفر و الجحود من التبعه السيئه و هى صحابه الجحيم من غير مفارقه.

و قوله: سَبَّحُوا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ السعى الإسراع فى المشى و هو كناية عن بذل الجهد فى أمر آيات الله لإبطالها و إطفاء نورها بمعاجزه الله،و التعبير بلفظ المتكلم مع الغير رجوع فى الحقيقه الى السابق بعد إفاء الالتفات فى الآيه السابقه أعنى قوله: «أَمَلَيْتُ لَهَا» الخ.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْتِيَّتِهِ السخ؛التمنى تقدير الإنسان وجود ما يحبه سواء كان ممكنا أو ممتنعا كتمنى الفقير أن يكون غنيا و من لا ولد له أن يكون ذا ولد،و تمنى الإنسان أن يكون له بقاء لا فناء معه و أن يكون له جناحان يطير بهما،و يسمى صورته الخياليه التى يلتذ بها أميته، و الأصل فى معناه المنى بالفتح فالسكون بمعنى التقدير،و قيل:ربما جاء بمعنى القراءه و التلاوه يقال:تمنيت الكتاب أى قرأته.و الإلقاء فى الامنيه المداخله فيها بما يخرجها عن صرافتها و يفسد أمرها.

و معنى الآيه على أول المعنيين و هو كون التمنى هو تمنى القلب:و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلا إذا تمنى و قدّر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدّم دينه و إقبال الناس عليه و إيمانهم به ألقى الشيطان فى أميته و داخل فيها بوسوسه الناس و تهيج الظالمين و إغراء المفسدين فأفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبي و أبطل سعيه فينسخ الله و يزيل ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعى الرسول أو النبي و إظهار الحق و الله عليم حكيم.

و المعنى:على ثانى المعنيين و هو كون التمنى بمعنى القراءه و التلاوه:و ما أرسلنا من قبلك من

رسول ولا نبي إلا إذا تلا وقرأ آيات الله ألقى الشيطان شبهها مضله على الناس بالوسوسة ليجادلوه بها و يفسدوا على المؤمنين إيمانهم فيبطل الله ما يلقى الشيطان من الشبه و يذهب به بتوفيق النبي لردّه أو بإنزال ما يردّه.

و في الآيه دلالة واضحة على اختلاف معنى النبوه و الرساله لا بنحو العموم و الخصوص مطلقا كما اشتهر بينهم أن الرسول هو من بعث و أمر بالتبليغ و النبي من بعث سواء أمر بالتبليغ أم لا، إذ لو كان كذلك لكان من الواجب أن يراد بقوله في الآيه: «وَلَا نَبِيٌّ» غير الرسول أعني من لم يؤمر بالتبليغ، و ينافيه قوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا».

و قد قدّمنا في مباحث النبوه في الجزء الثاني من الكتاب ما يدل من روايات أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الرسول هو من ينزل عليه الملك بالوحي فيراه و يكلمه و النبي هو من يرى المنام و يوحى اليه فيه، و قد استفدنا مضمون هذه الروايات من قوله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (الإسراء ٩٥) في الجزء الثالث عشر من الكتاب.

و في قوله: فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ التّفات من التّكلم بالغير الى الغيبه، و الوجه فيه العناية بذكر لفظ الجلاله و إسناد النسخ و الإحكام الى من لا يقوم له شيء، و لذلك بعينه أعاد لفظ الجلاله ثانيا مع أنه من وضع الظاهر موضع المضمّر و منه أيضا إعادة لفظ الشيطان ثانيا دون ضميره ليشار الى أن الملقى هو الشيطان الذي لا يعبأ به و بكيده في قبالة تعالى، و كان الظاهر أن يقال: فينسخ ما يلقى ثم يحكم آياته.

قوله تعالى: لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ الخ؛ مرض القلب عدم استقامه حاله في التعقل بأن لا يدعن بما من شأنه أن يدعن به من الحق و هو الشك و الارتياب، و قساوه القلب صلابته و غلظه مأخوذ من الحجر القاسى أى الصلب. و صلابته بطلان عواطفه الرقيقه المعينه في إدراك المعانى الحقه

يعطيه السياق أوهم و أهل الشك جميعا-لفى مباينه و مخالفه بعيد صاحبها من الحق و أهله.

قوله تعالى: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ الخ؛ المتبادر من السياق أنه عطف على قوله: «لِيَجْعَلَ» و تعليل لقوله: «فَيَسْخُخَ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ» و الضمير فى «أَنَّهُ» على هذا لما يتمناه الرسول و النبى المفهوم من قوله: «إِذَا تَمَنَّى» الخ؛ و لا دليل على إرجاعه الى القرآن.

و المعنى: فينسخ الله ما يلقيه الشيطان ثم يحكم آياته ليعلم الذين أوتوا العلم بسبب ذاك النسخ و الإحكام أن ما تمناه الرسول أو النبى هو الحق من ربك لبطلان ما يلقيه الشيطان فيؤمنوا به فتخبت أى تلين و تخشع له قلوبهم.

و يمكن أن يكون قوله: «وَ لِيَعْلَمَ» معطوفا على محذوف و مجموع المعطوف و المعطوف عليه تعليلا لما بينه فى الآيه السابقه من جعله تعالى هذا الإلقاء فتنه للذين فى قلوبهم مرض و القاسيه قلوبهم.

و المعنى: إنما بينا هذه الحقيقه لغايه كذا و كذا و ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك، الخ؛ على حد قوله: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران / ١٤٠)، و هو كثير الورد فى القرآن.

و قوله: وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُمَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فى مقام التعليل لكون علم الذين أوتوا العلم غايه مترتبه على فعله تعالى فيفيد أنه تعالى إنما فعل ما فعل ليعلموا أن الأمر حق لأنه هاد يريد أن يهديهم فيهدىهم بهذا التعليم الى صراط مستقيم.

قوله تعالى: وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الخ؛ الآيه - كما ترى - تخبر عن حرمان هؤلاء الذين كفروا من الإيمان مدى حياتهم فليس المراد بهم مطلق الكفار لقبول بعضهم الإيمان بعد الكفر فالمراد به عده من صناديد قريش الذين لم

يوفقوا للإيمان ما عاشوا كما فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره ٦/٦).

و عقم اليوم كونه بحيث لا يخلف يوما بعده و هو يوم الهلاك أو يوم القيامة، و المراد به فى الآيه على ما يعطيه سياق الآيه الثالثه يوم القيامة.

و المعنى و يستمر الذين كفروا فى شك من القرآن حتى يأتيهم يوم القيامة أو يأتيهم عذاب يوم القيامة و هو يوم يأتي بغته لا يمهلهم حتى يحتالوا له بشيء و لا يخلف بعده يوما حتى يقضى فيه ما فات قبله.

و إنما ردد بين يوم القيامة و بين عذابه لأنهم يعترفون عند مشاهدته كل منهما بالحق و يطيح عنهم الريب و المريبه قال تعالى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (يس ٥٢/٥٢)، و قال: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا (الأحقاف ٣٤/٣٤).

و قد ظهر بما تقدم أن تقييد اليوم تاره بكونه بغته و تاره بالعقم للدلاله على كونه بحيث لا- ينفع معها حيله و لا يقع بعدها تدارك لما فات قبله.

قوله تعالى: الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ -الى قوله- عَذَابٌ مُّهِينٌ قد تقدم مرارا أن المراد بكون الملك يومئذ لله، ظهور كون الملك له تعالى لأن الملك له دائما و كذا ما ورد من نظائره من أوصاف يوم القيامة فى القرآن ككون الأمر يومئذ لله و كون القوه يومئذ لله و هكذا.

و لسنا نعى به أن المراد بالملك مثلا فى الآيه ظهور الملك مجازا بل نعى به أن الملك قسمان ملك حقيقى و ملك مجازى صورى، و للأشياء ملك مجازى صورى ملكها الله ذلك و له تعالى مع ذلك الملك الحق بحقيقه معناه حتى إذا كان يوم القيامة ارتفع كل ملك صورى عن الشيء المتلبس به و لم يبق من الملك إلا حقيقته و هو لله وحده فمن خاصه يوم القيامة أن الملك يومئذ

لله و على هذا القياس.

و قوله: يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَى و لا- حاكم غيره لأن الحكم من فروع الملك فإذا لم يكن يومئذ لأحد نصيب فى الملك لم يكن له نصيب فى الحكم.

و قوله: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَيَاتِ النَّعِيمِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا - و هؤلاء المعاندون المستكبرون- فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ بيان لحكمه تعالى (١).

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٥٨ الى ٦٦]

اشاره

وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَسِّعُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَسِّعُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَ هُوَ الَّذِي أَخْلَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

ص: ٣٣٨

(١- ١). الحج ٣٨-٥٧: بحث روائى فى ايداء المشركين المسلمين؛ اذن القتال للمسلمين؛ النبى و الرسول.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا لَمَا ذَكَرَ إِخْرَاجَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ ظَلَمًا عَقَبَهُ بِذِكْرِ مَا يَشِيهِمْ بِهِ عَلَى مَهَاجِرَتِهِمْ وَ مَحْتَتِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ هُوَ وَعَدَ حَسَنَ بَرزُقٍ حَسَنٍ.

و قد قيد الهجره بكونها في سبيل الله لأن المثوبه إنما تترتب على صالح العمل، و إنما يكون العمل صالحا عند الله بخلوص النيه فيه و كونه في سبيله لا في سبيل غيره من مال أو جاه أو غيرهما من المقاصد الدنيويه، و بمثل ذلك يتقيد قوله: «ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا» أى قتلوا في سبيل الله أو ماتوا و قد تغربوا في سبيل الله.

و قوله: وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ختم للآيه يعلل به ما ذكر فيها من الرزق الحسن و هو النعمه الاخرويه إذ موطنها بعد القتل و الموت، و في الآيه إطلاق الرزق على نعم الجنه كما في قوله: أَلْحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (آل عمران ١٦٩).

قوله تعالى: لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ المدخل بضم

الميم وفتح الخاء اسم مكان من الإدخال، و احتمال كونه مصدرا ميميا لا يناسب السياق تلك المناسبة.

و توصيف هذا المدخل و هو الجنه بقوله: «يَرْضَوْنَهُ» و الرضا مطلق، دليل على اشتمالها على أقصى ما يريده الإنسان كما قال: لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ (الفرقان ١٦).

و قوله: «لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ» بيان لقوله: «لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا» و إدخالهم إياه مدخلا يرضونه و لا يكرهونه على الرغم من إخراج المشركين إياهم إخراجا يكرهونه و لا يرضونه و لذا علله بقوله: «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ» أى عليم بما يرضيهم فيعدّه لهم إعدادا حلِيم فلا يعاجل العقوبه لأعدائهم الظالمين لهم.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنْصِرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ذلك خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر ذلك الذى أخبرناك به و ذكرناه لك، و العقاب مؤاخذه الإنسان بما يكرهه بإزاء فعله ما لا يرتضيه المعاقب و إنما سمي عقابا لأنه يأتى عقيب الفعل.

و العقاب بمثل العقاب كناية عن المعاملة بالمثل و لما يكن هذه المعاملة بالمثل حسنا إلا فيما كان العقاب الأول من غير حق قيده بكونه بغيا فعطف قوله: «بُغِيَ عَلَيْهِ» بتم عليه.

و قوله: لِيُنْصِرَهُ اللَّهُ ظاهر السياق -و المقام مقام الإذن فى الجهاد- أن المراد بالنصر هو إظهار المظلومين على الظالمين الباغين و تأييدهم عليهم فى القتال لكن يمكن أن يستظهر من مثل قوله: وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوِئِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرَفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (الإسراء ٣٣) أن المراد بالنصر هو تشريع حكم للمظلوم يتدارك به ما وقع عليه من و صمه الظلم و البغى فإن فى إذنه أن يعامل الظالم الباغى عليه بمثل ما فعل بسطا ليد على من بسط عليه اليد.

و بهذا يتضح معنى تعليل النصر بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ» فإن الإذن و الإباحه فى موارد

الاضطرار و الحرج و ما شابه ذلك من مقتضيات صفتى العفو و المغفرة كما تقدم مرارا فى أمثال قوله تعالى: فَمنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَّجَانِفٍ لِإِثمِّ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المائدة ٣) و قد أوضحنا ذلك فى المجازاه و العفو فى آخر الجزء السادس من الكتاب.

و المعنى-على هذا-و من عامل من عاقبه بغيا عليه بمثل ما عاقب نصره الله بإذنه فيه و لم يمنعه عن المعامله بالمثل لأن الله عفو غفور يمحو ما تستوجه هذه المعامله و الانتقام من السماء و التبعه كأن العقاب و إيصال المكروه الى الناس مبغوض فى نظام الحياه غير أن الله سبحانه يمحو ما فيه من المبغوضيه و يستر على أثره السيئ إذا كان عقابا من مظلوم لظالمه الباغى عليه بمثل ما بغى عليه، فيجيز له ذلك و لا يمنعه بالتحريم و الحظر.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ إيلاج كل من الليل و النهار فى الآخر حلوله محل الآخر كورود ضوء الصباح على ظلمه الليل كشيء يلج فى شيء ثم اتساعه و إشغال النهار من الفضاء ما أشغله الليل، و ورود ظلمه المساء على نور النهار كشيء يلج فى شيء ثم اتساعها و شمول الليل.

و المشار اليه بذلك-بناء على ما تقدم من معنى النصر-ظهور المظلوم بعقابه على الظالم الباغى عليه، و المعنى أن ذلك النصر بسبب أن من سنّه الله أن يظهر أحد المضادين و المتزاحمين على الآخر كما يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل و إن الله سميع لأقوالهم بصير بأعمالهم فينصر المظلوم و هو مهضوم الحق بعينه و ما يسأله بلسان حاله فى سمعه.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الإشاره بذلك الى النصر أو اليه و الى ما ذكر من سببه.

و الحصران فى قوله: «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» و قوله: «وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ» إما بمعنى أنه تعالى حق لا يشوبه باطل و أن ما يدعون من دونه و هى الأصنام باطل لا يشوبه حق

فهو قادر على أن يتصرف فى تكوين الأشياء و أن يحكم لها و عليها بما شاء.

و إما بمعنى أنه تعالى حق بحقيقه معنى الكلمه مستقلا بذلك لا- حق غيره إلا- ما حققه هو، و أن ما يدعون من دونه و هى الأصنام بل كان ما يركن اليه و يدعى للحاجه من دون الله هو الباطل لا غيره إذ مصداق غيره هو الله سبحانه فافهم ذلك، و إنما كان باطلا إذ كان لا حقيقه له باستقلاله.

و المعنى-على أى تقدير-أن ذلك التصرف فى التكوين و التشريع من الله سبحانه بسبب أنه تعالى حق يتحقق بمشيئته كل حق غيره، و أن آلهتهم من دون الله و كل ما يركن اليه ظالم باغ من دونه باطل لا يقدر على شىء.

□
و قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ علوه تعالى بحيث يعلو و لا يعلى عليه و كبره بحيث لا يصغر لشىء بالهوان و المذله من فروع كونه حقا أى ثابتا لا يعرضه زوال و موجودا لا يمسه عدم.

□
□
قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ استشهاد على عموم القدره المشاره إليها آنفا بإنزال الماء من السماء -و المراد بها جهه العلو- و صيروره الأرض بذلك مخضرة.

□
و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ تعليل لجعل الأرض مخضرة بإنزال الماء من السماء فتكون نتيجة هذا التعليل و ذاك الاستشهاد كأنه قيل: إن الله ينزل كذا فيكون كذا لأنه لطيف خبير و هو يشهد بعموم قدرته.

□
قوله تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ظاهره أنه خبر بعد خبر لأن فهو تتمه التعليل فى الآيه السابقه كأنه قيل: إن الله لطيف خبير مالِك لما فى السماوات و ما فى الأرض يتصرف فى ملكه كما يشاء بلطف و خبره، و يمكن أن يكون استئنافا يفيد تعليلًا باستقلاله.

وقوله: وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ يفيد عدم حاجته الى شىء من تصرفاته بما هو غنى على الإطلاق و هو مع ذلك جميله نافعهم يحمد عليها بما هو حميد على الإطلاق فمفاد الاسمين معا أنه تعالى لا يفعل إلا ما هو نافع لكن لا يعود نفعه اليه بل الى الخلق أنفسهم.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ الخ؛ استشهاد آخر على عموم القدره، و المقابله بين تسخير ما فى الأرض و تسخير الفلك فى البحر يؤيد أن المراد بالأرض البر مقابل البحر، و على هذا فتعقيب الجملتين بقوله: «وَيُؤَمِّسُكُمُ السَّمَاءُ» الخ؛ يعطى أن محصل المراد أن الله سخر لكم ما فى السماء و الأرض برّها و بحرّها.

و المراد بالسماء جهه العلو و ما فيها فالله يمسكها أن تقع على الأرض إلا بإذنه مما يسقط من الأحجار السماويه و الصواعق و نحوها.

و قد ختم الآيه بصفى الرأفة و الرحمة تميما للنعمه و امتنانا على الناس.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ سياق الماضى فى «أَحْيَاكُمْ» يدل على أن المراد به الحياه الدنيا و أهميه المعاد بالذكر تستدعى أن يكون المراد من قوله: «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» الحياه الآخره يوم البعث دون الحياه البرزخيه.

و هذه الحياه ثم الموت ثم الحياه من النعم الإلهيه العظمى ختم بها الامتنان و لذا عقبها بقوله:

«إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ» .

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٦٧ الى ٧٨]

اشاره

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تَتَلَا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْمِطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍِّّ مِنْ ذَلِكَمُ النَّارِ وَعَذَابِ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَسِ الْأَمِّيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَشَاءُ اللَّهُمْ الدُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَىٰ اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ أَسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَ فِي هَذَا لِيُكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

قوله تعالى: لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسِيَةً كَأَنَّ هُمْ نَاسِكُونَ فَلَا يُتَارَعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ المنسك مصدر ميمي بمعنى النسك و هو العبادة و يجيده قوله: «هُم نَاسِكُونَ» أى يعبدون تلك العبادة، و ليس اسم مكان كما احتمله بعضهم.

و المراد بكل أمه هى الامه بعد الامه من الامم الماضين حتى تنتهى الى هذه الامه دون الامم المختلفه الموجوده فى زمانه صلى الله عليه و آله و سلم كالعرب و العجم و الروم لوحده الشريعه و عموم النبوه.

و قوله: فَلَا يُتَارَعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ نَهَىٰ لِلْكَافِرِينَ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مَنَازَعَتَهُ فِي الْمَنَاسِكِ الَّتِي أَتَىٰ بِهَا وَ هُمْ وَ إِنْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِدَعْوَتِهِ وَ لَا يَرُونَ لَهَا أَتَىٰ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَ النَّوَهِى وَ قَعَا يَسْلَمُونَ لَهُ وَ لَا أَثَرَ لِنَهْيِهِ مِنْ لَا يَسْلَمُ لِلنَّاهِي طَاعَهُ وَ لَا مَوْلِيَهُ لَكِنْ هَذَا النَّهْيُ لَمَّا كَانَ مَعْتَمِدًا عَلَى الْحِجَّةِ لَمْ يَصِرْ لِعَوَالٍ أَثَرَ لَهُ وَ هِيَ صَدْرُ الْآيَةِ.

فكأن الكفار من أهل الكتاب أو المشركين لما رأوا من عبادات الإسلام ما لا عهد لهم به فى الشرائع السابقه كشريعه اليهود مثلا نازعوه فى ذلك من أين جئت به و لا- عهد به فى الشرائع السابقه و لو كان من شرائع النبوه لعرفه المؤمنون من أمم الأنبياء الماضين؟ فأجاب الله سبحانه عن منازعتهم بما فى الآية.

و معناها ان كلا من الامم كان لهم منسك هم ناسكوه و عباده يعبدونها و لا يتعداهم الى غيرهم لما أن الله سبحانه بَدَل منسك السابقين مما هو أحسن منه في حق اللاحقين لتقدمهم في الرقيّ الفكرى و استعدادهم فى اللاحق لما هو أكمل و أفضل من السابق فالمناسك السابقه منسوخه فى حق اللاحقين فلا معنى لمنازعه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فيما جاء به من المنسك المغاير لمناسك الامم الماضين.

و لما كان نهيمهم عن منازعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى معنى أمره بطيب النفس من قبل نزاعهم و نهيه عن الاعتناء به عطف عليه قوله: «وَ ادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ» كأنه قيل: طب نفسا و لا تعبا بمنازعتهم و اشتغل بما أمرت به و هو الدعوه الى ربك.

و علل ذلك بقوله: «إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّشِيَّتَيْمٍ» و توصيف الهدى بالاستقامه و هى وصف الصراط الذى اليه الهدايه من المجاز العقلى.

قوله تعالى: وَ إِنِّ جَادِلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ سياق الآيه السابقه يؤيد أن المراد بهذا الجدل المجادله و المراء فى أمر اختلاف منسكه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم مع الشرائع السابقه بعد الاحتجاج عليه بنسخ الشرائع، و قد أمر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بإرجاعهم الى حكم الله من غير أن يشتغل بالمجادله معهم بمثل ما يجادلون.

و قوله: فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ توطئه و تمهيد الى إرجاعهم الى حكم الله أى الله أعلم بعملكم و يحكم حكم من يعلم بحقيقه الحال، و إنما يحكم بينكم يوم القيامه فيما كنتم فيه تختلفون و تخالفون الحق و أهلهم - و الاختلاف و التخالف بمعنى كالاستباق و التسابق -.

قوله تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ تعليل لعلمه تعالى بما يعملون أى إن ما يعملون بعض ما فى السماء و الأرض و هو يعلم جميع ما فيهما فهو يعلم بعلمهم.

و قوله: «إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ» تأكيد لما تقدمه أى إن ما علمه من شىء مثبت فى كتاب فلا

يزول ولا ينسى ولا يسهو فهو محفوظ على ما هو عليه حين يحكم بينهم، وقوله: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» أى ثبت ما يعلمه فى كتاب محفوظ هين عليه.

قوله تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ السَّخِّ الْبَاءِ فِي «بِهِ» بمعنى مع، والسلطان البرهان والحججه والمعنى و يعبد المشركون من دون الله شيئا- وهو ما اتخذه شريكا له تعالى- لم ينزل الله معه حججه حتى يأخذوها و يحتجوا بها ولا أن لهم به علما.

وقوله: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ قِيلَ: هو تهديد للمشركين والمراد أنه ليس لهم ناصر ينصرهم فيمنعهم من العذاب.

والظاهر-على ما يعطيه السياق-أنه فى محل الاحتجاج على أن ليس لهم برهان على شركائهم ولا علم، بأن لو كان لهم حججه أو علم لكان لهم نصير ينصرهم إذ البرهان نصير لمن يحتج به والعلم نصير لكنهم ظالمون و ما للظالمين من نصير فليس لهم برهان ولا علم، وهذا من أطف الاحتجاجات القرآنيه.

قوله تعالى: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَشِيطُونَ السَّخِّ؛ المنكر مصدر ميمي بمعنى الإنكار، والمراد بمعرفه الإنكار فى وجوههم معرفه أثر الإنكار والكراهه، و«يَشِيطُونَ» من السطوه وهى على ما فى مجمع البيان: إظهار الحال الهائله للإخافه يقال: سطا عليه يسطو سطوه و سطا به و الإنسان مسطو عليه، و السطوه و البطشه بمعنى. انتهى.

والمعنى: و إذا تلى عليهم آيتنا و الحال أنها واضحات الدلاله تعرف و تشهد فى وجوه الذين كفروا أثر الإنكار يقربون من أن يبطشوا على الذين يتلون و يقرءون عليهم آياتنا لما يأخذهم من الغيظ.

وقوله: «قُلْ أَفَأَتَّبِعُكُمْ بِشْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ تَفْرِيعَ عَلَىٰ إِنْكَارِهِمْ وَ تَحْرِزَهُمْ مِنْ اسْتِمَاعِ»

القرآن أى قل: أ فأخبركم بما هو شر من هذا الذى تعدونه شرأ تحترزون منه و تتقون أن تسمعه أ فأخبركم به لتتقوه إن كنتم تتقون.

□ □ □
و قوله: الذارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بَسَّ الْمَصِيرُ بيان للشر أى ذلكم الذى هو شر من هذا هى النار، وقوله: «وَعَدَهَا اللَّهُ» الخ؛ بيان لكونه شرا.

□ □ □
قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ الى آخر الآيه؛ خطاب للناس جميعا و العناية بالمشركين منهم.

و قوله: ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ المثل هو الوصف الذى يمثل الشىء فى حاله سواء كان وصفا محققا واقعا أو مقدرًا متخيلا كالأمثال التى تشتمل على محاورات الحيوانات و الجمادات و مشافهاتها، و ضرب المثل نصبه ليتفكر فيه كضرب الخيمه ليسكن فيها.

□ □ □
و هذا المثل هو قوله: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ» و المعنى أنه لو فرض أن آلهتهم شاءوا أن يخلقوا ذبابا و هو أضعف الحيوانات عندهم لم يقدروا عليه أبدا و إن يسلبهم الذباب شيئا مما عليهم لا يستنقذوه بالانتزاع منه.

فهذا الوصف يمثل حال آلهتهم من دون الله فى قدرتهم على الإيجاد و على تدبير الأمر حيث لا يقدرّون على خلق ذباب و على تدبير أهون الامور و هو استرداد ما أخذه الذباب منهم و أضرهم بذلك و كيف يستحق الدعوه و العباده من كان هذا شأنه؟.

□ □ □
و قوله: «ضَعْفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ» مقتضى المقام أن يكون المراد بالطالب الآلهه و هى الأصنام المدعوّه فإن المفروض أنهم يطلبون خلق الذباب فلا يقدرّون و استنقاذ ما سلبه إياهم فلا يقدرّون، و المطلوب الذباب حيث يطلب ليخلق و يطلب ليستنقذ منه.

و فى هذه الجملة بيان غايه ضعفهم فإنهم أضعف من أضعف ما يستضعفه الناس من

الحيوانات التي فيها شيء من الشعور و القدره.

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ قَدْرَ الشَّيْءِ هُنْدَسْتَهُ وَ تَعْيِينَ كَمِيَّتِهِ وَ يَكْتُنِي عَنْ مَنْزِلِهِ الشَّيْءَ تَقْتَضِيهَا أَوْصَافَهُ وَ نَعْوَتَهُ يُقَالُ: قَدَرَ الشَّيْءُ حَقَّ قَدْرِهِ أَي نَزَلَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا وَ عَامَلَهُ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ.

و قدره تعالى حق القدر أن يلتزم بما يقتضيه صفاته العليا و يعامل كما يستحقه بأن يتخذ ربا لا رب غيره و يعبد وحده لا معبود سواه لكن المشركين ما قدروه حتى قدره إذ لم يتخذوه ربا و لم يعبدو بل اتخذوا الأصنام أربابا من دونه و عبدوها دونه و هم يرون أنها لا تقدر على خلق ذباب و يمكن أن يستدلها ذباب فهي من الضعف و الذله في نهايتهما، و الله سبحانه هو القوي العزيز الذي اليه ينتهي الخلق و الأمر و هو القائم بالإيجاد و التدبير.

فقوله: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِيَّاهُ إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ التَّرَامِهِمْ بِرَبُوبِيَّتِهِ تَعَالَى وَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ اتَّخَذَهُمُ الْأَصْنَامُ أَرْبَابًا مِنْ دُونِهِ يَعْبُدُونَهَا خَوْفًا وَ طَمَعًا دُونَهُ تَعَالَى.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ تَعْلِيلٌ لِلنَّفْيِ السَّابِقِ وَ قَدْ أَطْلَقَ الْقَوِيُّ الْعِزَّةَ فَأَفَادَ أَنَّهُ قَوِيٌّ لَا يُعْرَضُهُ ضَعْفٌ وَ عَزِيزٌ لَا تَعْتَرِيهِ ذَلَّةٌ كَمَا قَالَ: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (البقره ١٦٥)، و قَالَ: فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (النساء ١٣٩)، و إِنَّمَا خَصَّ الْأَسْمِينَ بِالذِّكْرِ لِمُقَابَلَتِهِمَا مَا فِي الْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ مِنْ صِفَةِ آلِهَتِهِمْ وَ هُوَ الضَّعْفُ وَ الذَّلَّةُ فَهَؤُلَاءِ اسْتَهَانُوا أَمْرَ رَبِّهِمْ إِذْ عَدَلُوا بَيْنَهُ تَعَالَى وَ هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ وَ لَا يَسْتَدْلُهُ مِنْ سِوَاهُ وَ بَيْنَ الْأَصْنَامِ وَ الْأَلْهَةِ الَّذِينَ يُضْعَفُونَ مِنْ خَلْقِ ذَبَابٍ وَ يَسْتَدْلُهُمْ ذَبَابٌ ثُمَّ لَمْ يَرْضُوا بِذَلِكَ حَتَّى قَدَّمُوهُمْ عَلَيْهِ تَعَالَى فَاتَّخَذُوهُمْ أَرْبَابًا يَعْبُدُونَهُمْ دُونَهُ تَعَالَى.

قوله تعالى: اللَّهُ يَضِيغُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ الْأَصْطِفَاءُ أَخَذَ صَفْوَهُ الشَّيْءَ وَ خَالَصْتَهُ، قَالَ الرَّاعِبُ: الْأَصْطِفَاءُ تَنَاوَلُ صَفْوَهُ الشَّيْءِ

كما أن الاختيار تناول خيره و الإجتباء تناول جبايته. انتهى.

فاصطفاه الله تعالى من الملائكة رسلا و من الناس اختياره من بينهم من يصفو لذلك و يصلح.

و هذه الآيه و التى بعدها تبيان و جوب جعل الرساله و صفتها و صفه الرسل و هى العصمه، و للكلام فيها بعض الاتصال بقوله السابق: «لُكُلُّ أُمَّه جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ» لإنبائه عن الرساله.

تبيّن الآيه أولاً أن لله رسلا من الملائكة و من الناس، و ثانياً أن هذه الرساله ليست كيفما اتفقت و ممن اتفق بل هى بالاصطفاء و تعيين من هو صالح لذلك.

□
و قوله: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» تعليل لأصل الإرسال فإن الناس أعنى النوع الإنسانى يحتاج حاجه فطريه الى أن يهديهم الله سبحانه نحو سعادتهم و كمالهم المطلوب من خلقهم كسائر الأنواع الكونيه فالحاجه نحو الهدايه عامه، و ظهور الحاجه فيهم و إن شئت فقل: إظهارهم الحاجه من أنفسهم سؤال منهم و استدعاء لما ترتفع به حاجتهم و الله سبحانه سميع بصير يرى ببصره ما هم عليه من الحاجه الفطريه الى الهدايه و يسمع بسمعه سؤالهم ذلك.

فمقتضى سمعه و بصره تعالى أن يرسل اليهم رسولا- و يهديهم به الى سعادتهم التى خلقوا لنيلها و التلبس بها فما كل الناس بصالحين للاتصال بعالم القدس و فيهم الخبيث و الطيب و الطالح و الصالح، و الرسول رسولان ملكى يأخذ الوحي منه □
تعالى و يؤديه الى الرسول الإنسانى و رسول إنسانى يأخذ الوحي من الرسول الملكى و يلقيه الى الناس و بالجملة قوله: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» يتضمن الحجه على لزوم أصل الإرسال، و أما معنى الاصطفاء و الحجه على لزومه فهو ما يشير اليه قوله: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ» .

□
قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

ظاهر السياق أن ضمير الجمع في الموضوعين للرسول من الملائكة والناس، ويشهد وقوع هذا التعبير فيهم في غير هذا لموضع كقوله تعالى حكاية عن ملائكة الوحي: وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا الْآيَةَ (مريم ٦٤)، وقوله: فَلَا يُظْهِرُ عَلَيَّ غَيْبِي أَحَدًا إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسِيلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصِيدًا لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (الجن ٢٨).

والآية- كما ترى- تنادي بأن ذكر علمه بما بين أيديهم وما خلفهم للدلالة على أنه تعالى مراقب للطريق الذي يسلكه الوحي فيما بينه وبين الناس حافظ له أن يختل في نفسه بنسيان أو تغيير أو يفسد بشيء من مكائد الشياطين و تسويلاتهم كل ذلك لأن حملة الوحي من الرسل بعينه و بمشهد منه يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم و هو بالمرصاد.

و من هنا يظهر أن المراد بما بين أيديهم هو ما بينهم و بين من يؤدون اليه فما بين أيدي الرسول الملكى هو ما بينه و بين الرسول الإنسانى و ما بين يدي الرسول الإنسانى هو ما بينه و بين الناس، و المراد بما خلفهم هو ما بينهم و بين الله سبحانه و الجميع سائرون من جانب الله الى الناس.

فالوحي فى ما من إلهى منذ يصدر من ساحه العظمه و الكبرياء الى أن يبلغ الناس و لازمه أن الرسل معصومون فى تلقى الوحي و معصومون فى حفظه و معصومون فى إبلاغه للناس.

□
و قوله: وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فى مقام التعليل لعلمه بما بين أيديهم و ما خلفهم أى كيف يخفى عليه شيء من ذلك؟ و اليه يرجع جميع الامور و إذ ليس هذا الرجوع رجوعا زمانيا حتى يجوز معه خفاء حاله قبل الرجوع و إنما هو مملوكيه ذاته له تعالى فلا استقلال له منه و لا خفاء فيه له فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الأمر بالركوع و السجود أمر بالصلاه و مقتضى المقابله أن يكون

المراد بقوله: «وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ» الأمر بسائر العبادات المشرّعه في الدين كالحج و الصوم و يبقى لقوله: «وَافْعَلُوا الْخَيْرَ» سائر الأحكام و القوانين المشرعه فإن في إقامتها و العمل بها خير المجتمع و سعادته الأفراد و حياتهم كما قال: إِنْ تَتَجَبَّأُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (الأنفال ٢٤).

و في الآية أمر بإجمال الشرائع الإسلاميه من عبادات و غيرها.

قوله تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ إلى آخر الآية؛ الجهاد بذل الجهد و استفراغ الوسع في مدافعه العدو، و يطلق في الأكثر على المدافعه بالقتال لكن ربما يتوسع في معنى العدو حتى يشمل كل ما يتوقع منه الشر كالشيطان الذي يضل الإنسان و النفس الأماره بالسوء و غير ذلك فيطلق اللفظ على مخالفه النفس في هواها و الاجتناب عن طاعه الشيطان في وسوسته، و قد سمى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مخالفه النفس جهادا أكبر.

و الظاهر أن المراد بالجهاد في الآية هو المعنى الأعم و خاصه بالنظر إلى تقييده بقوله: «فِي اللَّهِ» و هو كل ما يرجع إليه تعالى، و يؤيده أيضا قوله: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (العنكبوت ٦٩).

و على ذلك فمعنى كون الجهاد فيه حق جهاد أن يكون متمحضا في معنى الجهاد و يكون خالصا لوجهه الكريم لا يشاركه فيه غيره نظير تقوى الله حق تقواه في قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ (آل عمران ١٢٤).

و قوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ امتنان منه تعالى على المؤمنين بأنهم ما كانوا لينالوا سعادة الدين من عند أنفسهم و بحولهم غير أن الله من عليهم إذ وفقهم فاجتباهم و جمعهم للدين، و رفع عنهم كل حرج في الدين امتنانا سواء كان حرجا في أصل الحكم أو حرجا طارئا عليه اتفاقا فهي شريعته سهله سمحه مله أبيهم إبراهيم الحنيف الذي أسلم لربه.

و إنما سمي إبراهيم أبا المسلمين لأنه عليه السلام أول من أسلم لله كما قال تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ (البقره ١٣١/)، وقال حاكيا عنه عليه السلام: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي (إبراهيم ٣٦/) فنسب اتباعه الى نفسه، وقال أيضا: وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (إبراهيم ٣٥/)، ومراده بينه المسلمون دون المشركون قطعاً وقال: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران ٦٨/).

وقوله: هُوَ سَيِّمًاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا امْتِنَانِ ثَانِ مِنْهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ الْاِمْتِنَانِ بِقَوْلِهِ: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ» فالضمير له تعالى وقوله: «مِنْ قَبْلُ» أى من قبل نزول القرآن وقوله: «وَ فِي هَذَا» أى وفى هذا الكتاب وفى امتنانه عليهم بذكر أنه سماهم المسلمين دلالة على قبوله تعالى إسلامهم.

وقوله: لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ المراد به شهاده الأعمال وقد تقدم الكلام فى معنى الآيه فى سورة البقره الآيه ١٤٣ وغيرها وفى الآيه تعليل ما تقدم من حديث الاجتباء ونفى الحرج وتسميتهم مسلمين.

وقوله: فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ تَفْرِيعَ عَلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِمَّا امْتَنَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَى فعلى هذا يجب عليكم أن تقيموا الصلاه و تؤتوا الزكاه- وهو إشاره الى العمل بالأحكام العباديه و الماليه- و تعتصموا بالله فى جميع الأحوال فتأتمروا بكل ما أمر به و تنتهوا عن جميع ما نهى عنه و لا- تنقطعوا عنه فى حال لأنه مولا-كم و ليس للعبد أن ينقطع عن مولاة فى حال و لا للإنسان الضعيف أن ينقطع عن ناصره- بوجه على الاحتمالين فى معنى المولى-.

فقوله: هُوَ مَوْلَاكُمْ فى مقام التعليل لما قبله من الحكم، وقوله: «فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ» كلمه مدح له تعالى و تطيب لنفوس المؤمنين و تقويه لقلوبهم بأن مولاهم و نصيرهم هو الله الذى لا مولى غيره و لا نصير سواه.

و اعلم أن الذى أوردناه من معنى الاجتباء و كذا الإسلام و غيره فى الآيه هو الذى ذكره جل المفسرين بالبناء على ظاهر الخطاب بيا أيها الذين آمنوا فى صدر الكلام و شموله عامه المؤمنين و جميع الامه.

و قد بينا غير مره أن الاجتباء بحقيقه معناه يساوق جعل العبد مخلصا-بفتح اللام- مخصوصا باللّه لا نصيب لغيره تعالى فيه، و هذه صفة لا توجد إلا فى آحاد معدودين من الامه دون الجميع قطعاً، و كذا الكلام فى معنى الإسلام و الاعتصام، و المعنى بحقيقته مراد فى الكلام قطعاً.

و على هذا فنسبه الاجتباء و الإسلام و الشهاده الى جميع الامه توسع من جهه اشتمالهم على من يتصف بهذه الصفات بحقيقتها نظير قوله فى بنى إسرائيل: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا (المائدة ٢٠)، و قوله فيهم: وَ فَضَّلْنَاَّهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (الجاثية ١٦) و نظائره كثيره فى القرآن.

ص: ٣٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صِلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ
(٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
(٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

فى السوره دعوه الى الايمان بالله و اليوم الآخر و تمييز المؤمنين من الكفار بذكر ما لهؤلاء من جميل صفات العبوديه و ما لاولئك من رذائل الأخلاق و سفاسف الأعمال، و تعقيب ذلك بالتبشير و الإنذار، و قد تضمن الإنذار ذكر عذاب الآخرة و ما غشى الامم المكذبين للدعوه الحقه من عذاب الاستئصال فى مسير الدعوه آخذاً من زمن نوح الى زمن المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام.

و السوره مكيه، و سياق آياتها يشهد بذلك.

قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ قال الراغب: الفلح - بالفتح - فالفتح فالسكون - الشق، و قيل: الحديد بالحديد يفلح أى يشق، و الفلاح الظفر و إدراك بغيه و ذلك ضربان: دنيوى و أخروى، فالدنيوى الظفر بالسعادات التى تطيب بها الحياه الدنيا و هو البقاء و الغنى و العز، و الاخرى أربعة أشياء: بقاء - بلا - فناء، و غنى - بلا - فقر، و عز - بلا - ذل، و علم - بلا - جهل، و لذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة. انتهى ملخصاً. فتسميه الظفر بالسعاده فلاحاً بعنايه أن فيه شقاً للمانع و كشفاً عن وجه المطلوب.

و الايمان هو الإذعان و التصديق بشىء بالالتزام بلوازمه، فالإيمان بالله فى عرف القرآن التصديق بوحدانيته و رسله و اليوم الآخر و بما جاءت به رسله مع الاتباع فى الجملة، و لذا نجد القرآن كلما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجر جزيل شفع الإيمان بالعمل الصالح كقوله: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (النحل ٩٧)، و قوله:

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (الرعد ٢٩)، الى غير ذلك من الآيات و هى كثيره جداً.

و ليس مجرد الاعتقاد بشىء إيماناً به حتى مع عدم الالتزام بلوازمه و أثره فإن الإيمان علم

بالشىء مع السكون و الاطمئنان اليه و لا- ينفك السكون الى الشىء من الالتزام بلوازمه لكن العلم ربما ينفك من السكون و الالتزام ككثير من المعتادين بالأعمال الشنيعة أو المضره فإنهم يعترفون بشناعه عملهم أو ضرره لكنهم لا يتركونها معتذرين بالاعتیاد و قد قال تعالى:

وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتَهَا [□] أَنْفُسُهُمْ (النمل ١٤).

و الإيمان و إن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه فى الجملة لصارف من الصوارف النفسانيه يصرف عنه لكنه لا يتخلف عن لوازمه بالجملة.

قوله تعالى: الَّذِينَ هُمْ فِي صِيَالَتِهِمْ خَائِفُونَ الْخُشُوعَ تَأْثُرُ خَاصٍ مِنَ الْمُقَهَّورِ قِبَالَ الْقَاهِرِ بَحِيثٌ يَنْقَطِعُ عَنْ غَيْرِهِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ وَ الظاهر أنه من صفات القلب ثم ينسب الى الجوارح أو غيرها بنوع من العناية كقوله صلى الله عليه و آله و سلم-على ما روى- فيمن يعبث بلحيته فى الصلاة: أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، و قوله تعالى: وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ (طه ١٠٨).

و الخشوع بهذا المعنى جامع لجميع المعانى التى فسّر بها الخشوع فى الآيه، كقول بعضهم:

هو الخوف و سكون الجوارح، و قول آخرين: غصّ البصر و خفض الجناح، أو تنكيس الرأس، أو عدم الالتفات يمينا و شمالا، أو إعظام المقام و جمع الاهتمام، أو التذلل الى غير ذلك.

و هذه الآيه الى تمام ثمانى آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما يلازم كون وصف الإيمان حيا فعّالا يترتب عليه آثاره المطلوبه منه ليرتب عليه الغرض المطلوب منه و هو الفلاح فإن الصلاة توجه ممن ليس له إلا الفقر و الذلّ الى ساحه العظمه و الكبرياء و منبع العزه و البهاء و لازمه أن يتأثر الإنسان الشاعر بالمقام فيستغرق فى الذلّ و الهوان و ينتزع قلبه عن كل ما يلهوه و يشغله عما يهّمه و يواجهه، فلو كان إيمانه إيمانا صادقا جعل همّه حين التوجه الى ربه همّا واحدا و شغله الاشتغال به عن الالتفات الى غيره فماذا يفعل الفقير المحض إذا لقي غنى لا يقدر بقدره؟ و الدليل إذا واجه عزه مطلقه لا يشوبها ذلّ و هوان؟

و هذا معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى حديث الحارثه بن النعمان المروى فى الكافى و غيره: إن لكل حق حقيقه و لكل صواب نوارا. الحديث (١).

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ اللغو من الفعل هو ما لا فائده فيه و يختلف باختلاف الامور التى تعود عليها الفائده فرب فعل هو لغو بالنسبه الى امر و هو بعينه مفيد مجد بالنسبه الى امر آخر.

فاللغو من الأفعال فى نظر الدين الأعمال المباحه التى لا ينتفع بها فى الآخره أو فى الدنيا بحيث ينتهى أيضا الى الآخره كالأكل و الشرب بداعى شهوه التغذى اللذين يتفرع عليهما التقوى على طاعه الله و عبادته، فإذا كان الفعل لا ينتفع به فى آخر و لا فى دنيا تنتهى بنحو الى آخره فهو اللغو و بنظر أدق هو ما عدا الواجبات و المستحبات من الأفعال.

و لم يصف سبحانه المؤمنين بترك اللغو مطلقا فإن الانسان فى معرف العثره و مزله الخطيئه و قد عفا عن السيئات إذا اجتنبت الكبائر كما قال: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا** (النساء ٣١).

بل وصفهم بالإعراض عن اللغو دون مطلق تركه و الإعراض يقتضى أمرا بالفعل يدعو الى الاشتغال به فيتركه الانسان صارفا وجهه عنه الى غيره لعدم اعتداده به و اعتنائه بشأنه، و لازمه ترفع النفس عن الأعمال الخسيسه و اعتلاؤها عن الاشتغال بما ينافى الشرف و الكرامه و تعلقها بعظام الامور و جلائل المقاصد.

و من حق الإيمان أن يدعو الى ذلك فإن فيه تعلقا بساحه العظمه و الكبرياء و منبع العزه و المجد و البهاء و المتصف به لا يهتم إلا- بحياه سعيده أبدية خالده فلا يشتغل إلا بما يستعظمه الحق و لا يستعظم ما يهتم به سفله الناس و جهلتهم، و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، و إذا

ص: ٣٥٨

(١-١). المؤمنون ١-١١: كلام فى معنى تأثير الإيمان.

مَرَوْا بِاللُّغُو مَرَّوَا كَرَامًا.

و من هنا يظهر أن وصفهم بالإعراض عن اللغو كناية عن علو همّتهم و كرامه نفوسهم.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ذكر الزكاة مع الصلاة قرينه على كون المراد بها الإنفاق المالى دون الزكاة بمعنى تطهير النفس بإزاله ردائل الأخلاق عنها و لعل المراد بالزكاة المعنى المصدري و هو تطهير المال بالإنفاق من دون المقدار المخرج من المال فإن السوره مكيه و تشريع الزكاة المعهوده فى الإسلام إنما كان بالمدينه ثم صار لفظ الزكاة علما بالغلبه للمقدار المعين المخرج من المال.

و بهذا يستصحّ تعلق «لِلزَّكَاةِ» بقوله: «فَاعِلُونَ» و المعنى:الذين هم فاعلون للإنفاق المالى،و أما لو كان المراد بالزكاة نفس المال المخرج لم يصحّ تعلقه به إذ المال المخرج ليس فعلا متعلقا بفاعل،و لذا قدّر بعض من حمل الزكاة على هذا المعنى لفظ التأديه فكان التقدير عنده و الذين هم لتأديه الزكاة فاعلون،و لذا أيضا فسّر بعضهم الزكاة بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيله فرارا من تعلق «لِلزَّكَاةِ» بقوله: «فَاعِلُونَ» .

و فى التعبير بقوله: «لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ» دون أن يقول:للزكاة مؤدّون أو ما يؤدى معناه دلالة على عنايتهم بها كقول القائل:إنى شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال:إنى فاعل.

و من حق الإيمان بالله أن يدعو الى هذا الإنفاق المالى فإن الانسان لا ينال كمال سعادته إلا فى مجتمع سعيد ينال فيه كل ذى حق حقه و لا- سعادته لمجتمع إلا- مع تقارب الطبقات فى التمتع من مزايا الحياه و أمتعته العيش،و الإنفاق المالى على الفقراء و المساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغيه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِزُجُوجِهِمْ حَافِظُونَ الى آخر الآيات الثلاث؛الفروج جمع فرج و هو-على ما قيل-ما يسوء ذكره من الرجال و النساء،و حفظ الفروج كناية عن

و الرعايه الحفظ، و قد قيل: إن أصل الرعى حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذبّ العدو عنه ثم استعمل في الحفظ مطلقاً. انتهى. و لعل العكس أقرب الى الاعتبار.

و بالجملة الآيه تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تخان و العهد من أن ينقض، و من حق الإيمان أن يدعو الى ذلك فإن في إيمانه معنى السكون و الاستقرار و الاطمئنان فإذا آمن أحد في أمانه أو دعها عنده أو عهد عاهده و قطع على ذلك استقرّ عليه و لم يتزلزل بخيانه أو نقض.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صِيْلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ جمع الصلاه و تعليق المحافظه عليه دليل على أن المراد المحافظه على العدد فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شيء من الصلوات المفروضه و يراقبونها دائماً و من حق إيمانهم أن يدعوهم الى ذلك.

و لذلك جمعت الصلاه هاهنا و أفردت في قوله: «فِي صِيْلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» لأن الخشوع في جنس الصلاه على حدّ سواء فلا موجب لجمعها.

قوله تعالى: أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ الفردوس أعلى الجنان، و قد تقدم معناها و شيء من وصفها في ذيل قوله تعالى:

كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (الكهف ١٠٧).

و قوله: الَّذِينَ يَرِثُونَ النَّارَ؛ بيان لقوله: «الْوَارِثُونَ» و وراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركهم فيها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت اليهم، و قد ورد في الروايات أن لكل إنسان منزلاً في الجنة و منزلاً في النار فإذا مات و دخل النار ورث أهل الجنة منزله، و ستوافيك إن شاء الله في بحث روائي (١)(٢).

ص: ٣٤١

١-١. المؤمنون ١-١١: بحث روائي في الخشوع في الصلاه؛ نكاح المتعه.

٢-٢. المؤمنون ١-١١.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدٌ ذَلِكَ لَمَعْنُونَ (١٥) ثُمَّ
إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ تَبْعْتُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ
فَأَسْبَغْنَا فِي الْمَارِضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْدَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّكْلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: السُّلَالَةُ اسْمٌ لِمَا يَسْلُ مِنَ الشَّيْءِ كَالْكِسَاحَةِ اسْمٌ لِمَا يَكْسَحُ أَنْتَهَى. وَظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ هُوَ النَّوْعُ فِيَشْمَلُ آدَمَ وَ مِنْ دُونِهِ وَ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْخَلْقِ الْخَلْقَ الْإِبْتِدَائِيَّ الَّذِي خَلَقَ بِهِ آدَمُ مِنَ الطِّينِ ثُمَّ جَعَلَ النَّسْلَ مِنَ النَّطْفَةِ، وَ تَكُونُ الْآيَةُ وَ مَا بَعْدَهَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (الم السجده ٨/٨)».

و يؤيد قوله بعد: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً» إذ لو كان المراد بالإنسان ابن آدم فحسب و كان المراد بخلقه من طين انتهاء النطفة الى الطين لكان الظاهر أن يقال: ثم خلقناه نطفه كما قيل: ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغه، الخ.

و بذلك يظهر أن قول بعضهم: إن المراد بالإنسان جنس بني آدم، و كذا القول بأن المراد به آدم عليه السلام غير سديد.

و أصل الخلق - كما قيل - التقدير يقال: خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شيئاً من اللباس فالمعنى و لقد قدرنا الإنسان أولاً من سلالة من أجزاء الأرض المخلوطة بالماء.

قوله تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ» النطفة القليل من الماء و ربما يطلق على مطلق الماء، و القرار مصدر أريد به المقر مبالغه و المراد به الرحم التي تستقر فيها النطفة، و المكين المتمكن و صفت به الرحم لتمكنها في حفظ النطفة من الضيعة و الفساد أو لكون النطفة مستقره متمكنه فيها.

و لمعنى ثم جعلنا الإنسان نطفه في مستقر متمكن هي الرحم كما خلقناه أولاً من سلالة من طين أى بدلنا طريق خلقه من هذا الى ذاك.

قوله تعالى: «ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً» - الى قوله - «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا»

تقدم بيان مفردات الآيه فى الآيه ٥ من سورة الحج فى الجزء السابق من الكتاب و فى قوله:

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ استعاره بالكنايه لطيفه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ الْإِنشَاءِ﴾ - كما ذكره الراغب - إيجاد الشىء و تربيته كما أن النشء و النشأه إحدائه و تربيته كما يقال للشباب الحديث السن ناشئ.

و قد غير السياق من الخلق الى الإنشاء فقال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ دون أن يقال: ثم خلقناه، الخ؛ للدلاله على حدوث أمر حديث ما كان يتضمنه و لا يقارنه ما تقدمه من ماده فإن العلقه مثلا و إن خالفت النطفه فى أوصافها و خواصها من لون و طعم و غير ذلك إلا- أن فى النطفه مكان كل من هذه الأوصاف و الخواص ما يجانسها و إن لم يماثلها كالبياض مكان الحمرة و هما جميعا لون بخلاف ما أنشأه الله أخيرا و هو الإنسان الذى له حياه و علم و قدره فإن ما له من جوهر الذات و هو الذى نحكى عنه بأنا لم يسبق من سنخه فى المراحل السابقه أعنى النطفه و العلقه و المضغه و العظام المكسوه لحما شىء، و لا سبق فيها شىء يناظر ما له من الخواص و الأوصاف كالحياه و القدره و العلم فهو منشأ حادث مسبق بالعدم.

و الضمير فى «أَنْشَأْنَاهُ» - على ما يعطيه السياق - للإنسان المخلوق عظاما مكسوه باللحم فهو الذى أنشئ و أحدث خلقا آخر أى بدّل و هو ماده ميتة جاهله عاجزه موجودا ذا حياه و علم و قدره، فقد كان ماده لها صفاتها و خواصها ثم برز و هو يغير سابقته فى الذات و الصفات و الخواص، فهو تلك الماده السابقه فإنها التى صارت إنسانا، و ليس بها إذلا- يشار كها فى ذات و لا صفات، و إنما له نوع اتحاد معها و تعلق بها يستعملها فى سبيل مقاصدها استعمال ذى الآله لآله كالكتاب للقلم.

و هذا هو الذى يستفاد من مثل قوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَمَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ (الم السجده / ١١)، فالمتوفى و المأخوذ عند الموت هو الإنسان، و المتلاشى الضال فى الأرض هو البدن

و ليس به.

و قد اختلف العطف فى مفردات الآيه بالفاء و ثم، و قد قيل فى وجهه أن ما عطف بتم له بينونه كامله مع ما عطف عليه كما فى قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ نُطْفَةً» «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً»، «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ»، و ما لم يكن بتلك بينونه و البعد عطف بالفاء كقوله: «فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا» .

قوله تعالى: فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ قال الراغب: أصل البرك-بالفتح فالسكون-صدر البعير. قال: و برك البعير ألقى ركبه و اعتبر منه معنى اللزوم. قال: و سمي محبس الماء بركه-بالكسر فالسكون-و البركه ثبوت الخير الإلهي فى الشئ قال تعالى:

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ سَمَى بِذَلِكَ لثبوت الخير فيه ثبوت الماء فى البركه، و المبارك ما فيه ذلك الخير.

قال: و لما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا- يحس و على وجه لا- يحصى و لا- يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زياده غير محسوسه هو مبارك و فيه بركه. انتهى.

فالتبارك منه تعالى اختصاصه بالخير الكثير الذى وجود به و يفيضه على خلقه و قد تقدم أن الخلق فى أصله بمعنى التقدير فهذا الخير الكثير كله فى تقدير و هو إيجاد الأشياء و تركيب أجزائها بحيث تتناسب فيما بين أنفسها و تناسب ما وراءها و من ذلك ينتشر الخير للكثير.

و وصفه تعالى بأحسن الخالقين يدل على عدم اختصاص الخلق به و هو كذلك لما تقدم أن معناه التقدير و قياس الشئ من الشئ لا- يختص به تعالى، و فى كلامه تعالى من الخلق المنسوب الى غيره قوله: وَ إِذْ تَخَلَقْتُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ (المائدة ١١٠)، و قوله:

وَ تَخْلُقُونَ إِيَّاهُ (العنكبوت ١٧).

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ بيان لتمام التدبير الإلهي و أن الموت من المراحل التى من الواجب أن يقطعها الإنسان فى مسير التقدير، و أنه حق كما تقدم فى قوله

ص: ٣٦٥

تعالى: كُلِّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبَلُّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً (الأنبياء ٣٥).

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُتَّبَعُونَ و هذا تمام التدبير و هو أعنى البعث آخر مرحله فى مسير الإنسان إذا حل بها لزمها و لا يزال قاطنا بها.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ المراد بالطرائق السبع بقريته قوله: «فَوْقَكُمْ» السماوات السبع و قد سماها طرائق -جمع طريقه- و هى السبيل المطروقه لأنها ممر الامر النازل من عنده تعالى الى الأرض، قال تعالى: يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ (الطلاق ١٢)، و قال: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرِجُ إِلَيْهِ (الم السجده ٥). و السبيل التى تسلكها الأعمال فى صعودها إلى الله و الملائكة فى هبوطهم و عروجهم كما قال: إِلَيْهِ يَصِيءُ عَمْدُ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ (فاطر / ١٠)، و قال: وَ مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ (مريم ٦٤).

قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ المراد بالسما جبهه العلو فإن ما علاك و أظلك فهو سما، و المراد بالماء النازل منها ماء المطر.

و فى قوله: «بِقَدَرٍ» دلالة على أن الذى نزل إنما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهى الذى يقدره بقدره لا يزيد قطره على ما قدر و لا ينقص، و فى تلميح أيضا الى قوله:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١).

و المعنى: و أنزلنا من جبهه العلو ماء بقدر و هو ماء المطر فأسكناه فى الأرض و هو الذخائر المدخرة من الماء فى الجبال و السهول تتفجر عنه العيون و الأنهار و تكشف عنه الآبار، و إنا لقادرون على أن نذهب بهذا الماء الذى أسكناه فى الأرض نوعا من الزهاب لا تهتدون الى علمه.

قوله تعالى: فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ الى آخر الآيه؛

إنشاء الجنات إحدائها و تربيتها، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: وَ شَجَرَهُ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَ صَبِغٌ لِلآكِلِينَ مَعْطُوفٌ عَلَى «جَنَاتٍ» أَى وَ أَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ شَجَرَهُ فِي طُورِ سَيْنَاءَ، و المراد بها شجرة الزيتون التى تكثر فى طور سيناء، و قوله: «تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ» أَى تثمر ثمره فيها الدهن و هو الزيت فهى تنبت بالدهن، و قوله: «وَ صَبِغٌ لِلآكِلِينَ» أَى و تنبت بصبغ للآكلين، و الصبغ بالكسر فالسكون الإدام الذى يؤتدم به، و إنما خصّ شجرة الزيتون بالذكر لعجيب أمرها، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسِّقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا السَّخَّ؛ العبره الدلاله يستدل بها على أنه تعالى مدبر لأمر خلقه حين بهم رؤف رحيم، و المراد بسقيه تعالى مما فى بطونها أنه رزقهم من ألبانها، و المراد بالمنافع الكثيره ما ينتفعون من صوفها و شعرها و وبرها و جلودها و غير ذلك، و منها يأكلون.

قوله تعالى: وَ عَلَيْنَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تَحْمِلُونِ ضَمِيرٌ «عَلَيْهَا» لِلْأَنْعَامِ وَ الْحَمَلِ عَلَى الْأَنْعَامِ هُوَ الْحَمَلُ عَلَى الْإِبِلِ، وَ هُوَ حَمَلٌ فِي الْبَرِّ يُقَابَلُهُ الْحَمَلُ فِي الْبَحْرِ وَ هُوَ الْحَمَلُ عَلَى الْفُلْكِ، فَالْآيَةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: وَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ (الإسراء ٧٠)، وَ الْفُلْكَ جَمْعُ فُلْكَ وَ هِيَ السَّفِينَةُ.

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٣ الى ٥٤]

إشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ الْتَثُورُ فَاسْتَيْلِكُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَيْوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَ قُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزلاً مُبَارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَ إِنَّ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ أَنْتَرَفَتْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَلَيْسَ لَكُمْ أَنْتُمْ وَ كُنْتُمْ تَرَابًا وَ عِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَ مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّهَ أَجْلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا تَرَاكُلًا مَا جَاءَ أُمَّهَ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعِيدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَ أَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِكِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَوْ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَ قَوْمَهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهَ آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ

(٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ
(٥٢) فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤)

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَآ تَتَّقُونَ قد تقدم فى قصص نوح عليه السلام من سورة هود أنه أول أولى العزم من الرسل أصحاب الكتب و الشرائع المبعوثين الى عامه البشر و الناهضين للتوحيد و نفى الشرك، فالمراد بقومه أمته و أهل عصره عامه.

و قوله: «اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» دعوه الى عباده الله و رفض عباده الآلهه من دونه فإن الوثنيين إنما يعبدون غيره من الملائكة و الجنّ و القديسين بدعوى ألوهيتهم أى كونهم معبودين من دونه.

فقوله عليه السلام لقومه الوثنيين: «اعْبُدُوا اللَّهَ» فى معنى أن يقال: اعبدوا الله وحده كما ورد فى سورة هود «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» ، و قوله: «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» فى معنى أن يقال: مالكم من معبود سواه لأنه لا رب غيره يدبر أمركم حتى تعبدوه رجاء لرحمته أو خوفا من سخطه، و قوله بالتفريع على ذلك: «أَفَلَآ تَتَّقُونَ» أى إذا لم يكن لكم رب يدبر أموركم دونه أ فلا تتقون عذابه حيث لا تعبدونه و تكفرون به؟

قوله تعالى: فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ -الى قوله- حَتَّىٰ حِينٍ مَلَأَ الْقَوْمَ أَشْرَافَهُمْ، و وصفهم بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» و وصف

توضيحي لا- احترازي إذ لم يؤمن به من ملأ- قومه أحد بدليل قولهم على ما حكاه الله: وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ (هود ٢٧).

و السياق يدل على أن الملأ كانوا يخاطبون بمضمون الآيتين عامه الناس لصرف وجوههم عنه و إغرائهم عليه و تحريضهم على إيذائه و إسكاته، و ما حكاه تعالى من أقاويلهم في الآيتين وجوه أربعة أو خمسة من فريه أو مغالطه لفقوها و احتجوا بها على بطلان دعوته.

الأول قولهم: «مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ» و محصّيه أنه بشر مثلكم فلو كان صادقا فيما يدّعيه من الوحي الإلهي و الاتصال بالغيب كان نظير ما يدعيه متحققا فيكم إذ لا تنقصون منه في شيء من البشريه و لوازمها، و لم يتحقق فهو كاذب و كيف يمكن أن يكون كمال في وسع البشر أن يناله ثم لا يناله إلا واحد منهم فقط ثم يدعيه من غير شاهد يشهد عليه؟ فلم يبق إلا أنه يريد بهذه الدعوة أن يتفضل عليكم و يترأس فيكم و يؤيده أن يدعوكم الى اتباعه و طاعته و هذه الحججه تنحل في الحقيقه الى حجتين مختلفتين.

و الثاني قولهم: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً» و حصّله أن الله سبحانه لو شاء أن يدعونا بدعوه غيبه لاختار لذلك الملائكه الذين هم المقربون عنده و الشفعاء الروابط بيننا و بينه فأرسلهم الينا لا- بشرا ممن لا نسبه بينه و بينه. على أن في نزولهم و اعترافهم بوجوب العباده له تعالى وحده و عدم جواز اتخاذهم أربابا و آلهه معبودين آيه بينه على صحه الدعوه و صدقها.

و التعبير عن إرسال الملائكه بإنزالهم إنما هو لكون إرسالهم يتحقق بالإنزال و التعبير بلفظ الجمع دون الأفراد لعله لكون المراد بهم الآلهه المتخذة منهم و هم كثيرون.

و الثالث قولهم: «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ» و محصله أنه لو كانت دعوته حقه لا- تفق لها نظير فيما سلف من تاريخ الإنسانيه، و آباؤنا كانوا أفضل منا و أعقل و لم يتفق لهم و في أعصارهم ما يناظر هذه الدعوه فليست إلا بدعه و أحدوثه كاذبه.

و الرابع قولهم: «إِنَّ هُوَ إِلَّا- رَجُلٌ بِهِ جِنَّهُ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ»، الجنه إما مصدر أى به جنون أو مفرد الجن أى حل به من الجن من يتكلم على لسانه لأنه يدعى ما لا يقبله العقل السليم و يقول ما لا يقوله إلا مصاب فى عقله فتربصوا و انتظروا به الى حين ما لعله يفيق من حاله جنونه أو يموت فستريح منه.

و هذه حجج مختلفه ألقاها ملاً قومه الى عامتهم أو ذكر كلا منها بعضهم و هى و إن كانت حججا جدليه مدخوله لكنهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها الى الناس فيصرفون وجوههم عنه و يغرونهم عليه و يمدون فى ضلالهم.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي سؤال منه للنصر و الباء فى قوله: «بِمَا كَذَّبْتَنِي» للبدليه و المعنى انصرنى بدل تكذبيهم لى أو لئله و عليه فالمعنى انصرنى بالذى كذبونى فيه و هو العذاب فإنهم قالوا: فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (هود ٣٢)، و يؤيده قول نوح رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (نوح ٢٦)، و فصل الآيه لكونها فى معنى جواب السؤال.

قوله تعالى: فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحَيْنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ متفرع على سؤال النصر، و معنى صنع الفلك بأعينه صنعه بمرأى منه و هو كناية عن كونه تحت مراقبته تعالى و محافظته، و معنى كون الصنع بوحيه كونه بتعليمه الغيبى حالا بعد حال.

و قوله: فَأِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُورُ المراد بالأمر- كما قيل -حكمه الفصل بينه و بين قومه و قضاؤه فيهم بالغرق، و السياق يشهد على كون فوران التَّنُورِ بالماء أماره نزول العذاب عليهم و هو أعنى فوران الماء من التَّنُورِ و هو محل النار من عجيب الأمر فى نفسه.

و قوله: فَاسْمُكَ فِيهَا مِنْ كَأَلٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ القراءه الدائرته «من كل» بالتنوين و القطع عن الإضافة، و التقدير من كل نوع من الحيوان، و السلوك فيها الإدخال فى الفلك و الظاهر أن «من» لا ابتداء الغايه و المعنى فأدخل فى الفلك زوجين اثنين: ذكر و أنثى من

كل نوع من الحيوان.

□
و قوله: «وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ» معطوف على قوله: «رُوحَيْنِ» و ما قيل: إن عطف «أَهْلَكَ» على «رُوحَيْنِ» يفسد المعنى المراد لرجوع التقدير حينئذ الى قولنا: و اسلك فيها من كل نوع أهلك فالأولى تقدير «أسلك» ثانيا قبل «أَهْلَكَ» و عطفه على «فَأَسْلُوكَ» يدفعه أن «مَنْ كَلَّ» فى موضع الحال من «رُوحَيْنِ» فهو متأخر عنه رتبة كما قدمنا تقديره فلا يعود ثانيا على المعطوف.

و المراد بالأهل خاصته، و الظاهر أنهم أهل بيته المؤمنون به فقد ذكرهم فى سورة هود مع الأهل و لم يذكر هاهنا إلا الأهل فقط.
و المراد بمن سبق عليه القول منهم امرأته الكافره على ما فهم نوح عليه السّلام و هى و ابنه الذى أبى ركوب السفينه و غرق حينما أوى الى جبل فى الحقيقه، و سبق القول هو القضاء المحتوم بالغرق.

□□
و قوله: «وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» النهى عن مخاطبته تعالى كناية عن النهى الشديد عن الشفاعة لهم، بدليل تعليق المخاطبه بالذين ظلموا و تعليل النهى بقوله: «إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» فكأنه قيل: أنهاك عن أصل تكليمى فيهم فضلا أن تشفع لهم فقد شملهم غضبى شمولاً لا يدفعه دافع.

قوله تعالى: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ» علمه أن يحمد الله بعد الاستواء على الفلك على تنجيته تعالى من القوم الظالمين و هذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتما، و أن يسأله أن ينجيه من الطوفان و ينزله على الأرض إنزالاً مباركاً ذا خير كثير ثابت فإنه خير المنزلين.

و فى أمره عليه السّلام أن يحمده و يصفه بالجميل دليل على أنه من عباده المخلصين فإنه تعالى منزّه عما يصفه غيرهم كما قال:
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصافات)

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ خطاب في آخر القصة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبيان أن هذه الدعوه مع ما جرى معها كانت ابتلاء أى امتحانا واختبارا إليها.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ الى آخر الآيه الثانيه؛ القرن أهلى عصر واحد، وقوله: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ» تفسير لإرسال الرسول من قبيل تفسير الفعل بنتيجته كقوله تعالى: تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا (حم السجده / ٣٠).

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هؤلاء أشرافهم المتوغلون فى الدنيا المخلدون الى الأرض يغرون بقولهم هذا عامتهم على رسولهم.

وقد وصفهم الله بصفات ثلاث و هى: الكفر بالله بعباده غيره، والتكذيب بقاء الآخره - أى بقاء الحياه الآخره بقريته مقابلتها لقوله: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» -، ول كفرهم بالمبدأ و المعاد انقطعوا عما وراء الدنيا فانكبوا عليها ثم لما أترفوا فى الحياه الدنيا و تمكنوا من زخارفها و زيناتها المملئده اجتذبتهم الدنيا الى نفسها فاتبعوا الهوى و نسوا كل حق و حقيقه، و لذلك تفوهوا تاره بنفى التوحيد و الرساله و تاره بإنكار المعاد و تاره ردوا الدعوه بإضرارها دنياهم و حرمتهم فى اتباع هواهم.

و اعلم أن فى قوله فى صدر الآيات: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ» قدم قوله: «مِنْ قَوْمِهِ» على «الَّذِينَ كَفَرُوا» بخلاف ما فى القصة السابقه من قوله:

«فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» لأنهم لو وقع بعد «الَّذِينَ كَفَرُوا» اختلّ به ترتيب الجمل المتواليه «كَفَرُوا» و «كَذَّبُوا» و «آتَرَفْنَاهُمْ» و لو وقع بعد الجميع طال الفصل.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ تقدم تفسيره فى القصة السابقه.

قوله تعالى: قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضِيَ بَحْنٌ نَّادِمِينَ استجابه لدعوه الرسول و صيرورتهم نادمين كنايه عن حلول عذاب الاستئصال بهم، و قوله: «عَمَّا قَلِيلٍ» عن بمعنى بعد و«ما» لتأكيد القله و لضمير الجمع للقوم، و الكلام مؤكد بلام القسم و نون التأكيد، و المعنى: أقسم لتأخذنهم الندامه بعد قليل من الزمان بمشاهده حلول العذاب.

قوله تعالى: فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الباء فى «بِالْحَقِّ» للمصاحبه و هو متعلق بقوله: «فَأَخَذْتَهُمُ» أى أخذتهم الصيحه أخذا مصاحبا للحق، أو للسببيه، و الحق وصف أقيم مقام موصوفه المحذوف و التقدير فأخذتهم الصيحه بسبب الأمر الحق أو القضاء الحق كما قال: فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ (المؤمن ٧٨).

و الغناء بضم الغين و ربما شددت الثاء: ما يحمله السيل من يابس النبات و الورق و العيدان الباليه، و قوله: «فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» إبعاد و لعن لهم أو دعاء عليهم.

و المعنى: فأنجزنا للرسول ما وعدنا من عذابهم فأخذتهم الصيحه السماويه و هى العذاب فأهلكناهم و جعلناهم كغناء السيل فليبعد القوم الظالمون بعدا.

و لم يصرح باسم هؤلاء القوم الذين أنشأهم بعد قوم نوح ثم أهلكتهم و لا باسم رسولهم، و ليس من البعيد أن يكونوا هم ثمود قوم صالح عليه السلام فقد ذكر الله سبحانه فى قصتهم فى مواضع من كلامه أنهم كانوا بعد قوم نوح و قد أهلکوا بالصيحه.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّه أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ تقدم توضيح مضمون الآيتين كرارا.

قوله تعالى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّه رُسُولُهَا كَذَّبُوهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يقال: جاءوا تترى أى فرادى يتبع بعضهم بعضا، و منه التواتر و هو تتابع الشىء و ترا و فرادى، و عن الأصمعى: و اتترت الخبر أتبع بعضه بعضا و بين الخبرين هنيهة انتهى.

و الكلام من تنمه قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا» و «ثُمَّ» للتراخي بحسب الذكر دون الزمان، و القصه إجمال منتزع من قصص الرسل و أممهم بين أمه نوح و الامه الناشئه بعدها و بين أمه موسى.

يقول تعالى: ثم أنشأنا بعد تلك الامه الهالكه بالصيحه بعد أمه نوح قرونا و أمما آخرين و أرسلنا اليهم رسلنا متتابعين يتبع بعضهم بعضا كلما جاء أمه رسولها المبعوث منها إليها كذبوه فأتبعنا بعضهم أى بعض هذه الامم بعضا أى بالعذاب و جعلناهم أحاديث أى صيرناهم قصصا و أخبارا بعد ما كانوا أعيانا ذوات آثار فليعد قوم لا يؤمنون.

و الآيات تدل على أنه كان من سنه الله إنشاء قرن بعد قرن و هدايتهم الى الحق بإرسال رسول بعد رسول و هى سنه الابتلاء و الامتحان، و من سنه القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثم من سنه الله ثانيا- و هى سنه المجازاه- تعذيب المكذبين و اتباع بعضهم بعضا.

و قوله: وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ أَبْلَغَ كَلِمَةٍ تَفْصَحُ عَنِ الْقَهْرِ الإِلهِيِّ الَّذِي يَغْشَى أَعْدَاءَ الْحَقِّ وَ الْمَكْذِبِينَ لِدَعْوَتِهِ حَيْثُ يَمْحُو الْعَيْنَ وَ يَعْفُو الْأَثَرَ وَ لَا يَبْقَى إِلَّا الْخَبْرُ.

قوله تعالى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ الآيات هى العصا و اليد البيضاء و سائر الآيات التى أراها موسى فرعون و قومه، و السلطان المبين الحجه الواضحه، و تفسير بعضهم السلطان بالعصا غير سديد.

قوله تعالى: إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ قِيلَ: إنما ذكر ملاء فرعون و اكتفى بهم عن ذكر قومه لأنهم الأشراف المتبوعون و سائر القوم أتباع يتبعونهم.

و المراد بكونهم عالين أنهم كانوا يعلون على غيرهم فيستعبدونهم كما علوا على بنى إسرائيل و استعبدوهم فالعلو فى الأرض كناية عن التطاول على أهلها و قهرهم على الطاعه.

قوله تعالى: فَقَالُوا أَ نُنُومٌ لِّبَشَرٍ مِّثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ المراد

بكونهما بشرين مثلهم نفى أن يكون لهما فضل عليهم، و يكون قومهما عابدين فضلهم عليهما كما فضلوا على قومهما فإذا كان الفضل لهم عليهما كان من الواجب أن يعبداهم كما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما كما قال فرعون لموسى: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ثم ختم تعالى القصة بذكر هلاكهم فقال: «فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ» ثم قال: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» والمراد بهم بنو إسرائيل لأن التوراه إنما نزلت بعد هلاك فرعون و ملائه.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ تقدم أن الآيه هي ولاده عيسى عليه السلام الخراقة للعادة و إذ كانت أمرا قائما به و بامه معا عدا جميعا آيه واحده.

و الإيواء من الاوى و أصله الرجوع ثم استعمل فى رجوع الإنسان الى مسكنه و مقره، و آواه الى مكان كذا أى جعله مسكنا له و الربوه المكان المرتفع المستوى الواسع، و المعين الماء الجارى.

و المعنى: و جعلنا عيسى بن مريم و أمه مريم آيه داله على ربوبيتنا و أسكناهما فى مكان مرتفع مستو و سيع فيه قرار و ماء جار.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ خطاب لعامه الرسل بأكل الطيبات و كأن المراد بالأكل منها الارتزاق بها بالتصرف فيها سواء كان بأكل أو غيره و هو استعمال شائع.

و السياق يشهد بأن فى قوله: «كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ» امتنانا منه تعالى عليهم، ففى قوله عقيبه: «وَ اعْمَلُوا صَالِحًا» أمر بمقابله المنه بصالح العمل و هو شكر للنعمة و فى تعليقه بقوله:

«إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» تحذير لهم من مخالفه أمره و بعث الى ملازمه التقوى.

قوله تعالى: وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ تقدم تفسير

نظيره الآية في سورة الأنبياء.

قوله تعالى: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ في المجمع أن التقطع و التقطع بمعنى واحد، و الزبر بضمين جمع زبور و هو الكتاب، و الكلام متفرع على ما تقدمه، و المعنى أن الله أرسل اليهم رسله تترى و الجميع أمه واحده لهم رب واحد دعاهم الى تقواه لكنهم لم يأتمروا بأمره و قطعوا أمرهم بينهم قطعاً و جعلوه كتباً اختص بكل كتاب حزب و كل حزب بما لديهم فرحون.

و في قراءه ابن عامر «زُبْرًا» بفتح الباء و هو جمع زبره و هي الفرقه، و المعنى و تفرقوا في أمرهم جماعات و أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون، و هي أرجح.

قوله تعالى: فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ قال في المفردات: الغمره معظم الماء الساتره لمقرها و جعل مثلاً للجهاله التي يغمر صاحبها، انتهى. و في الآية تهديد بالعذاب، و قد تقدمت إشاره الى أن من سنته تعالى المجازاه بالعذاب بعد تكذيب الرساله، و في تنكير «حِينٍ» إشاره الى إتيان العذاب الموعود بغته.

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٥ الى ٧٧]

إشاره

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّاءٍ وَابْنِنَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) يَلِ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَٰذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرَأُونَ (٦٤) لَا تَجْرَأُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْدًا لَا تَنْصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ آتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّجْ رَبَّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّرَاطِ لَنَّا كِبُونَ (٧٤) وَ لَوْ رَحِمْنَا هُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُودَا فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَ لَقَدْ أَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)

قوله تعالى: أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعِ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ «نُودُهُمْ» -بضم النون- من الإمداد و المد و الإمداد بمعنى واحد و هو تتميم نقص الشيء و حفظه من أن ينقطع أو ينفد، قال الراغب: و أكثر ما يستعمل الإمداد فى المحبوب و المد فى المكروه، فقوله: «نُودُهُمْ» من الإمداد المستعمل فى المكروه و المسارعه لهم فى الخيرات إفاضه الخيرات بسرعه لكرامتهم عليه فىكون الخيرات على ظنهم هى المال و البنون سورع لهم فيها.

و المعنى: أَيْظَن هَؤُلَاءِ أَن مَا نَعْطِيهِمْ فِي مَدِّ الْمَهْلَةِ مِنْ مَّالٍ وَ بَيْنَ خَيْرَاتِ نَسَارِعِ لَهُمْ فِيهَا لِرِضَانَا عَنْهُمْ أَوْ حُبِنَا لِأَعْمَالِهِمْ أَوْ كِرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا؟

لا، بل لا- يشعرون أى إن الأمر على خلاف ما يظنون و هم فى جهل بحقيقه الأمر و هو أن ذلك إمداء منا و استدراج و إنما نمدّهم فى طغيانهم يعمهون كما قال تعالى: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَ أُمَلِّى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (الأعراف ١٨٣).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ الى آخر الآيات

الخمسة؛ يبين تعالى في هذه الآيات الخمس بمعونه ما تقدم أن الذى يظن هؤلاء الكفار أن المال و البنين خيرات نساوع لهم فيها خطأ منهم فليست هى من الخيرات فى شىء بل استدراج و إملاء و إنما الخيرات التى يسارع فيها هى ما عند المؤمنين بالله و رسله و اليوم الآخر الصالحين فى أعمالهم.

فأفصح تعالى عن وصفهم فقال: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ»، قال الراغب:

الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه، قال تعالى:

وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ فَإِذَا عَدَىٰ بِمَنْ فَمَعْنَى الْخَوْفِ فِيهِ أَظْهَرَ، وَإِذَا عَدَىٰ بِفِي فَمَعْنَى الْعِنَايَةِ فِيهِ أَظْهَرَ، قَالَ: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ» «مُشْفِقُونَ مِنْهَا» انتهى.

و الآيه تصفهم بأنهم اتخذوا الله سبحانه ربا يملكهم و يدبر أمرهم، و لازم ذلك أن يكون النجاه و الهلاك دائرين مدار رضاه و سخطه يخشونه فى أمر يحبونه و هو نجاتهم و سعادتهم فهم مشفقون من خشيته و هذا هو الذى يبعثهم الى الإيمان بآياته و عبادته، و قد ظهر بما مر من المعنى أن الجمع فى الآيه بين الخشية و الإشفاق ليس تكرارا مستدركا.

ثم قال: وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ و هى كل ما يدل عليه تعالى بوجه و من ذلك رسله الحاملون لرسالته و ما أيدوا به من كتاب و غيره و ما جاءوا به من شريعته لأن إشفاقهم من خشية الله يبعثهم الى تحصيل رضاه و يحملهم على إجابته الى ما يدعوهم اليه و ائتمارهم لما يأمرهم به من طريق الوحي و الرساله.

ثم قال: وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ و الإيمان بآياته هو الذى دعاهم الى نفي الشركاء فى العباده فإن الإيمان بها إيمان بالشريعته التى شرعت عبادته تعالى و الحجج التى دلت على توحده فى ربوبيته و ألوهيته.

على أن جميع الرسل و الأنبياء عليهم السلام إنما جاءوا من قبله و إرسال الرسل لهدايه الناس الى الحق الذى فيه سعادتهم من شئون الربوبيه، و لو كان له شريك لأرسل رسولا، و من لطيف

كلام على عليه أفضل السلام قوله: لو كان لربك شريك لأنتك رسله.

ثم قال: وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ الوجل الخوف، وقوله: «يُؤْتُونَ مَا آتَوْا» أى يعطون ما أعطوا من المال بالإففاق فى سبيل الله وقيل: المراد بإيتاء ما آتوا إيتانهم بكل عمل صالح، وقوله: «وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» حال من فاعل «يُؤْتُونَ» .

و المعنى و الذين ينفقون ما أنفقوا أو يأتون بالأعمال الصالحه و الحال أن قلوبهم خائفه من أنهم سيرجعون الى ربهم أى إن الباعث لهم على الإففاق فى سبيل الله أو على صالح العمل ذكرهم رجوعهم المحتوم الى ربهم على على وجل منه.

و فى الآيه دلالة على إيمانهم باليوم الآخر و إيتانهم بصالح العمل و عند ذلك تعينت صفاتهم أنهم الذين يؤمنون بالله وحده لا شريك له و برسله و باليوم الآخر و يعملون الصالحات.

ثم قال: أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهُمْ سَابِقُونَ الظاهر أن اللام فى «لها» بمعنى «الى» و «لها» متعلق بسابقون، و المعنى اولئك الذين وصفناهم هم يسارعون فى الخيرات من الأعمال و هم سابقون إليها أى يتسابقون فيها لأن ذلك لازم كون كل منهم مريدا للسبق إليها.

فقد بين فى الآيات أن الخيرات هى الأعمال الصالحه المبتنيه على الاعتقاد الحق الذى عند هؤلاء المؤمنين و هم يسارعون فيها و ليست الخيرات ما عند اولئك الكفار و هم يعدونها بحسبانهم مسارعه من الله سبحانه لهم فى الخيرات.

قوله تعالى: وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا - وَسِعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ الذى يعطيه السياق أن فى الآيه ترغيبا و تحضيضا على ما ذكره من صفات المؤمنين و دفعا لما ربما ينصرف الناس بتوهمه عن التلبس بكرامتها من وجهين أحدهما أن التلبس بها أمر سهل فى وسع النفوس و ليس بذاك الصعب الشاق الذى يستوعره المترفون،

و الثاني أن الله لا يضيع عملهم الصالح و لا ينسى أجرهم الجزيل.

فقوله: **وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** نفى للتكليف الحرجى الخارج عن وسع النفوس أما فى الاعتقاد فإنه تعالى نصب حججا ظاهره و آيات باهره تدل على ما يريد الإيمان به من حقائق المعارف و جهز الإنسان بما من شأنه أن يدركها و يصدق بها و هو العقل ثم راعى حال العقول فى اختلافها من جهه قوه الإدراك و ضعفه فأراد من كل ما يناسب مقدار تحمله و طوقه فلم يرد من العامه ما يرده من الخاصه و لم يسأل الأبرار عما سأل عنه المقربين و لا ساق المستضعفين بما ساقه به المخلصين.

و أما فى العمل فإنما ندب الإنسان منه الى ما فيه خيره فى حياته الفرديه و الاجتماعيه الدنيويه و سعاده فى حياته الاخروييه، و من المعلوم أن خير كل نوع من الأنواع و منها الإنسان إنما يكون فيما يتم به حياته و ينتفع به فى عيشته و هو مجهز بما يقوى على إتيانه و عمله، و ما هذا شأنه لا يكون حرجيا خارجا عن الوسع و الطاقه.

فلا- تكليف حرجيا فى دين الله بمعنى الحكم الحرجى فى تشريعه مبنيًا على مصلحه حرجيه، و بذلك امتن الله سبحانه على عباده، و طيب نفوسهم و رغبهم الى من وصفه من حال المؤمنين.

و الآيه **وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** تدل على ذلك و زياده فإنها تدل على نفى التكليف المبني على الحرج فى أصل تشريعه كتشريع الرهبانيه و التقرب بذبح الأولاد مثلا، و نفى التكليف الذى هو فى نفسه غير حرجى لكن اتفق أن صار بعض مصاديقه حرجيا لخصوصيه فى المورد كالقيام فى الصلاه للمريض الذى لا يستطيعه فالجميع منفى بالآيه و إن كان الامتتان و الترغيب المذكوران يتمان بنفى القسم الأول.

و الدليل عليه فى الآيه تعلق نفى التكليف بقوله: «نَفْسًا» و هو نكره فى سياق النفى يفيد العموم، و عليه فأى نفس مفروضه فى أى حادثه لا تكلف إلا وسعها و لا يتعلق بها حكم

حرجى سواء كان حرجيا من أصله أو صار حرجيا فى خصوص المورد.

وقد ظهر أن فى الآيه إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول و رفعا للحرج سواء كان فى أصل الحكم أو طارئا عليه.

وقوله: **وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ترغيب لهم بتطيب نفوسهم بأن عملهم لا يضيع و أجرهم لا يتخلف و المراد بنطق الكتاب إعرابه عما أثبت فيه إعرابا لا لبس فيه و ذلك لأن أعمالهم مثبتة فى كتاب لا ينطق إلا بما هو حق فهو مصون عن الزيادة و النقيصه و التحريف، و الحساب مبنى على ما أثبت فيه كما يشير اليه قوله: **«يَنْطِقُ»** و الجزء مبنى على ما يستنتج من الحساب كما يشير اليه قوله: **«وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ»** فهم فى أمن من الظلم بنسيان أجرهم أو بترك إعطائه أو بنقصه أو تغييره كما أنهم فى أمن من أن لا يحفظ أعمالهم أو تنسى بعد الحفظ أو تتغير بوجه من وجوه التغير.

قوله تعالى: **يَلِ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرِهِ مِنْ هَذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** المناسب لسياق الآيات أن يكون **«هَذَا»** إشارة الى ما و صفته الآيات السابقة من حال المؤمنين و مسارعتهم فى الخيرات، و يمكن أن يكون إشارة الى القرآن كما يؤيده قوله بعد: **«قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ»** و الغمره الغفله الشديده أو الجهل الشديد الذى غمرهم، و قوله: **«وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ»** الخ؛ أى من غير ما وصفناه من حال المؤمنين و هو كناية عن أن لهم شاغلا يشغلهم عن هذه الخيرات و الأعمال الصالحة و هو الأعمال الرديئه الخبيثه التى هم لها عاملون.

و المعنى: بل الكفار فى غفله شديده أو جهل شديد عن هذا الذى وصفنا به المؤمنين و لهم أعمال رديئه خبيثه من دون ذلك هم لها عاملون فى شاغلتهم و مانعتهم.

قوله تعالى: **حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعِذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرُونَ الْجُورَ - بضم الجيم - صوت الوحش كالظباء و نحوها عند الفرع كنى به عن رفعهم الصوت**

بالاستغاثه و التضرع، و قيل: المراد به ضجتهم و جزعهم و الآيات التاليه تؤيد المعنى الأول.

و إنما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلا بقوله: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ» و هم الرؤساء المتنعون منهم و غيرهم تابعون لهم.

قوله تعالى: «لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَا تَنْصُرُونَ الْعُدُولَ عَنْ سِيَاقِ الْغِيْبَةِ إِلَى الْخَطَابِ لِتَشْدِيدِ التَّوْبِيخِ وَ التَّقْرِيعِ وَ لِقَطْعِ طَمَعِهِمْ فِي النِّجَاحِ بِسَبَبِ الْاسْتِغَاثَةِ وَ أَى رَجَاءٍ وَ أَمَلٍ لَهُمْ فِيهَا فَإِنْ إِخْبَارِ الْوَسَائِطِ أَنَّهُمْ لَا يَنْصُرُونَ لِدَعَاءٍ أَوْ شَفَاعَةٍ لَا يَقْطَعُ طَمَعَهُمْ فِي النِّصْرِ كَمَا يَقْطَعُهُ إِخْبَارُ مَنْ إِلَيْهِ النِّصْرُ نَفْسَهُ.

قوله تعالى: «قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ» -الى قوله- تَهْجُرُونَ النُّكُوصَ:

الرجوع القهقري، و السامر من السمر و هو التحديث بالليل، قيل: السامر كالحاضر يطلق على المفرد و الجمع، و قرئ «سَمْرًا» -بضم السين و تشديد الميم- جمع سامر و هو أرجح، و قرئ أيضا «سَمَارًا» -بالضم و التشديد-، و الهجر: الهديان.

و الفصل فى قوله: «قَدْ كَانَتْ آيَاتِي» الخ؛ لكونه فى مقام التعليل، و المعنى: إنكم منا لا تنصرون لأنه قد كانت آياتى تتلى و تقرا عليكم فكنتم تعرضون عنها و ترجعون الى أعقابكم القهقري مستكبرين بنكوصكم تحدثون فى أمره فى الليل تهجرون و تهذون، و قيل: ضمير «به» عائذ الى البيت أو الحرم و هو كما ترى.

قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ» شروع فى قطع أعتذارهم فى الإعراض عن القرآن النازل لهدايتهم و عدم استجابتهم للدعوه الحقه التى قام بها النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

فقوله: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» الاستفهام فيه للإنكار و اللام فى «الْقَوْلَ» للعهد و المراد به القرآن المتلو عليهم، و الكلام متفرع على ما تقدمه من كونهم فى غفله منه و شغل يشغلهم عنه، و المعنى: هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدبّروا هذا القول المتلو عليهم حتى يعلموا أنه

حق من عند الله فيؤمنوا به.

وقوله: «أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ» «أَمْ» فيه و فيما بعده منقطعه في معنى الإضراب، و المعنى: بل أجازهم شيء لم يأت آباءهم الأولين فيكون بدعا ينكر و يحترز منه.

و كون الشيء بدعا محدثا لا يعرفه السابقون و إن لم يستلزم كونه باطلا غير حق على نحو الكليه لكن الرساله الإلهيه لما كانت لغرض الهدايه لو صحّت وجبت في حق الجميع فلو لم يأت الأولين كان ذلك حجه قاطعه على بطلانها.

قوله تعالى: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ المراد بمعرفه الرسول معرفته بنسبه و حسبه و بالجمله بسجاياه الروحيه و ملكاته النفسيه من اكتسابيه و موروثه حتى يتبين به أنه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو اليه مؤيد من عند الله و قد عرفوا من النبي صلى الله عليه و آله و سلم سوابق حاله قبل البعثه، و قد كان يتيما فاقدا للأبوين لم يقرأ و لم يكتب و لم يأخذ أدبا من مؤدب و لا تربيه من مرب ثم لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأى و لا طمعا في ملك أو حرصا على مال أو ولعا بجاه، و هو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادى للفلاح و السعاده و يندب الى حقائق معارف تبهر العقول و يدعو الى شريعته تحيّر الألباب و يتلو كتابا.

فهم قد عرفوا رسولهم صلى الله عليه و آله و سلم بنعوته الخاصه المعجزه لغيره، و لو لم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذرا في إعراضهم عن دينه و استنكافهم عن الإيمان به لأن معنى عدم معرفته كذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه، و من المعلوم أن إلقاء الزمام الى من هذا شأنه مما لا يجوز العقل.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ وَ هَذَا عذر آخر لهم تشبثوا به إذ قالوا: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (الحجر ٦) ذكره و رده بلازم قوله: «بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ» .

فمدلول قوله: **بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** إضراب عن جملة محذوفه و التقدير إنهم كاذبون في قولهم: «بِهِ جِنَّةٌ» و اعتذارهم عن عدم إيمانهم به بذلك بل إنما كرهوا الإيمان به لأنه جاء بالحق و أكثرهم للحق كارهون.

و لانه رد قولهم بحجه يلوح إليها هذا الاضراب، و هي أن قولهم: «بِهِ جِنَّةٌ» لو كان حقا كان كلامه مختلّ النظم غير مستقيم المعنى مدخولا فيه كما هو مدخول في عقله، غير رام الى مرمى صحيح، لكن كلامه ليس كذلك فلا يدعو إلا الى حق، و لا يأتي إلا بالحق، و أين ذلك من كلام مجنون لا يدري ما يريد و لا يشعر بما يقول.

و إنما نسب الكراهه الى أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يعبأ بهم أرادوا أو كرهوا.

قوله تعالى: **وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ** بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ لما ذكر أن أكثرهم للحق كارهون و إنما يكرهون الحق لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحق أى الدعوه الحقه أن يتبع أهواءهم و هذا مما لا يكون البتة.

إذ لو اتبع الحق أهواءهم فتركوا و ما يهوونه من الاعتقاد و العمل فعبدوا الأصنام و اتخذوا الأرباب و نفوا الرساله و المعاد و اقترفوا ما أرادوه من الفحشاء و المنكر و الفساد جاز أن يتبعهم الحق فى غير ذلك من الخليقه و النظام الذى يجرى فيها بالحق إذ ليس بين الحق و الحق فرق فاعطى كل منهم ما يشتهي من جريان النظام و فيه فساد السماوات و الأرض و من فيهن و اختلال النظام و انتفاض القوانين الكليه الجاربه فى الكون فمن البين أن الهوى لا يقف على حد و لا يستقر على قرار.

قوله تعالى: **أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ** قال فى مجمع البيان: أصل الخراج و الخرج واحد و هو الغله التى يخرج على سبيل الوظيفه انتهى.

و هذا رابع الأعدار التي ذكرت في هذه الآيات وردت و وبخوا عليها و قد ذكره الله بقوله:

«أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا» أى مالا- يدفعونه اليك على سبيل الرسم و الوظيفة ثم ذكر غنى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بقوله: «فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ» أى إن الله هو رازقك و لا- حاجه لك الى خرجهم، و قد تكرر الأمر بإعلامهم ذلك فى الآيات قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا (الأنعام ٩٠/)(الشورى ٢٣/).

و قد تمت بما ذكر فى الآيه أربعة من الأعدار المردوده اليهم و هى مختلفه فأولها «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» راجع الى القرآن و الثانى «أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ» الى الدين الذى اليه الدعوه، و الثالث «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ» الى نفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و الرابع «أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا» الى سيرته.

قوله تعالى: وَ إِنَّكَ لَتِيدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كِبُونَ النكب و النكوب العدول عن الطريق و الميل عن الشىء.

قد تقدم فى تفسير سوره الفاتحه أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذى لا يختلف و لا يتخلف فى حكمه و هو إيصاله سالكيه الى الغايه المقصوده، و هذه صفه الحق فإن الحق واحد لا يختلف أجزاءه بالتناقض و التدافع و لا يتخلف فى مطلوبه الذى يهدى اليه فالحق صراط مستقيم، و إذ ذكر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يهدى الى الحق كان لازمه هذا الذى ذكره أنه يهدى الى صراط مستقيم.

ثم إن الذين كفروا لما كانوا كارهين للحق كما ذكره فهم عادلون عن الصراط أى الصراط المستقيم مائلون الى غيره.

و إنما أورد من أوصافهم عدم إيمانهم بالآخره و اقتصر عليه لأن دين الحق مبنى على أساس أن للإنسان حياه خالده لا تبطل بالموت و له فيها سعاده يجب أن تقتنى بالاعتقاد الحق

و العمل الصالح و شقاوه يجب أن تجتنب، و هؤلاء لنفيهم الحياه الآخره يعدلون عن الحق و الصراط المستقيم.

و بتقرير آخر: دين الحق مجموع تكاليف اعتقديه و عمليه و التكليف لا يتم إلا بحساب و جزاء، و قد عين لذلك يوم القيامة، و إذ لا يؤمن هؤلاء بالآخره لغى الدين عندهم فلا يرون من الحياه إلا الحياه الدنيا الماديه و لا يبقى من السعاده عندهم إلا نيل اللذائذ الماديه و هو التمتع بالبطن فما دونه، و لازم ذلك أن يكون المتبع عندهم الهوى وافق الحق أو خالفه.

فمحصل الآيتين أنهم ليسوا بمؤمنين بك لأنك تدعو الى صراط مستقيم و هم لا هم لهم إلا العدول و الميل عنه.

قوله تعالى: **وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ** -الى قوله- **وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** اللجاج التمادى و العناد فى تعاطى الفعل المزجور عنه، و العمه التردد فى الأمر من التحير، ذكرهما الراغب، و فى المجمع: الاستكانه الخضوع و هو استفعال من الكون، و المعنى ما طلبوا الكون على صفة الخضوع. انتهى.

و قوله: **وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ** بيان و تأييد لنكوبهم عن الصراط بأنا لو رحمناهم و كشفنا ما بهم من ضر لم يرجعوا بمقابله ذلك الشرك أصروا على تمردهم عن الحق و تمادوا يترددون فى طغيانهم فلا- ينفعهم رحمه بكشف الضر كما لا ينفعهم تخويف بعذاب و نقمه فإننا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربهم و ما يتضرعون اليه فهؤلاء لا ينفعهم و لا يركبهم صراط الحق لا رحمه بكشف الضر و لا نقمه و تخويف بالأخذ بالعذاب.

و المراد بالعذاب العذاب الخفيف الذى لا- ينقطع به الإنسان عن عامه الأسباب بقريته ما فى الآيه التاليه فلا يرد أن الرجوع الى الله تعالى عند الاضطرار و الانقطاع عن الأسباب من غريزيات الإنسان كما تكرر ذكره فى القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثم لا يستكينوا و لا يتضرعوا؟

وقوله في الآيه الاولى: «مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ» و في الثانيه «وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ» يدل على أن الكلام ناظر الى عذاب قد وقع و لما يرتفع حين نزول الآيات، و من المحتمل أنه الجذب الذي ابتلى به أهل مكه و قد ورد ذكر منه في الروايات.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ أى هم على حالهم هذه لا ينفع فيهم رحمه و لا عذاب حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد و هو الموت بما يستتبعه من عذاب الآخره-على ما يعطيه سياق الآيات و خاصه الآيات الآتيه-فيفاجئهم الإبلاس و اليأس من كل خير.

و قد ختم هذا الفصل من الكلام أعنى قوله: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» الخ؛ بنظير ما ختم به الفصل السابق أعنى قوله: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَ بَيْنٍ» الى آخر الآيات؛ و هو ذكر عذاب الآخره، و سيعود اليه ثانيا.

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٨ الى ٩٨]

اشاره

وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّنْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُحْيِيهِ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سِبْغَانِ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَ إِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ (٩٥) اذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يُصِفُونَ (٩٦) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ افتتح سبحانه من نعمه التي أنعمها عليهم بذكر إنشاء السمع والبصر وهما نعمتان خصّ بهما جنس الحيوان خلقنا فيه إنشاء وإبداعا لا عن مثال سابق إذ لا توجدان في الأنواع البسيطة التي قبل الحيوان كالنبات والجماد والعناصر.

وبحصول هذين الحسنيين يقف الوجود المجهز بهما موقفا جديدا ويتسع مجال فعاليته بالنسبة الى ما هو محروم منهما اتساعا لا يتقدر بقدر فيدر كخيره وشره ونافعه وضارّه ويعطى معهما الحركة الإرادية الى ما يريد و عما يكرهه، ويستقر في عالم حديث طرى فيه مجالى الجمال واللذة والعزه والغلبه و لمحبه مما لا خبر عنه فيما قبله.

و إنما اقتصر من الحواس بالسمع والبصر- قيل- لأن الاستدلال يتوقف عليهما و يتمّ بهما.

ثم ذكر سبحانه الفؤاد والمراد به المبدأ الذى يعقل من الإنسان و هو نعمه خاصه بالإنسان من بين سائر الحيوان و مرحله حصول الفؤاد مرحله وجوديه جديده هى أرفع درجه و أعلى منزله و أوسع مجالا من عالم الحيوان الذى هو عالم الحواس فيتسع به أولا شعاع عمل الحواس مما كان عليه فى عامه الحيوان بما لا يتقدر بقدر فإذا الإنسان يدرك بهما ما غاب و ما حضر و ما مضى و ما غبر من أخبار الأشياء و آثارها و أوصافها بعلاج و غير علاج.

ثم يرقى بفؤاده أى بتعقله الى ما فوق المحسوسات و الجزئيات فيتعقل الكلّيات فيحصل القوانين الكلّيه، و يغور متفكرا فى العلوم النظرية و المعارف الحقيقيه، و ينفذ بسلطان التدبر فى أقطار السماوات و الأرض.

ففى ذلك كله من عجب التدبير الإلهى بإنشاء السمع و الأبصار و الأفئده ما لا يسع الإنسان أن يستوفى شكره.

و قوله: «قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ» فيه بعض العتاب و معناه تشكرون شكرا قليلا فقوله:

«قَلِيلًا» وصف للمفعول المطلق قائم مقامه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ قال الراغب:

الذرا إظهار الله تعالى ما أبداه يقال: ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم. و قال: الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها. انتهى.

فالمعنى: أنه لما جعلكم ذوى حس و عقل أظهر وجودكم فى الأرض متعلقين بها ثم يجمعكم و يرجعكم الى لقائه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ معنى الآية ظاهر، و قوله: «وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ» مترتب بحسب المعنى على الجملة التى قبله أى لما جعلكم ذوى علم و أظهر وجودكم فى الأرض الى حين حتى تحشروا اليه لزمتم ذلك سنه الإحياء و الإماتة إذ العلم متوقف على الحياه و الحشر متوقف على الموت.

و قوله: وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ مترتب على ما قبله فإن الحياه ثم الموت لا تتم إلا بمرور الزمان و ورود الليل بعد النهار و النهار بعد الليل حتى ينقضى العمر و يحل الأجل المكتوب، هذا لو أريد باختلاف الليل و النهار و ورود الواحد منهما بعد الواحد، و لو أريد به اختلافهما فى الطول و القصر كانت فيه إشاره الى إيجاد فصول السنه الأربعة المتفرعه على طول الليل و النهار و قصرهما و بذلك يتم أمر أرزاق الحيوان و تدبير معاشها كما قال: وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ (حم السجده ١٠/).

قوله تعالى: بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ إضراب عن نفى سابق يدلّ عليه الاستفهام المتقدم أى لم يعقلوا بل قالوا كذا و كذا.

و فى تشبيه قولهم بقول الأولين إشاره الى أن تقليد الآباء منعهم عن اتباع الحق و أوقعهم فيما

لا- يبقى معه للدين جدوى و هو نفى المعاد،و الإخلاص الى الأرض و الانغمار فى الماديات سنه جاريه فيهم فى آخرهم و أوليهم.

قوله تعالى: قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ بَيَان لقوله:

«قَالُوا» فى الآيه السابقه و الكلام مبني على الاستبعاد.

قوله تعالى: لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ الأساطير الأباطيل و الأحاديث الخرافيه و هى جمع أسطوره كأكاذيب جمع أكذوبه و أعاجيب جمع أعجوبه و إطلاق الأساطير و هو جمع على البعث و هو مفرد بعنايه أنه مجموع عدات كل واحد منهما أسطوره كالإحياء و الجمع و الحشر و الحساب و الجنه و النار و غيرها،و الإشاره بهذا الى حديث البعث و قوله: «مِنْ قَبْلُ» متعلق بقوله: «وَعَدْنَا» على ما يعطيه سياق الجمله.

و المعنى: أن وعد البعث وعد قديم ليس بحديث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن و آباؤنا ليس البعث الموعود إلا أحاديث خرافيه وضعها و نظمها الأناسى الأولون فى صوره إحياء الأموات و حساب الأعمال و الجنه و النار و الثواب و العقاب.

قوله تعالى: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لما ذكر استبعادهم للبعث ثم إنكارهم له شرع فى الاحتجاج على إمكانه من طريق الملك و الربوبيه و السلطنه، و وجه الكلام الى الوثنيين المنكرين للبعث و هم معترفون به تعالى بمعنى أنه الموجد للعالم و رب الأرباب و الآلهه المعبودون دونه من خلقه،و لذا أخذ وجوده تعالى مسلماً فى ضمن الحججه.

فقوله: «قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا» أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يسألهم عن مالك الأرض و من فيها من أولى العقل من هو؟و معلوم أن السؤال إنما هو عن الملك الحقيقى الذى هو قيام وجود شىء بشىء بحيث لا يستقل الشىء المملوك عن مالكة بأى وجه فرض دون الملك الاعتبارى

الذى وضعناه معاشر المجتمعين لمصلحه الاجتماع و هو يقبل الصحه و الفساد و يقع موردا للبيع و الشرى، و ذلك لأن الكلام مسوق لإثبات صحه جميع التصرفات التكوينية و ملاكها الملك التكويني الحقيقى دون التشريعى الاعتبارى.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إخبار عن جوابهم و هو أن الأرض و من فيها مملوكه لله، و لا- مناص لهم عن الاعتراف بكونها لله سبحانه فإن هذا النوع من الملك لا يقوم إلا بالعله الموجد له معلولها حيث يقوم وجود المعلول بها قياما لا يستقل عنها بوجه من الوجوه، و العله الموجد للأرض و من فيها هو الله سبحانه وحده لا شريك له حتى باعتراف الوثنيين.

و قوله: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أمر بعد تسجيل الجواب أن يوبخهم على عدم تذكرهم بالحجه الداله على إمكان البعث، و المعنى قل لهم فإذا كان الله سبحانه مالك الأرض و من فيها لم لا تتذكرون أن له-لمكان مالكيته-أن يتصرف فى أهلها بالإحياء بعد الإماتة.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أمره ثانيا أن يسألهم عن رب السماوات السبع و رب العرش العظيم من هو؟

و المراد بالعرش هو المقام الذى يجتمع فيه ازمه الامور و يصدر عنه كل تدبير، و تكرر لفظ الرب فى قوله: «وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» للإشاره إلى أهميه أمره و رفعه محله كما وصفه الله بالعظمه، و قد تقدم البحث عنه فى تفسير سوره الأعراف فى الجزء الثامن من الكتاب.

ذكروا أن قولنا: لمن السماوات السبع و قولنا: من رب السماوات السبع بمعنى واحد كما يقال:

لمن الدار و من رب الدار فقوله تعالى: «مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ؟» سؤال عن مالكيها، و لذا حكى الجواب عنهم بقوله: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ» على المعنى و لو أنه أجيب عنه فقيل «الله» كما فى القراءه الاخرى كان جوابا على اللفظ.

فمعنى الآيه-و الله أعلم-قل: من رب السماوات السبع التى منها تنزل أقدار الامور

و أفضيتها و رب العرش العظيم الذى منه يصدر الأحكام لعامه ما فى العالم من الملائكة فمن دونهم؟ فإنهم و ما يملكونهم باعتقادهم مملوكه لله و هو الذى ملكهم ما ملكوه.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ حكاية لجوابهم بالاعتراف بأن السماوات السبع و العرش العظيم لله سبحانه.

و المعنى: سيجيبوك بأنها لله قل لهم تبكيئا و توييخا: فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر و العرش العظيم منه يصدر الأمر لله سبحانه فلم لا تتقون سخطه إذ تنكرون البعث و تعدونه من أساطير الأولين و تسخرون من أنبيائه الذين و عدوكم به؟ فإن له تعالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات و إنشاء النشأ الآخرة للانسان و ينزل الأمر به من السماء.

و من لطيف تعبير الآيه التعبير بقوله: «لله» فإن الحجة تتم بالملك و إن لم يعترفوا بالربوبية.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الملكوت هو الملك بمعنى السلطنة و الحكم، و يفيد مبالغه فى معناه و الفرق بين الملك بالفتح و الكسر و بين المالك أن المالك هو الذى يملك المال و الملك يملك المالك و ماله، فله ملك فى طول ملك و له التصرف بالحكم فى المال و مالكة.

و قد فسر تعالى ملكوته بقوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسَبْحَانَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ١٨٣)، فملكوت كل شىء هو كونه عن أمره تعالى بكلمه كن و بعباره اخرى وجوده عن إيجاده تعالى.

فكون ملكوت كل شىء بيده كناية استعاريه عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشىء به تعالى كما قال: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢)، فملكه تعالى محيط بكل شىء و نفوذ أمره و مضى حكمه ثابت على كل شىء.

و لما كان من الممكن أن يتوهم أن عموم الملك و نفوذ الأمر لا ينافى إخلال بعض ما أوجده

من الأسباب و العلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريد أو يمنعه عما يريد تمم قوله: «بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» بقوله: «وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ» و هو فى الحقيقه توضيح لاختصاص الملك بأنه بتمام معنى الكلمه فليس لشيء شيء من الملك فى عرض ملكه و لو بالمنع و الإخلال و الاعتراض فله الملك و له الحكم.

و قوله: «وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ» من الجوار، و هو فى أصله قرب المسكن ثم جعلوا للجوار حقا و هو حمايه الجار لجاره عمن يقصده بسوء لكرامه الجار على الجار بقرب الدار و اشتق منه الأفعال يقال: استجاره فأجاره أى سأله الحمايه فحماه أى منع عنه من يقصده بسوء.

و هذا جار فى جميع أفعاله تعالى فما من شيء يخصه الله بعطيه حدودا أو بقاء إلا و هو يحفظه على ما يريد و بمقدار ما يريد من غير أن يمنعه ممانع إذ منع الممانع-لو فرض-إنما هو بإذن منه و مشيه فليس منعا له تعالى بل منعا منه و تحديدا لفعل منه بفعل آخر، ما من سبب من الأسباب يفعل فعلا إلا و له تعالى أن يتصرف فيه بما لا يريد لأنه تعالى هو الذى ملكه الفعل بمشيته فله أن يمنعه منه أو من بعضه.

فالمراد بقوله: «وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ» أنه يمنع السوء عمن قصده و لا يمنعه شيء إذا أراد شيئا بسوء عما أراد.

و معنى الآية قل لهؤلاء المنكرين للبعث: من الذى يختص به إيجاد كل شيء بما له من الخواص و الآثار و هو يحمى من استجار به و لا يحمى عنه شيء إذا أراد شيئا بسوء؟ إن كنتم تعلمون.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْرِكُونَ قيل: إن المراد بالسحر أن يخيل الشيء للانسان على خلاف ما هو عليه فهو من الاستعاره أو الكنايه.

و المعنى: سيجيونك أن الملكوت لله قل لهم تبكيئا و توييخا: فإلى متى يخيل لكم الحق

باطلا- فإذا كان الملك المطلق لله سبحانه فله أن يوجد النشأ الآخـره و يعيد الأموات للحساب و الجزاء بأمر يأمره و هو قوله: «كن».

و اعلم أن الاحتجاجات الثلاثه كما تثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحيده تعالى في الربوبية فإن الملك الحقيقي لا يتخلف عن جواز التصرفات، و المالك المتصرف هو الربّ.

قوله تعالى: **يَلِئَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** إضراب عن النفي المفهوم من الحجج التي أقيمت في الآيات السابقة، و المعنى فإذا كانت الحجج المبنيه تدل على البعث و هم معترفون بصحتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلا بل جئناهم بلسان الرسل بالحق و إنهم لكاذبون في دعواهم كذبهم و نفيهم للبعث.

قوله تعالى: **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ الْخَبْرَ الْقَوْلَ** بالولد كان شائعا بين الوثنيين يعدّون الملائكه أو بعضهم و بعض الجن و بعض القديسين من البشر أولادا لله سبحانه و تبعهم النصرى في قولهم: المسيح ابن الله، و هذا النوع من الولاده و البنوه مبنى على اشتمال الابن على شىء من حقيقه اللاهوت و جوهره و انفصاله منه بنوع من الاشتقاق فيكون المسمى بالابن إلها مولودا من إله.

و أما البنوه الادعائيه بالتبني و هو أخذ ولد الغير ابنا لتشريف أو لغرض آخر فلا يوجب اشتمال الابن على شىء من حقيقه الأب كقول اليهود نحن أبناء الله و أحبائهم، و ليس الولد بهذا المعنى مرادا لأن الكلام مسوق لنفى تعدّد الآلهه، و لا يستلزم هذا النوع من البنوه ألوهيه و إن كان التسمى و التسميه بها ممنوعا.

فالمراد باتخاذ الولد إيجاد شىء بنحو التبعض و الاشتقاق يكون مشتملا بنحو على شىء من حقيقه الموجد لا تسميه شىء موجودا بنا و ولدا لغرض من الأغراض كما ذكره بعضهم.

و الولد- كما عرفت- أخصّ مصداقا عندهم من الإله فإن بعض آلهتهم ليس بولد عندهم

فقوله: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ تَرَقَّ مِنْ نَفْيِ الْأَخْصِ إِلَى نَفْيِ الْأَعْمِّ وَ لَفْظُهُ «مِنْ» فِي الْجُمْلَتَيْنِ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ.

و قوله: إِذَا لَمَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ حَجَّهُ عَلَى نَفْيِ التَّعَدُّدِ بَيَانٌ مَحْذُورُهُ إِذَا لَا يَتَّصِرُ تَعَدُّدُ الْأَلْهَةِ إِلَّا بَيْنُونَتِهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِهِ بِحَيْثُ لَا- تَتَّحِدُ فِي مَعْنَى أَلُوْهِيَّتِهَا وَ رَبُوِيَّتِهَا، وَ مَعْنَى رَبُوِيَّةِ الْإِلَهِ فِي شَطْرٍ مِنَ الْكُونِ وَ نَوْعٍ مِنَ أَنْوَاعِهِ تَفْوِيضُ التَّدْبِيرِ فِيهِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ يَسْتَقِلُّ فِي أَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَاجَ فِيهِ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِ نَفْسِهِ حَتَّى يَأْتِيَ مِنَ الْوَضْعِ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، وَ مِنَ الْبَيِّنِ أَيْضًا أَنَّ الْمُتَبَايِنِينَ لَا يَتَرَشَّحُ مِنْهُمَا إِلَّا أَمْرَانِ مُتَبَايِنَانِ.

وَ لَا يَزِمُ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَقِلَّ كُلُّ مِنَ الْأَلْهَةِ بِمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنْ نَوْعِ التَّدْبِيرِ وَ تَنْقَطِعُ رَابِطَةُ الْإِتِّحَادِ وَ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ أَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ الْجَارِيَةِ فِي الْعَالَمِ كَالنِّظَامِ الْجَارِي فِي الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ عَنِ الْأَنْظُمَةِ الْجَارِيَةِ فِي أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَ النَّبَاتِ وَ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ السَّهْلِ وَ الْجَبَلِ وَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاءِ وَ غَيْرِهَا وَ كُلُّ مِنْهَا عَنِ كُلِّ مِنْهَا، وَ فِيهِ فُسَادُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ، وَ وَحْدَةُ النِّظَامِ الْكُونِيِّ وَ التَّمَامِ أَجْزَائِهِ وَ اتِّصَالُ التَّدْبِيرِ الْجَارِي فِيهِ يَكْذِّبُهُ.

وَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «إِذَا لَمَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ» أَيِ انْفِصَالِ بَعْضِ الْأَلْهَةِ عَنِ بَعْضِ مَا يَتَرَشَّحُ مِنْهُ مِنَ التَّدْبِيرِ.

وَ قَوْلُهُ: وَ لَعَلَّا- بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مَحْذُورٌ آخِرٌ لَازِمٌ لِتَعَدُّدِ الْأَلْهَةِ تَتَأَلَّفُ مِنْهُ حَجَّهُ أُخْرَى عَلَى النَفْيِ، بَيَانُهُ أَنَّ التَّدْبِيرَ الْجَارِيَةَ فِي الْكُونِ مَخْتَلِفَةٌ مِنْهَا التَّدْبِيرُ الْعَرْضِيَّةُ كَالتَّدْبِيرِ الْجَارِيِّ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ التَّدْبِيرِ الْجَارِيِّ فِي الْمَاءِ وَ النَّارِ، وَ مِنْهَا التَّدْبِيرُ الطَّوْلِيَّةُ الَّتِي تَنْقَسِمُ إِلَى تَدْبِيرٍ عَامٍ كُلِّيِّ حَاكِمٍ وَ تَدْبِيرٍ خَاصِّ جَزْئِيِّ مَحْكُومٍ كَتَّدْبِيرِ الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ وَ تَدْبِيرِ النَّبَاتِ الَّتِي فِيهِ، وَ كَتَّدْبِيرِ الْعَالَمِ السَّمَاوِيِّ وَ تَدْبِيرِ كَوْكَبِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ، وَ كَتَّدْبِيرِ الْعَالَمِ الْمَادِيِّ بِرُمَّتِهِ وَ تَدْبِيرِ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ الْمَادِيَةِ.

فَبَعْضُ التَّدْبِيرِ وَ هُوَ التَّدْبِيرُ الْعَامُ الْكُلِّيُّ يَعْطَى بَعْضًا بِمَعْنَى أَنَّهُ بِحَيْثُ لَوْ انْقَطَعَ عَنْهُ مَا دُونَهُ

بطل ما دونه لتقومه بما فوقه، كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضى أو التدبير الذى يجرى فيه بالعموم لم يكن عالم إنسانى ولا التدبير الذى يجرى فيه بالخصوص.

و لازم ذلك أن يكون الإله الذى يرجع اليه نوع عال من التدبير عاليا بالنسبه الى الإله الذى فوض اليه من التدبير ما هو دونه و أخص منه و أحسن و استعلاء الإله على الإله محال.

لا لأن الاستعلاء المذكور يستلزم كون الإله مغلوبا لغيره أو ناقصا فى قدرته محتاجا فى تمامه الى غيره أو محدودا و المحدوديه تفضى الى التركيب، و كل ذلك من لوازم الإمكان المنافى لوجوب وجود الإله فيلزم الخلف- كما قرره المفسرون- فإن الوثنيين لا يرون لآلهتهم من دون الله و جوب الوجود بل هى عندهم موجودات ممكنه عاليه فوض اليهم تدبير أمر ما دونها، و هى مربوبيه لله سبحانه و أرباب لما دونها و الله سبحانه رب الأرباب و إله الآلهه و هو الواجب الوجود بالذات وحده.

بل استحاله الاستعلاء إنما هو لاستلزامه بطلان استقلال المستعلى عليه فى تدبيره و تأثيره إذ لا يجامع توقف التدبير على الغير و الحاجه اليه الاستقلال فيكون السافل منها مستمدا فى تأثيره محتاجا فيه الى العالى فيكون سببا من الأسباب التى يتوسل بها الى تدبير ما دونه لا إليها مستقلا بالتأثير دونه فيكون ما فرض إليها غير إله بل سببا يدبر به الأمر هذا خلف.

قوله تعالى: **عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** صفه لاسم الجلاله فى قوله: **«سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ»** و تأخيرها للدلاله على علمه بتزهره عن وصفهم إياه بالشركه- على ما يعطيه السياق- فيكون فى معنى قوله: **قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (يونس ١٨).

و يرجع فى الحقيقه الى الاحتجاج على نفى الشركاء بشهادته تعالى أنه لا يعلم لنفسه شريكا كما أن قوله: **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (آل عمران ١٨)** احتجاج بالشهاده على

نفى أصل الوجود.

وقيل: إنه برهان آخر راجع الى إثبات العلوّ و لزوم الجهل الذى هو نقص و ضد العلوّ لأن المتعددين لا سبيل لهما الى أن يعلم كل واحد حقيقه الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة و هو نوع جهل و قصور. انتهى.

و فيه أن ذلك كسائر ما قرره من البراهين ينفى تعدّد الإله الواجب الوجود بالذات، و الوثنيون لا يلتزمون فى آلهتهم من دون الله بذلك. على أن بعض مقدمات ما قرر من الدليل ممنوع.

و قوله: **فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** تفريع على جميع ما تقدم من الحجج على نفى الشركاء.

قوله تعالى: **قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** لما فرغ من نقل ما تفوهوا به من الشرك بالله و إنكار البعث و الاستهزاء بالرسول و أقام الحجج على إثبات حقيقتها رجع الى ما تقدم من تهديدهم بالعذاب فأمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يسأله أن ينجيه من العذاب الذى أوعدهم به إن أراه ذلك العذاب.

فقوله: **قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ** أمر بالدعاء و الاستغاثة، و تكرار «رَبِّ» لتأكيد التضرع و ما فى قوله: **إِمَّا تُرِيئِي** زائده و هى المصححة لدخول نون التأكيد على الشرط و أصله: إن ترنى. و فى قوله: **مَا يُوعَدُونَ** دلالة على أن بعض ما تقدم فى السورة من الإيعاد بالعذاب إيعاد بعذاب دنيوى.

و ما فى قوله: **رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** من الكون فيهم كناية عن شمول عذابهم له.

قوله تعالى: **وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ** تطيب لنفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم بقدره ربه على أن يكشف عنه بإراءته ما يعدهم من العذاب، و لعل المراد به ما عذبهم الله به يوم بدر و قد أراه الله ذلك و أراه المؤمنين و شفى به غليل صدورهم.

ص: ٤٠١

قوله تعالى: إِذْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُ فُونِ أَي ادفع السيئه التي تتوجه اليك منهم بالحسنه و اختر للدفع من الحسنات أحسنها، وهو دفع السيئه بالحسنه التي هي أحسن مثل أنه لو أساءوا اليك بالإيذاء أحسن اليهم بغايه ما استطعت من الإحسان ثم ببعض الإحسان في الجملة و لو لم يسعك ذلك فبالصفح عنهم.

و قوله: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُ فُونِ» نوع تسليه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن لا- يسوؤه ما يلقاه و لا- يحزنه ما يشاهد من تجزيهم على ربهم فإنه أعلم بما يصفون.

قوله تعالى: وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ، قال في مجمع البيان: الهمزه شده الدفع، و منه الهمزه للحرف الذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد و دفع، و همزه الشيطان دفعه بالإغواء الى المعاصي انتهى. و في تفسير القمي عنه عليه السلام: أنه ما يقع في قلبك من وسوسه الشياطين.

و في الآيتين أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يستعيد بربه من إغواء الشياطين و من أن يحضروه، و فيه إيهام الى أن ما ابتلى به المشركون من الشرك و التكذيب من همزات الشياطين و إحاطتهم بهم بالحضور.

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٩ الى ١١٨]

إشارة

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَمَاذَا نُفَعِّخُ فِي الْأَصْوَرِ فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (١٠١) فَمِنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ الْدَارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحِوْنِ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ إِحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضَحِكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَادِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِنَّا لَا تَرْجِعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿حَتَّىٰ﴾ متعلق بما تقدم من وصفهم له تعالى بما هو منزّه منه و شركهم به، و الآيات المتخلله اعتراض فى الكلام أى لا يزالون يشركون به و يصفونه بما هو منزّه منه و هم مغترّون بما نمدهم به من مال و بنين حتى إذا جاء أحدهم الموت.

و قوله: قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ الظاهر أن الخطاب للملائكة المتصدّين لقبض روحه و «رَبِّ» استغاثه معترضه بحذف حرف النداء و المعنى قال-و هو يستغيث بربه-ارجعون.

قوله تعالى: لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴿لَعَل﴾ للترجى و هو رجاء تعلقوا به بمعينه العذاب المشرف عليهم كما ربما ذكروا الرجوع بوعد العمل الصالح كقولهم: فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا (السجده ١٢/١)، و ربما ذكروه بلفظ التمنى كقولهم: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا (الأنعام ٢٧/١).

و قوله: أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ أى أعمل عملا صالحا فيما تركت من المال بإنفاقه فى البرّ و الإحسان و كل ما فيه رضى الله سبحانه.

و قوله: كَلَّا- إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا أى لا يرجع الى الدنيا إن هذه الكلمه «ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» كلمه هو قائلها أى لا أثر لها إلا أنها كلمه هو قائلها، فهو كناية عن عدم إجابته مسأله.

قوله تعالى: وَ مِنَ وَّرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ البرزخ هو الحاجز بين الشيئين كما فى قوله: بَيْنَهُمْ بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيانِ (الرحمن ٢٠/١)، و المراد بكونه وراءهم كونه أمامهم محيطا بهم و سمى وراءهم بعنايه أنه يطلبهم كما أن مستقبل الزمان أمام الإنسان و يقال:

وراءك يوم كذا بعنايه أن الزمان يطلب الإنسان ليمرّ عليه و هذا معنى قول بعضهم: إن فى

«وراء» معنى الإحاطه، قال تعالى: وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيهَةٍ غَضَبًا (الكهف / ٧٩).

و المراد بهذا البرزخ عالم القبر و هو عالم المثال الذى يعيش فيه الإنسان بعد موته الى قيام الساعه على ما يعطيه السياق و تدل عليه آيات أخر و تكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعة عن النبی صلی الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت عليهم السلام و كذا من طرق أهل السنه، و قد تقدم البحث عنه فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لَا يَتَسَاءَلُونَ المراد به النفخه الثانيه التى تحيا فيها الأموات دون النفخه الاولى التى تموت فيها الأحياء كما قاله بعضهم لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب و التساؤل و ثقل الميزان و خفته الى غير ذلك من آثار النفخه الثانيه.

و قوله: فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ نفى لآثار الأنساب بنفى أصلها فإن الذى يستوجب حفظ الأنساب و اعتبارها هى الحوائج الدنيويه التى تدعو الإنسان الى الحياه الاجتماعيه التى تبنى على تكون البيت، و المجتمع المنزلى يستعقب التعارف و التعاطف و أقسام التعاون و التعاضد و سائر الأسباب التى تدوم بها العيشه الدنيويه و يوم القيامه ظرف جزاء الأعمال و سقوط الأسباب التى منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيويه التى منها الأنساب بلوازمها و خواصها و آثارها.

و قوله: وَ لَا يَتَسَاءَلُونَ ذكر لأظهر آثار الأنساب، و هو التساؤل بين المنتسبين بسؤال بعضهم عن حال بعض، للاعانه و الاستعانه فى الحوائج لجلب المنافع و دفع المضار.

و لا ينافى الآيه ما وقع فى مواضع أخر من قوله تعالى: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (الصفافات ٢٧)، فإن حكاية تساؤل أهل الجنه بعد دخولها و تساؤل أهل النار بعد دخولها و هذه الآيه تنفى التساؤل فى ظرف الحساب و القضاء.

قوله تعالى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الى آخر الآيتين؛ الموازين جمع الميزان أو جمع الموزون و هو العمل الذى يوزن يومئذ، و قد تقدم الكلام فى معنى الميزان و ثقله و خفته فى تفسير سوره الأعراف.

قوله تعالى: تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيهَا كَالِحُونَ قال فى المجمع: اللفح و النفع بمعنى إلا أن اللفح أشد تأثيرا و أعظم من النفع، و هو ضرب من السموم للوجه و النفع ضرب الريح الوجه، و الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدوا الأسنان. انتهى.

و المعنى: يصيب و جوههم لهب النار حتى تتقلص شفاههم و تنكشف عن أسنانهم كالرءوس المشويه.

قوله تعالى: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ النَّارُ أَي يُقَالُ لَهُمْ: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ.

قوله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ الشَّقْوَةُ و الشقاوه و الشقاء خلاف السعاده، و سعاده الشىء ما يختص به من الخير، و شقاوته فقد ذلك و إن شئت فقل: ما يختص به من الشر.

و قوله: «غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا» أى قهرنا و استولت علينا شقوتنا، و فى إضافه الشقوه الى أنفسهم تلويح الى أن لهم صنعا فى شقوتهم من جهه اكتسابهم ذلك بسوء اختيارهم، و الدليل عليه قولهم بعد: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ» إذ هو وعد منهم بالحسنات و لو لم يكن لها ارتباط باكتسابهم الاختيارى لم يكن للوعد معنى لكون حالهم بعد الخروج مساويه لما قبل الخروج.

و قد عدوا أنفسهم مغلوبه للشقوه فقد أخذوها ساذجه فى ذواتها صالحه للحقوق السعاده و الشقاوه غير أن الشقوه غلبت فأشغلت المحل و كانت الشقوه شقوه أنفسهم أى شقوه لازمه لسوء اختيارهم و سيئات أعمالهم لأنهم فرضوا أنفسهم خاليه عن السعاده و الشقوه لذاتها

فانتساب الشقوه الى أنفسهم وارتباطها بها إنما هي من جهه سوء اختيارهم و سيئات أعمالهم.

و بالجمله هو اعتراف منهم بتمام الحججه و لحوق الشقوه على ما يشهد به وقوع الآيه بعد قوله: «أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ» الخ.

ثم عقبوا قولهم: «عَلَبْتَ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا» بقولهم: «وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ» تأكيداً لاعترافهم، و إنما اعترفوا بالذنب ليتوسلوا به الى التخلص من العذاب و الرجوع الى الدنيا لكسب السعاده فقد شاهدوا في الدنيا أن اعتراف العاصي المتمرد بذنبه و ظلمه توبه منه مطهره له تنجيه من تبعه الذنب و هم يعلمون أن اليوم يوم جزاء لا- يوم عمل و التوبه و الاعتراف بالذنب من الأعمال لكن ذلك من قبيل ظهور الملكات كما أنهم يكذبون يومئذ و ينكرون أشياء مع ظهور الحق و معاينته لاستقرار ملكه الكذب و الإنكار في نفوسهم، قال تعالى:

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ (المجادله١٨/). و قال: ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا (المؤمن / ٧٤).

قوله تعالى: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ سؤال منهم للرجوع الى الدنيا على ما تدل عليه آيات أخر فهو من قبيل طلب المسبب بطلب سببه، و مرادهم أن يعملوا صالحاً بعد ما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممن تاب و عمل صالحاً.

قوله تعالى: قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا قَالَ الرَّاغِب: خسأت الكلب فخساً أى زجرته مستهيناً به فانزجر و ذلك إذا قلت له: اخساً انتهى. ففي الكلام استعاره بالكنايه، و المراد زجرهم بالتباعد و قطع الكلام.

قوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ هؤلاء هم المؤمنون في الدنيا و كان إيمانهم توبه و رجوعاً الى الله كما سماه الله في كلامه توبه، و كان سؤالهم شمول الرحمه- و هي الرحمه الخاصه

بالمؤمنين البتة-سؤالا منهم أن يوفقهم للسعادة فيعملوا صالحا فيدخلوا الجنة،وقد توسلوا اليه باسمه خير الراحمين.

فكان ما قاله المؤمنون في الدنيا معناه التوبه و سؤال الفوز بالسعادة و ذلك عين ما قاله هؤلاء مما معناه التوبه و سؤال الفوز بالسعادة و إنما الفرق بينهما من حيث الموقف.

قوله تعالى: فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ضَمَائِرُ الْخَطَابِ لِلْكَافِرِ وَ ضَمَائِرُ الْغَيْبِ لِلْمُؤْمِنِينَ،و السياق يشهد أن المراد من «ذِكْرِي» قول المؤمنين «رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا» الخ؛و هو معنى قول الكفار في النار.

و قوله: حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي أى أنسى اشتغالكم سخرية المؤمنين و الضحك منهم ذكري،ففى نسبة الإنساء الى المؤمنين دون سخريتهم إشاره الى أنه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشؤون إلا أن يتخذوهم سخريا.

قوله تعالى: إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ المراد باليوم يوم الجزاء،و متعلق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أى صبروا على ذكرى مع سخريتكم منهم لأجله،و قوله: «أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ» مسوق للحصر أى هم الفائزون دونكم.

و هذه الآيات الأربع «قَالَ اخْسَأُوا -الى قوله- هُمُ الْفَائِزُونَ» إيئاس قطعى للكفار من الفوز بسبب ما تعلقوا به من الاعتراف بالذنب و سؤال الرجوع الى الدنيا و محصية لها أن اقنطوا مما تطلبونه بهذا القول و هو الاعتراف و السؤال فإنه عمل إنما كان ينفع فى دار العمل و هى الدنيا،و قد كان المؤمنون من عبادى يتخذونه وسيله الى الفوز و كنتم تسخرون و تضحكون منهم حتى تركتموه و بدلتموه من سخريتهم حتى إذا كان اليوم و هو يوم الجزاء لا- يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل و بقيتم صفر الأكف تريدون أن تتوسلوا بالعمل اليوم و هو يوم الجزاء دون العمل.

قوله تعالى: قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ مما يسأل الله الناس عنه

يوم القيامة مده لبثهم في الأرض و قد ذكر في مواضع من كلامه و المراد به السؤال عن مده لبثهم في القبور كما يدل عليه قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ (الروم ٥٥/)، وقوله: كَذَلِكَ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ (الأحقاف ٣٥/). وغيرها من الآيات، فلا محل لقول بعضهم: إن المراد به المكث في الدنيا، و احتمال بعضهم أنه مجموع اللبث في الدنيا و البرزخ.

قوله تعالى: قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسِئَلُ الْعَادِّينَ ظاهر السياق أن المراد باليوم هو الواحد من أيام الدنيا و قد استقلوا اللبث في الأرض حينما قايسوه بالبقاء الابدى الذى يلوح لهم يوم القيامة و يعاينونه.

و يؤيده ما وقع فى موضع آخر من تقديرهم ذلك بالساعة، و فى موضع آخر بعشيه أو ضحاها.

و قوله: «فَسِئَلِ الْعَادِّينَ» أى نحن لا نحسن إحصاءها فاسأل الذين يعدونه و فسر بالملائكة العادين للأيام و ليس ببعيد.

قوله تعالى: قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ القائل هو الله سبحانه، و فى الكلام تصديق لهم فى استقلالهم المكث فى القبور و فيه توطئه لما يلحق به من قوله: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» بما فيه من التمنى.

و المعنى: قال الله: الأمر كما قلتكم فما مكثتم إلا قليلا فليتكم كنتم تعلمون فى الدنيا أنكم لا تلبثون فى قبوركم إلا قليلا ثم تبعثون حتى لا تنكروا البعث و لم تبتلوا بهذا العذاب الخالد، و التمنى فى كلامه تعالى كالترجى راجع الى المخاطب أو المقام.

و جعل بعضهم «لَوْ» فى الآية شرطيه و الجملة شرطا محذوف الجزاء و تكلف فى تصحيح الكلام بما لا يرتضيه الذوق السليم و هو بعيد عن السياق كما هو ظاهر و أبعد منه جعل «لَوْ» وصلية مع أن «لَوْ» الوصلية لا تجيء بغير واو العطف.

قوله تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا -الى قوله- رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ بعد ما بين ما سيستقبلهم من أحوال الموت ثم اللبث فى البرزخ ثم البعث بما فيه من الحساب و الجزاء و يخهم على حسابانهم أنهم لا- يعثون فإن فيه جراه على الله بنسبه البعث اليه ثم أشار الى برهان العبث.

فقوله: أَفَحَسِبْتُمْ الخ؛معناه فإذا كان الأمر على ما أخبرناكم من تحسركم عند معاينه الموت ثم البعث فى القبور ثم البعث فالحساب و الجزاء فهل تظنون إنما خلقناكم عبثا تحيون و تموتون من غير غايه باقيه فى خلقكم و أنكم الينا لا ترجعون؟

و قوله: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ إشاره الى برهان يثبت البعث و يدفع قولهم بالنفى،فى صوره التنزيه،فإنه تعالى وصف نفسه فى كلمه التنزيه بالأوصاف الأربعة: أنه ملك و أن حق و أنه لا إله إلا هو و أنه رب العرش الكريم.

فله أن يحكم بما شاء من بدء و عود و حياه و موت و رزق نافذا حكمه ماضيا أمره لملكه، و ما يصدر عنه من حكم فإنه لا يكون إلا حقا فإنه حق و لا يصدر عن الحق بما هو حق إلا حق دون أن يكون عبثا باطلا ثم لما أمكن أن يتصور أن معه مصدر حكم آخر يحكم بما يبطل به حكمه وصفه بأنه لا إله-أى لا معبود-إلا هو،و الإله معبود لربوبيته فإذا لا إله غيره فهو رب العرش الكريم-عرش العالم-الذى هو مجتمع أزمه الامور و منه يصدر الأحكام و الأوامر الجاريه فيه.

فتلخص أنه هو الذى يصدر عنه كل حكم و يوجد منه كل شىء و لا يحكم إلا بحق و لا يفعل إلا حقا فلأشياء رجوع اليه و بقاء به و إلا لكانت عبثا باطله و لا عبث فى الخلق و لا باطل فى الصنع.

و الدليل على اتصافه بالأوصاف الأربعة كونه تعالى هو الله الموجود لذاته الموجد لغيره.

قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ، المراد من دعاء إله آخر مع الله دعاؤه مع وجوده تعالى لا دعاؤه تعالى و دعاء إله آخر مع إله آخر فإن المشركين جُلهم أو كلهم لا يدعون الله تعالى وإنما يدعون ما أثبتوه من الشركاء، ويمكن أن يكون المراد بالدعاء الإثبات فإن إثبات إله آخر لا ينفك عن دعائه.

وقوله: لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ قيد توضيحي لإله آخر إذ لا إله آخر يكون به برهان بل البرهان قائم على نفي الإله الآخر مطلقاً.

وقوله: فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ كلمته تهديد وفيه قصر حسابه بكونه عند ربه لا يداخله أحد فيما اقتضاه حسابه من جزاء—و هو النار كما صرّحت به الآيات السابقة—فإنه يصيبه لا محاله، و مرجعه الى نفي الشفعاء و الإياس من أسباب النجاه و تتممه بقوله: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ».

قوله تعالى: وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ خاتمه السوره و قد أمر فيها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ مَا حَكَاهُ عَنْ عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَهُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْ جَزَاءُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقًا مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ الْخ: الْآيَاتَانِ ١٠٩ وَ ١١١ مِنَ السُّورَةِ.

و بذلك يختتم الكلام بما افتتح به في أول السوره «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» و قد تقدم الكلام في معنى الآية (١).

ص: ٤١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: سوره أنزلناها و فرضناها و أنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون (١) الزانية و الزانى فاجلدا
كل واحد منهما مائة جلد و لا تأخذكم بهما رافه في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر و ليس شهد عذابهما طائفه من
المؤمنين (٢) الزانى لا ينكح إلا زانيه أو مشرکه و الزانيه لا ينكحها إلا زان أو مشرک و حرّم ذلك على المؤمنين (٣) و الذين
يزمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلد و لا تقبلوا لهم شهادة أبداً و أولئك هم الفاسقون (٤) إلا
الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإن الله غفور رحيم (٥) و الذين يهيمون أزواجهم و لم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادته
أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين (٦) و الخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين (٧) و يدرؤا عنها العذاب أن
تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين (٨) و الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين (٩) و لو لا فضل الله عليكم
و رحمته و أن الله تواب حكيم (١٠)

غرض السوره ما ينبى عنه مفتتحها «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فهى تذكره نبذه من الأحكام المروضه المشرعه ثم جمله من المعارف الإلهيه تناسبها و يتذكر بها المؤمنون.

و هى سوره مدنيه بلا خلاف و سياق آياتها يشهد بذلك و من غرر الآيات فيها آيه النور.

قوله تعالى: سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ السوره طائفه من الكلام يجمعها غرض واحد سيقت لأجله و لذا اعتبرت تاره نفس الآيات بما لها من المعانى فليل «فَرَضْنَاهَا»، و تاره طرفا لبعض الآيات ظرفيه المجموع لبعض فليل «أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» و هى مما وضعه القرآن و سمى به طائفه خاصه من آياته و تكرر استعمالها فى كلامه تعالى، و كأنه مأخوذ من سور البلد و هو الحائط الذى يحيط به سميت به سوره القرآن لإحاطتها بما فيها من الآيات أو بالغرض الذى سيقت له.

وقال الراغب: الفرض قطع الشيء الصلب و التأثير فيه كفرض الحديد و فرض الزند و القوس. قال: و الفرض كالإيجاب لكن الإيجاب يقال اعتبارا بوقوعه و ثباته، و الفرض بقطع الحكم فيه، قال تعالى: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا» أى أوجبنا العمل بها عليك. قال: و كل موضع ورد «فرض الله عليه» ففى الإيجاب الذى أدخل الله فيه، و ما ورد «فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» فهو فى أن لا يحظره على نفسه نحو «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ». انتهى.

فقوله: سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا أى هذه سوره أنزلناها و أوجبنا العمل بما فيها من الأحكام فالعمل بالحكم الإيجابى هو الإتيان به و بالحكم التحريمى الانتهاء عنه.

و قوله: «وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» المراد بها- بشهادة السياق- آيه النور و ما يتلوها من الآيات المبينه لحقيقه الإيمان و الكفر و التوحيد و الشرك المذكوره لهذه المعارف الإلهيه.

قوله تعالى: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ الْآيَةَ، الزنا المواقعه من غير عقد أو شبهه عقد أو ملك يمين، و الجلد هو الضرب بالسوط و الرأفه الحزن و التعطف و قيل: هى رحمه فى توجع، و الطائفه فى الأصل هى الجماعه كانوا يطوفون بالارتحال من مكان الى مكان قيل: و ربما تطلق على الاثنين و على الواحد.

و قوله: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي الخ؛ أى المرأه و الرجل اللذان تحقق منهما الزنا فاضربوا كل واحد منهما مائه سوط، و هو حدّ الزنا بنص الآيه غير أنها مخصصه بصور: منها أن يكونا محصنين ذوى زوج أو يكون أحدهما محصنا فالرجم و منها أن يكونا غير حرّين أو أحدهما رقا فنصف الحد.

قيل: و قدمت الزانيه فى الذكر على الزانى لأن الزنا منهن أشنع و لكون الشهوه فيهن أقوى و أكثر، و الخطاب فى الأمر بالجلد متوجه الى عامه المسلمين فيقوم بمن قام بأمرهم من ذوى الولايه من النبى و الإمامه و من ينوب منابه.

وقوله: وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ الْخَالِصِ؛ النُّهَى عَنِ الرَّأْفَةِ النَّهْيُ عَنِ الْمَسْبُوبِ بِالنُّهَى عَنِ سَبَبِهِ إِذِ الرَّأْفَةُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ نَوْعًا مِنَ الْعَذَابِ تَوْجِبُ التَّسَاهُلَ فِي إِذَاقَتِهِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَذَابِ بِالتَّخْفِيفِ فِيهِ وَرَبَّمَا أَدَّى إِلَى تَرْكِهِ، وَلِذَا قَيَّدَهُ بِقَوْلِهِ: «فِي دِينِ اللَّهِ» أَي حَالِ كَوْنِ الرَّأْفَةِ أَيِ الْمَسَاهِلَةِ مِنْ جِهَتِهَا فِي دِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ.

وقيل: المراد بدين الله حكم كما في قوله تعالى: مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ (يوسف 76) أَي فِي حُكْمِهِ أَي لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةً فِي إِنْفَازِ حُكْمِ اللَّهِ وَإِقَامِهِ حُدَّهُ.

وقوله: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَي إِنْ كُنْتُمْ كَذِبًا وَكَذًا فَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةً وَلَا تَسَاهَلُوا فِي أَمْرِهِمَا وَفِيهِ تَأْكِيدٌ لِلنُّهَى.

وقوله: وَلَا يُشْهِدُ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَي وَلِيَحْضُرَ وَلِيَنْظُرَ إِلَى ذَلِكَ جَمَاعَهُ مِنْهُمْ لِيَعْتَبَرُوا بِذَلِكَ فَلَا يَقْتَرِبُوا الْفَاحِشَةَ.

قوله تعالى: الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرُ الْآيَةِ وَخَاصُّهُ بِالنَّظَرِ إِلَى سِيَاقِ ذَيْلِهَا الْمُرْتَبِطِ بِصَدْرِهَا أَنَّ الَّذِي تَشْمَلُ عَلَيْهِ حُكْمُ تَشْرِيعِيٍّ تَحْرِيمِيٍّ وَإِنْ كَانَ صَدْرُهَا وَارِدًا فِي صَوْرَةِ الْخَبَرِ فَإِنَّ الْمُرَادَ النَّهْيَ تَأْكِيدًا لِلطَّلَبِ وَهُوَ شَائِعٌ.

والمحصّل من معناها بتفسير من السنه من طرق أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الزانى إذا اشتهر منه الزنا و أقيم عليه الحد و لم تتبين منه التوبه يحرم عليه نكاح غير الزانيه و المشركه، و الزانيه إذا اشتهر منها الزنا و أقيم عليه الحد و لم تتبين منه التوبه يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك.

فالأيه محكمه باقيه على إحكامها من غير نسخ و لا تأويل، و تقييدها بإقامه الحد و تبين التوبه مما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامه الحد يلوح الى أن المراد به الزانى و الزانيه المجلودان، و كذا إطلاق الزانى و الزانيه على من ابتلى بذلك ثم تاب توبه نصوحا و تبين منه ذلك، بعيد من دأب القرآن و أدبه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُدْحِجَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً الْخِطْمِ؛ الرمي معروف ثم استعير لنسبه أمر غير مرضى الى الإنسان كالزنا والسرقة وهو القذف، والسياق يشهد أن المراد به نسبه الزنا الى المرأة المحصنه العفيفه، والمراد بالإتيان بأربعة شهداء وهم شهود الزنا إقامه الشهاده لإثبات ما قذف به، وقد أمر لله تعالى بإقامه الحد عليهم إن لم يقيموا الشهاده، وحكم بفسقهم وعدم قبول شهاداتهم أبدا.

والمعنى: والذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثم لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم في قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلده على قذفهم وهم فاسقون لا تقبلوا شهادتهم على شيء أبدا.

والآيه كما ترى مطلقه تشمل من القاذف الذكر والانثى والحر والعبد، وبذلك تفسرها روايات أئمه أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ الاستثناء راجع الى الجملة الأخيره وهى قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» لكنها لما كانت تفيد معنى التعليل بالنسبه الى قوله: «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا» -على ما يعطيه السياق- كان لازم ما تفيد من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهاده أبدا، ولزم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى الى الجملتين معا.

والمعنى: إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أعمالهم فإن الله غفور رحيم يغفر ذنبهم و يرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق والحكم بعدم قبول شهادتهم أبدا.

وذكر بعضهم: أن الاستثناء راجع الى الجملة الأخيره فحسب فلو تاب القاذف وأصلح بعد إقامه الحد عليه غفر له ذنبه لكن لا تقبل شهادته أبدا خلافا لمن قال برجوع الاستثناء الى الجملتين معا.

و الظاهر أن خلافهم هذا مبني على المسأله الاصوليه المعنونه بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعدده هل يتعلق بالجميع أو بالجمله الأخيره و الحق فى المسأله أن الاستثناء فى نفسه صالح للأمرين جميعا و تعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام، و الذى يعطيه السياق فى الآيه التى نحن فيها تعلق الاستثناء بالجمله الأخيره غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقيّد الجمله السابقه أيضا بمعناه كالأخيره على ما تقدم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ -الى قوله- مِنَ الْكَافِرِينَ أَي لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ يَشْهَدُونَ مَا شَهِدُوا فَيَتَحَمَّلُوا الشَّهَادَةَ ثُمَّ يُوَدُّوهَا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، و قوله: «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ» أى شهاده أحدهم يعنى القاذف و هو واحد أربع شهادات متعلقه بالله إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف.

و معنى الآيتين: و الذين يقذفون أزواجهم و لم يكن لهم أربعة من الشهداء يشهدون ما شهدوا-و من طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضروهم على الواقعه فيشهدوهم عليها فات الغرض بتفرّقهما-فالشهاده التى يجب على أحدهم أن يقيمها هى أن يشهد أربع شهادات أى يقول مره بعد مره «أشهد الله على صدقى فيما أقذفه به» أربع مرات و خامستها أن يشهد و يقول: لعنه الله علىّ إن كنت من الكاذبين.

قوله تعالى: وَ يَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ الدرء الدفع و المراد بالعذاب حد الزنا، و المعنى أن المرأه إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حد الزنا، و شهاداتها أن تشهد أربع مرات تقول فيها: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسه فتقول: لعنه الله علىّ إن كان من الصادقين، و هذا هو اللعان الذى ينفصل به الزوجان.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ جواب لو لا محذوف يدل عليه ما أخذ فى شرطه من القيود إذ معناه لو لا فضل الله و رحمته

و توبته و حكمته لحلّ بكم ما دفعته عنكم هذه الصفات و الأفعال فالتقدير على ما يعطيه ما فى الشرط من القيود لو لا ما أنعم الله عليكم من نعمه الدين و توبته لمذنبكم و تشريعه الشرائع لنظم أمور حياتكم لزمتمكم الشقوه، و أهلكتم المعصيه و الخطيئه، و اختلّ نظام حياتكم بالجهاله. و الله أعلم (١).

[سوره النور (٢٤): الآيات ١١ الى ٢٦]

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسَّبْتِ تَكْتُمُ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَ لَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَ لَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَ الْمَسْكِينِ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ يُعْفُوا وَ يُعْفُوا لِيُضِغُوا أَلًا- تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيُّدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

ص: ٤١٨

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ**؛ الخ؛ الإفك على ما ذكره الراغب الكذب مطلقا و الأصل فى معناه أنه كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه كالاعتقاد المصروف عن الحق الى الباطل -و الفعل المصروف عن الجميل الى القبيح، و القول المصروف عن الصدق الى الكذب، و قد استعمل فى كلامه تعالى فى جميع هذه المعانى.

و ذكر أيضا أن العصبه جماعه متعصبه متعاضده، و قيل: إنها عشره الى أربعين.

و الخطاب فى الآيه و ما يتلوها من الآيات لعامه المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقه الإيمان و المنافق و من فى قلبه مرض، و أما قول بعضهم: إن المخاطب بالخطابات الأربعة الأول أو الثانى و الثالث و الرابع النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المقذوفه و المقذوف فيه تفكيك بين الخطابات الواقعه فى الآيات العشر الاول و هى نيف و عشرين خطابا أكثرها لعامه المؤمنين بلا ريب.

و أسوأ حالا منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعة أو الثلاثه المذكوره لمن ساء ذلك من المؤمنين فإنه مضافا الى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتواليه مجازفه ظاهره.

و المعنى: إن الذين أتوا بهذا الكذب -و اللام فى الإفك للعهد- جماعه معدوده منكم مرتبط بعضهم ببعض، و فى ذلك إشاره الى أن هناك تواطؤا منهم على إذاعه هذا الخبر ليطعنوا به فى نزاهه بيت النبى صلى الله عليه و آله و سلم و يفضحوه بين الناس.

و هذا هو فائده الخبر فى قوله: **«إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ»** لا تسليه النبى صلى الله عليه و آله و سلم

قوله تعالى: لَوْلَا جَاءُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَاذْنًا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ أى لو كانوا صادقين فيما يقولون و يرمون لأقاموا عليه الشهادة و هى فى الزنا بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعا بالكذب لأن الدعوى من غير بينه كذب و إفك.

قوله تعالى: وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إفاضه القوم فى الحديث خوضهم فيه.

و قوله: وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ الْخِ عطف على قوله: «لَوْلَا إِذْ سَجَعْتُمْوه» الخ؛ و فيه كره ثانیه على المؤمنين، و فى تقييد الفضل و الرحمه بقوله: «فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ» دلالة على كون العذاب المذكور ذيلا هو عذاب الدنيا و الآخرة.

و المعنى: و لولا فضل الله عليكم و رحمته فى الدنيا و الآخرة لوصل اليكم بسبب ما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم فى الدنيا و الآخرة.

قوله تعالى: إِذْ تَلَقَّوهُ بِاللَّيْلِ بَنَاتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ الْخِ؛ الظرف متعلق بقوله: «أَفَضْتُمْ» و تلقى الإنسان القول أخذه القول الذى ألقاه اليه غيره، و تقييد التلقى بالألسنه للدلالة على أنه كان مجرد انتقال القول من لسان الى لسان من غير تثبت و تدبر فيه.

و على هذا فقوله: وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ من قبيل عطف التفسير، و تقييده أيضا بقوله: «بِأَفْوَاهِكُمْ» للإشارة الى أن القول لم يكن عن تثبت و تبين قلبى و لم يكن له موطن إلا الأفواه لا يتعدها.

و المعنى: أفضتم و خضتم فيه إذ تأخذونه و تنقلونه لسانا عن لسان و تلتفظون بما لا علم لكم به.

و قوله: وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ أى تظنون التلقى بألستكم

و القول بأفواهكم من غير علم سهلا و هو عند الله عظيم لأنه بهتان و افتراء، على أن الأمر مرتبط بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم و شيوخ إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم و يفسد أمر الدعوه الدينيه.

قوله تعالى: **وَ لَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** عطف بعد عطف على قوله: «لَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ» السخ؛ و فيه كرهه ثالثه على المؤمنين بالتوبيخ، و قوله: «سُبْحَانَكَ» اعتراض بالتنزيه لله سبحانه و هو من أدب القرآن أن ينزه الله بالتسبيح عند تنزيه كل منزه.

و البهتان الافتراء سمي به لأنه يبهت الإنسان المفترى عليه و كونه بهتانا عظيما لأنه افتراء فى عرض و خاصه إذ كان متعلقا بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم و إنما كان بهتانا لكونه إخبارا من غير علم و دعوى من غير بينه كما تقدم فى قوله: «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ» و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: **يَعْظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا** الى آخر الآيتين؛ موعظه بالنهاى عن العود لمثله، و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا** الى آخر الآية؛ إن كانت الآية نازله فى جملة آيات الإفك و متصله بما تقدمها و موردها الرمى بالزنا بغير بينه كان مضمونها تهديد الرامين المفيضين فى الإفك لكونه فاحشه و إشاعته فى المؤمنين حبا منهم لشيوع الفاحشه.

فالمراد بالفاحشه مطلق الفحشاء كالزنا و القذف و غير ذلك، و حب شيوعها و منها القذف فى المؤمنين يستوجب عذابا أليما لمحبيه فى الدنيا و الآخرة.

و على هذا فلا موجب لحمل العذاب فى الدنيا على الحد إذ حب شيوع الفحشاء ليس مما يوجب الحد، نعم لو كان اللام فى «الفاحِشَةُ» للعهد و المراد بها القذف و كان حب الشيوع

كنايه عن قصد الشيوخ بالإفاضة و التلقى بالألسن و النقل أمكن حمل العذاب على الحد لكن السياق لا يساعد عليه.

على أن الرمی بمجرد تحققه مره موجب للحد و لا موجب لتقييده بقصد الشيوخ و لا نكته تستدعى ذلك.

و قوله: **وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** تأكيد و إعظام لما فيه من سخط الله و غضبه و إن جهله الناس.

قوله تعالى: **وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ تَكَرَّرَا لِلْإِئْتِنَانِ** و معناه ظاهر.

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ** تفسير الآيه فى الآيه ٢٠٨ من سوره البقره فى الجزء الثانى من الكتاب.

قوله تعالى: **وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا** الى آخر الآيه؛ رجوع بعد رجوع الى الامتنان بالفضل و الرحمه، لا يخلو هذا الاهتمام من تأييد لكون الإفك متعلقا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و ليس إلا لكرامته على الله سبحانه.

و قد صرح فى هذه المره الثالثه بجواب لو لا و هو قوله: **«مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا»** و هذا مما يدل عليه العقل فإن مفيض الخير و السعاده هو الله سبحانه، و التعليم القرآنى أيضا يعطيه كما قال تعالى: **بِيَدِكَ الْخَيْرُ (آل عمران ٢٦)**، و قال: **«مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ (النساء ٧٩)**.

و قوله: **وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** اضراب عما تقدمه فهو تعالى يزكى من يشاء فالأمر الى مشيئته، و لا يشاء إلا تزكيه من استعد لها و سأله بلسان استعداده ذلك، و اليه يشير قوله: **«وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»** أى سميع لسؤال من سأله التزكيه عليم بحال من استعد لها.

قوله تعالى: وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْخ:الافتلاء-
التقصير و الترك و الحلف، و كل من المعانى الثلاثه لا- يخلو من مناسبه،و المعنى لا يقصر أولو الفضل منكم و السعه يعنى
الأغنياء فى إيتاء اولى القرابه و المساكين و المهاجرين فى سبيل الله من مالهم أو لا يترك إيتاءهم أو لا يحلف أن لا يؤتيهم-و
ليغفوا عنهم و ليصفحوا-ثم حرضهم بقوله: «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

و فى الآيه-على تقدير نزولها فى جملة الآيات و اتصالها بها-دلاله على أن بعض المؤمنين عزم على أن يقطع ما كان يؤتبه بعض
أهل الإفك فنهاه الله عن ذلك و حثه على إدامه الإيتاء كما سيجىء.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُدْحَجِينَ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ أخذ الصفات الثلاث
الإحصان و الغفله و الإيمان للدلاله على عظم المعصيه فإن كلا من الإحصان بمعنى العفه و الغفله و الإيمان سبب تام فى كون
الرمى ظلما و الرامى ظالما و المرميه مظلومه فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم،و جزاؤه اللعن فى الدنيا و الآخره و العذاب
العظيم،و الآيه عامه و إن كان سبب نزولها لو نزلت فى جملة آيات الإفك خاصا.

قوله تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الظرف متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «وَأَلْسِنَتُهُمْ عَظِيمٌ» .

و المراد بقوله: بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ كما يقتضيه إطلاقه مطل الأعمال السيئه-كما قيل-لا خصوص الرمى بأن تشهد ألسنتهم و
أيديهم و أرجلهم على رميهم فالمراد بالشهاده شهاده الأعضاء على السيئات و المعاصى بحسب ما يناسبها فما كان منها من قبيل
الأقوال كالقذف و الكذب و الغيبه و نحوها شهدت عليه الألسنه،و ما كان منها من قبيل الأفعال

كالسرقة و المشى للنميمة و السعاية و غيرهما شهدت عليه بقيه الأعضاء، و إذ كان معظم المعاصي من الأفعال للأيدي و الأرجل اختصتا بالذكر.

قوله تعالى: **يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** المراد بالدين الجزاء كما فى قوله: **مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ** (الحمد ٤/٤)، و توفيه الشىء بذله تاما كاملا، و المعنى: يوم القيامة يؤتيهم الله جزاءهم الحق إيتاء تاما كاملا و يعلمون أن الله هو الحق المبين.

هذا بالنظر الى اتصال الآيه بما قبلها و وقوعها فى سياق ما تقدمها، و أما بالنظر الى استقلالها فى نفسها فمن الممكن ان يراد بالدين ما يرادف المله و هو سنه الحياه، و هو معنى عال يرجع الى ظهور الحقائق يوم القيامة للانسان، و يكون أكثر مناسبه لقوله: **«وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ»**.

و الآيه من غرر الآيات القرآنيه تفسر معنى معرفه الله فى قوله: **«وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ»** ينبى أنه تعالى هو الحق لا ستره عليه بوجه من الوجوه و لا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيات التى لا يتعلق بها جهل لكن البديهي ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفله عنه الذى ربما يعبر عنه بالعلم، و هذا هو الذى يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أن الله هو الحق المبين.

و الى مثله يشير قوله تعالى: **لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** (ق ٢٢).

قوله تعالى: **الْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِينِ وَ الْخَيْثُونَ لِلْخَيْثَاتِ وَ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ** الخ؛ ذيل الآيه **«أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ»** دليل على أن المراد بالخيشات و الخيشين و الطيبات و الطيبين نساء و رجال متلبسون بالخباثه و الطيب فالآيه من تمام آيات الإفك متصله بها مشاركه لها فى سياقها، و هى عامه لا مخصص لها من جهه

فالمراد بالطيب الذى يوجب كونهم مبرئين مما يقولون على ما تدل عليه الآيات السابقة هو المعنى الذى يقتضيه تلبسهم بالإيمان والإحسان فالمؤمنون والمؤمنات مع الإحسان طيبون وطيبات يختص كل من الفريقين بصاحبه، وهم بحكم الإيمان والإحسان مصونون مبرءون شرعا من الرمى بغير بينه، محكومون من جهه إيمانهم بأن لهم مغفره كما قال تعالى:

وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (الأحقاف ٣١) و لهم رزق كريم، وهو الحياه الطيبه فى الدنيا والأجر الحسن فى الآخره كما قال: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل ٩٧).

و المراد بالخبث فى الخبيثين و الخبيثات و هم غير المؤمنين هو الحال المستقذره التى يوجبها لهم تلبسهم بالكفر و قد خصيت خبيثاتهم بخبيثهم و خبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى المجانسه و المساخره و ليسوا بمبرئين عن التلبس بالفحشاء- نعم هذا ليس حكما بالتلبس - (١).

[سوره النور (٢٤): الآيات ٢٧ الى ٣٤]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَ تَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمْ اذْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لِيُضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِلْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَ لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَ لِيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَا تَبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَ آتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَ لَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)

ص: ٤٢٧

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا الخ؛ الانس بالشىء و اليه الالفه و سكون القلب اليه، و الاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدى اليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر الله و التنحنح و نحو ذلك ليتتبه صاحب البيت أن هناك من يريد الدخول عليه فيستعد لذلك فربما كان فى حال لا يحب أن يراه عليها أحد أو يطلع عليها مطلع.

و منه يظهر أن مصلحه هذا الحكم هو الستر على عورات الناس و التحفظ على كرامه الإيمان فإذا استأنس الداخل عند إرادته الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلم عليه فقد أعانه على ستر عورته، و أعطاه الأمن من نفسه.

قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ الخ؛ أى إن علمتم بعدم وجود أحد فيها- و هو الذى يملك الإذن- فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن، و ليس المراد به أن يتطلع على البيت و ينظر فيه فإن لم يره فيه أحدا كفف عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع فى الحقيقه عن النظر و الاطلاع على عورات الناس.

و هذه الآيه تبين حكم دخول بيت الغير و ليس فيه من يملك الإذن، و الآيه السابقه تبين حكم الدخول و فيه من يملك الإذن و لا- يمنع، و أما دخوله و فيه من يملك الإذن و يمنع و لا- يأذن فيه فيبين حكمه قوله تعالى: «وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» .

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ الخ؛ ظاهر السياق كون قوله: «فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ» صفة بعد صفة لقوله: «بُيُوتًا» لا جمله مستأنفه معلله لقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ»، و الظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع.

ففيه تجويز الدخول في بيوت معدّه لأنواع الاستمتاع و هي غير مسكونه بالطبع كالخانات و الحمامات و الأرحيه و نحوها فإن كونها موضوعه للاستمتاع إذن عام في دخولها.

قوله تعالى: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ الغَضُّ إطباق الجفن على الجفن، و الأبصار جمع بصر و هو العضو الناظر، و من هنا يظهر أن «مِنْ» في «مِنْ أَبْصَارِهِمْ» لا ابتداء الغايه لا- مزيده و لا للجنس و لا للتبعيض كما قال بكل قائل، و المعنى يأتوا بالغض آخذاً من أبصارهم.

فقوله: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ لما كان «يَغُضُّوا» مترتباً على قوله:

«قُلْ» ترتب جواب الشرط عليه دلّ ذلك على كون القول بمعنى الأمر و المعنى مرهم يغضوا من أبصارهم و التقدير مرهم بالغض إنك إن تأمرهم به يغضوا، و الآيه أمر بغض الأبصار و إن شئت فقل: نهى عن النظر الى ما لا يحل النظر اليه من الأجنبي الأجنبي له مكان الإطلاق.

و قوله: وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ أى و مرهم يحفظوا فروجهم، و الفرجه و الفرج الشق بين الشيتين، و كنى به عن السوأه، و على ذلك جرى استعمال القرآن الملىء في أدبا و خلقاً ثم كثر استعماله فيها حتى صار كالنص كما ذكره الراغب.

والمقابله بين قوله: «يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ» و «يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» يعطى أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لا حفظها عن الزنا و اللواطه كما قيل، وقد ورد في الروايه عن الصادق عليه السّلام أن كل آيه في القرآن في حفظ الفروج فهى من الزنا إلا هذه الآيه فهى من النظر.

و على هذا يمكن أن تتقيد أولى الجملتين بثنائيتها و يكون مدلول الآيه هو النهى عن النظر الى الفروج و الأمر بسترها.

ثم أشار الى وجه المصلحه فى الحكم و حثهم على المراقبه فى جنبه بقوله: «ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» .

قوله تعالى: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ الْخُصْمَ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ» نظير ما مر فى قوله: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» فلا يجوز لهن النظر الى ما لا يجوز النظر اليه و يجب عليهن ستر العوره عن الأجنبى و الاجنبيه.

و أما قوله: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» فالإبداء الإظهار، و المراد بزيتتهن مواضع الزينه لأن نفس ما يتزين به كالقرط و السوار لا يحرم إبدائها فالمراد بإبداء الزينه إبداء مواضعها من البدن.

و قد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر، و قد وردت الروايه أن المراد بما ظهر منها الوجه و الكفان و القدمان كما سيجىء إن شاء الله.

و قوله: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ» الخمر بضم تين جمع خمار و هو ما تغطى به المرأه رأسها و ينسدل على صدرها، و الجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون و هو معروف و المراد بالجيوب الصدور، و المعنى و ليلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها.

وقوله: وَلَا يُبَدِّينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ -الى قوله- أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ البعوله هم أزواجهن، و الطوائف السبع الآخر محارمهن من جهة النسب و السبب، و أجداد البعوله حكمهم حكم آبائهم و أبناء أبناء البعوله حكمهم حكم الأبناء.

وقوله: أَوْ نِسَائِهِنَّ فى الاضافه إشاره الى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء و قد وردت به الروايات عن أئمه أهل البيت عليهم السلام.

وقوله: أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ إطلاقه يشمل العبيد و الإماء، و قد وردت به الروايه كما سيأتى إن شاء الله، و هذا من موارد استعمال «ما» فى اولى العقل.

وقوله: أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أَوْلَىٰ الْأَرْبَةِ مِنَ الرَّجَالِ الإربه هى الحاجه، و المراد به الشهوه التى تحوج الى الازدواج، و «مِنَ الرَّجَالِ» بيان للتابعين، و المراد بهم كما تفسره الروايات البله المولى عليهم من الرجال و لا شهوه لهم.

وقوله: أَوْ الطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ أى جماعه الأطفال- و اللام للاستغراق-الذين لم يقووا و لم يظهروا-من الظهور بمعنى الغلبه-على امور يسوء التصريح بها من النساء، و هو-كم قيل-كنايه عن البلوغ.

وقوله: وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ذلك بتصوت أسباب الزينه كالخلخال و العقد و القرط و السوار.

وقوله: وَ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ المراد بالتوبه-على ما يعطيه السياق-الرجوع اليه تعالى بامثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه و بالجمله أتباع سبيله.

قوله تعالى: وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمُ الإنكاح التزويج، و الأيامى جمع أيم بفتح الهمزه و كسر الياء المشدده و هو الذكر الذى لا انثى معه و الانثى التى لا ذكر معها و قد يقال فى المرأه أيمه، و المراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا

وقوله: إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَعَدَّ جَمِيلًا بِالْغِنَى وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَقَدْ أَكَدَهُ بِقَوْلِهِ: «وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» وَ الرِّزْقُ يَتَّبِعُ صِلَا حِيَهُ الْمَرْزُوقُ بِمَشِيهِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ سِيَوَا فَيْكُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَوَ رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ (الذاريات ٢٣) كَلَامٌ فِي مَعْنَى سَعَةِ الرِّزْقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لَيْسَ تَعْفُفِ الَّذِينَ لَا- يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الْاسْتِعْفَافُ وَ التَّعْفُفُ قَرِيبًا الْمَعْنَى، وَ الْمُرَادُ بِعَدَمِ وَجِدَانِ النِّكَاحِ عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْمَهْرِ وَ النِّفْقَةِ، وَ مَعْنَى الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالتَّعْفُفِ لِمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى النِّكَاحِ وَ التَّحْرُزِ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الزَّوْنَا حَتَّى يَغْنِيَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَا تَبَوْهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا؛ الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ الْمَكَاتِبِ، وَ ابْتِغَاءُ الْمَكَاتِبِ أَنْ يَسْأَلَ الْعَبْدَ مَوْلَاهُ أَنْ يَكَاتِبَهُ عَلَى إِيْتَائِهِ الْمَوْلَى مَا لَا عَلَى أَنْى يَعْتَقُهُ، وَ فِي الْآيَةِ أَمْرٌ لِلْمَوْلَى بِإِجَابَتِهِمْ إِنْ عَلِمُوا فِيهِمْ خَيْرًا وَ هُوَ كُنْيَاهُ عَنِ إِحْرَازِ صِلَا حِيَتِهِمْ لِذَلِكَ.

وَ قَوْلُهُ: وَ آتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ إِشَارَةٌ إِلَى إِيْتَائِهِمْ مَالِ الْمَكَاتِبِ مِنَ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ فَسَهْمٌ مِنْ سَهَامِ الزَّكَاةِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَ فِي الرِّقَابِ (التوبة ٦٠) أَوْ إِسْقَاطِ شَيْءٍ مِنْ مَالِ الْمَكَاتِبِ.

وَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مَبَاحِثُ فِقْهِيَّةٍ جَمْعُهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرَا جِعَ فِيهَا كِتَابُ الْفِقْهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لَا- تُكْرِهُوا فَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا الْفَتِيَّاتِ الْإِمَاءِ وَ الْوَلَائِدِ، وَ الْبِغَاءُ الزَّوْنَا وَ هُوَ مَفَاعَلَةٌ مِنَ الْبَغَى، وَ التَّحَصُّنُ وَ التَّعْفُفُ وَ الْإِزْدِوَاجُ وَ ابْتِغَاءُ عَرْضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا طَلَبُ الْمَالِ، وَ الْمَعْنَى ظَاهِرٌ.

وَ إِنَّمَا اشْتَرَطَ النَّهْيَ عَنِ الْإِكْرَاهِ بِإِرَادَةِ التَّحَصُّنِ لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ لَا يَتَحَقَّقُ فِيمَنْ لَا يَرِيدُ

التحصن، ثم وعدهن المغفرة على تقدير الإكراه بقوله: «وَمَنْ يُكْرِهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ» و معناه ظاهر.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ المثل الصفة، و من الممكن أن يكون قوله: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا» الخ؛ حالا- من فاعل قوله: «تُوبُوا» في الآية السابقة أو استينافا و المعنى و أقسم لقد أنزلنا اليكم آيات تبين لكم من معارف الدين ما تفلحون به، و صفة من السابقين أختيارهم و أشرارهم يتميز بها لكما ينبغي أن تأخذوا به مما ينبغي لكم أن يجتنبوا، و موعظه للمتقين منكم (١).

[سورة النور (٢٤): الآيات ٣٥ الى ٤٦]

اشاره

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي ثُبُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَزِيَدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعِهِ يَتَحَسَّبُهَا الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لججٍ يعشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلماتٍ بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صِلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)

ص: ٤٣٤

قوله تعالى: اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ المشكاه على ما ذكره الراغب وغيره: كَوَّه غير نافذه و هي ما يتخذ في جدار البيت من الكَوِّ لوضع بعض الأثاث كالمصباح وغيره عليه و هو غير الفانوس.

و الدرّي: من الكواكب العظيم الكثير النور، و هو معدود في السماء، و الإيقاد: الإشعال، و الزيت: الدهن المتخذ من الزيتون.

و قوله: اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ النور معروف و هو الذى يظهر به الأجسام الكثيفه لأبصارنا فالأشياء ظاهره به و هو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته فهو الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر. هذا أول ما وضع عليه لفظ النور ثم عمّم لكل ما ينكشف به شىء من المحسوسات على نحو الاستعاره أو الحقيقه الثانيه فعدّ كل من الحواس نورا أو ذا نور يظهر به محسوساته كالسمع و الشم و الذوق و اللمس. ثم عمّم لغير المحسوس فعدّ العقل نورا يظهر به المعقولات كل ذلك بتحليل معنى النور المبصر الى الظاهر بذاته المظهر لغيره.

و إذ كان وجود الشىء هو الذى يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقا تاما للنور، ثم لما كانت الأشياء الممكنه الوجود إنما هي موجوده بإيجاد الله تعالى كان هو المصداق الأتم للنور فهناك وجود و نور يتصف به الأشياء و هو وجودها و نورها المستعار المأخوذ منه تعالى و وجود و نور قائم بذاته يوجد و يستنير به الأشياء.

فهو سبحانه نور يظهر به السماوات والأرض، وهذا هو المراد بقوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» حيث أضيف النور الى السماوات والأرض ثم حمل على اسم الجلاله، وعلى هذا ينبغي أن يحمل قول من قال: إن المعنى الله منور السماوات والأرض، وعمده الغرض منه أن ليس المراد بالنور المستعار القائم بها وهو الوجود الذي يحمل عليها تعالى الله عن ذلك و تقدس.

و من ذلك يستفاد أنه تعالى غير مجهول لشيء من الأشياء إذ ظهور كل شيء لنفسه أو لغيره إنما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله، و الى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى بعد آيتين: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَوْمٍ عَالِمٌ صِدْقَاتِهِ وَتَسْبِيحَهُ» إذ لا معنى للتسبيح والعلم به وبالصلاة مع الجهل بمن يصلون له و يسبحونه فهو نظير قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (الإسراء/ ٤٤)، و سوا فيك البحث عنه إن شاء الله.

فقد تحصل أن المراد بالنور في قوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العام الذي يستنير به كل شيء و هو مساو لوجود كل شيء و ظهوره في نفسه و لغيره و هي الرحمة العامه.

و قوله: «مَثَلُ نُورِهِ يَصِفُ تَعَالَى نوره»، و إضافة النور الى الضمير الراجع اليه تعالى - و ظاهره الإضافة اللاميه - دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذي هو الله بل النور المستعار الذي يفيضه، و ليس هو النور العام المستعار الذي يظهر به كل شيء و هو الوجود الذي يستفيضه منه الأشياء و تتصف به، و الدليل عليه قوله بعد تميم المثل: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» إذ لو كان هو النور العم لم يختص به شيء دون شيء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقه الإيمان على ما يفيد الكلام.

و قد نسب تعالى في سائر كلامه الى نفسه نورا كما في قوله: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ»

بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ (الصف ٨/)، و قوله: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (الأنعام ١٢٢/١) و قوله: يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (الحديد ٢٨/١)، و قوله: أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ (الزمر ٢٢/١)، و هذا هو النور الذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به في طريقهم الى ربهم و هو نور الإيمان و المعرفة.

و ليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآيه تصف حال عامه المؤمنين قبل نزول القرآن و بعده. على أن هذا النور و وصف لهم يتصفون به كما يشير اليه قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ (الحديد ١٩/١) و قوله: يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (التحریم ٨/١)، و القرآن ليس وصفا لهم و إن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع الى ما قلناه.

و قوله: كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجِهِ الْمَشْبَهُ بِهِ مَجْمُوعٌ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: «كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ» الخ؛ لا مجرد المشكاه و إلا فسد المعنى، و هذا كثير في تمثيلات القرآن.

و قوله: الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ تشبيه الزجاجه بالكوكب الدرّي من جهه ازدياد لمعان نور المصباح و شروقه بتركيب الزجاجه على المصباح فتزيد الشعلة بذلك سكونا من غير اضطراب بتموج الأهويه و ضرب الرياح فهي كالكوكب الدرّي في تألؤ نورها و ثبات شروقتها.

و قوله: يُوقَدُ مِنْ شَجَرِهِ مَبَارَكِهِ زَيْتُونَهُ لَا شَرْقِيَّهُ وَلَا غَرْبِيَّهُ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ خَبِرَ بَعْدَ خَبَرٍ لِلْمِصْبَاحِ أَى المصباح يشتعل آخذا اشتعاله من شجره مباركه زيتونه أى إنه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها، و المراد بكون الشجره لا شرقيه و لا غربيه أنها ليست نابتة في الجانب الشرقي و لا في الجانب الغربي حتى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار و يفيئ الظل عليها في الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو

الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة بل هي ضاحيه تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها.

و الدليل على هذا المعنى قوله: «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضَيُّءُ وَ لَوْ لَمْ تَمَسِّ سُهُ نَارٌ» فإن ظاهر السياق أن المراد به صفاء الدهن و كمال استعداده للاشتعال و أن ذلك متفرع على الوصفين: لا شريقه و لا غربيه.

و قوله: نُورٌ عَلِيٌّ نُورٌ خَيْرٌ لِمَبْتَدِئٍ مَحْذُوفٍ و هو ضمير راجع الى نور الزجاجة المفهوم من السياق، و المعنى نور الزجاجة المذكور نور عظيم على نور كذلك أى فى كمال التلمع.

و المراد من كون النور على النور قيل: هو تضاعف النور لا تعدده فليس المراد به أنه نور معين أو غير معين فوق نور آخر مثله، و لا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل أنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه و هذا التعبير شائع فى الكلام.

و هذا معنى لا- يخلو من جوده و إن كان إرادته التعدد أيضا لا- تخلو من لطف و دقه فإن للنور الشارق من المصباح نسبه اليه بالأصالة و الحقيقة و نسبه الى الزجاجة التى عليه بالاستعاره و المجاز، و يتغاير النور بتغاير النسبتين و يتعدّد بتعددهما و إن لم يكن بحسب الحقيقة إلا للمصباح و الزجاجة صفر الكف منه فللزجاجة بالنظر الى تعدد النسب نور غير نور المصباح و هو قائم به و مستمد منه.

و هذا الاعتبار جار بعينه فى الممثل له فإن نور الإيمان و المعرفة نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه.

فقد تحصل أن الممثل له هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين و المثل هو المشبه به النور المشرق من زجاجة على مصباح موقد من زيت جيّد صاف و هو موضوع فى مشكاه فإن نور المصباح المشرق من الزجاجة و المشكاه تجمعه و تعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم فى

فأخذ المشكاه للدلاله على اجتماع النور فى بطن المشكاه و انعكاسه الى جو البيت، و اعتبار كون الدهن من شجره زيتونه لا شقيه و لا غريبه للدلاله على صفاء الدهن و جودته المؤثر فى صفاء النور المشرق عن اشتعاله و جوده الضياء على ما يدل عليه كون زيتيه يكاد يضىء و لو لم تمسسه نار، و اعتبار كون النور على النور للدلاله على تضاعف النور أو كون الزجاجه مستمده من نور المصباح فى إنارتها.

و قوله: يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ استئناف يعلل به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان و المعرفه و حرمان غيرهم، فمن المعلوم من السياق أن المراد بقوله: «مَنْ يَشَاءُ» القوم الذين ذكرهم بقوله بعد: «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ» الخ؛ فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم.

و المعنى: أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان الى نوره دون المتلبسين بالكفر-الذين سيدكرهم بعد-لمجرد مشيئته، و ليس المعنى أن الله يهدى بعض الأفراد الى نوره دون بعض بمشيئته ذلك يحتاج فى تنميته الى القول بأنه إنما يشاء الهدايه إذا استعد المحل الى الهدايه بحسن السريره و السيره، و ذلك مما يختص به أهل الإيمان دون أهل الكفر فافهمه.

و الدليل على ذلك ما سيأتى من قوله: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» الى آخر الآيات؛ بالبيان الآتى إن شاء الله.

و قوله: وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إشاره الى أن المثل المضروب تحته طور من العلم، و إنما اختيار المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق و الدقائق و يشترك فيه العالم و العامى فىأخذ منه كل ما قسم له، قال تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (العنكبوت ٤٣).

قوله تعالى: فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ الْإِذْنُ فِي الشَّيْءِ

هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله، والمراد بالرفع رفع القدر و المنزله و هو التعظيم،و إذ كانت العظمه و العلو لله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره إلا أن ينتسب اليه،و بمقدار ما ينتسب اليه فالإذن منه تعالى في أن ترفع هذه البيوت إنما هو لانتساب ما منها اليه.

و بذلك يظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف عليه من ذكر اسمه فيها،و السياق يدل على الاستمرار أو التهيؤ له فيعود المعنى الى مثل قولنا «أن يذكر فيها اسم فيرتفع قدرها بذلك».

و قوله: في بيوت متعلق بقوله في الآيه السابقه: «كَمِشْكَاةٍ» أو قوله: «يَهْدِي اللَّهُ» الخ؛و المآل واحد،و من المتيقن من هذه البيوت المساجد فإنها معده لذكر اسمه فيها ممحضه لذلك،و قد قال تعالى: وَ مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا (الحج ٤٠/).

قوله تعالى: يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ الى آخر الآيه؛تسيحه تعالى تنزيهه عن كل ما لا يليق بساحه قدسه،و الغدو جمع غداه و هو الصبح و الآصال جمع أصيل و هو العصر،و الإلهاء صرف الإنسان عما يعنيه و يهمله،و التجاره على ما قاله الراغب:

التصرف في رأس المال طلبا للربح.قال:و ليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ.

و البيع على ما قال:إعطاء المثلن أخذ الثمن،و قلب الشيء على ما ذكره صرف الشيء من وجه الى وجه،و التقلب مبالغه فيه و التقلب قبوله فتقلب القلوب و الأبصار تحوّل منها من وجه من الإدراك الى وجه آخر.

و قوله: يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ صفه لبيوت أو استئناف لبيان قوله:

«وَ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ» ،و كون التسيح بالغدو و الآصال كناية عن استمرارهم فيه لا أن التسيح مقصور في الوقتين لا يسبح له في غيرهما.

و الاكتفاء بالتسيح من غير ذكر التحميد معه لأنه تعالى معلوم بجميع صفاته الكماليه لا ستره عليه إذ المفروض أنه نور و النور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره و إنما يحتاج خلوص

المعرفة الى نفى النقائق عنه و تنزيهه عما لا- يليق به فإذا تمّ التسييح لم يبق معه غيره و تمّت المعرفة ثم إذا تمت المعرفة وقع الثناء و الحمد و بالجملة التوصيف بصفات الكمال موقعه بعد حصول المعرفة كما قال تعالى: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصفات / ١٦٠)، فنزّهه عما يصفونه به إلا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده، و قد تقدم فى تفسير سورة الحمد كلام فى معنى حمده تعالى.

و بيان آخر حمده تعالى و هو ثنائه بصفه الكمال مساوق لحصول نور المعرفة و تسييحه و هو التنزيه بنفى ما لا يليق به عنه مقدّمه لحصوله، و الآية فى مقام بيان خصالهم التى تستدعى هدايتهم الى نوره فلا جرم اقتصر فيها بذكر ما هى المقدمه و هو التسييح، فافهم ذلك.

و قوله: رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ التّجَارَهُ إِذَا قُوبِلَتْ بِالْبَيْعِ كَانَ الْمَفْهُومَ مِنْهَا بِحَسَبِ الْعَرَفِ الْاسْتِمْرَارِ فِي الْاِكْتِسَابِ بِالْبَيْعِ وَ الشَّرَاءِ وَ الْبَيْعِ هُوَ الْعَمَلُ الْاِكْتِسَابِي الدَّفْعِي فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الدَّفْعِ وَ الْاسْتِمْرَارِ فَمَعْنَى نَفْيِ الْبَيْعِ بَعْدَ نَفْيِ التّجَارَةِ مَع كَوْنِهِ مَنْفِيًا بِنَفْيِهَا الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَلْهَوْنَ عَنْ رَبِّهِمْ فِي مَكَاسِبِهِمْ دَائِمًا وَ لَا فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَ بَعْبَارِهِ أُخْرَى لَا تَنْسِيهِمْ رَبِّهِمْ تِجَارَهُ مُسْتَمِرَّةً وَ لَا بَيْعَ مَا مِنَ الْبَيْعِ الَّتِي يُوَقِّعُونَهَا مَدَّةَ تِجَارَتِهِمْ.

و قيل: الوجه فى نفى البيع بعد نفى إلهاء التجاره أن الربح فى البيع ناجز بالفعل بخلاف التجاره التى هى الحرفه، فعدم إلهاء التجاره لا يستلزم عدم إلهاء البيع الرابع بالفعل، و لذلك نفى البيع ثانيا بعد نفى إلهاء التجاره و لذلك كرّرت لفظه «لا» لتذكير النفى و تأكيده، و هو وجه حسن.

و قوله: عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ الْإِقَامَ هُوَ الْإِقَامَةُ بِحَذْفِ التَّاءِ تَخْفِيفًا.

و المراد بإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه الإتيان بجميع الأعمال الصالحه التى كلف الله تعالى عباده بإتيانها فى حياتهم الدنيا، و إقامه الصلاه ممثله لإتيان ما للعبد من وظائف العبوديه مع الله سبحانه، و إيتاء الزكاه ممثل لوظائفه مع الخلق و ذلك لكون كل منها ركنا فى بابه.

و المقابله بين ذكر الله و بين إقام الصلاه و إيتاء الزكاه و هما- و خاصه الصلاه- من ذكر الله يعطى أن يكون المراد بذكر الله الذكر القلبي الذى يقابل النسيان و الغفله و هو ذكر علمى كما أن أمثال الصلاه و الزكاه ذكر عملى.

فالمقابله المذكوره تعطى أن المراد بقوله: «عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ» أنهم لا يشتغلون بشيء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم و ذكرهم الموقت بأعمالهم من الصلاه و الزكاه، و عند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجاره و البيع و بين ذكر الله و إقام الصلاه، الخ، لرجوع المعنى الى أنهم لا يلهيهم مله مستمر و لا موقت عن الذكر المستمر و الموقت، فافهم ذلك.

و قوله: يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ هذا هو يوم القيامه، و المراد بالقلوب و الأبصار ما يعم قلوب المؤمنين و الكافرين و أبصارهم لكون القلوب و الأبصار جمعا محلى باللام و هو يفيد العموم.

و أما تقلب القلوب و الأبصار فالآيات الواصفه لشأن يوم القيامه تدل على أنه يظهر حقيقه الأمر و انكشاف الغطاء كما قال تعالى: فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَ كَفَبَصْرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢)، و قال: وَ بَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (الزمر ٤٧)، الى غير ذلك من الآيات.

فتنصرف القلوب و الأبصار يومئذ عن المشاهده و الرؤيه الدنيويه الشاغله عن الله الساتره للحق و الحقيقه الى سنخ آخر من المشاهده و الرؤيه و هو الرؤيه بنور الايمان و المعرفه فيتبصر المؤمن بنور ربه و هو نور الايمان و المعرفه فينظر الى كرامه الله، و يعمى الكافر و لا يجد

إلا ما يسوؤه قال تعالى: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (الزمر ٦٩) وقال:

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيَمَانِهِمْ (الحديد ١٢)، وقال: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهِيَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى (الإسراء ٧٢)، وقال: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (القيامة ٢٣) وقال: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥).

وقد تبين بما مر:

أولاً: وجه اختصاص هذه الصفة أعنى تقلب القلوب و الأبصار من بين أوصاف يوم القيامة بالذكر و ذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به الى هدايته تعالى الى نوره و هو نور الإيمان و المعرفة الذي يستضاء به يوم القيامة و يبصر به.

و ثانياً: أن المراد بالقلوب و الأبصار النفوس و بصائرهما.

و ثالثاً: أن توصيف اليوم بقوله: «تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ» لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب و الأبصار، و إنما يخافون هذا التقلب لما في أحد شقيه من الحرمان من نور الله و النظر الى كرامته و هو الشقاء الدائم و العذاب الخالد و في الحقيقة يخافون أنفسهم.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ الظاهر أن لام «لِيَجْزِيَهِمْ» للغايه، و الذي ذكره الله في خلال الكلام هو أعمالهم الصالحة و الأجر الجميل على كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالى فقوله: إنه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزيهم بإزاء عملهم في كل باب جزاء أحسن عمل في ذلك الباب، و مرجع ذلك الى أنه تعالى يزكى أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذه في جهات توجب نقصها و انحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن.

و يؤيد هذا المعنى قوله في ذيل الآية: «وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» فإن ظاهره عدم

المداقه فى حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فيلحق الحسن بالأحسن.

وقوله: وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْفَضْلَ الْعَطَاءُ، وهذا نص فى أنه تعالى يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحة، وأوضح منه قوله تعالى فى موضع آخر: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥)، حيث إن ظاهره أن هذا المزيد الموعود أمر وراء ما تتعلق به مشيتهم.

وقد دل كلامه سبحانه أن أجرهم أن لهم ما يشاءون قال تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (الزمر ٣٤)، وقال: أَمْ جِنَّةَ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ (الفرقان ١٦)، وقال: لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (النحل ٣١).

فهذا المزيد الذى هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلى وأعظم من أن تتعلق به مشيه الإنسان أو يوصل اليه سعيه، وهذا أعجب ما يعده القرآن المؤمنين و يبشرهم به فأجد التدبر فيه.

وقوله: وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ استئناف مآله تعليل الجملتين السابقتين بالمشيه نظير قوله فيما تقدم: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» على ما مر بيانه.

و محصله أنهم عملوا صالحا و كان لهم من الأجر ما يعادل عملهم كما هو ظاهر قوله:

و تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ (النحل ١١)، و ما فى معناه من الآيات لكنه تعالى يجزيهم بكل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل يؤتى به فى باب من غير أن يداق فى الحساب فهذه موهبه ثم يرزقهم أمرا هو أعلى و أرفع من أن تتعلق به مشيتهم و هذه أيضا موهبه و رزق بغير حساب، و الرزق من الله موهبه محضه من غير أن يملك المرزوقون منه شيئا أو يستحقوه عليه فله تعالى أن يخص منه ما يشاء لمن يشاء.

غير أنه تعالى وعدهم الرزق و أقسم على إنجازه فى قوله: فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ (الذاريات ٢٣)، فملكهم الاستحقاق لأصله و هو الذى يجزيهم به على قدر أعمالهم

و أما الزائد عليه فلم يملكهم ذلك فله أن يختص به من يشاء فلا يعلل ذلك إلا بمشيئه، و للكلام تتمه ستوافيك إن شاء الله في بحث مستقل.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ السراب هو ما يلمع في المفاز كالماء و لا حقيقه له، و القيع و القاع هو المستوى من الأرض و مفرداهما القيعه و القاعه كالتينه و التمره، و الظمان هو العطشان.

لما ذكر سبحانه المؤمنين و وصفهم بأنهم ذاكرون له في بيوت معظمه لا- تلهيهم عنه تجاره و لا- بيع، و أن الله الذي هو نور السماوات و الأرض يهديهم الى نوره فيمكرهم بنور معرفته قابل ذلك بذكر الذين كفروا فوصف أعمالهم تاره بأنها لا حقيقه لها كسراب بقيعه فلا غايه لها تنتهى إليها، و تاره بأنها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها و هى حاجز عن النور، و هذه الآيه هى التى تتضمن الوصف الأول.

فقوله: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا شَبِهَ أَعْمَالَهُمْ- و هى التى يأتون بها من قرابين و أذكار و غيرهما من عباداتهم يتقربون بها الى آلهتهم- بسراب بقيعه يحسبه الإنسان ماء و لا حقيقه له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش و غير ذلك.

و إنما قيل: يحسبه الظمان ماء مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء لأن المطلوب بيان سيره اليه و لا يسيره اليه إلا الظمان يدفعه اليه ما به من ظماء، و لذلك رتب عليه قوله: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» كأنه قيل: كسراب بقيعه يتخيله الظمان ماء فيسير اليه و يقبل نحوه ليرتوى و يرفع عطشه به، و لا يزال يسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

و التعبير بقوله: «جَاءَهُ» دون أن يقال: بلغه أو وصل اليه أو انتهى اليه و نحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه و ينتظره انتظاراً و هو الله سبحانه، و لذلك أردفه بقوله: «و وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ» فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم

و جبلتهم و هو السعاده التى يريدها كل إنسان بفطرته و جبلته لكن أعمالهم لا توصلهم اليه، و لا أن الآلهه يبتغون بأعمالهم جزاء حسنا منهم لهم حقيقه بل الذى ينتهى اليه أعمالهم و يحيط هو بها و يجزيهم هو الله سبحانه فيوفيه حسابهم، و توفيه الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجب حساب الأعمال و إيصال ما يستحقه صاحب الأعمال.

ففى الآيه تشبيه أعمالهم بالسراب، و تشبيهم بالظمان يريد الماء و عنده عذب الماء لكنه يعرض و لا يصغى الى مولاه الذى ينصحه و يدعو الى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير اليه و يقبل نحوه، و تشبيه مصيرهم الى الله سبحانه بحلول الآجال و عند ذلك تمام الأعمال بالظمان السائر الى السراب إذا جاءه و عنده مولاه الذى كان ينصحه و يدعو الى شرب الماء.

فهؤلاء قوم ألهوا عن ذكر ربهم و الأعمال الصالحه الهاديه الى نوره و فيه سعادتهم و حسبوا أن سعادتهم عند غيره من الآلهه الذين يدعونهم، و الأعمال المقربه اليهم و فيها سعادتهم فأكبوا على تلك الأعمال السرايه و استوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مده أعمارهم حتى حلت آجالهم و شارفوا الدار الآخره فلم يجدوا شيئاً مما يؤملونه من أعمالهم و لا أثراً من الوهيه آلهتهم فوفاهم الله حسابهم و الله سريع الحساب.

□
و قوله: وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ إنما هو لإحاطه علمه بالقليل و الكثير و الحقيق و الخطير و الدقيق و الجليل و المتقدم و المتأخر على حد سواء.

قوله تعالى: أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَيِّحَابٌ تَشْبِيهِ ثَانِ لِأَعْمَالِهِمْ يظهر به أنها حجب متراكمه على قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفة، و قد تكرر فى كلامه تعالى أنهم فى الظلمات كقوله: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ (البقره ٢٥٧/)، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (الأنعام ١٢٢/)، و قوله: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

كَأَنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥).

و قوله: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ» معطوف على «كَسْرَابٍ» في الآية السابقة، والبحر اللجّي هو البحر المتردّد أمواجه منسوب الى لجه البحر و هي تردّد أمواجه، والمعنى: أعمالهم كظلمات كائنه في بحر لجّي.

و قوله: «يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَيْحَابٌ» صفة البحر جيء بها لتقرير الظلمات المفروضة فيه فصفته أنه يغشاه و يحيط به موج كائن من فوقه موج آخر كائن من فوقه سحب يحجبه جميعا من الاستضاءة بأضواء الشمس و القمر و النجوم.

و قوله: «ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ تَقْرِيرٌ لِبَيَانِ أَنَّ الْمَرَادَ بِالظُّلُمَاتِ الْمَفْرُوضَةِ الظُّلُمَاتِ الْمُتْرَاكِمَةَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ دُونَ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَ قَدْ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا» فَإِنَّ أَقْرَبَ مَا يَشَاهِدُهُ الْإِنْسَانُ مِنْهُ هُوَ نَفْسُهُ وَ هُوَ أَقْدَرُ عَلَى رُؤْيِهِ مِنْهُ عَلَى سَائِرِ أَعْضَائِهِ لِأَنَّهُ يَقْرَبُهَا تَجَاهَ بَاصِرَتِهِ كَيْفَمَا أَرَادَ فَإِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ وَ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا كَانَتِ الظُّلْمَةُ بِالْغَةِ.

فهؤلاء و هم سائرون الى الله و صائرون اليه من جهه أعمالهم كراكب بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب في ظلمات متراكمه كأشد ما يكون و لا نور هناك يستضيء به فيهدى الى ساحل النجاه.

و قوله: «وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ نَفِيٍّ لِلنُّورِ عَنْهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ، كَيْفَ لَا؟ وَ جَاعِلِ النُّورِ هُوَ اللَّهُ الَّذِي هُوَ نُورٌ كُلُّ شَيْءٍ، فَإِذَا لَمْ يَجْعَلْ لَشَيْءٍ نُورًا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ إِذْ لَا جَاعِلَ غَيْرِهِ تَعَالَى.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لَمَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ نُورٌ تَسْتَنِيرُ بِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ أَنَّهُ يَخْتَصُّ بِمَزِيدٍ نُورَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَصِيبَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَرَعَ يَحْتَجُّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا فِي

هذه الآيه و الآيات الأربع التاليه لها.

فكونه تعالى نور السماوات و الأرض يدلّ عليه أن ما فى السماوات و الأرض موجود بوجود ليس من عنده و لا من عند شىء مما فيهما لكونه مثله فى الفاقه، فوجود ما فيهما من موجود من الله الذى ينتهى اليه الحاجات.

فوجود كل شىء مما فيهما كما يظهر به نفس الوجود يدل على من يظهره بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشىء و يدل على منوره بما أشرق عليه من النور و أن هناك نورا يستنير به كل شىء فكل شىء مما فيهما يدل على أن وراءه شيئا منزها من الظلمه التى غشيتها، و الفاقه التى لزمته، و النقص الذى لا ينفك عنه، و هذا هو تسبيح ما فى السماوات و الأرض له سبحانه، و لازمه نفى الاستقلال عن كل من سواه و سلب أى إله و رب يدبر الأمر دونه تعالى.

و الى ذلك يشير قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صِيْلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ» و به يحتج تعالى على كونه نور السماوات و الأرض لأن النور هو ما يظهر به الشىء المستنير ثم يدل بظهوره على مظهره، و هو تعالى يظهر و يوجد بإظهاره و إيجاده الأشياء ثم يدل على ظهوره و وجوده.

و تزيد الآيه بالإشاره الى لطائف يكمل بها البيان:

منها: اختصاصها من فى السماوات و الأرض و الطير صافات و هم العقلاء و بعض ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» .

و لعل ذلك من باب اختيار أمور من أعاجيب الخلقه للذكر فإن ظهور الموجود العاقل الذى يدل عليه لفظ «من السماوات و الأرض» من عجيب أمر الخلقه الذى يدهش لب ذى اللب، كما أن صفيف الطير الصافات فى الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذى الشعور و أبداعه.

و يظهر من بعضهم أن المراد بقوله: «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ» الخ؛ جميع الأشياء و إنما عبّر بلفظ أولى العقل لكون التسييح المنسوب إليها من شئون أولى العقل أو للتنبيه على قوه تلك الدلاله و وضوح تلك الإشاره تنزيلا للسان الحال منزله المقال.

و فيه أنه لا يلائم إسناد العلم إليها في قوله بعد: «كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُ وَ تَسْبِيحُهُ» .

و منها: تصدير الكلام بقوله: «أَلَمْ تَرَ» و فيه دلالة على ظهور تسييحهم و وضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذو ريب فكثيرا ما يعبر عن العلم الجازم بالرؤيه كما في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ (إبراهيم ١٩)، و الخطاب فيه عام لكل ذى عقل و إن كان خاصا بحسب اللفظ.

و من الممكن أن يكون خطابا خاصا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و قد كان أراه الله تسييح من فى السماوات و الأرض و الطير صافآت فيما أراه من ملكوت السماوات و الأرض و ليس بيدع منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و قد أرى الناس تسييح الحصاه فى كفه كما وردت به الأخبار المعبره.

و منها: أن الآيه تعمم العلم لكل ما ذكر فى السماوات و الأرض و الطير، و قد تقدم بعض البحث عنه فى تفسير قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء ٤٤)، و ستجىء تتمه الكلام فيه فى تفسيره سوره حم السجده إن شاء الله.

و قول بعضهم: إن الضمير فى قوله: «قَدْ عَلِمَ» راجع اليه تعالى، يدفعه عدم ملائمته للسياق و خاصه لقوله بعده: «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» و نظيره قول آخرين: إن إسناد العلم الى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزله العالم لقوه دلالتة على تسييحه و تنزيهه.

و منها: تخصيصها التسييح بالذكري مع أن الأشياء تشير الى صفات كماله تعالى و هو التحميد كما تسبّحه على ما يدل عليه البرهان و يؤيده قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» و لعل الوجه فيه كون الآيات مسوقه للتوحيد و نفى الشركاء و ذلك بالتنزيه أمس فإن من يدعو من

دون الله إليها آخر أو يركن إلى غيره نوعاً من الركون إنما يكفر بإثبات خصوصيه وجود ذلك الشيء للإله تعالى فنفية إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه.

و أما قوله: كُلُّ قَدْ عَلِمَ صِلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ فَصَلَاتُهُ دَعَاؤُهُ وَ الدُّعَاءُ تَوْجِيهِ مِنَ الدَّاعِي لِلْمَدْعُو إِلَى حَاجَتِهِ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى حَاجَتِهِ عِنْدَ الدَّاعِي الْمَدْعُو فِي غِنَى عَنْهَا فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَى التَّنْزِيهِ مِنْهُ عَلَى الثَّنَاءِ وَ التَّحْمِيدِ.

و منها: أن الآيه تنسب التسييح و العلم به إلى من في السماوات و الأرض فيعمّ المؤمن و الكافر، و يظهر بذلك أن هناك نورين: نور عام يعم الأشياء و المؤمن و الكافر فيه سواء، و إلى ذلك تشير آيات كآيه الذر وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (الأعراف ١٧٢)، و قوله: فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢) إلى غير ذلك، و نور خاص و هو الذي تذكره الآيات و يختص بأوليائه من المؤمنين.

فالنور الذي ينور تعالى به خلقه كالرحمة التي يرحمهم بها قسماً: عام و خاص و قد قال تعالى: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف ١٥٦)، و قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ (الجاثية ٣٠)، و قد جمع بينهما في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا (الحديد ٢٨)، و ما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء الثاني من كفلى الرحمة.

و قوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَ مِنْ فَعْلِهِمْ تَسْبِيحُهُمْ لَهُ سُبْحَانَهُ، و هذا التسييح و إن كان في بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسييح يجوز أن يعدّ فعلاً لهم بهذه العناية.

و في ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسييحهم ترغيب للمؤمنين و شكر لهم بأن ربهم يعلم ذلك و سيجزيهم جزاء حسناً، و إيدان بتمام الحجة على الكافرين، فإن من مراتب

علمه تعالى كتب الأعمال و الكتاب المبين التي تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسيحهم بوجودهم ثم إنكارهم بالسنتهم.

قوله تعالى: **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** الآية و قد وقعت بين قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ» الخ؛ و هو احتجاج على شمول نوره العام لكل شيء، و بين قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي» الخ؛ و ما يتعقبه و هو احتجاج على اختصاص النور الخاص، يعطى أنها كالمتوسط بين القبيلين أعنى بين الأمرين يحتج بها على كليهما، فملكه تعالى لكل شيء و كونه مصيرا لها هو دليل على تعميمه نوره لعام و تخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

فقوله: **«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»** يخص الملك و يقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء و يحكم بما يريد لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، و لازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكل شيء، و إذ كان لا ملك إلا هو و اليه مرجع كل شيء و مصيره فله أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

و من هنا يظهر أن المراد- و الله أعلم- بقوله: **«وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ»** مرجعيته تعالى فى الامور دون المعاد نظير قوله: **«أَلَا-إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ»** (الشورى ٥٣).

قوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛** الإزجاع هو الدفع، و الركام المتراكم بعضه على بعض، و الودق هو المطر، و الخلال جمع الخلل و هو الفرجه بين الشيتين.

و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع، و المعنى: أ لم تر أنت و كل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحابة متفرقا ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكما بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله و فرجه فينزل على الأرض.

و قوله: **«وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ»**

وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ السَّمَاءِ جِهَهُ الْعُلُو، و قوله:

«مِنْ جِبَالٍ فِيهَا» بيان للسماء، و الجبال جمع جبل و هو معروف، و قوله: «مِنْ بَرْدٍ» بيان للجبال، و البرد قطعات الجمد النازل من السماء، و كونه جبالا فيها كناية عن كثرتة و تراكمه، و السنا بالقصر الضوء.

و الكلام معطوف على قوله: «يُزْجِي»، و المعنى: أ لم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع و البساتين و ربما قتل النفوس و المواشى و يصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالأبصار.

و الآيه-على ما يعطيه السياق-مسوقة لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره، و المعنى: أن الأمر فى ذلك الى مشيئة تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزل من السماء مطرا فيه منافع الناس لنفوسهم و مواشيتهم و مزارعهم و بساتينهم، و إذا شاء نزل بردا فيصيب به من يشاء و يصرفه عمن يشاء.

قوله تعالى: يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ بيان آخر لرجوع الأمر الى مشيئة تعالى فقط. و تقليب الليل و النهار تصريفهما بتبديل أحدهما من الآخر، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ بيان آخر لرجوع الأمر الى مشيئة تعالى محضا حيث يخلق كل دابة من ماء ثم تختلف حالهم فى المشى فمنهم من يمشى على بطنه كالحيات و الديدان، و منهم من يمشى على رجلين كالأناسى و الطيور و منهم من يمشى على أربع كالبهائم و السباع، و اقتصر سبحانه على هذه الأنواع الثلاثة-و فيهم غير ذلك-إيجازا لحصول الغرض بهذا المقدار.

و قوله: يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب، مع وحده المادة

التي خلقت منها يبين أن الأمر الى مشيه الله محضاً فله أن يعمم فيضاً من فيوضه على جميع خلقه كالنور العام و الرحمه العامه، و له أن يختص بفيض من فيوضه بعضاً من خلقه دون بعض كالنور الخاص و الرحمه الخاصه.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تعليل لقوله: «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ» فإن إطلاق القدره على كل شيء يستوجب أن لا يتوقف شيء من الأشياء في كينونته على أمر وراء مشيته و إلا كانت قدرته عليه مشروطه بحصول ذلك الأمر و هذا خلف. و هذا باب من التوحيد دقيق سيتضح بعض الاتضاح إن شاء الله بما في البحث الآتي (١).

قوله تعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يريد آيه النور و ما يتلوها المبينه لصفه نوره تعالى و الصراط المستقيم سبيله التي لا سبيل للغضب و الضلال الى من اهتدى إليها كما قال: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ (الحمد ٧/٧)، و قد تقدم الكلام فيه في تفسيره سورة الحمد.

و تذييل الآيه بقوله: «وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» هو الموجب لعدم تقييد قوله: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ» بلفظه اليكم بخلاف قوله قبل آيات: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» .

إذ لو قيل: لقد أنزلنا اليكم آيات مبينات و الله يهدي. تبادر إلى الذهن أن البيان اللفظي هدايه الى الصراط المستقيم و أن المخاطبين عامه مهديون إلى الصراط المستقيم و فيهم المنافق و الذين في قلوبهم مرض و الله العالم (٢).

ص: ٤٥٤

-
- ١- ١). النور ٣٥-٤٦: بحث فلسفي في الارتباط الوجودي بين كل شيء و بين علله الممكنه.
٢- ٢). النور ٣٥-٤٦: بحث روائي حول قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»؛ معنى النور.

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعِيدٍ ذَلِكُمْ وَ مَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولَهُ بَلْ أَوْلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أَوْلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشِ اللَّهَ وَ يَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ تُرْمَى إِلَيْهِمْ لَيْسَ أَمْرُهُمْ لِيُخْرَجَنَّ قُلٌ لَا تُقْسِمُوا طَاعَهُ مَعْرُوفَهُ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسَّخَرَنَّ لَهُمْ فِي الْمَرُوضِ كَمَا إِسَّخَرْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعِيدٍ خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْخِيَانَةَ؛ بيان حال بعض المنافقين حيث أظهروا الإيمان والطاعة أولاً ثم تولوا ثانياً فالإيمان بالله هو العقد على توحيده و ما شرع من الدين، والإيمان بالرسول هو العقد على كونه رسولا - مبعوثاً من عند ربه أمره أمره ونهيه نهيه و حكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شيء، وطاعة الله هي تطبيق العمل بما شرعه، وطاعة الرسول الائتمار والانتهاض عند أمره ونهيه وقبول ما حكم به وقضى عليه.

فالإيمان بالله وطاعته مورد هما نفس الدين والتشريع به، والإيمان بالرسول وطاعته مورد هما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به و ما حكم به وقضى عليه في المنازعات والانقياد له في ذلك كله.

فبين الإيمانين والطاعتين فرق ما من حيث سعه المورد وضيقه، ويشير إلى ذلك ما في العبارة من نوع من التفصيل حيث قيل «آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ» فاشير إلى تعدد الإيمان

و الطاعه و لم يقل: آمنا بالله و الرسول بحذف الباء، و الإيمان مع ذلك متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، قال تعالى: وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ (النساء ١٥٠).

فقوله: وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا أَى عقدنا القلوب على دين الله و تشرعنا به و على أن الرسول لا يخبر إلا بالحق و لا يحكم إلا بالحق.

و قوله: ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَى ثم يعرض طائفه من هؤلاء القائلين «آمنا بالله وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا» عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلك.

و قوله: وَ مِمَّا أَوْلَيْتَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ أَى ليس أولئك القائلون بالمؤمنون، و المشار اليه باسم الإشارة القائلون جميعا لا خصوص الفريق المتولين على ما يعطيه السياق لأن الكلام مسوق لذم الجميع.

قوله تعالى: وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ يشهد سياق الآيه أن الآيات إنما نزلت فى بعض من المنافقين دعوا الى حكم النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى منازعه وقعت بينه و بين غيره فأبى الرجوع الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و فى ذلك نزلت الآيات.

و النبي صلى الله عليه و آله و سلم إنما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ (النساء ١٠٥). فللحكم نسبة اليه بالمباشره و نسبة الى الله سبحانه من حيث كان الحكم فى ضوء شريعته و بنصبه النبي صلى الله عليه و آله و سلم للحكم و القضاء.

و بذلك يظهر أن المراد بالدعوه الى الله ليحكم بينهم هى الدعوه الى المتابعه لما يقتضيه شرعه تعالى فى مورد النزاع، و بالدعوه الى رسوله ليحكم بينهم هى الدعوه الى متابعه ما يقضى عليه بالمباشره، و أن الظاهر أن ضمير «لِيَحْكُمَ» للرسول، و إنما أفرد الفاعل و لم يثن إشارة الى أن حكم الرسول حكمه تعالى.

و الآيه بالنسبه إلى الآيه السابقه كالخاص بالنسبه إلى العام فهي تقصّ إعراضنا معينا منهم و الإعراض المذكور فى الآيه السابقه منهم إعراض مطلق.

قوله تعالى: وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ الإذعان الانقياد، و ظاهر السياق و خاصه قوله: «يَأْتُوا إِلَيْهِ» أن المراد بالحق حكم الرسول بدعوى أنه حتى لا- ينفك عنه، و المعنى و إن يكن الحق الذى هو حكم الرسول لهم لا- عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلا لكونه عليهم لا لهم، و لازم ذلك أنهم يتبعون الهوى و لا يريدون اتباع الحق.

قوله تعالى: أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الحيف الجور.

و ظاهر سياق الآيات أن المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما فى قوله تعالى: فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ (الأحزاب ٧٣)، و قوله: لَيْسَ لَمْ يَنْتَه الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ (الأحزاب ٦٠)، و غير ذلك من الآيات.

و أما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسّر به فيدفعه قوله فى صدر الآيات: «وَمَا أُؤَلِّتُكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» فإنه حكم بنفاقهم، و لا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله: «بَلْ أُؤَلِّتُكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» .

و قوله: أَمْ ارْتَابُوا ظاهر إطلاق الارتياب و هو الشكّ أن يكون المراد هو شكهم فى دينهم بعد الإيمان دون الشك فى صلاحيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم للحكم أو عدله و نحوه ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجه الى بيان بنصب قرينه.

و قوله: أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ أَى أم يعرضون عن ذلك لأنهم يخافون أن يجور الله عليهم و رسوله لكون الشريعة الإلهيه التى يتبعها حكم النبي صلى الله عليه و آله و سلم

مبتيه على الجور و إمامته الحقوق الحقه، أو لكون النبي صلى الله عليه و آله و سلم لا يراعى الحق فى قضائه.

وقوله: بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إضراب عن التردد السابق بشقوقه الثلاثة و ذلك أن سبب إعراضهم لو كان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا اليه مذعنين على تقدير كون الحق لهم بل كانوا يعرضون كان الحق لهم أو عليهم، و أما الخوف من أن يحيف الله عليهم و رسوله فلا- موجب له فالله برىء من الحيف و رسوله فليس إعراضهم عن إجابته الدعوه إلى حكم الله و رسوله إلا لكونهم حق عليهم أنهم ظالمون.

و الظاهر أن المراد بالظلم التعدى عن طور الإيمان مع الإقرار به قولاً كما قال آنفاً: «وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» أو خصوص التعدى الى الحقوق غير المالیه، و لو كان المراد مطلق الظلم لم يصح الإضراب عن الشقوق الثلاثة السابقة اليه لأنها من مطلق الظلم و يدل عليه أيضاً الآيه التاليه.

قوله تعالى: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا إلى آخر الآيه؛ سياق قوله: «إنما قول المؤمنين» و قد أخذ فيه «كان» و وصف الإيمان فى «المؤمنين» يدل على أن ذلك من مقتضيات طبيعه الإيمان فإن مقتضى الإيمان بالله و رسوله و عقد القلب على اتباع ما حكم به الله و رسوله التلبيه للدعوه الى حكم الله و رسوله دون الرد.

و على هذا فالمراد بقوله: «إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» دعوه بعض الناس ممن ينازعهم كدعوه بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر الى التحاكم الى الله و رسوله ليحكم بينهم، و يدل عليه تصدير الجمله بلفظه «إذا» و لو كان المراد به دعوه الله و رسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين فى منازعاتهم الى حكم الله و رسوله كان ذلك حكماً مؤبداً لا حاجه فيه الى التقييد بالزمان.

و قد ختمت الآيه بقوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» و فيه قصر الفلاح فيهم لا قصرهم فى

قوله تعالى: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ورود الآية في سياق الآيات السابقة و انضمامها الى سابقتها يعطى أنها في مقام التعليل - كالكبرى الكليه - للآيه السابقه حيث حكمت بفلاح من أجب الدعوه الى حكم الله و رسوله بالسمع و الطاعه بقيد الإيمان كأنه قيل: إنما أفلح من أجب الى حكم الله و رسوله و هو مؤمن لأنه مطيع لله و لرسوله و هو مؤمن حقاً في باطنه خشيه الله و في ظاهره تقواه و من يطع الله و رسوله فيما قضى عليه و يخش الله و يتقه فاولئك هم الفائزون، و الفوز هو الفلاح.

و تشمل الآية الداعى الى حكم الله و رسوله من المتنازعين كما يشمل المدعو منهما إذا أجب بالسمع و الطاعه ففيها زياده على تعليل حكم الآيه السابقه تعميم الوعد الحسن للداعى و المدعو جميعاً.

قوله تعالى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الجهد الطاقه، و التقدير فى قوله: «أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ» أقسموا بالله مبلغ جهدهم فى أيمانهم و المراد أقسموا بأغلظ أيمانهم.

و الظاهر أن المراد بقوله: «لَيَخْرُجْنَ» الخروج الى الجهاد على ما وقع فى عدّه من الآيات كقوله: وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَانَهُمْ فَتَبَطَّهْمُ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا (التوبه ٤٧).

و قوله: قُلْ لَا تُقْسِمُوا نهى عن الإقسام، و قوله: «طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ» خير لمبتدئ محذوف هو الضمير الراجع الى الخروج و بالجملة فى مقام التعليل للنهى عن الإقسام و لذا جىء بالفصل، و قوله: «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» من تمام التعليل.

و معنى الآية: و أقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج الى الجهاد ليخرجن قل لهم: لا تقسموا فالخروج الى الجهاد طاعه معروفه من الدين - و هو واجب لا حاجه الى إيجابه

بيمين مغلظ-و إن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله و رسوله بذلك فالله خبير بما تعملون لا يغره إغلاظكم فى الأيمان.

قوله تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ الى آخر الآيه؛ أمر بطاعه الله فيما أنزل من الدين، و أمر بطاعه الرسول فيما يأتيهم به من ربهم و يأمرهم به فى أمر دينهم و دنياهم، و تصدير الكلام بقوله: «قُلْ» إشاره الى أن الطاعه جميعا لله، و قد أكده بقوله: «وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» دون أن يقول: و أطيعونى لأن طاعه الرسول بما هو طاعه الرسول طاعه المرسل، و بذلك تتم الحججه.

و لذلك عقب الكلام:

أولا بقوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ أى فإن تتولوا و تعرضوا عن طاعه الرسول لم يضر ذلك الرسول فإنما عليه ما حمّل من التكليف و لا- يمسيكم منه شىء و عليكم ما حمّلت من التكليف و لا- يمسه منه شىء فإن الطاعه جميعا لله سبحانه.

و ثانيا بقوله: وَ إِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا أى و إن كان لكل منكم و منه ما حمّل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأن ما يجىء به اليكم و ما يأمركم به من الله و بأمره، و الطاعه لله و فيه الهدايه.

و ثالثا بقوله: وَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا- الْبَلَاغُ الْمُبِينُ و هو بمنزله التعليل لما تقدّمه أى إن ما حمّله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلّغ، و إذ كان رسولا لم يحتمل إلا التبليغ فطاعته طاعه من أرسله و فى طاعه من أرسله و هو الله سبحانه اهتداؤكم.

قوله تعالى: وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الى آخر الآيه.

ظاهر وقوع الآيه موقعها أنها نزلت في ذيل الآيات السابقه من السوره و هي مدنيه و لم تنزل بمكه قبل الهجره على ما يؤيده سياقها و خاصه ذيلها.

فالآيه-على هذا-وعد جميل للذين آمنوا و عملوا الصالحات أن الله تعالى سيجعل لهم مجتمعا صالحا يخص بهم فيستخلفهم في الأرض و يمكن لهم دينهم و يبدلهم من بعد خوفهم أمنا لا يخافون كيد منافق و لا صد كافر يعبدونه لا يشركون به شيئا.

فقوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فِيهِ تَبَعِيضِيهِ لَا بَيَانِيهِ وَالْخَطَابُ لِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ وَ فِيهِمُ الْمَنَاقِقُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ فِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ وَ مَنْ لَا يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ، وَ الْوَعْدُ خَاصٌ بِالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مُحَضًّا.

و قوله: لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِنْ كَانَ الْمَرَادُ بِالْاِسْتِخْلَافِ إِعْطَاءَ الْخِلَافَةِ الْإِلَهِيَةِ كَمَا وَرَدَ فِي آدَمَ وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قَالَ تَعَالَى:

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره ٣٠)، و قَالَ: يَا دَاوُدُ إِذَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ (ص ٢٦)، و قَالَ: وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ (النمل ١٦)، فَالْمَرَادُ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ خُلَفَاءَ اللَّهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَ أَوْلِيَائِهِ وَ لَا يَخْلُو مِنْ بَعْدِ كَمَا سَيَأْتِي.

و إِنْ كَانَ الْمَرَادُ بِهِ إِبْرَاطِ الْأَرْضِ وَ تَسْلِيْطِ قَوْمٍ عَلَيْهَا بَعْدَ قَوْمٍ كَمَا قَالَ: إِنْ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف ١٢٨)، و قَالَ: أَنْ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (الأنبياء ١٠٥)، فَالْمَرَادُ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّمِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ وَ الْفَاسِقِينَ مِنْهُمْ وَ نَجَّى الْخُلَصَّ مِنْ مُؤْمِنِيهِمْ كَقَوْمِ نُوحٍ وَ هُودٍ وَ صَالِحٍ وَ شَعِيبٍ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعْرِوْدَنَّ فِي مَلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَ لَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ (إبراهيم ١٤)، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا لِلَّهِ

فَنَجَّاهُمْ فَعَقَدُوا مَجْتَمَعًا صَالِحًا وَعَاشُوا فِيهِ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ.

وقوله: «وَلَيَمَكَّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ» تمكين الشيء إقراره في مكان وهو كناية عن ثبات الشيء من غير زوال واضطراب و تزلزل بحيث يؤثر أثره من غير مانع ولا- حاجز فتمكن الدين هو كونه معمولاً- به في المجتمع من غير كفر به و استهانه بأمره، و مأخوذاً باصول معارفه من غير اختلاف و تخاصم و قد حكم الله سبحانه في مواضع من كلامه أن الاختلاف في الدين بغى المختلفين كقوله: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ» (البقره ٢١٣).

و المراد بدينهم الذي ارتضى لهم دين الإسلام، و أضاف الدين اليهم تشريفاً لهم و لكونه من مقتضى فطرتهم.

وقوله: «وَلَيَبْدِلَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا» هو كقوله: «وَلَيَمَكَّنَنَّ لَهُمْ» عطف على قوله: «لَيَسِّرَنَّ تَخْلِفَنَّهُمْ» و أصل المعنى: و ليبدلن خوفهم أماً فنسبه التبديل اليهم إما على المجاز العقلي أو على حذف مضاف يدل عليه قوله: «مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ» و التقدير و ليبدلن خوفهم، أو كون «أمناً» بمعنى: آمين.

و المراد بالخوف على أى حال، ما كان يقاسيه المؤمنون في صدر الإسلام من الكفار و المنافقين.

وقوله: «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا الْأَوْفَقَ» بالسياق أن يكون حالاً من ضمير «وَلَيَبْدِلَنَّ لَهُمْ» أى و ليبدلن خوفهم أماً في حال يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً.

وقوله: «وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» ظاهر السياق كون «ذَلِكَ» إشارة الى الموعود و الأنسب على ذلك كون «كَفَرَ» من الكفران مقابل الشكر، و المعنى: و من كفر و لم يشكر الله بعد تحقق هذا الوعد بالكفر أو النفاق أو سائر المعاصى الموبقه فأولئك هم الفاسقون الكاملون فى الفسق و هو الخروج عن زى العبوديه.

و الذى يعطيه سياق الآيه الكريمه على ما تقدم من البحث بالتحرز عن المسامحات التى ربما يرتكبها المفسرون فى تفسير الآيات هو أن الوعد لبعض الامه لا- لجمعها و لا- لأشخاص خاصه منهم و هم الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات فالآيه نص فى ذلك، و لا قرينه من لفظ او عقل يدل على كونهم هم الصحابه أو النبى و أئمه أهل البيت عليهم الصلاه و السلام، و لا على أن المراد بالذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات جميع الامه و إنما صرف الوعد الى طائفه خاصه منهم تشريفا لهم أو لمزيد العناية بهم فهذا كله تحكّم من غير وجه.

و المراد باستخلافهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم يرثون الأرض كما ورثها الذين من قبلهم من الامم الماضين أولى القوه و الشوكه، و هذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختص به أشخاص منهم كما كان كذلك فى الذين من قبلهم، و أما إرادته الخلافه الإلهيه بمعنى الولايه على المجتمع كما كان لداود و سليمان و يوسف عليهم السلام و هى السلطنه الإلهيه فمن المستبعد أن يعبر عن أنبيائه الكرم بلفظ «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» و قد وقعت هذه اللفظه أو ما بمعناها فى أكثر من خمسين موضعا من كلامه تعالى و لم يقصد و لا فى واحد منها الأنبياء الماضون مع كثره ورود ذكرهم فى القرآن، نعم ذكرهم الله بلفظ «رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ» أو «رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي» أو نحوهما بالإضافة الى الضمير الراجع الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و المراد بتمكين دينهم الذى ارتضى لهم كما مرّ ثبات الدين على ساقه بحيث لا يزلزله اختلافهم فى أصوله، و لا مساهلتهم فى إجراء أحكامه، و العمل بفروعه و خلوص المجتمع من وصمه النفاق فيه.

و المراد من تبديل خوفهم أمنا انبساط الأمن و السلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدوا فى داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهرا أو مستخفيا على دينهم أو دنياهم.

قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تُزَحْمُونَ مناسبه مضمون الآيه لما سيقّت لبيانه الآيات السابقه تعطى أنها من تمامها.

فقوله: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» أمر في الحقيقه بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده، و تخصيص الصلاه و الزكاه بالذكر لكونهما ركنين في التكليف الراجعه الى الله تعالى و الى الخلق، وقوله: «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» إنفاذ لولايته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في القضاء و الحكمه.

وقوله: لَعَلَّكُمْ تُزَحْمُونَ تعليل للأمر بما في المأمور به من المصلحه، والمعنى-على ما يعطيه السياق-:أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمه الإلهيه فينجز لكم وعده أو يعجل لكم إنجازه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين و عموم الصلاح و الاتفاق على كلمه الحق مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدّر عليهم بكل خير.

قوله تعالى: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلِبِئْسَ الْمَصِيرُ من تمام الآيات السابقه، وفيها تأكيد ما مرّ من وعد الاستخلاف في الأرض و تمكين الدين و تبديل الخوف أمانا.

يخاطب تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد الوعد-بخطاب مؤكّد-أن لا يظن أن الكفار معجزون لله في الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوه و الشوكه من أن ينجز وعده، وهذا في الحقيقه بشرى خاصه بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بما أكرم به أمته و أن أعداءه سينهزمون و يغلبون و لذلك خصّه بالخطاب على طريق الالتفات.

و لكون النهي المذكور في معنى أن الكفار سينتهون عن معارضه الدين و أهله عطف عليه قوله: «وَمَا يُؤْمِنُ إِلَّا الْإِسْلَامُ» الخ؛ كأنه قيل:هم مقهورون في الدنيا و مسكنهم النار في الآخره و بئس المصير (١).

ص: ٤٦٥

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ بِمَا عَصَوْا كَذَبُوا إِذْ يُنَادِيهِمْ لِكُلِّ أَلْفِيَاةٍ وَقَالَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسِّرُوا تَأْذِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسِيَعْنَ غَيْرَ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَيْسَ عَلَى الْمَاعِمِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ مَفَاتِحِهِ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُزْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ وَضَعِ الشِّيَابَ خَلْعَهَا وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ كَوْنِهِمْ عَلَىٰ حَالٍ رُبَّمَا لَا يَحِبُّونَ أَنْ يَرَاهُمْ عَلَيْهَا الْأَجْنِبِيُّ. وَالظَّهِيرَةُ وَقْتُ الظُّهْرِ، وَالْعَوْرَةُ السُّوَاءُ سَمِيَتْ بِهَا لَمَّا يَلْحَقُ الْإِنْسَانُ مِنْ انْكَشَافِهَا مِنَ الْعَارِ وَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا فِي الْآيَةِ مَا يَنْبَغِي سِتْرَهُ.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخ؛ تعقيب لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا﴾ الخ؛ القاضى بتوقف دخول البيت على الإذن و هو كالاستثناء من عمومه فى العبيد و الأطفال بأنه

يكفيهم الاستيذان ثلاث مرات في اليوم.

وقوله: «لَيْسَ تَأْذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» أى مروهم أن يستأذنوكم للدخول، وظاهر الذين ملكت أيمانكم العبيد دون الإماء و إن كان اللفظ لا يأبى عن العموم بعنايه التغليب، و به وردت الروايه كما سيجىء.

وقوله: وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ يعنى المميزين من الأطفال قبل البلوغ، و الدليل على تقييدهم بالتمييز قوله بعد: «ثَلَاثٌ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» .

وقوله: «ثَلَاثٌ مَرَاتٍ» أى كل يوم بدليل تفصيله بقوله: «مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ لِيَابِكُمْ مِنَ الظَّهْرِ - وَأَيُّ وَقْتِ الظَّهْرِ - وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ» و قد أشار الى وجه الحكم بقوله: «ثَلَاثٌ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» أى الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لا ينبغي بالطبع أن يطلع عليكم فيها غيركم.

وقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ» أى لا مانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان و لا لهم من أن لا يستأذنوكم فى غير هذه الأوقات، و قد أشار الى جهه نفي الجناح بقوله: «طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ» أى هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض للخدمه فالاستيذان كلما دخل حرج عاده فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث.

ثم قال: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ» أى أحكام دينه التى هى آيات داللة عليه «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» يعلم أحوالكم و ما تستدعيه من الحكم «حَكِيمٌ» يراعى مصالحكم فى أحكامه.

قوله تعالى: وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا الخ؛ بيان أن حكم الاستيذان ثلاث مرات فى الأطفال مغنياً بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم بأن بلغوا فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم و هو البالغون من الرجال و النساء الأحرار «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

قوله تعالى: وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛

القواعد جمع قاعده و هي المرأه التي قعدت عن النكاح فلا ترجوه لعدم الرغبه فى مباشرتها لكبرها،فقوله: «اللَّاتِي لَا يَزُجُونَ نِكَاحًا» وصف توضيحي،وقيل:هي التي يئست من الحيض،و الوصف احترازي.

و فى المجمع:التبرج إظهار المرأه من محاسنها ما يجب عليها ستره،و أصله الظهور و منه البرج البناء العالى لظهوره.

و الآيه فى معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب،و المعنى:و الكبائر المسننه من النساء فلا- بأس عليهن أن لا- يحتجن حال كونهن غير متبرجات بزينه.

وقوله: «وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ كُنَايَه عَنِ الْاِحْتِجَابِ أَى الْاِحْتِجَابِ خَيْرٌ لَهُنَّ مِنْ وَضْعِ الثِّيَابِ،و قوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» تعليل لما شرع بالاسمين أى هو تعالى سميع يسمع ما يسألنه بفطرتهن عليم يعلم ما يحتجن اليه من الأحكام.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ -الى قوله- أَوْ صِدْقِكُمْ ظاهراً الآيه أن فيها جعل حق للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو التي ائتمنوا عليها أو بيوت أصدقائهم فهم مأذونون فى أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف و إفساد.

فقوله: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ -الى قوله- وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فى عطف «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» على ما تقدمه دلالة على أن عدّ المذكورين ليس لاختصاص الحق بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحيانا و إلا فلا فرق بين الأعمى و الأعرج و المريض و غيرهم فى ذلك.

و قوله: مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ الخ؛فى عدّ «بُيُوتِكُمْ» مع بيوت الأقرباء و غيرهم إشاره الى نفي الفرق فى هذا الدين المبني على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بين

بيوتهم أنفسهم و بيوت أقربائهم و ما ملكوا مفاتحه و بيوت أصدقائهم.

على أن «بُيُوتِكُمْ» يشمل بيت الابن و الزوج كما وردت به الروايه، و قوله: «أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ» المفاتيح جمع مفتاح و هو المخزن، و المعنى: أو البيت الذى ملكتم أى تسلطتم على مخازنه التى فيها الرزق كما يكون الرجل قتيما على بيت أو وكيلا أو سلم اليه مفاتحه.

و قوله: أَوْ صَدِيقِكُمْ معطوف على ما تقدمه بتقدير بيت على ما يعلم من سياقه، و التقدير أو بيت صديقكم.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً الأشتات جمع شت و هو مصدر بمعنى التفرق استعمل بمعنى المتفرق مبالغه ثم جمع أو صنفه بمعنى المتفرق كالحق، و المعنى: لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين و بعضكم مع بعض أو متفرقين، و الآيه عامه و إن كان نزولها لسبب خاص كما روى.

و للمفسرين فى هذا الفصل من الآيه و فى الفصل الذى قبلها اختلافات شديده رأينا الصفح عن إيرادها و الغور فى البحث عنها أولى، و ما أوردناه من المعنى فى الفصلين هو الذى يعطيه سياقهما.

قوله تعالى: فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً الخ؛ لما تقدم ذكر البيوت فرع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً» .

فقوله: فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ المراد فسلموا على من كان فيها من أهلها و قد بدل من قوله: «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» للدلاله على أن بعضهم من بعض فإن الجميع إنسان و قد خلقهم الله من ذكر و أنثى على أنهم مؤمنون و الإيمان يجمعهم و يوحدهم أقوى من الرحم و أى شىء آخر.

و ليس ببعيد أن يكون المراد بقوله: «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» أن يسلم الداخل على أهل

البيت و يردوا السلام عليه.

□
و قوله: تَحِيَّهٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ أَى حال كون السلام تحيه من عند الله شرعها الله و أنزل حكمها ليحيى بها المسلمون و هو مبارك ذو خير كثير باق و طيب يلائم النفس فإن حقيقه هذه التحيه بسط الأمن و السلامه على المسلم عليه و هو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان.

□
ثم ختم سبحانه الآيه بقوله: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ» و قد مرّ تفسيره «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أَى تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل.

□
قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ذَكَرَ قَوْلَهُ: «الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» بيانا للمؤمنين على ظهور معناه للدلاله على اتصافهم بحقيقه لمعنى أَى إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله بحقيقه الإيمان و أيقنوا بتوحيده تعالى و اطمأنت نفوسهم و تعلقت قلوبهم برسوله.

□
و لذلك عقبه بقوله: «وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ» و الأمر الجامع هو الذى يجمع الناس للتدبر فى أطرافه و التشاور و العزم عليه كالحرب و نحوها.

و المعنى: و إذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الامور العامه لم يذهبوا و لم ينصرفوا من عند الرسول حتى يستأذنوه للذهاب.

□
و لذلك أيضا عقبه بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» و هو بمنزله عكس صدر الآيه للدلاله على الملازمه و عدم الانفكاك.

و قوله: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ تَخْيِيرَ مِنْهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ فَى أَنْ يَأْذِنَ لِمَنْ شَاءَ وَ لَا يَأْذِنَ لِمَنْ لَمْ يَشَأْ.

□
و قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَمْرٌ لَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ تَطْيِيبًا

لنفوسهم و رحمه بهم.

قوله تعالى: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، دعاء الرسول هو دعوته الناس الى أمر من الامور كدعوتهم الى الإيمان والعمل الصالح، و دعوتهم ليشاورهم في أمر جامع، و دعوتهم الى الصلاه جامعه، أو مرهم بشيء في أمر دنياهم أو أخراهم فكل ذلك دعاء و دعوه منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

و يشهد بهذا المعنى قوله ذيلا: «قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا» و ما يتلوه من تهديد مخالفى أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كما لا يخفى. و هو أنسب لسياق الآيه السابقه فإنها تمدح الذين يلتون دعوته و يحضرون عنده و لا يفارقونه حتى يستأذونه و هذه تدمم و تهدد الذين يدعوهم فيتسللون عنه لو اذا غير مهتمين بدعائه و لا معتنين.

و قوله: قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا التسلل: الخروج من البين برفق و احتيال من سلّ السيف من غمده، و اللواذ: الملاوذه و هو أن يلوذ الإنسان و يلتجئ الى غيره فيستتر به، و المعنى: أن الله يعلم منكم الذين يخرجون من بين الناس و الحال أنهم يلوذون بغيرهم و يسترون به فيصرفون فلا يهتمون بدعاء الرسول و لا يعتنون به.

و قوله: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ظاهر سياق الآيه بما تقدم من المعنى أن ضمير «عَنْ أَمْرِهِ» للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هو دعاؤه، ففى الآيه تحذير لمخالفى أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و دعوته من أن تصيبهم فتنه و هى البليهه أو يصيبهم عذاب أليم.

قوله تعالى: أَلَا - إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ اخْتِامَ لِسُورِهِ نَاطِرَ إِلَى قَوْلِهِ فِي مَفْتَحِهَا: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» فما فى مختمها كالتعليل لما فى مفتحتها.

فقوله: أَلَا - إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بيان لعموم الملك و أن كل شيء

مملوك لله سبحانه قائم به فهي معلومه له بجميع خصوصيات وجودها فيعلم ما تحتاج اليه، و الناس من جمله ما يعلم بحقيقه حاله و ما يحتاج اليه فالذى يشرعه لهم من الدين مما يحتاجون اليه في حياتهم كما أن ما يرزقهم من المعيشه مما يحتاجون اليه في بقائهم.

فقوله: قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ -أى من حقيقه الحال المنبئه عن الحاجه- بمنزله النتيجة المترتبه على الحجه أى ملكه لكم و لكل شىء يستلزم علمه بحالكم و بما يحتاجون اليه من شرائع الدين فيشرعه لكم و يفرضه عليكم.

و قوله: وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ معطوف على قوله: «مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» أى و يعلم يوما يرجعون اليه و هو يوم القيامه فيخبرهم بحقيقه ما عملوا و الله بكل شىء عليم.

و فى هذا الدليل حث على الطاعه و الانقياد لما شرعه و فرضه من الأحكام و العمل به من جهه أنه سيخبرهم بحقيقه ما عملوا به كما أن فى الصدر حثا على القبول من جهه أن الله إنما شرعها لعلمه بحاجتهم إليها و أنها التى ترفع بها حاجتهم (1).

ص: ٤٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (۱) الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (۲) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (۳)

غرض السوره بيان أن دعوه النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوه حقه عن رساله من جانب الله تعالى و كتاب نازل من عنده و فيها عنايه بالغه بدفع ما أورده الكفار على كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم رسولا من جانب الله و كون كتابه نازلا من عنده و رجوع اليه كره بعد كره.

وقد استتبع ذلك شيئاً من الاحتجاج على التوحيد و نفى الشريك و ذكر بعض أوصاف يوم القيامة و ذكر نبذه من نعوت المؤمنين الجميله، و الكلام فيها جار على سياق الإنذار و التخويف دون التبشير.

و السوره مكيه على ما يشهد به سياق عامه آياتها نعم ربما استثنى منها ثلاث آيات و هى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ -الى قوله- غَفُورًا رَحِيمًا» .

و لعل الوجه فيه اشتمالها على تشريع حرمه الزنا لكنك قد عرفت فيما أوردناه من أخبار آيه الخمر من سوره المائده أن الزنا و الخمر كانا معروفين بالتحريم فى الإسلام من أول ظهور الدعوه الإسلاميه.

قوله تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا البركه بفتحين ثبوت الخير فى الشىء كثبوت الماء فى البركه بالكسر فالسكون مأخوذ من برك البعير إذا ألقى صدره على الأرض و استقرّ عليها، و منه التبارك بمعنى ثبوت الخير الكثير و فى صيغته دلالة على المبالغه على ما قيل، و هو كالمختص به تعالى لم يطلق على غيره إلا على سبيل الندره.

و الفرقان هو الفرق سمى به القرآن لنزول آياته متفرقه أو لتمييزه الحق من الباطل و يؤيد هذا المعنى إطلاق الفرقان فى كلامه تعالى على التوراه أيضاً مع نزولها دفعه، قال الراغب فى المفردات: و الفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل فى الفرق بين الحق و الباطل، و تقديره كتقدير رجل قنعان يقنع به فى الحكم، و هو اسم لا مصدر فيما قيل، و الفرق يستعمل فيه و فى غيره.

انتهى.

و العالمون جمع عالم و معناه الخلق قال فى الصحاح: العالم الخلق و الجمع العوالم، و العالمون أصناف الخلق انتهى. و اللفظه و إن كانت شامله لجميع الخلق من الجماد و النبات و الحيوان و الإنسان و الجن و الملك لكن سياق الآيه -و قد جعل فيها الإنذار غايه لتنزيل القرآن- يدل

على كون المراد بها المكلفين من الخلق وهو الثقلان: الإنس و الجن فيما نعلم.

و بذلك يظهر عدم استقامه ما ذكره بعضهم أن الآيه تدل على عموم رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لجميع ما سوى الله فإن فيه غفله عن وجه التعبير عن رساله بالإنذار و نظير الآيه قوله تعالى:

وَ اضْطَفَاكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (آل عمران ٤٢) و قوله: وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (الجاثية ١٦).

و النذير بمعنى المنذر على ما قيل، و الإنذار قريب المعنى من التخويف.

فقوله تعالى: «بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ» أى ثبت و تحقق خير كثير فيمن نزل الفرقان على عبده محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم، و ثبوت الخير الكثير العائد الى الخلق فيه تعالى كناية عن فيضانه منه على خلقه حيث نزل على عبده كتابا فارقا بين الحق و الباطل منقذا للعالمين من الضلال سائقا لهم الى الهدى.

و الجمع فى الآيه بين نزول القرآن من عنده تعالى و كون النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم رسولا منه نذيرا للعالمين مع تسميه القرآن فرقانا بين الحق و الباطل و توصيف النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بكونه عبدا له نذيرا للعالمين المشعر بكونه مملوكا مأمورا لا- يملك من نفسه شيئا كل ذلك تمهيد لما سيحكى عن المشركين من طعنهم فى القرآن بأنه افتراء على الله اختلقه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و أعانه على ذلك قوم آخرون، و من طعنهم فى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بأنه يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق و سائر ما تفوهوا به- و ما يدفع به مطاعنهم.

فالمحصّل أنه كتاب يفرّق بحجته الباهره بين الحق و الباطل فلا يكون إلا حقا إذ الباطل لا يفرّق بين الحق و الباطل و إنما يشبهه الباطل بالحق ليلبس على الناس، و أن الذى جاء به عبد مطيع لله ينذر به العالمين و يدعوهم الى الحق فلا يكون إلا على الحق و لو كان مبطلا لم يدع الى الحق بل حاد عنه و انحرف على أن الله سبحانه يشهد فى كلامه المعجز بصدق رسالته و أن الذى جاء به من الكتاب منزل من عنده.

وقوله تعالى: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا اللام للتعليل و تدل على أن غايه تنزيل الفرقان على عبده أن يكون منذرا لجميع العالمين من الإنس و الجن، و الجمع المحلّى باللام يفيد الاستغراق، و لا يخلو الإتيان بصيغه الجمع المحلّى باللام من إشاره الى أن للجميع إليها واحدا لا كما يذهب اليه الوثنيون حيث يتخذ كل قوم إليها غير ما يتخذه الآخرون.

و الاكتفاء بذكر الإنذار دون التبشير لأن الكلام فى السوره مسوق سوق الإنذار و التخويف.

قوله تعالى: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الملك بكسر الميم و فتحها قيام شىء بشىء بحيث يتصرف فيه كيف شاء سواء كان قيام رقبته به كقيام رقبه المال بمالكة بحيث كان له أنواع التصرف فيه أو قيامه به باستيلائه عليه بالتصرف بالأمر و النهى و أنواع الحكم كاستيلاء الملك على الناس من رعيته و ما فى أيديهم، و يطلق على القسم الثانى الملك بضم الميم.

فالملك بكسر الميم أعم من الملك بضمها كما قال الراغب الملك-بفتح الميم و كسر اللام- هو المتصرف بالأمر و النهى فى الجمهور، و ذلك يختص بسياسه الناطقين، و لهذا يقال: ملك الناس و لا يقال: ملك الأشياء-الى أن قال-فالملك بالضم-ضبط الشىء المتصرف فيه بالحكم، و الملك-بالكسر- كالجنس للملك فكل ملك-بالضم-ملك بالكسر- و ليس كل ملك-بالكسر- ملكا-بالضم-انتهى.

و ربما يخص الملك بالكسر بما يتعلق بالرقبه، و الملك بالضم بغيره.

فقوله تعالى: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ و اللام للاختصاص-يفيد أن السماوات و الأرض مملوكه له غير مستقله بنفسها فى جهه من جهاتها و لا- مستغنيه عن التصرف فيها بالحكم و أن الحكم فيها و إداره رحاها يختص به تعالى فهو الملك المتصرف بالحكم فيها على الإطلاق.

و بذلك يظهر ترتب قوله: «وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا» على ما تقدمه فإن الملك على الإطلاق لا يدع حاجه الى اتخاذ الولد إذ اتخاذ الولد لأحد أمرين إما لكون الشخص لا يقوى على إداره رحي جميع أموره و لا يملك تدبيرها جميعا فيتخذ الولد ليستعين به على بعض حوائجه و الله سبحانه يملك كل شيء و يقوى على ما أراد، و إما لكون الشخص محدود البقاء لا يملك ما يملك إلا في أمد محدود فيتخذ الولد ليخلفه فيقوم على أموره بعده و الله سبحانه يملك كل شيء سرمدًا و لا يعتريه فناء و زوال فلا حاجه له الى اتخاذ الولد البتة و فيه رد على المشركين و النصارى.

و كذا قوله تعالى بعده: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ» فان الحاجه الى الشريك إنما هي فيما إذا لم يستوعب الملك الامور كلها و ملكه تعالى عام لجميع الأشياء محيط بجميع جهاتها لا يشذ منه شاذ، و فيه رد على المشركين.

و قوله تعالى: «وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا بَيَانًا لِرُجُوعِ تَدْبِيرِ عَامِهِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَحْدَهُ بِالْخَلْقِ وَ التَّقْدِيرِ فَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

قوله تعالى: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ الْخ»؛ لما نعت نفسه بأنه خالق كل شيء و مقدره و أن له ملك السماوات و الأرض و هكذا كان يجب أن يكون الإله المعبود، أشار الى ضلاله المشركين حيث عبدوا أصناما ليست بخالقه شيئًا بل هي مخلوقه مصنوعه لهم و لا مالكة شيئًا لأنفسهم و لا لغيرهم.

و ضمير «وَ اتَّخَذُوا» للمشركين على ما يفيد السياق و إن لم يسبق لهم ذكر و مثل هذا التعبير يفيد التحقير و الاستهان.

و قوله: «مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ» يريد به أصنامهم التي صنعوها بأيديهم بنحت او نحوه، و توصيفها بالآلهه مع تعقيبها بمثل قوله: «لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ» إشاره الى أن ليس لها من الالهيه إلا اسم سمّوها به من غير أن تتحقق من

حقيقتها بشيء كما قال تعالى: **إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ (النجم ٢٣).**

و وضع النكره فى قوله: «**لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا**» فى سياق النفى مبالغه فى تفريعهم حيث أعرضوا عن الله سبحانه و هو خالق كل شىء و تعلقوا بأصنام لا يخلقون و لا شيئاً من الأشياء بل هم أبدأً حالاً من ذلك حيث إنهم مصنوعون لعبادهم مخلوقون لأوھامهم، و نظير الكلام جار فى قوله: «**ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا**» و قوله: «**مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا**» .

و قوله: «**وَ لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا** نفى للملك عنهم و هو ضرورى فى الإله إذ كان عبادهم إنما يعبدونهم ليدفعوا عنهم الضر و يجلبوا إليهم النفع و إذ كانوا لا يملكون ضرا و لا نفعا حتى لأنفسهم لم تكن عبادتهم إلا خبلا و ضلالا.

و بذلك يظهر أن فى وقوع «**لِلنَّفْسِهِمْ**» فى السياق زياده تفریع و الكلام فى معنى الترقى أى لا يملكون لأنفسهم ضرا حتى يدفعوه و لا نفعا حتى يجلبوه فكيف لغيرهم؟ و قد قدّم الضر على النفع لكون دفع الضر أهم من جلب النفع.

و قوله: «**وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا** أى لا يملكون موتا حتى يدفعوه عن عبادهم او عمن شاءوا و لا حياه حتى يسلبوها عمن شاءوا او يفيضوها على من شاءوا و لا- نشورا حتى يبعثوا الناس فيجازوهم على أعمالهم، و ملك هذه الامور من لوازم الالوهيه.

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤ الى ٢٠]

اشاره

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا **إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَ زُورًا (٤)** وَ قَالُوا **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** **إِكْتَسَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أُصِيلًا (٥)** **قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦)** وَ قَالُوا **مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧)** **أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَ قَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسِيحُورًا (٨)** **أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩)** **بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ يَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠)** **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١)** **إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا (١٢)** **وَ إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣)** **لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَ ادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤)** **قُلْ أَذِلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا (١٥)** **لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤْنَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)** **وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)** **قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨)** **فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صِرْفًا وَ لَا نَصْرًا وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُدْفَهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)** **وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تُصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)**

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ الخ؛ في التعبير بمثل قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» من غير أن يقال: وقالوا: مع تقدم ذكر الكفار في قوله: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً» تلويح الى أن القائلين بهذا القول هم كفار العرب دون مطلق المشركين.

والمشار اليه بقولهم: «إِنَّ هَذَا» القرآن الكريم، وإنما اكتفوا بالإشارة دون أن يذكره باسمه أو بشيء من أوصافه ازدراء به و حطا لقدره.

و الإفك هو الكلام المصروف عن وجهه، و مرادهم بكونه إفكا افتراء كونه كذبا اختلقه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم وَ نسبه الى الله سبحانه.

و السياق لا- يخلو من إيماء الى أن المراد بالقوم الآخريين بعض أهل الكتاب و قد ورد في بعض الآثار أن القوم الآخريين هم عداس مولى حويطب بن عبد العزى و يسار مولى العلاء بن الحضرمي و جبر مولى عامر كانوا من أهل الكتاب يقرءون التوراه أسلموا و كان

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتعهدهم فقيلاً ما قيل.

وقوله: فَقَدْ جَاؤُ ظُلْمًا وَ زُورًا قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: إِنْ جَاءَ وَ أَتَى رَبَّمَا كَانَا بِمَعْنَى فَعَلَ فَيَتَعَدَّيَانِ مِثْلَهُ فَعْنَى الْآيَةِ فَقَدْ فَعَلُوا ظُلْمًا وَ كَذِبًا، وَ قِيلَ: إِنْ ظَلَمْنَا مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ وَ التَّقْدِيرِ فَقَدْ جَاءُوا بِظُلْمٍ، وَ قِيلَ: حَالٌ وَ التَّقْدِيرِ فَقَدْ جَاءُوا ظَالِمِينَ وَ هُوَ سَخِيفٌ.

وَ فِيهِ أَيْضًا: وَ مَتَى قِيلَ: كَيْفَ اكْتَفَى بِهَذَا الْقَدْرِ مِنْ جَوَابِهِمْ؟ قُلْنَا: لَمَّا تَقَدَّمَ التَّحْدِي وَ عَجَزَهُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ اكْتَفَى هَاهُنَا بِالتَّنْبِيهِ عَلَى ذَلِكَ. انْتَهَى وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْجَوَابَ عَنْ قَوْلِهِمْ: «إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أَفْتَرَاهُ» السَّخُّ؛ وَ قَوْلِهِمْ: «أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَّهَا» السَّخُّ؛ جَمِيعًا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ» السَّخُّ؛ عَلَى مَا سَنَبِّينُ وَ الْجَمْلَةُ أَعْنَى قَوْلِهِ: «فَقَدْ جَاؤُ ظُلْمًا وَ زُورًا» رَدَ مَطْلَقَ لِقَوْلِهِمْ وَ هُوَ فِي مَعْنَى الْمَنْعِ مَعَ السَّنَدِ وَ سَنَدُهُ الْآيَاتُ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى التَّحْدِي.

وَ بِالْجَمْلَةِ مَعْنَى الْآيَةِ: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْعَرَبِ لَيْسَ هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا كَلَامًا مَصْرُوفًا عَنْ وَجْهِهِ—حَيْثُ إِنَّهُ كَلَامُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ قَدْ نَسَبَهُ إِلَى اللهِ—افْتَرَى بِهِ عَلَى اللهِ وَ أَعَانَهُ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ قَوْمٌ آخَرُونَ وَ هُمْ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَدْ فَعَلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِقَوْلِهِمْ هَذَا ظُلْمًا وَ كَذِبًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ قَالَوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَّهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً الْأَسْطِيرُ جَمْعُ أُسْطُورِهِ بِمَعْنَى الْخَبْرِ الْمَكْتُوبِ وَ يَغْلِبُ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْأَخْبَارِ الْخُرَافِيَّةِ وَ الْاِكْتِتَابِ هُوَ الْكِتَابَةُ وَ نَسَبَتْهُ إِلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ كَوْنِهِ أَمِيًّا لَا يَكْتُبُ إِنَّمَا هِيَ بِنُوعٍ مِنَ التَّجْوِزِ كَكَوْنِهِ مَكْتُوبًا بِاسْتِدْعَاءِ مَنْهُ كَمَا يَقُولُ الْأَمِيرُ كَتَبْتُ إِلَى فُلَانٍ كَذَا وَ كَذَا وَ إِنَّمَا كَتَبَهُ كَاتِبُهُ بِأَمْرِهِ، وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَ: «فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً» إِذْ لَوْ كَانَ هُوَ الْكَاتِبُ لَمْ يَكُنْ مَعْنَى لِلْأَمَلَاءِ، وَ قِيلَ: الْاِكْتِتَابُ بِمَعْنَى الْاِسْتِكْتَابِ.

وَ الْاِمْلَاءُ إِلقاءُ الْكَلَامِ إِلَى الْمُخَاطَبِ بِلَفْظِهِ لِيَحْفَظَهُ وَ يَعْيَهُ أَوْ إِلَى الْكَاتِبِ لِيَكْتُبَهُ وَ الْمُرَادُ بِهِ فِي

الآية هو المعنى الأول لى ما يعطيه سياق «اكتسبها» فهي تملى عليه» إذ ظاهره تحقق الاكتساب دفعه و الإملاء تدريجاً على نحو الاستمرار فهي مكتوبه مجموعه عنده تقرأ عليه وقتاً بعد وقت و هو يعيها فيقرأ على الناس ما وعاه و حفظه.

و البكره و الأصيل الغداه و العشى، و هو كناية عن الوقت بعد الوقت، و قيل المراد أول النهار قبل خروج الناس من منازلهم و آخر النهار بعد دخولهم فى منازلهم و هو كناية عن أنها تملى عليه خفيه.

قوله تعالى: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً أمر للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم برد قولهم و تكذيبهم فيما رموا به القرآن أنه إفك مفترى و أنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه وقتاً بعد وقت.

و توصيفه تعالى بأنه يعلم السر أى خفيات الامور و بواطنها فى السماوات و الأرض للإيدان بأن هذا الكتاب الذى أنزله منطوق على أسرار مطويه عن عقول البشر، و فيه تعريض بمجازاتهم على جنایاتهم التى منها رميهم القرآن بأنه إفك مفترى و أنه من الأساطير و هو مما يعلمه تعالى.

و قوله: إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً تعليل لما هو المشاهد من إمهالهم و تأخير عقوبتهم على جنایاتهم و تكذيبهم للحق و جرأتهم على الله سبحانه.

و المعنى: قل إن القرآن ليس إفكاً مفترى و لا من الأساطير كما يقولون بل كتاب منزل من عند الله سبحانه ضمنه أسرار خفيه لا تصل الى كنهها عقولكم و لا تحيط بها أحلامكم، و رميكم إياه بالإفك و الأساطير و تكذيبكم لحقائقه جنایه عظيمه تستحقون بها العقوبه غير أن الله سبحانه أمهلکم و أخر عقوبه جنایتكم لأنه متصف بالمغفره و الرحمه و ذلك يستتبع تأخير العذاب، هذا ملخص ما ذكروه فى معنى الآية.

و فيه أن السياق لا يساعد عليه فإن محصل معنى الآية على ما فسروه يرجع الى رد دعوى

الكفار كون القرآن إفكا مفترى و من الأساطير بدعوى أنه منزل من عند الله منطو على أسرار خفيه لا سبيل لهم الى الوقوف عليها لا مساغ فى مقام المخاصمه لرد الدعوى بدعوى أخرى مثلها او هى أخفى منها.

على أن التعليل بقوله: «إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» إنما يناسب انتفاء العقوبه من أصلها دون الإمهال و التأخير و إنما المناسب للإمهال و التأخير من الأسماء هو مثل الحليم و العليم و الحكيم دون الغفور الرحيم.

و الأوفق لمقام المخاصمه و الدفاع بإبانه الحق و التعليل بالمغفره و الرحمه أن يكون قوله:

«إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» تعليلاً لإنزال الكتاب و قد ذكر قبل ذلك أنه أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيراً و هذه هى النبوه، و يكون حينئذ وصفه تعالى بعلم السر فى السماوات و الأرض للإيماء الى أن فى سرهم ما يستدعى شمول المغفره و الرحمه الإلهيتين لحالهم و هو طلبهم بفطرتهم و جبلتهم للسعاده و العاقبه الحسنى التى ليست حقيقتها إلا- السعاده الإنسانيه بشمول المغفره و الرحمه و إن أخطأ كثير منهم فى تطبيقها على التمتع بالحياه الدنيا و زيتها الدائره فيكون حجه برهانيه على حقيه الدعوه النبويه المشتمله عليها القرآن، و بطلان دعوى كونه إفكا من أساطير الأولين.

و تقرير الحجه أن الله سبحانه يعلم السر فى السماوات و الأرض و هو يعلم أن فى سرهم المستقر فى سرائركم المجبوله عليه فطرتكم حبا للسعاده و طلبا و انتزاعا للعاقبه الحسنى و حقيقتها فوز الدنيا و الآخره، و كان سبحانه غفورا رحيماً و مقتضى ذلك أن يجيبكم الى ما تسألونه فى سرهم و بلسان فطرتكم فيهدىكم الى سبيله التى تضمن لكم السعاده.

و هذا كتاب ينطق عليكم بسبيله فليس إفكا مفترى على الله و لا من قبيل الأساطير بل هو كتاب يتضمن ما تسألونه بفطرتكم و تستدعونه فى سرهم فإن استجبتم لداعيه شملتكم المغفره و الرحمه و إن توليتم حرمتكم ذلك فهو كتاب منزل من عند الله و لو لم يكن نازلاً من عنده

كما يخبر عنه لم يهد الى حقيقه السعاده و لم يدع الى محض الحق و لاختلفت بياناته فدعاكم تاره الى ما فيه خيركم و نفعكم و هو الذى يجلب اليكم المغفره و الرحمه، و تاره الى ما هو شر لكم و ضارّ و هو الذى يثير عليكم السخط الإلهى و يستوجب لكم العقوبه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسَىٰ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا هَذِهِ حكاية ما طعنوا به فى الرسول بعد ما حكى طعنهم فى القرآن بقوله:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ الخ.

و تعبيرهم عنه صلى الله عليه و آله و سلم بقولهم: ﴿لِهَذَا الرَّسُولِ﴾ مع تكذيبهم برسالته مبنى على التهكم و الاستهزاء.

و قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسَىٰ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ استفهام للتعجب و الوجه فيه أن الوثنيين يرون أن البشر لا يسوغ له الاتصال بالغيب و هو متعلق الوجود بالماده منغمر فى ظلماتها، و متلوث بقذاراتها، و لذا يتوسلون فى التوجه الى اللاهوت بالملائكة فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله و يقربوهم من الله زلفى فالملائكة هم المقربون عند الله المتصلون بالغيب المتعینون للرسالة لو كانت هناك رساله، و ليس للبشر شىء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر- كما قيل فهو من وضع الظاهر موضع المضمرة و وصفهم بالظلم للدلاله على بلوغهم فى الظلم و الاجترار على الله و رسوله.

و قولهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ الخ؛ خطاب منهم للمؤمنين تعبيراً لهم و إغواء عن طريق الحق، و مرادهم بالرجل المسحور النبى صلى الله عليه و آله و سلم يريدون أنه مسحور سحره بعض السحره فصار يخيل اليه أنه رسول يأتيه ملك الوحي بالرساله و الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

سَبِيلًا الْأَمْثَالَ الْأَشْبَاهِ وَرَبْمَا قِيلَ: إِنَّ الْمَثَلَ هُنَا بِمَعْنَى الْوَصْفِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (سوره محمد ١٥)، وَالمَحْصَلُ: انْظُرْ كَيْفَ وَصَفُوكَ فَضَلُّوا فِيكَ ضَلَالًا لَا يَرْجَى مَعَهُ اهْتِدَاؤُهُمْ إِلَى الْحَقِّ كَقَوْلِهِمْ إِنَّهُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ فَلَا يَصْلِحُ لِلرَّسَالَةِ لِأَنَّ الرَّسُولَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شَخْصًا غَيْبِيًّا لَا تَعَلَّقُ لَهُ بِالْمَادَةِ وَ لَا أَقْلَ مِنْ عَدَمِ احْتِيَاجِهِ إِلَى الْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ فِي تَحْصِيلِ الْمَعَاشِ، وَ كَقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ.

وَ قَوْلُهُ: فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَيْطِعُونَ سَبِيلًا أَى تَفَرَّعَ عَلَى هَذِهِ الْأَمْثَالَ الَّتِي ضَرَبُوهَا لَكَ أَنَّهُمْ ضَلُّوا ضَلَالًا لَا يَسْتَيْطِعُونَ مَعَهُ أَنْ يَرُدُّوا سَبِيلَ الْحَقِّ وَ لَا يَرْجَى لَهُمْ مَعَهُ الْاهْتِدَاءَ فَإِنَّ مِنْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ رَبْمَا أَخْطَأَهَا بِانْحِرَافٍ يَسِيرٍ يَرْجَى مَعَهُ رُكُوبَهَا ثَانِيًا، وَ رَبْمَا اسْتَدْبَرَهَا فَصَارَ كَلِمًا أَمْعَنَ فِي مَسِيرِهِ زَادَ مِنْهَا بَعْدًا، وَ مِنْ سَمَى كِتَابَ اللَّهِ بِالْأَسَاطِيرِ وَ وَصَفَ رَسُولَهُ بِالْمَسْحُورِ وَ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُ تَعَنُّتًا وَ لِحَاجَا وَ اسْتَهْزَاءً بِالْحَقِّ كَيْفَ يَرْجَى اهْتِدَاؤُهُ وَ حَالَهُ هَذِهِ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ يَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: «مِنْ ذَلِكَ» إِلَى مَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: «أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا» أَوْ إِلَى مَجْمُوعِ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْكُنْزِ وَ الْجَنَّةِ.

وَ الْقُصُورُ جَمْعُ قَصْرٍ وَ هُوَ الْبَيْتُ الْمَشِيدُ الْعَالِي، وَ تَنْكِيرُ «قُصُورًا» لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّعْظِيمِ وَ التَّفْخِيمِ.

وَ الْآيَةُ بِمَنْزِلَةِ الْجَوَابِ عَنِ طَعْنِهِمْ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ اقْتَرَحَهُمْ أَنْ يَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ أَوْ يَلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ يَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ غَيْرَ أَنْ فِيهَا التَّفَاتَا مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبِ فَلَمْ يَقُلْ: قُلْ إِنْ شَاءَ رَبِّي جَعَلَ لِي كَذَا وَ كَذَا بَلْ عَدَلَ إِلَى قَوْلِهِ: «بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ الْخ».

وَ فِيهِ تَلْوِيحٌ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ جَوَابًا وَ لَا يَصْلِحُونَ لِأَنَّ يَخَاطَبُوا لِأَنَّهُمْ عَلَى عِلْمِ بِنَفْسَادِ مَا اقْتَرَحُوا بِهِ عَلَيْهِ فَالْنَبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمْ يَذْكَرْ لَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ يُوْحَى إِلَيْهِ، وَ لَمْ يَدَّعِ أَنْ لَهُ قَدْرٌ

غيبه و سلطنه إلهيه على كل ما يريد أو يراد منه، كما قال تعالى بعد ما حكى بعض اقتراحاتهم فى سورة الإسراء: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء ٩٣).

فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم و عن الجواب عما اقترحوه، و انما ذكر لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن ربه الذى اتخذه رسولا و أنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرا قادر على أعظم ما يقترحونه فإن شاء جعل له خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار، و يجعل له قصورا لا- يبلغ وصفها و اصف و ذلك خير من أن يكون له جنه يأكل منها أو يلقي اليه كنز ليصرفه فى حوائجه.

و بهذا المقدار يتحصل جوابهم فيما اقترحوه من الكنز و الجنه، و أما نزول الملك اليه ليشاركه فى الانذار و يعينه على التبليغ فلم يذكر جواب عنه لظهور بطلانه، و قد أجاب تعالى عنه فى مواضع من كلامه بأجوبه مختلفه كقوله: وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلْبَشَرِئْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلَبِّسُونَ (الأنعام ٩)، و قوله: قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (الإسراء ٩٥)، و قوله: مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (الحجر ٨)، و قد تقدم تقرير حجه كل من الآيات فى ضمن تفسيرها.

و من هنا يظهر أن المراد بجعل الجنات و القصور له صلى الله عليه و آله و سلم جعله فى الدنيا على ما يقتضيه مقام المخاصمه و رد قولهم فإن المحصل من السياق أنهم يقترحون عليك كيت و كيت و هم يريدون تعجيزك و تبكيتهك و إن ربك قادر على أعظم من ذلك فإن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار، الخ؛ و هى لا محاله فى الدنيا و إلا لم ينقطع به الخصام.

قوله تعالى: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا، اضراب عن طعنهم فيه صلى الله عليه و آله و سلم و اعتراضهم عليه بأكل الطعام و المشى فى الأسواق بما يتضمن معنى التكذيب أى ما كذبوك و ردوا نبوتك لأنك تأكل الطعام و تمشى فى الأسواق فإنما هو كلام منهم صورى بل السبب الأصلى فى إنكارهم نبوتك و طعنهم فيك أنهم كذبوا بالساعة و أنكروا

المعاد، و من المعلوم أن لا وقع للنبوه مع إنكار الساعه و لا معنى للدين و الشريعه لو لا المحاسبه و المجازاه.

فالإشاره الى السبب الأصلي بعد ذكر الاعتراض و الاقتراح و الجواب هاهنا نظير ما وقع فى سوره الإسراء بعد ذكر الاقتراحات ثم الجواب من ذكر السبب الاصلى فى قوله: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» .

و قوله تعالى: وَاعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا وَضَعُ الْمَوْصُولِ وَ الصلوه مكان الضمير الراجع للدلاله على أن الجزاء بالسعير ثابت فى حق كل من كذب بالساعه هم و غيرهم فيه سواء، و على أن سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعه.

و وضع الساعه ثانيا موضع ضميرها ليكون أنصّ و أصرح فهو المناسب لمقام التهديد، و السعير النار المشتعله الملتهبه.

قوله تعالى: إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا فِي الْمَفْرَدَاتِ: الغيظ أشد غضب-الى أن قال-و التغيط هو إظهار الغيظ، و قد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال: «سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا» انتهى، و فيه أيضا: الزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه، انتهى.

و الآيه تمثل حال النار بالنسبه اليهم اذا برزوا لها يوم الجزاء أنها تشتد إذا ظهروا لها كالأسد يزأر إذا رأى فريسته.

قوله تعالى: وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا «مَكَانًا» منصوب بتقدير فى، و الثبور الويل و الهلاك.

و التقرين التصفيد بالأغلال و السلاسل و قيل: هو جعلهم مع قرناء الشياطين و هو بعيد من اللفظ. و المعنى و إذا ألقوا يوم الجزاء فى مكان ضيق من النار و هم مصفدون بالأغلال دعوا

هنالك ثبورا لا يوصف و هو قولهم:وا ثبورا.

قوله تعالى: لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا الاستغاثه بالويل و الثبور نوع احتيال للتخلص من الشده و إذ كان اليوم يوم الجزاء فحسب لا ينفع فيه عمل و لا يجدى فيه سبب البته لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلا و لذا قال تعالى: «لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ الخ؛فهو كناية عن أن الثبور لا- ينفعكم اليوم سواء استقلتم منه أو استكثرتم.فهو فى معنى قوله تعالى: اضْمُرُوا فَاضْمُرُوا أَوْ لَا تَضْمُرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ (الطور ١٦)، و قوله حكاية عنهم: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنا أَمْ صَبْرُنا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيسٍ (إبراهيم ٢١).

قوله تعالى: قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ -الى قوله- مَسْئُلاً الإشاره الى السعير بما له من الوصف،أمر نبيه صَلَّى الله عليه و آله و سلم أن يسألهم أيهما أرجح السعير أم جنه الخلد؟و السؤال سؤال فى أمر بديهى لا يتوقف فى جوابه عاقل و هو دائر فى المناظره و المخاصمه يردد الخصم بين أمرين أحدهما بديهى الصحه و الآخر بديهى البطلان فيكلف ان يختار أحدهما فإن اختار الحق فقد اعترف بما كان ينكره،و إن اختار الباطل افتضح.

و قوله: أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ اضافه الجنه الى الخلد و هو الدوام للدلاله على كونها فى نفسها خالده لا تفنى كما أن قوله بعد: «خَالِدِينَ» للدلاله على ان أهلها خالدين فيها لا سبيل للفناء اليهم.

قوله: وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تقديره وعدها المتقون لان وعد يتعدى لمفعولين و المتقون مفعول ثان ناب مناب الفاعل.

و قوله: كَأَنْتَ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا أى جزاء لتقواهم و منقلبا ينقلبون اليه بما هم متقون كما قال تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ -الى أن قال- وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (الحجر ٤٨)،و هو من الأفضيه التى قضاها يوم خلق آدم و أمر الملائكه و إبليس بالسجود

له، و يتعين به جزاء المتقين و مصيرهم كما تقدم فى تفسير سورة الحجر.

و قوله: «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ» أى انهم يملكون فيها بتملك من الله لهم كل ما تتعلق به مشيتهم، و لا تتعلق مشيتهم إلا بما يحبونه و يشتهونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ (سبأ ٥٤/)، و لا يحبون و لا يشتهون إلا ما من شأنه أن يتعلق به الحب واقعا و هو الذى يحبه الله لهم و هو ما يستحقونه من الخير و السعادة مما يستكملون به و لا يستضرون به لا هم و لا غيرهم فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمائر الجمع الأربعة عائدة الى الكفار، و المراد بما يعبدون الملائكة و المعبودون من البشر و الاصنام ان كان «ما» أعم من غير اولى العقل، و الا فالاصنام فقط.

و المشار اليهم المعينون بقوله: «عِبَادِي هَؤُلَاءِ» الكفار و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ الخ؛ جواب المعبودين عن قوله: «أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ» الخ؛ و قد بدءوا بالتسبيح على ما هو من أدب العبودية فى موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك او ما يوهم ذلك بوجه.

و قوله: «مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ أَى مَا صَحَّ و ما استقام لنا أن نتجاوزك الى غيرك فنتخذ من دونك من أولياء و هم الذين عبدونا و اتخذونا أولياء من دونك، و قوله: «وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَ أَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا» البور جمع بائر و هو الهالك و قيل: الفاسد.

لما نفى المعبودون المسئولون عن سبب ضلال عبادهم نسبة الإضلال الى أنفسهم أخذوا فى نسبتها الى الكفار أنفسهم مع بيان السبب الذى أضلهم و هو أنهم كانوا قوما هالكين او فاسدين و قد متعتهم و آباءهم من أمتعه الحياه الدنيا و نعمها حتى طال عليهم التمتع امتحانا

و ابتلاء فتمتعوا منها و اشتغلوا بها حتى نسوا الذكر الذى جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد الى الشرك.

فكونهم قوما هالكين او فاسدين بسبب انكبابهم على الدنيا و انهماكهم فى الشهوات هو السبب فى استغراقهم فى التمتع و انصراف همهم الى الاشتغال بالأسباب و هو السبب لسيانهم الذكر و العدول عن التوحيد الى الشرك.

قوله تعالى: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَبْرًا وَلَا نَصِيرًا الى آخر الآيه؛ كلام له تعالى يلقيه الى المشركين بعد براءه المعبودين منهم، و أما كلام المعبودين فقد تم فى قوله: «وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا» .

و المعنى: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون فى حقهم إنهم آلهه من دون الله يصرفون عن عبادتهم السوء و ينصرونهم، و إذ كذبوكم و نفوا عن أنفسهم الالهيه و الولايه فلا تستطيعون أنتم أيها العبده أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم، و لا تستطيعون نصرا لأنفسكم بسببهم.

و التردد بين الصريف و النصر كأنه باعتبار استقلال المعبودين فى دفع العذاب عنهم و هو الصريف. و عدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب و هو النصر.

و قرأ غير عاصم من طريق حفص «يستطيعون» بالياء المثناه من تحت و هى قراءه حسنه ملائمه لمقتضى السياق، و المعنى: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون إنهم آلهه يصرفون عنكم السوء أو ينصرونكم و يتفرع على ذلك أنهم لا يستطيعون لكم صرفا و لا نصرا.

و قوله: «وَ مَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا» المراد بالظلم مطلق الظلم و المعصيه و إن كان مورد الآيات السابقه خصوص الظلم الذى هو الشرك، فقوله: «وَ مَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ» الخ؛ من قبيل وضع القانون العام موضع الحكم الخاص، و لو كان المراد به الحكم الخاص بهم لكان من حق الكلام أن يقال: «و نذيقكم بما ظلمتم عذابا كثيرا» لأنهم كلهم ظالمون ظلم

و النكته فيه الإشاره الى أن الحكم الإلهي نافذ جار لا مانع منه ولا معقب له كأنه قيل: وإن كذبكم المعبودون و ما استطاعوا صرفا و لا- نصرا فالحكم العالم الإلهي «مَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا» على نفوذه و جريانه لا مانع منه و لا معقب له فأنتم ذائقون العذاب البته.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أجب تعالى عن قولهم: «مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ» الخ؛ أولا بقوله: «تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ» الخ؛ مع ما يلحقه من قوله: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ» الخ؛ وهذا جواب ثان محصّ له أن هذا الرسول ليس بأول رسول أرسل الى الناس بل أرسل الله قبله جما غفيرا من المرسلين و قد كانوا على العاده البشريه الجاريه بين الناس يأكلون الطعام و يمشون في الأسواق و لم يخلق لهم جنه يأكلون منها و لا ألقى إليهم كنز و لا أنزل معهم ملك، و هذا الرسول إنما هو كأحدهم و لم يأت بأمر بدع حتى يتوقع منه ما لا يتوقع من غيره.

فالآيه في معنى قوله: قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ (الأحقاف ٩)، و قريبه المعنى من قوله: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ (الكهف ١١٠).

و قوله تعالى: وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ متمم للجواب السابق بمنزله التعليل لكون الرسل كسائر الناس في الخواص البشريه من غير أن تتميز حياتهم أو دعوتهم بخواص سماويه تورث القطع بكونهم حاملين للرساله الإلهيه كإنزال ملك عليهم أو إلقاء كنز اليهم او خلق جنه لهم فكأنه قيل: و السبب في كون الرسل جارين في حياتهم على ما يجرى عليه الناس أنا جعلنا بعض الناس لبعض فتنه يمتحنون بها فالرسل فتنه لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان و المتبعون للأهواء الذين لا يصبرون على

مرّ الحق من طلاب الحق الصابرين في طاعه الله و سلوك سبيله.

و قوله تعالى: وَ كَانَ رَبُّكَ بِصِيرَةٍ أَى عَالِمًا بِالصَّوَابِ فِي الْأُمُورِ فَيُضَعُّ كُلَّ أَمْرٍ فِي الْمَوْضِعِ الْمُنَاسِبِ لَهُ وَ يَجْرَى بِذَلِكَ أَمْرَ النَّظْمِ فَهَدَفَ النَّظْمَ الْإِنْسَانِي كَمَالَ كُلِّ فَرْدٍ بِقَطْعِهِ طَرِيقَ السَّعَادَةِ أَوْ الشَّقَاوَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسْتَعِدُّ لَهُ وَ يَسْتَحِقُّهُ وَ لِأَزْمِهِ بَسْطَ نِظَامِ الْإِمْتِحَانِ بَيْنَهُمْ وَ لِأَزْمِهِ ارْتِفَاعَ التَّمَايِزِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَ غَيْرِهِمْ.

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٢١ الى ٣١]

اشاره

وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَ قَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَ يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا (٣١)

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ:

الرجاء ترقب الخير الذي يقوى فى النفس وقوعه و مثله اطمع و الأمل، و اللقاء المصير الى الشىء من غير حائل، و العتو الخروج الى أفحش الظلم. انتهى.

و المراد باللقاء الرجوع الى الله يوم القيامة سُمى به لبروزهم اليه تعالى بحيث لا يبقى فى البين حائل جهل أو غفله لظهور العظمة الإلهيه كما قال تعالى: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» .

فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنكارهم للمعاد و تكذيبهم بالساعه و لم يعبر عنه بتكذيب الساعه و نحوه كما عبر فى الآيات السابقه لمكان ذكرهم مشاهده الملائكه و رؤيه الرب تعالى و تقدس ففيه إشاره الى أنهم إنما قالوا ما قالوا و طلبوا إنزال الملائكه أو رؤيه الرب ليأسهم و زعمهم استحاله ذلك فقد أُلزموا بما هو مستحيل على زعمهم.

فقولهم: لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا اعتراض منهم على رساله الرسول أو ردوه فى صوره التحضيض كقولهم فى موضع آخر: لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (الحجر ٧)، و تقرير الحجه كما تقدمت الإشاره اليه أنه لو كانت الرساله

-و هي نزول الملائكة بالوحى أو تكليمه تعالى البشر بالمشافهه-مما يتيسر للبشر نيله و نحن بشر أمثال هذا المدعى للرساله فما بالنا لا ينزل علينا الملائكه و لا نرى ربنا؟ فهلا أنزل علينا الملائكه أو نرى ربنا.

و يؤيد ما ذكرناه من التقرير إطلاق إنزال الملائكه و رؤيه الرب من غير أن يقولوا: لو لا أنزل علينا الملائكه فيصدقوك أو نرى ربنا فيصدقك. على أنهم ذكروا فى اعتراضهم السابق نزول الملك ليكون معه نذيرا و فيه تصديقه.

و فى التعبير عنه تعالى بلفظ ربنا نوع تهكم منهم فإن المشركين ما كانوا يرونه تعالى ربا لهم بل كان عندهم أن أربابهم ما كانوا يعبدونهم و الله رب الأرباب فكأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم:

إنك ترى أن الله ربك و قد حنّ اليك فخصك بالمشافهه و التكليم، و أنه ربنا، فليحن الينا و ليشافهنا بالرؤيه كما فعل بك.

على أنهم إنما عدلوا عن عباده أرباب الأصنام و هم الملائكه و روحانيات الكواكب و نحوهم الى عباده الأصنام و التماثيل لتكون محسوسه غير غائبه عن المشاهده عند العباده و التقرب بالقرايين.

و قوله تعالى: لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُنُقًا كَبِيرًا أَى أقسم لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حق و طغوا طغيانا عظيما.

قوله تعالى: يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا فى المفردات: الحجر الممنوع منه بتحريمه قال تعالى: «وَ قَالُوا هَذِهِ أَتَعَامَّ وَ حَزَّتْ حِجْرًا» «وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا» كان الرجل إذا لقي من يخاف يقول ذلك فذكر تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكه قالوا ذلك ظنا أن ذلك ينفعهم. انتهى.

و عن الخليل كان الرجل يرى الرجل الذى يخاف منه القتل فى الجاهليه فى الأشهر الحرم فيقول: حجرا محجورا أى حرام عليك التعرض لى فى هذا الشهر فلا يبدوه بشر و عن أبى

عبده: هي عودته للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه و بينهما تره.

فقوله: **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ** يوم-على ما قيل - ظرف لقوله: «**لَا بُشْرَىٰ**» و قوله: «**يَوْمَئِذٍ**» تأكيد له، والمراد بقوله: «**لَا بُشْرَىٰ**» نفى للجنس، والمراد بالمجرمين كل متصف بالإجرام غير أن مورد الكلام إجرام الشرك و المجرمون هم الذين لا- يرجون اللقاء، وقد تقدم ذكرهم و المعنى: يوم يرى هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا الملائكة لا بشرى-على طريق نفى الجنس-يومئذ للمجرمين و هم منهم.

و قوله: **وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا** فاعل يقولون هم المشركون أى يقول المشركون يومئذ للملائكة و هم قاصدوهم بالعذاب: حجرا محجورا أى لنكن فى معاذ منكم، و قيل: ضمير الجميع للملائكة، و المعنى: و يقول الملائكة للمشركين حراما محرما عليكم سماع البشرى، أو حراما محرما عليكم أن تدخلوا الجنة أو حراما محرما عليكم أن تتعوزوا من العذاب الى شىء فلا معاذ لكم هذا، و المعنى: الأول أقرب الى السياق.

و الآيه فى موضع الجواب عن قولهم: «لو لا- أنزل الينا الملائكة» و قد عرضت عن جواب قولهم: «**أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا**» فإن الرؤيه التى كانوا يقصدونها بقولهم هى الرؤيه البصريه التى تستلزم التجسم و الماديه تعالى عن ذلك، و أما الرؤيه بعين اليقين و هى الرؤيه القلبيه فلم يكونوا ممن يفقه ذلك و على تقديره ما كانوا يقصدونه.

قوله تعالى: **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا** قال الراغب فى المفردات: العمل كل فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب الى الحيوانات التى يقع منها فعل بغير قصد و قد ينسب الى الجمادات، و العمل فلما ينسب الى ذلك، و لم يستعمل العمل فى الحيوانات إلا فى قولهم: البقر العوامل. انتهى.

و قال: الهباء دقائق التراب و ما انبث فى الهواء فلا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس فى الكوّه.

انتهى. و النثر التفريق.

و المعنى: و أقبلنا الى كل عمل عملوه -و العمل هو الذى يعيش به الإنسان بعد الموت- ففرقناه تفريقا لا ينتفعون به كالهباء المنثور، و الكلام مبنى على التمثيل مثل به استيلاء القهر الإلهى على جميع أعمالهم التى عملوها لسعاده الحياه و إبطالها بحيث لا يؤثر فى سعاده حياتهم المؤبده شيئا بتشبيهه بسلطان غلب عدوه فحلّ داره بعد ما ظهر عليه فخرب الدار و هدم الآثار و أحرق المتاع و الأثاث فأفنى منه كل عين و أثر.

و لا- منافاه بين ما تدل عليه الآيه من حبط الأعمال يومئذ و بين ما تدل عليه آيات أخر أن أعمالهم أحبطت حينما عملوها فى الدنيا بكفرهم و إجرامهم فإن معنى الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعد ما كان خفيا فى الدنيا عليهم و قد تقدم كلام مشبع فى معنى الحبط فى الجزء الثانى من الكتاب فراجع.

قوله تعالى: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا المراد بأصحاب الجنه المتقون فقد تقدم قوله قبل آيات: «قُلْ أَدْرِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ»، و المستقر و المقيل اسما مكان من الاستقرار و معناه ظاهر و من القيلولة و هى الاستراحة فى منتصف النهار سواء كان معها نوم أم لا-على ما قيل-و الجنه لا نوم فيه.

و كلمتا «خَيْرٌ» و «أَحْسَنُ» منسلخان عن معنى التفضيل كما فى قوله تعالى: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (الروم ٢٧/)، و قوله: مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو (الجمعه ١١/١) كذا قيل، و ليس يبعد أن يقال: إن «أَفْعَلٌ» أو ما هو فى معناه كخير بناء على ما رجحنا أنه صفه مشبهه تدل على التفضيل بمادته لا- بهيئته فى مثل هذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل و العناية فى ذلك أنهم لما اختاروا الشرك و الإجرام و استحسنا ذلك و لازمه النار فى الآخره فقد أثبتوا لها خيره و حسنا فقبلوا بأن الجنه و ما فيها خير و أحسن حتى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النار و أن يختاروا الإيمان على الكفر على أى حال، و قيل: إن التفضيل مبنى على التهكم.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الظاهر أن الظرف منصوب بفعل مقدر، والمعنى و اذكر يوم كذا و كذا فإنهم يرون الملائكة فيه أيضا و هذا اليوم هو يوم القيامة بدليل قوله بعد: «الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ»، و قيل فى متعلق الظرف وجوه آخر لا فائده فى نقلها.

و «تَشَقُّ» أصله تشقق من باب النفل من الشق بمعنى الخرم و التشقق التفتح، و الغمام السحاب سمي به لستره ضوء الشمس مأخوذ من الغم بمعنى الستر.

و الباء فى قوله: «تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ» إما للملابسه و المعنى تفتتح السماء متلبسه بالغمام أى متغيمه، و إما بمعنى عن و المعنى تفتتح عن الغمام أى من قبل الغمام أو تشققه.

و كيف كان فظاهر الآيه أن السماء تشق يوم القيامة بما عليها من الغمام الساتر لها و نزل منها الملائكة الذين هم سكانها فيشاهدونهم فالآيه قريبه المعنى من قوله فى موضع آخر:

وَ انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَ الْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا (الحاقه ١٧).

و ليس من البعيد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمه الجهل و بروز عالم السماء و هو من الغيب و بروز سكانها و هم الملائكة و نزولهم الى العالم الأرضى موطن الإنسان.

و التعبير عن الواقعه بالتشقق دون التفتح و ما يماثله للتهيل، و كذا التنوين فى قوله:

«تَنْزِيلًا» للدلاله على التفخيم.

قوله تعالى: الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا أى الملك المطلق يومئذ حق ثابت للرحمن و ذلك لبطلان الأسباب و زوال ما بينها و بين مسبباتها من الروابط المتنوعه، و قد تقدم غير مره أن المراد بذلك فى يوم القيامة هو ظهور أن الملك و الحكم لله و الأمر اليه وحده، و أن لا استقلال فى شىء من الأسباب على خلاف ما كان يتراءى من ظاهر حالها فى نشأه الدنيا قبل قيام الساعه و رجوع كل شىء اليه تعالى.

وقوله: وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا الوجه فيه ركونهم الى ظواهر الأسباب و إخلادهم الى الحياه الأرضيه البائده الدائره و انقطاعهم عن السبب الحقيقي الذى هو مالِك الملك بالحقيقه و عن حياتهم الباقيه المؤبده فيصبحون اليوم و لا ملاذ لهم و لا معاذ.

فعلى هذا يكون الملك مبتدأ و الحق خبره عَرَفَ لإفاده الحصر، و يومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ، و فائده التقييد الدلاله على ظهور حقيقه الامر يومئذ فإن حقيقه الملك لله سبحانه دائما، و إنما يختلف يوم القيامه مع غيره بزوال الملك الصورى عن الاشياء فيه و ثبوته لها فى غيره.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. قال الراغب فى المفردات:العض أزم بالاسنان، قال تعالى: «عَصُوا عَلَيْكُمُ الْأَنْامِلَ» و «يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ» و ذلك عباره عن الندم لما جرى به عاده الناس أن يفعلوه عند ذلك. انتهى. و لذلك يتمنى عنده ما فات من واجب العمل كما حكى الله تعالى عنهم قولهم: «يا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا».

و الظاهر أن المراد بالظالم جنسه و هو كل من لم يهتد بهدى الرسول، و كذا المراد بالرسول جنسه و إن انطبق الظالم بحسب المورد على ظالمى هذه الامه و الرسول على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

و المعنى: و اذكر يوم يندم الظالم ندما شديدا قائلا- من فرط ندمه يا ليتنى اتخدت مع الرسول سبيلا ما الى الهدى أى سبيل كانت.

قوله تعالى: يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا. تتمه تمنى الظالم النادم على ظلمه، و فلان كناية عن العلم المذكور و فلانه عن العلم المؤنث، قال الراغب: فلان و فلانه كنایتان عن الإنسان، و الفلان و الفلانه- باللام- كنایتان عن الحيوانات. انتهى.

و المعنى: يا ويلتى- يا هلاكى- ليتنى لم اتخذ فلانا- و هو من اتخذه صديقا يشاوره و يسمع منه و يقلده- خليلا.

و من لطيف التعبير قوله فى الآيه السابقه: ﴿يَا لَيْتَنى اتَّخَذْتُ﴾ الخ؛ و فى هذه الآيه ﴿يَا وَيْلَتى لَيْتَنى لَمَّ اتَّخَذْتُ﴾ الخ؛ فإن فى ذلك تدرجاً لطيفاً فى النداء و الاستغاثه فحذف المنادى فى الآيه السابقه يلوح الى أنه يريد أى منج ينجيه مما هو فيه من الشقاء و ذكر الويل بعد ذلك- فى هذه الآيه يدل على أنه بان له أن لا يخلصه من العذاب شىء قط إلا الهلاك و الفناء، و لذلك نادى الويل.

قوله تعالى: لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعِيدٍ إِذْ جَاءَنِى وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً تعليل للتمنى السابق، و المراد بالذكر مطلق ما جاءت به الرسل أو خصوص الكتب السماويه و ينطبق بحسب المورد على القرآن.

و قوله: وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً من كلامه تعالى و يمكن أن يكون تتمه الكلام الظالم ذكره تأسفاً و تحسراً.

و الخذلان بضم الخاء ترك من يظن به أن ينصر نصرته، و خذلانه أنه يعد الإنسان أن ينصره على كل مكروه إن تمسك بالأسباب و نسى ربه فلما تقطعت الأسباب بظهور القهر الإلهى يوم الموت جزئياً و يوم القيامة كلياً خذله و سلمه الى الشقاء، قال تعالى: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنْكَ (الحشر ١٦)، و قال فيما يحكى عن الشيطان يوم القيامة: مَا أَنَا بِمُضْرِحِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُضْرِحِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم ٢٢).

و فى هذه الآيات الثلاث إشعار بل دلالة على أن السبب العمده فى ضلال أهل الضلال و لايه أهل الأهواء و أولياء الشيطان، و المشاهده يؤيد ذلك.

قوله تعالى: وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً المراد بالرسول محمد صلى الله عليه و آله و سلم بقرينه ذكر القرآن، و عبر عنه بالرسول تسجيلاً لرسالته و إرغاماً لأولئك القادحين فى رسالته و كتابه و الهجر بالفتح فالسكون الترك.

و ظاهر السياق أن قوله: «وَقَالَ الرَّسُولُ» السخ؛ معطوف على «يَعِصُ الظَّالِمُ» و القول مما يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البث و الشكوى، و على هذا فالتعبير بالماضى بعنايه تحقق الوقوع، و المراد بالقوم عامه العرب بل عامه الامه باعتبار كفرتهم و عصاتهم.

و أما كونه استئنافاً أو عطفاً على قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» و كون ما وقع بينهما اعتراضاً فبعيد من السياق، و عليه فلفظه قال على ظاهر معناها و المراد بالقوم هم القادحون فى رسالته الطاعنون فى كتابه.

و نظيره فى الضعف قول بعضهم: إن المهجور من الهجر بمعنى: الهديان. و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا أَي كَمَا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ عَدُوًّا لَكَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْهُمْ أَي هَذِهِ مِنْ سُنَّتِنَا الْجَارِيَةِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَامْمَهُمْ فَلَا يَسُوءُ نَكَ مَا تَلْقَى مِنْ عِدَاوَتِهِمْ وَلَا يَشْقَى عَلَيْكَ ذَلِكَ، ففیه تسلیه للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

و معنى: جعل العدو من المجرمين أن الله جازاهم على معاصيهم بالختم على قلوبهم فعاندوا الحق و أبغضوا الداعى اليه و هو النبي فلعداوتهم نسبه اليه تعالى المجازاه.

و قوله: وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا معناه-على ما يعطيه السياق-لا يهولنك أمر عنادهم و عداوتهم و لا تخافنهم على اهتداء الناس و نفوذ دينك فيهم و بينهم فحسبك ربك كفى به هادياً يهدى من استحق من الناس الهدايه و استعد له و إن كفر هؤلاء و عتوا فليس اهتداء الناس منوطاً باهتدائهم و كفى به نصيراً ينصرك و ينصر دينك الذى بعثك به و إن هجره هؤلاء و لم ينصروك و لا دينك فالجمله مسوقه لإظهار الاستغناء عنهم.

فظهر أن صدر الآيه مسوق لتسلي النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و ذيله للاستغناء عن المجرمين من قومه، و فى قوله: «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ» حيث أخذ بصفه الربوبيه: مضافه الى ضمير الخطاب و لم يقل: و كفى

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٣٢ الى ٤٠]

إشارة

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَمْ نَزَلْ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمُ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا نَبِّئْنَا تَنْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ آتَوْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوْءًا فَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لِا يَزُجُونَ نَشُورًا (٤٠)

بيان:

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَمْ نَزَلْ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً

ص: ٥٠٢

المراد بهم مشركو العرب الرادون لدعوه القرآن كما فى قدحهم السابق المحكى بقوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ» الخ.

و قوله: لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْإِنْزَالَ وَالتَّنْزِيلَ إِنَّمَا يَفْتَرِقَانِ فِي أَنَّ الْإِنْزَالَ يَفِيدُ الدَّفْعَةَ وَالتَّنْزِيلَ يَفِيدُ التَّدْرِيجَ لَكِنْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التَّنْزِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْسَلَخٌ عَنْ مَعْنَى التَّدْرِيجِ لِأَدَائِهِ إِلَى التَّدْفِيعِ إِذْ يَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى تَقْدِيرِ إِرَادَةِ التَّدْرِيجِ:

لو لا- فَرَّقَ الْقُرْآنَ جَمْلَةً وَاحِدَةً وَالتَّفْرِيقُ يَنَافَى الْجَمْلِيَّةَ بَلِ الْمَعْنَى هَلَّا- أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ دَفْعَةً غَيْرَ مَفْرُقٍ كَمَا أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ الزَّبُورَ.

قوله تعالى: كَذَلِكَ لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَ لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا الثَّباتُ ضِدُّ الزَّوَالِ، وَ الْإِثْبَاتُ وَ التَّثْبِيتُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِالْدَّفْعَةِ وَ التَّدْرِيجِ، وَ الْفُؤَادُ الْقَلْبُ وَ الْمُرَادُ بِهِ كَمَا مَرَّ غَيْرُ مَرَّةٍ الْأَمْرَ الْمُدْرِكُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ هُوَ نَفْسُهُ، وَ التَّرْتِيلُ- كَمَا قَالُوا- التَّرْسِيلُ وَ الْإِتْيَانُ بِالشَّيْءِ عَقِيبَ الشَّيْءِ، وَ التَّفْسِيرُ- كَمَا قَالَ الرَّاعِبُ- الْمَبَالِغَةُ فِي إِظْهَارِ الْمَعْنَى الْمَعْقُولِ كَمَا أَنَّ الْفَسْرَ بِالْفَتْحِ فَالْفَتْحُ إِظْهَارُ الْمَعْنَى الْمَعْقُولِ.

وَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ قَوْلَهُ: «كَذَلِكَ» مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ يَعْلَلُهُ قَوْلُهُ: «لِنُبَيِّنَ» وَ يَعْطِفُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَ رَتَّلْنَاهُ» وَ التَّقْدِيرُ نَزَلْنَاهُ أَى الْقُرْآنَ كَذَلِكَ أَى نَجُومًا مُتَفَرِّقَةً لَا جَمْلَةً وَاحِدَةً لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: «إِنَّ «كَذَلِكَ» مِنْ تَمَامِ قَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا سَخِيفٌ جِدًّا.

فَقَوْلُهُ: كَذَلِكَ لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ بَيَانٌ تَامٌ لِسَبَبِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ نَجُومًا مُتَفَرِّقَةً وَ بَيَانٌ ذَلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَ خَاصَّةً مَا كَانَ مُرْتَبِطًا بِالْعَمَلِ بِإِلْقَاءِ الْمَعْلَمِ مَسْأَلَةً وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ حَتَّى تَتِمَّ فِصُولُهُ وَ أَبْوَابُهُ إِنَّمَا يَفِيدُ حَصُولًا مَا لَصُورَ مَسْأَلَةٍ عِنْدَ الْمُتَعَلِّمِ وَ كَوْنُهَا مَذْخُورَةٌ بِوَجْهِ مَا عِنْدَهُ يَرِاجِعُهَا عِنْدَ مَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَ أَمَّا اسْتِقْرَارُهَا فِي النَّفْسِ بِحَيْثُ تَنْمُو النَّفْسُ عَلَيْهَا وَ تَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا آثَارُهَا الْمَطْلُوبَةُ مِنْهَا فَيَحْتَاجُ إِلَى مَسِيسِ الْحَاجَةِ

و الإشراف على العمل و حضور وقته.

ففرق بين أن يلقي الطبيب المعلم مثلاً مسأله طيبه الى متعلم الطب إلقاء فحسب و بين أن يلقيها اليه و عنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الداء و هو يعالجه فيطابق بين ما يقول و ما يفعل.

و من هنا يظهر أن إلقاء أى نظره علميه عند مسيس الحاجه و حضور وقت العمل الى من يراد تعليمه و تربيته أثبت فى النفس و أوقع فى القلب و أشد استقراراً و أكمل رسوخاً فى الذهن و خاصه فى المعارف التى تهدى إليها الفطره فإن الفطره إنما تستعد للقبول و تنهياً للإذعان إذا أحست بالحاجه.

فتبين بما تقدم أن قوله: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ - الى قوله- وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا» جواب عن قولهم: «لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» بوجهين:

أحدهما: بيان السبب الراجع الى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هو تثبيت فؤاده بالتنزيل التدريجى.

و ثانيهما: بيان السبب الراجع الى الناس و هو بيان الحق فيما يوردون على النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من المثل و الوصف الباطل، و التفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المعير عن وجهه المحرف عن موضعه.

و يلحق بهذا الجواب قوله تلاوا: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا» فهو كالمنعم للجواب على ما سيجىء بيانه.

و تبين أيضاً أن الآيات الثلاث مسوقه جميعاً لغرض واحد و هو الجواب عما أوردوه من القدح فى القرآن هذا، و المفسرون فرّقوا بين مضامين الآيات الثلاث فجعلوا قوله: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» جواباً عن قولهم: «لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً»، و قوله: «وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا» خبراً عن ترسيه فى النزول او فى القراءه على النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من غير ارتباط بما تقدمه.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا

وَ أَضَلَّ سَبِيلًا اتِّصَالَ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا مِنَ الْآيَاتِ عَلَى مَا لَهَا مِنَ السِّيَاقِ يُعْطَى أَنْ هَؤُلَاءِ الْقَادِحِينَ فِي الْقُرْآنِ اسْتَنْتَجُوا مِنْ قَدْحِهِمْ مَا لَا يَلِيقُ بِمَقَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَذَكَرُوهُ وَاصْفَيْنَ لَهُ بِسُوءِ الْمَكَانِهِ وَ ضَلَالِ السَّبِيلِ فَلَمْ يَذْكُرْهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ضَمَنِ مَا حَكَى مِنْ قَوْلِهِمْ فِي الْقُرْآنِ صَوْنًا لِمَقَامِ النَّبِيِّ أَنْ يَذْكَرَ بِسُوءٍ، وَ إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي مَا أُورِدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِطَرِيقِ التَّكْنِيهِ.

فَقَوْلُهُ: الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كُنَايَهُ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْقَادِحِينَ فِي الْقُرْآنِ الْوَاصِفِينَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِمَا وَصَفُوا، وَ الْكُنَايَةَ أَبْلَغُ مِنَ التَّصْرِيحِ.

فَالْمُرَادُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَادِحِينَ فِي الْقُرْآنِ الْوَاصِفِينَ لَكَ هُمْ شَرُّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا لَا أَنْتَ فَالْكَلَامُ مَبْنَى عَلَى قَصْرِ الْقَلْبِ، وَ لَفْظَتَا «شَرٌّ» وَ «أَضَلُّ» مَنْسَلَخَتَانِ عَنِ مَعْنَى التَّفْضِيلِ أَوْ مَفِيدَتَانِ عَلَى التَّهْكَامِ وَ نَحْوِهِ.

وَ قَدْ كُنِيَ عَنْهُمْ بِالْمَحْشُورِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ وَ هُوَ وَصْفٌ مِنْ أَضْلِهِ اللَّهُ مِنَ الْمُتَعَتِّينَ الْمُنْكَرِينَ لِلْمَعَادِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يَضَلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا الْخ (الإسراء ٩٨).

فَفِي هَذِهِ التَّكْنِيهِ مِضَافًا إِلَى كَوْنِهَا أَبْلَغُ، تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِشَرِّ الْمَكَانِ وَ أَلِيمِ الْعَذَابِ وَ أَيْضًا هِيَ فِي مَعْنَى الْاِحْتِجَاجِ عَلَى ضَلَالِهِمْ إِذْ لَا ضَلَالَةَ أَضَلُّ مِنْ أَنْ يَسِيرَ الْإِنْسَانُ عَلَى وَجْهِهِ وَ هُوَ لَا يَشْعُرُ بِمَا فِي قَدَامِهِ، وَ هَذَا الضَّلَالَةُ الَّتِي حَشَرَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ مِمَّا مِثْلُ الضَّلَالَةِ الَّتِي كَانَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَكَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الضَّالُّونَ فَإِنَّهُمْ مَحْشُورُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَ لَا يَبْتَلَى بِذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ ضَالًّا فِي الدُّنْيَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا اسْتَشْهَادًا عَلَى رَسُولِهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ نَزُولِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ قَبَالَ تَكْذِيبِ الْكُفَّارِ بِهِ وَ بَكْتَابِهِ بِرَسُولِهِ

موسى و إيتائه الكتاب و إشراك هارون فى أمره للتخلص الى ذكر تعذيب آل فرعون و إهلاكهم، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: فَقُلْنَا اذْهَبْ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ تَدْمِيرًا قَالَ فى مجمع البيان: التدمير الإهلاك لأمر عجيب، و منه التنكيل يقال: دمر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه. انتهى.

و المراد بالآيات آيات الآفاق و الأنفس الداله على التوحيد التى كذبوا بها، و ذكر أبو السعود فى تفسيره أن الآيات هى المعجزات التسع المفصّلات الظاهره على يدى موسى عليه السلام و لم يوصف القوم لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضروره تأخر تكذيب الآيات عن إظهار المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكايه لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بيانا لعله استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أى فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا فدمرناهم. انتهى. و هو حسن لو تعين حمل الآيات على آيات موسى عليه السلام.

و وجه اتصال الآيتين بما قبلهما هو تهديد القادحين فى كتاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و رسالته بتنظير الأمر بأمر موسى حيث آتاه الله الكتاب و أرسله مع أخيه الى قوم فرعون فكذبوه فدمرهم تدميرا.

و لهذه النكته قدّم ذكر إيتاء الكتاب على إرسالهما الى القوم و تدميرهم مع أن التوراه إنما نزلت بعد غرق فرعون و جنوده فلم يكن الغرض من القصه إلا الإشاره الى إيتاء الكتاب و رساله لموسى و تدمير القوم بالتكذيب.

قوله تعالى: وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا الظاهر أن قوله: «قَوْمِ نُوحٍ» منصوب بفعل مقدّر يدل عليه قوله: «أَعْرَفْنَاهُمْ» .

و المراد بتكذيبهم الرسل تكذيبهم نوحا فإن تكذيب الواحد من رسل الله تكذيب للجميع لاتفاقهم على كلمه الحق.على أن هؤلاء الامم كانوا أقواما و ثنين و هم ينكرون النبوه و يكذبون الرساله من رأس.

و قوله: وَ جَعَلْنَاَهُمُ لِلنَّاسِ آيَةً أَي لِمَنْ بَقِيَ بَعْدَهُمْ مِنْ ذُرَارِيهِمْ، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: الرس البئر التي لم تطو ذكروا أنهم كانوا قوما بعد ثمود نازلين على بئر أرسل الله اليهم رسولا فكذبوا به فأهلكهم الله، و قيل هو اسم نهر كانوا على شاطئه و فى روايات الشيعة ما يؤيد ذلك.

و قوله: وَ عَادًا الْخ؛ معطوف على «قَوْمِ نُوحٍ» و التقدير: و دمرنا أو و أهلكنا عادا و ثمود و أصحاب الرس، الخ.

و قوله: وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا القرن أهل عصر واحد و ربما يطلق على نفس العصر و الإشاره بذلك الى من مر ذكرهم من الأقسام أولهم قوم نوح و آخرهم أصحاب الرس او قوم فرعون، و المعنى و دمرنا او و أهلكنا عادا و هم قوم هود، و ثمود و هم قوم صالح، و أصحاب الرس، و قرونا كثيرا متخللين بين هؤلاء الذين ذكرناهم و هم قوم نوح فمن بعدهم.

قوله تعالى: وَ كَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَ كَلَّا تَبَرْنَا تَبِيرًا كَلَّا مَنْصُوبٌ بِفَعْلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ» فَإِنْ ضَرَبَ الْأَمْثَالَ فِي مَعْنَى التَّذْكِيرِ وَ الْمَوْعِظَةِ وَ الْإِنْذَارِ، وَ التَّبِيرُ التَّفْتِيتُ، وَ مَعْنَى الْآيَةِ.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطْرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ نُشُورًا هَذِهِ الْقَرْيَةُ هِيَ قَرْيَةُ قَوْمِ لُوطٍ أَمْطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَهُ مِنْ سَجِيلٍ وَ قَدْ مَرَّ تَفْصِيلُ قِصَصِهِمْ فِي السُّورِ السَّابِقَةِ.

و قوله: «أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا» استفهام توبيخى فإن القرية كانت على طريق أهل الحجاز

وقوله: يَلْ كَانُوا لَا- يَزُجُونَ نُشُوراً أَى لَا- يخافون معادا أو كانوا آيسين من المعاد، وهذا كقوله تعالى فيما تقدم: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ» و المراد به أن المنشأ الأصل لتكذيبهم بالكتاب و الرسالة و عدم اتعاضهم بهذه المواظ الشافيه و عدم اعتبارهم بما يعتبر به المعبرون أنهم منكرون للمعاد فلا ينجح فيهم دعوه و لا تقع في قلوبهم حكمه و لا موعظه (١).

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤١ الى ٦٢]

اشاره

وَ إِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْ لَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا- (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَ كَيْلًا- (٤٣) أَمْ تَحْسِبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَ النَّوْمَ سُبُوتًا وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَ نُشِيقَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنَاسِيًا كَثِيرًا (٤٩) وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ لِيُذَكِّرُوا فَابْيَ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُورًا وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَضُرُّهُمْ وَ كَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهِي رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَىٰ بِهِ بَدُنُوبٍ عِبَادَةً خَيْرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مِمَّا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسِئَلُ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَ مَا الرَّحْمَنُ أَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَ زَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَ قَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)

ص: ٥٠٨

قوله تعالى: وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَمْ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ضَمِيرَ الْجَمْعِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا السَّابِقَ ذَكَرَهُمْ، وَ الْهَزْؤُ الْاسْتِهْزَاءُ وَ السَّخِرِيه فَالْمَصْدَرُ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ، وَ الْمَعْنَى: وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا مَهْزُوءًا بِهِ.

و قوله: أَمْ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا بَيَانٌ لاسْتِهْزَائِهِمْ أَى يَقُولُونَ كَذَا اسْتِهْزَاءً بِكَ.

قوله تعالى: إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا الْخ؛ «إِنَّ» مَخْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَ الْإِضْلَالُ كَأَنَّهُ مُضْمَنٌ مَعْنَى الصَّرْفِ وَ لَذَا عَدَى بَعْنٌ، وَ جَوَابٌ لَوْلَا مَحذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا تَقَدَّمَ، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ قَرِبَ أَنْ يَصْرِفَنَا عَنْ آلِهَتِنَا مُضِلًّا لَنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَى آلِهَتِنَا أَى عِبَادَتِهَا لَصَرَفْنَا عَنْهَا.

و قوله: «وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا» تَوْعِدٌ وَ تَهْدِيدٌ مِنْ تَعَالَى لَهُمْ وَ تَنْبِيهُ أَنَّهُمْ عَلَى غَفْلَةٍ مِمَّا سَيَسْتَقْبِلُهُمْ مِنْ مَعَايِنِ الْعَذَابِ وَ الْيَقِينِ بِالضَّلَالِ وَ الْغَى.

قوله تعالى: أَمْ رَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَمْ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا الْهُوى

ميل النفس إلى الشهوة من غير تعديله بالعقل، والمراد باتخاذ الهوى إلها طاعته واتباعه من دون الله وقد أكثر الله سبحانه في كلامه ذم اتباع الهوى و عد طاعه الشيء عباده له في قوله:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي (يس ٦١).

وقوله: أ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا استفهام إنكارى أى لست أنت وكيلا عليه قائما على نفسه و باموره حتى تهديه الى سبيل الرشده فليس فى مقدرتك ذلك و قد أضله الله و قطع عنه أسباب الهدايه و فى معناه قوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (القصص ٥٦)، و قوله: وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (فاطر ٢٢)، و الآيه كالاجمال للتفصيل الذى فى قوله: أ فَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ (الجاثيه ٢٣).

و يظهر مما تقدم من المعنى أن قوله: «اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» على نظمه الطبيعى أى إن «اتَّخَذَ» فعل متعدّد الى مفعولين و «إِلَهَهُ» مفعوله الأول و «هَوَاهُ» مفعول ثان له فهذا هو الذى يلائم السياق و ذلك أن الكلام حول شرك المشركين و عدولهم عن عباده الله إلى عباده الأصنام، و إعراضهم عن طاعه الحق التى هى طاعه الله إلى طاعه الهوى الذى يزين لهم الشرك، و هؤلاء يسلمون أن لهم إلها مطاعا و قد أصابوا فى ذلك، لكنهم يرون أن هذا المطاع هو الهوى فيتخذونه مطاعا بدلا من أن يتخذوا الحق مطاعا فقد وضعوا الهوى موضع الحق لا أنهم وضعوا المطاع موضع غيره فافهم.

قوله تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمِعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا أم منقطعه، و الحسبان بمعنى الظن و ضمائر الجمع راجعه إلى الموصول فى الآيه السابقه باعتبار المعنى. و الترديد بين السمع و العقل من جهه أن وسيله الإنسان إلى سعاده الحياه أحد أمرين إما أن يستقلّ بالتعقل فيعقل الحق فيتبعه أو يرجع إلى قول من يعقله

و ينصحه فيتبعه ان لم يستقل بالتعقل فالطريق الى الرشد سمع أو عقل فالآيه فى معنى قوله:

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (الملك ١٠).

و المعنى: بل أ تظن أن أكثرهم لهم استعداد استماع الحق ليتبعه أو استعداد عقل الحق ليتبعه فترجو اهتداءهم فتبالغ فى دعوتهم.

و قوله: إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَيَانٌ لِلجمله السابقه فإنه فى معنى: أن أكثرهم لا يسمعون و لا يعقلون فتنبه أنهم ليسوا إلا كالأنعام و البهائم فى أنها لا تعقل و لا تسمع إلا اللفظ دون المعنى.

و قوله: يَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا- أى من الأنعام و ذلك أن الأنعام لا- تقتحم على ما يضرها و هؤلاء يرجحون ما يضرهم على ما ينفعهم، و أيضا الأنعام إن ضلت عن سبيل الحق فإنها لم تجهز فى خلقها بما يهديها اليه و هؤلاء مجهزون و قد ضلوا.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا هَاتَانِ الآيتان و ما بعدهما إلى تمام تسع آيات فى معنى التنظير لما تضمنته الآيتان السابقتان بل الآيات الأربع السابقه من أن الله سبحانه جعل رساله الرسول لهدايه الناس إلى سبيل الرشد و إنقاذهم من الضلال فيهدى بها بعضهم ممن شاء الله و أما غيرهم ممن اتخذ إلهه هواه فصار لا يسمع و لا يعقل فليس فى وسع أحد أن يهديهم من بعد الله.

فهى تبين أن ليس هذا ببدع من الله سبحانه ففى عجائب صنعه و بينات آيات نظائر لذلك ففعله متشابه و هو على صراط مستقيم، و ذلك كمد الظل و جعل الشمس دليلا عليه تنسخه، و كجعل الليل لباسا و النوم سباتا و النهار نشورا، و كجعل الرياح بشرا و إنزال المطر و إحياء الأرض الميتة و إرواء الأنعام و الأناسى به.

ثم ما مثل المؤمن و الكافر فى اهتداء هذا و ضلال ذاك- و هم جميعا عباد الله يعيشون فى

أرض واحده-إلا- كمثل الماءين العذب الفرات و الملح الاجاج مرجهما الله تعالى لكن جعل بينهما برزخا و حجرا محجورا، و كالماء خلق الله سبحانه منه بشرا ثم جعله نسبا و صهرا فاختلف بذلك الموالي و كان ربك قديرا.

هذا ما يهدى اليه التدبر فى مضامين الآيات و خصوصيات نظمها، و به يظهر وجه اتصالها بما تقدمها، و أما ما ذكره من أن لآيات مسوقه لبيان بعض أدله التوحيد إثر بيان جهاله المعرضين عنها و ضلالهم فالسياق لا يساعد عليه و سنزيد ذلك إيضا.

فقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا تُنظِرُ- كما تقدمت الإشارة اليه- لشمول الجهل و الضلال للناس و رفعه تعالى ذلك بالرسالة و الدعوه الحقه كما يشاء و لازم ذلك أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل الحادث بعد الزوال من التمدد شيئا فشيئا من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الاقح حتى إذا غربت كانت فيه نهايه الامتداء و هو الليل، و هو فى جميع أحواله متحرك و لو شاء الله لجعله ساكنا.

و قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا» و الدليل هى الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناك ظلا و بانبساطه شيئا فشيئا على تمدد الظل شيئا فشيئا و لولاها لم يتنبه لوجود الظل فإن السبب العام لتمييز الإنسان بعض المعانى من بعض تحوّل الأحوال المختلفه عليه من فقدان و وجدان فإذا فقد شيئا كان يجده تنبه لوجوده و اذا وجد ما كان يفقده تنبه لعدمه، و أما الأمر الثابت الذى لا تتحول عليه الحال فليس الى تصوّره بالتنبه سبيل.

و قوله: «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا» أى أزلنا الظل بإشراق الشمس و ارتفاعها شيئا فشيئا حتى ينسخ بالكلية، و فى التعبير عن الإزاله و النسخ بالقبض، و كونه اليه، و توصيفه باليسير دلالة على كمال القدره الإلهيه و أنها لا يشق عليها فعل، و أن فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام و البطلان بل بالرجوع اليه تعالى.

و فى قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا رَجُوعًا إِلَى السِّيَاقِ»

السابق، و في ذلك مع ذلك من إظهار العظمة و الدلاله على الكبرياء ما لا يخفى.

و الكلام فى قوله الآتى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ» الخ؛ و قوله: «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ» و قوله: «وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» و قوله: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا» ، كالكلام فى قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ» و الكلام فى قوله «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» الخ؛ و قوله:

«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ» ، و قوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا» ، كالكلام فى قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ» .

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِلبَاسِ وَ النَّوْمَ سُبَاتًا وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا كون الليل لباسا إنما هو ستره الإنسان بغشيان الظلمه كما يستر اللباس لابسه.

و قوله: وَ النَّوْمَ سُبَاتًا أى قطعاً للعمل، و قوله: «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا» أى جعل فيه الانتشار و طلب الرزق على ما ذكره الراغب فى معنى اللفظتين.

و حال ستره تعالى الناس بلباس الليل و قطعهم به عن العمل و الحركة ثم نشرهم للعمل و السعى بإظهار النهار و بسط النور كحال مد الظل ثم جعل الشمس عليه دليلاً و قبض الظل بها اليه.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا البشر بالضم فالسكون مخفف بشر بضمين جمع بشور بمعنى مبشر أى هو الذى أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته و هى المطر.

و قوله: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا أى من جهه العلو و هى جو الأرض ماء طهوراً أى بالغاً فى طهارته فهو طاهر فى نفسه مطهر لغيره يزيل الأوساخ و يذهب بالأرجاس و الأحداث فالطهور على ما قيل صيغه مبالغه-.

قوله تعالى: لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَ نُشَقِّيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنْاسِيَ كَثِيرًا، البلده معروفه قيل: و أريد بها المكان كما فى قوله: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ لِبَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف ٥٨)، و لذا اتصف بالميت و هو مذكر و المكان الميت ما لا نبات فيه و إحياءه

إنباته، و الأناسى جمع إنسان، و معنى الآيه ظاهر.

و حال شمول الموت للأرض و الحاجه الى الشرب و الرى للأنعام و الأناسى ثم إنزاله تعالى من السماء ماء طهورا ليحيى به بلده ميتا و يسقيه أنعاما و أناسى كثيرا من خلقه كحال مد الظل ثم الدلاله عليه بالشمس و نسخه بها كما تقدم.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ **إِلَّا كُفُّوا** ظاهراً اتصال الآيه بما قبلها أن ضمير «صَرَّفْنَاُ» للماء و تصريفه بينهم صرفه عن قوم الى غيرهم تاره و عن غيرهم اليهم أخرى فلا- يدوم فى نزوله على قوم فيهلكوا و لا- ينقطع عن قوم دائما فيهلكوا بل يدور بينهم حتى ينال كل نصيبه بحسب المصلحه، و قيل: المراد بالتصريف التحويل من مكان الى مكان.**

و قوله: **لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ **إِلَّا كُفُّوا** تعليلاً للتصريف أى و أقسم لقد صَرَّفْنَاُ الماء بتقسيمه بينهم ليتذكروا فيشكروا فأبى و امتنع أكثر الناس إلا كفران النعمه.**

قوله تعالى: **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا** أى لو أردنا أن نبعث فى كل قريه نذيرا ينذرهم و رسولا يبلغهم رسالاتنا لبعثنا و لكن بعثناك الى القرى كلها نذيرا و رسولا لعظيم منزلتك عندنا. هكذا فسرت الآيه و لا تخلو الآيه التاليه من تأييد لذلك، و هذا المعنى لما وجهنا به اتصال الآيات أنسب.

أو أن المراد أننا قادرون على أن نبعث فى كل قريه رسولا و إنما اخترناك لمصلحه فى اختيارك.

قوله تعالى: **فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** متفرع على معنى الآيه السابقه، و ضمير «بِهِ» للقرآن بشهادته سياق الآيات، و المجاهده و الجهاد بذل الجهد و الطاقه فى مدافعه العدو و إذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم و بيان حقائقه لهم و إتمام حججه عليهم.

فمحصل مضمون الآيه أنه إذا كان مثل رساله الإلهيه فى رفع حجاب الجهل و الغفله المضروب على قلوب الناس يظهار الحق لهم و إتمام الحججه عليهم مثل الشمس فى الدلاله على الظل الممدود و نسخه بأمر الله، و مثل النهار بالنسبه الى الليل و سبته، و مثل المطر بالنسبه الى الأرض الميتة و الأنعام و الأناسى الظامئه، و قد بعثناك لتكون نذيراً لأهل القرى فلا تطع الكافرين لأن طاعتهم تبطل هذا الناموس العام المضروب للهدايه. و ابذل مبلغ جهدك و وسعك فى تبليغ رسالتك و إتمام حجتك بالقرآن المشتمل على الدعوه الحقه و جاهدهم به مجاهده كبيره.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُورَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً الخلط و منه أمر مريج أى مختلط، و العذب من الماء ما طاب طعمه، و الفرات منه ما كثر عذوبته، و الملح هو الماء المتغير طعمه.

و الاجاج شديد الملوحة، و البرزخ هو الحد الحاجز بين شيئين، و حجرا محجورا أى حراما محرما أن يختلط أحد الماءين بالآخر.

و قوله: وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا السَّخَّ قريته على أن المراد بمرج البحرين إرسال الماءين متقارنين لا الخلط بمعنى ضرب الأجزاء بعضها ببعض.

و الكلام معطوف على ما عطف عليه قوله: «وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ» السخ؛ و فيه تنظير لامر الرساله من حيث تأديتها الى تمييز المؤمن من الكافر مع كون الفريقين يعيشان على أرض واحده مختلطين و هما مع ذلك غير متمازجين كما تقدمت الإشارة اليه فى أول الآيات التسع.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْرًا وَ كَانَ رُبُّكَ قَدِيراً الصهر على ما نقل عن الخليل الختن و أهل بيت المرأه فالنسب هو التحرم من جهه الرجل و الصهر هو التحرم من جهه المرأه- كما قيل- و يؤيده المقابله بين النسب

و المعنى: و هو الذى خلق من النطفه- و هى ماء واحد- بشرا فقسّمه قسمين ذا نسب و ذا صهر يعنى الرجل و المرأه و هذا تنظير آخر يفيد ما تفيد الآيه السابقه أن لله سبحانه أن يحفظ الكثره فى عين الوحده و التفرق فى عين الاتحاد و هكذا يحفظ اختلاف النفوس و الآراء بالإيمان و الكفر مع اتحاد المجتمع البشرى بما بعث الله الرسل لكشف حجاب الضلال الذى من شأنه غشيانه لو لا الدعوه الحقه.

و قوله: **وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا** فى إضافه الرب الى ضمير الخطاب من النكته نظير ما تقدم فى قوله: **«أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ»**.

قوله تعالى: **يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَ كَانِ الْكَافِرِ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا** معطوف على قوله: **«وَ إِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا»**.

و الظهير بمعنى المظاهر على ما قيل و المظاهره المعاونه.

و المعنى: و يعبدون- هؤلاء الكفار المشركون- من دون الله ما لا ينفعهم بإيصال الخير على تقدير العباده و لا يضرهم بإيصال الشر على تقدير ترك العباده و كان الكافر معاونا للشيطان على ربه.

و كون هؤلاء المعبودين و هم الأصنام ظاهرا لا ينفعون و لا يضررون لا ينافى كون عبادتهم مضره فلا يستلزم نفى الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرن على شىء نفى الضرر عن عبادتهم المضره المؤديه للإنسان الى شقاء لازم و عذاب دائم.

قوله تعالى: **وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا** أى لم نجعل فى رسالتك إلا التبشير و الإنذار و ليس لك وراء ذلك من الأمر شىء فلا- عليك إن كانوا معاندين لربهم مظاهرين لعدوه عليه فليسوا بمعجزين لله و ما يمكرون إلا بأنفسهم، هذا هو الذى يعطيه السياق.

و عليه فقوله: **وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا** هذا الفصل من الكلام نظير

قوله: «أفأنت تكون عليهم وكيلا» فى الفصل السابق.

و منه يظهر أن أخذ بعضهم الآيه تسليه منه تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال و المراد ما أرسلناك إلا مبشرا للمؤمنين و نذيرا للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم. غير سديد.

قوله تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ضَمِير «عَلَيْهِ» للقرآن بما أن تلاوته عليهم تبلغ للرساله كما قال تعالى: إِنَّ هَٰؤُلَاءِ نَذِيرٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (المزمل ١٩/)(الدهر ٢٩/)، و قال: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (ص ٨٧/).

و قوله: إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا- استثناء منقطع فى معنى المتصل فإنه فى معنى إلا أن يتخذ الى ربه سبيلا من شاء ذلك على حد قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَىٰ اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء ٨٩/)، أى إلا أن يأتى الله بقلب سليم من أتاه به.

ففيه وضع الفاعل و هو من اتخذ السبيل موضع فعله و هو اتخاذ السبيل شكرا له ففى الكلام عدّ اتخاذهم سبيلا الى الله سبحانه باستجابته الدعوه أجرا لنفسه فيه تلويح الى نهايه استغنائه عن أجر مالى أو جاهى منهم، و أنه لا- يريد منهم وراء استجابتهم للدعوه و اتباعهم للحق شيئا آخر من مال أو جاه أو أى أجر مفروض فليطيبوا نفسا و لا يتهموه فى نصيحته.

و قد علّق اتخاذ السبيل على مشيتهم للدلاله على حرمتهم الكامله عن قبله صلى الله عليه وآله فلا إكراه و لا إجبار إذ لا وظيفه له عن قبل ربه وراء التبشير و الإنذار و ليس عليهم بوكيل بل الامر الى الله يحكم فيهم ما يشاء.

فقوله: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ الْخَيْرَ؛ بعد ما سجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن ليس له إلا الرساله بالتبشير و الإنذار يأمره أن يبلغهم أن لا بغيه له فى دعوتهم إلا أن يستجيبوا له و يتخذوا الى ربهم سبيلا من غير غرض زائد من الاجر أيا ما

كان، و أن لهم الخيره فى أمرهم من غير أى إجبار و إكراه فهم و الدعوه إن شاءوا فليؤمنوا و إن شاءوا فليكفروا.

هذا ما يرجع اليه صلى الله عليه و آله و سلم و هو تبليغ الرساله فحسب من غير طمع فى أجر و لا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكال، و أما ما وراء ذلك فهو لله فليرجعه اليه و ليتوكل عليه كما أشار اليه فى الآيه التاليه «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» .

قوله تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا لما سجل على نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن ليس له من أمرهم شىء إلا الرساله و أمره أن يبلغهم أن لا بغيه له فى دعوتهم إلا الاستجابه لها و أنهم على خيره من أمرهم إن شاءوا آمنوا و إن شاءوا كفروا تتم ذلك بأمره صلى الله عليه و آله و سلم أن يتخذه تعالى و كيلا فى أمرهم فهو تعالى عليهم و على كل شىء و كيل و بذنوب عباده خبير.

فقوله: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أى اتخذه و كيلا فى أمرهم يحكم فيهم ما يشاء و يفعل بهم ما يريد فإنه الوكيل عليهم و على كل شىء و قد عدل عن تعليق التوكل بالله الى تعليقه بالحي الذى لا يموت ليفيد التعليل فإن الحي الذى لا يموت لا يفوته فائت فهو المتعين لأن يكون و كيلا.

و قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ أى نزهه عن العجز و الجهل و كل ما لا يليق بساحه قدسه مقارنا ذلك للثناء عليه بالجميل فإن أمهلهم و استدرجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلك و لا عن جهل بذنوبهم و إن أخذهم بذنوبهم فبحكمه اقتضته و باستحقاق منهم استدعى ذلك فسبحانه و بحمده.

و قوله: وَ كَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا مسوق للدلاله على توحيده فى فعله و صفته فهو الوكيل المتصرف فى أمور عباده وحده و هو خبير بذنوبهم و حاكم فيهم وحده من غير حاجه الى من يعينه فى علمه أو فى حكمه.

و من هنا يظهر أن الآيه التاليه «الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» متممه لقوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» الخ؛ لاشتمالها على توحيده فى ملكه و تصرفه كما يشتمل قوله:

«وَكَفَى بِهِ» الخ؛ على علمه و خبرته و بالحياه و الملك و العلم معا يتم معنى الوكاله و سنشير اليه.

قوله تعالى: «الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا» ظاهر السياق أن الموصول صفه لقوله فى الآيه السابقه: «الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» و بهذه الآيه يتم البيان فى قوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» فإن الوكاله كما تتوقف على حياه الوكيل تتوقف على العلم، و قد ذكره فى قوله: «وَكَفَى بِهِ بِعِدْنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا» و تتوقف على السلطنه على الحكم و التصرف و هو الذى تتضمنه هذه الآيه بما فيها من حديث خلق السماوات و الارض و الاستواء على العرش.

و قد تقدم تفسير صدر الآيه فى مواضع من السور السابقه، و أما قوله: «الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا» فالذى يعطيه السياق و يهدى اليه النظم أن يكون الرحمن خبرا لمبتدأ محذوف و التقدير هو الرحمن، و قوله: «فَسئَلُ» متفرعا و الفاء للتفريع، و الباء فى قوله: «بِهِ» للتعديه مع تضمين السؤال معنى الاعتناء. و قوله: «خَبِيرًا» حال من الضمير.

و المعنى: هو الرحمن-الذى استوى على عرش الملك و الذى برحمته و إفاضته يقوم الخلق و الأمر و منه يبتدى كل شىء و اليه يرجع-فاسأله عن حقيقه الحال يخبرك بها فإنه خبير.

فقوله: «فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا» كناية عن أن الذى أخبر به حقيقه الأمر التى لا معدل عنها و هذا كما يقول من سئَل عن أمر: سألنى أجيبك إن كذا و كذا و من هذا الباب قولهم: على الخبير سقطت.

و لهم فى قوله: «الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا» أقوال أخرى كثيره: فقيل: إن الرحمن

مرفوع على القطع للمدح، وقيل: مبتدأ خبره قوله: «فَسَدِّئْ بِهِ»، وقيل: خير مبتدؤه «الَّذِي» في صدر الآية، وقيل: بدل من الضمير المستكن في «اسْتَوَى» .

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَّا سَجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول و دعوته الحقه يذكر فيه استكبارهم عن السجود لله سبحانه إذا دعوا اليه و نفورهم منه و للآيه اتصال خاص بما قبلها من حيث ذكر الرحمن فيها و قد وصف في الآيه السابقه بما وصف و لعل اللام فيه للعهد.

فقوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ الضمير للكفار، و القائل هو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بدليل قوله بعد: «أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا» و لم يذكر اسمه ليتوجه استكبارهم الى الله سبحانه وحده.

و قوله: قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ سؤال منهم عن هويته و مائتته مبالغه منهم فى التجاهل به استكبارا منهم على الله و لو لا ذلك لقالوا: و من الرحمن، و هذا كقول فرعون لموسى لما دعاه الى رب العالمين وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (الشعراء ٢٣)، و قول إبراهيم لقومه مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (الأنبياء ٥٢)، و مراد السائل فى مثل هذا السؤال أنه لا معرفه له من المسئول عنه بشىء أزيد من اسمه كقول هود لقومه أ تُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ (الأعراف ٧١).

و قوله حكاية عنهم: «أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا» فى تكرار التعبير عنه تعالى بما إصرار على الاستكبار، و التعبير عن طلبه عنهم السجده بالأمر لا يخلو من تهكم و استهزاء.

و قوله: وَ زَادَهُمْ نُفُورًا معطوف على جواب إذا و المعنى: و إذا قيل لهم اسجدوا استكبروا و زادهم ذلك نفورا ففاعل (زادهم) ضمير راجع الى القول المفهوم من سابق الكلام.

قوله تعالى: **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا** الظاهر أن المراد بالبروج منازل الشمس و القمر من السماء او الكواكب التي عليها كما تقدم في قوله: **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينًا لِلنَّازِحِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ** (الحجر ١٧/)، وإنما خصت بالذكر في الآية للإشارة الى الحفظ و الرجم المذكورين.

و الذي يعطيه التدبر أن قوله: **«تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا»** الخ؛ مسوق سوق التعرز و الاستغناء، و أنهم غير معجزين باستكبارهم على الله و استهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن الاقتراب من حضره قربه و الصعود الى سماء جواره و المعارف الإلهية مضيئه مع ذلك لأهله و عباده بما نورها الله سبحانه بنور هدايته و هو نور الرساله.

و على هذا فقد أثنى الله سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج المحفوظه الراجمه للشياطين بالشهب في السماء المحسوسه و جعل الشمس المضيئه و القمر المنير فيها لإضاءه العالم المحسوس، و أشار بذلك الى ما يناظره في الحقيقه من إضاءه العالم الإنساني بنور الهدايه من الرساله ليتبصر به عباده، كما يذكر حالهم بعد هذه الآيات و دفع أولياء الشياطين عن الصعود اليه بما هيأ لدفعهم من بروج محفوظه راجمه.

هذا ما يعطيه السياق و على هذا النمط من البيان سقت هذه الآيات و التي قبلها كما تقدمت الإشارة اليه في تفسير قوله: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظُّلَّ»** فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها.

قوله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** الخلفه هي الشيء يسد مسد شيء آخر و بالعكس و كأنه بناء نوع أريد به معنى الوصف فكون الليل و النهار خلفه أن كلا منهما يخلف الآخر، و تقييد الخلفه بقوله: **«لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا»** للدلاله على نيابه كل منهما عن الآخر في التذكر و الشكر.

والمقابلة بين التذکر والشکر يعطى أن المراد بالتذکر الرجوع الى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الداله على توحيد ربه و ما يليق به تعالى من الصفات و الأسماء و غايته الإيمان بالله، و بالشکور القول او الفعل الذى ينبى عن الثناء عليه بجميل ما أنعم، و ينطبق على عبادته و ما يلحق بها من صالح العمل.

و على هذا فالآيه اعتزاز او امتنان بجعله تعالى الليل و النهار بحيث يخلف كل صاحبه فمن فاته الإيمان به فى هذه البرهه من الزمان تداركه فى البرهه الاخرى منه، و من لم يوفق لعباده او لأى عمل صالح فى شىء منهما أتى به فى الآخر.

هذا ما تفيده الآيه و لها مع ذلك ارتباط بقوله فى الآيه السابقه: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَّاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا» ففيه إشاره الى أن الله سبحانه و إن دفع أولئك المستكبرين عن الصعود الى ساحه قربه لكنه لم يمنع عباده عن التقرب اليه و الاستضاءه بنوره فجعل نهارا ذا شمس طالعه و ليلا ذا قمر منير و هما ذوا خلفه من فاته ذكر أو شكر فى أحدهما أتى به فى الآخر.

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٦٣ الى ٧٧]

إشاره

وَإِذَا الرِّخْمَنَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَاً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سِئَاماً (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَاماً (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يُخَلَّدُ فِيهِ مُهَاناً (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ فَمِ عَمَلٍ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَ عُيُونا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَ يُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَ سِلاماً (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسِنتَ مُسْتَقَرًّا وَ مُقَاماً (٧٦) قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً (٧٧)

بيان:

قوله تعالى: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا لما ذكر في الآيه السابقه
استكبارهم على الله سبحانه

ص: ٥٢٤

و إهانتهم بالاسم الكريم: الرحمن، قابله في هذه الآية بذكر ما يقابل ذلك للمؤمنين و سماهم عبادا و أضافهم الى نفسه متسما باسم الرحمن الذى كان يحيد عنه الكفار و ينفرون.

و قد وصفتهم الآية بوصفين من صفاتهم:

أحدهما: ما اشتمل عليه قوله: «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» و الهون على ما ذكره الراغب التذلل، و الأشبه حينئذ أن يكون المشى على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطه الناس و معاشرتهم فهم فى أنفسهم متذللون لربهم و متواضعون للناس لما أنهم عباد الله غير مستكبرين على الله و لا مستعلين على غيرهم بغير حق، و أما التذلل لأعداء الله ابتغاء ما عندهم من العزه الوهميه فحاشاهم و إن كان الهون بمعنى الرفق و اللين فالمراد أنهم يمشون من غير تكبر و تبخر.

و ثانيهما: ما اشتمل عليه قوله: «وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» أى إذ خاطبهم الجاهلون خطابا ناشئا عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول و قالوا لهم قولا سلاما خاليا عن اللغو و الإثم، قال تعالى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا (الواقعه ٢٦)، و يرجع الى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل.

و هذه- كما قيل- صفه نهارهم إذا انتشروا فى الناس و أما صفه ليلهم فهى التى تصنفها الآية التالیه.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَ قِيَامًا» إدرارك الليل سواء نام أم لا، و «لِرَبِّهِمْ» متعلق بقوله: «سُجَّدًا» و السجد و القيام جمعا ساجد و قائم، و المراد عبادتهم له تعالى بالخروج على الأرض و القيام على السوق، و من مصاديقه الصلاة.

و المعنى: و هم الذين يدركون الليل حال كونهم ساجدين فيه لربهم و قائمين يتراوحن سجودا و قياما، و يمكن أن يراد به التهجد بنوافل الليل.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا الغرام ما ينوب الانسان من شده أو مصيبه فيلزمه و لا يفارقه و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا الضمير لجهنم و المستقر و المقام اسما مكان من الاستقرار و الإقامة، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا، الإنفاق بذل المال و صرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره، و الإسراف الخروج عن الحد و لا يكون إلا في جانب الزيادة، و هو في الإنفاق التعدى عما ينبغي الوقوف عليه في بذل المال، و القتر بالفتح فالتقليل في الإنفاق و هو بإزاء الاسراف على ما ذكره الراغب، و القتر و الاقتار و التقتير بمعنى.

و القوم بالفتح الواسط العدل، و بالكسر ما يقوم به الشيء و قوله: «بَيْنَ ذَلِكَ» متعلق بالقوام، و المعنى: و كان إنفاقهم وسطا عدلا بين ما ذكر من الاسراف و القتر فقوله: «وَ كَمَا بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» تنصيص على ما استفاد من قوله: «إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا»، فصدر الآيه ينفي طرفى الافراط و التفريط فى الانفاق، و ذيلها يثبت الوسط.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ هذا هو الشرك و أصول الوثنيه لا تجيز دعاءه تعالى و عبادته أصلا لا وحده و لا مع آلهتهم و إنما توجب دعاء آلهتهم و عبادتهم ليقربوهم الى الله زلفى و يشفعوا لهم عنده.

فالمراد بدعائهم مع الله إلها آخر إما التلويح الى أنه تعالى إله مدعو بالفطره على كل حال فدعاء غيره دعاء لإله آخر معه و إن لم يذكر الله.

أو أنه تعالى ثابت فى نفسه سواء دعى غيره أم لا فالمراد بدعاء غيره دعاء إله آخر مع وجوده و بعبارة أخرى تعديه الى غيره.

أو إشاره الى ما كان يفعله جهله مشركى العرب فإنهم كانوا يرون أن دعاء آلهتهم إنما

ينفعهم في البر و أما البحر فإنه لله لا يشاركه فيه أحد فالمراد دعاؤه تعالى في ورد كما عند شدائد البحر من طوفان و نحوه و دعاء غيره مع في مورد و هو البر، و أحسن الوجوه أوسطها.

و قوله: **وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ** أى لا يقتلون النفس الإنسانية التي حرّم الله قتلها في حال من الأحوال إلا حال تلبس القتل بالحق كقتلها قصاصاً و حدّاً.

و قوله تعالى: **وَلَا يَزْنُونَ** أى لا يطئون الفرج الحرام و قد كان شائعاً بين العرب في الجاهلية، و كان الإسلام معروفاً بتحريم الزنا و الخمر من أول ما ظهرت دعوته.

و قوله: **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** الإشارة بذلك الى ما تقدم ذكره و هو الشرك و قتل النفس المحترمه بغير حق و الزنا، و الأثام الإثم و هو وبال الخطيئه و هو الجزاء بالعذاب الذى سيلقاه يوم القيامة المذكور فى الآيه التاليه.

قوله تعالى: **يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** و **وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا** بيان للقاء الأثام، و قوله: **«وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا»** أى يخلد فى العذاب قد وقعت عليه الإهانه.

و الخلود فى العذاب فى الشرك لا- ريب فيه، و أما الخلود فيه عند قتل النفس المحترمه و الزنا و هما من الكبائر و قد صرح القرآن بذلك فيهما و كذا فى أكل الربا فيمكن أن يحمل على اقتضاء طبع المعصيه ذلك كما ربما استفيد من ظاهر قوله: **«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»**.

أو يحمل الخلود على المكث الطويل أعّم من المنقطع و المؤيد أو يحمل قوله: **«وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ»** على فعل جميع الثلاثه لأن الآيات فى الحقيقه تنزّه المؤمنين عما كان الكفار مبتلين به و هو الجميع دون البعض.

قوله تعالى: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** وَ **وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** استثناء من لقى الأثام و الخلود فيه،

وقد أخذ في المستثنى التوبه و الإيمان و إتيان العمل الصالح، أما التوبه و هى الرجوع عن المعصيه و أقل مراتبها الندم فلو لم يتحقق لم ينتزع العبد عن المعصيه و لم يزل مقيماً عليها، و أما إتيان العمل الصالح فهو مما تستقر به التوبه و به تكون نصوحاً.

و أما أخذ الإيمان فيدل على أن الاستثناء إنما هو من الشرك فتختص الآية بمن أشرك و قتل و زنا او بمن أشرك سواء أتى معه بشيء من القتل المذكور و الزنا و لم يأت، و أما من أتى بشيء من القتل و الزنا من غير شرك فالمتكفل لبيان حكم توبته الآية التاليه.

و قوله: **فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** تفریح على التوبه و الإيمان و العمل الصالح يصف ما يترتب على ذلك من جميل الأثر و هو أن الله يبذل سيئاتهم حسنات.

و الذى يفيد ظاهر قوله: **«يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»** و قد ذيله بقوله: **«وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»** أن كل سيئه منهم نفساً تتبدل حسنه، و ليست السيئه هى متن الفعل الصادر من فاعله و هو حركات خاصه مشتركه بين السيئه و الحسنه كعمل المواقعه مثلاً المشترك بين الزنا و النكاح، و الأكل المشترك بين أكل المال غضباً و بإذن من مالكه بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله و مخالفته له مثلاً من حيث إنه يتأثر به الإنسان و يحفظ عليه دون الفعل الذى هو مجموع حركات متصّره متقضيه فانيه و كذا عنوان القائم به الفانى بفنائه.

و هذه الآثار السيئه التى يتبعها العقاب أعنى السيئات لازمه للإنسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر.

و لو لا شوب من الشقوه و المساءه فى الذات لم يصدر عنها عمل سيئ إذ الذات السعيده الطاهره من كل وجه لا يصدر عنها سيئه قدره فالأعمال السيئه إنما تلحق ذاتاً شقيّه خبيثه بذاتها او ذاتاً فيها شوب من شقاء و خباثه.

و لازم ذلك إذا تطهرت بالتوبه و طابت بالإيمان و العمل الصالح فتبدلت ذاتاً سعيده ما فيها شوب من قذاره الشقاء أن تتبدل آثارها اللازمه التى كانت سيئات قبل ذلك فتناسب الآثار

للذات بمغفره من الله و رحمه و كان الله غفورا رحيمًا.

و الى مثل هذا يمكن أن تكون الإشارة بقوله: «فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» .

قوله تعالى: وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا المتاب مصدر ميمي للتوبه، و سياق الآية يعطى أنها مسوقه لرفع استغراب تبدل السيئات حسنات بتعظيم أمر التوبه و أنها رجوع خاص الى الله سبحانه فلا بدع فى أن يبدل السيئات حسنات و هو الله يفعل ما يشاء.

و فى الآية مع ذلك شمول للتوبه من جميع المعاصى سواء قارنت الشرك أم فارقته، و الآية السابقه- كما تقدمت الإشارة اليه- كانت خفيه الدلاله على حال المعاصى إذا تجردت من الشرك.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا قال فى مجمع البيان: أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنه حق. انتهى. فيشمل الكذب و كل لهو باطل كالغناء و الفحش و الخناء بوجه، و قال أيضا: يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه و أكرم نفسه منه انتهى.

فقوله: وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق و التقدير لا يشهدون شهاده الزور، و إن كان المراد اللغو الباطل كالغناء و نحوه كان مفعولا به و المعنى لا يحضرون مجالس الباطل، و ذيل الآية يناسب ثانى المعنيين.

و قوله: وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا اللغو ما لا يعتد به من الأفعال و الأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلاى و يعم- كما قيل- جميع المعاصى، و المراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو و هم مشتغلون به.

و المعنى: و إذا مروا بأهل اللغو و هم يلغون مروا معرضين عنهم منزهين أنفسهم عن

الدخول فيهم و الاختلاط بهم و مجالستهم.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا الْخُرُورَ عَلَى الْأَرْضِ السَّقُوطَ عَلَيْهَا وَ كَأَنهَا فِي الْآيَةِ كُنَايَهُ عَنِ لَزُومِ الشَّيْءِ وَالْانْكَبَابِ عَلَيْهِ.

و المعنى: و الذين إذا ذكروا بآيات ربهم من حكمه أو موعظه حسنه من قرآن أو وحى لم يسقطوا عليه و هم صم لا يسمعون و عميان لا يبصرون بل تفكروا فيها و تعقلوها فأخذوا بها من بصيره فآمنوا بحكمتها و اتعظوا بموعظتها و كانوا على بصيره من أمرهم و بينه من ربهم.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا قَالَ الرَّاغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: قَرَّتْ عَيْنُهُ تَقَرَّرَتْ قَالَ تَعَالَى:

«كَيْ تَقَرَّرَ عَيْنُهُمَا» و قيل لمن يسر به قره عين قال: «قره عين لى و لك» و قوله تعالى: «هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ» قيل: أصله من القرأى البرد فقرت عينه قيل: معناه بردت فصحت، و قيل: بل لأن للسرور دمه بارد قاره و للحنن دمه حاره و لذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن الله عينه، و قيل: هو من الفرار و المعنى أعطاه الله ما يسكن به عينه فلا تطمح الى غيره انتهى.

و مرادهم بكون أزواجهم و ذرياتهم قره عين لهم أن يسروهم بطاعه الله و التجنب عن معصيته فلا حازه لهم فى غير ذلك و لا إربه و هم أهل حق لا يتبعون الهوى.

و قوله: وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أى متسابقين الى الخيرات سابقين الى رحمتك فيتبعنا غيرنا من المتقين كما قال تعالى: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (البقره ١٤٨)، و قال:

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ (الحديد ٢١)، و قال: وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه ١١). و كأن المراد أن يكونوا صفا واحدا متقدما على غيرهم من المتقين و لذا جىء بالإمام بلفظ الأفراد.

قوله تعالى: أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا الغرفة- كما قيل -البناء فوق البناء فهو الدرجة العاليه من البيت، و هى كناية عن الدرجة العاليه فى الجنة، والمراد بالصبر الصبر على طاعة الله و عن معصيته فهذان القسمان من الصبر هما المذكوران فى الآيات السابقه لكن لا ينفك ذلك عن الصبر عند النوائب و الشدائد.

و المعنى: أولئك الموصوفون بما وصفوا يجزون الدرجة الرفيعه من الجنة يلقون فيها أى يتلقاهم الملائكه بالتحية و هو ما يقدم للإنسان مما يسره و بالسلام و هو كل ما ليس فيه ما يخافه و يحذره، و فى تنكير التحية و السلام دلالة على التفخيم و التعظيم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا قَالَ فى المفردات: ما عبأت به أى لم أبال به، و أصله من العبء أى الثقل كأنه قال: ما أرى له وزنا و قدرا، قال تعالى: «قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» و قيل: عبأت الطيب كأنه قيل: ما يبيحكم لو لا دعاؤكم. انتهى.

و المعنى: قل لا قدر و لا منزله لكم عند ربى فوجودكم و عدمكم عنده سواء لأنكم كذبتم فلا خير يرجى فيكم فسوق يكون هذا التكذيب ملازما لكم أشد الملازمه، إلا أن الله يدعوكم لیتّم الحجه عليكم أو يدعوكم لعلكم ترجعون عن تكذيبكم. و هذا معنى حسن.

و الآيه خاتمه السوره و تعطف الى غرض السوره و محصل القول فيه و هو الكلام على اعتراض المشركين على الرسول و على القرآن النازل عليه و تكذيبهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنَّ نَسْأَ
نُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥)
فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَلْبَؤًا مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)

غرض السوره تسليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبال ما كذب به قومه و كذبوا بكتابه النازل عليه من ربه -على ما يلوح اليه صدر السوره: تلك آيات الكتاب المبين- و قد رموه تاره بأنه مجنون و أخرى بأنه شاعر، و فيها تهديدهم مشفقاً ذلك بإيراد قصص جمع من الأنبياء و هم موسى و إبراهيم و نوح و هود و صالح و لوط و شعيب عليهم السلام و ما انتهت اليه عاقبه تكذيبهم لتسلي به نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم و لا يحزن بتكذيب أكثر قومه و ليعتبر المكذبون.

و السوره من عتائق السور المكيه و أوائلها نزولا و قد اشتملت على قوله تعالى: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . و ربما أمكن أن يستفاد من وقوع هذه الآيه فى هذه السوره و وقع قوله:

فَاضِدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فى سوره الحجر و قياس مضمونها كل مع الاخرى أن هذه السوره أقدم نزولا من سوره الحجر و ظاهر سياق آيات السوره أنها جميعا مكيه و استثنى بعضهم الآيات الخمس التى فى آخرها، و بعض آخر قوله: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ و سيجىء الكلام فيهما.

قوله تعالى: طسم تلك آيات الكتاب المبين الإشاره بتلك الى آيات الكتاب مما سينزل بنزول السوره و ما نزل قبل، و تخصيصها بالإشاره البعيده للدلاله على علو قدرها و رفعه مكانتها، و المبين من أبان بمعنى ظهر و انجلى.

و المعنى: تلك الآيات العالیه قدر الرفيعه مكانا آيات الكتاب الظاهر الجلى كونه من عند الله سبحانه بما فيه من سمه الإعجاز و إن كذب به هؤلاء المشركون المعاندون و رموه تاره بأنه من إلقاء شياطين الجن و أخرى بأنه من الشعر.

قوله تعالى: لَعَلَّكَ بِالْخَيْعِ نَفْسِيكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ الْبُخُوعِ هو إهلاك النفس عن وجد، و قوله: «أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» تعليل للبخوع، و المعنى: يرجى منك أن تهلك نفسك

بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك.

و الكلام مسوق سوق الإنكار و الغرض منه تسليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم.

قوله تعالى: **إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** متعلق المشيئة محذوف لدلاله الجزاء عليه، وقوله: **«فَظَلَّتْ»** الخ؛ ظلّ فعل ناقص اسمه **«أَعْنَاقُهُمْ»** و خبره **«خَاضِعِينَ»** و نسب الخضوع الى أعناقهم و هو وصفهم أنفسهم لأن الخضوع أول ما يظهر في عنق الإنسان حين يطأطئ رأسه تخضعا فهو من المجاز العقلي.

و المعنى: إن نشأ أن نزل عليهم آية تخضعهم و تلجئهم الى القبول و تضطرهم الى الإيمان نزل عليهم آية كذلك فظلوا خاضعين لها خضوعا بينا بانحناء أعناقهم.

قوله تعالى: **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجِدِّدٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ** بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات الله و تمكن الإعراض عن ذكر الله في نفوسهم بحيث كلما تجدد عليهم ذكر من الرحمن و دعوا اليه دفعه بالإعراض.

فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كل ذكر أتاهم لا أنهم يعرضون عن محدث الذكر و يقبلون الى قديمه و في ذكر صفه الرحمن إشاره الى أن الذكر الذي يأتيهم إنما ينشأ عن صفه الرحمه العامه التي بها صلاح دنياهم و أخراهم.

و قد تقدم في تفسير أول سورة الأنبياء كلام في معنى الذكر المحدث فراجع.

قوله تعالى: **فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَلْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ** تفریع على ما تقدم من استمرار إعراضهم، وقوله: **«فَسَيَأْتِيهِمْ»** الخ؛ تفریع على التفریع و الأنبياء جمع نبأ و هو الخبر الخطير، و المعنى لما استمر منهم الإعراض عن كل ذكر يأتيهم تحقق منهم و ثبت عليهم أنهم كذبوا، و إذ تحقق منهم التكذيب فسَيَأْتِيهِمْ أبناء ما كانوا به يستهزئون من آيات الله، و تلك الأبناء العقوبات العاجله و الآجله التي ستحيق بهم.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أُنبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ الاستفهام للإنكار التويخي و الجملة معطوف على مقدر يدل عليه المقام و التقدير أصروا و استمروا على الإعراض و كذبوا بالآيات و لم ينظروا الى هذه الأزواج الكريمة من النباتات التي أنبتناها فى الأرض.

فالرؤية فى قوله: أَوْ لَمْ يَرَوْا مضمونه معنى النظر و لذا عدت بآلى، و الظاهر أن المراد بالزوج الكريم. و هو الحسن على ما قيل: النوع من النبات و قد خلق الله سبحانه أنواعه أزواجاً، و قيل: المراد بالزوج الكريم الذى أنبته الله يعم الحيوان و خاصة الانسان بدليل قوله:

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ .

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَآيَةٍ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ الاشارة بذلك الى ما ذكر فى الآيه السابقه من إنبات كل زوج كريم حيث أن فيه إيجادا لكل زوج منه و تتميم نقائص كل من الزوجين بالآخر و سوقهما الى الغايه المقصوده من وجودهما و فيه هدايه كل الى سعاده الأخيره و من كانت هذه سنته فكيف يهمل أمر الانسان و لا يهديه الى سعاده و لا يدعوه إلى ما فيه خير دنياه و آخرته. هذا ما تدل عليه آيه النبات.

و قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى لم يكن المترقب من حال أكثرهم بما عندهم من ملكه الاعراض و بطلان الاستعداد أن يؤمنوا فظاهر الآيه نظير ظاهر قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يونس ٧٤). و تعليل الكفر و الفسوق برسوخ الملكات الرذيله و استحكام الفساد فى السريره من قبل فى كلامه تعالى أكثر من أن تحصى.

و من هنا يظهر أن قول بعضهم: إن المراد ما كان فى علم الله أن لا- يؤمنوا غير سديد لأنه مضافا الى كونه خلاف المتبادر من الجملة، مما لا- دليل على أنه المراد من اللفظ بل الدليل على خلافه لسبق الدلاله على أن ملكه الاعراض راسخه لم تنزل فى نفوسهم.

و عن سيبويه أن «كَانَ» فى قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ صله زائده و المعنى: و ما

أكثرهم مؤمنين. وفيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن المقام بما تقدم من المعنى أوفق.

قوله تعالى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فهو تعالى لكونه عزيزا غير مغلوب يأخذ المعرضين عن ذكره المكذبين لآياته المستهزئين بها و يجازيهم بالعقوبات العاجله و الآجله، و لكونه رحيمًا ينزل عليهم الذكر ليهديهم و يغفر للمؤمنين به و يمهل الكافرين (١).

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٠ الى ٦٨]

اشاره

وَ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صِدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسِيَّانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ (١٣) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُشْتَمِعُونَ (١٥) فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَ فَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهُمَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَزَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَ تَلَمَّكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذتِ الْهَاءُ غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ ابْنَتِ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُوتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هِرْلُ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّآ تَنْبَعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَلَا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَ عَصَاهُمْ وَ قَالَوا بَعْزُهُمْ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ لَمِنَ الْعَالِيُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لِمَ قَطَعْنَا أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِذَا نَطَمَعُ أَنْ يُغْفَرَ لَنَا رَبَّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَ إِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ (٥٥) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٥٧) وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ إِضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَ أَرْزَلْنَا تَمَّ الْأَخْرِينَ (٦٤) وَ أَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَآئِمَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

١-١) الشعراء ١-٩: بحث عقلى متعلق بالعلم فى علم الله الازلى.

بيان:

قوله تعالى: وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ - إلى قوله - أَلَا يَتَّقُونَ أَي و اذكر وقتا نادى فيه ربك موسى و بعثه بالرساله الى قوم فرعون لإنجاء بنى إسرائيل على ما فصله فى سورة طه و غيرها.

و قوله: أَنْ أَنتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ نوع تفسير للنداء، و توصيفهم أولا بالظالمين ثم

بيانه ثانيا بقوم فرعون للإشارة الى حكمه الإرسال و هي ظلمهم بالشرك و تعذيب بنى إسرائيل كما فى سورة طه من قوله: اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى - الى أن قال - فَأَلْيَاهُ فَاقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ (طه ٤٧).

و قوله: أَلَا- يَتَّقُونَ بصيغته الغيبة، و هو توبيخ غياى منه تعالى لهم و إيراده فى مقام عقد الرساله لموسى عليه السلام فى معنى قولنا: قل لهم إن ربي يوبخكم على ترك التقوى و يقول: أَلَا تَتَّقُونَ.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ - الى قوله - فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ، قال فى مجمع البيان: الخوف انزعاج النفس بتوقع الضرر و نقيضه الأمان و هو سكون النفس الى خلوص النفع، انتهى. و أكثر ما يطلق الخوف على إحساس الشر بحيث يؤدى الى الاتقاء عملا و إن لم تضطرب النفس، و الخشيه على تأثر النفس من توقع الشر بحيث يورث الاضطراب و القلق، و لذا نفى الله الخشيه من غيره عن أنبيائه و ربما أثبت الخوف فقال: وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب ٣٩)، و قال: وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِطِيَاءَ (الأنفال ٥٨).

و قوله: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ أى ينسبني قوم فرعون الى الكذب، و قوله: «وَيَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي» الفعلان مرفوعان و هما معطوفان على قوله:

«أَخَافُ» فالذى اعتلّ به أمور ثلاثه: خوف التكذيب و ضيق الصدر و عدم انطلاق اللسان، و فى قراءه يعقوب و غيره يضيق و ينطلق بالنصب عطفا على «يكذبون» و هو أوفق بطبع المعنى، و على فالعله واحده و هى خوف التكذيب الذى يترتب عليه ضيق الصدر و عدم انطلاق اللسان. و يطابق ما سيجىء من آيه القصص من ذكر عله واحده هى خوف التكذيب.

و قوله: فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ أى أرسل ملك الوحي الى هارون ليكون معينا لى

على تبليغ الرسالة يقال لمن نزلت به نائبه أو أشكل عليه أمر: أرسل الى فلان أى استمد منه و اتخذهُ عوناً لك.

فالجمله أعنى قوله: فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ متفرعه على قوله: «إِنِّي أَخَافُ» الخ؛ و ذكر خوف التّكذيب مع ما معه من ضيق الصدر و عدم انطلاق اللسان توطئه و تقدمه لذكرها و سؤال موهبه الرساله لهارون.

و إنما اعتلّ بما اعتلّ به و سأل الرساله لأخيه ليكن شريكاً له فى أمره، معينا مصدقاً له فى التبليغ لا فرارا عن تحمل أعباء الرساله، و استعفاء منها، قال فى روح المعانى: و من الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع «فَأَرْسِلْ» بين الأوائل و بين الرابعه أعنى قوله: «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ» الخ؛ فأذن بتعلقه بها و لو كان تعللاً لاخر، انتهى.

و هو حسن و أوضح منه قوله تعالى فى سوره القصص فى القصة: قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (القصص ٣٤).

قوله تعالى: وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قال الراغب فى المفردات:

الذنب فى الأصل الأخذ بذنب الشىء يقال: ذنبتهُ أصبت ذنبه، و يستعمل فى كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً لما يحصل من عاقبته. انتهى.

و فى الآيه إشاره الى قصه قتله عليه السّلام، و كونه ذنباً لهم عليه إنما هو بالبناء على اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغوى المذكور آنفاً، و أما كونه ذنباً بمعنى معصيه الله تعالى فلا دليل عليه و سيوافيك فيه كلام عند تفسير سوره القصص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: قَالَ كَلَّا- فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ كلاً للردع و هو متعلق بما ذكره من خوف القتل، ففيه تأمين له و تطيب لنفسه أنهم لا يصلون اليه، و أما سؤاله الإرسال الى هارون فلم يذكر ما أوجب به عنه، غير أن قوله: «فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا» دليل على

إجابه مسؤله.

و قوله: فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا متفرع على الردع فيفيد أن اذها اليه بآياتنا و لا تخافا، و قد علل ذلك بقوله: «إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» و المراد بضمير الجمع موسى و هارون و القوم الذين أرسلنا اليهم، و لا يعبا بقول من قال: إن المراد به موسى و هارون بناء على كون أقل الجمع اثنين فإنه مع فساده في أصله لا تساعد عليه ضمائر التثنيه قبله و بعده كما قيل.

و الاستماع هو الإصغاء الى الكلام و الحديث و هو كناية عن الحضور و كمال العناية بما يجرى بينهما و بين فرعون و قومه عند تبليغ الرساله كما قال في القصه من سوره طه: لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَ أَرَى (طه ٤٦).

و محصل المعنى: كلا- لا- يقدران على قتلك فاذها اليهم بآياتنا و لا تخافا إنا حاضرون عندكم شاهدون عليكم معتنون بما يجرى بينكم.

قوله تعالى: فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنَّ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بيان لقوله في الآيه السابقه: «فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا» .

و قوله: فَقُولَا- إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ تفرع على إتيان فرعون، و التعبير بالرسول بلفظ المفرد إما باعتبار كون رسالتهما واحده و هى قولهما: «أَنْ أَرْسِلَ» الخ؛ أو باعتبار أن الرسول مصدر في الأصل فالأصل أن يستوى فيه الواحد و الجمع، و التقدير إنا ذوا رسول رب العالمين أى ذوا رسالته كما قيل.

و قوله: أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ تفسير للرساله المفهومه من السياق و المراد بإرسالهم إطلاقهم لكن لما كان المطلوب أن يعودوا الى الأرض المقدسه التى كتب الله لهم و هى أرض آبائهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السلام سمى إطلاقهم ليعودوا إليها إرسالاً منه لهم إليها.

قوله تعالى: قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ

ص: ٥٤٢

الاستفهام للإنكار التوبيخي، و «نُرَبِّكَ» من التربيته، و الوليد الصبي.

لما أقبل فرعون على موسى و هارون و سمع كلامهما عرف موسى و خصه بالخطاب قائلاً أ لم نربك، الخ؛ و مراده الاعتراض عليه أولاً من جهة دعواه الرساله يقول: أنت الذى ربيناك و أنت وليد و لبثت فينا من عمرك سنين عديده نعرفك باسمك و نعتك و لم ننس شيئاً من أحوالك فمن أين لك هذه الرساله و أنت من نعرفك و لا نجهل أصلك؟

قوله تعالى: وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ الْفَعْلَةُ بفتح الفاء بناء مره من الفعل، و توصيف الفعله بقوله: «الَّتِي فَعَلْتَ» للدلاله على عظم خطره و كثره شناعته و فظاعته نظير ما فى قوله: فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا عَشِيَهُمْ (طه ٧٨)، و مراده بهذه الفعله قتله عليه السلام القبطى.

و قوله: وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ظاهر السياق على ما سيأتى الإشاره اليه أن مراده بالكفر كفران النعمه و أن قتله القبطى و إفساده فى أرضه كفران لنعمته عليه بالخصوص بما له عنده من الصنيعه حيث كف عن قتله كسائر المواليد من بنى إسرائيل و رباه فى بيته بل لأنه من بنى إسرائيل و هو يراهم عبيدا لنفسه و يرى نفسه ربا منعما عليهم فقتل الواحد منهم رجلا من قومه و إفساده فى الأرض خروج من طور العبوديه و كفر بنعمته.

فمحصل اعتراضه المشار اليه فى الآيتين أنك الذى ربيناك صبياً صغيراً و لبثت فينا من عمرك سنين، و أفسدت فى الأرض بقتل النفس فكفرت بنعمتى و أنت من عبيدى الإسرائيليين فمن أين جاءتك هذه الرساله؟ و كيف تكون رسولا و أنت هذا الذى نعرفك؟.

قوله تعالى: قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُتَرَسِّلِينَ وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ضَمِير «فَعَلْتُهَا» راجع الى الفعله، و الظاهر أن «إِذَا» مقطوع عن الجواب و الجزاء و يفيد معنى حينئذ كما قيل، و عبده تعبيداً و أعبده إعباداً إذا اتخذها عبداً

و الآيات الثلاث جواب موسى عليه السلام عما اعترض به فرعون، و التطبيق بين جوابه عليه السلام و ما اعترض به فرعون يعطى أنه عليه السلام حلل كلام فرعون الى القدر في دعواه للرسالة من ثلاثة أوجه: أحدها استغراب رسالته و استبعادها و هو الذى يعلم حاله و قد أشار اليه بقوله: «ألم نربك فينا وليداً و لثبت فينا من عمرك سنين» و الثانى استقباح فعلته و رميه بالإفساد و الجرم بقوله: «وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتَى فَعَلْتَ» و الثالث المن عليه بأنه من عبده و يستفاد ذلك من قوله:

«وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» و قد اقتضى طبع ما يذكره فى الجواب أن يغير الترتيب فى الجواب فيجيب أولاً عن اعتراضه الثانى ثم عن الأول ثم عن الثالث.

فقوله: فَعَلْتَهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ جواب عن اعتراضه بقتل القبطى و قد استعظمه حيث لم يصرح باسمه بل كنى عنه بالفعل الذى فعلت صوتنا للأسماع أن تفرع باسمه فتألم.

و التدبر فى متن الجواب و مقابلته الاعتراض يعطى أن قوله: «فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا» من تمام الجواب عن القتل فيتقابل الحكم و الضلال و يتضح حينئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم و الحكم إصابه النظر فى حقيقه الأمر و إتقان الرأى فى تطبيق العمل عليه فيرجع معناه إلى القضاء الحق فى حسن الفعل و قبحه و تطبيق العمل عليه، و هذا هو الذى كان يؤتاه الأنبياء، قال تعالى: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» .

فالمراد أنى فعلتها حينئذ و الحال أنى فى ضلال من الجهل بجهه المصلحه فى و الحق الذى يجب أن يتبع هناك فأقدمت على الدفاع عمن استنصرنى و لم أعلم أنه يؤدى الى قتل الرجل و يؤدى ذلك الى عاقبه و خيمه تحوجنى الى خروجى من مصر و فرارى الى مدين و التفرّب عن الوطن سنين.

و قوله: فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا متفرع على قصه

القتل، والسبب في خوفه و فراره ما أخبر الله به في سورة القصص بقوله: **وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنَّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (القصص ٢١).**

و أما الحكم فالمراد به- كما استظهرناه- إصابه النظر في حقيقه الأمر و إتقان الرأى فى العمل به.

و قوله: **وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ** جواب عن الاعتراض الأول و هو استغراب رسالته و استبعادها و هم يعرفونه، و قد شاهدوا أحواله حينما كانوا يربونه فيهم وليدا و لبث فيهم من عمره سنين، و تقريره أن استغرابهم و استبعادهم رسالته استنادا الى سابق معرفتهم بحاله إنما يستقيم لو كانت الرسالة أمرا اكتسابيا يمكن أن يحدث به أو يتوقع حصول مقدماته الاختيارية، و ليس الأمر كذلك بل هى أمر وهبى لا تأثير للأسباب العاديه فيها و قد جعله الله من المرسلين كما وهب له الحكم بغير اكتساب هذا ما يعطيه التدبر فى السياق.

و قوله: **وَ تَلَمَّكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ** جواب عن منه عليه و تقريره بأنه من عبده و قد كفر نعمته و تقرير الجواب أن هذا الذى تعدّه نعمه و تقرّ عنى بكفرانها سلطه ظلم و تغلب إذ عبّدت بنى إسرائيل و التعبيد ظلما و تغلبا ليس من النعمه فى شىء.

فالجمله استفهاميه مسوقه للإنكار و «أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ» بيان لما أشير اليه بقوله:

«تَلَمَّكَ» و المحصّل أن الذى تشير اليه بقولك «وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» من أن لك على نعمه كفرتها إذ كنت ولى نعمتى و سائر بنى إسرائيل- أو إذ كنت ولى نعمتنا معشر بنى إسرائيل- ليس بحق إذ كونك ولىا منعما ليس إلا استنادا الى التعبيد، و التعبيد ظلم و الولايه المستنده اليه أيضا ظلم و حاشا أن يكون الظالم ولىا منعما له على من عبّده نعمه و إلا- كان التعبيد نعمه و ليس نعمه، ففى قوله: «أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وضع السبب موضع المسبب.

قوله تعالى: **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** -الى قوله- **مِنَ الْمَسِيحِينَ لَمَّا كَلِمَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَى رِسَالَتِهِ قَادِحًا فِيهَا فَتَلَقَى الْجَوَابَ بِمَا كَانَ فِيهِ إِفْحَامُهُ أَخَذَ يَكَلِّمُهُ فِي خُصُوصِ مَرْسَلِهِ وَقَدْ أَخْبَرَهُ أَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَرَاغَهُ فِيهِ وَاسْتَوْضَحَهُ بِقَوْلِهِ: **«وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟»** الى تمام سبع آيات.**

و اتضح المراد منها يتوقف على تذكر أصول مذاهب الوثنيه فى أمر الربوبيه و قد تقدمت الإشاره إليها فى خلال الأبحاث السابقه من هذا الكتاب كرارا.

فقوله: **«قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ»** سؤال منه عن حقيقه رب العالمين بيانه أن فرعون كان وثنيا يعبد الأصنام و هو مع ذلك يدعى الالهيه، أما عبادته الأصنام فلقوله تعالى:

وَ يَذَرِكْ وَ آلِهَتِكَ (الأعراف ١٢٧/)، و أما دعواه الالهيه فلايه المذكوره و لقوله تعالى:

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (النازعات ٢٤/).

و لا منافاه عند الوثنيه بين كون الشىء إلها ربا و بين كونه مربوبا لرب آخر لأن الربوبيه هو الاستقلال فى تدبير شىء من العالم و هو لا- ينافى الإمكان و الربوبيه لشىء آخر و كل رب عندهم مربوب لآخر إلا الله سبحانه فهو رب الأرباب لا رب فوقه و إله الآلهه لا إله له.

و كان الملك عند الوثنيه ظهورا من اللاهوت فى بعض النفوس البشريه بالسلطه و نفوذ الحكم فكان يعبد الملوك كما يعبد أرباب الأصنام و كذلك رؤساء البيوت فى بيوتهم، و كان فرعون و ثنيا يعبد الآلهه و هو ملك القبط يعبده قومه كسائر الآلهه.

فلما سمع من موسى و هارون قولهما: **«إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ»** تعجب منه إذ لم يعقل له معنى محصلا إذ لو أريد به الواجب و هو الله سبحانه فهو عنده رب عالم الأرباب دون جميع العالمين و لو أريد به بعض الممكنات الشريفه من الآلهه كبعض الملائكه و غيرهم فهو أيضا عنده رب عالم من عوالم الخلقه دون جميع العالمين فما معنى رب العالمين.

و لذلك قال: **«وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ»** فسأل عن حقيقه الموصوف بهذه الصفه بما هو موصوف

بهذه الصفة و لم يسأل عن حقيقه الله سبحانه فإن لو ثبته كان معتقدا بوجوده مدعنا له و هو يرى كسائر الوثنيين أنه لا سبيل الى إدراك حقيقته كيف؟ و هو أساس مذهبهم الذى يبنون عليه عباده سائر الآلهه و الأرباب كما سمعت.

وقوله: قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ جواب موسى عليه السّلام عن سؤاله «وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» و هو خبر لمبتدأ محذوف، و محصل المعنى على ما يعطيه المطابقه بين السؤال و الجواب: هو رب السماوات و الأرض و ما بينهما التى تدل بوجود التدبير فيها و كونه تدبيرا واحدا متصلا مرتبطا على أن لها مدبرا-ربا-واحدا على ما يراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان و الوجدان.

و بتعبير آخر مرادى بالعالمين السماوات و الأرض و ما بينهما التى تدل بالتدبير الواحد الذى فيها على أن لها ربا مدبرا واحدا، و مرادى برب العالمين ذلك الرب الواحد الذى تدل عليه و هذه دلالة يقينيه يجدها أهل اليقين الذين يتعاطون البرهان و الوجدان. و قوله: قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ أَى أ لا تصغون الى ما يقول موسى؟ و الاستفهام للتعجب يريد أن يصغوا اليه فيتعجبوا من قوله حيث يدعى رساله رب العالمين و إذا سئل ما رب العالمين؟ أعاد الكلمه ثانيا و لم يزد على ما بدأ به شيئا.

و هذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذى لاح من كلام موسى عليه السّلام فإنه إنما قال:

إن جميع العالمين تدلّ بوحده التدبير الذى يشاهده أهل اليقين فيها على أن لها ربا مدبرا واحدا هو الذى تسألنى عنه، و هو يفسر كلامه أنه يقول: أنا رسول رب العالمين، فإذا سألته ما رب العالمين؟ يجيبنى بأنه رب لعالمين.

وقوله: قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ جواب موسى عليه السّلام ثانيا فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله و قد كان أجاب عن سؤاله «وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات و الأرض و ما بينهما عدل ثانيا الى ما يكون أصرح فى المقصود فذكر

ربوبيته تعالى لعالمى الإنسانيه فإن العالم الجماعه من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين و الماضين و لذلك قال: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» .

و كان محصل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانيا بالتصريح على أن رب العالمين هو رب عالمى الإنسانيه من الحاضرين و الماضين و بذلك تنقطع حيلته.

و قوله: □ قال إن رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قول فرعون ثانيا و قد سمي موسى رسولا تهكما و استهزاء و إضافه الى من حوله ترفعا من أن يكون رسولا اليه، و قد رماه بالجنون مستندا الى قوله عليه السلام: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْخ.»

و قوله: □ قال لمن حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ أَى أ لا تصغون إلى ما يقول موسى؟ و الاستفهام للتعجب يريد أن يصغوا اليه فيتعجبوا من قوله حيث يدعى رساله رب العالمين و إذا سئل ما رب العالمين؟ أعاد الكلمه ثانيا و لم يزد على ما بدأ به شيئا.

و هذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذى لاح من كلام موسى عليه السلام فإنه إنما قال إن جميع العالمين تدلّ بوحده التدبير الذى يشاهده أهل اليقين عليها على أن لها ربا مدبرا واحدا هو الذى تسألنى عنه، و هو يفسر كلامه أنه يقول أنا رسول رب العالمين، فإذا سأله ما رب العالمين؟ يجيبني بأنه رب العالمين.

و قوله قال رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ جواب موسى عليه السلام ثانيا فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله و قد كان أجاب عن سؤاله «وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات و الأرض و ما بينهما عدل ثانيا إلى ما يكون أصرح فى المقصود فذكر ربوبيته تعالى لعالمى الإنسانيه فإن العالم الجماعه من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين و الماضين و لذلك قال: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» .

و كان محصل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانيا

بالتصريح على أنه رب العالمين هو رب عالمى الإنسانى من الحاضرين و الماضين و بذلك تنقطع حيلته.

و قوله: قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قول فرعون ثانيا و قد سمي موسى رسولا تهكما و استهزاء و أضافه إلى من حوله ترफعا من أن يكون رسولا إليه، و قد رماه بالجنون مستندا إلى قوله عليه السلام: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمْ» الخ.

كأنه يقول: إنه لمجنون لما فى كلامه من الاختلال الكاشف عن الاختلال فى عقله يدعى رساله رب العالمين فأسأله ما رب العالمين؟ فيكرر اللفظ تقريبا أولا ثم يفسره بأنه ربكم و رب آبائكم الأولين.

و قوله: قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ظاهر السياق أن المراد بالمشرق جهة شروق الشمس و سائر الأجرام التيهر السماويه و طلوعها و بالمغرب الجهه التى تغرب فيها بحسب الحس، و بما بينهما ما بين الجهتين فيشمل العالم المشهود و يساوى السماوات و الأرض و ما بينهما.

فيكون إعادته لمعنى الجواب الأول بتقرير آخر و هو مشتمل على ما اشتمل عليه من نكته اتصال التدبير و اتحاده فإن للشروق ارتباطا بالغروب و المشرق و المغرب يتحققان طرفين لوسط بينهما، كما أن للسماء أرضا و لهما أمر بينهما و هذا النوع من الاتحاد لا يقبل إلا تدبيرا متصلا واحدا، و كما أن كل أمه حاضره لها ارتباط و جودى بالامم الماضيه ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنوع واحد و التدبير واحد فالمدبر واحد.

و قد بدّل قوله فى الجواب الأول: «إِنَّ كُنْتُمْ مُؤَقِنِينَ» من قوله هاهنا: «إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» تعريضا له حيث قال لمن حوله: «أَلَا تَسْتَعْمِلُونَ» استهزاء به و إهانته له، ثم رماه ثانيا بالجنون و اختلال الكلام فأشار عليه السلام بقوله: «إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» الى أنهم هم المحرومون من نعمه التعقل و التفقه و لو كانوا يعقلون لفهموا أن جوابه الأول ليس بتكرار غير مفيد و لكفاهم حجه على

توحيد الرب و أن القائم بتدبير جميع العالمين من السماوات و الأرض و ما بينهما مدبّر واحد لا مدبّر سواه و لا رب غيره.

و قد تبين بما ذكر أن الآيه أعنى قوله: «رَبُّ الْمَشْرِقِ» الخ؛ تقرير آخر لقوله في الجواب الأول: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» و أنه برهان على وحده المدبر من طريق وحده التدبير و في ذلك تعريف لرب العالمين بأنه المدبّر الواحد الذى يدل عليه التدبير و الواحد فى جميع العالمين، نعم البيان الذى يشير اليه هذه الآيه أوضح لاشتماله على معنى الشروق و الغروب و كونهما من التدبير ظاهر.

و قوله: «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ تَهْدِيدَ مِنْهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ دَامَ عَلَى مَا يَقُولُ بِهِ مِنْ رَبوبيه رب العالمين مدّعيًا أنه رسول منه و هذا دأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحججه أخذ فى التهديد و تشبّث بالوعيد.

و اتخاذ إله غيره كناية عن القول بربوبيه رب العالمين الذى يدعو اليه موسى و إنما لم يذكره صونا للسانه عن التفوّه باسمه، و لم يعبأ بسائر الآلهه التى كانوا يعبدونها استكبارا و علوّا، و كأن السجن كان جزاء المعرضين عنه المنكرين لالوهيته.

قوله تعالى: «قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ الْقَائِلُ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْمُرَادُ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ شَيْءٌ يَبِينُ وَ يَظْهَرُ صَحْهُ دَعْوَاهُ وَ هُوَ آيَةُ الرِّسَالَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صَحْهِ دَعْوَى الرِّسَالَةِ مِنْ مَدَّعِيهِ فَإِنَّ آيَةَ الْمَعْجَزَةِ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الرِّسُولِ فِي دَعْوَاهُ الرِّسَالَةَ وَ أَمَّا الْمَعَارِفُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا كَالْتَوْحِيدِ وَ الْمَعَادِ وَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا فَالسَّبِيلُ إِلَى إِثْبَاتِهِ الْحِجْجَةُ الْبَرْهَانِيَّةُ وَ عَلَى ذَلِكَ كَانَتْ تَجْرَى سِيرَةُ الْأَنْبِيَاءِ فِي دَعْوَتِهِمْ وَ قَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ فِيهِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْكِتَابِ.

و المعنى: قال موسى: أ تجعلنى من المسجونين و لو أتيتك بشيء و يوضح صدقى فيما ادّعت من الرسالة.

قوله تعالى: «قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ الْقَائِلُ فِرْعَوْنُ وَ قَدْ فُرِعَ أَمْرُهُ

يأتيناه على استفهام موسى المشعر بأنه يدعى أن عنده شيئاً مبيناً و لذا قيد الأمر بالإتيان بقوله: «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» أى إن كنت صادقاً فى أن عندك شيئاً كذلك.

قوله تعالى: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ هاتان الآيتان اللتان أوتيهما موسى ليله الطور، و الثعبان: الحية العظيمة و كونه مبيناً ظهور واقعيته بحيث لا- يرتاب فيه، و المراد بنزع يده نزعها من جيبه بعد وضعها فيه كما فى سورتي: النمل الآية ١٢ و القصص الآية ٣٢.

قوله تعالى: قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ القائل فرعون و قد قال لموسى: «فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» رجاء أن يأتى بأمر فيه موضع معارضه و مناقشه فلما أتى بما لا مغمض فيه لم يجد بداً دون أن يبهته بأنه ساحر عليم.

و لذا أتبع رمية بالسحر بقوله: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ» إغراء لهم عليه و حثا لهم على أن يتفقوا معه على دفعه بأى وسيلة ممكنه.

و قوله: فَمَاذَا تَأْمُرُونَ لعل المراد بالأمر الإشارة عليه لما أن المشير يشير على من يستشير به بلفظ الأمر فالمعنى إذا كان الشأن هذا فماذا تشيرون على أن أعامله به حتى أعمل به و ذلك أنه كان يرى نفسه ربهم الأعلى و يراهم عبيده و لا يناسب ذلك حمل الأمر على معناه المتعارف.

قوله تعالى: قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكَّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ القائلون هم الملأ حوله و هم أشراف قومه، و قوله: «أرجه» بسكون الهاء على القراءة الدائرة و هو أمر من الإرجاء بمعنى التأخير أى أخر موسى و أخاه و أمهلهما و لا تعجل اليهما بسياسه أو سجن و نحوه حتى تعارض سحرهما بسحر مثله.

و قرئ «أرجه» بكسر الهاء و «أرجئه» بالهمزة و ضم الهاء و هما أفصح من القراءة

الدائرة، و المعنى واحد على أى حال.

و قوله: وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ الْمَدَائِنِ جمع مدينه و هى البلده و الحاشر من الحشر و هو إخراج الى مكان يزعاج أى ابعث فى البلاد عده من شرطائك و جنودك يحشرون كل سحار عليم فيها و يأتوك بهم لتعارضهما بسحراهم.

و التعبير بالسحارون الساحر للإشاره الى أن هناك من هو أعلم منه بفنون السحر و أكثر عملا.

قوله تعالى: فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، هو يوم الزينه الذى اتفق موسى و فرعون على جعله ميقاتا للمعارضه كما فى سوره طه ففى الكلام إيجاز و تلخيص.

قوله تعالى: وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَيْلٌ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّكُمْ تَتَّبِعُونَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ الاستفهام لحث الناس و ترغيبهم على الاجتماع.

قال فى الكشاف ما حاصله أن المراد باتباع السحرة اتباعهم فى دينهم-و كانوا متظاهرين بعباده فرعون كما يظهر من سياق الآيات التاليه-و ليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى لا اتباع السحرة،و إنما ساقوا كلامهم مساق الكنايه ليحملوا به السحرة على الاهتمام و الجد فى المغالبه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ الاستفهام فى معنى الطلب،و قد قالوا: «إِنَّا كُنَّا» و لم يقولوا،إذا كنا نحن الغالبين ليفسد القطع بالغلبه كما يفيد قولهم بعد: «بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ» بل ألقوه فى صوره الشك لكون أدعى لفرعون الى جعل الأجر.

و قد أثر ذلك أثره حيث جعل لهم أجرا و زاد عليه الوعد بجعلهم من المقربين.

قوله تعالى: قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا -الى قوله- تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ الحبال جمع حبل،و العصى جمع عصى،و اللقف الابتلاع بسرعه،و ما يأفكون من الإفك بمعنى صرف

الشيء عن وجهه سمى السحر إفكا لأن فيه صرف الشيء عن صورته الواقعيه الى صورته خياليه، ومعنى الآيات ظاهر.

قوله تعالى: فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ يريد أن السحره لما رأوا ما رأوا من الآيات الباهره بهرهم و أدهشهم ذلك فلم يتمالكوا أنفسهم دون أن خرّوا على الأرض ساجدين لله سبحانه فاستعير الإلقاء لخرورهم على الأرض للدلاله على عدم تمالك أنفسهم كأنهم قد طرحوا على الأرض طرحا.

وقوله: قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فيه إيمان بالله سبحانه إيمان توحيد لما تقدّم أن الاعتراف بكونه تعالى رب العالمين لا يتم إلا مع التوحيد و نفى الآلهه من دونه.

وقوله: رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ فيه إشاره الى الإيمان بالرساله مضافا الى التوحيد.

قوله تعالى: قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ الى آخر الآيه: القائل فرعون، والمراد بقوله: «آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» آمتم من دون إذن منى كما فى قوله تعالى: «لَنَقِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي» و ليس مفاده أن الإذن كان ممكنا أو متوقعا منه كما قيل.

وقوله: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ بهتان آخر يبهت به موسى عليه السلام ليصرف به قلوب قومه و خاصه ملاهم عنه.

وقوله: «فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تهديد لهم فى سياق الإبهام للدلاله على أنه فى غنى عن ذكره و أما هم فسوف يعلمونه.

وقوله: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصِيبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس و التصليب جعل المجرم على الصليب، وقد تقدم نظير الآيه فى سورتى الأعراف و طه.

قوله تعالى: قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَهِي رَبَّنَا مُتَقَلِّبُونَ الضير هو الضرر، وقوله: «إِنَّا

إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَّقِلُونَ» تعليل لقولهم: لا ضير أى إنا لا نستضر بهذا العذاب الذى توعدنا به لأننا نصبر و نرجع بذلك الى ربنا و ما أكرمه من رجوع!.

قوله تعالى: إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنهم لا يخافون الموت و القتل بل يشتاقون الى لقاء ربهم يقولون: لا نخاف من عذابك شيئاً لأننا نرجع به الى ربنا و لا نخاف الرجوع لأننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا بسبب كوننا أول المؤمنين بموسى و هارون رسولى ربنا.

و فتح الباب فى كل خير له أثر من الخير لا- يرتاب فيه العقل السليم فلو أن الله سبحانه أكرم مؤمنا لإيمانه و الرحمه لم تظفر مغفرته و رحمته أول الفاتحين لهذا الباب و الواردين هذا المورد.

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ شروع فى سرد الشطر الثانى من القصة و هو وصف عذاب آل فرعون بسبب ردهم دعوه موسى و هارون عليه السّلام، و قد كان الشطر الأول رساله موسى و هارون اليهم و دعوتهم الى التوحيد، و الإسراء و السرى السير بالليل، و المراد بعبادى بنو إسرائيل و فى هذا التعبير نوع إكرام لهم.

و قوله: إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ تعليل للأمر أى سر بهم ليلا- ليتبعكم آل فرعون و فيه دلالة على أن لله فى اتباعهم أمرا و أن فيه فرج بنى إسرائيل و قد صرح بذلك فى قوله: فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ وَ اتَّزَكِ الْبَحْرَ رَهْوَاً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرَقُونَ (الدخان ٢٤).

قوله تعالى: فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ -الى قوله- ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ قصه غرق آل فرعون و إنجاء بنى إسرائيل فى أربع عشره آيه و قد أوجز فى الكلام بحذف بعض فصول القصة لظهوره من سياقها كخروج موسى و بنى إسرائيل ليلا من مصر لدلاله قوله: «أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي» عليه و على هذا القياس.

فقال تعالى: فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ أَي فَأَسْرَى مُوسَى بِعِبَادِي فلما علم فرعون بذلك

أرسل «فِي الْمَدَائِنِ» التي تحت سلطانه رجالا «حَاشِرِينَ» يحشرون الناس و يجمعون الجموع قائلين للناس «إِنَّ هَؤُلَاءِ» بنى إسرائيل «لَشَرٌّ ذِمَّةٌ قَلِيلُونَ» و الشرذمه من كل شىء بقيته القليله فتوصيفها بالقله تأكيد «وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ» يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ» مجموع متفق فيما نعلم عليه «حَاذِرُونَ» نحذر العدو أن يفتالنا أو يمكر بنا و إن كان ضعيفا قليلا، و المطلوب بقولهم هذا و هو لا محاله بلاغ من فرعون حث الناس عليهم.

فَأَخْرَجْنَاَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ فِيهِ قَصُورُهُمُ الْمَشِيدَةُ وَبُيُوتُهُمُ الرِّفِيعَةُ، و لما كان خروجهم عن مكر إلهى بسبب داعيه الاستعلاء و الاستكبار التي فيهم نسب الى نفسه أنه أخرجهم «كَذَلِكَ» أى الأمر كذلك «وَ أَوْزَنَّاها» أى تلك الجنات و العيون و الكنوز و المقام الكريم «بَنِي إِسْرَائِيلَ» حيث أهلكنا فرعون و جنوده و أبقينا بنى إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين.

فَاتَّبَعُوهُمْ أَى لحقوا بنى إسرائيل «مُشْرِقِينَ» أى داخلين فى وقت شروق الشمس و طلوعها «فَلَمَّا بَرَأْنَا الْجَمْعَانَ» أى دنا بعضهم من بعض فرأى كل من الجمعيين جمع فرعون و جمع موسى الآخر، «قَالَ أَضْيَحَابُ مُوسَى» من بنى إسرائيل خائفين فزعين «إِنَّا لَمُدْرِكُونَ» سيدركنا جنود فرعون.

«قال موسى كلاً» لن يدركونا «إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ» و المراد بهذه المعية معيه الحفظ و النصره و هى التي وعداها له ربه أول ما بعثه و أخاه الى فرعون «إِنِّى مَعَكُمْ» و أما معيه الإيجاد و التدبير فالله سبحانه مع موسى و فرعون على نسبه سواء، و قوله: «سَيَهْدِينِ» أى سيدلنى على طريق لا يدركنى فرعون معها.

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ و الانفلاق انشقاق الشىء و بينونه بعضه من بعض «فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ» أى قطعه منفصله من الماء «كَالطُّودِ» و هو القطعه من الجبل «الْعَظِيمِ» فدخلها موسى و من معه من بنى إسرائيل.

«وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ» أى و قربنا هناك «الْمَآخِرِينَ» وهم فرعون و جنوده «وَأُنَجِّدْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ» بحفظ البحر على حاله و هيئته حتى قطعوه و خرجوا منه، «ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ» بإطباق البحر عليهم و هم فى فلقه.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَآيَةٍ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ظاهر السياق-و يؤيده سياق القصص الآتية-أن المشار اليه مجموع ما ذكر فى قصه موسى من بعثه و دعوته فرعون و قومه و إنجاء بنى إسرائيل و غرق فرعون و جنوده،ففى ذلك كله آيه تدل على توحيده تعالى بالربوبية و صدق رساله لمن تدبر فيها.

و قوله: وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى و ما كان أكثر هؤلاء الذين ذكرنا قصتهم مؤمنين مع ظهور ما دل عليه من الآيه و على هذا فقوله بعد كل من القصص المورده فى السوره:

«وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» بمنزله أخذ النتيجة و تطبيق الشاهد على المستشهد له كأنه يقال بعد إيراد كل واحده من القصص:هذه قصتهم المتضمنه لآياته تعالى و ما كان أكثرهم مؤمنين كما لم يؤمن أكثر قومك فلا تحزن عليهم فهذا دأب كل من الامم التى بعثنا اليهم رسولا فدعاهم الى توحيد الربوبية.

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٦٩ الى ١٠٤]

اشاره

وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يُضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِي (٧٩) وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (٨٠) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي (٨١) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَيِّبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَ أَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَ بَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكَ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُنْجُوا فِيهَا هُمْ وَ الْعَاوُونَ (٩٤) وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَ مَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

قوله تعالى: وَآتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِ السِّيَاقِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَوَّلَ الْقِصَّةِ «وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى» الخ؛ لمكان قوله: «عَلَيْهِمْ» فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ تَلَاوُتَهُ عَلَى مَشْرُكِي الْعَرَبِ وَعَمَدَتِهِمْ قَرِيْشَ وَإِبْرَاهِيمَ هَذَا أَبُوهُمْ وَقَدْ قَامَ لِنَشْرِ التَّوْحِيدِ وَإِقَامَةِ الدِّينِ الْحَقِّ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَصَرَ اللَّهُ وَنَصَرَهُ حَتَّى ثَبَتَتْ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَفِي الْحِجَازِ.

فلم يكن ذلك كله إلا- عن دعوته من الفطرية وبعث من الله سبحانه ففي ذلك آية لله فليعتبروا به وليتبرءوا به من دين الوثنية كما تبرأ منه ومن أبيه وقومه المنتحلين به أبوهم إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ مَخَاصِمْتَهُ وَمَنَازِرَتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ أَبِيهِ غَيْرَ مَخَاصِمْتَهُ مَعَ قَوْمِهِ وَاحْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ كَمَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا لَكِنِ الْبِنَاءُ هَاهُنَا عَلَى الْإِيجَازِ وَالْإِخْتِصَارِ وَلِذَا جُمِعَ بَيْنَ الْمَحَاجِثِينَ وَسَبِكُهُمَا مَحَاجِهُ وَاحِدُهُ أورد فيها ما هو القدر المشترك بينهما.

وقوله: مَا تَعْبُدُونَ سؤال عن الحقيقة بوضع نفسه موضع من لا يعرف شيئا من حقيقتها و سائر شئونها و هذا من طرق المناظره سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقه مدعاه و سائر شئونه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه.

على أن هذه المحاجه كانت من إبراهيم أول ما خرج من كهفه و دخل في مجتمع أبيه و قومه و لم يكن شهد شيئا من ذلك قبل اليوم فحاجهم عن فطره ساذجه طاهره كما تقدم تفصيل القول في تفسير سورة الأنعام.

قوله تعالى: قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ ظَلَّ بِمَعْنَى دَامَ، وَالْعَكُوفُ عَلَى الشَّيْءِ مَلَازِمَتُهُ وَالْإِقَامَةُ عِنْدَهُ، وَاللَّامُ فِي «لَهَا» لِلتَّلْعِيلِ أَيْ نَدْوْمِ عَاكِفِينَ عَلَيْهَا لِأَجْلِهَا وَهُوَ تَفْرِيعٌ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

و بالجمله فجوابهم عن سؤال إبراهيم «مَا تَعْبُدُونَ» بقولهم: «نَعْبُدُ أَصْنَامًا» إبانته أن هذه الأجسام المعبوده ممثلات مقصوده لغيرها لا لنفسها، و قد أخذ إبراهيم قولهم: «نَعْبُدُ» و خاصمهم به فإن استقلال الأصنام بالمعبوديه لا يجمع كونها أصناما ممثله للغير فإذ كانت مقصوده بالعباده فمن الواجب أن يشتمل على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضرر بالتوجه العبادى و الدعاء و المسأله و الأصنام بمعزل من أن تعلم بمسأله أو تجيب مضطرا بإيصال نفع أو صرف ضرر و لذلك سألهم إبراهيم بقوله: «هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ» الخ.

قوله تعالى: قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ اعترض عليه السلام عليهم في عبادتهم الأصنام من جهتين:

إحداهما: أن العبادة تمثيل لئله العابد و حاجته الى المعبود فلا- يخلو من دعاء من العابد للمعبود، و الدعاء يتوقف على علم المعبود بذلك و سمعه ما يدعوه به، و الأصنام أجسام جماديه لا سمع لها فلا معنى لعبادتها.

و الثانيه: أن الناس إنما يعبدون الإله إما طمعا فى خيره و نفعه و إما اتقاء من شره و ضرره و الأصنام جمادات لا قدره لها على إيصال نفع أو دفع ضرر.

فكل من الآيتين يتضمن جهه من جهتى الاعتراض، و قد أوردهما فى صورته الاستفهام ليضطربهم على الاعتراف.

قوله تعالى: قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ كان مقتضى المقام أن يجيوا عن سؤاله عليه السلام بالنفى لكنه لما كان ينتج خلاف ما هم عليه من الانتحال بالوثنيه أضربوا عنه الى التشبث بذيل التقليد فذكروا أنهم لا مستند لهم فى عبادتها إلا تقليد الآباء محضا.

و قوله: وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ أى فعلنا كما كانوا يفعلون و عبدناهم كما كانوا يعبدون، و لم يعدل عن قوله: «كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» الى مثل قولنا: يعبدونها ليكون أصرح فى التقليد كأنهم لا يفهمون من هذه العبادات إلا أنها أفعال كأفعال آبائهم من غير أن يفقهوا منها شيئا أزيد من أشكالها و صورها.

قوله تعالى: قَالُوا فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَادُوا لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ لما انتهت محاجته مع أبيه و قومه الى أن لا حجه لهم فى عبادتهم الأصنام إلا تقليد آبائهم محضا تبرأ عليه السلام من آلهتهم و من أنفسهم و آبائهم بقوله: «أَفَرَأَيْتُمْ» الخ.

فقوله: أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ تبريع على ما ظهر مما تقدم من عدم الدليل على عباده الأصنام إلا التقليد بل بطلانها من أصلها أى فإذا كانت

باطله لا حجه لكم عليها إلا تقليد آباءكم فهذه الأصنام التي رأيتموها أى هذه بأعيانها التي تعبدونها أنتم و آباؤكم الأقدمون فإنها عدو لى لأن عبادتها ضاره لدينى مهلكه لنفسى فليست إلا عدوا لى.

و ذكر آباءهم الأقدمين للدلاله على أنه لا يأخذ بالتقليد كما أخذوا و أن لا وقع عنده عليه السلام لتقدم العهد، و لا أثر للسبق الزمانى فى إبطال حق أو إحقاق باطل، و إرجاع ضمير أولى العقل الى الأصنام لمكان نسبه العباده إليها و هى تستلزم الشعور و العقل، و هو كثير الوقوع فى القرآن.

□
و قوله: **إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** استثناء منقطه من قوله: **«فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي»** أى لكن رب العالمين ليس كذلك.

قوله تعالى: **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** -الى قوله- **يَوْمَ الدِّينِ** لما استثنى رب العالمين جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجه على أنه تعالى ليس عدوا له بل رب رحيم ذو عناية بحاله منعم عليه بكل خير دافع عنه كل شر فقال: **«الَّذِي خَلَقَنِي»** الخ؛ و أما قول القائل: إن قوله: **«الَّذِي خَلَقَنِي»** الخ؛ استيناف من الكلام لا يعبا به.

فقوله: **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** بدأ بالخلق لأن المطلوب بيان استناد تدبير أمره اليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل، و البرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق و الإيجاد به لوضوح أن الخلق و التدبير لا ينفكان فى هذه الموجودات الجسمانيه التدريجييه الوجود التى تستكمل الوجود على التدرج فليس من المعقول أن يقوم الخلق بشىء و التدبير بشىء و إذ كان الخلق و الإيجاد لله سبحانه فالتدبير له أيضا.

و لهذا عطف الهدايه على الخلق بفاء التفرع، فدل على أنه تعالى هو الهادى لأنه هو الخالق.

و ظاهر قوله: **فَهُوَ يَهْدِينِ** -و هو مطلق- أن المراد به مطلق الهدايه الى المنافع

دنيويه كانت أو أخرويه و التعبير بلفظ المضارع لإفاده الاستمرار فالمعنى أنه الذى خلقنى و لا يزال يهدينى الى ما فيه سعادته حياتى منذ خلقنى و لن يزال كذلك. فيكون الآيه فى معنى ما حكاه الله عن موسى إذ قال لفرعون: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه / ٥٠)، أى هداه الى منافعه و هى الهدايه العامه.

و هذا هو الذى أشير اليه فى أول السوره بقوله: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» و قد مر تقرير الحجه فيه.

و على هذا فما سيأتى فى قوله: «وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي» الخ؛ من الصفات المعدوده من قبيل ذكر الخاص بعد العام فإنها جميعا من مصاديق الهدايه العامه بعضها هدايه الى منافع دنيويه و بعضها هدايه الى ما يرجع الى الآخره.

و لو كان المراد بالهدايه الهدايه الخاصه الدينيه فالصفات المعدوده على رسلها و ذكر الهدايه بعد الخلقه، و تقديمها على سائر النعم و المواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود.

و قوله: «وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَشْقِينِ وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» هو كالكنايه عن جمله النعم الماديه التى يرزقه الله اياها لتتميم النواقص و رفع الحوائج الدنيويه، و قد خص بالذكر منها ما هو أهمها و هو الإطعام و السقى و الشفاء إذا مرض.

و من هنا يظهر أن قوله: «وَ إِذَا مَرِضْتُ» توطئه و تمهيد لذكر الشفاء، فالكلام فى معنى يطعمنى و يسقيني و يشفينى، و لذا نسب المرض الى نفسه لثلاثه - يختل المراد بذكر ما هو سلب النعمه بين النعم، و أما قول القائل: إنه إنما نسب المرض الى نفسه مع كونه من الله للتأدب فليس بذاك.

و إنما أعاد الموصول فقال: «الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي» الخ؛ و لم يعطف الصفات على ما فى قوله:

«الذى خلقتنى فهو يهدينى» للدلاله على أن كلا من الصفات المذكوره فى هذه الجمله المترتبه كان فى إثبات كونه تعالى هو الرب المدبر لأمره و القائم على نفسه المجيب لدعوته.

وقوله: وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ يريد الموت المقضى لكل نفس المدلول عليه بقوله: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (الأنبياء ٣٥)، و ليس بانعدام و فناء بل انتقال من دار الى دار من جملة التدبير العام الجارى، و المراد بالإحياء إفاضه الحياه بعد الموت.

وقوله: وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يُعْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ أى يوم الجزاء و هو يوم القيامة، و لم يقطع بالمغفره كما قطع فى الامور المذكوره قبلها لأن المغفره ليست بالاستحقاق بل هى فضل من الله فليس يستحق أحد على الله سبحانه شيئا لكنه سبحانه قضى على نفسه الهدايه و الرزق و الإمامته و الإحياء لكل ذى نفس و لم يقض المغفره لكل ذى خطيئه فقال:

فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ (الذاريات ٢٣)، و قال: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (الأنبياء ٣٥)، و قال: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا (يونس ٤)، و قال فى المغفره:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ٤٨).

و نسبه الخطيئه الى نفسه و هو عليه السّلام نبى معصوم من المعصيه دليل على أن المراد بالخطيئه غير المعصيه بمعنى مخالفه الأمر المولوى فإن للخطيئه و الذنب مراتب تتقدر حسب حال البعد فى عبوديته كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، و قد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم: «وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ» .

فالخطيئه من مثل إبراهيم عليه السّلام اشتغاله عن ذكر الله محضا بما تقتضيه ضروريات الحياه كالنوم و الأكل و الشرب و نحوها و إن كانت بنظر آخر طاعه منه عليه السّلام كيف؟ و قد نص تعالى على كونه عليه السّلام مخلصا لله لا يشاركه تعالى فيه شىء إذ قال: «إنا أخلصناهم بالخالصه ذكرى الدار» (ص ٤٦)، و قد قدمنا كلاما له تعلق بهذا المقام فى آخر الجزء السادس و فى قصص إبراهيم فى الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى: رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ لما ذكر عليه السّلام نعم ربه المستمره المتواليه المتراكمه عليه منذ خلق الى ما لا نهايه له من أمد البقاء و صوّر بذلك شمول

اللطف و الحنان الإلهي أخذته جاذبه الرحمه الملتئمه بالفقر العبودي فدعته الى إظهار الحاجه و بثّ المسأله فالتفت من الغيبه الى الخطاب فسأل ما سأل.

فقوله: رَبِّ أَضَافِ الرَّبَّ إِلَى نَفْسِهِ بَعْدَ مَا كَانَ يَصِفُهُ بِمَا أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِثَارَهُ لِلرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَ تَهْيِيجًا لِلْعَنَائَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِاسْتِجَابَةِ دَعَائِهِ وَ مَسْأَلَتِهِ.

و قوله: هَبْ لِي حُكْمًا يريد بالحكم ما تقدم في قول موسى عليه السّلام فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا الْآيَةَ ٢١ من السوره و هو- كما تقدم- إصابه النظر والرأى فى المعارف الاعتقاديه و العمليه الكليه و تطبيق العمل عليها كما يشير اليه قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء ٢٥)، و هو وحى المعارف الاعتقاديه و العمليه التى يجمعها التوحيد و التقوى، و قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (الأنبياء ٧٣)، و هو وحى التسديد و الهدايه الى الصلاح فى مقام العمل، و تنكير الحكم لتفخيم أمره.

و قوله: وَ أَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ الصلاح- على ما ذكره الراغب- يقابل الفساد الذى هو تغير الشىء عن مقتضى طبعه الأصلى فصلاحه كونه على مقتضى الطبع الأصلى فيترتب عليه من الخير و النفع ما من شأنه أن يترتب عليه من غير أن يفسد فيحرم من آثاره الحسنه.

و إذ كان «بِالصَّالِحِينَ» غير مقيّد بالعمل و نحوه فالمراد به الصالحون ذاتا لا عملا فحسب و إن كان صلاح الذات لا ينفك عنه صلاح العمل، قال تعالى: أَلْبَدَّ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف ٥٨).

فصلاح الذات كونها تامه الاستعداد لقبول الرحمه الإلهيه و إفاضه كل خير و سعادته من شأنها أن تتلبس به من يغر أن يقارنها ما يفسدها من اعتقاد باطل أو عمل سيئ و بذلك يتبين أن الصلاح الذاتى من لوازم موهبه الحكم بالمعنى الذى تقدم و إن كان الحكم أخص

فمسأله الإلحاق بالصالحين من لوازم مسأله موهبه الحكم و فروعها المترتبه عليها فيعود معنى قوله: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ الْحَقِيصَةَ بِالصَّالِحِينَ» الى مثل قولنا: رب هب لي حكما و تتم أثره في و هو الصلاح الذاتي.

و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (البقره ١٣٠/١) في الجزء الأول من الكتاب كلام له تعلق بهذا المقام.

قوله تعالى: وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ إضافه اللسان الى الصديق لاميّه تفيد اختصاصه بالصدق بحيث لا يتكلم إلا به، و ظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصا به كلسانه لا يتكلم إلا بما في ضميره مما يتكلم هو به فيقول المعنى الى مسأله أن يبعث الله في الآخرين من يقوم بدعوته و يدعو الناس الى ملته و هي دين التوحيد.

فتكون الآيه في معنى قوله في سوره الصافات بعد ذكر إبراهيم عليه السلام: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (الصافات ١٠٨/١)، و قد ذكر هذه الجملة بعد ذكر عدّه من الأنبياء غيره كنوح و موسى و هارون و إلياس، و كذا قال تعالى في سوره مريم بعد ذكر زكريا و يحيى و عيسى و إبراهيم و موسى و هارون: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (مريم ٥٠/١) فالمراد على أى حال إبقاء دعوتهم بعدهم بعدهم ببعث رسل أمثالهم.

قوله تعالى: وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ تقدم معنى وراثه الجنة في تفسير قوله تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (المؤمنون ١٠/١).

قوله تعالى: وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ استغفار لأبيه حسب ما وعدّه في قوله: سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي (مريم ٤٧/١)، و ليس ببعيد أن يستفاد من قوله تعالى: وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه ١١٤/١)، أنه دعا لأبيه بهذا الدعاء و هو حيّ بعد، و على هذا فمعنى قوله:

«إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ» أنه كان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال.

قوله تعالى: وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ الخزي عدم النصر ممن يؤمل منه النصر، والضمير في «يُبْعَثُونَ» للناس ولا يضره عدم سبق الذكر لكونه معلوما من خارج.

و يعلم من سؤاله عدم الإخزاء يوم القيامة أن الإنسان في حاجه الى النصر الإلهي يومئذ فهذه البنيه الضعيفه لا تقوم دون الأهوال التي تواجهها يوم القيامة إلا بنصر و تأييد منه تعالى.

وقوله: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ الظرف بدل من قوله: «يَوْمَ يُبْعَثُونَ» و به يندفع قول من قال: إن قول إبراهيم قد انقطع في «يُبْعَثُونَ» والآيه الى تمام خمسه عشر آيه من كلام الله تعالى.

وقوله: إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ قال الراغب: السلم و السلامه التعرّى من الآفات الظاهره و الباطنه. انتهى. و السياق يعطى أنه عليه السلام في مقام ذكر معنى جامع يتميز به اليوم من غيره و قد سأل ربه أولاً أن ينصره و لا يخزيه يوم لا ينفعه ما كان ينفعه في الدنيا من المال و البنين، و مقتضى هذه التوطئه أن يكون المطلوب بقوله: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» بيان ما هو النافع يومئذ و قد ذكر فيه الإتيان بالقلب السليم.

فالاستثناء منقطع، و المعنى: لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينتفع به، و المحصل أن مدار السعاده يومئذ على سلامه القلب سواء كان صاحبه ذا مال و بنين في الدنيا أو لم يكن.

قوله تعالى: وَ أُرْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَ بُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ الازلافاً التقريب و التبريز الاظهار، و في المقابله بين المتقين و الغاوين و اختيار هذين الوصفين لهاتين الطائفتين إشاره الى ما قضى به الله سبحانه يوم رجم إبليس عند إبائه أن يسجد لآدم كما ذكر في سورة الحجر: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ

لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ -الى أن قال- إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (الحجر ٤٥).

قوله تعالى: وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ أَي هل يدفعون الشقاء و العذاب عنكم او عن أنفسكم، و المحصل أنه يتبين لهم أنهم ضلوا في عبادتهم غير الله.

قوله تعالى: فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَ الْغَاوُونَ وَ الْجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ يقال: كبه فانكب أى ألقاه على وجهه و كببه أى ألقاه على وجهه مره بعد اخرى فهو يفيد تكرار الكب كذب و دبذب و ذب و ذبذب و زال و ذلزل و دك و دكدك.

و ضمير الجمع فى قوله: «فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ» للأصنام كما يدل عليه قوله: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ (الأنبياء ٩٨) و هؤلاء إحدى الطوائف الثلاث التى تذكر الآيه أنها تكبكب فى جهنم يوم القيامة، و الطائفة الثانية الغاؤون المقضى عليهم ذلك كما فى آيه الحجر المنقوله آفءاء، و الطائفة الثالثة جنود إبليس و هم قرناء الشياطين الذين يذكر القرآن أنهم لا يفارقون أهل الغوايه حتى يدخلوا النار، قال تعالى: وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ -الى أن قال- وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (الزخرف ٣٩).

قوله تعالى: قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ -الى قوله- إِلَّا الْمُجْرِمُونَ الظاهر أن القائلين هم الغاؤون، و الاختصام واقع بينهم يخاصمون أنفسهم و الشياطين على ما ذكره الله سبحانه فى مواضع من كلامه.

و قوله: تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ اعتراف منهم بالضللال، و الخطاب فى قوله: «إِذْ نُسَّوْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» للآلهه من الأصنام و هم معهم فى النار، أو لهم و للشياطين أو لهما و للمتبعين و الرؤساء من الغاوين و خير الوجوه أولها.

و قوله: وَ مَا أَضَلَّتْ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ الظاهر أن كلا من القائلين يريد بالمجرمين

غيره من إمام ضلال اقتدى به فى الدنيا وداع دعاه الى الشرك فاتبعه و آباء مشركين قلدتهم فيه و خليل تشبه به، و المجرمون على ما يستفاد من آيات القيامة هم الذين ثبت فيهم الإجماع و قضى عليهم بدخول النار قال تعالى: وَ اَمْتَاَزُوا الْيَوْمَ اَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس ٥٦).

قوله تعالى: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ الْحَمِيمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاِغِبُ الْقَرِيبُ الْمَشْفُقُ.

و هذا الكلام تحسّر منهم على حرمانهم من شفاعه الشافعين و إغاثة الأصدقاء و فى التعبير بقوله: «فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ» إشاره الى وجود شافعين هناك يشفعون بعض المدنين، و لو لا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: فما لنا من شافع إذ لا نكته تقتضى الجمع، و قد روى أنهم يقولون ذلك لما يرون الملائكة و الأنبياء و المؤمنين يشفعون.

قوله تعالى: فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تمن منهم أن يرجعوا الى الدنيا فيكونوا من المؤمنين حتى ينالوا ما ناله المؤمنون من السعاده.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ؛ أى فى قصه إبراهيم عليه السلام و لزومه عن فطرته الساذجه دين التوحيد و توجيه وجهه نحو رب العالمين و تبرّيه من الأصنام و احتجاجه على الوثنيين و عبده الأصنام آيه لمن تدبّر فيها على أن فى سائر قصصه من محنه و ابتلاءاته التى لم تذكر هاهنا كإلقائه فى النار و نزول الضيف من الملائكة عليه و قصه إسكانه إسماعيل و أمه بوادى مكه و بناء الكعبه و ذبح إسماعيل آيات لاولى الأبواب.

و قوله: وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى و ما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين و الباقي ظاهر مما تقدم.

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٠٥ الى ١٢٢]

إشارة

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٠٨) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَ اتَّبَعَكَ الْأَزْدَلُونَ (١١١) قَالَ وَ مَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسِبْتُمْهُمْ إِلَّا عَلِيٌّ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ (١١٣) وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحًا وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَانْجِئْنَا وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بِعَدِ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَ إِنْ رَبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

بيان:

قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ قَالَ فِي الْمَفْرَدَات: القوم جماعه الرجال

ص: ٥٦٩

فى الأصل دون النساء، و لذلك قال: «لَا يَسِيخِرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» الآية؛ قال الشاعر: أقوم آل حصن أم نساء، و فى عامته القرآن أريدوا به و النساء جميعا. انتهى.

و لفظ القوم قيل: مذكر و تأنيث الفعل المسند اليه بتأويل الجماعه و قيل: مؤنث و قال فى المصباح: يذكر و يؤنث.

و عد القوم مكذبين للمرسلين مع أنهم لم يكذبوا إلا واحدا منهم و هو نوح عليه السلام إنما هو من جهه أن دعوتهم واحده و كلمتهم متفقه على التوحيد فيكون المكذب للواحد منهم مكذبا للجميع و لذا عد الله سبحانه الإيمان ببعض رسله دون بعض كفرا بالجميع قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (النساء ١٥١).

قوله تعالى: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ المراد بالأخ النسب كقولهم:

اخو تميم و اخو كليب و الاستفهام للتوبيخ.

قوله تعالى: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ إى رسول من الله سبحانه أمين على ما حملته من الرسالة لا أبلغكم إلا ما أمرنى ربي و اراده منكم، و لذا فرع عليه قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا» فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعه الله.

قوله تعالى: وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ مسوق لنفى الطمع الدنيوى بنفى سؤال الأجر فيثبت بذلك انه ناصح لهم فيما يدعوههم اليه لا يخونهم و لا يغشهم فعليهم ان يطيعوه فيما يأمرهم، و لذا فرع عليه ثانيا قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا» .

و العدول فى قوله: «إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» عن اسم الجلاله الى «رَبِّ الْعَالَمِينَ» للدلاله على صريح التوحيد فإنهم كانوا يرون انه تعالى إله عالم الآلهه و كانوا يرون لكل عالم إله آخر يعبدونه من دون الله فإثباته تعالى ربا للعالمين جميعا تصريح بتوحيد العباده و نفى

بمنزله التعليل للاولى و المجموع متمم للبيان السابق و المعنى: لا شأن لى إلا الإنذار و الدعوه فليست أطرده من أقبل على و آمن بى و لست أتفحص عن سابق أعمالهم لا حاسبهم عليها فحاسبهم على ربي و هو رب العالمين لا على.

قوله تعالى: **قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ** المراد بالانتهاه ترك الدعوه، و الرجم هو الرمى بالحجاره، و قيل: المراد به الشتم و هو بعيد، و هذا مما قالوه فى آخر العهد من دعوتهم يهددونه عليه السلام بقول جازم كما يشهد به ما فى الكلام من وجوه التأكيد.

قوله تعالى: **قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتَحَا الخ؛** هذا استفتاح منه عليه السلام و قد قدم له قوله: **«رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ»** على سبيل التوطئه أى تحقق منهم التكذيب المطلق الذى لا مطمع فى تصديقهم بعده كما يستفاد من دعائه عليهم إذ يقول **رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** (نوح ٢٧).

و قوله: **فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتَحَا** كناية عن القضاء بينه و بين قومه كما قال تعالى: **وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ** (يونس ٤٧).

و أصله من الاستعاره بالكنايه كأنه و أتباعه و الكفار من قومه اختلطوا و اجتمعوا من غير تميز فسأل ربه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحه بينه و بين قومه يبتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر و ذلك كناية عن نزول العذاب و ليس يهلك إلا القوم الفاسقين و الدليل عليه قوله بعد: **«وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»**.

و قيل: الفتح بمعنى الحكم و القضاء من الفتاحه بمعنى الحكومه.

قوله تعالى: **فَأَنْجَيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** أى المملوء منهم و من

كل زوجين اثنين كما ذكره في سورة هود.

قوله تعالى: ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ أَى أَعْرَفْنَا بَعْدَ إِنْجَائِهِمُ الْبَاقِينَ مِنْ قَوْمِهِ.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً -الى قوله- الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ تقدم الكلام فى معنى الآيتين.

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٢٣ الى ١٤٠]

إشارة

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (١٢٦) وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَ إِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (١٣١) وَ اتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَيْنِينَ (١٣٣) وَ جَنَابٍ وَ عَيْونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)

قوله تعالى: كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ قَوْم عاد من العرب العاربه الاولى كانوا يسكنون الأحقاف من جزيره العرب لهم مدنيه راقيه و أراض خصبه و ديار معموره فكذبوا الرسل و كفروا بأنعم الله و طغوا فأهلكهم الله بالريح العقيم و خرب ديارهم و عفا آثارهم.

و عاد فيما يقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسميه القوم باسم أبيهم كما يقال تميم و بكر و تغلب و يراد بنو تميم و بنو بكر و بنو تغلب.

و قد تقدم فى نظير الآيه من قصه نوح وجه عد القوم مكذبين للمرسلين و لم يكذبوا ظاهرا إلا واحدا منهم.

قوله تعالى: إِنْى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ -الى قوله- رَبِّ الْعَالَمِينَ تقدم الكلام فيها فى نظائرها من قصه نوح عليه السلام.

قوله تعالى: أَ تَبْنُونَ بُكُلًّا رِيحٌ آيَةٌ تَعْبُثُونَ الريح هو المرتفع من الأرض و الآيه العلامه، و العبث الفعل الذى لا غايه له، و كأنهم كانوا يبنون على قلل الجبال و كل مرتفع من الأرض ابنيه كالأعلام يتزهون فيها و يفاخرون بها من غير ضروره تدعوه الى ذلك بل لهوا و اتباعا للهوى فوبخهم عليه.

وقد ذكر للآيه معان آخر لا دليل عليها من جهه اللفظ و لا ملاءمه للسياق اضربنا عنها.

قوله تعالى وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، المصانع على ما قيل: الحصون المنيعه و القصور المشيده و الأبنيه العاليه واحدها مصنع.

و قوله: «لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» فى مقام التعليل لما قبله أى تتخذون هذه المصانع بسبب أنكم ترجون الخلود و لو لا رجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال التى من طبعها أن تدوم دهرا طويلا لا يفى به أطول الأعمار الإنسانيه، و قيل فى معنى الآيه و مفرداتها وجوه أخرى أغمضنا عنها.

قوله تعالى: وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ قَالَ فى المجمع: البطش العسف قتلا غيره بعظيم سلطانه. و هو فى صفه الله سبحانه

أى اتقوا الله يمدكم بنعمه لأنه يمدكم بها فيجب عليكم أن تشكروه بوضع نعمه فى موضعها من غير إتراف و استكبار فإن كفران النعمة يستعقب السخط و العذاب قال تعالى: لَيْسَ شَكَرُكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَيْسَ كَفْرُكُمْ إِلَّا لَشَدِيدٍ (إبراهيم ٧).

و قد ذكر النعم إجمالاً بقوله أولاً: «أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ» ثم فصلها بقوله ثانياً: «أمدكم بأموال و بنين و جنات و عيون».

و فى قوله: أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ نكته أخرى هى أنكم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالى و صنعه لا يشاركه فى إيجادها و الإمداد بها غيره فهو الذى يجب لكم أن تتقوه بالشكر و العبادة دون الأوثان و الأصنام فالكلام متضمن للحجه.

قوله تعالى: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ تعليل للأمر بالتقوى أى إنى آمركم بالتقوى شكراً لأنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إن تكفروا و لم تشكروا، و الظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم القيامة و إن جوّز بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال.

قوله تعالى: قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ نفى لأثر كلامه و إيتاس له من إيمانهم بالكلية.

قيل: الكلام لا يخلو من مبالغه فقد كان مقتضى الترييد أن يقال: أوعظت أم لم تعظ ففى العدول عنه الى قوله: «أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ» النافى لأصل كونه واعظاً ما لا يخفى من المبالغه.

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ الخلق بضم الخاء و اللام أو سكونها قال الراغب: الخلق و الخلق - أى بفتح الخاء و ضمها - فى الأصل واحد كالشرب و الشرب و الصرم و الصرم لكن خصّ الخلق - بفتح الخاء - بالهيئات و الأشكال و الصور المدركه بالبصر، و خصّ الخلق - بضم الخاء - بالقوى و السجايا المدركه بالبصيره، قال تعالى: «إِنَّكَ

لَعَلِّي خُلِقَ عَظِيمٌ» و قرئ «إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ» انتهى.

و الإشارة بهذا الى ما جاء به هود و قد سموه وعظا و المعنى: ليس ما تلبست به من الدعوه الى التوحيد و الموعظه إلا عاده البشر الأولين الماضين من أهل الأساطير و الخرافات، و هذا كقولهم: إن هذا إلا أساطير الأولين.

و يمكن أن تكون الإشارة بهذا الى ما هم فيه من الشرك و عباده الآلهه من دون الله اقتداء بآبائهم الأولين كقولهم: «وَحِيدًا أَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» .

و احتمال بعضهم أن يكون المراد ما خلقنا هذا إلا- خلق الأولين نحيا كما حيوا و نموت كما ماتوا و لا بعث و لا حساب و لا عذاب. و هو بعيد من السياق.

قوله تعالى: «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ» إنكار للمعاد بناء على كون المراد باليوم العظيم فى كلام هود عليه السلام يوم القيامة.

قوله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» -الى قوله- الرَّحِيمُ معناه ظاهر مما تقدم.

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٤١ الى ١٥٩]

إشارة

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٤٤) وَ مَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَ تَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٤٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضْبٌ يَمُّ (١٤٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٥٠) وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَ لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

قوله تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ -الى قوله- رَبِّ الْعَالَمِينَ قد اتضح معناها مما تقدم.

قوله تعالى: أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ الظاهر أن الاستفهام للانكار و «مَا» موصولة و المراد بها النعم التي يفصلها بعد قوله: «فِي جَنَاتٍ وَ عُيُونٍ» الخ؛ و «هَاهُنَا» إشاره الى المكان الحاضر القريب و هو أرض ثمود و «آمِنِينَ» حال من نائب فاعل «تُتْرَكُونَ» .

و المعنى: لا تتركون في هذه النعم التي أحاطت بكم في أرضكم هذه و أنتم مطلقو العنان لا

غلب على عقله، وقيل: إن السحر أعلى البطن و المسخر من له جوف فيكون كناية عن أنك بشر مثلنا تأكل و تشرب فيكون قوله بعده: «وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» تأكيداً له، وقيل:

المسخر من له سحر أى رثه كأن مرادهم أنك متنفس بشر مثلنا.

قوله تعالى: «مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا»-الى قوله- عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ الشرب بكسر الشين النصيب من الماء، و الباقي ظاهر و قد تقدمت تفصيل القصة فى سورة هود.

قوله تعالى: فَعَقَرُوها فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ نسبة العقر الى الجميع-و لم يعقرها إلا واحد منهم-لرضاهم بفعله، و فى نهج البلاغه: أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى و السخط و إنما عقر ناقه ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه: «فَعَقَرُواها فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ» .

و قوله: فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ لعل ندمهم إنما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب و إن قالوا له بعد العقر تعجيزاً و استهزاء: يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف ٧٧).

قوله تعالى: فَآخَذَهُمُ الْعَذَابُ -الى قوله- الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ اللام للعهد أى أخذهم العذاب الموعود فإن صالحاً وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثه أيام كما فى سورة هود، و الباقي ظاهر.

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٦٠ الى ١٧٥]

إشارة

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا- تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا
(١٦٣) وَ مَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ
لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ يَلِ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ
الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا- عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا
الْآخِرِينَ (١٧٢) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَنسَاءً مَطَرًا الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَ إِنْ رَبُّكَ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ -الى قوله- رَبِّ الْعَالَمِينَ ،تقدم تفسيره.

قوله تعالى: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ الاستفهام للانكار و التوبيخ و الذكران جمع ذكر مقابل الانثى و إتيانهم كناية عن اللواط و قد كان شاع فيما بينهم،و العالمين جمع عالم و هو الجماعه من الناس.

وقوله: مِنَ الْعَالَمِينَ يمكن ان يكون متصلا بضمير الفاعل في «تأتون» والمراد أ تأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع؟ فيكون في معنى قوله في موضع آخر: مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (الأعراف ٨٠)، (العنكبوت ٢٨).

و يمكن ان يكون متصلا بقوله: «الذُّكْرَانَ» والمعنى على هذا أ تنكحون من بين العالمين -على كثرتهم و اشتغالهم على النساء- الرجال فقط؟.

قوله تعالى: وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ الْخ؛ «تَذَرُونَ» بمعنى تتركون و لا ماضى له من مادته.

و المتأمل في خلق الإنسان و انقسام أفراده الى صنفى الذكر و الانثى و ما جهز به كل من الصنفين من الأعضاء و الأدوات و ما يختص به من الخلقه لا يرتاب في ان غرض الصنع و الإيجاد من هذا التصوير المختلف و إلقاء غريزه الشهوه في القبيلين و تفريق أمرهما بالفعل و الانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسل بذلك الى التناسل الحافظ لبقاء النوع حتى حين.

فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأة منه لا لرجل مثله و المرأة من الإنسان بما هي امرأه مخلوقه للرجل منه لا لامرأه مثلها و ما يختص به الرجل في خلقته للمرأة و ما تختص به المرأة في خلقتها للرجل و هذه هي الزوجية الطبيعية التي عقدها الصنع و الإيجاد بين الرجل و المرأة من الإنسان فجعلهما زوجين.

ثم الأغراض و الغايات الاجتماعيه أو الدينيه سنّت بين الناس سنه النكاح الاجتماعى الاعتبارى الذى فيه نوع من الاختصاص بين الزوجين و قسم من التحديد للزوجيه الطبيعیه المذكوره فالفطره الإنسانيه و الخلقه الخاصه تهديه الى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجال و ازدواج النساء بالرجال دون النساء، و أن الازدواج مبنى على أصل التوالد و التناسل دون الاشتراك فى مطلق الحياه.

و من هنا يظهر أن الأقرب أن يكون المراد بقوله: «مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ» العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج و اللام للملك الطبيعي، و ان من فى قوله: «مِنْ أَرْوَاجِكُمْ» للتبعيض و الزوجيه هى الزوجيه الطبيعيه و إن أمكن ان يراد بها الزوجيه الاجتماعيه الاعتباريه بوجه.

و أما تجويز بعضهم ان يراد بلفظه «ما» النساء و يكون قوله: «مِنْ أَرْوَاجِكُمْ» بيانا له فبعيد.

و قوله: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ اى متجاوزون خارجون عن الحد الذى خطته لكم الفطره و الخلقه فهو فى معنى قوله: أَيْنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ (العنكبوت / ٢٩).

و قد ظهر فى جميع ما مر أن كلامه عليه السلام مبنى على حجه برهانيه أشير إليها.

قوله تعالى: قَالُوا لئن لَمْ تَنْتَهَ بِنا لَوْطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ اى المبعدين المنفيين من قريتنا كما نقل عنهم فى موضع آخر «أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَوَّيْتِكُمْ» .

قوله تعالى: قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ المراد بعملهم -على ما يعطيه السياق- إتيان الذكران و ترك الاناث. و القالى المبغض، و مقابله تهديدهم بالنفى بمثل هذا الكلام من غير تعرّض للجواب عن تهديدهم يفيد من المعنى أنى لا أخاف الخروج من قريتكم و لا- أكثرث به بل مبغض لعملكم راغب فى النجاه من وباله النازل بكم لا- محاله، و لذا أتبعه بقوله: «رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ» .

قوله تعالى: رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ اى من أصل عملهم الذى يأتون به بمراى و مسمع منه فهو منزجر منه او من وبال عملهم و العذاب الذى سيتبعه لا محاله.

و إنما لم يذكر إلا- نفسه و أهله إذ لم يكن آمن به من أهل القرية أحد، قال تعالى فى ذلك: فَمَّا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُشْلِمِينَ (الذاريات/٣٦).

قوله تعالى: فَنجِئْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ -الى قوله- الْآخِرِينَ الْغَابِرِ كَمَا قِيلَ الْبَاقِي بَعْدَ ذَهَابِ مَنْ كَانَ مَعَهُ، وَالتدمير الإهلاكي، وَالباقى ظاهر.

قوله تعالى: وَآمَطْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا الْخَبُوءَ وَهُوَ السَّجِيلُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَآمَطْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (الحجر ٧٤).

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً -الى قوله- الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ تقدم تفسيره.

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٧٦ الى ١٩١]

إشارة

كذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالُوا لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَّا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٧٩) وَمَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْطِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخُسُوا الْأَنْفُسَ الَّتِي أَنْفُسُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولَى (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَيَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

قوله تعالى: كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ - الى قوله- رَبُّ الْعَالَمِينَ الأيكة الغيضة الملتف شجرها. قيل: إنها كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة و كانوا ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام، و كان أجنبيا منهم و لذلك قيل «إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ» و لم يقل: أخوهم شعيب بخلاف هود و صالح فقد كانا نسيبين الى قومهما و كذا لوط فقد كان نسيبا الى قومه بالمصاهرة و لذا عتبر عنهم بقوله: «أَخُوهُمْ هُودٌ» «أَخُوهُمْ صَالِحٌ» «أَخُوهُمْ لُوطٌ» .

و قد تقدم تفسير باقى الآيات.

قوله تعالى: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ .الكيل ما يقدر به المتاع من جهة حجمه و إيفاؤه أن لا ينقص الحجم، و القسطاس الميزان الذى يقدر به من جهة وزنه و استقامته أن يزن بالعدل، و الآيتان تأمران بالعدل فى الأخذ و الإعطاء بالكيل و الوزن.

قوله تعالى: وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ الْبَخْسِ النِّقْصِ فِي الْوِزْنِ وَ التَّقْدِيرِ كَمَا أَنَّ الْإِخْسَارَ النِّقْصَ فِي رَأْسِ الْمَالِ.

و ظاهر السياق أن قوله: «وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» أى سلعهم و أمتعتهم قيد متمم لقوله: «وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ» كما أن قوله: «وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ» قيد متمم لقوله:

«أَوْفُوا الْكَيْلَ» و قوله: «وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» تأكيد للنهيين جميعا أعنى قوله:

«لَا تُخْسِرُوا» و قوله: «لَا تَبْخَسُوا» و بيان لتبعه التطفيف السيئه المشومه.

و قوله: «وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ الْعَثَى وَ الْعِيثَ الْإِفْسَادَ»، فقوله:

«مُفْسِدِينَ» حال مؤكد و قد تقدم في قصه شعيب من سورة هود و في قوله: «وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (الآيه ٣٥ من سورة الإسراء) كلام في كيفية إفساد التطفيف المجتمع الإنساني، فراجع.

قوله تعالى: «وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ» قال في المجمع: الجبله الخليقه التي طبع عليها الشيء. انتهى. فالمراد بالجبله ذوو الجبله أى اتقوا الله الذى خلقكم و آباءكم الأولين الذين فطرهم و قرّر في جبلتهم تقبيح الفساد و الاعتراف بشؤمه.

و لعل هذه الذى أشرنا اليه من المعنى هو الموجب لتخصيص الجبله بالذكر، و في الآيه على أى حال دعوه الى توحيد العباده فإنهم لم يكونوا يتقون الخالق الذى هو رب العالمين.

قوله تعالى: «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَيَّرِينَ» -الى قوله- «وَإِنْ نُنْظَنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ» تقدم تفسير الصدر، و «إِنَّ» فى قوله: «إِنْ نُنْظَنُّكَ» مخففه من الثقيله.

قوله تعالى: «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ الْخَالِكِ» الكسف بالكسر فالفتح -على ما قيل- جمع كسفه و هى القطعه، و الأمر مبنى على التعجيز و الاستهزاء.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ» جواب شعيب عن قولهم و اقتراحهم منه إتيان العذاب، و هو كناية عن أنه ليس له من الأمر شىء و إنما الأمر الى الله لأنه أعلم بما يعملون و أن عملهم هل يستوجب عذابا؟ و ما هو العذاب الذى يستوجه إذا استوجب؟ فهو كقول هود لقومه «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ» (الأحقاف ٢٣).

قوله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ الْخَالِكِ»؛ يوم الظله يوم عذب فيه قوم شعيب بظله من الغمام، و قد تقدم تفصيل قصتهم فى سورة هود.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً -الى قوله- الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ تقدم تفسيره.

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٩٢ الى ٢٢٧]

إشارة

وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَعْتُهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَيْلٌ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَلْبَعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَلَمْ نَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا نَنْزَلُ بِهِ الشَّيَاطِينَ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينَ (٢٢١) نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَآكُتْرَهُمْ كَذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الضمير للقرآن، وفيه رجوع الى ما في صدر السوره من قوله: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» وتعقيب لحديث كفرهم به كما في قوله بعد ذلك: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجَدِّدٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَقَدْ كَذَّبُوا» الآية.

والتنزيل و الإنزال بمعنى واحد، غير أن الغالب على باب الإفعال الدفعه و على باب التفعيل التدريج، و أصل النزول فى الأجسام انتقال الجسم من مكان عال الى ما هو دونه و فى غير الأجسام بما يناسبه.

و تنزيله تعالى إخراج الشىء من عنده الى موطن الخلق و التقدير و قد سمي نفسه بالعلى العظيم و الكبير المتعال و رفيع الدرجات و القاهر فوق عباده فيكون خروج الشىء بإيجاده من عنده الى عالم الخلق و التقدير— إن شئت فقل: إخراج من عالم الغيب الى عالم الشهاده— تنزيلا منه تعالى له.

و قد استعمل الإنزال و التنزيل فى كلامه تعالى فى أشياء بهذه العناية كقوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ (الأعراف ٢٦)، و قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر ٦)، و قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ (الحديد ٢٥)، و قوله: مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَـئِىْسَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (البقره ١٠٥)، و قد أطلق القول فى قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١).

و من الآيات الداله على اعتبار هذا المعنى فى خصوص القرآن فى قوله: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا

عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (الزخرف ٤).

وقد أضيف التنزيل الى رب العالمين للدلالة على توحيد الرب تعالى لما تكرر مرارا أن المشركين إنما كانوا يعترفون به تعالى بما أنه رب الأرباب ولا يرون أنه رب العالمين.

قوله تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ^{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} المراد بالروح الأمين هو جبريل ملك الوحي بدليل قوله: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (البقره ٩٧/)، وقد سماه فى موضع آخر بروح القدس قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (النحل ١٠٢/)، وقد تقدم فى تفسير سورتي النحل والإسراء ما يتعلق بمعنى الروح من الكلام.

وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنه مأمون فى رسالته منه تعالى الى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لا يغير شيئا من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمد أو سهو أو نسيان كما أن توصيفه فى آيه أخرى بالقدس يشير الى ذلك.

وقوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الباء للتعديه أى نزله الروح الأمين، وأما قول من قال: إن الباء للمصاحبه والمعنى نزل معه الروح فلا يلتفت اليه لأن العنايه فى المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن.

و الضمير فى «نَزَلَ بِهِ» للقرآن بما أنه كلام مؤلف من ألفاظ لها معانيها الحقه فإن ألفاظ القرآن نازله من عنده تعالى كما أن معانيها نازله من عنده على ما هو ظاهر قوله: فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (القيامه ١٨/)، وقوله: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ (آل عمران ١٠٨/)، (الجاثيه ٦/)، الى غير ذلك.

و المراد بالقلب المنسوب اليه الإدراك و الشعور فى كلامه تعالى هو النفس الإنسانيه التى لها الإدراك و إليها تنتهى أنواع الشعور و الإراده دون اللحم الصنوبرى المعلق عن يسار الصدر الذى هو أحد الأعضاء الرئيسه كما يستفاد من مواضع فى كلامه تعالى، كقوله: وَ بَلَغَتْ

الْقُلُوبِ الْحَاجِرِ (الأحزاب ١٠)، أى الأرواح، وقوله: فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ (البقره ٢٨٣)، أى نفسه إذ لا- معنى لنسبه إلا- ثم الى العضو الخاص.

و لعل الوجه فى قوله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ» دون أن يقول: عليك هو الإشاره الى كيفية تلقيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ القرآن النازل عليه، وأن الذى كان يتلقاه من الروح هو نفسه الشريفه من غير مشاركة الحواس الظاهره التى هى الأدوات المستعمله فى إدراك الامور الجزئيه.

فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يرى و يسمع حينما كان يوحى اليه من غير أن يستعمل حاستى البصر و السمع كما روى أنه كان يأخذه شبه إغماء يسمى برجاء الوحى.

فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يرى الشخص و يسمع الصوت مثل ما نرى الشخص و نسمع الصوت غير أنه ما كان يستخدم حاستى بصره و سمعه الماديتين فى ذلك كما نستخدمها.

و لو كان رؤيته و سمعه بالبصر و السمع الماديين لكان ما يجده مشتركاً بينه و بين غيره فكان سائر الناس يرون ما يراه و يسمعون ما يسمعه، و النقل القطعى يكذب ذلك فكثيراً ما كان يأخذه برجاء الوحى و هو بين الناس فيوحى اليه و من حوله لا يشعرون بشيء و لا يشاهدون شخصاً يكلمه و لا كلاماً يلقي اليه.

و القول بأن من الجائز أن يصرف الله تعالى حواس غيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الناس عن بعض ما كانت تناله حواسه و هى الامور الغيبية المستوره عنا.

هدم لبنيان التصديق العلمى إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظيم على الحواس و هى مفتاح العلوم الضرورىه و التصديقات البديهيه و غيرها لم يبق وثوق على شيء من العلوم و التصديقات.

على أن هذا الكلام مبنى على أصاله الحس و أن لا وجود إلا لمحسوس و هو من أفحش الخطأ و قد تقدم فى تفسير سوره مريم كلام فى معنى تمثل الملك نافع فى المقام.

و للبحث تتمه لعل الله سبحانه يوفقنا لاستيفائها بإيراد كلام جامع فى الملك و آخر فى

وقوله: لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ أى من الداعين الى الله سبحانه بالتخويف من عذابه وهو المراد بالإنذار فى عرف القرآن دون النبى او الرسول بالخصوص، قال تعالى فى مؤمنى الجن: وَإِذْ صِرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَشِيْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ (الأحقاف ٢٩/)، وقال فى المتفقهين من المؤمنين:

لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (التوبه ١٢٢/).

و إنما ذكر إنذاره صَلَّى الله عليه و آله و سلم غايه لإنزال القرآن دون نبوته أو رسالته لأن سياق آيات السوره سياق التخويف و التهديد.

وقوله: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ أى ظاهر فى عربيته او مبين للمقاصد تمام البيان و الجار و المجرور متعلق بنزل اى أنزله بلسان عربى مبين.

و جوز بعضهم ان يكون متعلقا بقوله: «منذرين» و المعنى أنزله على قلبك لتدخل فى زمرة الأنبياء من العرب و قد ذكر منهم فى القرآن هود و صالح و إسماعيل و شعيب عليهم السلام و أول الوجهيين أحسنهما.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ الضمير للقرآن أو نزوله على النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و الزبر جمع زبور و هو الكتاب و المعنى و إن خبر القرآن او خبر نزوله عليك فى كتب الماضين من الأنبياء.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ضمير «أَنْ يَعْلَمَهُ» لخبر القرآن او خبر نزوله على النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم اى أ و لم يكن علم علماء بنى إسرائيل بخبر القرآن او نزوله عليك على سبيل البشاره فى كتب الأنبياء الماضين آيه للمشركين على صحه نبوتك و كانت اليهود تبشر بذلك و تستفتح على العرب به كما مر فى قوله تعالى: وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا (البقره ٨٩/).

وقد أسلم عده من علماء اليهود فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم واعترفوا بأنه مبشر به فى كتبهم، و السوره من أوائل السور المكيه النازله قبل الهجره و لم تبلغ عداوه اليهود للنبى صلى الله عليه وآله وسلم مبلغها بعد الهجره و كان من المرجو أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحق و لو بوجه كلى.

قوله تعالى: **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ** قال فى المفردات: العجمه خلاف الإبانه و الاعجام الابهام-الى أن قال- و العجم خلاف العرب و العجمى منسوب اليهم، و الأعجم من فى لسانه عجمه عربيا كان أو غير عربى اعتبارا بقله فهمهم عن العجم، و منه قيل للبهيمه عجماء و الأعجمى منسوب اليه قوله تعالى:

«**وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ**» على حذف الياءات انتهى.

و مقتضى ما ذكره- كما ترى- أن أصل الأعجمين الأعجميين ثم حذفت ياء النسبه و به صرح بعض آخر، و ذكر بعضهم ان الوجه ان أعجم مؤنثه عجماء و أفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامه لكن الكوفيين من النحاه يجوزون ذلك و ظاهر اللفظ يؤيد قولهم فلا موجب للقول بالحذف.

و كيف كان فظاهر السياق اتصال الآيتين بقوله: «**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**»، فتكونان فى مقام التعليل له و يكون المعنى: نزلناه عليك بلسان عربى ظاهر العربيه واضح الدلاله ليؤمنوا به و لا- يتعللوا بعدم فهمهم مقاصده و لو نزلناه على بعض الأعجميين بلسان أعجمى ما كانوا به مؤمنين و ردوه بعدم فهم مقاصده.

فيكون المراد بنزوله على بعض الأعجميين نزوله أعجميا و بلسانه، و الآيتان و التى بعدهما فى معنى قوله تعالى: **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَرَأَوْهُ لُغْوًا لَّوَالْوَالِئَاتِ لَأُفْصِلَتْ آيَاتُهُ** **ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءٌ وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** (حم السجده ٤٤/).

قوله تعالى: **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** الإشاره بقوله: «**كَذَلِكَ**»

الى الحال التى عليها القرآن عند المشركين و قد ذكرت فى الآيات السابقه و هى أنهم معرضون عنه لا يؤمنون به و إن كان تنزيلا من رب العالمين و كان عربيا مبينا غير أعجمى و كان مذكورا فى زبر الأولين يعلمه علماء بنى إسرائيل.

و السلوك الإدخال فى الطريق و الإمرار، و المراد بالمجرمين هم الكفار و المشركون و ذكرهم بوصف الإجرام للإشارة الى عله الحكم و هو سلوكه فى قلوبهم على هذه الحال المبغوضه و المنفوره و أن ذلك مجازاه إلهيه جازاهم بها عن إجرامهم و ليعم الحكم بعموم العله.

و المعنى على هذه الحال- و هى أن يكون بحيث يعرض عنه و لا يؤمن به- ندخل القرآن فى قلوب هؤلاء المشركين و نمّره فى نفوسهم جزاء لإجرامهم و كذلك كل مجرم.

قوله تعالى: لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ -الى قوله- مُنْظَرُونَ تفسير و بيان لقوله: «كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ» الخ؛ هذا على الوجه الأول و الثالث من الوجوه المذكوره فى الآيه السابقه و أما على الوجه الثانى فهو استئناف غير مرتبط بما قبله.

و قوله: حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ أى حتى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم الى الإيمان الاضطرارى الذى لا ينفعهم، و الظاهر أن المراد بالعذاب الأليم ما يشاهدونه عند الموت و احتمال بعضهم ان يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل، لكن عموم الحكم فى الآيه السابقه لمشركى مكه و غيرهم لا يلائم ذلك.

و قوله: فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ كالتفسير لقوله: «حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» إذ لو لم يأتهم بغته و علموا به قبل مواعده لاستعدوا له و آمنوا باختيار منهم غير ملجئين اليه.

و قوله: فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ كلمه تحسّر منهم.

قوله تعالى: أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ توبيخ و تهديد.

قوله تعالى: أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ -الى قوله- يُمَتِّعُونَ متصل بقوله:

«فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ» و محصل المعنى أن تمنى الإمهال و الإنظار تمنى أمر لا ينفعهم لو وقع على ما يتمنونه و لم يغن عنهم شيئاً لو أجيوا الى ما سألوه فإن تمتيعهم أمدا محدودا طال أو قصر لا يرفع العذاب الخالد الذى قضى فى حقهم.

و هو قوله: أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ معدوده ستنقضى «ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ» من العذاب بعد انقضاء سنى الإنظار و الإمهال «مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتِّعُونَ» أى تمتيعهم أمدا محدودا.

قوله تعالى: وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ؛ الخ؛ الأقرب ان يكون قوله: «لَهَا مُنْذِرُونَ» حالا من «قَرْيَةٍ» و قوله: «ذِكْرَى» حالا من ضمير الجمع فى «مُنْذِرُونَ» أو مفعولا مطلقا عامله «مُنْذِرُونَ» لكونه فى معنى مذكرون و المعنى ظاهر، و قيل غير ذلك مما لا جدوى فى ذكره و إطاله البحث عنه.

و قوله: وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ و ررد النفى على الكون دون ان يقال: و ما ظلمناهم و نحو ذلك يفيد نفى الشأنيه اى و ما كان من شأننا و لا المترقب منا ان نظلمهم.

و الجمله فى مقام التعليل للحصر السابق و المعنى: ما أهلكنا من قريه إلا فى حال لها منذرون مذكرون تتم بهم الحجه عليهم لأننا لو أهلكناهم فى غير هذه الحال لكننا ظالمين لهم و ليس من شأننا أن نظلم أحدا فالآيه فى معنى قوله تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (الإسراء ١٥) (١).

قوله تعالى: وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ السَّيِّئَاتِ -الى قوله- لَمَعْرُوْلُونَ شروع فى الجواب عن قول المشركين: إِنَّ لِمُحَمَّدٍ جَنَّا يَأْتِيهِ بِهَذَا الْكَلَامِ، و قولهم: إنه شاعر، و قدّم الجواب

ص: ٥٩٥

عن الأول وقد وجه الكلام أولاً الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَيَبِينُ لَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ تَنْزِيلِ الشَّيَاطِينِ وَطَيْبٌ بِذَلِكَ نَفْسَهُ ثُمَّ وَجَّهَ الْقَوْلَ إِلَى الْقَوْمِ فَيَبِينُهُ لَهُمْ بِمَا فِي وَسْعِهِمْ أَنْ يَفْقَهُوه.

فقوله: وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ أَي مَا نَزَلَتْهُ وَالْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِقَوْلِهِ: «وَإِنَّهُ لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» وَجَّهَ الْكَلَامَ كَمَا سَمِعْتَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِدَلِيلٍ قَوْلِهِ تَلَوَا: «فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» إِلَى آخِرِ الْخَطَابَاتِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمُتَفَرِّعَةَ عَلَى قَوْلِهِ: «وَإِنَّمَا تَنْزَلَتْ بِهِ» الْخ؛ عَلَى مَا سَيَجِيءُ بَيَانُهُ.

وَإِنَّمَا وَجَّهَ الْكَلَامَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دُونَ الْقَوْمِ لِأَنَّهُ مَعْلَلٌ بِمَا لَا يَقْبَلُونَهُ بِكُفْرِهِمْ أَعْنَى قَوْلِهِ:

«إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُوْلُونَ» وَالشَّيْطَانُ الشَّرِيرُ وَجَمْعُهُ الشَّيَاطِينُ وَالْمُرَادُ بِهِمْ أَشْرَارُ الْجِنِّ.

وقوله: وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَي لِلشَّيَاطِينِ. قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: وَمَعْنَى قَوْلِ الْعَرَبِ:

يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا أَنَّهُ يَطْلُبُ مِنْكَ فَعْلُهُ فِي مَقْتَضَى الْعَقْلِ مِنَ الْبَغْيَةِ الَّتِي هِيَ الطَّلَبُ. انْتَهَى.

وَالْوَجْهَ فِي أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَتَنَزَّلُوا بِهِ أَنَّهُمْ خَلَقُوا شَرِيرًا لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا الشَّرُّ وَالْفَسَادُ وَالْأَخْذُ بِالْبَاطِلِ وَتَصْوِيرُهُ فِي صُورِهِ الْحَقِّ لِيُضَلُّوا بِهِ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْقُرْآنُ كَلَامٌ حَقٌّ لَا سَبِيلَ لِلْبَاطِلِ إِلَيْهِ فَلَا يَنَاسِبُ جَبَلْتَهُمُ الشَّيْطَانِيَّةُ أَنْ يَلْقَوْهُ إِلَى أَحَدٍ.

وقوله: وَمَا يَسْتَيْطِئُونَ أَي وَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّنَزُّلِ بِهِ لِأَنَّهُ كَلَامٌ سَمَاوِيٌّ تَتَلَقَّاهُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَيُنزِلُونَهُ بِأَمْرِهِ فِي حِفْظٍ وَحِرَاسَةٍ مِنْهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ: فَهَإِنَّهُ يَسِيلُ كُفْرًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصِيدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَمَدْنَاهُمْ (الجن / ٢٨)، وَإِلَى ذَلِكَ يُشِيرُ قَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ الْخ».

وقوله: إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُوْلُونَ أَي إِنْ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمْعِ الْأَخْبَارِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا يَجْرِي فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَعَزُولُونَ حَيْثُ يَقْدِفُونَ بِالشَّهْبِ الثَّاقِبِ لَوْ تَسْمَعُوا كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي مَوَاضِعٍ مِنْ كَلَامِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ خُطَابٌ

للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينهاه عن الشرك بالله متفرع على قوله: «وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ» الخ؛ أى إذا كان هذا القرآن تنزيلاً من رب العالمين ولم تنزل به الشياطين وهو ينهى عن الشرك ويوعده عليه العذاب فلا تشرك بالله فينالك العذاب الموعود عليه و تدخل في زمرة المعدبين.

و كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معصوماً بعصمه إلهيه يستحيل معها صدور المعصية منه لا ينافي نهيهِ عن الشرك فإن العصمة لا توجب بطلان تعلق الأمر والنهي بالمعصوم وارتفاع التكليف عنه بما أنه بشر مختار في الفعل والترك متصور في حقه الطاعة والمعصية بالنظر الى نفسه، وقد تكاثرت الآيات في تكليف الأنبياء عليهم السَّلام في القرآن الكريم كقوله في الأنبياء عليهم السلام: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (الأنعام ٨٨)، وقوله في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» (الزمر ٦٥)، والآيتان في معنى النهي.

قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» في مجمع البيان: عشيره الرجل قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه انتهى. و خص عشيرته و قرابته الأقربين بالذكر بعد نهى نفسه عن الشرك و إنذاره تنبيهاً على أنه لا استثناء في الدعوه الدينيه و لا مداينه و لا مساهله كما هو معهود في السنن الملوكيه فلا فرق في تعلق الإنذار بين النبي و أمته، و لا بين الأقارب و الأجانب، فالجميع عبيد و الله مولاهم.

قوله تعالى: «وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى اشتغل بالمؤمنين بك و اجمعهم و ضمهم اليك بالرافه و الرحمه كما يجمع الطير أفراخه اليه بخفض جناحه لها، و هذا من الاستعاره بالكنايه تقدم نظيره في قوله: «وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» (الحجر ٨٨).

و المراد بالاتباع الطاعه بقريته قوله في الآيه التاليه: «فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ» فملخص معنى الآيتين: إن آمنوا بك و اتبعوك فاجمعهم اليك بالرافه و اشتغل بهم بالتربيه و إن عصوك فتبرأ من عملهم.

قوله تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أى ليس لك من أمر طاعتهم و معصيتهم شىء وراء ما كلفناك فكل ما وراء ذلك الى الله سبحانه فإنه لعزته سيعذب العاصين و برحمته سينجى المؤمنين المتبعين.

و فى اختصاص اسمى العزيز و الرحيم إلفات للذهن الى ما تقدم من القصص ختمت واحده بعد واحده بالاسمين الكريمين.

فهو فى معنى أن يقال: توكل فى أمر المتبعين و العاصين جميعا الى الله فهو العزيز الرحيم الذى فعل بقوم نوح و هود و صالح و إبراهيم و لوط و شعيب و قوم فرعون ما فعل مما قصصناه فسنته أخذ العاصين و إنجاء المؤمنين.

قوله تعالى: الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ظاهر الآيتين -على ما يسبق إلى الذهن- أن المراد بالساجدين الساجدون فى الصلاة فيكون المعنى:

الذى يراك و أنت بعينه فى حالتى قيامك و سجودك متقلبا فى الساجدين و أنت تصلى مع المؤمنين.

و فى معنى الآيه روايات من طرق الشيعة و أهل السنه ستعرض لها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله.

قوله تعالى: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تعليل لقوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» و فى الآيات -على ما تقدم من معناها- تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و بشرى للمؤمنين بالنجاه و إيعاد للكفار بالعذاب.

قوله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينَ -الى قوله- كاذِبُونَ ، تعريف لمن تنزل عليه الشياطين بما يخصه من الصفه ليعلم أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم ليس منهم و لا أن القرآن من إلقاء الشياطين، و الخطاب متوجه الى المشركين.

فقوله: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينَ فى معنى هل أعرفكم الذين

تتنزل عليهم شياطين الجن بالأخبار؟

وقوله: تَنْزَلُ عَلَيَّ كُلُّ أِفَّاكٍ أَثِيمٍ قال في مجمع البيان: الأفاك الكذاب و أصل الإفك القلب و الأفاك الكثير القلب للخبر عن جهه الصدق الى جهه الكذب، و الأثيم الفاعل للقيح يقال: أثم يأثم إذا ارتكب القبيح و تأثم إذا ترك الإثم انتهى.

و ذلك أن الشياطين لا شأن لهم إلا إظهار الباطل في صوره الحق و تزيين القبيح في زى الحسن فلا يتنزلون إلا على أفاك أثيم.

وقوله: يُلْقَوْنَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ الظاهر أن ضميرى الجمع فى «يُلْقَوْنَ» و «أَكْثَرُهُمْ» معا للشياطين، و السمع مصدر بمعنى المسموع و المراد به ما سمعه الشياطين من أخبار السماء و لو ناقصا فإنهم ممنوعون من الاستماع مرميون بالشهب فما استرقوه لا يكون إلا ناقصا غير تام و لا كامل و لذا يتسرب اليه الكذب كثيرا.

وقوله: وَ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ أى أكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق أصلا و هذا هو الكثرة بحسب الأفراد و يمكن أن يكون المراد الكثرة من حيث التنزل أى أكثر المتنزلين منهم كاذبون أى أكثر أخبارهم كاذبه.

و محصل حجه الآيات الثلاث أن الشياطين لا ابتناء جبلتهم على الشر لا يتنزلون إلا على كل كذاب فاجر و أكثرهم كاذبون فى أخبارهم، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليس بأفاك أثيم و لا ما يوحى اليه من الكلام كذبا مختلقا فليس ممن تنزل عليه الشياطين و لا الذى يتنزل عليه شيطانا، و لا القرآن النازل عليه من إلقاء الشياطين.

قوله تعالى: وَ الشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ -الى قوله- لا- يَفْعَلُونَ جواب عن رمى المشركين للنبى صلى الله عليه و آله و سلم بأنه شاعر، نبه عليه بعد الجواب عن قولهم إن له شيطانا يوحى اليه القرآن.

و هذان أعنى قولهم: إن من الجن من يأتيه، و قولهم: إنه شاعر، مما كانوا يكررونه فى

أستتهم بمكه قبل الهجره يدفعون به الدعوه الحقه، وهذا مما يؤيد نزول هذه الآيات بمكه خلافا لما قيل إنها نزلت بالمدينه.

على أن الآيات مشتمله على ختام السوره أعنى قوله: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» و لا- معنى لبقاء سوره هى من أقدم السور المكيه سنين على نعت النقص ثم تمامها بالمدينه، و لا دلالة فى الاستثناء على أن المستثنى هم شعراء المؤمنين بعد الهجره.

و كيف كان فالغى خلاف الرشد الذى هو إصابه الواقع فالرشيده هو الذى لا يهتم إلا بما هو حق واقع، و الغوى هو السالك سبيل الباطل و المخطئ طريق الحق، و الغوايه مما يختص به صناعه الشعر المبنيه على التخيل و تصوير غير الواقع فى صوره الواقع و لذلك لا- يهتم به إلا- الغوى المشعوف بالتزيينات الخياليه و التصويرات الوهميه الملهيه عن الحق الصارفه عن الرشد، و لا يتبع الشعراء الذين يبتنى صناعتهم على الغى و الغوايه إلا الغاؤون و ذلك قوله تعالى: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» .

و قوله: أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ يقال: هام يهيم هيما إذا ذهب على وجهه و المراد بهيمانهم فى كل واد استرسالهم فى القول من غير أن يقفوا على حد فر بما مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحق المحمود و ربما هجوا الجميل كما يهجي القبيح الدميم و ربما دعوا الى الباطل و صرفوا عن الحق و فى ذلك انحراف عن سبيل الفطره الانسانيه المبنيه على الرشد الداعيه الى الحق، و كذا قولهم ما لا يفعلون من العدول عن صراط الفطره.

و ملخص حجه الآيات الثلاث أنه صلّى الله عليه و آله و سلم ليس بشاعر لأن الشعراء يتبعهم الغاؤون لابتناء صناعتهم على الغوايه و خلاف الرشد لكن الذين يتبعونه إنما يتبعونه ابتغاء للرشد و إصابه الواقع و طلبا للحق لابتناء ما عنده من الكلام المشتمل على الدعوه على الحق و الرشد دون الباطل و الغى.

قوله تعالى: **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا** الخ؛ استثناء من الشعراء المذمومين، والمستثنون هم شعراء المؤمنين فإن الإيمان وصالحات الأعمال تردع الانسان بالطبع عن ترك الحق واتباع الباطل ثم الذكر الكثير لله سبحانه يجعل الانسان على ذكر منه تعالى مقبلا الى الحق الذى يرتضيه مدبرا عن الباطل الذى لا يحب الاشتغال به فلا يعرض لهؤلاء ما كان يعرض لاولئك.

و بهذا البيان يظهر وجه تقييد المستثنى بالإيمان و عمل الصالحات ثم عطف قوله: **«وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا»** على ذلك.

و قوله: **«وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا** الانتصار الانتقام، قيل: المراد به ردّ الشعراء من المؤمنين على المشركين أشعارهم التى هجوا بها النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو طعنوا فيها فى الدين و قدحوا فى الاسلام و المسلمين، و هو حسن يؤيده المقام.

و قوله: **«وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ** المنقلب اسم مكان أو مصدر ميمى، و المعنى: و سيعلم الذين ظلموا- و هم المشركون على ما يعطيه السياق- الى أى مرجع و منصرف يرجعون و ينصرفون و هو النار أو ينقلبون أى انقلاب.

و فيه تهديد للمشركين و رجوع مختتم السوره الى مفتتحها و قد وقع فى أولها قوله: **«فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمُ الْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»** (١).

ص: ٦٠١

(١-١). الشعراء ١٩٢-٢٢٧: بحث روائى حول رؤيا النبى صلى الله عليه و آله و سلم، قوله تعالى: **«وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طس تلك آيات القرآن و كتاب مبين (١) هدى و بشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلاة
و يؤتون الزكاة و هم بالآخرة هم يوفون (٣) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون (٤) أولئك الذين لهم
سوء العذاب و هم في الآخرة هم الأخسرون (٥) و إنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦)

غرض السوره-على ما تدل عليه آيات صدرها و الآيات الخمس الخاتمه لها-التبشير

و الإنذار و قد استشهد لذلك بطرف من قصص موسى و داود و سليمان و صالح و لوط عليهم السّلام ثم عقبها ببيان نبذه من أصول المعارف كوحديته تعالى في الربوبية و المعاد و غير ذلك.

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَ كِتَابٍ مُّبِينٍ الإِشَارَةُ بِتِلْكَ- كما مر في أول سورة الشعراء- إلى آيات السورة مما ستنزل بعد و ما نزلت قبل، و التعبير باللفظ الخاص بالبعيد للدلالة على رفعه قدرها و بعد منالها.

و القرآن اسم الكتاب باعتبار كونه مقروءاً، و المبين من الإبانة بمعنى الإظهار، و تنكير «قرآن» للتفخيم أي تلك الآيات الرفيعة القدر التي نزلها آيات الكتاب و آيات كتاب مقروء عظيم الشأن مبين لمقاصده من غير إبهام و لا تعقيد.

قال في مجمع البيان: وصفه بالصفتين يعنى الكتاب و القرآن ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة و يظهر بالكتابة و هو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً، و وصفه بأنه مبين تشبيه له بالناطق بكذا. انتهى.

قوله تعالى: هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ المصردان أعنى «هُدًى وَ بُشْرَى» بمعنى اسم الفاعل أو المراد بهما المعنى المصدري للمبالغة.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ الخ؛ المراد إتيان الأعمال الصالحة و إنما اقتصر على الصلاة و الزكاة لكون كل منهما ركناً في بابه فالصلاة فيما يرجع إلى الله تعالى و الزكاة فيما يرجع إلى الناس و بنظر آخر الصلاة في الأعمال البدنية و الزكاة في الأعمال المالية.

و قوله: وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ وصف آخر للمؤمنين معطوف على ما قبله جيء به للإشارة إلى أن هذه الأعمال الصالحة إنما تقع موقعها و تصيب غرضها مع الإيقان بالآخرة فإن العمل يحبط مع تكذيب الآخرة، قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ (الأعراف ١٤٧).

و تكرار الضمير في قوله: «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ» الخ؛ للدلالة على أن هذا الإيقان من شأنهم و هم أهله المترقب منهم ذلك.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيِّدًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ العمه التحير في الأمر و معنى تزيين العمل جعله بحيث ينجذب اليه الإنسان و الذين لا يؤمنون بالآخرة لما أنكروها و هي غايه مسيرهم بقوا في الدنيا و هي سبيل لا غايه فتعلقوا بأعمالهم فيها و كانوا متحيرين في الطريق لا غايه لهم يقصدونها.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ الخ؛ إيعاد بمطلق العذاب من دنوي و أخروي بدليل ما في قوله: «وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ» و لعل وجه كونهم أخسر الناس أن سائر العصاه لهم صحائف أعمال مثبتة فيها سيئاتهم و حسناتهم يجازون بها و أما هؤلاء فسيئاتهم محفوظة عليهم يجازون بها و حسناتهم حابطة.

قوله تعالى: وَ إِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ التلقية قريبه المعنى من التلقين، و تنكير «حَكِيمٍ عَلِيمٍ» للتعظيم، و التصريح بكون هذا القرآن من عنده تعالى ليكون ذلك حجه على الرساله و تأييدا لما تقدم من المعارف و لصحه ما سيذكره من قصص الأنبياء عليهم السلام.

و تخصيص الاسمين الكريمين للدلالة على نزوله من ينبوع الحكمة فلا ينقضه ناقض و لا يوهنه موهن، و منبع العلم فلا يكذب في خبره و لا يخطئ في قضائه.

[سوره النمل (٢٧): الآيات ٧ الى ١٤]

اشاره

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بَخْبِرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ مِّنْ سَمَوَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي الذَّارِقِ وَ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

قوله تعالى: إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ النَّخ؛ المراد بأهله امرأته و هي بنت شعيب على ما ذكره الله تعالى في سورة القصص قال في المجمع: إن خطابها بقوله: «آتِيكُمْ» بصيغه الجمع لإقامتها مقام الجماعة في الانس بها في الأمكنه الموحشه. انتهى و من المحتمل أنه كان معها غيرها من خادم أو مكار أو غيرهما.

و في المجمع: الإيناس الإبصار، وقيل: آنت أي أحسست بالشئ من جهة يؤنس بها و ما آنت به فقد أحسست به مع سكون نفسك اليه. انتهى و الشهاب على ما في المجمع نور كالعمود من النار و كل نور يمتد كالعمود يسمى شهابا و المراد الشعلة من النار، و في المفردات:

الشهاب الشعلة الساطعه من النار الموقده و من العارض في الجو و في المفردات أيضا: القبس

المتناول من الشعلة، والاصطلاء بالنار الاستدفاء بها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى فلما أتى النار وحضر عندها نودي أن بورك، الخ.

و المراد بالمباركة إعطاء الخير الكثير يقال: باركه و بارك عليه و بارك فيه أى ألبسه الخير الكثير و حباه به، و قد وقع فى سورة طه فى هذا الموضع من القصة قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنَّى أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه ١٣). و يستأنس منه أن المراد بمن حول النار موسى أو هو ممن حول النار، و مباركته اختياره بعد تقديسه.

و أما المراد بمن فى النار فقد قيل: إن معناه من ظهر سلطانه و قدرته فى النار فإن التكليم كان من الشجرة-على ما فى سورة القصص- و قد أحاطت بها النار، و على هذا فالمعنى: تبارك من تجلّى لك بكلامه من النار و بارك فيك، و يكون قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنزيها له سبحانه من أن يكون جسما أو جسمانيا يحيط به المكان أو يجاوره الحدثان لا لتعجيب موسى كما قيل.

قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعرّف منه تعالى لموسى عليه السّلام ليعلم أن الذى يشافهه بالكلام ربه تعالى فهذه الآيه فى هذه السورة تحاذى قوله من سورة طه: ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى إِنَّى أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ﴾ الخ؛ فارجع الى سورة طه و تدبّر فى الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَى مُدَبِّرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ الخ؛ الاهتزاز التحرك الشديد، و الجان الحيه الصغيره السريعه الحرکه، و الإدبار خلاف الإقبال، و التعقيب الكرّ بعد الفر من عقب المقاتل إذا كرّ بعد فراره.

قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنّى لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ حكاية

نفس الخطاب الصادر هناك و هو فى معنى قال الله يا موسى لا تخف، الخ.

و قوله: لا- تَخَفُ نهي مطلق يؤمنه عن كل ما يسوء مما يخاف منه ما دام فى حضره القرب و المشافهه سواء كان المخوف منه عصا أو غيرها و لذا عمل النهى بقوله: «إِنِّي لَا- يَخَافُ لَمَدَى الْمُرْسَلُونَ» فإن تقييد النفى بقوله: «لَمَدَى» يفيد أن مقام القرب و الحضور يلزم الأمن و لا يجمع مكروها يخاف منه، و يؤيده تبديل هذه الجملة فى القصة من سوره القصص من قوله:

«إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» فيتحصل المعنى: لا تخف من شىء إنك مرسل و المرسلون- و هم لدى فى مقام القرب- فى مقام الأمن و لا خوف مع الأمن.

و أما فرار موسى عليه السلام من العصا و قد تصوّرت بتلك الصورة الهائله و هى تهتز كأنها جان فقد كان جريا منه على ما جبل الله طبيعه الإنسانيه عليه إذا فاجأه من المخاطر ما لا سبيل له الى دفعه عن نفسه إلا الفرار و قد كان أعزل لا سلاح معه إلا عصاه و هى التى يخافها على نفسه و لم يرد عليه من جانبه تعالى أمر سابق أن يلزم مكانه أو نهى عن الفرار مما يخافه على نفسه إلا قوله تعالى: «وَأَلْقِ عَصَاكَ» و قد امتثله، و ليس الفرار من المخاطر العظيمه التى لا دافع لها إلا الفرار، من الجبن المذموم حتى يذم عليه.

و أما أن الأنبياء و المرسلين لا- يخافون شيئا و هم عند ربهم- على ما يدل عليه قوله: «إِنِّي لَا يَخَافُ لَمَدَى الْمُرْسَلُونَ» فهم لا يملكون هذه الكرامه من عند أنفسهم بل إنما ذلك بتعليم من الله و تأديب و إذ كان موقف ليله الطور أول موقف من موسى قربه الله اليه فيه و خصه بالتكليم و حباه بالرساله و الكرامه فقوله: «لا- تَخَفُ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» و قوله: «لا- تَخَفُ إِنِّي لَا يَخَافُ لَمَدَى الْمُرْسَلُونَ» تعليم و تأديب إلهى له عليه السلام.

فتبين بذلك أن قوله: «لا- تَخَفُ إِنِّي لَا- يَخَافُ لَمَدَى الْمُرْسَلُونَ» تأديب و تربيه إلهيه لموسى عليه السلام و ليس من التوبيخ و التأنيب فى شىء.

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ»

الذى ينبغى أن يقال-والله أعلم-أن الآيه السابقه لما أخبرت عن أن المرسلين آمنون لا- يخافون فهم منه أن غيرهم من أهل الظلم غير آمنين لهم أن يخافوا استدرك فى هذه الآيه حال أهل التوبه من جمله أهل الظلم فبين أنهم لتوبتهم و تبديلهم ظلمهم-و هو السوء-حسنا بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا يخافون أيضا.

فالاستثناء من المرسلين و هو استثناء منقطع و المراد بالظلم مطلق المعصيه و بالحسن بعد السوء التوبه بعد المعصيه أو العمل الصالح بعد السيئ،و المعنى:لكن من ظلم باقتراف المعصيه ثم بدّل ذلك حسنا بعد سوء و توبه بعد معصيه أو عملا صالحا بعد سيئ فإنى غفور رحيم أغفر ظلمه و أرحمه فلا يخافن من بعد ذلك شيئا.

قوله تعالى: وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ الْخ؛ فسّر السوء بالبرص و قد تقدم،و قوله: «فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ» يمكن أن يستظهر من السياق أولا أن «فِي تِسْعِ» حال من الآيتين جميعا،و المعنى:آيتك هاتين الآيتين-و العصا و اليد-حال كونهما فى تسع آيات.

و ثانيا:أن الآيتين من جمله الآيات التسع،و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (الإسراء ١٠١/)،كلام فى تفصيل الآيات التسع،و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ الْمَبْصِرَةُ بِمَعْنَى الْوَاضِحَةِ الْجَلِيهِ،و فى قولهم: «هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» إزراء و إهانه بالآيات حيث أهملوا الدلاله على خصوصيات الآيات حتى العدد فلم يعبا بها إلا بمقدار أنها أمر ما.

قوله تعالى: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُوًّا الْخ؛قال الراغب:الجحد نفى ما فى القلب إثباته و إثبات ما فى القلب نفيه.انتهى.و الاستيقان و الإيقان بمعنى.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْاَحْمَدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلٰى كَثِيْرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا اَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَ اُوْتِيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ اِنْ هٰذَا لَهٗو الْفَضْلُ الْمُبِيْنُ (١٦) وَحَشَرَ لِسُلَيْمٰنَ جُنُوْدَهٗ مِنَ الْجِنِّ وَالْاِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُوْنَ (١٧) حَتّٰى اِذَا اَتَوْا عَلٰى وَادِ النَّعْمِلِ قَالَتْ نَعْمَلَهٗ يَا اَيُّهَا النَّعْمَلُ اَدْخُلُوْا مَسٰكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمٰنُ وَ جُنُوْدُهٗ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ (١٨) فَتَبَسَّمْ ضٰحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ اَوْزِعْنِيْ اَنْ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيْ اَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلٰى وَالِدَيَّ وَ اَنْ اَعْمَلَ صٰلِحًا تَرْضَاهُ وَ اَدْخِلْنِيْ بِرَحْمَتِكَ فِىْ عِبَادِكَ الصّٰلِحِيْنَ (١٩) وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرِ فَقَالَ مَا لِيَ لَا اَرٰى الْهُدٰىدَ اَمْ كَانَ مِنَ الْغٰثِيْنَ (٢٠) لَاعْدَبْنَهٗ عَزٰبًا شَدِيْدًا اَوْ لَادَّبْنَهٗ اَوْ لِيَٰتِيْنِيْ بِسُلْطٰنٍ مُّبِيْنٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيْدٍ فَمَا لَاحَظْتُ اَحَدًا لَّمْ تَحِطْ بِهٖ وَ جِئْتِكَ مِنْ سَآءِ يٰٓاِبْنٰٓيَ بِقِيْنٍ (٢٢) اِنِّيْ وَجَدْتُ امْرَاَهٗ تَمْلِكُهُمْ وَ اُوْتِيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَهَا عَرْشٌ عَظِيْمٌ (٢٣) وَجَدْتُمَا وَ قَوْمَهُمَا يَسْجُدُوْنَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ اَعْمٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُوْنَ (٢٤) اَلَا يَسْجُدُوْا لِلّٰهِ الَّذِيْ يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمٰوٰتِ وَ الْاَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُوْنَ وَ مَا تُعْلِنُوْنَ (٢٥) اللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ (٢٦) قَالَ سَيَنْظُرُ اَصَدَقْتُ اَمْ كُنْتُ مِنَ الْكٰذِبِيْنَ (٢٧) اِذْهَبْ بِكِتٰبِيْ هٰذَا فَاَلْقِهٖ اِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُوْنَ (٢٨) قَالَتْ يَا اَيُّهَا الْمَلَأُ اِنِّيْ اُلْقِيْ اِلَيْكَ كِتٰبَ كَرِيْمٍ (٢٩) اِنَّهٗ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَ اِنَّهٗ بِسِيْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ (٣٠) اَلَا تَعْلَمُوْنَ عَلٰى وَ اُتُوْنِيْ مُسْلِمِيْنَ (٣١) قَالَتْ يَا اَيُّهَا الْمَلَأُ اَفْتُوْنِيْ فِىْ اَمْرِىْ مَا كُنْتُ فَاطِعَهٗ اَمْرًا حَتّٰى تَشْهَدُوْنَ (٣٢) قَالُوْا نَحْنُ اَوْلٰو قُوَّهٖ وَ اَوْلٰو اَبْسٍ شَدِيْدٍ وَ الْاَمْرُ اِلَيْكَ فَانظُرِيْ مَاذَا تَأْمُرِيْنَ (٣٣) قَالَتْ اِنَّ الْمُلُوْكَ اِذَا دَخَلُوْا قَرْيَهٗ اَفْسَدُوْهَا وَ جَعَلُوْا اَعْرَهٗ اَهْلِيْهَا اَذَلَهٗ وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُوْنَ (٣٤) وَ اِنِّيْ مُرْسَلَهٗ اِلَيْهِمْ بِهَدِيَّهٖ فَناظِرَهٗ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمٰنَ قَالَ اَتَمَّدُوْنِ بِمَالٍ فَمَا اَتٰنِيْ اللّٰهُ خَيْرًا مِّمَّا اَتٰكُمْ بَلْ اَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُوْنَ (٣٦) اِرْجِعْ اِلَيْهِمْ فَلَنَّاْتِيَهُمْ بِجُنُوْدٍ لَّا قَبِيْلَ لَهُمْ بِهَا وَ لَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا اَذَلَهٗ وَ هُمْ صٰغِرُوْنَ (٣٧) قَالَ يَا اَيُّهَا الْمَلَأُ اَيُّكُمْ يٰٓاْتِيْنِيْ بِعَرْشِهَا قَبْلَ اَنْ يٰٓاْتُوْنِيْ مُسْلِمِيْنَ (٣٨) قَالَ عَفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ اَنَا اَتِيْكَ بِهٖ قَبْلَ اَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَقَامِكَ وَ اِنِّيْ عَلَيَّ لَقَوِيْ اٰمِيْنٌ (٣٩) قَالَ الَّذِيْ عِنْدَهٗ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتٰبِ اَنَا اَتِيْكَ بِهٖ قَبْلَ اَنْ يَزِيْدَ اِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَاَهٗ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهٗ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّيْ لِيَبْلُوْنِيْ اَشْكُرُ اَمْ اَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَاِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهٖ وَ مَنْ كَفَرَ فَاِنَّا رَبِّيْ غَنِيٌّ كَرِيْمٌ (٤٠) قَالَ نَكُرُوْا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ اَتَهْتَدِيْ اَمْ تَكُوْنُ مِنَ الَّذِيْنَ لَا يَهْتَدُوْنَ (٤١) فَلَمَّا جِئَتْ قِيْلَ اَهْكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَاَنَّهُ هُوَ وَ اُوْتِيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَ كُنَّا مُسْلِمِيْنَ (٤٢) وَ صَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كٰفِرِيْنَ (٤٣) قِيْلَ لَهَا اَدْخِلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَاَتْهٗ حَسِبْتَهٗ لُجَهٗ وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِيْهَا قَالَ اِنَّهٗ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيْرٍ قَالَتْ رَبِّ اِنِّيْ ظَلَمْتُ نَفْسِيْ وَ اَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمٰنَ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ (٤٤)

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا** الخ؛ فى تنكير العلم إشارة الى تفخيم أمره، و مما أشير فيه الى علم داود من كلامه تعالى قوله: **وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَلَ الْخِطَابِ** (ص ٢٠). و مما أشير فيه الى علم سليمان قوله: **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** (الأنبياء ٧٩)، و ذيل الآية يشملهما جميعاً.

و قوله: **وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** المراد بالفضل إما التفضيل بالعلم على ما ربما يؤديه سياق الآية، وإما التفضيل بمطلق ما خصّ بهما الله به من المواهب كتسخير الجبال و الطير لداود و تليين الحديد له و إيتائه الملك، و تسخير الجن و الوحش و الطير و كذا الريح لسليمان و تعليمه منطق الطير و إيتائه الملك على ما يستدعيه إطلاق التفضيل.

و الآية أعنى قوله: **«وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ»** الخ؛ على أى حال بمنزله حكاية اعترافهما على التفضيل الإلهي فيكون كالشاهد على المدعى الذى تشير اليه بشاره صدر السوره أن الله سبحانه سيخصّ المؤمنين بما تقرّ به عيونهم و مثلها ما سيأتى من اعترافات سليمان فى مواضع من كلامه.

قوله تعالى: **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** الخ؛ أى ورثه مالكة و ملكه، و أما قول بعضهم: المراد به وراثته النبوه و العلم ففيه أن النبوه لا تقبل الوراثه لعدم قبولها الانتقال، و العلم و إن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنه إنما يصحّ فى العلم الفكرى الاكتسابى و العلم الذى يختص به الأنبياء و الرسل كرامه من الله لهم و هبى ليس مما يكتسب بالفكر فغير النبى يرث العلم من النبى لكن النبى لا يرث علمه من نبى آخر و لا من غير نبى.

وقوله: وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ظاهراً السياق أنه عليه السلام يباهى عن نفسه وأبيه وهو منه عليه السلام تحديث بنعمه الله كما قال تعالى: وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (الضحى ١١/)، وأما إصرار بعض المفسرين على أن الضمير فى قوله: «عَلَّمْنَا» و «أُوتِينَا» لنفسه لا له ولأبيه على ما هو عادة الملوك والعظماء فى الإخبار عن أنفسهم-فإنهم يخبرون عنهم وعن خدمهم وأعوانهم رعايه لسياسة الملك-فالسباق السابق لا يساعد عليه كل المساعده.

وقوله: وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أى أعطينا من كل شىء، و «كُلُّ شَيْءٍ» وإن كان شاملاً لجميع ما يفرض موجوداً-لأن مفهوم شىء من أعمّ المفاهيم وقد دخل عليه كلمه الاستغراق-لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمة ولا كل نعمه بل النعم التى يمكن أن يؤتاها الانسان فيتنعم بها تقيدها معنى كل شىء و كان معنى الجملة:و أعطانا الله من كل نعمه يمكن أن يعطاها الانسان فيتنعم بها مقداراً معتداً به كالعلم والنبوه والملك والحكم وسائر النعم المعنويه والماديه.

وقوله: هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُؤَيَّنُ شكر و تأكيد للتحديث بالنعمة من غير عجب ولا كبر و اختيال لاسناده الجميع الى الله بقوله: «عَلَّمْنَا» و «أُوتِينَا»، و احتمال بعضهم أن تكون الجملة من كلام الله سبحانه لا من كلام سليمان و السياق يأباه.

قوله تعالى: وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ الحشر هو جمع الناس و إخراجهم لأمر يازعاج و الوزع المنع و قيل الحبس، و المعنى كما قيل:و جمع لسليمان جنوده من الجن و الانس و الطير فهم يمنعون من التفريق و اختلاط كل جمع بآخر برد أولهم الى آخرهم و حبس كل فى مكانه.

و يستفاد من الآيه أنه كان له جنود من الجن و الطير يسيرون معه كجنوده من الإنس.

و كلمه الحشر و وصف المحشورين بأنهم جنود،و سياق الآيات التاليه كل ذلك دليل على

أن جنوده كانوا طوائف خاصه من الجن و الإنس و الطير سواء كانت «مِنَ» فى الآيه للتبعيض او للبيان.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ الْآيَةَ؛ «حَتَّىٰ» غايه لما يفهم من الآيه السابقه، و ضمير الجمع لسليمان و جنوده، و تعديده الإتيان بعلى قيل: لكون الإتيان من فوق، و وادى النمل واد بالشام على ما قيل، و قيل: فى أرض الطائف، و قيل: فى أقصى اليمن، و الحطم الكسر.

و المعنى: فلما سار سليمان و جنوده حتى أتوا على وادى النمل قالت نملة مخاطبه لسائر النمل:

يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسرنكم سليمان و جنوده أى لا يطأنكم بأقدامهم و هم لا يشعرون. و فيه دليل على أنهم كانوا يسيرون على الأرض.

قوله تعالى: فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قيل: التبسم دون الضحك، و على هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازا.

و لا- منافاه بين قوله عليه السلام: «عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» و بين فهمه كلام النمله إذ لم ينف فهمه كلام سائر الحيوان او كلام بعضها كالنمله.

و قد تسلّم جمع منهم دلالة قوله: «عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» على نفى ما عداه فتكلفوا فى توجيه فهمه عليه السلام قول النمله تاره بأنه كانت قضيه فى واقعه، و أخرى بتقدير أنها كانت نملة ذات جناحين و هى من الطير، و ثالثه بأن كلامها كان من معجزات سليمان عليه السلام، و رابعه بأنه عليه السلام لم يسمع منها صوتا قط و إنما فهم ما فى نفس النمله إلهاما من الله تعالى هذا.

و ما تقدم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام. على أن سياق الآيات وحده كاف فى دفعها.

و قوله: وَقَالَ رَبُّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ الإيزاع الإلهام. تبسم عليه السلام مبتهجا مسرورا بما أنعم

اللّٰه عليه حتى أوقفه هذا الموقف و هي النبوه و العلم بمنطق الحيوان و الملك و الجنود من الجنّ و الإنس و الطير فسأل اللّٰه أن يلهمه شكر نعمته و أن يعمل بما فيه رضاه سبحانه.

و قد جعل الشكر للنعمه التي أنعم اللّٰه تعالى بها على نفسه مختصه به، و للنعمه التي أنعم بها على والديه فإن الإنعام على والديه إنعام عليه بوجه لكونه منهما و قد أنعم اللّٰه تعالى على أبيه داود بالنبوه و الملك و الحكمة و فصل الخطاب و غيرها و أنعم على أمه حيث زوّجها من داود النبي و رزقها سليمان النبي و جعلها من أهل بيت النبوه.

و في كلامه هذا دليل على أن والدته من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم اللّٰه عليهم (١) و هم احدى الطوائف الأربع المذكورين في قوله تعالى: الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصّٰدِقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصّٰلِحِينَ (النساء ٦٩).

و قوله: وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ عطف على قوله: «أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ» و مسأله هذه «أوزعنى أن أعمل» الخ؛ أمر أرفع قدرا و أعلى منزله من سؤال التوفيق للعمل الصالح فإن التوفيق يعمل في الأسباب الخارجيه بترتيبها بحيث توافق سعادته الإنسان و الإيزاع الذى سأله دعوه باطنيه فى الإنسان الى السعاده، و على هذا فليس من البعيد أن يكون المراد به الوحي الذى أكرم اللّٰه به إبراهيم و آله فيما يخبر عنه بقوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ الْآيَةَ (الأنبياء ٧٣)، و هو التأييد بروح القدس على ما مر فى تفسير الآيه.

و قوله: وَ أَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصّٰلِحِينَ أى اجعلنى منهم، و هذا الصلاح لما لم يتقيد بالعمل كان هو صلاح الذات و هو صلاح النفس فى جوهرها الذى يستعد به لقبول أى كرامه إلهيه.

ص: ٦١٥

١- ١). و فيه تبرئه ساحتها عما فى التوراه الدائره فى التوراه أنها كانت امرأه اوريا فجر بها داود ثم كاد فى قتل اوريا فقتل فى بعض الحروب فأدخلها فى أزواجه فولدت له سليمان.

و من المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدرا من صلاح العمل ففي قوله: «وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ» تدرج في المسألة من الأدنى الى الأعلى و قد كان صلاح العمل منسوبا الى صنعه و اختياره بوجه دون صلاح الذات و لذا سأل صلاح الذات من ربه و لم يسأل نفس صلاح العمل بل أن يوزعه أن يعمل.

و في تبديله سؤال صلاح الذات من سؤال أن يدخله في عباده الصالحين إيدان بسؤاله ما خصهم الله به من المواهب و أغزرها العبودية و قد وصفه الله بها في قوله: نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص ٣٠).

قوله تعالى: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ قال الراغب: التفقد التعهد لكن حقيقه التفقد تعرف فقدان الشيء و التعهد تعرف العهد المتقدم قال تعالى: «وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ». انتهى.

استفهم أولا- متعجبا من حال نفسه إذ لا- يرى الهدهد بين الطير كأنه لم يكن من المظنون في حقه أن يغيب عن موكبه و يستنكف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته.

و المعنى: ما بالي لا أرى الهدهد بين الطيور الملازمه لموكبي بل أ كان من الغائبين.

قوله تعالى: لَأَعَذَّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ اللامات للقسم و السلطان المبين البرهان الواضح، يقضى عليه السلام على الهدهد أحد ثلاث خصال:

العذاب الشديد و الذبح و فيهما شقاؤه، و الإتيان بحجه واضحة و فيه خلاصه و نجاته.

قوله تعالى: فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ضمير «فَمَكَتْ» لسليمان و يحتمل أن يكون للهدهد و يؤيد الأول سابق السياق و الثاني لاحقه، و المراد بالإحاطه العلم الكامل، و قوله: «وَ جِئْتُكَ» الخ؛ بمنزله عطف التفسير لقوله: «أَحَطْتُ» الخ؛ و سبأ بلده باليمن كانت عاصمته يومئذ و النبا الخبر الذي له

أهميه، واليقين ما لا شك فيه.

والمعنى: فمكث سليمان- أو فكث الهدهد- زمانا غير بعيد- ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته وعاتبه- فاقبل- فأحطت من العلم بما لم تحط به و جئتك من سبأ بخبر مهم لا شك فيه.

قوله تعالى: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ الضمير في «تَمْلِكُهُمْ» لأهل سبأ و ما يتبعها و قوله: «وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» وصف لسعه ملكها و عظمته و هو القرينه على أن المراد بكل شيء في الآية كل شيء هو من لوازم الملك العظيم من حزم و عزم و سطوه و مملكه عريضة و كنوز و جنود مجنده و رعيه مطيعه، و خصص بالذكر من بينها عرشها العظيم.

قوله تعالى: وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ الخ؛ أي إنهم من عبده الشمس من الوثنيين.

و قوله: وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ بمنزله عطف التفسير لما سبقه و هو مع ذلك توطئه لقوله بعد: «فَصَدَّ دَهُمَ عَنِ السَّبِيلِ» لأن تزوين الشيطان لهم أعمالهم التي هي سجدتهم و سائر تقرباتهم هو الذي صرفهم و منعهم عن سبيل الله و هي عبادته وحده.

و في إطلاق السبيل من غير إضافتها اليه تعالى إشاره الي أنها السبيل المتعينه للسبيليه بنفسها للانسان بالنظر الي فطرته بل لكل شيء بالنظر الي خلقه العامه.

و قوله: فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ تفریع على صدّهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصدّ عن السبيل فلا اهتداء، فافهمه.

قوله تعالى: أَلَا- يَسْتَجِدُّوْا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُغْلِبُونَ القراءه الدائره «ألا» - بتشديد اللام- مؤلف من «أن و لا» و هو عطف بيان من «أَعْمَالَهُمْ»، و المعنى: زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْ لَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ، وقيل:

بتقدير لام التعليل، و المعنى: زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ضَلَالَتَهُمْ لِئَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ.

و الخبء على ما فى مجمع البيان المخبوء و هو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه و هو مصدر وصف به يقال: خبأته أخبئه خبأ و ما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم الى الوجود يكون بهذه المنزله. انتهى.

ففى قوله: يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ استعاره كأن الأشياء مخبوءه مستوره تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى الى الوجود واحدا بعد آخر فيكون تسميه الإيجاد بعد العدم إخراجا للخبء قريبا من تسميته بالفطره و توصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات و الأرض و الفطر هو الشق كأنه يشق العدم فيخرج الأشياء.

و يمكن حمل الجملة على الحقيقه من غير استعاره لكنه مفتقر الى بيان موضعه غير هذا الموضع. و قيل: المراد بالخبء الغيب و إخراج العلم به و هو كما ترى.

و قوله: وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ بالتاء على الخطاب أى يعلم سرّكم و علانيتكم، و قرأ الأ-كثرون بالياء على الغيبه و هو أرجح.

و ملخص الحججه: انهم إنما يسجدون للشمس دون الله تعظيما لها على ما أودع الله سبحانه فى طباعها من الآثار الحسنه و التدبير العام للعالم الأرضى و غيره، و الله الذى أخرج جميع الأشياء من العدم الى الوجود و من الغيب الى الشهاده فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله - و من جملتها الشمس و تدبيرها - أولى بالتعظيم و أحق ان يسجد له، مع أنه لا معنى لعباده ما لا شعور له بها و لا شعور للشمس بسجدتهم و الله سبحانه يعلم ما يخفون و ما يعلنون فالله سبحانه هو المتعين للسجده و التعظيم لا غير.

و بهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلوا: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» الخ.

قوله تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ من تمام كلام الهدهد و هو بمنزله التصريح بنتيجه البيان الضمنى السابق و إظهار الحق قبال باطلهم و لذا أتى أولا بالتهليل الدال على توحيد العباده ثم ضم اليه قوله: «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» الدال على انتهاء تدبير الأمر

اليه فإن العرش الملكي هو المقام الذي تجتمع عنده ازمة الامور و تصدر منه الأحكام الجارية في الملك.

و في قوله: رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مناسبة محاذاه اخرى مع قوله في وصف ملكه سبأ: «وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ» و لعل قول الهدهد هذا الذي دعا- او هو من جمله ما دعا- سليمان عليه السلام ان يأمر ان يأتوا بعرشها اليه ليخضع لعظمه ربه كل عظمه.

قوله تعالى: قَالَ سَيَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الضمير لسليمان عليه السلام. أحال القضاء في أمر الهدهد الى المستقبل فلم يصدقه في قوله لعدم بينه عليه بعد و لم يكذبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده ان يجرب و يتأمل.

قوله تعالى: اِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ حكاية قول سليمان خطابا للهدهد كأنه قيل: فكتب سليمان كتابا ثم قال للهدهد:

اذهب بكتابي هذا إليهم أي الى ملكه سبأ و مألها فألقه إليهم ثم تول عنهم أي تنح عنهم وقع في مكان تراهم فانظر ما ذا يرجعون أي ما ذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه.

و قوله: فَأَلْقِهْ بسكون الهاء وصلا و وقفا في جميع القراءات و هي هاء السكت، و مما قيل في الآية: أن قوله: «ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ» الخ؛ من قبيل التقديم و التأخير و الأصل فانظر ما ذا يرجعون ثم تول عنهم: و هو كما ترى.

قوله تعالى: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في الكلام حذف و إيجاز و التقدير فأخذ الهدهد الكتاب و حمله الى ملكه سبأ حتى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذتها و لما قرأتها قالت لملئها و أشراف قومها: يا أيها الملأ، الخ.

فقوله: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ حكاية ذكرها لملئها

أمر الكتاب و كيفية وصوله إليها و مضمونه، و قد عظّمته إذ وصفته بالكرم.

□
و قوله: **وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريماً أي و السبب فيه أنه من سليمان و لم يكذب يخفى عليها جبروت سليمان و ما أوتيته من الملك العظيم و الشوكة العجيبه كما اعترفت بذلك في قولها على ما حكاه الله بعد: «و أوتينا العلم من قبله و كنا مسلمين».

و إنه بسم الله الرحمن الرحيم: أي الكتاب باسمه تعالى فهو كريم لذلك و الوثنيون جميعاً قائلون بالله سبحانه يرونه رب الأرباب و إن لم يعبدوه، و عبده الشمس منهم و هم من شعب الصابئين يعظّمونه و يعظّمون صفاته و إن كانوا يفسّرون الصفات بنفى النقائص و الأعدام فيفسرون العلم و قدره و الحياه و الرحمه مثلاً بانتفاء الجهل و العجز و الموت و القسوه فكون الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم يستدعي كونه كريماً، كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعي كونه كريماً، و على هذا فالكتاب أي مضمونه هو قوله: **«أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ»** و أن مفسره.

□
قوله تعالى: **«أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ»** أن مفسره تفسر مضمون كتاب سليمان كما تقدمت الإشارة اليه.

و المراد بعلوهم عليه استكبارهم عليه، و بقوله: **«وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ»** إسلامهم بمعنى الانقياد على ما يؤيده قوله: **«أَنَّ لَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ»** دون الإسلام بالمعنى المصطلح و هو الإيمان بالله سبحانه و إن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد و سياق الآيات الآتية، و لو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال: أن لا تعلموا على الله.

و كون سليمان عليه السلام نبياً شأنه الدعوه الى الإسلام لا ينافي ذلك فإنه كان ملكاً رسولاً و كانت دعوته الى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم و قد انتهت الى إسلامها لله كما حكى الله تعالى

عنها «وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» .

قوله تعالى: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ الْإِفْتَاءَ إِظْهَارَ الْفَتْوَى وَ هِيَ الرَّأْيُ، وَ قَطَعَ الْأَمْرَ الْقَضَاءَ بِهِ وَ الْعَزْمَ عَلَيْهِ وَ الشَّهَادَةَ الْحُضُورَ وَ هَذَا اسْتِشَارَهُ مِنْهَا لَهُمْ تَقُولُ: أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي وَاجَهْتَهُ - وَ هُوَ الَّذِي يَشِيرُ إِلَيْهِ كِتَابُ سُلَيْمَانَ - وَ إِنَّمَا اسْتَشِيرُكُمْ فِيهِ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ حَتَّى الْيَوْمِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِي فِي الْأُمُورِ بَلْ أَقْضَى وَ أَعَزَمَ عَنِ إِشَارِهِ وَ حُضُورِ مَنْكُمْ.

قوله تعالى: قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَ أَوْلُوا بِبِئْسَ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ الْقُوَّةُ مَا يَتَّقُونَ بِهِ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَ هِيَ هَاهُنَا الْجُنْدُ الَّذِي يَتَّقُونَ بِهِ عَلَى دَفْعِ الْعَدُوِّ وَ قِتَالِهِ، وَ الْبِئْسَ الشَّدِيدُ فِي الْعَمَلِ وَ الْمِرَادُ بِهِ النُّجْدَةُ وَ الشُّجَاعَةُ.

وَ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ جَوَابَ الْمَلَأِ لَهَا يَسْمَعُونَهَا أَوْلَا مَا يَطِيبُ لَهَا نَفْسُهَا وَ يَسْكُنُ بِهِ قَلْبُهَا ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا الْأَمْرَ يَقُولُونَ: طِيبَى نَفْسًا وَ لَا تَحْزَنِي فَإِنَّ لَنَا مِنَ الْقُوَّةِ وَ الشَّدِيدِ مَا لَا نَهَابَ بِهِ عَدَاؤًا وَ إِنْ كَانَ هُوَ سُلَيْمَانَ ثُمَّ الْأَمْرُ إِلَيْكَ مَرَى بِمَا شِئْتَ فَنَحْنُ مَطِيعُونَكَ.

قوله تعالى: قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذَنًا وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ إِفْسَادَ الْقَرْيِ تَخْرِيْبَهَا وَ إِحْرَاقَهَا وَ هَدْمَ أَسْبَاطِهَا، وَ إِذْلالَ أَعْرَاجِ أَهْلِهَا هُوَ بِالْقَتْلِ وَ الْأَسْرِ وَ السَّبْيِ وَ الْإِجْلَاءِ وَ التَّحْكَمِ.

كَانَ رَأْيُهَا عَلَى مَا يَسْتَفَادُ مِنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ - زِيَادَةَ التَّبَصُّرِ فِي أَمْرِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ تَرْسَلَ إِلَيْهِ مِنْ يَخْتَبِرُ حَالَهُ وَ يَشَاهِدُ مَظَاهِرَ نُبُوَّتِهِ وَ مَلِكِهِ فَيَخْبِرُ الْمَلِكَةَ بِمَا رَأَى حَتَّى تَصْمَمَ هِيَ الْعَزْمَ عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ: الْحَرْبِ أَوْ السَّلْمِ وَ كَانَ الظَّاهِرُ مِنْ كَلَامِ الْمَلَأِ حَيْثُ بَدَأُوا فِي الْكَلَامِ مَعَهَا بِقَوْلِهِمْ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَ أَوْلُوا بِبِئْسَ شَدِيدٍ، أَنَّهُمْ يَمِيلُونَ إِلَى الْقِتَالِ لِذَلِكَ أَخَذَتْ أَوْلَا تَذَمُّ الْحَرْبِ ثُمَّ نَصَّتْ عَلَى مَا هُوَ رَأْيُهَا فَقَالَتْ: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا» الْخ: أَيِ إِنْ الْحَرْبُ لَا تَنْتَهِي إِلَّا إِلَى غَلْبِهِ أَحَدِ الْمُتَحَارِبِينَ وَ فِيهَا فُسَادُ الْقَرْيِ وَ ذَلِكَ أَعَزَّتْهَا فَلَيسَ مِنَ الْحَزْمِ وَ الْإِقْدَامِ

عليها مع قوة العدو و شوخته مهما كانت الى السلم و الصلح سبيل إلا لضروره و رأى الذى أراه ان أرسل اليهم بهديه ثم انظر بما ذا يرجع المرسلون من الخبر و عند ذلك أقطع بأحد الأمرين الحرب او السلم.

فقوله: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا الْخَيْبَ تَوَطَّئُوا لِقَوْلِهِ بَعْدَ: «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ» الْخَيْبَ.

و قوله: وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً أَبْلَغَ وَ أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِنَا مِثْلًا: اسْتَذَلُّوا أَعِزَّتَهَا لِأَنَّهُ مَعَ الدَّلَالَةِ عَلَى تَحَقُّقِ الذَّلَّةِ يَدُلُّ عَلَى تَلْبَسِهِمْ بِصِفَةِ الذَّلَّةِ.

و قوله: وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ مَسْجُوقٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الاستمرار بعد دلالة قوله:

«أَفْسِدُوا وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً» عَلَى اصْلِ الْوَقْعِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْجُمْلَةَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ مَلِكِهِ سَبَأً، وَ لَيْسَ بِسَدِيدٍ إِذْ لَا اقْتِضَاءَ فِي الْمَقَامِ لِمِثْلِ هَذَا التَّصْدِيقِ.

قوله تعالى: وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسِلُونَ أَي مَرْسَلَةً إِلَى سَلِيمَانَ وَ هَذَا نَوْعٌ مِنَ التَّجْبِيرِ وَ الْاِعْتِرَازِ الْمَلُوكِيِّ تَصَوُّنَ لِسَانِهَا عَنْ اسْمِهِ وَ تَنْسِبَ الْأَمْرَ إِلَيْهِ وَ إِلَى مَنْ مَعَهُ جَمِيعًا وَ اِيضًا تَشِيرُ بِهِ إِلَى أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ بِأَيْدِي اِعْضَادِهِ وَ جُنُودِهِ وَ اِمْدَادِ رِعِيَّتِهِ.

و قوله: فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسِلُونَ أَي حَتَّى اِعْمَلْ عِنْدَ ذَلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ وَ هَذَا - كَمَا تَقَدَّمَ - هُوَ رَأْيُ مَلِكِهِ سَبَأً، وَ يَعْلَمُ مِنْ قَوْلِهِ: «الْمُرْسِلُونَ» أَنَّ الْحَامِلَ لِلْهَدِيَّةِ كَانَ جَمْعًا مِنْ قَوْمِهَا كَمَا يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِ سَلِيمَانَ بَعْدَ «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ» أَنَّهُ كَانَ لِلْقَوْمِ الْمُرْسِلِينَ رِئِيسَ يَرَأْسُهُمْ.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ضَمِيرٌ جَاءَ لِلْمَالِ الَّذِي أَهْدَى إِلَيْهِ أَوْ لِلرَّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِالْهَدِيَّةِ.

و الاستفهام فى قوله: «أَتَمَدُّونِنِ بِمَالٍ» للتوبيخ و الخطاب للرسول و المرسل بتغليب الحاضر على الغائب، و توبيخ القوم من غير تعيين الملكة من بينهم نظير قولها فيما تقدم: «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ» كما أشرنا اليه.

و جَوَز ان يكون الخطاب للمرسلين و كانوا جماعه و هو خطأ فإن الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممن أرسلهم فلا معنى لتوجيه التوبيخ اليهم خاصة، و تنكير المال للتحقير، و المراد بما آتاني الله الملك و النبوه.

و المعنى: أتمدوني بمال حقير لا- قدره له عندى فى جنب ما آتاني الله فما آتاني الله من النبوه و الملك و الثروه خير مما آتاكم.

و قوله: بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال الى التوبيخ بفرحهم بهديتهم أى إن إمدادكم إياى بمال لا قدر له عندى فى جنب ما آتاني الله قبيح و فرحكم بهديتكم لاستعظامكم لها و إعجابكم بها أقبح.

قوله تعالى: اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَ لَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَ هُمْ صَاغِرُونَ الخطاب لرئيس المرسلين، و ضمائر الجمع راجعه الى ملكه سبأ و قومها، و القبل الطاقه، و ضمير «بِهَا» لسبأ، و قوله: «وَ هُمْ صَاغِرُونَ» تأكيد لما قبله، و اللام فى «فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ» و «لَنَخْرِجَنَّهُمْ» للقسم.

لما كان ظاهر تبديلهم امتثال أمره- و هو قوله: «أتونى مسلمين»- من إرسال الهديه هو الاستنكاف عن الاسلام قَدْر بحسب المقام انهم غير مسلمين له فهددهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها و لذلك فرغ إتيانهم بالجنود على رجوع الرسول من غير أن يشترطه بعدم إتيانهم مسلمين فقال: «ارجع إليهم فلنأتينهم» الخ؛ و لم يقل: ارجع فإن لم يأتونى مسلمين فلنأتينهم، الخ؛ و إن كان مرجع المعنى اليه فإن إرسال الجنود و إخراجهم من سبأ على حال الذله كان مشروطا به على أى حال.

و السياق يشهد أنه عليه السلام رد اليهم هديتهم و لم يقبلها منهم.

قوله تعالى: **قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** كلام تكلم به بعد رد الهدية و إرجاع الرسل، و فيه إخباره انهم سيأتونه مسلمين و إنما أراد الإتيان بعرشها قبل حضورها و قومها عنده ليكون دلاله ظاهره على بلوغ قدرته الموهوبه من ربه و معجزه باهره لنبوته حتى يسلموا لله كما يسلمون له و يستفاد ذلك من الآيات التاليه.

قوله تعالى: **قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** العفريت-على ما قيل-المارد الخيث، و قوله: «آتِيكَ بِهِ» اسم فاعل او فعل مضارع من الإتيان، و الأول أنسب للسياق لدلالته على التلبس بالفعل و كونه أنسب لعطف قوله: «وَإِنِّي عَلَيْهِ» الخ؛ و هو جمله اسميه عليه. كذا قبل.

و قوله: **وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** الضمير للإتيان أى أنا للإتيان بعرشها لقوى لا يثقل على حمله و لا يجهدنى نقله، أمين لا أخونك فى هذا الأمر.

قوله تعالى: **قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ** مقابله لمن قبله دليل على انه كان من الإنس، و قد وردت الروايات عن أئمه أهل البيت عليهم السلام انه كان آصف بن برخيا وزير سليمان و وصيه، و قيل: هو الخضر، و قيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أجاب، و قيل: جبريل، و قيل: هو سليمان نفسه، و هى وجوه لا دليل على شىء منها.

و أيا ما كان و أى من كان ففصل الكلام مما قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذى أتى بعرشها اليه فى أقل من طرفه العين، و قد اعتنى بشأن عمله أيضا إذ نكر فقيل:

علم من الكتاب أى علم لا يحتمل اللفظ وصفه.

و المراد بالكتاب الذى هو مبدأ هذا العلم العجيب إما جنس الكتب السماويه او اللوح

المحفوظ، و العلم الذى أخذه هذا العالم منه كان علما يسهل له الوصول الى هذه البغية و قد ذكر المفسرون أنه كان يعلم اسم الله الأ-عظم الذى إذا سئل به أجاب، و ربما ذكر بعضهم أن ذلك الاسم هو الحى القيوم، و قيل: ذو الجلال و الإكرام، و قيل: الله الرحمن، و قيل: هو بالعبرانية آهيا شراهيا، و قيل: إنه دعا بقوله: يا إلهنا و إله كل شىء إلهها واحدا لا إله إلا أنت ايتنى بعرشها. الى غير ذلك مما قيل.

و قوله: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ الطرف-على ما قيل-اللحظ و النظر و ارتداد الطرف وصول المنظور اليه الى النفس و علم الإنسان به، فالمراد أنا آتيك به فى أقل من الفاصله الزمانيه بين النظر الى الشىء و العلم به.

و الخطاب فى قوله: «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» لسليمان عليه السّلام فهو الذى يريد الإتيان به اليه و هو الذى يراد الإتيان به اليه.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ أى لما رأى سليمان العرش مستقرا عنده قال هذا، أى حضور العرش و استقراره عندى فى أقل من طرفه العين من فضل ربي من غير استحقاق منى ليبلونى أى يمتحننى أ أشكر نعمته أم أكفر و من شكر فإنما يشكر لنفسه أى يعود نفعه اليه لا الى ربي و من كفر فلم يشكر فإن ربي غنى كريم-و فى ذيل الكلام تأكيد لما فى صدره من حديث الفضل-.

قوله تعالى: قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ، قال فى المفردات: تنكير الشىء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف، قال تعالى: «قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا» و تعريفه جعله بحيث يعرف. انتهى.

و السياق يدل على أن سليمان عليه السّلام إنما قاله حينما قصدته ملكه سبأ و ملأها لما دخلوا عليه، و إنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آيه باهره من آيات نبوته لها، و لذا امر بتنكير العرش ثم رتب عليه قوله: «نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي» الخ؛ و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ أَي فلما جاءت الملكة سليمان عليه السلام قيل له من جانب سليمان «أَهَكَذَا عَرْشُكَ» وهو كلمه اختبار.

و لم يقل: أ هذا عرشك بل زيد في التنكير فقيل: أ هكذا عرشك؟ فاستفهم عن مشابهه عرشها لهذا العرش المشار اليه في هيئته و صفاته، و في نفس هذه الجملة نوع من التنكير.

و قوله: قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ المراد به أنه هو و إنما عبرت بلفظ التشبيه تحرزا من الطيش و المبادرة الى التصديق من غير تثبت، و يكتنى عن الاعتقادات الابتدائية التي لم يتثبت عليها غالبا بالتشبيه.

و قوله: وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ ضمير «قَبْلِهَا» لهذه الآية أى الإتيان بالعرش او لهذه الحالة اى رؤيتها له بعد ما جاءت، و ظاهر السياق أنها تتمه كلام الملكة فهى لما رأت العرش و سئلت عن امره احست أن ذلك منهم تلويح الى ما أتى الله سليمان من القدره الخارقه للعاده فأجابت بقولها: «وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا» الخ؛ أى لا حاجة الى هذا التلويح و التذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآية او هذه الحالة و كنا مسلمين لسليمان طائعين له.

قوله تعالى: وَ صَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ الصد: المنع و الصرف، و متعلق الصد الإسلام لله و هو الذى ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول: أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، و أما قولها فى الآية السابقيه: «وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ» فهو إسلامها و انقيادها لسليمان عليه السلام.

هذا ما يعطيه سياق الآيات و للقوم وجوه آخر فى معنى الآية أضربنا عنها.

و قوله: إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ فى مقام التعليل للصد، و المعنى: و منعها عن الإسلام لله ما كانت تعبد من دون الله و هى الشمس على ما تقدم فى نبأ الهدهد و السبب فيه أنها

كانت من قوم كافرين فاتبعتهم فى كفرهم.

قوله تعالى: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ الى آخر الآية؛الصرح هو القصر و كل بناء مشرف و الصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف،و اللجة المعظم من الماء و الممرد اسم مفعول من التمريد و هو التمليس،و القوارير الزجاج.

و قوله: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ إلى آخر الآية؛الصرح هو القصر و كل بناء مشرف و الصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف،و اللجة المعظم من الماء و الممرد اسم مفعول من التمريد و هو التمليس،و القوارير الزجاج.

و قوله: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ كأن القائل بعض خدم سليمان مع حضور من سليمان ممن كان يهديها الى الدخول عليه على ما هو الدأب فى وفود الملوك و العظماء على أمثالهم.

و قوله: فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا اى لما رأت الصرح ظنت انه لجة لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء و كشفت عن ساقها بجمع ثيابها لثلا تبتل بالماء أذيالها.

و قوله: قَالَ إِنَّهُ صَيْرُوحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرِ الْقَائِلِ هو سليمان نبهها انه ليس بلجة بل صرح مملس من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمه ملك سليمان و قد كانت رأت سابقا ما رأت من أمر هدهد و رد الهدية و الإتيان بعرشها لم تشك ان ذلك من آيات نبوته من غير ان يؤتى بحزم او تدبير و قالت عند ذلك:رب إنى ظلمت نفسى،الخ.

و قوله: قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،استغاثت أولا بربها بالاعتراف إذ لم تعبد الله من بدء او من حين رأت هذه الآيات ثم شهدت بالإسلام لله مع سليمان.

و فى قوله: وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ التفت بالنسبه اليه تعالى من الخطاب الى

الغيبه و وجهه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت: رب إنى ظلمت نفسى الى التوحيد الصريح فإنها تشهد ان إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام سليمان و هو التوحيد ثم تؤكد التصريح بتوصيفه تعالى برب العالمين فلا رب غيره تعالى لشيء من العالمين و هو توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد العباده الذى لا يقول به مشرك (١).

[سوره النمل (٢٧): الآيات ٤٥ الى ٥٣]

اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعْبٌ رَهِطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِذَا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَا هُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

ص: ٦٢٨

١ - ١). النمل ١٥-٤٤: كلام فى قصه سليمان عليه السلام (ما ورد من قصصه فى القرآن، الثناء عليه فى القرآن، ذكره عليه السلام فى العهد العتيق، الروايات الوارده فى قصصه عليه السلام).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا - الى قوله - يَخْتَصِمُونَ الاختصام و التخاصم التنازع و توصيف التثنيه بالجمع أعنى قوله: «فَرِيقَانِ» بقوله:

«يَخْتَصِمُونَ» لكون المراد بالفريقين الامه و «إذا» فجائيه.

و المعنى: أقسم لقد أرسلنا الى قوم ثمود أخاهم و نسيبهم صالحا و كان المرجو ان يجتمعوا على الإيمان لكن فاجأهم أن تفرقوا فريقين مؤمن و كافر يختصمون و يتنازعون فى الحق كل يقول: الحق معى، و لعل المراد باختصامهم ما حكاه الله عنهم فى موضع آخر بقوله: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (الأعراف / ٧٦).

و من هنا يظهر ان أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به و الآخر المستكبرون و باقى المستضعفين ممن اتبعوا كبارهم.

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ الخ؛ الاستعجال بالسيئه قبل الحسنه المبادره الى سؤال العذاب قبل الرحمه التى سببها الإيمان و الاستغفار.

و به يظهر أن صالحا عليه السلام إنما وبخهم بقوله هذا بعد ما عقروا الناقه و قالوا له: يا صالح اتتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فيكون قوله: «لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» تحضيضا الى

الإيمان و التوبه لعل الله يرحمهم فيرفع عنهم ما وعدهم من العذاب وعدا غير مكذوب.

قوله تعالى: **قَالُوا أَطِئِرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ** قَالَ **طَائِرُكُمْ** **عِنْدَ اللَّهِ** الخ؛ التطير هو التشأم، و كانوا يتشأمون كثيرا بالطير و لذا سموا التشأم تطيرا و نصيب الإنسان من الشر طائرا كما قيل.

فقولهم خطابا لصالح: **«أَطِئِرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ»** أى تشأمننا بك و بمن معك ممن آمن بك و لزمك لما ان قيامك بالدعوه و إيمانهم بك قارن ما ابتلينا به من المحن و البلايا فلسنا نؤمن بك.

و قوله خطابا للقوم: **طَائِرُكُمْ** **عِنْدَ اللَّهِ** أى نصيبكم من الشر و هو الذى تستوجه أعمالكم من العذاب عند الله سبحانه.

و لذا أضرب عن قوله: **«طَائِرُكُمْ** **عِنْدَ اللَّهِ»** بقوله: **«بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ»** أى تختبرون بالخير و الشر ليمتاز مؤمنكم من كافركم و مطيعكم من عاصيكم.

و معنى الآية: قال القوم: تطيرنا بك يا صالح و بمن معك فلن نؤمن و لن نستغفر قال صالح:

طائرکم الذى فيه نصيبكم من الشر عند الله و هو كتاب أعمالكم و لست أنا و من معى ذوى أثر فيكم حتى نسوق اليكم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون و تمتحنون بهذه الامور ليمتاز مؤمنكم من كافرکم و مطيعكم من عاصيكم.

قوله تعالى: **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ** الخ؛ قال الراغب: الرهط العصابة دون العشره و قيل الى الأربعين انتهى، و قيل: الفرق بين الرهط و نفر ان الرهط من الثلاثه او السبعه الى العشره و نفر من الثلاثه الى التسعه انتهى.

قيل: المراد بالرهط الأشخاص و لذا وقع تميزا للتسعه لكونه فى معنى الجمع فقد كان المتقاسمون تسعه رجال.

قوله تعالى: **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ** **وَ أَهْلَهُ** **ثُمَّ لَنَقُولَنَّ** **لَوْلِيَّهِ مَا** **شَهِدْنَا** **مَهْلِكَ أَهْلِهِ** **وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ** المشاركه فى القسم، و التبييت القصد بالسوء ليلا،

و أهل الرجل من يجمعه و إياهم بيت او نسب او دين، و لعل المراد بأهله زوجته و ولده بقرينه قوله بعد: «ثم نقول لوليه ما شهدنا»، و قوله: «وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ» معطوف على قوله: «مَا شَهِدْنَا» فيكون من مقول القول.

و المعنى: قال الرهط المفسدون و قد تقاسموا بالله: لنقتله و أهله بالليل ثم نقول لوليه إذا عقبنا و طلب النار: ما شهدنا هلاك أهله و إنا لصادقون في هذا القول، و نفى مشاهدته مهلك أهله نفى لمشاهدته مهلك نفسه بالملازمه او الأولويه، على ما قيل.

قوله تعالى: «وَ مَكَرُوا مَكَرًا وَ مَكَرْنَا مَكَرًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» أما مكرهم فهو النواطي على تبيته و أهله و التقاسم بشهادة السياق السابق و أما مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعا بشهادة السياق اللاحق.

قوله تعالى: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ» التدمير الاهلاك، و ضمائر الجمع للرهط، و كون عاقبه مكرهم هو إهلا-كهم و قومهم من جهه أن مكرهم استدعى المكر الالهى على سبيل المجازاه، و استوجب ذلك إهلا-كهم و قومهم.

قوله تعالى: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا» الخ: الخاويه الخاليه من الخواء بمعنى الخلاء، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ» فيه تبشير للمؤمنين بالانجاء، و قد أردفه بقوله: «وَ كَانُوا يَتَّقُونَ» إذ التقوى كالمجن للايمان و قد قال تعالى: «وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (الأعراف ١٢٨)، و قال: «وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» (طه ١٣٢).

[سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٤ الى ٥٨]

إشارة

وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)

قوله تعالى: وَ لُو طًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ معطوف على موضع «أَرْسَلْنَا» فى القصة السابقه بفعل مضمّر و التقدير و لقد أرسلنا لوطا. كذا قيل، و يمكن ان يكون معطوفا على أصل القصة بتقدير اذكر و الفاحشه هى الخصله البالغه فى الشناعه و المراد بها اللواط.

و قوله: وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ اى و أنتم فى حال يرى بعضكم بعضا و ينظر بعضكم الى بعض حين الفحشاء فهو على حد قوله فى موضع آخر: وَ تَأْتُونَ فِى نَادِيكُمْ الْمُنْكَرِ (العنكبوت ٢٩/١)، و قيل: المراد ابصار القلب و محصله العلم بالشناعه و هو بعيد.

قوله تعالى: أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ الاستفهام للإنكار، و دخول أدوات التأكيد-إن و اللام-على الجملة الاستفهاميه للدلاله على ان مضمون الجملة من الاستبعاد بحيث لا يصدقه أحد و الجملة على اى حال فى محل التفسير للفحشاء.

و قوله: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ اى مستمرّون على الجهل لا فائده فى توبيخكم و الإنكار عليكم فليستم بمرتدعين، و وضع «تَجْهَلُونَ» بصيغه الخطاب موضع «يجهلون» من

وضع المسبب موضع السبب كأن قيل «بل أنتم قوم يجهلون فأنتم تجهلون».

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ﴾ أى يتنزهون عن هذا العمل وهو وارد مورد الاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ المراد بأهله أهل بيته لقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات ٣٦)، وقوله:

﴿قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى جعلناها من الباقين فى العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المراد بالمطر الحجارة من سجّيل لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (الحجر ٧٤)، فقوله: «مطرًا» يدل بتكثيره على النوعية أى أنزلنا عليهم مطرا له نبا عظيم.

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٥٩ الى ٨١]

اشارة

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَىٰ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَ جَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَ جَعَلَ لَهَا سَوَابِغًا وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَىٰ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يُكْشِفُ السُّوءَ وَ يُجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُزِيلُ الرِّيحَ يُبَشِّرَ الَّذِينَ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَزُجُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلُوبًا تَبْتَغُونَ أَنْ يُبْزِعُوا آيَاتِنَا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلَىٰ إِذْ أَرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَآخِرَةِ بَلَىٰ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلَىٰ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَ أَبْوَآءًا أَوْ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَ إِنْ رَبِّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ إِنْ رَبِّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَ مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَ إِنَّهُ لَهْدَىٰ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنْ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمُوتَىٰ وَ لَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَ مَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

قوله تعالى: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ ۗ لَمَّا قَصَّ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمَهُمْ مَا قَصَّ وَ فِيهَا بَيَانٌ سُنَّتِهِ الْجَارِيَةِ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَ مَا فَعَلَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِصْطِفَاءِ وَ مَزِيدَ الْإِحْسَانِ كَمَا فِي الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ وَ مَا فَعَلَ بِالْكَافِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَ التَّدْمِيرِ— وَ لَمْ يَفْعَلْ إِلَّا الْخَيْرَ الْجَمِيلَ وَ لَا جَرَتْ سُنَّتُهُ إِلَّا عَلَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ—انْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى أَمْرِ نَبِيِّهِ بِأَنْ يُحَمِّدَهُ وَ يَثْنَى عَلَيْهِ وَ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى الْمُصْطَفِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَ قَرَّرَ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَتَّعِينَ لِلْعِبَادَةِ.

فهو انتقال من القصص الى التحميد و التسليم و التوحيد و ليس باستنتاج و إن كان في حكمه و إلا قيل: فقل الحمد لله، الخ؛ او فالله خير، الخ.

فقوله: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» أمر بتحميده و فيه إرجاع كل حمد اليه تعالى لما تقرر بالآيات السابقة ان مرجع كل خلق و تدبير اليه و هو المفيض كل خير بحكمته و الفاعل لكل جميل

بقدرته.

و قوله: وَ سَلَامٌ عَلَيَّ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ معطوف على ما قبله من مقول القول و فى التسليم لاولئك العباد المصطفين نفى كل ما فى نفس المسلم من جهات التمانع و التضاد لما عندهم من الهدايه الإلهيه و آثارها الجميله-على ما يقتضيه معنى السلام-فى الأمر بالسلام أمر ضمنى التهيؤ لقبول ما عندهم من الهدى و آثاره فهو بوجه فى معنى قوله تعالى:

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبُهِدَاهُمْ (الأنعام ٩٠/١)، فافهمه.

و قوله: اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ من تمام الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و الاستفهام للتقرير و محصل المراد انه إذا كان الثناء كله لله و هو المصطفى لعباده المصطفين فهو خير من آلهتهم الذين يعبدونهم و لا خلق و لا تدبير لهم يحمدون عليه و لا خير بأيديهم يفيضونه على عبادهم.

قوله تعالى: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الحقائق جمع حقيقه و هى البستان المحدود المحوِّط بالحيطان و ذات بهجه صفه حقائق، قال فى مجمع البيان: ذات بهجه أى ذات منظر حسن يبتهج به من رآه و لم يقل: ذات بهجه لأنه أراد تأنيث الجماعه و لو أراد تأنيث الأعيان لقال: ذوات. انتهى.

و أم فى الآيه منقطعه تفيد معنى الاضطراب، و «مِنْ» مبتدأ خبره محذوف و كذا الشق الآخر من الترديد و الاستفهام للتقرير و حملهم على الإقرار بالحق و التقدير على ما يدل عليه السياق بل أمن خلق السماوات و الأرض، الخ؛ خير أم ما يشركون. و الأمر على هذا القياس فى الآيات الأربع التاليه.

و معنى الآيه: بل أمن خلق السماوات و الأرض و أنزل لكم أى لنفعمكم من السماء و هى جهه العلو ماء و هو المطر فأنبتنا به أى بذلك الماء بساتين ذات بهجه و نضاره ما كان لكم أى لا- تملكون و ليس فى قدرتكم ان تنبتوا شجرها أ إله آخر مع الله سبحانه- هو إنكار و توبيخ.

ص: ٦٣٦

قوله تعالى: **أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا** إلى آخر الآية؛ القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أى القارّ المستقر، والخلال جمع خلل بفتحين وهو الفرجه بين الشئين، والرواسى جمع راسيه وهى الثابته والمراد بها الجبال الثابتات، والحاجز هو المانع المتخلل بين الشئين.

والمعنى: بل آمن جعل الأرض مستقره لا تميد بكم و جعل فى فرجها التى فى جوفها أنهاراً و جعل لها جبالا ثابتة و جعل بين البحرين مانعا من اختلاطهما و امتزاجهما هو خير أم ما يشركون؟ والكلام فى قوله: **«أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»** كالكلام فى نظيره من الآية السابقة.

قوله تعالى: **أَمْ نَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ** وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ المراد بإجابه المضطر إذا دعاه استجابه دعاء الداعين و قضاء حوائجهم و إنما أخذ وصف الاضطراب ليتحقق بذلك من الداعى حقيقه الدعاء و المسأله إذا ما لم يقع الإنسان فى مضيقه الاضطراب و كان فى مندوحة من المطلوب لم يتمحض منه الطلب و هو ظاهر.

ثم قيده بقوله: **«إِذَا دَعَاهُ»** للدلاله على أن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه و إنما يكون ذلك عند ما ينقطع الداعى عن عامه الأسباب الظاهريه و يتعلق قلبه بربه وحده و أما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهريه فقط او بالمجموع من ربه و منها فليس يدعو ربه و إنما يدعو غيره.

فإذا صدق فى الدعاء و كان مدعوه ربه وحده فإنه تعالى يجيبه و يكشف السوء الذى اضطره الى المسأله كما قال تعالى: **أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** (المؤمن ٦٠)، فلم يشترط للاستجابه إلا أن يكون هناك دعاء حقيقه و أن يكون ذلك الدعاء متعلقا به وحده، و قال أيضا: **وَ إِذَا سَأَلْتَكَ عِبَادِي عَنِّي فَابْنِي قَرِيبًا** أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقره ١٨٦)، و قد فصّلنا القول فى معنى الدعاء فى الجزء الثانى من الكتاب فى ذيل الآية.

و بالجمله فمورد قوله: «فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ» لما كان مما يمكن ان يكون الطلب فيه حقيقيا او غير حقيقى كان من اللازم تقييد الكشف و الإجابة فيه بالمشيّه فيكشف الله عنهم إن شاء و ذلك فى مورد حقيقه الطلب و الإيمان و لا يكشف إن لم يشأ و هذا غير مورد آيه المضطر و سائر آيات إجابته الدعوه الذى يتضمن حقيقه الدعاء من الله سبحانه وحده.

و قوله: «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ الَّذِي يعطيه السياق أن يكون المراد بالخلافه الخلافه الأرضيه التى جعلها الله للانسان يتصرف بها فى الأرض و ما فيها من الخليقه كيف يشاء كما قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (البقره ٣٠).

و ذلك أن تصرفاته التى يتصرف بها فى الأرض و ما فيها بخلافته امور مرتبطه بحياته متعلقه بمعاشه فالسوء الذى يوقعه موقع الاضطرار و يسأل الله كشفه لا محاله شىء من الأشياء التى تمنعه التصرف او بعض التصرف فيها و تغلق عليه باب الحياه و البقاء و ما يتعلق بذلك او بعض أبوابها ففى كشف سوء عنه تميم لخلافته.

و قوله: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» خطاب توبيخى للكفار، و قرئ «يذكرون» بالياء للغيبه و هو أرجح لموافقته ما فى ذيل سائر الآيات الخمس كقوله: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ» «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» و غيرها، فإن الخطاب فيها جميعا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بطريق الالتفات كما مر بيانه.

قوله تعالى: «أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَالْبُحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ الْخ»؛ و المراد بظلمات البر و البحر ظلمات الليالى فى البر و البحر ففيه مجاز عقلى، و المراد بإرسال الرياح بشرا إرسالها مبشرات بالمطر قبيل نزوله، و الرحمه المطر، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَالْبُحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ الْخ»؛ و المراد بإرسال الرياح بشرا إرسالها مبشرات بالمطر قبيل نزوله، و الرحمه المطر، و الباقي ظاهر.

وَ الْأَرْضِ الْخ؛ بدء الخلق إيجاده ابتداء لأول مره و إعادته إرجاعه اليه بالبعث و تبكيت المشركين بالبدء و الإعاده مع إنكارهم البعث كما سيذكره بقوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ بناء على ثبوت المعاد بالأدله القاطعه فى كلامه فاخذ كالمسلم ثم استدرك إنكارهم له أو شكهم فيه فى الآيات التاليه.

و قوله: «وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» إشاره الى ما وقع من تدبيره لأمرهم بين البدء و العود و هو رزقهم بأسباب سماويه كالأمطار و أسبابها و الأرضيه كعامه ما يتغذى به الإنسان من الأرضيات.

و قوله: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» لما ذكر سبحانه فصولا مشتمله على عامه الخلق و التدبير مع الإشاره الى ارتباط التدبير بعضه ببعض و ارتباط الجميع الى الخلق و عاد الخلق و التدبير بذلك أمرا واحدا منتسبا اليه قائما به تعالى و ثبت بذلك انه تعالى هو رب كل شىء وحده لا شريك له و كان لازم ذلك إبطال ألوهيه الآلهه التى يدعونها من دون الله.

و ذلك ان الالوهيه و هى استحقاق العباده تتبع الربويه التى هى تدبر عن ملك فالعباده على ما يتداولونها إما لتكون شكرا للنعمه او اتقاء للنقمه و على أى حال ترتبط بالتدبير الذى هو من شئون الربويه.

و كان إبطال ألوهيه الآلهه من دون الله هو الغرض من الفصول المورده فى هذه الآيات كما يدل على ذلك قوله بعد إيراد كل واحد من الفصول: «أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ» .

أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه من ألوهيه آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنهم مجازفون فى دعواهم إذ لو استدلووا على ألوهيتها بشىء كان من الواجب أن ينسبوا إليها شيئا من تدبير العالم و الحال أن جميع الخلق و التدبير له تعالى وحده.

قوله تعالى: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ لما أمره صَلَّى الله عليه وآله وسلم بعد إبطال ألوهية آلهتهم بانتساب الخلق والتدبير اليه تعالى وحده أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه أمره ثانيا أن يواجههم ببرهان آخر على بطلان ألوهية آلهتهم وهو عدم علمهم بالغيب وعدم شعورهم بالساعة وأنهم أيان يبعثون مع أنه لا يعلم أحد ممن في السماوات والارض- ومنهم آلهتهم الذين هم الملائكة والجن وقديسو البشر- الغيب وما يشعرون أيان يبعثون، ولو كانوا آله لهم تدبير أمر الخلق- ومن التدبير الجزاء يوم البعث- لعلموا بالساعة.

قوله تعالى: بَلِ إِذْ أَرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ إِذْ أَرَاكَ فِي الْأَصْلِ تَدَارَكَ وَالتَّدَارَكَ تَتَابَعِ أَجْزَاءِ الشَّيْءِ بَعْضُهَا بَعْدَ بَعْضٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ وَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ، ومعنى تدارك علمهم في الآخرة أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في غيرها حتى نفذ علمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة على حد قوله تعالى:

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم / ٣٠) و«عَمُونَ» جمع عمى.

لما انتهى احتجاجه تعالى الى ذكر عدم شعور أحد غيره تعالى بوقت البعث و تبكيت المشركين بذلك رجع الى نبيه صَلَّى الله عليه وآله وسلم و ذكره انهم في معزل عن الخطاب بذلك إذ لا خبر لهم عن شيء من امور الآخرة فضلا عن وقت قيام الساعة و ذلك انهم صرفوا ما عندهم من العلم من جهات الحياه الدنيا فهم في جهل مطلق بالنسبه الى امور الآخرة بل هم في شك من الآخرة يرتابون في أمرها كما يظهر من احتجاجاتهم على نفيها المبنيه على الاستبعاد بل هم منها عمون و الله أعمى قلوبهم عن التصديق بها و الاعتقاد بوجودها.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَ أَبَاؤُنَا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ -الى قوله- الْأَوَّلِينَ حكاية حجه منهم لنفي البعث مبنيه على الاستبعاد أى كيف يمكن أن

نخرج من الأرض بشرا تائبين كما نحن اليوم وقد متنا و كنا ترابا نحن و آباؤنا كذلك؟

وقوله: لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ حَـجْجَهُ أُخْرَى مِنْهُمْ مَبْنِيهِ عَلَى الْاِسْتِبْعَادِ أَى لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا وَ هُوَ الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا وَعَدُوهُ قَبْلَ أَنْ يَعْدَنَا هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ وَعَدُوا قَبْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ الْمَاضُونَ فَهُوَ وَعْدٌ قَدِيمٌ لَمْ يَنْزَلْ نَوْعُهُ بِهِ وَ لَوْ كَانَ خَبْرًا صَادِقًا وَ وَعَدًا حَقًّا لَوْقَعَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ وَ إِذْ لَمْ يَقَعْ فَهُوَ مِنَ الْخِرَافَاتِ الَّتِي اخْتَلَفَهَا الْأَوْلُونَ وَ كَانُوا مَوْلَعِينَ بِاخْتِلَاقِ الْأَوْهَامِ وَ الْخِرَافَاتِ وَ الْإِصْغَاءِ بِهَا.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ إِنْذَارٌ وَ تَخْوِيفٌ لَهُمْ عَلَى إِنْكَارِهِمْ وَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْبَعْثِ بِأَمْرِهِمْ أَنْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ الْمَكْذِبِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ الْمُنذِرِينَ لَهُمْ بِالْبَعْثِ فَإِنْ فِي النَّظَرِ إِلَى عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مَسَاكِنُهُمُ الْخَرِبَةُ وَ دِيَارُهُمُ الْخَالِيَةُ كَفَافِيَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْ أَوْلَى الْأَبْصَارِ، وَ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَكْذِبِينَ بِالْمُجْرِمِينَ لَطْفٌ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي تَرْكِ الْجَرَائِمِ. كَذَا قِيلَ.

و يمكن أن تقرر الآيه حجه تدل على المعاد و تقربها أن انتهاء عاقبه أمر المجرمين الى عذاب الاستئصال دليل على أن الإجرام و الظلم من شأنه أن يؤخذ عليه و أن العمل إحسانا كان او إجراما محفوظ على عامله سيحاسب عليه و إذ لم تقع عامه هذا الحساب و الجزاء -و خاصه على الأعمال الصالحه- في الدنيا فذلك لا محاله في نشأه اخرى و هي الدار الآخره.

فتكون الآيه في معنى قوله تعالى: أَمْ نَجْعِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص ٢٨/)، و يؤيد هذا التقرير قوله: «عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» و لو كان المراد تهديد مكذبي الرسل و تخويفهم كان الأنسب أن يقال: عاقبه المكذبين، كما تقدمت الإشارة اليه.

قوله تعالى: وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ أَى لَا

يُحزنك إصرارهم على الكفر والجحود ولا يضق صدرك من مكرهم لإبطال دعوتك وصدّهم الناس عن سبيل الله فإنهم بعين الله و ليسوا بمعجزيه و سيجزيهم بأعمالهم.

فآليه مسوقه لتطيب نفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقوله: «وَلَا تُكُنْ فِي ضَيْقٍ» الخ؛ معطوف على ما قبله عطف التفسير.

قوله تعالى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ الظاهر أن المراد بالوعد الوعد بعذاب المجازاه أعم من الدنيا والآخرة، والسياق يؤيد ذلك و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ قالوا: إن اللام في «رَدِفَ لَكُمْ» مزيده للتأكيد، كالباء في قوله: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» (البقره ١٩٨/١)، والمعنى تبعكم و لحق بكم، وقيل: إن ردف مضمن معنى فعل يعدى باللام.

و المراد ببعض الذى يستعجلونه هو عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة فإنهم كانوا يستعجلون إنجاز ما وعدهم الله من الحكم الفصل، و هو ملازم لعذابهم، و عذابهم فى الدنيا بعض العذاب الذى يستعجلونه باستنجاز الوعد، و لعل مراد الآيه به عذاب يوم بدر كما قيل.

قالوا: إن «عسى و لعل» من الله تعالى واجب لأن حقيقه الترجى مبنيه على الجهل و لا يجوز عليه تعالى ذلك فمعنى قوله: «عسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ» سيردكم و يأتيكم العذاب محققا.

و معنى الآيه: قل لهؤلاء السائلين عن وقت الوعد: أرجو ان يكون تبعكم بعض الوعد الذى تستعجلونه و هو عذاب الدنيا الذى يقربكم من عذاب الآخرة و يؤديكم اليه، و فى التعبير بقوله: «رَدِفَ لَكُمْ» إيماء الى قربه.

قوله تعالى: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ» معنى الآيه فى نفسها ظاهر و وقوعها فى سياق التهديد و التخويف يفيد ان

تأخيره تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك إنما هو فضل منه عليهم يجب عليهم شكره عليه لكنهم لا يشكرونه و يسألون تعجيله.

قوله تعالى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ أَى إن تأخير العذاب ليس عن جهل منه تعالى بحالهم و ما يستحقونه بالكفر و الجحود فإنه يعلم ما تستره و تخفيه صدورهم و ما يظهره.

ثم أكد ذلك بأن كل غائبه-و هى ما من شأنه ان يغيب و يخفى فى أى جهه من جهات العالم كان-مكتوب محفوظ عنده تعالى و هو قوله: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» .

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُضُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ -الى قوله- الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ تطيب لنفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تمهيد لما سيذكره من حقيه دعوته و تقويه لإيمان المؤمنين به، و بهذا الوجه يتصل بقوله قبلا: «وَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ» الخ؛المشعر بحقيه دعوته.

فقوله: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُضُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ يشير الى ما يقصه القرآن من قصص الأنبياء و يبين الحق فيما اختلفوا فيه من أمرهم و منه أمر المسيح عليه السلام و يبين الحق فيما اختلفوا فيه من المعارف و الأحكام.

و قوله: وَ إِنَّهُ لَهْدَى وَ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ يشير الى أنه يهدى المؤمنين بما قصه على بنى إسرائيل الى الحق و أنه رحمه لهم تطمئن بهم قلوبهم و يثبت الإيمان بذلك فى نفوسهم.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ إشاره الى أن القضاء بينهم الى الله فهو ربه العزيز الذى لا يغلب فى أمره العليم لا يجهل و لا يخطئ فى حكمه فهو القاضى بينهم بحكمه فلترض نفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم بربه العزيز العليم قاضيا حكما و لترجع الأمر اليه كما ينبغى أن تفعل مثل ذلك فى حق المشركين و لا تحزن عليهم و لا تكون فى ضيق مما

يمكنون.

قوله تعالى: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ تفریع على مجموع ما أمر به قبال كفر المشركين و اختلاف بنی اسرائیل اى إن أمرهم جميعا الى الله لا اليك فاتخذه وكيلا فهو كافيك و لا تخافن شيئا إنك فى أمن من الحق.

قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى -الى قوله- فَهُمْ مُسْمِعُونَ تعليل الأمر بالتوكل اى إنما أمرناك بالتوكل على الله فى أمر إيمانهم و كفرهم لأنهم موتى و ليس فى وسعك أن تسمع الموتى دعوتك و إنهم صم لا يسمعون و عمى ضالون لا تقدر على إسماع الصم إذا ولوا مدبرين -و لعله قيد عدم إسماع الصم بقوله: «إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» لأنهم لو لم يكونوا مدبرين لأمكن تفهيمهم بنوع من الاشارة -و لا على هدايه العمى عن ضلالتهم، و إنما الذى تقدر عليه هو أن تسمع من يؤمن بآياتنا الداله علينا و تهديهم فإنهم لإذعانهم بتلك الحجج الحقه مسلمون لنا مصدقون بما تدلّ عليه (١).

[سوره النمل (٢٧): الآيات ٨٢ الى ٩٣]

اشاره

وَ إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهُمْ قَالُوا أَسَدُّبْتُمْ بِآيَاتِنَا لَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذَانًا لَّيْسَ لَكُم بَأْسٌ مِّمَّنْ يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسًا لِّكُنُوفِهِمْ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَ كُفُّ أَتْوَاهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَ هِيَ تَمْرٌ مِّمَّا السَّحَابِ صُيَّعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَ هُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي الدَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَادِيَ الْبُلْعَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ أَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

ص: ٦٤٤

(١- ١). النمل ٥٩-٨١: بحث روائى حول قوله تعالى: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا»؛ خلافه الانسان؛ اطاعه الله.

بيان:

قوله تعالى: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ مقتضى السياق- بما أن الآيه متصله بما قبلها من

ص: ٦٤٥

الآيات الباعثة عن أمر المشركين المعاصرين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو خصوص أهل مكة من قريش وقد كانوا أشدّ الناس عداوة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ودعوته-أن ضمائر «عَلَيْهِمْ» و«لَهُمْ» و«تَكَلَّمُوهُمْ» للمشركين المحدث عنهم لكن لا لخصوصهم بل بما أنهم ناس معتبون بالدعوه فالمراد بالحقيقه عامه الناس من هذه الامه من حيث وحدتهم فيلحق بأولهم من الحكم ما يلحق بآخرهم وهذا النوع من العناية كثير الورد في كلامه تعالى.

و المراد بوقوع عليهم تحقق مصداق القول فيهم و تعينهم لصدقه عليهم كما في الآيه التاليه «وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا» أى حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فالجمله فى معنى «حق عليهم القول» وقد كثر وروده فى كلامه تعالى، و الفرق بين التعبيرين أن العناية فى «وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ» بتعينهم مصداقا للقول و فى «حق عليهم القول» باستقرار القول و ثبوته فيهم بحيث لا يزول.

و أما ما هو هذا القول الواقع عليهم فالذى يصلح من كلامه تعالى لأن يفسر به قوله:

سُنِّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (حم السجده ٥٣/) فإن المراد بهذه الآيات التى سيريهم غير الآيات السماويه و الأرضيه التى هى بمرآهم و مسمعهم دائما قطعا بل بعض آيات خارقه للعاده تخضع لها و تضطر للإيمان بها أنفسهم فى حين لا يوقنون بشيء من آيات السماء و الأرض التى هى تجاه أعينهم و تحت مشاهدتهم.

و بهذا يظهر أن قوله: «أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» تعليل لوقوع القول عليهم و التقدير لأن الناس، و قوله: «كَانُوا» لإفاده استقرار عدم الإيقان فيهم و المراد بالآيات المشهوده من السماء و الأرض غير الآيات الخارقه، و قرئ «إن» بكسر الهمزه و هى أرجح من قراءه الفتح فيؤيد ما ذكرناه و تكون الجمله بلفظها تعليلا من دون تقدير اللام.

و قوله: أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ بَيِّنَاتٍ لِّآيَاتِهِ خَارِقَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْمَوْعُودَةِ فى قوله: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» و فى كونه

وصفاً لأمر خارق للعادة دلالة على أن المراد بالإخراج من الأرض إما الإحياء و البعث بعد الموت و إما أمر يقرب منه، و أما كونها دابة تكلمهم فالدابة ما يدبّ في الأرض من ذوات الحيات إنسانا كان او حيوانا غيره فإن كان إنسانا كان تكليمه الناس على العادة و إن كان حيوانا أعجم كان تكليمه كخروجه من الأرض خرقاً للعادة.

و لا نجد في كلامه تعالى ما يصلح لتفسير هذه الآية و أن هذه الدابة التي سيخرجها لهم من الأرض فتكلمهم ما هي؟ و ما صفتها؟ و كيف تخرج؟ و ما ذا تتكلم به؟ بل سياق الآية نعم الدليل على أن القصد الى الإيهام فهو كلام مرموز فيه.

و محصل المعنى: أنه إذا آل أمر الناس -و سوف يثول- الى أن كانوا لا يوقنون بآياتنا المشهودة لهم و بطل استعدادهم للإيمان بنا بالتعقل و الاعتبار آن وقت أن نريهم ما وعدنا إراءته لهم من الآيات الخارقة للعادة المبيّنة لهم الحق بحيث يضطرون الى الاعتراف بالحق فأخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم.

قوله تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ الفرج - كما ذكره الراغب - الجماعة المارة المسرعة، و الإيزاع إيقاف القوم و حبسهم بحيث يرد أولهم على آخرهم.

و قوله: وَيَوْمَ نَحْشُرُ مَنْصُوبٌ عَلَى الظرفية لمقدر و التقدير و اذكر يوم نحشر و المراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأن المحشورين فوج من كل امه و لا اجتماع لجميع الامم في زمان واحد و هم أحياء، و «مِنْ» في قوله: «مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ» للتبعيض، و في قوله: «مِمَّنْ يُكَذِّبُ» للتبيين أو للتبعيض.

و المراد بالآيات في قوله: «يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا» مطلق الآيات الدالة على المبدأ و المعاد و منها الأنبياء و الأئمة و الكتب السماوية دون الساعة و ما يقع فيها و عند قيامها و دون الآيات القرآنية فقط لأن الحشر ليس مقصوراً على الامه الإسلاميه بل أفواج من امم شتى.

و ظاهر الآيه أن هذا الحشر فى غير يوم القيامة لأنه حشر للبعض من كل امه لا لجميعهم و قد قال تعالى فى صفه الحشر يوم القيامة: وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (الكهف / ٤٧).

و فيه أنه لو كان المراد الحشر الى العذاب لزم ذكر هذه الغايه دفعا للابهام كما فى قوله تعالى:

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا (حم السجده ٧٠)، مع أنه لم يذكر فيما بعد هذه الآيه إلا العتاب و الحكم الفصل دون العذاب و الآيه كما ترى مطلقه لم يشر فيها الى شىء يلوح الى هذا الحشر الخاص المذكور و يزيدا إطلاقا قوله بعدها: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا» فلم يقل: حتى اذا جاءوا العذاب أو النار أو غيرها.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ المراد بالمجىء-بإعانه من السياق-هو الحضور فى موطن الخطاب المدلول عليه بقوله: «قَالَ أَكَذَّبْتُمْ» الخ؛ و المراد بالآيات-كما تقدم فى الآيه السابقه-مطلق الآيات الداله على الحق، و قوله: «وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا» جملة حالیه أى كذبتم بها حال كونكم لا علم لكم بها لإعراضكم عنها فكيف كذبتم بما لا تعلمون أى رميتموها بالكذب و عدم الدلاله من غير علم، و قوله: «أَمْ ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى غير التكذيب.

و المعنى: حتى اذا حضروا فى موطن الخطاب قال الله سبحانه لهم: أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي حال كونكم لم تحيطوا بها علما أم أى شىء كنتم تعملون غير التكذيب، و فى ذلك عتابهم بأنهم لم يشتغلوا بشىء غير تكذيبهم بآيات الله من غير أن يشغلهم عنه شاغل معذر.

قوله تعالى: وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ الباء فى «بِمَا ظَلَمُوا» للسببيه و«ما» مصدرية أى وقع القول عليهم بسبب كونهم ظالمين، و قوله: «فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ» تفریع على وقوع القول عليهم.

و بذلك يتأيد أن المراد بالقول الذى يقع عليهم قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ (الأنعام ١٤٤)، والمعنى: و لكونهم ظالمين في تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا الى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لا ينطقون.

قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لما وصف في الآيات السابقه أن كثيرا من الناس في صمم و عمى من استماع كلمه الحق و النظر في آيات اللّٰه و الاعتبار بهما، ثم ذكر دابه الأرض و أنه سيخرجها آيه خارقه للعادة تكلمهم، ثم ذكر أنه سيحشر فوجا من كل أمه من المكذبين فيعاتبهم فتم عليهم الحجه بقولهم بغير علم بالآيات لإعراضهم عنها و بّخهم في هذه الآيه و لامهم على تكذيبها بالآيات مع الجهل أنهم كانوا يرون الليل الذى يسكنون فيه بالطبع و أن هناك نهارا مبصرا يظهر لهم بها آيات السماء و الأرض فلم لم يتبصروا؟.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى فى جعل الليل سكنا يسكنون فيه و النهار مبصرا يبصرون فيه آيات السماء و الأرض آيات لقوم فيهم خاصه الإذعان و التصديق للحق اللائح لهم.

و المراد بالآيات العلامات و الجهات الدّاله فيهما على التوحيد و ما يتبعه من حقائق المعارف، و من جملة ذلك دلالتها على أن الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه، و هو الليل الذى يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار، و يتحرك فيما من شأنه أن يتحرك فيه و هو النهار المبصر الذى يظهر به الأشياء التى تتضمن منافع الحياه للأبصار.

فعلى الإنسان أن يسكت عما حجبته عنه ظلمه الجهل و لا يقول بغير علم و لا يكذب بما لا يحيط به علما و أن يقول و يؤمن بما تجلّيه له بينات الآيات التى هى كالنهر المبصره.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَ كُلُّ أَتَوُّهُ دَاخِرِينَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ كناية عن إعلام الجماعه الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعا كالحضور و الارتحال و غير ذلك،

و الفرع كما قال الراغب انقباض و نفار يعترى الانسان من الشيء المخيف و هو من جنس الجزع، و الدخور الذله و الصغار.

و الظاهر أن المراد بقوله: «و كَلُّ أَوْهُ دَاخِرِينَ» رجوع جميع من فى السماوات و الأرض حتى المستثنين من حكم الفرع و حضورهم عنده تعالى، و أما قوله: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصافات ١٢٧)، فالظاهر أن المراد نفى إحصارهم فى الجمع للحساب و السؤال لا- نفى بعضهم و رجوعهم الى الله و حضورهم عنده فأيات القيامة ناصه على عموم البعث لجميع الخلائق بحيث لا يشد منهم شاذ.

و نسبه الدخور و الذله الى أوليائه تعالى لا تنافى ما لهم من العزه عند الله فإن عزه العبد عند الله ذلته عنده و غناه بالله فقره اليه نعم ذله أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزه الكاذبه ذله هوان.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ الآية بما أنها واقعه فى سياق آيات القيامة محفوفه بها تصف بعض ما يقع يومئذ من الآيات و هو سير الجبال و قد قال تعالى فى هذا المعنى أيضا: وَ سَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا (النبا ٢٠)، الى غير ذلك.

فقوله: وَ تَرَى الْجِبَالَ الْخَطَابَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و المراد به تمثيل الواقعه، كما فى قوله:

وَ تَرَى النَّاسَ سُيَّكَارَى (الحج ٢)، أى هذا حالها المشهوده فى هذا اليوم تشاهدها لو كنت مشاهدا، و قوله: «تَحْسَبُهَا جَامِدَةً» أى تظنها الآن و لم تقم القيامة بعد جامده غير متحركه، و الجملة معترضه أو حاله.

و قوله: وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ حال من الجبال و عاملها «تَرَى» أى تراها إذا نفخ فى الصور حال كونها تسير سير السحاب فى السماء.

و قوله: صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ مَفْعُولٌ مطلق لمقدّر أى صنعه صنعا و فى

الجملة تلويح الى أن هذا الصنع و الفعل منه تعالى تخريب للدينا و هدم للعالم، لكنه فى الحقيقه تكميل لها و إتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شىء الى غايته و إيصاله الى وجهته التى هو مولئها من سعاده أو شقاوه لأن ذلك صنع الله الذى أتقن كل شىء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عما أتقنه و لا يسلب الفساد على ما أصلحه فى تخريب الدنيا تعمير الآخره.

و قوله: إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ قيل: إنه تعليل لكون ما ذكر من النفخ فى الصور و ما بعده صنعا محكما له تعالى فإن علمه بظواهر أفعال المكلفين و بواطنها مما يستدعى إظهارها و بيان كفياتها على ما هى عليه من الحسن و السوء و ترتيب آثارها من الثواب و العقاب عليها بعد البعث و الحشر و تسيير الجبال.

و أنت ترى ما فيه من التكلف و أن السياق بعد ذلك كله لا يقبله.

و قيل: إن قوله: «إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» استئناف فى حكم الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا يكون بعد هذه القوارع؟ فقيل: إن الله خير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم و فضل بقوله: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا» الى آخر الآيتين.

و هاهنا وجه آخر مستفاد من الإمعان فى سياق الآيات السابقه فإن الله سبحانه أمر فيها نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يتوكل عليه و يرجع أمر المشركين و بنى إسرائيل اليه فإنه إنما يستطيع هدايه المؤمنين بآياته المستسلمين للحق و أما المشركون فى جحودهم و بنو إسرائيل فى اختلافهم فإنهم موتى لا يسمعون و صم عمى لا يسمعون و لا يهتدون الى الحق بالنظر فى آيات السماء و الأرض و الاعتبار بها باختيار منهم.

ثم ذكر ما سيواجههم به -و حالهم هذه الحال لا يؤثر فيهم الآيات- و أنه سيخرج لهم دابه من الأرض تكلمهم و هى آيه خارقه تضطرهم الى قبول الحق و أنه يحشر من كل أمه فوجا من المكذبين فيتم عليهم الحجه، و بالآخره هو خير بأفعالهم سيجزى من جاء بحسنه او سيئه بعمله يوم ينفخ فى الصور ففزعوا و أتوه داخرين.

و بالتأمل في هذا السياق يظهر أن الأنسب كون «يَوْمٌ يُنْفَخُ» ظرفاً لقوله: «إنه خير بما يفعلون» و قراءه «يفعلون» بيان الغيبه أرجح من القراءه المتداوله على الخطاب.

و المعنى: و إنه تعالى خير بما يفعله أهل السماوات و الأرض يوم ينفخ في الصور و يأتونه داخرين يجرى من جاء بالحسنه بخير منها و من جاء بالسيئه بكبّ و جوههم في النار كلّ مجزى بعمله، و على هذا تكون الآيه في معنى قوله تعالى: أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رِجَالٌ فِي الْقُبُورِ وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (العاديات ١١)، و قوله: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (المؤمن ١٦)، و يكون قوله: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» الخ، تفصيلاً لقوله:

«إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» من حيث لازم الخبره و هو الجزاء بما فعل و عمل كما أشار اليه ذيلاً بقوله: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و الالتفات من الغيبه الى الخطاب في قوله: «هَلْ تُجْزَوْنَ» الخ؛ لتشديد التقرير و التأنيب.

و في الآيه أعنى قوله: «و تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» الخ؛ قولان آخران:

أحدهما: حملها على الحركة الجوهرية و أن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها الى غايه وجودها و هي حشرها و رجوعها الى الله سبحانه.

و هذا المعنى أنسب بالنظر الى ما في قوله: «تَحْسَبُهَا جَامِدَةً» من التلويح الى أنها اليوم متحركة و لما تقم القيامة، و أما جعل يوم القيامة ظرفاً لحسبان الجمود و للمرور كالسحاب جميعاً فمما لا يلتفت اليه.

و ثانيهما: حملها على حركة الأرض الانتقاليه و هو بالنظر الى الآيه في نفسها معنى جيد إلا أنه أولاً: يوجب انقطاع الآيه عما قبلها و ما بعدها من آيات القيامة و ثانياً: ينقطع بذلك اتصال قوله: «إنه خير بما يفعلون» بما قبله.

قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ هُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ

أن أعبد رب هذه البلده، و المشار إليها بهذه الإشاره مكه المشرفه، و فى الكلام تشریفها من وجهين: إضافة الرب إليها، و توصیفها بالحرمة حيث قال: رب هذه البلده الذى حرّمها. و فيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمة نعمه حرمة بلدتهم و لم يشركوا الله بعبادته بل عدلوا الى عباده الأصنام.

و قوله: وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ اشارة الى سعه ملكه تعالى دفعا لما يمكن أن يتوهم أنه إنما يملك مكه التى هو ربها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها على عقيدتهم جزءا من أجزاء العالم كالسما و الأرض و بلده كذا و قوم كذا و أسره كذا، فيكون تعالى معبودا كأحد الآلهة واقعا فى صفتهم و فى عرضهم.

و قوله: وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى من الذين أسلموا له فيما أراد و لا يريد إلا ما يهدى اليه الخلقه و يهتف به الفطره و هو الدين الحنيف الفطرى الذى هو مله إبراهيم.

قوله تعالى: وَ أَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ معطوف على قوله: «أَنْ أَعْبُدَ» أى أمرت أن أقرأ القرآن و المراد تلاوته عليهم بدليل تفریع قوله: «فَمَنْ اهْتَدَى» الخ؛ عليه.

و قوله: «فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ» أى فمن اهتدى بهذا القرآن فالذى ينتفع به هو نفسه و لا يعود نفعه إلى.

و قوله: وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ أى و من لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه و هو الضلال فعليه ضلاله و وبال كفره لا على لآنى لست إلا منذرا مأمورا بذلك و لست عليه و كيلا و الله هو الوكيل عليه.

فالعدول عن مثل قولنا: و من ضل فإنما أنا من المنذرين و هو الذى كان يقتضيه الظاهر الى قوله: «فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ» لتذكيره صلى الله عليه و آله و سلم بما تقدم من العهد اليه أنه ليس إلا منذرا

و ليس اليه من أمرهم شىء فعليه أن يتوكل على ربه و يرجع أمرهم اليه كما قال: «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى» الخ؛ فكأنه قيل: و من ضل فقل له قد سمعت أن ربي لم يجعل على إلا الإنذار فلست بمسئول عن ضلال من ضل.

قوله تعالى: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ معطوف على قوله: «فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ» و فيه انعطاف الى ما ذكره بعد أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالتوكل عليه فى أمرهم من أنه سيجعل للمشركين عاقبه سوء و يقضى بين بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه و يريهم من آياته ما يضطرون الى تصديقه ثم يجزيهم بأعمالهم.

و محصل المعنى: و قل الثناء الجميل لله تعالى فيما يجريه فى ملكه حيث دعى الناس الى ما فيه خيرهم و سعادتهم و هدى الذين آمنوا بآياته و أسلموا له و أما المكذبون فأمات قلوبهم و أصم آذانهم و أعمى أبصارهم فضلوا و كذبوا بآياته.

و قوله: سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا إشارة الى ما تقدم من قوله: «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ» و ما بعده، و ظهور قوله: «آيَاتِهِ» فى العموم دليل على شموله لجميع الآيات التى تضطرهم الى قبول الحق مما يظهر لهم قبل قيام الساعة و بعده.

و قوله: وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو بمنزلة التعليل لما تقدمه أى إن أعمالكم معاشر العباد بعين ربك فلا يفوته شىء مما تقتضيه الحكمة قبال أعمالكم من الدعوه و الهدايه و الإضلال و إراءه الآيات ثم جزاء المحسنين منكم و المسيئين يوم القيامة.

و قرئ «عما يعملون» بيان الغيبه و لعلها أرجح و مفادها تهديد المكذبين و فى قوله:

«رَبُّكَ» بإضافه الرب الى الكاف تطيب لنفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تقويه لجانبه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَهُ مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرَى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَ قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَ قَالَتِ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)

غرض السوره الوعد الجميل للمؤمنين و هم بمكه قبل الهجره شردمه قليلون يستضعفهم

ص: ٦٥٧

فراعنه قريش و طغاتها و اليوم يوم شده و عسره و فتنه بأن الله سيمنّ عليهم و يجعلهم الوارثين و يمكن لهم و يرى طغاه قومهم منهم ما كانوا يحذرون يقص تعالى للمؤمنين من قصه موسى و فرعون أنه خلق موسى في حين كان فرعون في أوج قدرته يستضعف بنى إسرائيل يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم فرّاه في حجر عدو، حتى إذا استوى و بلغ أشده نجاه و أخرجه من بينهم الى مدين ثم رده اليهم رسولا- منه بسطان ميين حتى إذا أغرق فرعون و جنوده أجمعين و جعل بنى إسرائيل هم الوارثين و أنزل التوراه على موسى هدى و بصائر للمؤمنين.

و على هذا المجرى يجرى حال المؤمنين و فيه وعد لهم بالملك و العزه و السلطان و وعد للنبي صلى الله عليه و آله و سلم برده الى معاد.

و انتقل من القصة الى بيان أن من الواجب في حكمه الله أن ينزل كتابا من عنده للدعوه الحقه ثم ذكر طعنهم في دعوه القرآن بقولهم: لولا- أوتى مثل ما أوتى موسى و الجواب عنه، و تعللهم عن الإيمان بقولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا و الجواب عنه و فيه التمثل بقصه قارون و خسفه.

و السوره مكيه كما يشهد بذلك سياق آياتها، و ما أوردناه من الآيات فصل من قصه موسى و فرعون من يوم ولد موسى الى بلوغه أشده.

قوله تعالى: **طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** تقدم الكلام فيه في نظائره.

قوله تعالى: **نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** «من» للتبويض و «بالحق» متعلق بقوله: «نَتْلُوا» أى نتلو تلاوه متلبسه بالحق فهو من عندنا و بوحي منا من غير أن يداخل من إلقاءه الشياطين، و يمكن أن يكون متعلقا بنأى أى حال كون النبأ الذى نتلوه عليك متلبسا بالحق لا مريبه فيه.

و قوله: **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** اللام فيه للتعليل و هو متعلق بقوله: «نَتْلُوا» أى نتلو عليك

من نبأهما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا.

و محصل المعنى: نتلو عليك بعض نبأ موسى و فرعون تلاوه بالحق لأجل أن يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوك و هم طائفه أذلاء مستضعفون فى أيدى فراعنه قريش و طغاه قومهم فيتحققوا أن الله الذى آمنوا به و برسوله و تحمّلوا كل أذى فى سبيله هو الله الذى أنشأ موسى عليه السلام لإحياء الحق و إنجاء بنى إسرائيل و إعزازهم بعد ذلتهم هاتيك الذلة يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم و قد علا فرعون و أنشب فيهم مخالبا قهره و أحاط بهم بجوره.

أنشأه و الجو ذلك الجو المظلم الذى لا مطمع فيه فرباه فى حجر عدوه ثم أخرجه من مصر ثم أعاده اليهم بسطان فأنجا به بنى إسرائيل و أفنى بيده فرعون و جنوده و جعلهم أحاديث و أحلاما.

فهو الله جل شأنه يقص على نبيه قصتهم و يرمز له و لهم بقوله: «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أنه سيفعل بهؤلاء مثل ما فعل باولئك و يمن على هؤلاء المستضعفين و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين حذو ما صنع بنى إسرائيل.

قوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ الخ؛ العلو فى الأرض كناية عن التجبر و الاستكبار، و الشيع جمع شيعه و هى الفرقة، قال فى المجمع: الشيع: الفرق و كل فرقه شيعه و سموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضا.

انتهى. و كأن المراد بجعل أهل الأرض -و كأنهم أهل مصر و اللام للعهد- فرقا إلقاء الاختلاف بينهم لئلا يتفق كلمتهم فيثوروا عليه و يقلبوا عليه الامور على ما هو من دأب الملوك فى بسط القدره و تقويه السلطه، و استحياء النساء إبقاء حياتهن.

و محصل المعنى: أن فرعون علا فى الأرض و تفوق فيها ببسط السلطه على الناس و إنفاذ القدره فيهم و جعل أهلها شيعا و فرقا مختلفه لا تجتمع كلمتهم على شىء و بذلك ضَعَف عامه

قوتهم على المقاومة دون قوته و الامتناع من نفوذ إرادته.

قوله تعالى: وَ تُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ -الى قوله- يَحْذَرُونَ الْأَصْلَ فِي مَعْنَى الْمَن-على ما استفاد من كلام الراغب-الثقل و منه تسميه ما يوزن به منا،و المنة النعمة الثقيله و منّ عليه منا أى أثقله بالنعمة.قال:و يقال ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله: «وَ تُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا» أى نعطيهم من النعمة ما يثقلهم و الثانى بالقول كقوله: «يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا» و هو مستقبح إلا عند كفران النعمة.

انتهى ملخصا.

و تمكينهم فى الأرض إعطاؤهم فيها مكانا يملكونه و يستقرون فيه،و عن الخليل أن المكان مفعول من الكون و لكثرتة فى الكلام أجرى مجرى فعال.فقيل:تمكن و تمسكن نحو تمنزل انتهى.

و قوله: وَ تُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ الخ؛الأنسب أن يكون حالا من «طَائِفَةً» و التقدير يستضعف طائفه منهم و نحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا،الخ؛و قيل:معطوف على قوله: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ» و الأول أظهر،و «تُرِيدُ» على أى حال لحكاية الحال الماضيه.

و قوله: وَ نَجْعَلُهُمْ أُثْمَةً عطف تفسير على قوله: «نَمُنَّ» و كذا ما بعده من الجمل المتعاقبه.

و المعنى:أن الظرف كان ظرف علو فرعون،و تفريقه بين الناس و استضعافه لبنى إسرائيل استضعافا بييدهم و يفنيهم و الحال أنا نريد أن ننعمة على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة تثقلهم و ذلك بأن نجعلهم أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين،و نجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم و نمكن لهم فى الأرض بأن نجعل لهم مكانا يستقرون فيه و يملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلا ما أراد غيرهم أن يبوأهم فيه و يقرهم عليه،و نرى

ص: ٦٦٠

فرعون و هو ملك مصر و هامان و هو وزيره و جنودهما منهم أى من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحذرون و هو أن يظهرها عليهم فيذهبوا بملكهم و مالهم و سنتهم كما قالوا فى موسى و أخيه لما أرسلوا اليهم: يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَ يُدْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (طه ٦٣).

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الإيحاء هو التكليم الخفى و يستعمل فى القرآن فى تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام و الإلقاء فى القلب كما فى قوله: يَا نَبِيَّ كُنْ أَتَقْوَىٰ تَرَىٰ أَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (الزلزال ٥)، و قوله: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ (النحل ٦٨)، و قوله فى أم موسى: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ» الآية؛ أو بنحو آخر كما فى الأنبياء و الرسل، و فى غيره تعالى كما فى قوله: إِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ (الأنعام ١٢١)، و الإلقاء الطرح، و اليم البحر و النهر الكبير.

و قوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ فى الكلام إيجاز بالحذف و التقدير و حبلت أم موسى به- و الحال هذه الحال من الشده و الحده- و وضعته و أوحينا إليها، الخ.

و المعنى: و قلنا بنوع من الإلهام لام موسى لما وضعته: أَرْضِعِيهِ ما دمت لا تخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه- أن يطلع عليه آل فرعون فيأخذوه و يقتلوه- فألقيه فى البحر و هو النيل على ما وردت به الروايه و لا تخافى عليه القتل و لا تحزنى لفقده و مفارقتة إياك إنا رادوه اليك بعد ذلك و جاعلوه من المرسلين فيكون رسولا الى آل فرعون و بنى إسرائيل.

فقوله: إِذَا رَادُّهُ إِلَيْكَ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ فى قوله: «وَ لَا- تَحْزَنِي» كما يشهد به أيضا قوله بعد: «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ» و الفرق بين الخوف و الحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون فى مكروه محتمل الوقوع و الحزن فى مكروه قطعى الوقوف.

قوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ

وَالْهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ الْإِلْتِقَاطِ إِصَابَهُ الشَّيْءِ وَأَخَذَهُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ، وَمِنْهُ اللَّقْطَةُ وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا» لِلْعَاقِبَةِ عَلَى مَا قِيلَ - وَالْحَزْنَ بَفَتْحَتَيْنِ وَالْحَزْنَ بِالضَّمِّ فَالسُّكُونُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَالسَّقَمِ وَالسَّقَمُ، وَالْمُرَادُ بِالْحَزَنِ سَبَبُ الْحَزَنِ فِإِطْلَاقِ الْحَزَنِ عَلَيْهِ مَبَالِغُهُ فِي سَبَبِيَّتِهِ لِحَزْنِهِمْ.

وَالْخَاطِئِينَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ خَطِئَ يَخْطِئُ خَطْئًا كَعَلِمَ يَعْلَمُ عِلْمًا كَمَا أَنَّ الْمَخْطِئَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ أَخْطَأَ يَخْطِئُ إِخْطَاءً، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْخَاطِئِ وَالْمَخْطِئِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّائِبِيُّ أَنَّ الْخَاطِئَ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ أَرَادَ فِعْلًا - لَا - يَحْسِنُهُ فَعَلَهُ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا»، وَقَالَ: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ»، وَالْمَخْطِئُ يَسْتَعْمَلُ فِيمَنْ أَرَادَ فِعْلًا يَحْسِنُهُ فَوْقَ مَنْ غَيْرِهِ وَاسْمُ مَصْدَرِهِ الْخِطْأُ بِفَتْحَتَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْئًا (النساء ٩٢/١)، وَالْمَعْنَى الْجَامِعُ هُوَ الْعَدُولُ عَنِ الْجِهَةِ. انْتَهَى مَلَخَصًا.

فَقَوْلُهُ: «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ» أَيُ فِيمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمُوسَى تَحْذَرًا مِنْ انْتِهَادِ مَلِكِهِمْ وَذَهَابِ سُلْطَانِهِمْ بِيَدِهِمْ إِرَادَةً لِتَغْيِيرِ الْمَقَادِيرِ عَنْ مَجَارِيهَا فَقَتَلُوا الْجَمَّ الْغَفِيرَ مِنَ الْأَبْنَاءِ وَلَا شَأْنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَرَكَوا مُوسَى حَيْثُ التَّقْطُوهُ وَرَبُّهُ فِي حَجْرِهِمْ وَكَانَ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ انْقِرَاضُ دَوْلَتِهِمْ وَزَوَالُ مَلِكِهِمْ.

وَالْمَعْنَى: فَاصَابَهُ آلُ فِرْعَوْنَ وَأَخَذُوهُ مِنَ الْيَمِّ وَكَانَ غَايَةُ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَسَبَبُ حَزْنٍ إِنْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ فِي قَتْلِ الْأَبْنَاءِ وَتَرَكَ مُوسَى: أَرَادُوا أَنْ يَقْضُوا عَلَى مَنْ سَيَقْضَى عَلَيْهِمْ فَعَادُوا يَجْتَهِدُونَ فِي حِفْظِهِ وَيَجِدُّونَ فِي تَرْبِيَّتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ شَفَاعَهُ مِنْ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَ قَدْ كَانَتْ عِنْدَهُ حِينَمَا جَاءُوا إِلَيْهِ بِمُوسَى - وَ هُوَ طِفْلٌ مَلْتَقِطٌ مِنَ الْيَمِّ - تَخَاطَبَ فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِ: «قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ» أَيُ هُوَ قَرُّ عَيْنٍ لَنَا «لَا تَقْتُلُوهُ» وَ إِنَّمَا خَاطَبَ بِالْجَمْعِ لِأَنَّ شُرَكَاءَ الْقَتْلِ كَانُوا كَثِيرِينَ مِنْ سَبَبِ

و مباشر و آمر و مأمور.

و إنما قالت ما قالت لأن الله سبحانه ألقى محبه منه فى قلبها فعادت لا تملك نفسها دون أن تدفع عنه القتل و تضمه إليها، قال تعالى فيما يمن به على موسى عليه السلام: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لُتُصَنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي (طه ٣٩).

و قوله: عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجِيَهُ وَلَمَّا قَالَتْ لَمَّا رَأَتْ فِي وَجْهِهِ مِنْ آثَارِ الْجَلَالِ وَ سِيمَاءِ الْجَذْبَةِ الْإِلَهِيَّةِ، و فى قولها: «أَوْ نَنْجِيَهُ وَلَمَّا» دلالة على أنهما كانا فاقدين للابن.

و قوله: وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ جملة حاله أى قالت ما قالت و شفعت له و صرفت عنه القتل و القوم لا يشعرون ما ذا يفعلون و ما هى حقيقة الحال و ما عاقبته؟

قوله تعالى: وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَّمَهَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْإِبْدَاءِ بِالشىء إظهاره، و الربط على الشىء شدة و هو كناية عن التثبيت.

و المراد بفراغ فؤاد أم موسى فراغه و خلوه من الخوف و الحزن و كان لازم ذلك أن لا يتوارد عليه خواطر مشوشة و أوهام متضاربه يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدي ما كان عليها أن تخفيه من أمر ولدها.

و ذلك أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها و سبب فراغ قلبها الربط على قلبها و سبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى إليها: «لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ» الخ.

و قوله: إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا الخ؛ «إِنْ» مخففه من الثقيله أى إنها قربت من أن تظهر الأمر و تفسى السر لو لا أن ثبتنا قلبها بالربط عليه، و قوله: «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى الواثقين بالله فى حفظه فتصبر و لا تجزع عليه فلا يبدو أمره.

و المجموع أعنى قوله: «إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ» الى آخر الآية؛ فى مقام البيان لقوله: «وَ أَصْبَحَ

فَوَادُّ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا» و محصل معنى الآية و صار قلب أم موسى بسبب وحينا خاليا من الخوف و الحزن المؤدبين الى إظهار الأمر، لو لا أن ثبتنا قلبها بسبب الوحي لتكون واثقه بحفظ الله له لقربت من أن تظهر أمره لهم بالجزع عليه.

قوله تعالى: وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: القص اتباع الأثر و منه القصص فى الحديث لأنه يتبع فيه الثانى الأول. و قال: و معنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنبه أى عن بعد. انتهى.

و المعنى: و قالت أم موسى لاخته: أتبعى أثر موسى حتى ترين الى م يثول أمره فرأته عن بعد و قد أخذه خدم فرعون و هم لا يشعرون بأنها تقصه و تراقبه.

قوله تعالى: وَ حَرَّمَ عَلَيهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحَةٌ حُونَ التَّحْرِيمِ فِي الْآيَةِ تَكْوِينِي لَا تَشْرِيْعِي وَ معناه جعله بحيث لا يقبل ثدى مرضع و يمتنع من ارتضاعها.

و قوله: مِنْ قَبْلُ أى من قبل حضورها هناك و مجيئها اليهم و المراضع جمع مرضعه كما قيل.

و قوله: فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحَةٌ حُونَ تفرّيع على ما تقدّمه غير أن السياق يدلّ على أن هناك حذفاً كأنه قيل: و حرّمنا عليه المراضع غير أمه من قبل أن تجيء اخته فكلما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها فلما جاءت اخته و رأت الحال قالت عند ذلك لآل فرعون: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لنفعمكم و هم له ناصحون؟

قوله تعالى: فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تفرّيع على ما تقدمه مع تقدير ما يدل عليه السياق، و المحصل أنها قالت: هل أدلكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلّتهم على أمه فسلموه

إليها فرددناه الى أمه بنظم هذه الأسباب.

وقوله: كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَ لَتَلْعَلَمَ الخ؛ تعليل للرد و المراد بالعلم هو اليقين بالمشاهده فإنها كانت تعلم من قبل أن وعد الله حق و كانت مؤمنه و إنما أريد بالرد أن توفن بالمشاهده أن وعد الله حق.

و المراد بوعد الله مطلق الوعد الالهى بدليل لوقه «و لكن أكثر الناس لا يعلمون» أى لا يوقنون بذلك و يرتابون فى مواعده تعالى و لا تطمئن إليها نفوسهم، و محصله أن توقع بمشاهده حقيه هذا الذى وعدها الله به أن مطلق وعده تعالى حق.

قوله تعالى: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ بلوغ الأشد أن يعمر الانسان ما تشتد عند ذلك قواه و يكون فى الغالب فى الثمان عشره، و الاستواء الاعتدال و الاستقرار فالاستواء فى الحياه استقرار الانسان فى أمر حياته و يختلف فى الأفراد و هو على الأغلب بعد بلوغ الأشد، و قد تقدم الكلام فى معنى الحكم و العلم و إيتائهما و معنى الاحسان فى مواضع من الكتاب (١).

[سوره القصص (٢٨): الآيات ١٥ الى ٢١]

اشاره

وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنْصَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)

ص: ٦٦٥

قوله تعالى: وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا الْخَبْرُ؛ لا ريب أن المدينة التي دخلها على حين غفله من أهلها هي مصر، وأنه كان يعيش عند فرعون، ويستفاد من ذلك أن القصر الملكي الذي كان يسكنه فرعون كان خارج المدينة و أنه خرج منه و دخل المدينة على حين غفله من أهلها، و يؤيد ما ذكرنا ما سيأتي من قوله: وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى عَلَى مَا سيجيء من الاستظهار.

و حين الغفله من أهل المدينة هو حين يدخل الناس بيوتهم فتتعطل الأسواق و تخلو الشوارع و الأنزقه من الماره كالظهيره و أواسط الليل.

و قوله: فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ أَي يَتَنَازَعَانِ وَ يَتَضَارَبَانِ، و قوله: «هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ» حكاية حال تمثل به الواقعة، و معناه: أن أحدهما كان إسرائيليًا من متبعية في دينه-فإن بنى إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ الى آبائهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السَّلام في دينهم و إن كان لم يبق لهم منه إلا- الاسم و كانوا يتظاهرون بعبادة فرعون- و الآخر قبطيا عدوا له لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل، و من الشاهد أيضا على كون هذا الرجل قبطيا قوله في موضع آخر يخاطب ربه: وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (الشعراء/١٤).

و قوله: فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَيَّ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ الاستغاثة:

الاستئثار من الغوث بمعنى النصره أى طلب الإسرائيلى من موسى أن ينصره على عدوه القبطى.

و قوله: فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ضَمِيرًا «وكره» و «عَلَيْهِ» للذى من عدوه و الوكر-على ما ذكره الراغب و غيره-الطعن و الدفع و الضرب بجمع الكف، و القضاء هو الحكم و القضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته، و المعنى: فدفعه أو ضربه موسى بالوكر فمات، و كان قتل خطأ و لو لا ذلك لكان من حق الكلام أن يعبر بالقتل.

و قوله: قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ الإشارة بهذا الى ما وقع بينهما من الاقتتال حتى أدى الى موت القبطى و قد نسبه نوع نسبه الى عمل الشيطان إذ قال: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» و «مِنْ» ابتدائية تفيد معنى الجنس أو نشوئية، و المعنى: هذا الذى وقع من المعاداة و الاقتتال من جنس العمل المنسوب الى الشيطان أو ناش من عمل الشيطان فإنه هو الذى أوقع العداوة و البغضاء بينهما و أغرى على الاقتتال حتى أدى ذلك الى مداخله موسى و قتل القبطى بيده فأوقعه ذلك فى خطر عظيم و قد كان يعلم أن الواقعة لا تبقى خفيته مكتومه و أن القبط سيثورون عليه و أشرفهم و ملؤهم و على رأسهم فرعون

سينتقمون منه و من كل من تسبب الى ذلك أشد الانتقام.

فعند ذلك تنبه عليه السيِّلام أنه أخطأ فيما فعله من الوكز الذى أورده مورد الهلكه و لا ينسب الوقوع فى الخطأ الى الله سبحانه لأنه لا يهدى إلا الى الحق و الصواب ففضى أن ذلك منسوب الى الشيطان.

و فعله ذاك و إن لم يكن معصيه منه لوقوعه خطأ و كون دفاعه عن الإسرائيلى دفعا لكافر ظالم، لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان فى الإثم و المعصيه كذلك يوقعه فى أى مخالفه للصواب يقع بها فى الكلفه و المشقه كما أوقع آدم و زوجه فيما أوقع من أكل الشجره المنهيّه فأدى ذلك الى خروجهما من الجنه.

فقوله: هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ أَنْزَجَارٍ مِنْهُ عَمَّا وَقَعَ مِنَ الْقِتَالِ الْمُؤَدَى إِلَى قَتْلِ الْقَبْطِيِّ وَ وَقُوعِهِ فِي عَظِيمِ الْخَطَرِ وَ نَدَمٍ مِنْهُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» إشاره منه الى ان فعله كان من الضلال المنسوب الى الشيطان و إن لم يكن من المعصيه التى فيها إثم و مؤاخذه بل خطأ محضا لا ينسب الى الله بل الى الشيطان الذى هو عدو مضل مبين، فكان ذلك منه نوعا من سوء التدبير و ضلال السعى يسوقه الى عاقبه و خيمه و لذا لما اعترض عليه فرعون بقوله: «وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» أجابه بقوله: فَعَلْتُهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (الشعراء ٢٠/١).

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ اعتراف منه عند ربه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر و ألقاها فى التهلكه، و منه يظهر أن المراد بالمغفره المسئوليه فى قوله: «فَاغْفِرْ لِي» هو إلغاء تبعه فعله و إنجاؤه من الغم و تخليصه من شر فرعون و ملاءه، كما يظهر من قوله تعالى: وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَجَجْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ (طه ٤٠/١).

و هذا الاعتراف بالظلم و سؤال المغفره نظير ما وقع من آدم و زوجه المحكى فى قوله تعالى:

قَالَ رَبِّنا ظَلَمنا أَنْفُسنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (الأعراف / ٢٣).

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ قيل:

الباء فى قوله: «بِما أَنْعَمْتَ» للسببىه و المعنى رب بسبب ما أنعمت على، لك على أن لا أكون معيناً للمجرمين فىكون عهداً منه لله تعالى وقيل: الباء للقسم و الجواب محذوف و المعنى: أقسم بما أنعمت على لأتوبن أو لأمتنعن فلن أكون ظهيراً للمجرمين، و قيل: القسم استعطافى و هو القسم الواقع فى الإنشاء كقولك بالله زرنى، و المعنى أقسمك أن تعطف على و تعصمنى فلن أكون ظهيراً للمجرمين.

و الوجه الأول هو الأوجه لأن المراد بقوله: «بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ» -على ما ذكره- إما إنعامه تعالى عليه إذ حفظه و خلصه من قتل فرعون و رده الى أمه، و إما إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطى و غفر له بناء على أنه علم مغفرته تعالى بإلهام أو رؤيا أو نحوهما و كيف كان فهو إقسام بغيره تعالى، و المعنى أقسم بحفظك إياى أو أقسم بمغفرتك لى، و لم يعهد فى كلامه تعالى حكاية قسم من غيره بغيره بهذا النحو.

و قوله: فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ قيل: المراد بالمجرم من أوقع غيره فى الجرم أو من أدت إعانته الى جرم كالإسرائيلى الذى خاصمه القبطى فأوقعت إعانته موسى فى جرم القتل فىكون فى لفظ المجرمين مجاز فى النسبه من حيث تسميه السلب الموقع فى الجرم مجرماً.

و قيل: المراد بالمجرمين فرعون و قومه و المعنى: أقسم بإنعامك على لأتوبن فلن أكون معيناً لفرعون و قومه بصحبتهم و ملازمتهم و تكثير سوادهم كما كنت أفعله الى هذا اليوم.

و رد هذا الوجه الثانى بأنه لا يناسب المقام.

و الحق أن قوله: «رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ» عهد من موسى عليه السلام أن

لا يعين مجرماً على إجرامه شكراً لله تعالى على ما أنعم عليه، والمراد بالنعمة و قد أطلقت إطلاقاً الولاية الإلهية على ما يشهد به قوله تعالى: فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ (النساء ٦٩).

وهؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال والغضب لقوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (الفاتحة ٧)، وترتب الامتناع عن إعانة المجرمين على الإنعام بهذا المعنى ظاهر لا ستره عليه.

ومن هنا يظهر أن المراد بالمجرمين أمثال فرعون وقومه دون أمثال الإسرائيليين الذي أعانه فلم يكن في إعانته جرم ولا كان وكز القبطى جرماً حتى يتوب عليه السّلام منه كيف؟ وهو عليه السلام من أهل الصراط المستقيم الذين لا يضلون بمعصيته، وقد نص تعالى على كونه من المخلصين الذين لا سبيل للشيطان اليهم بالإغواء حيث قال: إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (مريم/ ٥١).

وقد نص تعالى أيضاً أنفاً بأنه آتاه حكماً وعلماً وأنه من المحسنين ومن المتقين من أمره أن لا تستخفه عصبية قوميه أو غضب من غير ما ينبغي أو إعانه ونصره لمجرم في إجرامه.

وقد كرر «قال» ثلاثاً حيث قيل: قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ ذَلِكَ لاختلاف السياق في الجمل الثلاث فالجمله الاولى قضاء منه و حكم، و الجمله الثانيه استغفار و دعاء، و الجمله الثالثه عهد و التزام.

قوله تعالى: فَأَصْبَحَ يَبْحُ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ تقييداً «أصبح» بقوله: «فِي الْمَدِينَةِ» دليل على أنه بقى في المدينة و لم يرجع الى قصر فرعون، و الاستصراخ الاستغائه برفع الصوت من الصراخ بمعنى الصياح، و الغوايه إخطاء الصواب خلاف الرشد.

و المعنى: فأصبح موسى فى المدينة-و لم يرجع الى بلاط فرعون-و الحال أنه خائف من فرعون ينتظر الشر ففاجأه أن الإسرائيلى الذى استنصره على القبطى بالأمس يستغيث به رافعا صوته على قبطى آخر قال موسى للإسرائيلى توبيخا و تأنيبا: إنك لغوى مبین لا تسلك سبيل الرشد و الصواب لأنه كان يخاصم و يقتتل قوما ليس فى مخاصمتهم و المقاومه عليهم إلا الشر كل الشر.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ذكر جل المفسرين أن ضمير «قال» للإسرائيلى الذى كان يستصرخه و ذلك أنه ظن أن موسى إنما يريد أن يبطش به لما سمعه يعاتبه قبل بقوله: «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» فهاله ما رأى من إرادته البطش فقال: «يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ» الخ؛ فعلم القبطى عند ذلك أن موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس فرجع الى فرعون فأخبره الخبر فاثتمروا بموسى و عزموا على قتله.

و ما ذكروه فى محله لشهادته السياق بذلك فلا يعبأ بما قيل: إن القائل هو القبطى دون الاسرائيلى، هذا و معنى باقى الآيه ظاهر. و فى قوله: «أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا» تعريض للتوراه الحاضره حيث تذكر أن المتقاتلين هذين كانا جميعا إسرائيلىين، و فيه أيضا تأييد أن القائل «يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ» الخ؛ الاسرائيلى دون القبطى لأن سياقه سياق اللوم و الشكوى.

قوله تعالى: وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ الْخِ؛ الائتمار المشاوره، و النصيحه خلاف الخيانه.

و الظاهر كون قوله: «مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» قيد لقوله: «جاء» فسياق القصة يعطى أن الائتمار كان عند فرعون و بأمر منه، و أن هذا الرجل جاء من هناك و قد كان قصر فرعون فى أقصى المدينة و خارجها فأخبر موسى بما قصدوه من قتله و أشار عليه بالخروج من

و هذا الاستئناس من الكلام يؤيد ما تقدم أن قصر فرعون الذى كان يسكنه كان خارج المدينه، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فيه تأييد أنه ما كان يرى قتله القبطى خطأ جرماً لنفسه (١).

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٢ الى ٢٨]

اشاره

وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَ أَبُوْنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَ مِمَّا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَ كَيْلٌ (٢٨)

ص: ٦٧٢

قوله تعالى: **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** قال في المجمع: تلقاء الشيء حذاؤه، ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أى من حذاء داعى نفسه. وقال: سواء السبيل وسط الطريق انتهى.

و مدين-على ما فى مراصد الاطلاع-مدينه قوم شعيب و هى تجاه تبوك على بحر القلزم بينهما ست مراحل و هى أكبر من تبوك و بها البئر التى استقى منها موسى لغنم شعيب عليهما السلام انتهى، و يقال: إنه كان بينهما و بين مصر مسيره ثمان و كانت خارجه من سلطان فرعون و لذا توجه إليها.

و المعنى: و لما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال: أرجو من ربي أن يهدينى وسط الطريق فلا أضل بالعدول عنه و الخروج منه الى غيره.

و السياق-كما ترى-يعطى أنه عليه السلام كان قاصدا لمدين و هو لا يعرف الطريق الموصله إليها فترجى أن يهديه ربه.

قوله تعالى: **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ** الخ؛ الذود الحبس و المنع، و المراد بقوله: «تَأْذِنُونَ» أنهما يحسبان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط

بأغنام القوم كما أن المراد بقوله: «يَسْقُونَ» سقيهم أغنامهم و مواشيهم، والرعاء جمع الراعى و هو الذى يرعى الغنم.

و المعنى: و لما ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعه من الناس يسقون أغنامهم و وجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحبسان أغنامها و تمنعانها أن ترد المورد قال موسى مستفسرا عنهما- حيث و جدهما تذودان الغنم و ليس على غنمهما رجل-: ما شأنكما؟ قالتا:

لا نسقى غنمنا أى عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون و يخرجوا أغنامهم و أبونا شيخ كبير- لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقى- و لذا تصدينا الأمر.

قوله تعالى: فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فهم عليه السلام من كلامهما أن تأخرهما فى السقى نوع تعفف و تحجب منهما و تعد من الناس عليهما فبادر الى ذلك و سقى لهما.

و قوله: «ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» أى انصرف الى الظل ليسترىح فيه و الحر شديد و قال ما قال، و قد حمل الأكثرون قوله: «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ» الخ؛ على سؤال طعام يسدّ به الجوع، و عليه فالأولى أن يكون المراد بقوله: «لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ» القوه البدنيه التى كان يعمل بها الأعمال الصالحه التى فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيلى و الهرب من فرعون بقصد مدين و سقى غنم شعيب و اللام فى «لِمَا أَنْزَلْتَ» بمعنى الى و إظهار الفقر الى هذه القوه التى أنزلها الله اليه من عنده بالإفاضه كناية عن إظهار الفقر الى شىء من الطعام تستبقى به هذه القوه النازله الموهوبه.

قوله تعالى: فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ ضمير إحداهما للمرأتين، و تنكير الاستحياء للتفخيم و المراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفف من مشيتها، و قوله: «لِيَجْزِيَكَ أَجْرٌ مَا سَقَيْتَ لَنَا» ما مصدره أى يعطيك جزاء سقيك لنا، و قوله: «فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ» الخ؛ بلّوح الى ان شعبيا

استفسره حاله فقص عليه قصته فطيب نفسه بأنه نجى منهم إذ لا سلطان لهم على مدين.

و عند ذلك تمت استجابته تعالى لموسى عليه السلام أذعته الثلاثة فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجيه من القوم الظالمين فأخبره شعيب عليه السلام بالنجاه و ترجى أن يهديه سواء السبيل و هو فى معنى الدعاء فورد مدين، و سأل الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجر ما سقى و زاد تعالى فكفا رزق عشر سنين و وهب له زوجا يسكن إليها.

قوله تعالى: **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** إطلاق الاستيجار يفيد أن المراد استخدامه لمطلق حوائجه التى تستدعى من يقوم مقامه و إن كانت العهده باقتضاء المقام رعى الغنم.

و قوله: **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْخَيْرُ** فى مقام التعليل لقوله: «**اسْتَأْجِرْهُ**» و هو من وضع السبب موضع المسبب التقدير استأجره لأنه قوى أمين و خير من استأجرت هو القوى الأمين.

و فى حكمها بأنه قوى أمين دلالة على أنها شاهدت من نحو عمله فى سقى الأغنام ما استدلت به على قوته و كذا من ظهور عفته فى تكليمهما و سقى أغنامهما ثم فى صحبتها لها عند ما انطلق الى شعيب حتى أتاه ما استدلت به على أمانته.

و من هنا يظهر أن هذه القائله «**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ**» الخ؛هى التى جاءته و أخبرته بدعوه أبيها له كما وردت به روايات أئمه أهل البيت عليهم السلام و ذهب اليه جمع من المفسرين.

قوله تعالى: **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَّاجٍ** الخ؛عرض من شعيب لموسى عليه السلام أن يأجره نفسه ثمانى سنين أو عشرا قبال تزويجه إحدى ابنتيه و ليس بعقد قاطع و من الدليل عدم تعين المعقوده فى كلامه عليه السلام.

فقوله: **إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** دليل على حضورهما إذ ذاك، و قوله: «**عَلَيَّ أَنْ**

تَأْجِرُنِي ثَمَانِي حِجَجٍ» أى على أن تأجرني نفسك أى تكون أجيرا لى ثمانى حجج، و الحجج جمع حجه و المراد بها للسنة بعنايه أن كل سنه فيها حجه لبيت الحرام، و به يظهر أن حج البيت -و هو من شريعه إبراهيم عليه السلام- كان معمولا به عندهم.

و قوله: فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ أى فإن أتممته عشر سنين فهو من عندك و باختيار منك من غير أن تكون ملزما من عندى.

و قوله: وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ إِخْبَارٌ عَنْ نَحْوِ مَا يَرِيدُهُ مِنْهُ مِنَ الْخِدْمَةِ وَ أَنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ مَوْصُوفٌ بِالْمَشَقَّةِ وَ أَنَّهُ مَخْدُومٌ صَالِحٌ.

و قوله: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ أى إني من الصالحين و ستجدني منهم إن شاء الله فالاستثناء متعلق بوجودان موسى إياه منهم لا بكونه فى نفسه منهم.

قوله تعالى: قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَ كَيْلُ الضمير لموسى عليه السلام.

و قوله: ذَلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أى ذلك الذى ذكرته و قررته من المشارطه و المعاهده و عرضته على ثابت بيننا ليس لى و لا لك أن نخالف ما شارطناه، و قوله: «أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ» بيان للأجل المردد المضروب فى كلام شعيب عليه السلام و هو قوله: «ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ» أى لى أن أختار أى الأجلين شئت فإن اخترت الثمانى سنين فليس لك أن تعدو على و تلزمنى بالزيادة و إن اخترت الزيادة و خدمتك عشرا فليس لك أن تعدو على بالمنع من الزيادة.

و قوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَ كَيْلُ توكيل له تعالى فيما يشارطان يتضمن إسهاده تعالى على ما يقولان و إرجاع الحكم و القضاء بينهما اليه لو اختلفا، و لذا اختار التوكيل على الإسهاد لأن الشهاده و القضاء كليهما اليه تعالى، و هذا كقول يعقوب عليه السلام حين أخذ الموثق من بنيه أن يردوا اليه ابنه فيما يحكيه الله فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَ كَيْلُ

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٩ الى ٤٢]

اشاره

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَدٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) أَسِطْرُكَ يَدُكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ مِ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَيِّدُ فَنِيَّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنُنشِدُكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصْطَلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَيْرًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْطَرُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَا هُمُ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَآتَيْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)

ص: ٦٧٧

قوله تعالى: فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا الخ؛ المراد بقضائه الأجل إتمامه مده خدمته لشعب عليه السلام و المروى أنه قضى أطول الأجلين، و الإيناس الإبصار و الرؤيه، و الجدوه من النار القاطعه منها، و الاصطلاء الاستدفاء.

و السياق يشهد أن الأمر كان الليل و كانت ليله شديده البرد و قد ضلّوا الطريق فرأى من جانب الطور و قد أشرفوا عليه نارا فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب الى ما آنسه لعله يجد هناك من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعه من النار فيصطلوا بها، و قد وقع في القصة من سوره طه قوله: «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ» الخ؛ قوله: لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى (طه ١٠)، و هو أدلّ على كونهم ضلوا الطريق.

و كذا في قوله خطابا لأهله: «امْكُثُوا» الخ؛ شهاده على أنه كان معها من يصحّ معه خطاب (١)الجمع.

قوله تعالى: فَلَمَّا آتَاهَا نُودَى مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ الخ؛ قال في المفردات: شاطئ الوادى جانبه، و قال: أصل الوادى الموضع الذى يسيل منه الماء و منه سمي المنفرج بين الجبلين واديا و جمعه أوديه انتهى و البقعه القطعه من الأرض على غير هيئه التى الى جنبها.

و المراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابل الأيسر و هو صفة الشاطئ و لا يعبأ بما قاله بعضهم:

إن الأيمن من اليمين مقابل الأشأم من الشؤم.

و البقعه المباركه قطعه خاصه من الشاطئ الأيمن فى الوادى كانت فيه الشجره التى نودى منها، و مباركتها لتسرفها بالتقريب و التكليم الإلهى و قد أمر بخلع نعليه فيها لتقدسها كما قال تعالى فى القصة من سوره طه: فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (طه ١٢).

و لا ريب فى دلالة الآيه على أن الشجره كانت مبدأ للنداء و التكليم بوجه غير أن الكلام و هو كلام الله سبحانه لم يكن قائما بها كقيام الكلام بالمتكلم منا فلم تكن إلا حجابا احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحه قدسه من معنى الاحتجاب و هو على كل شىء

ص: ٦٧٩

١- ١. و فى التوراه الحاضره أنه حمل معه الى مصر امرأته و بنيه (سفر الخروج الاصحاح الرابع آيه ٢٠).

محيط، قال تعالى: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ (الشورى ٥١).

وقوله: أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أن فيه تفسيريه، وفيه إنباء عن الذات المتعالية المسماة باسم الجلاله الموصوفه بوحديته الربوبية النافيه لمطلق الشرك إذ كونه ربا للعالمين جميعا-والرب هو المالك المدبر لملكه الذى يستحق العباده من مملوكيه-لا يدع شيئا من العالمين يكون مربوبا لغيره حتى يكون هناك رب غيره و إله معبود سواه.

ففى الآيه إجمال ما فصله فى سوره طه فى هذا الفصل من النداء من الإشاره الى الاصول الثلاثه أعنى التوحيد و النبوه و المعاد إذ قال: إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ الْآيَاتُ؛ (طه ١٤-١٦).

قوله تعالى: وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ تقدم تفسيره فى سوره النمل.

قوله تعالى: يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ بتقدير القول أى قيل له: أقبل و لا تخف إنك من الآمين، و فى هذا الخطاب تأمين له، و به يظهر معنى قوله فى هذا الموضع من القصة فى سوره النمل: يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (النمل / ١٠) و أنه تأمين معناه إنك مرسل و المرسلون آمنون لدى و ليس من العتاب و التوبيخ فى شىء.

قوله تعالى: أَسِئَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ المراد بسلوك يده فى جيبه إدخاله فيه، و المراد بالسوء-على ما قيل-البرص.

و الظاهر أن في هذا التقييد تعريضا لما في التوراه الحاضره في هذا (١)الموضع من القصة: ثم قال له الرب أيضا: ادخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها و إذا يده برصاء مثل الثلج.

قوله تعالى: وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ إِلَى آخِرِ آيَةِ؛ الرهب بالفتح فالسكون و بفتحتين و بالضم فالسكون الخوف، و الجناح قيل: المراد به اليد و قيل: العضد.

قيل: المراد بضم الجناح اليه من الرهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدته انقلاب العصا حيه ليذهب ما في قلبه من الخوف.

و قيل: إنه لما ألقى العصا و صارت حيه بسط يديه كالمتقى و هما جناحاه فقيل له: اضمم اليك جناحك أى لا تبسط يديك خوف الحيه فإنك آمن من ضررها.

و الوجهان- كما ترى- مبنيان على كون الجملة أعنى قوله: «وَ اضْمُمْ» الخ؛ من تتمه قوله:

«أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْمَأْمِنِينَ» و هذا لا- يلائم تخلل قوله: «إِسْمُكَ يَدَاكَ فِي جَيْبِكَ» الخ؛ بين الجملتين بالفصل من غير عطف.

و قيل: الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أراه الله سبحانه منه و الحث على الجد في أمر الرساله لثلا- يمنعه ما يغشاه من الخوف في بعض الأحوال.

و لا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإن من دأب المتكبر المعجب بنفسه أن يفرج بين عضديه و جنبيه كالتمطى في مشيته فيكون في معنى ما أمر الله به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من التواضع للمؤمنين بقوله: وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (الحجر ٨٨) على بعض المعانى.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ إشارة الى

ص: ٦٨١

قتله القبطى بالوكز و كان يخاف أن يقتلوه قصاصا.

قوله تعالى: وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: يقال: فلان رده فلان إذا كان ينصره و يشد ظهره. انتهى.

و قوله: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ تعليل لسؤاله إرسال هارون معه، و السياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبه فيغضب و لا يستطيع بيان حجته ولكنه كانت فى لسانه لا أنه سأل إرساله لئلا يكذبه فإن من يكذبه لا يبالي أن يكذب هارون معه و من الدليل على ذلك ما وقع فى سورة الشعراء فى هذا الموضع من القصة من قوله: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ (الشعراء ١٣).

فمحصّل المعنى: أن أخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معينا لى بيّن صدقى فى دعواى إذا خصموني إني أخاف أن يكذبوني فلا أستطيع بيان صدق دعواى.

قوله تعالى: قَالَ سَنَنْشُدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصْعَقُ لَمُؤَنِ إِلَيْكُمَا بآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَ مَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ شدّ عضده بأخيه كناية عن تقويته به، و عدم الوصول اليهما كناية عن عدم التسلط عليهما بالقتل و نحوه كأن الطائفتين يتسابقان و إحداهما متقدمه دائما و الاخرى لا تدر كههم بالوصول اليهم فضلا أن يسبقوهم.

و المعنى: قال: سنقويك و نعينك بأخيك هارون و نجعل لكما سلطه و غلبه عليهم فلا- يتسلطون عليكما بسبب آياتنا التى نظهر كما بها. ثم قال: «أَنْتُمَا وَ مَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ» و هو بيان لقوله: «وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا» الخ؛ يوضح أن هذا السلطان يشملهما و من اتبعهما من الناس.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ الخ؛ أى سحر موصوف بأنه مفترى و المفترى اسم مفعول بمعنى المختلق أو مصدر

ميمي وصف به السحر مبالغه.

و الإشارة في قوله: «مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى» الى ما جاء به من الآيات أى ليس ما جاء به من الخوارق إلا سحرا مختلقا افتعله فنسبه الى الله كذبا.

و الإشارة في قوله: «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ» الى ما جاء به من الدعوه و أقام عليها حجه الآيات، و أما احتمال أن يراد بها الإشارة الى الآيات فلا يلائمه تكرار اسم الإشارة على أنهم كانوا يدعون أنهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في قوله: فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ (طه ٥٨)، على أن عدم معهوديه السحر و عدم مسبقيته بالمثل لا ينفعهم شيئا حتى يدعوه.

فالمعنى: أن ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن آبائنا الأولين أنهم اتخذوه في وقت من الأوقات، و يناسبه ما حكى في الآية التالية من قول موسى «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى» الخ.

قوله تعالى: وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ الْخ؛ مقتضى السياق كونه جوابا من موسى عن قولهم: «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ» في رد دعوى موسى، و هو جواب مبنى على التحدى كأنه يقول: إن ربي - هو رب العالمين له الخلق و الأمر - هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى و من تكون له عاقبه الدار و هو الذى أرسلنى رسولا جائيا بالهدى - هو دين التوحيد - و عدنى أن من أخذ بدينى فله عاقبه الدار، و الحجه على ذلك الآيات البينات التى آتانيها من عنده.

فقوله: رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ يريد به نفسه و المراد بالهدى الدعوه الدينيه التى جاء بها.

و قوله: وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ الْمَرَادِ بِعَاقِبَةِ الدَّارِ إِمَّا الْجَنَّةَ الَّتِي هِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ الَّتِي يَسْكُنُهَا السَّعْدَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى حَكَاهِ عَنْهُمْ: وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ

حَيْثُ نَشَأُ (الزمر ٧٤)، وإما عاقبه الدار الدنيا كما فى قوله: قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْبِتُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف / ١٢٨)، وإما الأعم الشامل للدنيا والآخرة، والثالث أحسن الوجوه ثم الثانى كما يؤيده تعليقه بقوله: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» .

و فى قوله: إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ تعريض لفرعون وقومه و فيه نفى أن تكون لهم عاقبه الدار فإنهم بنوا سنه الحياه على الظلم و فيه انحراف عن العدالة الاجتماعيه التى تهدى إليها فطره الإنسان الموافقه للنظام الكونى.

قوله تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوه الحقه المؤيده بالآيات المعجزه يريد أنه لم يتبين له حقيقه ما يدعو اليه موسى و لا كون ما أتى به من الخوارق آيات معجزه من عند الله و أنه ما علم لهم من إله غيره.

فقوله: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي سوق للكلام فى صورته الإنصاف ليقع فى قلوب الملائم موقع القبول كما هو ظاهر قوله المحكى فى موضع آخر: مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٢٩).

فمحصل المعنى: أنه ظهر للملائم أنه لم يتضح له من دعوه موسى و آياته أن هناك إلهها هو رب العالمين و لا حصل له علم بأن هناك إلهها غيره ثم أمر هامان أن يبنى له صرحا لعله يطلع الى إله موسى.

و قوله: فَأَوْقَدْ لِي يٰ هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا الممراد بالإيقاد على الطين تأجيج النار عليه لصنعه الآجر المستعمل فى الأبنيه، و الصرح البناء العالى المكشوف من صرح الشىء إذا ظهر ففى الجملة أمر باتخاذ الآجر و بناء قصر عال منه.

و قوله: لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ نَسب الإله الى موسى بعنايه أنه هو الذى

يدعو اليه، والكلام من وضع النتيجة موضع المقدمه و التقدير: اجعل لي صرحا أصعد الى أعلى درجاته فأنظر الى السماء لعلى أطلع الى إله موسى كأنه كان يرى أنه تعالى جسم ساكن فى بعض طبقات الجو أو الأفلاك فكان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطلع اليه أو كان هذا القول من قبيل التعميه على الناس و إضلالهم.

و يمكن أن يكون المراد أن يبنى له رسدا يترصد الكواكب فىرى هل فيها ما يدل على بعثه رسول أو حقيته ما يصفه موسى عليه السلام، و يؤيد هذا قوله على ما حكى فى موضع آخر: يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ الْأَسْبَابِ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا (المؤمن ٣٧).

و قوله: وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ترق منه من الجهل الذى يدل عليه قوله: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» الى الظن بعدم الوجود و قد كان كاذبا فى قوله هذا و لا يقوله إلا تمويها و تعميه على الناس و قد خاطبه موسى بقوله: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الإسراء ١٠٢).

و ذكر بعضهم أن قوله: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» من قبيل نفى المعلوم بنفى العلم فيما لو كان لبان فيكون نظير قوله: قُلْ أَ تَسْتَبُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ (يونس / ١٨)، و أنت خير بأنه لا يلائم ذيل الآية.

قوله تعالى: وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمِ الْإِنْتَابُ لَا يُرْجَعُونَ أى كانت حالهم حال من يترجح عنده عدم الرجوع و ذلك أنهم كانوا موقنين فى أنفسهم كما قال تعالى: «وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُتُوًّا» .

قوله تعالى: فَأَخَذْنَا هُوَ وَ جُنُودَهُ الْخَبْءَ الْبَدْرَ الطَّرْحَ، و اليم البحر و الباقي ظاهر. و فى الآية من الاستهانه بأمرهم و تهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ

الدعوة الى النار هي الدعوة الى ما يستوجب النار من الكفر و المعاصى لكونها هي التى تتصور لهم يوم القيامة نارا يعذبون فيها أو المراد بالنار ما يستوجبها مجازا من باب إطلاق المسبب و إرادته سببه.

و معنى جعلهم أئمة يدعون الى النار، تصيرهم سابقين فى الضلال يقتدى بهم اللاحقون و لا ضير فيه لكونه بعنوان المجازاه على سبقهم فى الكفر و الجحود و ليس من الإضلال الابتدائى فى الشىء.

و قوله: «و يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ» أى لا تنالهم شفاعته من ناصر.

قوله تعالى: «و أَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ» بيان للآية السابقة فهم لكونهم أئمة يقتدى بهم من خلفهم فى الكفر و المعاصى و لا يزال يتبعهم ضلال الكفر و المعاصى من مقتديهم و متبعيهم و عليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر و المعاصى بعدهم.

فآية فى معنى قوله: «و لِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَنْتَقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» (العنكبوت ١٣) وقوله:

«وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ» (يس ١٢)، و تنكير العنه للدلالة على تفخيمها و استمرارها.

و كذا لما لم ينلهم يوم القيامة نصر ناصر كانوا بحيث يتنفر و يشمئز عنهم النفوس و يفر منهم الناس و لا يدنو منهم أحد و هو معنى القبح و قد وصف الله تعالى من قبح منظرهم شيئا كثيرا فى كلامه (١)(٢).

ص: ٦٨٦

١- ١). القصص ٢٩-٤٢: بحث روائى فى قصه و خروجه من مدين الى مصر و بعثته بالرسالة.

٢- ٢). القصص ٢٩-٤٢: كلام حول قصص موسى و هارون عليهما السّلام فى فصول (منزله موسى عند الله و موقفه العبودى؛ قصص موسى عليه السّلام فى القرآن، منزله هارون عليه السّلام عند الله و موقفه العبودى؛ قصص موسى عليه السّلام فى التوراه الحاضرة).

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ
 الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ مَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ
 مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ
 نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَ لَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
 آيَاتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
 مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَ لَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَ إِذَا يُتْلَىٰ
 عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِذَا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ
 السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي
 الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)

قوله تعالى: **وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرَ لِلنَّاسِ الْخَالِصَاتِ** لِقَسَمِ أَيِّ اقْسَمَ لَقَدْ أُعْطِينَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ هُوَ التَّوْرَاهُ بِوَحْيِهِ إِلَيْهِ.

و قوله: **مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ** أَي الْأَجْيَالِ السَّابِقَةَ عَلَى نَزُولِ التَّوْرَاهِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْهَالِكَةِ وَ لَعَلَّ مِنْهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ، وَ فِي هَذَا التَّقْيِيدِ إِشَارَةٌ إِلَى مَسِيَسِ الْحَاجَةِ حِينَئِذٍ إِلَى نَزُولِ الْكِتَابِ لِانْدِرَاسِ مَعَالِمِ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ بِمَضِيِّ الْمَاضِيْنَ وَ لِيُشَارَ فِي الْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ إِلَى قِصَصِهِمْ وَ حُلُولِ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ بِهِمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لآيَاتِ اللَّهِ لِيُعْتَبَرَ بِهِ الْمَعْتَبِرُونَ وَ يَتَذَكَّرَ بِهِ الْمَتَذَكِّرُونَ.

وقوله: **بَصَّائِرَ لِلدَّاسِ** جمع بصيره بمعنى ما يبصر به و كأن المراد بها الحجج البينه التي يبصير بها الحق و يميز بها بينه و بين الباطل، و هى حال من الكتاب و قيل: مفعول له.

وقوله: **وَ هُدًى** بمعنى الهدى أو ما يهتدى به و كذا قوله: **«وَ رَحْمَةً»** بمعنى ما يرحم به و هما حالان من الكتاب كبصائر، و قيل: كل منهما مفعول له.

و المعنى: و أقسم لقد أعطينا موسى الكتاب و هو التوراه من بعد ما أهلكنا الأجيال الاولى فاقتضت الحكمة تجديد الدعوه و الإنذار حال كون الكتاب حججا بينه يبصر بها الناس المعارف الحقه و هدى يهتدون به إليها و رحمه يرحمون بسبب العمل بشرائعه و أحكامه لعلهم يتذكرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد و العمل.

قوله تعالى: **وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و الغربى صفه محذوفه الموصوف و المراد جانب الوادى الغربى أو جانب الجبل الغربى.

وقوله: **إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ** كأن القضاء مضمّن معنى العهد، و المراد بعهد الأمر اليه-على ما قيل-إحكام أمر نبوته بإنزال التوراه اليه و أما العهد اليه بأصل الرساله فيدلّ عليه قوله بعد: **«وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا»** و قوله: **«وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»** تأكيد لسابقه.

و المعنى: و ما كنت حاضرا و شاهدا حين أنزلنا التوراه على موسى فى الجانب الغربى من الوادى أو الجبل.

قوله تعالى: **وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** تطاول العمر تهادى الأمد و الجملة استدراك عن النفى فى قوله: **«وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ»**، و المعنى: ما كنت حاضرا هناك شاهدا لما جرى فيه و لكننا أوجدنا أجيالا بعده فتمادى بهم الأمد ثم أنزلنا عليك قصته و خبر نزول الكتاب عليه ففى الكلام إيجاز بالحذف لدلاله المقام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الثاوي المقيم يقال: ثوى فى المكان إذا أقام فيه، و الضمير فى «عَلَيْهِمْ» لمشركى مكه الذى كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليهم آيات الله التى تقصص ما جرى على موسى عليه السلام فى مدين زمن كونه فيه.

و قوله: ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ استدراك من النفى فى صدر الآيه.

و المعنى: و ما كنت مقيما فى أهل مدين-و هم شعيب و قومه-مشاهدا لما جرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصه لخبره هناك و لكننا كنا مرسلين لك الى قومك موحين بهذه الآيات اليك لتتلوها عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ﴾ الى آخر الآيه؛ الظاهر من مقابله الآيه لقوله السابق: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعُزْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا﴾ الخ؛ أن المراد بهذا النداء ما كان من الشجره فى الليله التى آنس فيها من جانب الطور نارا.

و قوله: ﴿وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ﴾ الخ؛ استدراك عن النفى السابق، و الظاهر أن «رَحِمَهُ» مفعول له، و الالتفات عن التكلم بالغير الى الغيبه فى قوله: «مِنْ رَبِّكَ» للدلاله على كمال عنايته تعالى به صلى الله عليه وآله وسلم.

و قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوه النبويه أو هم و من يقارنهم من آبائهم فإن العرب خلت فيهم رسل منهم كهود و صالح و شعيب و إسماعيل عليهم السلام.

و المعنى: و ما كنت حاضرا فى جانب الطور إذ نادينا موسى و كلمناه و اخترناه للرساله حتى تخبر عن هذه القصة إخبار الحاضر المشاهد و لكن لرحمه منا أخبرناك بها لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا﴾

الخ؛ المراد بما قدمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد والعمل بدليل ذيل الآيه، والمراد بالمصيبة التي تصيبهم أعم من مصيبه الدنيا والآخرة فإن الإعراض عن الحق بالكفر والفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهية في الدنيا كما يستتبعها في الآخرة، وقد تقدم بعض الكلام فيه في ذيل قوله: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** (الأعراف ٩٦) وغيره.

وقوله: **فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ مِنَّا رَسُولًا** ما تقدمه على ما تقدمه على تقديم عدم إرسال الرسول وجواب لولا- محذوف لظهوره و التقدير: ولما أرسلنا اليهم رسولاً.

و محصل المعنى: أنه لو لا أنه تكون لهم الحجة علينا على تقدير عدم إرسال الرسول وأخذهم بالعذاب بما قدمت أيديهم من الكفر والفسوق لما أرسلنا اليهم رسولاً- لكنهم قولون ربنا لولا- أرسلت إلينا رسولاً فتتبع آياتك التي يتلوها علينا ونكون من المؤمنين.

قوله تعالى: **فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ** الخ؛ أي فأرسلنا اليهم الرسول بالحق و أنزلنا الكتاب فلما جاءهم الحق من عندنا و الظاهر أنه الكتاب النازل على الرسول و هو القرآن النازل على النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و المراد بقولهم: **لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ** أي لو لا أوتي النبي صلى الله عليه و آله و سلم مثل التوراه التي أوتيها موسى عليه السلام، و كأنهم يريدون به أن ينزل القرآن جملة واحده كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً** (الفرقان / ٣٢).

و قد أجاب الله عن قولهم بقوله: **«أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا»** يعنون القرآن و التوراه **«وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ»**. و الفرق بين القولين أن الأول كفر بالكتابين و الثاني كفر بأصل النبوه و لعله الوجه لتكرار **«قَالُوا»** في الكلام.

قوله تعالى: **قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ**

لِلَّذِينَ تَفْرِيعَ عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ وَ التَّوْرَةِ سَحْرِينَ تَظَاهِرًا، وَ لَا- يَصِحُّ هَذَا التَّفْرِيعُ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ النَّاسِ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ يَهْدِيهِمْ وَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ إِذَا كَانَا سَحْرِينَ بَاطِلِينَ كَانَ الْحَقُّ غَيْرَهُمَا، وَ هُوَ كَذَلِكَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ بِقَوْلِهِ: «وَلَوْ لَا أَنْ تَصَّيْبُهُمْ مُصَيَّبَةٌ» الخ؛ أَنْ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ وَ يَرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولَ، وَ لَذَلِكَ أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَطَالِبَهُمْ بِكِتَابٍ غَيْرَهُمَا هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا لِيَتَّبِعَهُ.

ثُمَّ الْكِتَابَانِ لَوْ كَانَا سَحْرِينَ تَظَاهِرًا كَانَ بَاطِلِينَ مُضِلِّينَ لَا هَدَى فِيهِمَا حَتَّى يَكُونَ غَيْرَهُمَا مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي يَأْتُونَ بِهِ أَهْدَى مِنْهُمَا- لِاسْتِزْمَارِ صَيْغِهِ التَّفْضِيلِ اشْتِرَاكَ الْمَفْضُلِ وَ الْمَفْضُولِ عَلَيْهِ فِي أَصْلِ الْوَصْفِ- لَكِنَّ الْمَقَامَ لَمَّا كَانَ مَقَامَ الْمَحَاجَةِ ادْعَى أَنْ الْكِتَابَيْنِ هَادِيَانِ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِمَا فِي الْهَدَايَةِ فَإِنْ لَمْ يَقْبَلِ الْخَصْمُ ذَلِكَ فَلِيَأْتِ بِكِتَابٍ يَزِيدُ عَلَيْهِمَا فِي مَعْنَى مَا يَشْتَمَلَانِ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ الْوَاقِعِ فَيَكُونُ أَهْدَى مِنْهُمَا.

وَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَ إِنْ كَانَ يَصْرِّحُ بِتَسْرُّبِ التَّحْرِيفِ وَ الْخَلَلِ فِي التَّوْرَةِ الْحَاضِرَةِ وَ ذَلِكَ لَا يِلَاقِي عَدَّهَا كِتَابَ هَدَى بِقَوْلِ مَطْلُوقِ لَكِنَّ الْكَلَامَ فِي التَّوْرَةِ الْوَاقِعِيَةِ النَّازِلَةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ هِيَ الَّتِي يَصَدِّقُهَا الْقُرْآنُ.

عَلَى أَنْ مَوْضُوعَ الْكَلَامِ هُمَا مَعَا وَ الْقُرْآنُ يَقُومُ التَّوْرَةَ الْحَاضِرَةَ بَيَانًا مَا فِيهَا مِنَ الْخَلَلِ فَهِيَ مَعَا هَدَى لَا كِتَابَ أَهْدَى مِنْهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَإِنْ لَمْ يَشِ تَجِيبُوا لِمَكِّ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْاسْتِجَابَةُ وَ الْإِجَابَةُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، قَالَ فِي الْكَشَافِ: هَذَا الْفِعْلُ يَتَّعَدَى إِلَى الدَّعَاءِ بِنَفْسِهِ وَ إِلَى الدَّعَايِ بِاللَّامِ، وَ يَحْذَفُ الدَّعَاءُ إِذَا عَدَّى إِلَى الدَّعَايِ فِي الْغَالِبِ فَيَقَالُ: اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ أَوْ اسْتَجَابَ لَهُ، وَ لَا يَكَادُ يُقَالُ: اسْتَجَابَ لَهُ دَعَاءَهُ. انْتَهَى.

فَقَوْلُهُ: فَإِنْ لَمْ يَشِ تَجِيبُوا لِمَكِّ تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِهِ: «فَعَلُّ فَعَاتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ» أَيْ فَإِنْ قَلَّتْ لَهُمْ كَذَا وَ كَلَّفْتَهُمْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَأْتُوا بِكِتَابٍ هُوَ أَهْدَى مِنَ الْقُرْآنِ

والتوراه و تعین أن لا هدى أتم و أكمل من هداهما و هم مع ذلك يرمونها بالسحر و يعرضون عنهما فاعلم انهم ليسوا فى طلب الحق و لا- بصدد اتباع ما هو صريح حجه العقل و إنما يتبعون أهواءهم و يدافعون عن مشتبهات طابعهم بمثل هذه الأباطيل «سِحْرَانِ تَظَاهَرَا» «إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَّ نَ» .

و يمكن أن يكون المراد بقوله: «أَتَمَّا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ» انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدي منهما و هم غير مؤمنين بهما فاعلم أنهم إنما يبنون سنه الحياه على اتباع الأهواء و لا يعتقدون بأصل النبوه و أن لله دينا سماويا نازلا عليهم من طريق الوحي و عليهم ان يتبعوه و يسلكوا مسلك الحياه بهدى ربهم، و ربما أيد هذا المعنى قوله بعد: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» الخ.

و قوله: «مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» استفهام إنكارى و المراد به استنتاج انهم ضالون، و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» تعليل لكونهم ضالين باتباع الهوى فإن اتباع الهوى إغراض عن الحق و انحراف عن صراط الرشده و ذلك ظلم و الله لا يهدى القوم الظالمين و غير المهتدى هو الضال.

و محصّل الحجه انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدي منهما و ليسوا مؤمنين بهما فهم متبعون للهوى، و متبع الهوى ظالم و الظالم غير مهتد و غير المهتدى ضال فهم ضالون.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» التوصيل تفعليل من الوصل يفيد التكرير كالقطع و التقطيع و القتل و التقتيل، و الضمير لمشركى مكه و المعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولا بعضه ببعض: الآية بعد الآية، و السوره إثر السوره من وعد و وعيد و معارف و أحكام و قصص و عبر و حكم و مواظ لعلم يتذكرون.

قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ» الضميران للقرآن و قيل: للنبي صلى الله عليه و آله و سلم. و الأول أوفق للسياق، و فى الآية و ما بعدها مدح طائفه من مؤمنى

أهل الكتاب بعد ما تقدم فى الآيات السابقه من ذم المشركين من أهل مكه.

و سياق ذيل الآيات يشهد على أن هؤلاء الممدوحين طائفه خاصه من أهل الكتاب آمنوا به فلا يعبأ بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم.

قوله تعالى: وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا الْحَقُّ فِي «الْحَقِّ» للعهد والمعنى و إذا يقرأ القرآن عليهم قالوا: آمنا به إنه الحق الذى نعده من ربنا فإنه عرفناه من قبل.

و قوله: إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ تعليل لكونه حقا معهودا عندهم أى إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذى يدعو اليه و يسميه إسلاما.

قوله تعالى: أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ الْحَقُّ فِي الآيه وعد جميل لهم على ما فعلوا و مدح لهم على حسن سلوكهم و مداراتهم مع جهله المشركين و لذا كان الأقرب الى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابهم و أجر الإيمان بالقرآن و صبرهم على الإيمان بعد الايمان بما فيهما من كلفه مخالفه الهوى.

و قوله: وَيَدْرُؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ الْحَقُّ؛ الدرء الدفع، و المراد بالحسنه و السيئه قيل: الكلام الحسن و الكلام القبيح، و قيل: العمل الحسن و السيئ و هما المعروف و المنكر، و قيل: الخلق الحسن و السيئ و هما الحلم و الجهل، و سياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى الى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمداراه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ الْحَقُّ؛ المراد باللغو لغو الكلام بدليل تعلقه بالسمع، و المراد سقط القول الذى لا- ينبغى الاشتغال به من هذر أو سبّ و كل ما فيه خشونه، و لذا لما سمعوه أعرضوا عنه و لم يقابلوه بمثله و قالوا: لنا أعمالنا و لكم أعمالكم و هو متاركة، و قوله: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أى أمان

منا لكم، وهو أيضا متاركة و توديع تكرما كما قال تعالى: «وَ إِذَا خَاطَبْتَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» .

وقوله: لا- تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ أَي لا نطلبهم بمعاشره و مجالسه، و فيه تأكيد لما تقدمه، و هو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابلة السيئ بالسيئ.

قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ المراد بالهدايه الإيصال الى المطلوب و مرجعه الى إفاضه الإيمان على القلب و معلوم أنه من شأنه تعالى لا- يشاركه فيه أحد، و ليس المراد بها إراءه الطريق فإنه من وظيفه الرسول لا معنى لنفيه عنه، و المراد بالاهتداء قبول الهدايه.

لما بين في الآيات السابقه حرمان المشركين و هم قوم النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم من نعمه الهدايه و ضلالهم باتباع الهوى و استكبارهم عن الحق النازل عليهم و إيمان أهل الكتاب به و اعترافهم بالحق ختم القول فى هذا الفصل من الكلام بأن أمر الهدايه الى الله لا اليك يهدى هؤلاء و هم من غير قومك الذين تدعوهم و لا يهدى هؤلاء و هم قومك الذين تحب اهتداءهم و هو أعلم بالمهتدين (١).

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٥٧ الى ٧٥]

اشاره

وَ قَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهَيْدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَ أَهْلِهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَ مَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ زِينَتُهَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَ فَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَ يَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَ يَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْחَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمِدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمِدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَ يَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَ نَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

١-١) القصص ٤٣-٥٦: بحث روائي في فضل محمد صلى الله عليه وآله وسلم و امته؛ ايمان أبي طالب.

قوله تعالى: وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ التخطف الاختلاس بسرعه، وقيل الخطف و التخطف الاستلاب من كل وجه، و كأن تخطفهم من أرضهم استعاره أريد به القتل و السبي و نهب الأموال كأنهم و ما يتعلق بهم من أهل و مال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم، و المراد بالأرض أرض مكة و الحرم بدليل قوله بعد: «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا» و القائل بعض مشركى مكة.

و الجملة مسوقه للاعتذار عن الإيمان بأنهم إن آمنوا تخطفتهم العرب من أرضهم أرض مكة لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم و رفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقيه أصل الدعوه و أن الكتاب بما يشتمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله

و الإيمان به، و لهذا عبّر بقوله: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ» و لم يقل: إن نتبع كتابك أو دينك أو ما يقرب من ذلك.

و قوله: أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا قيل: التمكين مضمّن معنى الجعل و المعنى أو لم نجعل لهم حرماً آمناً ممكنين إياهم، و قيل: حرماً منصوباً على الظرفية و المعنى: أو لم نمكّن لهم فى حرم، و «آمناً» صفة «حَرَمًا» أى حرماً ذا أمن، و عدّ الحرم ذا أمن - و المتلبّس بالأمن أهله - من المجاز فى النسبه، و الجملة معطوفه على محذوف و التقدير أو لم نعصمهم و نجعل لهم حرماً آمناً ممكنين إياهم.

و هذا جواب أول منه تعالى لقولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا» و محصّيه: أنا مكنّاهم فى أرض جعلناها حرماً ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم أن يتخطفوا منها إن آمنوا.

و قوله: يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ الْجَبَايِهِ الْجَمْع، و الكل للتكثير لا للعموم لعدم إرادته العموم قطعاً، و المعنى: يجمع الى الحرم ثمرات كثير من الأشياء، و الجملة صفة لحرماً جىء بها لما عسى أن يتوهم انهم يتضررون إن آمنوا بانقطاع الميره.

و قوله: رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا مَفْعُولٌ مطلق أو حال من ثمرات، و قوله: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» استدراك عن جميع ما تقدم أى إنا نحن حفظناهم فى أمن و رزقناهم من كل الثمرات لكن أكثرهم جاهلون بذلك فيحسبون أن الذى يحفظهم من تخطف العرب هو شركهم و عبادتهم الأصنام.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا الى آخر الآيه؛ البطر الطغيان عند النعمه، و «مَعِيشَتَهَا» منصوب بنزع الخافض أى و كم أهلكتنا من قريه طغت فى معيشتها.

و قوله: فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا أى إن مساكنهم

الخرابه الخاويه على عروشها مشهوده لكم نصب أعينكم باقيه على خرابها لم تعمر و لم تسكن بعد هلاكهم إلا قليلا منها.

و بذلك يظهر أن الأنسب كون «إِلَّا قَلِيلًا» استثناء من «مَسَاكِينُهُمْ» لا من قوله: «مِنْ بَعْدِهِمْ» بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا إذا لا يسكنها إلا المارّه يوما أو بعض يوم في الأسفار.

و قوله: «وَ كَذًا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم، و في الجملة أعنى قوله: «كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» عنايه لطيفه فإنه تعالى هو المالك لكل شىء ملكا حقيقيا مطلقا فهو المالك لمساكنهم و قد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم بإهلاكهم و بقيت بعدهم لا مالك لها إلا هو فسمى نفسه وارثا لهم بعنايه أنه الباقي بعدهم و هو المالك لما كان بأيديهم كأن ملكهم الاعتبارى انتقل اليه و لا- انتقال هناك بالحقيقه و إنما ظهر ملكه الحقيقى بزوال ملكهم الاعتبارى.

و الآيه جواب ثان منه تعالى لقولهم: «إِنْ تَبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا» و محصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا- يضمن لكم البقاء و لا يحفظ لكم أرضكم و التمتع فيها كما تشاءون فكم من قريه بالغه فى التمتع ذات أشر و بطر أهلكتنا أهلها و بقيت مساكنهم خاليه غير مسكونه لا وارث لها إلا الله.

قوله تعالى: «وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا أَمْ الْقُرَىٰ هِيَ أَصْلُهَا وَ كَبِيرَتُهَا الَّتِي تَرْجِعُ إِلَيْهَا وَ فِي الْآيَةِ بَيَانُ السَّنَةِ الْإِلَهِيَةِ فِي عَذَابِ الْقُرَىٰ بِالْإِسْتِئْصَالِ وَ هُوَ أَنْ عَذَابَ الْإِسْتِئْصَالِ لَا يَقَعُ مِنْهُ تَعَالَىٰ إِلَّا بَعْدَ إِتْمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ رَسُولٍ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ، وَ إِلَّا بَعْدَ كَوْنِ الْمَعْذِبِينَ ظَالِمِينَ بِالْكَفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ تَكْذِيبِ رَسُولِهِ.

قوله تعالى: «وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْخ؛ الْإِيتَاءُ: الْإِعْطَاءُ

و «مِنْ شَيْءٍ» بيان لما لافاده العموم أى كل شىء أوتيموه،و المتاع ما يتمتع به و الزينه ما ينضم الى الشىء ليفيده جمالا و حسنا،و الحياه الدنيا الحياه المؤجله المقطوعه التى هى أقرب الحياتين منا و تقابلها الحياه الآخره التى هى خالده مؤبده،و المراد بما عند الله الحياه الآخره السعيده التى عند الله و جواره و لذا عدّ خيرا و أبقى.

و المعنى: أن جميع النعم الدنيويه التى أعطاكم الله إياها متاع و زينه زينت بها هذه الحياه الدنيا التى هى أقرب الحياتين منكم و هى بائده فانیه و ما عند الله من ثوابه فى الدار الآخره المترتب على اتباع الهدى و الإيمان بآيات الله خير و أبقى فينبغى أن تؤثره على متاع الدنيا و زينتها أ فلا تعقلون.

و الآيه جواب ثالث عن قولهم: «إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا» محصله لنسلم انكم إن اتبعتم الهدى تخطفكم العرب من أرضكم لكن الذى تفقدونه هو متاع الحياه الدنيا و زينتها الفانيه فما بالكم تؤثرونه على ما عند الله من ثواب اتباع الهدى و سعاده الحياه الآخره و هى خير و أبقى.

قوله تعالى: أَمْ مَنْ وَعَدْنَا وَغَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ الآيه؛الى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآيه السابقه-و هو أن إثارة اتباع الهدى أولى من تركه و التمتع بمتاع الحياه الدنيا-بيان آخر فيه مقايسه حال من اتبع الهدى و ما يلقاه من الوعد الحسن الذى وعده الله،من حال من لم يتبعه و اقتصر على التمتع من متاع الحياه الدنيا و سيستقبله يوم القيامة الإحضار و تبرى آلهته منه و عدم استجابتهم لدعوته و مشاهده العذاب و السؤال عن إجابتهم الرسل.

فقوله: أَمْ مَنْ وَعَدْنَا وَغَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ الاستفهام إنكارى،و الوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفره و الجنه كما قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (المائدة ٩)، ولا يكذب وعده تعالى قال: أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (يونس ٥٥).

وقوله: كَمَنْ مَنَّعَهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أى وهو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتع بمتاعها، والدليل على هذا التقييد المقابلة بين الوعد و التمتع.

وقوله: ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أى للعذاب، او للسؤال و المؤاخذه و «ثُمَّ» للترتيب الكلامى و إتيان الجملة اسميه كما فيما يقابلها من قوله: «فَهُوَ لِأَقْبِهِ» للدلالة على التحقق.

قوله تعالى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ الشركاء هم الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا و كونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون اليهم بعض ما هو من شئونه تعالى كالعبادة و التدبير، و فى قوله: «يُنَادِيهِمْ» إشاره الى بعدهم و خذلانهم يومئذ.

قوله تعالى: قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا آلِهِمْ الذين يرونهم شركاء لله سبحانه صنفان صنف منهم عباد لله مكرمون كالملائكة المقربين و عيسى بن مريم عليه السلام، و صنف منهم كعتاه الجن و مدعى الالوهيه من الإنس كفرعون و نمرود و غيرهما و قد ألحق الله سبحانه بهم كل مطاع فى باطل كإبليس و قرناء الشياطين و أئمه الضلال كما قال: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ -الى أن قال- وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا (يس ٦٢)، و قال: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (الجاثية ٢٣)، و قال: اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُءُوبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (التوبة ٣١).

و الذين يشير اليهم قوله: «قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» هم من الصنف الثانى بدليل ذكرهم إغواءهم و تبريهم من عبادتهم و هؤلاء المشركون و إن كانوا أنفسهم أيضا ممن حق

عليهم القول كما يشير إليه قوله: حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (الم السجده ١٣)، و لكن المراد بهم فى الآيه المبحوث عنها المتبوعون منهم الذين ينتهى اليهم الشرك و الضلال.

و إيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسئولين أشاروا اليهم لعله للإشاره الى انهم ضلوا عنهم فى هذا الموقف كما فى قوله تعالى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ إِيْن شُرَكَائِي قَالُوا آذْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ (حم السجده ٤٨).

و قوله: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا اى هؤلاء-يشيرون الى المشركين-هم الذين أغويناهم و الجملة توطئه للجملة التاليه.

و قوله: أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا اى كانت غوايتهم بإغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنا غوينا باختيارنا من غير إلجاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير الإلجاء، و الدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن ابليس يومئذ اذ قال: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَ لَوْمُوا أَنفُسَكُمْ (إبراهيم ٢٢)، و قال حاكيا لتساؤل الظالمين و قرنائهم: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنْ لَدَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنْ كُنَّا غَاوِينَ (الصافات ٣٢)، أى ما كان ليصل اليكم منا و نحن غاؤون غير الغوايه.

و من هنا يظهر أن لقولهم: «أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا» معنى آخر، و هو أنهم اكتسبوا نظير الوصف الذى كان فينا غير أننا نتبرأ منهم حيث لم نلجئهم الى الغوايه ما كانوا يعبدوننا بالإلجاء.

و قوله: تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ تَبَرَّ مِنْهُمْ مطلقا حيث لم يكن لهم أن يلجئوهم و يسلبوا منهم الاختيار، و قوله: «مَا كَانُوا إِيْنَا يَعْجِدُونَ» اى بالإلجاء منا، أو لتبرأنا من أعمالهم فإن من تبرأ من عمل لم ينتسب اليه و الى هذا المعنى يثول قوله تعالى فى مواضع من كلامه فى وصف هذا

الموقف: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (الأنعام ٢٤/) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ (حم السجده ٤٨/) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانا تَعْبُدُونَ (يونس ٢٨/)، الى غير ذلك من الآيات فافهم.

و لكون كل من قوله «تبر أنا اليك» «ما كانوا إيانا يعبدون» فى معنى قوله: «أغويتناهم كما غويتنا» جىء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ المراد بشركائهم الآلهة التى كانوا شركاء لله بزعمهم و لذا أضافهم اليهم. و المراد بدعوتهم دعوتهم إياهم لينصروهم و يدفعوا عنهم العذاب و لذا قال: «وَ رَأُوا الْعَذَابَ» بعد قوله: «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» .

و قوله: لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ قيل: جواب لو محذوف لدلاله الكلام عليه و التقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أى اعتقدوا أن العذاب حق، و يمكن أن يكون لو للتمنى أى ليتهم كانوا يهتدون.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَنادِيهِمْ فَيَقُولُ مَا ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ معطوف على قوله السابق: «وَ يَوْمَ يَنادِيهِمْ» الخ؛ سئلوا أولاً: عن شركائهم و أمروا أن يستنصروهم، و ثانياً: عن جوابهم للمرسلين اليهم من عند الله.

و المعنى: ما ذا قلت فى جواب من أرسل اليكم من رسل الله فدعوكم الى الايمان و العمل الصالح؟

قوله تعالى: فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ العمى استعاره عن جعل الإنسان بحيث لا يهتدى الى خبر، و كان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى اليهم لا الى الأنباء لكن عكس الأمر فقيل: «فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ» للدلاله على أخذهم من كل جانب

و سدّ جميع الطرق و تقطع الأسباب بهم كما قال: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦/١)، فلسقوط الأسباب عن التأثير يومئذ لا تهتدى اليهم الأخبار و لا يجدون شيئا يعتذرون به للتخلص من العذاب.

و قوله: فَهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ تفرّج على عمى الأنبياء من قبيل تفرّج بعض أفراد العام عليه أى لا يسأل بعضهم بعضا ليعذّوا به عذرا يعتذرون به عن تكذيبهم الرسل و ردّهم الدعوه.

و قد فسّر صدر الآيه و ذيلها بتفاسير كثيره مختلفه لا جدوى فى التعرض لها فرأينا الصّفح عنها أولى.

قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ أى هذه حال من كفر و لم يرجع الى الله سبحانه فأما من رجع و آمن و عمل صالحا فمن المرجو أن يكون من المفلحين، و عسى - كما قيل - للتحقيق على عاده الكرام او للترجى من قبل التائب، و المعنى: فليتوقع الفلاح.

قوله تعالى: وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ الخيره بمعنى التخيّر كالطيره بمعنى التطيّر.

و الآيه جواب رابع عن قولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا» و الذى يتضمنه حجه قاطعه.

و الظاهر أن قوله: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» إشاره الى اختياره التكوينى فإن معنى إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شىء و لا يمنعه عما يشاءه و بعبارة أخرى لا يمتنع عن مشيته شىء لا بنفسه و لا بمانع يمنع و هذا هو الاختيار بحقيقه معناه، و قوله: «وَ يَخْتَارُ» إشاره الى اختياره التشريعى الاعتبارى و يكون عطفه على قوله: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» من عطف المسبب على سببه لكون التشريع و الاعتبار متفرعا على التكوين و الحقيقه.

و يمكن حمل قوله: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» على الاختيار التكويني وقوله: «وَ يَخْتَارُ» على الأعم من الحقيقة و الاعتبار لكن الوجه السابق أوجه، و من الدليل عليه كون المنفى فى قوله الآتى:

مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ هُوَ الْاِخْتِيَارُ الشَّرِيعِي الْعَبْتَارِي، و الاختيار المثبت فى قوله:

«وَ يَخْتَارُ» يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعى الاعتبارى.

و هذا هو المراد بقوله: «مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» أى لا- اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئاً من فعل أو ترك حتى يختاروا لأنفسهم ما يشاءون و إن خالف ما اختاره الله و الآيه قريه المعنى من قوله تعالى: «وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يُكَونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (الأ-حزاب ٣٦)»، و للقوم فى تفسير الآيه أقاويل مختلفه غير مجديه أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع الى المطولات.

و قوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» أى عن شركهم باختيارهم أصناما آلهه يعبدونها من دون الله.

و هاهنا معنى آخر أدق أى تنزه و تعالى عن شركهم بادعاء أن لهم خيره بالنسبه الى ما يختاره تعالى بقبوله أو رده فإن الخيره فهذا المعنى لا تتم إلا بدعوى الاستقلال فى الوجود و الاستغناء عنه تعالى و لا تتم إلا مع الاشتراك معه تعالى فى صفه الالوهيه.

و فى قوله: «وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ» التفات من التكلم بالغير الى الغيبه و النكته فيه تأييد النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تقويته و تطيب نفسه بإضافه صفه الرب اليه فإن معناه إن ما أرسله به من الحكم ماض غير مردود فلا خيره لهم فى قبوله و رده، و لأنهم لا يقبلون ربوبيته.

و فى قوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ» وضع الظاهر موضع المضمرة و النكته فيه إرجاع الأمر الى الذات المتعاليه التى هى المبدأ للتنزه و تعالى عن كل ما لا يليق بساحه قدسه فإنه تعالى يتصف بكل كمال و يتنزه عن كل نقص لأنه هو الله عز اسمه.

قوله تعالى: «وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ الْاِكْتِنَانَ الْاِخْفَاءِ»

و الإعلان الإظهار، و لكون الصدر يعدّ مخزنا للأسرار نسب الإكنان الى الصدور و الإعلان اليهم أنفسهم.

و لعل تعقيب الآيه السابقه بهذه الآيه للإشاره الى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لعلمه بما فى ظاهرهم و باطنهم من أوساخ الشرك و المعصيه فظهرهم بذلك بحكمته.

قوله تعالى: **وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ظاهر السياق أن الضمير فى صدر الآيه راجع الى «رَبُّكَ» فى الآيه السابقه، و الظاهر على هذا أن اللام فى اسم الجلاله للتلميح الى معنى الوصف، و قوله: **«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** تأكيد للحصر المستفاد من قوله: **«هُوَ اللَّهُ»** كأنه قيل: و هو الإله-المتصف وحده بالالوهيه-لا إله إلا هو.

و على ذلك فالآيه كالمتمم لبيان الآيه السابقه كأنه قيل: هو سبحانه مختار له أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده، و هو يعلم ظاهرهم و باطنهم فله أن يقضى عليهم أن يعبدوه وحده و هو الإله المستحق للعباده وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده.

و يكون ما فى ذيل الآيه من قوله: **«لَهُ الْحَمْدُ»** الخ؛ وجوها ثلاثة توجه كونه تعالى معبودا مستحقا للعباده وحده.

أما قوله: **لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَ الْآخِرَةِ** فلأن كل كمال موجود فى الدنيا و الآخره نعمه نازله منه تعالى يستحق بها جميل الثناء، و كل جميل من هذه النعم الموهوبه مترشح من كمال ذاتى من صفاته الذاتيه يستحق بها الثناء فله كل الثناء و لا يستقل شىء غيره بشىء من الثناء يثنى عليه به إلا و ينتهى اليه و العباده ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعباده وحده.

و أما قوله: **وَ لَهُ الْحُكْمُ** فلأنه سبحانه هو المالك على الإطلاق لا يملك غيره إلا ما ملكه إياه و هو الملك لما ملكه و هو سبحانه مالك فى مرحله التشريع و الاعتبار كما أنه مالك فى

مرحلة التكوين و الحقيقه، و من آثار ملكه أن يقضى على عبده و مملوكيه أن لا يعبدوا إلا إياه.

و أما قوله: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فلأن الرجوع للحساب و الجزاء و إذا كان هو المرجع فهو المحاسب المجازى و إذ كان هو المحاسب المجازى وحده فهو الذى يجب أن يعبد وحده و له دين يجب أن يتعبد به وحده.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ السرمد على فعلل بمعنى الدائم، و قيل: هو من السرد و الميم زائده و معناه المتتابع المطرد، و تقييده بيوم القيامه إذ لا ليل بعد يوم القيامه.

و قوله: مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَي من الإله الذى ينقض حكمه تعالى و يأتيكم بضياء تستضيئون به و تسعون فى طلب المعاش، هذا ما يشهد به السياق، و يجرى نظيره فى قوله الآتى: «مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ» الخ.

و تنكير «ضياء» يؤيد ما ذكر من الوجه، و قد أوردوا وجوها اخرى فى ذلك لا تخلو من تعسف.

و قوله: أَفَلَا تَسْمَعُونَ أَي سمع تفهم و تفكر حتى تتفكروا فتفهموا أن لا إله غيره تعالى.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَي تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعى للمعاش.

و قوله: أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَي إبصار تفهم و تذکر و إذ لم يبصروا و لم يسمعوا فهم عمى صم، و من اللطيف تذييل الآيتين بقوله: «أَفَلَا تَسْمَعُونَ» «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» و لعل آيه النهار خص بالإبصار لمناسبه ضوء النهار الإبصار و بقى السمع لآيه الليل و هو لا يخلو من

قوله تعالى: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» الآية؛ بمنزله نتيجة الحجج المذكوره فى الآيتين السابقتين سيقى بعد إبطال دعوى الخصم فى صورته الإخبار الابتدائى لثبوته من غير معارض.

وقوله: «لِتَسْكُنُوا فِيهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى جعل لكم الليل لتستريحوا فيه، وقوله: «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى جعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذى هو عطيته فرجوع «لِتَسْكُنُوا» و «لِتَبْتَغُوا» الى الليل و النهار بطريق اللف و النشر المرتب، وقوله: «وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» راجع اليهما جميعا.

وقوله: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» فى معنى قولنا: جعل لكم ذلك رحمه منه و فيه إشاره الى أن التكوين كالتسكون و الابتغاء و التشريع و هو هدايتهم الى الشكر من آثار صفة رحمته تعالى فافهم ذلك.

قوله تعالى: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» الآية التالىة إليها.

قوله تعالى: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» الآية؛ إشاره الى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة، و المراد بالشهيد شهيد الأعمال- كما تقدمت الإشاره اليه مرارا- و لا ظهور للآيه فى كونه هو النبى المبعوث الى الامه نظرا الى أفراد الشهيد و ذكر الامه إذ الامه هى الجماعه من الناس و لا ظهور و لا نصوصيه له فى الجماعه الذين أرسل اليهم نبى و إن كانت من مصاديقها.

وقوله: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» الآية؛ إشاره الى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة، و المراد بالشهيد شهيد الأعمال- كما تقدمت الإشاره اليه مرارا- و لا ظهور للآيه فى كونه هو النبى المبعوث الى الامه نظرا الى أفراد الشهيد و ذكر الامه إذ الامه هى الجماعه من الناس و لا ظهور و لا نصوصيه له فى الجماعه الذين أرسل اليهم نبى و إن كانت من مصاديقها.

وقوله: فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أى غاب عنهم زعمهم الباطل أن لله سبحانه شركاء فعلموا عند ذلك أن الحق فى الالوهيه لله وحده فالمراد بالضلال الغيبه على طريق الاستعاره. كذا فسروه، فى الكلام تقديم و تأخير و الأصل فضل عنهم ما كانوا يفترون فعلموا أن الحق لله.

و على هذا فقوله: «أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ» نظير ما يقال فى القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا فى حق يدعيه كل لنفسه: إن الحق لفلان لا لفلان كأنه تعالى يخاصم المشركين حيث يدعون أن الالوهيه بمعنى المعبوديه حق لشركائهم فيدعى تعالى أنه حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضلل عنهم البرهان فيعلمون عندئذ أن هذا الحق لله فالالوهيه حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقا لغيره تعالى فهو حق له.

و من الممكن أن يكون «الْحَقُّ» فى قوله: «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ» مصدرا فيرجع معنى الجملة الى معنى قوله: وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور ٢٥)، فكون الحق لله هو كونه تعالى حقا إن أريد به الحق فى ذاته أو كونه منتهيا اليه قائما به إن أريد به غيره، كما قال تعالى:

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ (آل عمران ٦٠)، و لم يقل: الحق مع ربك.

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٧٦ الى ٨٤]

اشاره

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ جَمْعًا وَ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَمَدُّو حِطٌّ عَظِيمٌ (٧٩) وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ لَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسِفْنَا بِهِ وَ بِهَدَارِهِ الْأَرْضِ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لَا فَسَادًا وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

قوله تعالى: إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ

ص: ٧١٠

الْكَنْزِ ۖ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتُنَوَّى بِالْعُضْبِ بِهِ أَوْلَى الْقُوَّةِ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْبَغَى طَلَبُ الْعَتْوِ بِغَيْرِ حَقِّ. قَالَ: وَ الْمَفَاتِحُ جَمْعُ مَفْتَحٍ وَ الْمَفَاتِحُ جَمْعُ مَفْتَحٍ وَ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَ هُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا يَفْتَحُ بِهِ الْأَغْلَاقَ. قَالَ: وَ نَاءٌ بِحَمَلِهِ يَنْوَأُ نَوَاءً إِذَا نَهَضَ بِهِ مَعَ ثِقَلِهِ عَلَيْهِ. وَ أَنْتَهَى. وَ قَالَ غَيْرُهُ: نَاءٌ بِهِ الْحَمْلُ إِذَا أَثْقَلَهُ حَتَّى أَمَالَهُ وَ هُوَ الْأَوْفَقُ لِلآيَةِ.

وَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ أَيْضًا: الْعَصْبَةُ الْجَمَاعَةُ الْمَلْتَفُ بِعُضْوَيْهَا بَعْضُهَا. وَ قَالَ: وَ اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى الْعَصْبَةِ فَقِيلَ: مَا بَيْنَ عَشْرَةٍ إِلَى خَمْسَةِ عَشْرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَ قِيلَ: مَا بَيْنَ عَشْرَةٍ إِلَى أَرْبَعِينَ عَنْ قَتَادَةَ، وَ قِيلَ: أَرْبَعُونَ رَجُلًا عَنْ أَبِي صَالِحٍ (١)، وَ قِيلَ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَ قِيلَ: إِنَّهُمْ الْجَمَاعَةُ يَتَعَصَّبُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ. وَ أَنْتَهَى. وَ يَزِيدُ غَيْرَ الْقَوْلَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ قَوْلُ إِخْوَةِ يُوسُفَ وَ نَحْنُ عُضْبَةٌ (يُوسُفَ ٨)، وَ هُمْ تِسْعَةٌ نَفَرٍ.

وَ الْمَعْنَى: إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَطَلَبَ الْعَتْوَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ حَقِّ وَ أَعْطَيْنَاهُ مِنَ الْكَنْزِ مَا إِنْ مَفَاتِحِهِ لَتَثْقُلَ الْجَمَاعَةَ ذَوَى الْقُوَّةِ، وَ ذَكَرَ جَمْعَ مِنَ الْمَفْسَرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَفَاتِحِ الْخَزَائِنَ، وَ لَيْسَ بِذَاكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ فَسِرَّ الْفَرِحَ بِالْبَطْرِ وَ هُوَ لَا زِمَ الْفَرِحَ وَ السَّرُّ الْمَفْرُطُ يَمْتَاعُ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَلُّقٍ شَدِيدٍ بِالدُّنْيَا يَنْسَى الْآخِرَةَ وَ يورثُ الْبَطْرَ وَ الْأَشْرَ، وَ لَذَا قَالَ تَعَالَى: وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (الْحَدِيدُ ٢٣).

وَ لَذَا أَيْضًا عِلَلُ النَّهْيِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ ابْتَغِ فِيْمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أَيْ وَ اطْلُبْ فِيْمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنْ مَالِ الدُّنْيَا تَعْمِيرَ الدَّارِ الْآخِرَةِ بِإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ وَضَعَهُ فِيْمَا فِيهِ

ص: ٧١١

مرضاته تعالى.

وقوله: وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا أَى لَا تترك ما قسم الله لك و رزقك من الدنيا ترك المنسى و اعمل فيه لآخرتك لأن حقيقه نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الذى يبقى له.

وقوله: وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أَى أنفقه لغيرك إحسانا كما آتاكه الله إحسانا من غير أن تستحقه و تستوجهه، وهذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله: «وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» على أول الوجهين السابقين و متممه له على الوجه الثانى.

وقوله: وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ أَى لا تطلب الفساد فى الأرض بالاستعانه بما آتاك الله من مال و ما اكتسبت به من جاه و حشمه إن الله لا يحب المفسدين لبناء الخلقه على الصلاح و الإصلاح.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ألى آخر الآيه؛ لا شك أن قوله:

«إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي» جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه و نصحوه به و كان كلامهم مبنيًا على أن ماله من الثروه إنما آتاه الله إحسانا اليه و فضلا منه من غير استيجاب و استحقاق فيجب عليه أن يتغى فيه الدار الآخرة و يحسن به الى الناس و لا يفسد فى الأرض بالاستعلاء و الاستكبار و البطر.

فأجاب بنفى كونه إنما أوتيه إحسانا من غير استحقاق و دعوى أنه إنما أوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال و تدبيره و ليس عند غيره ذلك، و إذا كان ذلك باستحقاق فقد استقل بملكه و له أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء و يستدره فى أنواع التنعم و بسط السلطه و العلو و البلوغ الى الآمال و الأمانى.

و فى قوله: إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ من غير إسناد الإيتاء الى الله سبحانه كما فى قول الناصحين له «فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ» نوع إعراض عن ذكره تعالى و إزراء بساحه كبريائه.

ص: ٧١٢

وقوله: أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً استفهام توبيخي و جواب عن قوله: «إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلِيٌّ عِلْمٌ عِنْدِي» بأيسر ما يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذي اقتنى به المال و هو يبقيه له و يمتعه منه هو علمه الذي عنده و هو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوه و أكثر جمعا، و كان ما له من القوه و الجمع عن علم عنده على زعمه، و قد أهلكه الله بجرمه، فلو كان العلم الذي يغتر و يتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتع منه و لم يكن بإيتاء الله فضلا و إحسانا لنجاهم من الهلاك و متعهم من أموالهم و دافعوا بقوتهم و انتصروا بجمعهم.

□ و قوله: وَلَا يُشَدُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ظاهر السياق أن المراد به بيان السنه الإلهيه فى تعذيب المجرمين و إهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إمهالهم و الإصغاء الى ما لفقوه من المعاذير أو هيئوه من التذلل و الإنابه ليرجو بذلك النجاه كما أن أولى الطول و القوه من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثم العذاب، و ربما صرف المجرم بما لفقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكن الله سبحانه لعلمه بحقيقه الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم و إنما يقضى عليهم قضاء فيأتيهم عذاب غير مردود.

□ قوله تعالى: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ الحظ هو النصيب من السعاده و البخت.

□ و قوله: يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أى يجعلونها الغايه المطلوبه فى مساعيهم ليس لهم وراءها غايه فهم على جهل من الآخره و ما أعد الله لعباده فيها من الثواب قال تعالى:

□ فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم / ٣٠) و لذلك عدوا ما اوتيه قارون من المال سعاده عظيمه له من دون قيد و شرط.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا خَيْرٌ مِنَ الْوَيْلِ الْهَلَاكِ وَيَسْتَعْمَلُ الدُّعَاءَ بِالْهَلَاكِ وَزَجَرَ عَمَّا لَا يَرْضَى، وهو فى المقام زجرا عن التمنى.

و القائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجهلة الذين تمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتى قارون و عدوه سعاده عظيمه على الإطلاق، و مرادهم أن ثواب الله خير لمن آمن و عمل صالحا مما أوتى قارون فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنوه.

و قوله: وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ التلقي التفهم و الأخذ، و الضمير -على ما قالوا- للكلمه المفهومه من السياق، و المعنى: و ما يفهم هذه الكلمه -و هى قولهم:

ثواب الله خير لمن آمن و عمل صالحا- إلا الصابرون.

و الصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد و على الطاعات و عن المعاصى، و وجه كونهم هم المتلقين لهذه الكلمه أو السيره أو طريقه أن التصديق بكون ثواب الآخره خيرا من الحظ الدنيوى -و هو لا ينفك عن الإيمان و العمل الصالح الملازمين لترك كثير من الأهواء و الحرمان عن كثير من المشتهيات- لا يتحقق إلا ممن له صفة الصبر على مراره مخالفه الطبع و عصيان النفس الأماره.

قوله تعالى: فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الضميران لقارون و الجملة متفرعه على بغيه.

و قوله: فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ الفئه الجماعه يميل بعضهم الى بعض، و فى النصر و الانتصار معنى المنع و الامتناع، و محصل المعنى: فما كان له جماعه يمنعونه العذاب و ما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظن أن الذى يجلب اليه الخير و يدفع عنه الشر هو قوته و جمعه اللذان اكتسبهما بعلمه فلم يقه جمعه و لم تفده قوته من دونه الله و بان أن الله سبحانه هو الذى آتاه ما آتاه.

فالفاء فى قوله: «فَمَا كَانَ» لتفريع الجملة على قوله: «فَخَسَفْنَا بِهِ» الخ؛ أى فظهر بخسفننا به و بداره الأرض بطلان ما كان يدّعيه لنفسه من الاستحقاق و الاستغناء عن الله سبحانه و أن الذى يجلب اليه الخير و يدفع عنه الشر هو قوته و جمعه و قد اكتسبهما بنبوغه العلمى.

قوله تعالى: وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ الخ؛ ذكروا أن «وى» كلمة تندم و ربما تستعمل للتعجب و كلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد و إن كان التندم أسبق الى الذهن.

و قوله: وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ اعتراف منهم بطلان ما كان يزعمه قارون و هم يصدّقونه أن القوه و الجمع فى الدنيا بنبوغ الإنسان فى علمه و جوده تدييره و لا بفضل من الله سبحانه بل سعه الرزق و ضيقه بمشيئه من الله.

و المقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشك و التردد لكنهم إنما استعملوا فى كلامهم «وَيَكَآئُ» للدلالة على ابتداء ترددهم فى قول قارون و قد قبلوه و صدّقوه من قبل و هذه صنعه شائعه فى الاستعمال.

و الدليل على ذلك قولهم بعده: «لَوْ لَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا» على طريق الجزم و التحقيق.

و قوله: وَيَكَآئُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تندم منهم ثانيا و انتزاع مما كان لازم تمنيههم مكان قارون.

قوله تعالى: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لَا فَسَاداً وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ الآيه؛ و ما بعدها بمنزله النتيجة المستخرجه من القصه.

و قوله: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ الإشاره إليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها و بهائها

و علو مكانتها و هو الشاهد على أن المراد بها الدار الآخرة السعيدة و لذا فسروها بالجنة.

و قوله: نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا أَي نخصها بهم و إرادته العلو هو الاستعلاء و الاستكبار على عباد الله و إرادته الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى فإن الله بنى شرائعه التي هي تكاليف للإنسان على مقتضيان فطرته و خلفته و لا تقتضى فطرته إلا ما يوافق النظام الأحسن الجارى فى الحياه الإنسانيه الأرضيه فكل معصيه تقضى الى فساد فى الأرض بلا واسطه أو بواسطه، قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (الروم ٤١).

و من هنا ظهر أن إرادته العلو من مصاديق إرادته الفساد و إنما أفردت و خصت بالذكر اعتناء بأمرها، و محصل المعنى: تلك الدار الآخرة السعيدة نخصها بالذين لا يريدون فسادا فى الأرض بالعلو على عباد الله و لا بأى معصيه اخرى.

و الآيه عامه يخصصها قوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (النساء ٣١).

و قوله: وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أَي العاقبه المحموده الجميله و هى الدار الآخرة السعيدة أو العاقبه السعيدة فى الدنيا و الآخرة لكن سياق الآيتين يؤيد الأول.

قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا أَي لأنها تتضاعف له بفضل من الله، قال تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا (الأنعام ١٦٠).

قوله تعالى: وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَي لا يزيدون على ما عملوا شيئا و فيه كمال العدل، كما أن فى جزاء الحسنه بخير منها كمال الفضل.

و كان مقتضى الظاهر فى قوله: «فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا» الخ؛ الإضمار و لعل فى وضع الموصول موضع الضمير إشاره الى أن هذا الجزاء إنما هو لمن أكثر من اقتراف المعصيه

و أحاطت به الخطيئه كما يفيدده جمع السيئات، وقوله: «كَانُوا يَعْمَلُونَ» الدال على الإصرار و الاستمرار، و أما من جاء بالسيئه و الحسنه فمن المرجو أن يغفر الله له كما قال: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (التوبه ١٠٢).

و ليعلم أن الملاك في الحسنه و السيئه على الأثر الحاصل منها عند الإنسان و بها تسمى الأعمال حسنه أو سيئه و عليها-لا على متن العمل الخارجى الذى هو نوع من الحركة-يثاب الانسان أو يعاقب، قال تعالى: وَ إِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ (البقره ٢٨٤) (١).

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٨٥ الى ٨٨]

اشاره

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَ مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَ لَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَ أَدْعُ إِلَيَّ رَبِّكَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَ لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

ص: ٧١٧

١- ١). القصص ٧٦-٨٤: بحث روائى حول قصه موسى و قارون.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الفرض -على ما ذكره- بمعنى الإيجاب فمعنى «فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» أى أوجب عليك العمل به أى بما فيه من الأحكام ففيه مجاز فى النسبه.

و أحسن منه قول بعضهم: إن المعنى أوجب عليك تلاوته و تبليغه و العمل به و ذلك لكونه أوفق لقوله: «لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ» بما سيحىء من معناه.

و قوله: لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ المعاد اسم مكان أو زمان من العود و قد اختلفت كلماتهم فى تفسير هذا المعاد فقيل: هو مكه فالآيه وعد له أن الله سيرده بعد هجرته الى مكه ثانيا، و قيل: هو الموت، و قيل: هو القيامة، و قيل: هو المحشر، و قيل: هو المقام المحمود و هو موقف الشفاعة الكبرى، و قيل: هو الجنه، و قيل: هو بيت المقدس، و هو فى الحقيقه وعد بمعراج ثان يعود فيه الى بيت المقدس بعد ما كان دخله فى المعراج الأول: و قيل: هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جل الأقوال السابقه أو كلها.

و الذى يعطيه التدبر فى سياق آيات السوره هو أن تكون الآيه تصريحاً بما كانت القصه المسروده فى أول السوره تلوح اليه ثم الآيات التاليه لما تؤيده.

فمعنى الآيه؛ أن الذى فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس و تبلغه و تعملوا به سيردك و يصيرك الى محل تكون هذه الصيروره منك اليه عوداً و يكون هو معاداً لك كما فرض التوراه على موسى و رفع به قدره و قدر قومه، و من المعلوم أنه صلى الله عليه و آله و سلم كان بمكه على ما فيها من الشده و الفتنة ثم هاجر منها ثم عاد إليها فاتحا مظفراً و ثبتت قواعد دينه و استحكمت أركان ملته و كسرت الأصنام و انهدم ببيان الشرك و المؤمنون هم الوارثون للأرض بعد ما كانوا أذلاء معذيين.

و في تنكير قوله: «مَعَادٍ» إشاره الى عظمه قدر هذا العود و أنه لا يقاس الى ما قبله من القطن بها و التاريخ يصدقه.

و قوله: قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ يؤيد ما قدمنا من المعنى فإنه يحاذى قول موسى عليه السلام- لما كذبوه و رموا آياته البينات بأنها سحر مفترى- «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» فأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَقُولَ لِلْفِرَاعِنَةِ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ لَمَّا كَذَّبُوهُ وَ رَمَوْهُ بِالسَّحْرِ لِلتَّشَابُهِ التَّامِ بَيْنَ مَبْعَثِهِمَا وَ سِيرِ دَعْوَتِهِمَا كَمَا يَظْهَرُ مِنَ الْقِصَّةِ وَ يَظْهَرُ ذَلِكَ تَمَامَ الظُّهُورِ بِالتَّأَمُّلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (المزمع ١٥).

و لعل الاكتفاء بالشرط الأول من قول موسى عليه السلام و السكوت عن الشرط الثاني أعنى قوله:

«وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدى حد الإشاره و الإيماء كما يستشتم من سياق قوله: «لَرَأَدُكَ إِلَيَّ مَعَادٍ» أيضا حيث خص الخطاب بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ نَكَرَ مَعَادًا.

و كيف كان فالمراد بقوله: «مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ» النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ نفسه و بقوله: «وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» المشركون من قومه، و اختلاف سياق الجملتين- حيث قيل في جانبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ «مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ» و في جانبهم «مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» فقبول بين ضلالهم و بين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم و اهتدائه- لكون تكذيبهم متوجها بالطبع الى ما جاء به لا الى نفسه.

قوله تعالى: وَ مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ صدر الآيه تقرير للوعد الذي في قوله: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيَّ مَعَادٍ» أى إنه سيردك الى معاد- و ما كنت ترجوه كما ألقى اليك الكتاب و ما كنت ترجوه-.

قوله تعالى: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَالْتَفْسِيرِ لِقَوْلِهِ: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .

قوله تعالى: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» كلمة الإخلاص في مقام التعليل لقوله قبله: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» أى لأنه لا إله غيره و ما بعدها في مقام التعليل بالنسبة إليها كما سيتضح.

وقوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ الشَّيْءُ مَسَاوٍ لِلْمَوْجُودِ وَيَطْلُقُ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ مَوْجُودٍ حَتَّى عَلَيْهِ تَعَالَى كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ (الأنعام / ١٩)، و الهلاك البطلان و الانعدام.

و الوجه و الجبهة واحده كالوعد و العده، و وجه الشئ في العرف العام ما يستقبل به غيره و يرتبط به اليه كما أن وجه الجسم السطح الظاهر منه و وجه الإنسان النصف المقدم من رأسه و وجهه تعالى ما يستقبل به غيره من خلقه و يتوجه اليه خلقه به و هو صفاته الكريمة من حياه و علم و قدره و سمع و بصر و ما ينتهى إليها من صفات الفعل كالخلق و الرزق و الإحياء و الإماتة و المغفرة و الرحمة و كذا آياته الداله عليه بما هي آياته.

فكل شئ هالك في نفسه باطل في ذاته لا حقيقه له إلا ما كان عنده مما أفاضه الله عليه و أما ما لا ينسب اليه تعالى فليس إلا ما اختلقه و هم المتوهم او سرابا صوره الخيال و ذلك كأصنام ليس لها من الحقيقه إلا أنها حجاره او خشبه او شئ من الفلزات و أما أنها أرباب او آلهه او نافع او ضاره او غير ذلك فليست إلا أسماء سماها عبدتهم و كالإنسان ليس له من الحقيقه إلا ما أودعه فيه الخلقه من الروح و الجسم و ما اكتسبه من صفات الكمال و الجميع منسوبه الى الله سبحانه و أما ما يضيفه اليه العقل الاجتماعى من قوه و سلطه و رئاسه و وجاهه و ثروه و عزه و أولاد و أعضاء فليس إلا سرابا هالكا و امنيه كاذبه و على هذا السبيل سائر الموجودات.

فليس عندها من الحقيقه إلا ما أفاض الله عليها بفضله و هي آياته الداله على صفاته الكريمه من رحمه و رزق و فضل و إحسان و غير ذلك.

فالحقيقه الثابته فى الواقع التى ليست هالكه باطله من الأشياء هى صفاته الكريمه و آياته الداله عليها و الجميع ثابتة بثبوت الذات المقدسه.

هذا على تقدير كون المراد بالهالك فى الآيه الهالك بالفعل و على هذا يكون محصل تعليل كلمه الإخلاص بقوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» أن الإله و هو المعبود بالحق إنما يكون إليها معبودا إذا كان أمرا ذا حقيقه واقعيه غير هالك و لا باطل له تدبير فى العالم بهذا النعت و كل شىء غيره تعالى هالك باطل فى نفسه إلا ما كان وجهها له منتسبا اليه فليس فى الوجود إله غيره سبحانه.

و الوثنيون و إن كانوا يرون وجود آلهتهم منسوبا اليه تعالى و من جهته إلا أنهم يجعلونها مستقلة فى التدبير مقطوعه النسبه فى ذلك عنه من دون أن يكون حكمها حكمه، و لذلك يعبدونها من دون الله، و لا استقلال لشيء فى شىء عنه تعالى فلا يستحق العباده إلا هو.

و هاهنا وجه آخر أدق منه بناء على أن المراد بالوجه ذات الشىء فقد ذكر بعضهم ذلك من معانى الوجه كما يقال: وجه النهار و وجه الطريق لنفسهما و إن أمكنت المناقشه فيه، و ذكر بعض آخر: أن المراد به الذات الشريفه كما يقال: وجوه الناس أى أشرافهم و هو من المجاز المرسل او الاستعاره و على كلا التقديرين فالمراد أن غيره تعالى من الموجودات ممكنه و الممكن و إن كان موجودا بإيجاده تعالى فهو معدوم بالنظر الى حد ذاته هالك فى نفسه و الذى لا سبيل للبطلان و الهلاك اليه هو ذاته الواجبه بذاتها.

و محصل التعليل على هذا المعنى: أن الإله المعبود بالحق يجب أن يكون ذاتا بيده شىء من تدبير العالم، و التدبير الكونى لا ينفك عن الخلق و الإيجاد فلا معنى لأن يوجد الحوادث شىء و يدبر أمرها شىء آخر—وقد أوضحناه مرارا فى هذا الكتاب—و لا يكون الخلق الموجد إلا

واجب الوجود ولا واجب إلا هو تعالى فلا إله إلا هو.

وقولهم: إنه تعالى أجل من أن يحيط به عقل أو وهم فلا- يمكن التوجه العبادى اليه فلا بد أن يتوجه بالعباده الى بعض مقربى حضرته من الملائكة الكرام وغيرهم ليكونوا شفعاء عنده.

مدفوع بمنع توقف التوجه بالعباده على العلم الإحاطى بل يكفى فيه المعرفة بوجه و هو حاصل بالضرورة.

و أما على تقدير كون المراد بالهلاك ما يستقبله الهلاك و الفناء بناء على ما قيل: إن اسم الفاعل ظاهر فى الاستقبال فظاهر الآيه أن كل شىء سيستقبله الهلاك بعد وجوده إلا وجهه.

نعم استقبال الهلاك- يختلف باختلاف الأشياء فاستقباله فى الزمانيات انتهاء أمد وجودها و بطلانها بعده و فى غيرها كون وجودها محاطا بالفناء من كل جانب.

و هلاك الأشياء على هذا بطلان وجودها الابتدائى و خلؤ النشأ الاولى عنها بانتقالها الى النشأ الاخرى و رجوعها الى الله و استقرارها عنده، و أما البطلان المطلق بعد الوجود فصريح كتاب الله ينفيه فالآيات متتابعه فى أن كل شىء مرجعه الى الله و أنه المنتهى و اليه الرجعى و هو الذى يبدئ الخلق ثم يعيده.

فمحصل معنى الآيه- لو أريد بالوجه صفاته الكريمه- أن كل شىء سيخلى مكانه و يرجع اليه إلا صفاته الكريمه التى هى مبادئ فيضه فهى تفيض ثم تفيض الى ما لا نهايه له و الإله يجب أن يكون كذلك لا بطلان لذاته و لا انقطاع لصفاته الفياضه و ليس شىء غيره تعالى بهذه الصفه فلا إله إلا هو.

و لو أريد بوجهه الذات المقدسه فالمحصّل أن كل شىء سيستقبله الهلاك و الفناء بالرجوع الى الله سبحانه إلا ذاته الحقه الثابته التى لا- سبيل للبطلان إليها- و الصفات على هذا محسوبه من صقع الذات- و الإله يجب أن يكون بحيث لا يتطرق الفناء اليه و ليس شىء غيره بهذه الصفه فلا إله إلا هو.

قال تعالى: مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ (النحل ٩٦)، وقال: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (آل عمران ١٩٨)، وقال: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ (الأنعام ١٢٤)، ونظيرتهما خزائن الرحمة كما قال: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (الحجر ٢١)، وكذا اللوح المحفوظ كما قال: وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (ق ٤).

و أما ما ذكروه من العرش فقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ (الأعراف ٥٤).

و يمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى التي تنسب إليه و هي الناحية التي يقصد منها و يتوجه إليه بها، و تؤيده كثره استعمال الوجه في كلامه تعالى بهذا المعنى كقوله: يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (الأنعام ٥٢)، و قوله: إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (الليل ٢٠)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا.

و عليه فتكون عبارته عن كل ما ينسب إليه وحده فإن كان الكلام على ظاهر عمومته انطبق على الوجه الأول الذي أوردناه و يكون من مصاديقه أسماؤه و صفاته و أنبيأؤه و خلفأؤه و دينه الذي يؤتى منه.

و إن خصّ الوجه بالدين فحسب - كما وقع في بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق - كان المراد بالهلاك الفساد و عدم الأثر، و كانت الجملة تعليلا - لقوله: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» و كان ما قبلها قرينه على أن المراد بالشىء الدين و الأعمال المتعلقة به و كان محصل المعنى: و لا تتدين بغير دين التوحيد لأن كل دين باطل لا أثر له إلا دينه.

و الأنسب على هذا أن يكون الحكم في ذيل الآية بمعنى الحكم التشريعى أو الأعم منه و من التكويني و المعنى: كل دين هالك إلا دينه لأن تشريع الدين إليه و إليه ترجعون لا إلى مشرعى

و قوله: لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ الحكم هو قضاؤه النافذ في الأشياء و عليه يدور التدبير في نظام الكون، و أما كونه بمعنى فصل القضاء يوم القيامة فيبعده تقديم الحكم في الذكر على الرجوع اليه الذي هو يوم القيامة فإن فصل القضاء متفرع عليه.

و كلتا الجملتين مسوقتان للتعليل و كل واحده منهما وحدها حجه تامه على توحيدته تعالى بالالوهيه صالحه للتعليل كلمه الإخلاص، و قد تقدم إمكان أخذ الحكم على بعض الوجوه بمعنى الحكم التشريعي.

ص: ٧٢٥

(١ - ١). القصص ٨٥-٨٨: نظرات المفسرين في معنى وجه الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ /الم (١) أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَ مَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَ إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

يلوح من سياق آيات السوره و خاصه ما فى صدرها من الآيات أن بعضا ممن آمن بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بمكه قبل الهجره رجع عنه خوفا من فتنه كانت تهدده من قبل المشركين فإن المشركين كانوا يدعونهم الى العود الى ملتهم و يضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم فإن أبوا فتنوهم و عذبوهم ليعيدوهم الى ملتهم.

يشير الى ذلك قوله تعالى: **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ**

خَطَايَاكُمْ الْآيَةَ؛ وَقَوْلُهُ: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ الْآيَةَ.

و كأن فى هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهده من والديه على أن يرجع و إلحاح منهما عليه فى الارتداد ك بعض أبناء المشركين على ما يستشم من قوله تعالى:

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا الْآيَةَ؛ وَقَدْ نَزَلَتِ السُّورَةُ فِي شَأْنِ هَؤُلَاءِ.

فغرض السورة على ما يستفاد من بدئها و ختامها و السياق الجارى فيها أن الذى يريده الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم: آمنا بالله بل هو حقيقه الإيمان التى لا تحركها عواصف الفتن و لا تغيرها غير الزمن و هى إنما تثبت و تستقر بتوارد الفتن و تراكم المحن، فالناس غير متروكين بمجرد أن يقولوا: آمنا بالله دون أن يفتنوا و يمتحنوا فيظهر ما فى نفوسهم من حقيقه الإيمان أو و صمه الكفر فليعلمن الله الذين صدقوا و يعلم الكاذبين.

فالفتنه و المحنه سنّه إلهيه لا معدل عنها تجرى فى الناس الحاضرين كما جرت فى الامم الماضين كقوم نوح و عاد و ثمود و قوم إبراهيم و لوط و شعيب و موسى فاستقام منهم من استقام و هلك منهم من هلك و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فعلى من يقول: آمنت بالله أن يصبر على إيمانه و يعبد الله وحده فإن تعذر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر الى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض الله واسعة و لا يخف عسر المعاش فإن الرزق على الله و كآئين من دابه لا تحمل رزقها الله يرزقها و إياه.

و أما المشركون الذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلا أن يقولوا ربنا الله فلا يحسبوا أنهم يعجزون الله و يسبقونه فأما فتنتهم للمؤمنين و إيذاؤهم و تعذيبهم فإنما هى فتنه لهم و للمؤمنين غير خارجه عن علم الله و تقديره، فهى فتنه و هى محفوظه عليهم إن شاء أخذهم بوبالها فى الدنيا و إن شاء أخرهم الى يوم يرجعون فيه اليه و ما لهم من محيص.

و أما ما لفقوه من الحجج و ركنوا اليه من باطل القول فهو داحض مردود اليهم و الحجج قائمه تامه عليهم.

فهذا محصل غرض السوره و مقتضى ذلك كون السوره كلها مكيه، و قول القائل: إنها مدنيه كلها أو معظمها أو بعضها- و سيجيء في البحث الروائى التالى- غير سديد، فمضامين آيات السوره لا تلائم إلا زمن العسر و الشده قبل الهجره.

قوله تعالى: الم، أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ الْحَسْبَانَ هُوَ الظن، و جمله «أَنْ يُتْرَكُوا» قائمه مقام مفعوليه، و قوله: «أَنْ يَقُولُوا» بتقدير باء السببيه، و الفتنه الامتحان و ربما تطلق على المصيبه و العذاب، و الأوفق للسياق هو المعنى الأول، و الاستفهام للإنكار.

و لا- معنى: أظن الناس أن يتركوا فلا- يتعرض لحالهم و لا- يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم فى دعوى الإيمان بمجرد قولهم: آمنا؟

قوله تعالى: وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ اللامان للقسام، و قوله: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» حال من الناس فى قوله: «أَحْسِبَ النَّاسُ» أو من ضمير الجمع فى قوله: «لَا يُفْتَنُونَ» و على الأول فالإنكار و التوبيخ متوجه الى ظنهم أنهم لا- يفتنون مع جريان السنه الإلهيه على الفتنه و الامتحان و على الثانى الى ظنهم الاختلاف فى فعله تعالى حيث يفتن قوما و لا يفتن آخرين، و لعل الوجه الأول أوفق للسياق.

فالظاهر أن المراد بقوله: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أن الفتنه و الامتحان سنه جاريه لنا و قد جرت فى الذين من قبلهم و هى جاريه فيهم و لن تجد لسنه الله تبديلا.

و قوله: فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا الخ؛ تعليل لما قبله، و المراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا بالكاذبين ظهور آثار صدقهم و كذبهم فى مقام العمل بسبب الفتنه و الامتحان

الملازم لثبوت الإيمان في قلوبهم حقيقه و عدم ثبوته فيها حقيقه فإن السعاده التي تترتب على الإيمان المدعو اليه و كذا الثواب إنما تترتب على حقيقه الإيمان الذي له آثار ظاهره من الصبر عند المكاره و الصبر على طاعه الله و الصبر على معصيه الله لا على دعوى الإيمان المجرده.

و يمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعلى الذي هو نفس الأمر الخارجى فإن الامور الخارجيه بنفسها من مراتب علمه تعالى، و أما علمه تعالى الذاتى فلا يتوقف على الامتحان البته.

و المعنى: أحسبوا أن يتركوا و لا- يفتنوا بمجرد دعوى الإيمان و إظهاره و الحال أن الفتنة سنتنا و قد جرت فى الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء و آثار كذب أولئك الملازم لاستقرار الإيمان فى قلوب هؤلاء و زوال صورته الكاذبه عن قلوب أولئك.

قوله تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» أم منقطعه، و المراد بقوله: «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» المشركون الذين كانوا يفتنون المؤمنين و يصدونهم عن سبيل الله كما أن المراد بالناس فى قوله: «أَمْ حَسِبَ النَّاسُ» هم الذين قالوا: آمنا و هم فى معرض الرجوع عن الإيمان خوفا من الفتنة و التعذيب.

و المراد بقوله: «أَنْ يَسْبِقُونَا» الغلبه و التعجيز بسبب فتنة المؤمنين و صدّهم عن سبيل الله - على ما يعطيه السياق.

و قوله: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» تخطئه لظنهم أنهم يسبقون الله بما يمكرون من فتنة و صدّ فإن ذلك بعينه فتنة من الله لهم أنفسهم و صدّ لهم عن سبيل السعاده و لا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمِ الى تمام ثلاث آيات. لما وَيَخ سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الإيمان و رجوعهم عنه بأى فتنه و إيذاء من المشركين و وَيَخ المشركين على فنتتهم و إيذائهم المؤمنين و صدّهم عن سبيل الله إرادته لإطفاء نور الله و تعجيزا له فيما شاء و خطأ الفريقين فيما ظنوا.

رجع الى بيان الحق الذى لا- معدل عنه و الواجب الذى لا- مخلص منه، فبين فى هذه الآيات الثلاث أن من يؤمن بالله لتوقع الرجوع اليه و لقائه فليعلم أنه آت لا محاله و أن الله سميع لأقواله عليم بأحواله و أعماله فليأخذ حذره و ليؤمن حقّ الإيمان الذى لا- يصرفه عنه فتنه و لا- إيذاء و ليجاهد فى الله حق جهاده، و ليعلم أن الذى ينتفع بجهاده هو نفسه و لا حاجة لله سبحانه الى إيمانه و لا الى غيره من العالمين و ليعلم أنه إن آمن و عمل صالحا فإن الله سيكفر عنه سيئاته و يجزيه بأحسن أعماله، و العلمان الأخيران يؤكدان العلم الأول و يستوجبان لزومه الإيمان و صبره على الفتن و المحن فى جنب الله.

فقوله: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ [□] رجوع الى بيان حال من يقول: آمنت فإنه إنما يؤمن لو صدق بعض [□] الصدق لتوقعه الرجوع الى الله سبحانه يوم القيامة إذ لو لا المعاد لغى الدين من أصله، فالمراد بقوله: «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ» من كان يؤمن بالله أو من كان يقول:

آمنت بالله، فالجملة من قبيل وضع السبب موضع المسبب.

و المراد بلقاء الله [□] ووقوف العبد موثقا لا حجاب بينه و بين ربه كما هو الشأن يوم القيامة الذى هو ظرف ظهور الحقائق، قال تعالى: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» .

و قوله: فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ [□] الأجل هو الغايه التى ينتهى إليها زمان الدين و نحوه و قد يطلق على مجموع ذلك الزمان و الغالب فى استعماله هو المعنى الأول.

و «أَجَلَ اللَّهِ» هو الغايه التى عينها الله تعالى للقاءه، و هو آت لا ريب فيه و قد أكد القول تأكيدا بالغا، و لازم تحتم إتيان هذا الأجل و هو يوم القيامة أن لا يسامح فى أمره و لا يستهان بأمر الإيمان بالله حق الإيمان و الصبر عليه عند الفتن و المحن من غير رجوع و ارتداد، و قد زاد

فى تأكيد القول بتذييله بقوله: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» إذ هو تعالى لما كان سميعاً لأقوالهم عليماً بأحوالهم فلا ينبغي أن يقول القائل: آمنت بالله إلا عن ظهر القلب ومع الصبر على كل فتنة و محنه.

ومن هنا يظهر أن ذيل الآية «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ» الخ؛ من قبيل وضع السبب موضع المسبب كما كان صدرها «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ» أيضاً كذلك، والأصل من قال: آمنت بالله.

فليقله مستقيماً صابراً عليه مجاهداً فى ربه.

وقوله: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» المجاهد والمجاهدة والجهد مبالغه من الجهد بمعنى بذل الطاقه، وفيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم فى الله بلزوم الإيمان والصبر على المكاره دونه ليست مما يعود نفعه الى الله سبحانه حتى لا يهتمهم و يلغو بالنسبه اليهم أنفسهم بل إنما يعود نفعه اليهم أنفسهم لغناه تعالى على العالمين فعليهم أن يلزموا الإيمان و يصبروا على المكاره دونه.

فقوله: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ» تأكيد لحجه الآية السابقه، وقوله:

«إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» تعليل لما قبله.

وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» بيان لعاقبه إيمانهم حق الإيمان المقارن للجهد و يتبين به أن نفع إيمانهم يعود اليهم لا الى الله سبحانه و أنه عطيه من الله و فضل.

و على هذا فالآيه لا تخلو من دلالة ما على أن الجهد فى الله هو الإيمان و العمل الصالح فإنها فى معنى تبديل قوله فى الآية السابقه: «وَمَنْ جَاهَدَ» من قوله فى هذه الآية: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» .

و تكفير السيئات هو العفو عنها و الأصل فى معنى الكفر هو الستر، وقيل: تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيماناً و معاصيهم السابقه طاعات، و ليس بذاك.

و جزاؤهم بأحسن الذين كانوا يعملون هو رفع درجاتهم الى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشه في أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءه و خسه فيعاملون في كل واحد من أعمالهم معامله من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحتسب صلاتهم أحسن الصلاه و إن اشتملت على بعض جهات الرداءه و هكذا.

قوله تعالى: وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِالْإِدْتِيهِ حُسِينًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا الخ؛التوصيه العهد و هو هاهنا الأمر، و قوله: «حُسِينًا» مصدر فى معنى الوصف قائم مقام مفعول مَحذوف و التقدير: و صَيَّنَا الْإِنْسَانَ بوالديه توصيه حسنه أو ذات حسن أى أمرناه أن يحسن اليهما و هذا مثل قوله: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسِينًا» أى قولاً حسناً أو ذا حسن، و يمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغه نحو زيد عدل، و ربما وجّه بتوجيهات آخر.

و قوله: وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي الخ؛تتميم للتوصيه بخطاب شفاهى للانسان بنهيه عن إطاعه والديه إن دعواه الى الشرك و الوجه فى ذلك أن التوصيه فى معنى الأمر فكأنه قيل: و قلنا للانسان أحسن الى والديك و إن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما.

و لم يقل: و أن لا- يطيعهما إن جاهداه على أن يشرك الخ؛لما فى الخطاب من الصراحه و ارتفاع الإبهام و لذلك قال أيضاً: «لِتُشْرِكَ بِي» بضمير المتكلم وحده فافهمه و يثول معنى الجملة الى أننا نهيناه عن الشرك طاعه لهما و رفعنا عنه كل إبهام.

و فى قوله: مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إشاره الى عله النهى عن الطاعه فإن دعوتهما الى الشرك بعباده إله من دون الله دعوه الى الجهل و عباده ما ليس له به علم افتراء على الله و قد نهى الله عن اتّباع غير العلم قال: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (الإسراء ٣٨)، و بهذه المناسبه ذيلها بقوله: «إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى ساعلمكم ما معنى أعمالكم

و منها عبادتكم الأصنام و شرككم بالله سبحانه.

و معنى الآية؛ و عهدنا الى الإنسان فى والديه عهدا حسنا- و أمرناه أن أحسن الى والديك- و إن بذلا جهدهما أن تشرك بى فلا تطعهما لأنه اتباع ما ليس لك به علم.

و فى الآية- كما تقدمت الإشارة اليه- توبيخ تعريضى لبعض ما كان قد آمن ثم رجع عن إيمانه بمجاهده من والديه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ معنى الآية ظاهر، و فى وقوعها بعد الآية السابقة و فى سياقها، دلالة على وعد جميل منه تعالى و تطيب نفس لمن ابتلى من المؤمنين بوالدين مشركين يجاهدانه على الشرك فعصاهما و فارقهما، يقول سبحانه: إن جاهداه على الشرك فعصاهما و هجرهما ففاتاه لم يكن بذلك بأس فإننا سنرزقه خيرا منهما و ندخله بإيمانه و عمله الصالح فى الصالحين و هم العباد المنعمون فى الجنة، قال تعالى: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (الفجر ٣٠).

قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ لما كان إيمان هؤلاء مقيدا بالعافية و السلامه معيا بالإيذاء و الابتلاء لم يعده إيمانا بقول مطلق و لم يقل: و من الناس من يؤمن بالله بل قال:

«وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ» فالآية بوجه نظيره قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ (الحج ١١).

و قوله: فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ أى أودى لأجل الإيمان بالله بناء على أن فى للسببه كما قيل و فيه عناية كلاميه لطيفه بجعله تعالى- أى جعل الإيمان بالله- ظرفا للإيذاء و لمن يقع عليه الإيذاء ليفيد أن الإيذاء منتسب اليه تعالى انتساب المظروف الى ظرفه و ينطبق على معنى السببه و الغرضيه و نظيره قوله: يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتَ فِي جَنبِ اللَّهِ (الزمر /

(٥٦)، وقوله: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا (العنكبوت ٦٩).

وقوله: جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ أَي نزل العذاب والإيذاء الذى يصيبه من الناس فى وجوب التحرز منه منزله عذاب الله الذى يجب أن يتحرز منه فرجع عن الإيمان الى الشرك خوفا وجزعا من فتنهم مع أن عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاه أو موت ولا يقاس ذلك بعذاب الله العظيم المؤبد الذى يستتبع الهلاك الدائم.

وقوله: وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَي لئن أتاكم من قبله تعالى ما فيه فرج و يسر لكم من بعد ما أنتم فيه من الشده و العسره من قبل أعداء الله ليقولن هؤلاء إنا كنا معكم فلنا منه نصيب.

و «لَيَقُولُنَّ» بضم اللام صيغه جمع، والضمير راجع الى «مِنَ» باعتبار المعنى كما أن ضمائر الأفراد الآخر راجعه إليها باعتبار اللفظ.

وقوله: أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ استفهام إنكارى فيه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن الله أعلم بما فى الصدور و لا تنطوى قلوب هؤلاء على إيمان.

و المراد بالعالمين الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفه من أولى العقل إنسانا كان أو غيره كالجن و الملك، و لو كان المراد به جميع المخلوقات من ذوى الشعور و غيرهم كان المراد بالصدور البواطن و هو بعيد.

وقوله تعالى: وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ من تتمه الكلام فى الآيه السابقه و المحصل أن الله مع ذلك يميز بين المؤمنين و المنافقين بالفتنه و الامتحان.

و فى الآيه إشاره الى كون هؤلاء منافقين و ذلك لكون إيمانهم مقيدا بعدم الفتنه و هم يظهرونه مطلقا غير مقيد و الفتنه سنه إلهيه جاريه لا معدل عنها.

و أما قوله تعالى: «وَمَنْ جَاهَدَ» الخ؛ فقد اتضح مما تقدم أن المراد به جهاد النفس دون

مقاتله الكفار فالحق أن لا دلاله فى شىء من الآيات على كون السوره أو بعضها مدنيه.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ المراد بالذين كفروا مشركوا مكه الذين أبدوا الكفر أول مره بالدعوه الحقه، وبالذين آمنوا المؤمنون بها أول مره و قولهم لهم: «اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ» نوع استماله لهم و تطيب لنفوسهم أن لو رجعوا الى الشرك و اتبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعه على أى حال: إذ لو لم تكن فى ذلك خطيئه فهو، و إن كانت فهم حاملون لها عنهم، و لذلك لم يقولوا: و لنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد.

فكأنهم قالوا: لنفرض أن اتباعكم لسبيلنا خطيئه فإننا نحملها عنكم و نحمل كل ما يتفرع عليه من الخطايا أو إنا نحمل عنكم خطاياكم عامه و من جملتها هذه الخطيئه.

و قوله: وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ رد لقولهم: و لنحمل خطاياكم و هو رد محفوف بحجه إذ لو كان اتباعهم لسبيلهم و رجوعهم عن الإيمان بالله خطيئه كان خطيئه عند الله لا حقه بالراجعين و انتقالها عن عهدتهم الى غيرهم يحتاج الى إذن من الله و رضى فهو الذى يؤاخذهم به و يجازيهم و هو سبحانه يصرّح و يقول: «مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ» و قد عمّم النفى لكل شىء من خطاياهم.

و قوله: إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ تكذيب لهم لما أن قولهم: «و لنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ» يشتمل على دعوى ضمنى أن خطاياهم تنتقل اليهم لو احتملوا و أن الله يجيز لهم ذلك.

قوله تعالى: وَ لِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لِيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ من تمام القول السابق فى ردهم و هو فى محل الاستدراك اى إنهم لا- يحملون خطاياهم بعينها فهى لا تزمه لفاعلها لكنهم حاملون أثقالا و أحمالا من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافا الى أثقال أنفسهم و أحمالها لما أنهم

فألايه في معنى قوله تعالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (النحل ٢٥).

وقوله: «وَلْيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فشرکہم افتراء على الله سبحانه وكذا دعواهم القدره على إنجاز ما وعده و أن الله يجيز لهم ذلك (١).

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٤ الى ٤٠]

إشارة

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْنَاهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) وَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أُعْبِدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَ إِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمْ وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَمْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٢٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْآيَاتِ اللَّهِ وَ لِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسْتَوْسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَ قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَ مَا أُولَئِكَ إِلَّا فِي النَّارِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) فَاَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ وَ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَعْتُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَ لَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالُوا لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيْنَهُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَ إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٣٧) وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاجِدِهِمْ وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَ قَارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ مَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكَلَّمْنَا بَدْنِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

١-١). العنكبوت ١-١٣: بحث روائي حول الآية «أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا» الفتنه؛ لقاء الله.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**، في المجمع: الطوفان الماء الكثير الغامر لأنه يطوف بكثرتة في نواحي الأرض، انتهى. وقيل: هو كل ما يطوف بالشئ على كثره و شدة من السيل و الريح و الظلام و الغالب استعماله في طوفان الماء.

و التعبير بألف سنه إلا خمسين عاما دون أن يقال: تسعمائه و خمسين سنه للتكثير و الآية ظاهره في أن الألف إلا خمسين مده دعوه نوح عليه السلام ما بين بعثته الى أخذ الطوفان فيغاير ما في التوراه الحاضره أنها مده عمره عليه السلام و قد تقدمت الإشاره الى ذلك في قصصه عليه السلام في تفسير سوره هود، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْرَحْنَا السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** أى فانجينا نوحا و أصحاب السفينه الراكبين معه فيها و هم أهله و عده قليله من المؤمنين به و لم يكونوا ظالمين.

و قوله: **وَ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** الظاهر أن الضمير للواقعه أو للنجاه و أما رجوعه الى السفينه فلا- يخلو من بعد، و العالمين الجماعات الكثيره المختلفه من الأجيال

اللاحقه بهم.

قوله تعالى: وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ معطوف على قوله: «نوحاً» أى و أرسلنا إبراهيم الى قومه.

و قوله لقومه: اُعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ دعوه الى التوحيد و إنذار بقريته الآيات التاليه فتفيد الجملة فائده الحصر.

على أن الوثنيه لا يعبدون الله سبحانه و إنما يعبدون غيره زعما منهم أنه تعالى لا يمكن أن يعبد إلا من طريق الأسباب الفعاله فى العالم المقربه عنده كالملائكه و الجن و لو عبد لكان معبودا وحده من غير شريك فدعوتهم الى عباده الله بقوله: «اعْبُدُوا اللَّهَ» تفيد الدعوه اليه وحده و إن لم تقيد بأداه الحصر.

قوله تعالى: إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا الى آخر الآيه؛ الأوثان جمع وثن بفتحتين و هو الضم، و الإفك الأمر المصروف عن وجهه قولاً أو فعلاً.

و قوله: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا» بيان لبطلان عباده الأوثان و يظهر به كون عباده الله هى العباده الحقه و بالجملة انحصار العباده الحقه فيه تعالى «أَوْثَانًا» منكر للدلاله على وهن أمرها و كون ألوهيتها دعوى مجرّده لا حقيقه وراءها، أى لا تعبدون من دون الله إلا أوثاناً من أمرها كذا و كذا.

و لذا عقب الجملة بقوله: «وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا» أى و تفتعلون كذباً بتسميتها آلهه و عبادتها بعد ذلك فهناك إله تجب عبادته لكنه هو الله الواحد دون الأوثان.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا تعليل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسميه الأوثان آلهه و عبادتها و محصّيه له أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله و هم الأوثان بما هم تماثيل المقرّبين من الملائكه و الجن إنما تعبدونهم لجلب النفع و هو

ص: ٧٤١

أن يرضوا عنكم فيرزقوكم و يدزوا عليكم الرزق لكنهم ليسوا يملكون لكم رزقا فإن الله هو الذى يملك رزقكم الذى هو السبب الممد لبقاتكم لأنه الذى خلقكم و خلق رزقكم فجعله ممدا لبقاتكم و الملك تابع للخلق و الإيجاد.

□
و لذلك عقبه بقوله: «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ» أى فاطلبوا الرزق من عند الله لأنه هو الذى يملكه فلا تعبدوهم بل اعبدوا الله و اشكروا له على ما رزقكم و أنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم.

و قوله: إِيَّاهُ تَرْجِعُونَ فى مقام التعليل لقوله: «وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ» و لذا جىء بالفصل من غير عطف، و فى هذا التعليل صرفهم عن عباده الإله ابتغاء للرزق الى عبادته للرجوع و الحساب إذ لو لا المعاد لم يكن لعباده الإله سبب محصل لأن الرزق و ما يجرى مجراه له أسباب خاصه كونه غير العبادات و القربات و لا- يزيد و لا- ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادته يوم الحساب تختلف بالإيمان و الكفر و العباده و الشكر و خلافهما فليكن الرجوع الى الله هو الباعث الى العباده و الشكر دون ابتغاء الرزق.

قوله تعالى: «وَ إِن تَكْفُرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِأَمْمٍ مِّن قَبْلِكُمْ وَ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ الظاهر أنه من تمام كلام إبراهيم عليه السلام، و ذكر بعضهم أنه خطاب منه تعالى لمشركى قريش و لا يخلو من بعد.

و معنى الشرط و الجزاء فى صدر الآيه أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنه كالتسنة الجارية فى الامم المشركه و قد كذب من قبلكم و أنتم منهم و فى آخرهم و ليس على بما أنا رسول إلا البلاغ المبين.

و يمكن أن يكون المراد أن حالكم فى تكذيبكم كحال الامم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيئا حل بهم عذاب الله و لم يكونوا بمعجزين فى الأرض و لا- فى السماء و لم يكن لهم من دون الله من ولى و لا- نصير، فكذلكم أنتم، و قوله: «وَ مَّا عَلَى الرَّسُولِ» يناسب الوجهين جميعا.

قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» هذه الآية الى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعه فى خلال القصة تقيم الحجة على المعاد و ترفع استبعادهم له متعلقه بما تقدم من حيث إن العمدة فى تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير اليه قول إبراهيم «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ» .

فقوله: «أَوَلَمْ يَرَوْا الخ؛ الضمير فيه للمكذبين من جميع الامم من سابق و لا- حق و المراد بالرؤية النظر العلمى دون الرؤية البصريه، و قوله: «كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فى موضع المفعول لقوله: «يروا» بعطف «يُعِيدُهُ» على موضع «يُبْدِئُ» خلافا لمن يرى عطفه على «أَوَلَمْ يَرَوْا» و الاستفهام للتوبيخ.

و المعنى: أو لم يعلموا كيفية الإبداء ثم الإعادة أى إنهما من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن، و قوله: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» الإشاره فيه الى الإعادة بعد الإبداء و فيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد إنشاء و إذ كانت القدره المطلقة تتعلق بالإيجاد فهى جائزه تتعلق بالإنشاء بعد الإنشاء و هى فى الحقيقه نقل للخلق من دار الى دار و إنزال للسائرين اليه فى دار القرار.

قوله تعالى: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ يَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» الى تمام ثلاث آيات أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يخاطبهم بما يتم به الحجة عليهم فيرشدهم الى السير فى الأرض لينظروا الى كيفية بدء الخلق و إنشائهم على اختلاف طبائعهم و تفاوت ألوانهم و أشكالهم من غير مثال سابق و حصر أو تحديد فى عدتهم و عدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد فى القدره الإلهيه فهو ينشئ النشأه الآخره كما أنشأ النشأه الاولى فالآيه فى معنى قوله: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ» (الواقعه ٦٢).

قوله تعالى: «يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ» من مقول

القول، والظاهر أنه بيان لقوله: «يُنشئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» و قلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه و جعل باطنه ظاهره و هذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (الطارق ٩).

و فسروا القلب بالرد قال فى المجمع: و القلب هو الرجوع و الرد فمعناه أنكم تردون الى حال الحياه فى الآخره حيث لا يملك فيه النفع و الضر إلا- الله. انتهى و هذا معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع الى الله و الرد اليه و هو وقوفهم متوقفا تنقطع فيه عنهم الأسباب و لا- يحكم فيه إلا- الله سبحانه فالآيه فى معنى قوله: وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَآ كَانُوا يَفْتَرُونَ (يونس ٣٠).

و محصل المعنى: أن النشأ الآخره هى نشأ يعذب الله فيها من يشاء و هم المجرمون و يرحم من يشاء و هم غيرهم و اليه تردون فلا يحكم فيكم غيره.

قوله تعالى: وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ من مقول القول و توصيف لشأنهم يوم القيامة كما أن الآيه السابقه توصيف لشأنه تعالى يومئذ.

فقوله: وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ أى إنكم لا- تقدرتون أن تعجزوه تعالى يومئذ بالفوت منه و الخروج من حكمه و سلطانه بالفرار و الخروج من ملكه و النفوذ من أقطار الأرض و السماء، فالآيه تجرى مجرى قوله: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَعْظَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَانفُذُوا (الرحمن ٣٣).

و قوله: وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ أى ليس لكم اليوم ولى من دون الله يتولى أمركم فيغنيكم من الله و لا نصير ينصركم فيقوى جانبكم و يتم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه.

فالآيه- كما ترى- تنفى ظهورهم على الله و تعجزهم له بالخروج و الامتناع عن حكمه

بأقسامه فلا هم يستقلون بذلك و هو قوله: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» الخ؛ و لا غيرهم يستقل بذلك و هو قوله: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ» و لا المجموع منهم و من غيرهم يعجزه تعالى و هو قوله: «وَلَا نَصِيرٌ» .

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ لِقَائِهِ أَُولَئِكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَ أَُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» خطاب مصروف الى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم خارج من مقول القول السابق «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ» الخ؛ و المطلوب فيه أن ينبئه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم صريح الحق فيمن يشقى و يهلك يوم القيامة فإنه أبهم ذلك في قوله أولا: «يُعَذَّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ» .

و من الدليل عليه الخطاب في «أُولَئِكَ» مرتين و لو كان من كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم لقليل:

«اولئكم».

و يؤيد ذلك أيضا قوله: «مِنْ رَحْمَتِي» فإن الانتقال من مثل قولنا: اولئك يسئرون رحمة الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام الى قوله: «أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي» يفيد التصديق و الاعتراف مضافا الى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب، و يؤيد ذلك أيضا تكرار الاشارة و ما في السياق من التأكيد.

و كان في تخصيص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم بهذا الاخبار تقويه لنفسه الشريفه و عزلا لهم عن صلاحه السمعي لمثله و هم لا يؤمنون.

و المراد بآيات الله-على ما يفيد إطلاق اللفظ-جميع الأدلة الدالة على الوحدانية و النبوه و المعاد من الآيات الكونية و المعجزات النبويه و منها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء و هو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام و الوجه فيه الاشارة الى أهميه الايمان بالمعاد إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله و هو ظاهر.

و المراد بالرحمة ما يقابل العذاب و يلازم الجنة و قد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الرحمة

عليها بالملازمه كقوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ (الجاثية ٣٠)، وقوله: يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (الانسان ٣١).

و المراد بإسناد اليأس اليهم إما تلبسهم به حقيقه فإنهم لجحدهم الحياه الآخره آيسون من السعاده المؤبده و الجنه الخالده و إما إنه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أن الجنه لا يدخلها كافر.

و المعنى: و الذين جحدوا آيات الله الداله على الدين الحق و خاصه المعاد اولئك يئسوا من الرحمه و الجنه و اولئك لهم عذاب أليم.

قوله تعالى: فَمَا كَانَ حِوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ الخ؛ تفرجع على قوله فى صدر القصة: وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .

و ظاهر قوله: قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ أن كلا من طرفى الترديد قول طائفه منهم و المراد بالقتل القتل بالسيف و نحوه فهو قولهم أول ما ائتمروا ليجازوه و إن اتفقوا بعد ذلك على إحراقه كما قال: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ (الأنبياء ٦٨)، و يمكن أن يكون الترديد من الجميع لترددهم فى أمره أولا ثم اتفقهم على إحراقه.

و قوله: فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ فيه حذف و إيجاز و تقديره ثم اتفقوا على إحراقه فأضرموا نارا فألقوه فيها فأنجاه الله منها، و قد فصلت القصة فى مواضع من كلامه تعالى.

قوله تعالى: وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الى آخر الآيه إذ كان لا حجه عقليه لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم مما يستنون به إلا الاستنان بسنه من يعظمونه و يحترمون جانبه كالآباء للأبناء و الرؤساء المعظمين لأتباعهم و الأصدقاء لأصدقائهم و بالآخره الامه لأفرادها فهذا السبب الرابط هو

عمده ما يحفظ السنن القوميہ معمولاً بها قائمه على ساقها.

فالاستنان بسنه الوثنيه بالحقيقه من آثار المودات الاجتماعيه يرى العامه ذلك بعضهم من بعض فتبعته الموده القوميہ على تقليده و الاستنان به مثله ثم هذا الاستنان نفسه يحفظ الموده القوميہ و يقيم الاتحاد و الاتفاق على ساقه.

هذه حال العامه منهم و أما الخاصه فربما ركنوا في ذلك الى ما يحسبونه حجه و ما هو بحجه كقولهم: إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا- يتعلق به توجهنا العبادي فمن الواجب أن نتقرب الى بعض من له به عنايه كالملائكه و الجن ليقربونا اليه زلفى و يشفعوا لنا عنده.

فقوله: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خطاب منه عليه السلام لعامه قومه في أمر اتخاذهم الأوثان للموده القوميہ ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعيه، و قد أجابوه بذلك حيث سألهم عن شأنهم إذ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (الأنبياء ٥٣)، قَالَ هِيَ لَيْسَ مَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (الشعراء ٧٤).

ثم عقب عليه السلام بقوله: «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ» الخ؛ بقوله: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» يبين لهم عاقبه اتخاذهم الأوثان للموده و هو باطن هذه الموده المقصوده التي سيظهر يوم تبلى السرائر فإنهم توسلوا الى هذا المتاع القليل بالشرك الذي هو أعظم الظلم و أكبر الكبائر الموبقه و اجتمعوا عليه و توافقوا لكنهم سيبدو لهم حقيقه عملهم و يلحق بهم وباله فيتبرأ بعضهم من بعض و ينكره بعضهم على بعض.

و المراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم و تبريهم منهم، كما قال تعالى: سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِنَا إِذْ يَبْغُؤْنَ عَلَيْهِمْ ضِرًّا (مريم ٨٢)، و قال: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ

(فاطر ١٤)، و في معناه: تبرى المتبوعين من تابعيهم، كما قال تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوْا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦)، و المراد بلعن بعضهم بعضا لعن كل بعض صاحبه، قال تعالى: كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا (الأعراف/ ٣٨).

ثم عقب ذلك بقوله: «وَ مَاؤَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» إشاره الى لحوق الوبال و وقوع الجزاء و هو النار التي فيها الهلاك المؤبد و لا ناصر ينصرهم و يدفع عنهم العذاب فهم إنما توسلوا الى الموده ليتناصروا و يتعاونوا و يتعاضدوا في الحياه لكنها عادت يوم القيامة معاداه و مضاده و أورثت تبريا و خذلانا.

قوله تعالى: فَمَا مَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَي آمن به لوط و الإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء و المعنى واحد.

و قوله: وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي قِيل الضمير راجع الى لوط، و قيل: راجع الى إبراهيم و يؤيده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (الصافات ٩٩).

و كان المراد بالمهاجره الى الله هجره وطنه و خروجه من بين قومه المشركين الى أرض لا يعترضه فيها المشركون و لا يمنعونه من عبادته ربه فعَدَّ المهاجره مهاجره الى الله من المجاز العقلي.

و قوله: إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أَي عزيز لا يذل من نصره حكيم لا يضيع من حفظه.

قوله تعالى: وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ معناه ظاهر.

قوله تعالى: وَ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ الأجر هو الجزاء الذي يقابل العمل و يعود الى عامله و الفرق بينه و بين الاجره أن الاجره

تختص بالجزاء الدنيوى والأجر يعم الدنيا والآخرة، والفرق بينه وبين الجزاء أن الأجر لا يقال إلا فى الخير والنافع، والجزاء يعم الخير والشر والنافع والضار.

والغالب فى كلامه تعالى استعمال لفظ الأجر فى جزاء العمل العبودى الذى أعده الله سبحانه لعباده المؤمنين فى الآخرة من مقامات القرب و درجات الولايه و منها الجنة، نعم وقع فى قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (يوسف ٩٠)، وقوله: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (يوسف ٥٦) إطلاق الأجر على الجزاء الدنيوى الحسن.

فقوله: وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجر الدنيوى الحسن و الأنسب على هذا أن يكون «فى الدنيا» متعلقا بالأجر لا بالإيتاء وربما تأيد هذا المعنى بقوله تعالى فيه عليه السلام فى موضع آخر: وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (النحل ١٢٢)، فإن الظاهر أن المراد بالحسنه الحياه الحسنه أو العيشه الحسنه و إيتاؤها فعليه إعطائها دون تقديرها و كتابتها.

و يمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعد لعامة المؤمنين فى الآخرة من مقامات القرب فى حقه عليه السلام و إيتائه ذلك فى الدنيا و قد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم من مقاماته عليه السلام فى قصصه من تفسير سورة الأنعام.

وقوله: وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ تقدم الكلام فيه فى تفسير قوله تعالى: وَ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (البقره ١٣٠) فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتون الفاحشه ما سبقتكم بها من أحد من العالمين أى و أرسلنا لوطا أو و اذكر لوطا إذ قال لقومه، وقوله: «إِنَّكُمْ لَأنتون

أَفَاحِشَهُ» إخبار بداعى الاستعجاب و الإنكار، و المراد بالفاحشه إتيان الذكران.

و قوله: مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ استئناف يوضح معنى الفاحشه و يؤكد، و كأن المراد أن هذا العمل لم يشع فى قوم قبلهم هذا الشيوع أو الجملة حال من فاعل «لَتَأْتُونَ» .

قوله تعالى: أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ الى آخر الآيه؛ استفهام من أمر من الحرى أن لا يصدقه سامع و لا يقبله ذو لب و لذا أكد بالنون و اللام، و هذا السياق يشهد أن المراد بإتيان الرجل اللواط و بقطع السبيل إهمال طريق التناسل و إلغاؤها و هى إتيان النساء، فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء و ترك نكاحهن، و بإتيانهم المنكر فى ناديتهم -و النادى هو المجلس الذى يجتمعون فيه و لا يسمى ناديا إلا إذا كان فيه أهله- الإتيان بالفحشاء أو بمقدماتها الشنيعة بمراى من الجماعه.

و قوله: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ استهزاء و سخرية منهم، و يظهر من جوابهم أنه كان ينذرهم بعذاب الله و قد قال الله فى قصته فى موضع آخر: وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (القمر ٣٦).

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ سؤال للفتح و دعاء منه عليهم، و قد عدّهم مفسدين لعملهم الذى يفسد الأرض و يقطع النسل و يهدد الإنسانيه بالفناء.

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ إجمال قصه هلاك قوم لوط، و قد كان ذلك برسل من الملائكه أرسلهم الله أولا الى إبراهيم عليه السلام فبشروه و بشروا امرأته ياسحاق و يعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط، و القصه مفصّله فى سوره هود و غيرها.

وقوله: **قَالُوا إِذَا مَهَلَكُوا أَهْلَ لِهَذِهِ الْقَرْيَةِ** أى قالوا لإبراهيم، و فى الإتيان بلفظ الإشاره القريبه-هذه القريه-دلاله على قربها من الأرض التى كان إبراهيم عليه السلام نازلا بها، و هى الأرض المقدسه.

وقوله: **إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ** تعليل لإهلا-كهم بأنهم ظالمون قد استقرت فيهم رذيله الظلم، و قد كان مقتضى الظاهر أن يقال: إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمرة للإشاره الى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاك و ليس من مطلق الظلم الذى كان الناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل: إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون.

قوله تعالى: **قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** ظاهر السياق أنه عليه السلام كان يريد بقوله: **«إِنَّ فِيهَا لُوطًا»** أن يصرف العذاب أن فيها لوطا و إهلاك أهلها يشمله فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشمله العذاب و هم أهله إلا امرأته.

لكنه عليه السلام لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطا و هو نبي مرسل، و إن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته و لا أنه يخوفه و يزعره و يفزعه بقهره عليهم بل كان عليه السلام يريد بقوله: **«إِنَّ فِيهَا لُوطًا»** أن يصرف العذاب عن أهل القريه كرامه للوط أن يدفعه عن لوط، فاجيب بأنهم مأمورون بإنجائه و إخراجهم من بين أهل القريه و معه أهله إلا-امرأته كانت من الغابرين.

و الدليل على هذا الذى ذكرنا قوله تعالى فى سورة هود فى هذا الموضع من القصه: **فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ، يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (هود ٧٦)**، فالآيات أظهر ما يكون فى أن إبراهيم عليه السلام كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه.

فظاهر كلامه عليه السلام فى الآيه التى نحن فيها الدفاع عن لوط و على ذلك جراه الرسل فأبقوا

كلامه على ظاهره و أجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم بمن فيها و عالمون بأن فيها لوطا و معه أهله ممن لا ينبغي أن يعذب لكنهم سينجونه و أهله إلا امرأته، لكن الذى أراد إبراهيم عليه السلام بكلامه دفع العذاب عن أهل القرية فاجيب بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير إليه آيات سورة هود.

و للقوم فى قوله: «إِنَّ أَهْلَهُمَا كَانُوا ظَالِمِينَ» و قوله: «قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا» مشاجرات طويله أعرضنا عن التعرض لها لعدم الجدوى، و من أراد الوقوف عليها فليراجع المطبوعات.

قوله تعالى: «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمير الجمع فى «سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ» للرسول و الباء للسببيه أى أخذته المساءه و هى سوء الحال بسببهم و ضاقت طاقتهم بسببهم لكونهم فى صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إيهم بالسوء و ضعف لوط من أن يدفعهم عنهم و هم ضيف له نازلون بداره.

و قوله: «وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ أَى لَا- خطر محتملا- يهددك و لا- مقطوعا يقع عليك فإن الخوف إنما هو فى المكروه الممكن و الحزن فى المكروه الواقع.

و قوله: «إِنَّا مُنْجُوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ أَى الباقين فى العذاب تعليل لئفى الخوف و الحزن.

قوله تعالى: «إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ بيان لما يشير إليه قوله: «إِنَّا مُنْجُوكَ وَ أَهْلَكَ» من العذاب، و الرجز العذاب.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ضمير التأنيث للقرية و الترك الإبقاء أى أبقينا من القرية علامه واضح لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتقوا الله و هى الآثار الباقية منها بعد خرابها بنزول العذاب.

و هى اليوم مجهوله المحل لا أثر منها و ربما يقال: إن الماء غمرها بعد و هى بحر لوط، لكن

الآية ظاهره- كما ترى- أنها كانت ظاهره معروفه فى زمن نزول القرآن و أوضح منها قوله تعالى: **وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ** (الحجر ٧٦)، و قوله: **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ** (الصفات ١٣٨).

قوله تعالى: **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** يدعوهم الى عباده الله و هو التوحيد و الى رجاء اليوم الآخر و هو الاعتقاد بالمعاد و أن لا يفسدوا فى الأرض و كانت عمدته إفسادهم فيها- على ما ذكر فى قصتهم فى مواضع آخر- نقص الميزان و المكىال.

قوله تعالى: **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ** الرجفه الاضطراب الشديد على ما ذكره الراغب، و الجثم و الجثوم فى المكان القعود فيه أو البروك على الأرض و هو كناية عن الموت و المعنى: فكذبوا شعيبا فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزله الشديده فأصبحوا فى دارهم ميتين لا حراك بهم.

و قال فى قصتهم فى موضع آخر: **وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ** (هود ٩٤). و يستظهر من ذلك أنهم أهلكوا بالصيحه و الرجفه.

قوله تعالى: **وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّنْ مَّسَاجِدِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ** غير السياق تفننا فبدأ بذكر عاد و ثمود و كذا فى الآية التالىه بدأ بذكر قارون و فرعون و هامان بخلاف قصص الامم المذكورين سابقا حيث بدأ بذكر أنبيائهم كنوح و إبراهيم و لوط و شعيب.

و قوله: **«وَ عَادًا وَ ثَمُودَ»** منصوبان بفعل مقدر تقديره و اذكر عادا و ثمود.

و قوله: **وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَبَّوهُمُ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** تزيين الشيطان لهم أعمالهم كناية استعاريه عن تحبيب أعمالهم السيئه اليهم و تأكيد تعلقهم بها و صده إياهم عن السبيل صرفهم عن سبيل الله التى هى سبيل الفطره، و لذا قال بعضهم: إن المراد بكونهم مستبصرين أنهم كانوا قبل ذلك على الفطره

لكن الظاهر كما تقدم فى تفسير قوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ (البقره ٢١٣/٢) أن عهد الفطره الساذجه كان قبل بعثه نوح عليه السلام و عاد و ثمود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل عن كونهم يعيشون على عباده الله و دين التوحيد و هو دين الفطره.

قوله تعالى: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ السبق استعاره كناية من الغلبه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ أَىٰ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَذْكُورِينَ أَخَذْنَا بِذَنْبِهَا ثُمَّ أَخَذْنَا فِي التَّفْصِيلِ فَقَالَ: «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا» و الحاصب الحجاره و قيل:الريح التى ترمى بالحصا و على الأول فهم قوم لوط، و على الثانى قوم عاد «وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» و هم قوم ثمود و قوم شعيب «وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ» و هو قارون «وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا» و هم قوم نوح و فرعون و هامان و قومهما.

ثم عاد سبحانه الى كافه القصص المذكوره و ما انتهى اليه أمر تلك الامم من الأخذ و العذاب فيبين بيان عام أن الذى أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أى فيجازيهم الله على ظلمهم لأن الدار دار الفتنه و الامتحان و هى السنه الالهيه التى لا معدل عنها فمن أهتدى فقد اهتدى لنفسه و من ضلّ فعليها (١).

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعْتَابٍ وَإِنْ أُوْهِنَ الْبُيُوتُ لَسِتُ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعُنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا إِلَى آخِرِ الْأَيَّامِ؛ العنكبوت معروف و يطلق على الواحد و الجمع و يذكر

العناية فى قوله: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا» الخ؛ باتخاذ الأولياء من دون الله و لذا جىء بالموصول و الصلته كما أن العناية فى قوله: «كَمَثَلِ الْعُنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا» الى اتخاذها البيت فيئول المعنى أن صفة المشركين فى اتخاذهم من دون الله أولياء كصفة العنكبوت فى اتخاذها بيتا له نبأ، و هو الوصف الذى يدل عليه تنكير «بَيْتًا» .

و يكون قوله: «وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعُنكَبُوتِ بَيَانًا لصفه البيت الذى أخذته العنكبوت و لم يقل: إن أوهن البيوت لبيتها كما هو مقتضى الظاهر أخذًا للجمله بمنزله المثل السائر الذى لا يتغير.

و المعنى: أن اتخاذهم من دون الله أولياء و هم آلهتهم الذين يتولونهم و يركنون اليهم كاتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلا- اسمه لا- يدفع حرًا و لا بردا و لا يكنّ شخصا و لا يقى من مكروه كذلك ليس لولايه أوليائهم إلا الاسم فقط لا ينفعون و لا يضرّون و لا يملكون موتا و لا حياه و لا نشورا.

و مورد المثل هو اتخاذ المشركين آلهه من دون الله، فتبديل الآلهه من الأولياء لكون السبب الداعى لهم الى اتخاذ الآلهه زعمهم أن لهم ولايه لأمرهم و تدبيرًا لشأنهم من جلب الخير اليهم و دفع الشر عنهم و الشفاعة فى حقهم.

و الآيه-مضافا الى إيفاء هذه النكته-تشمل بإطلاقها كل من اتخذ فى أمر من الامور و شأن من الشئون وليا من دون الله يركن اليه و يراه مستقلا فى أثره الذى يرجوه منه و إن لم يعدّ من الأصنام إلا أن يرجع ولايته الى ولايه الله كولايه الرسول و الأئمه و المؤمنين كما قال تعالى:

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦).

و قوله: لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أى لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت ما اتخذوهم أولياء. كذا قيل.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يمكن أن يكون «مَا» في «مَا يَدْعُونَ» موصوله أو نافية أو استفهامية أو مصدرية و «مِنْ» في «مِنْ شَيْءٍ» على الاحتمال الثاني زائده للتأكيد و على الباقي للتبيين و أرجح الاحتمالات الأولان و أرجحهما أولهما.

و المعنى: على الثاني أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئاً أى أن الذى يعبدونه من الآلهة لا حقيقه له فيكون كما قال صاحب الكشاف توكيدا للمثل و زياده عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً.

و المعنى: على الأول أن الله يعلم الشيء الذى يدعون من دونه و لا- يجهل ذلك فيكون كناية عن أن المثل الذى ضربه فى محله، و ليس لأوليائهم من الولايه إلا اسمها.

و يؤكد هذا المعنى الاسمان الكريمان: العزيز الحكيم فى آخر الآية فهو تعالى العزيز الذى لا يغلبه شىء فلا يشاركه فى تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه فى الخلق و الإيجاد أحد، الحكيم الذى يأتى بالمتقن من الفعل و التدبير فلا يفوض تدبير خلقه الى أحد، و هذا كالتمهيد لما سيبيّن فى قوله: «خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» .

قوله تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ يشير الى أن الأمثال المضروبه فى القرآن على أنها عامه تفرع أسماع عامه الناس، لكن الإشراف على حقيقه معانيها و لبّ مقاصدها خاصه لأهل العلم ممن يعقل حقائق الامور و لا ينجمد على ظواهرها.

و الدليل على هذا المعنى قوله: «و لا يعقلها» دون أن يقول: و ما يؤمن بها أو ما فى معناه.

فالأمثال المضروبه فى كلامه تعالى يختلف الناس فى تلقّيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظّ له منها إلا تلقّى ألفاظها و تصوّر مفاهيمها الساذجه من غير تعمق فيها و سبر لأغوارها، و من سامع يتلقى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يغور فى مقاصدها العميقه و يعمل حقائقها

و فيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون الله باتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت ليس مجرد تمثيل شعري و دعوى خاليه من البينه بل متك على حجه برهانيه و حقيقه حقه ثابتة و هي التي تشير اليه الآية التاليه.

قوله تعالى: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ المراد بكون خلق السماوات و الأرض بالحق نفى اللعب في خلقها، كما قال تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (الدخان ٣٩).

فخلق السماوات و الأرض على نظام ثابت لا يتغير و سنه إلهيه جاريه لا تختلف و لا تتخلف، و الخلق و التدبير لا يختلفان حقيقه و لا ينفك أحدهما عن الآخر (١)، و إذ كان الخلق و الصنع ينتهي اليه تعالى انتهاء ضروريا و لا محيص فالتدبير أيضا له و لا محيص و ما من شيء غيره تعالى إلا و هو مخلوقه القائم به المملوك له لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا، و من المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنيا في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لا لعب فيه و الجد الذي لا هزل فيه.

فلما تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولايه حق لكونه لا يملك شيئا بحقيقه معنى الملك بل كان ذلك منه جاريا على اللعب و تفويضه تعالى أمر التدبير اليه لعبا منه تعالى و تقدس إذ ليس إلا فرضا لا حقيقه له و وهما لا واقع له و هو معنى اللعب.

و منه يظهر أن ولايه من يدعون ولايته ليس لها إلا اسم الولاية من غير مسمى كما أن بيت

ص: ٧٥٩

١- ١). و ذلك أن موطن التدبير الحوادث الجاريه في الكون و معناه تعقيب حادث بحادث آخر على نظم و ترتيب يؤدي الى غايات حقه و حقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق و الايجاد باعتبار قياس الشيء الى آخر مثله و انضمامه اليه فليس وراء الخلق و الايجاد شيء منه.

العنكبوت كذلك.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية لهم و لغيرهم لكون المنتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم.

قوله تعالى: أُنزِلَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ الْخ؛ لما ذكر إجمال قصص الامم و ما انتهى اليه شركهم و ارتكابهم الفحشاء و المنكر من الشقاء اللازم و الخسران الدائم انتقل من ذلك - مستأنفا للكلام- الى أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بتلاوه ما أوحى اليه من الكتاب لكونه خير رادع عن الشرك و ارتكاب الفحشاء و المنكر بما فيه من الآيات البينات التي تتضمن حججا نيره على الحق و تشتمل على القصص و العبر و المواعظ و التبشير و الإنذار و الوعد و الوعيد يرتدع بتلاوه آياته تاليه و من سمعه.

و شفعه بالأمر بإقامه الصلاة التي هي خيل العمل و علل ذلك بقوله: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» و السياق يشهد أن المراد بهذا النهي ردع طبيعه العمل عن الفحشاء و المنكر بنحو الاقتضاء دون العليه التامه.

فلطبيعه هذا التوجه العبادى- إذ أتى به العبد و هو يكرره كل يوم خمس مرات و يداوم عليه و خاصه إذا زاول عليه فى مجتمع صالح يؤتى فيه بمثل ما أتى به و يهتم فيه بما اهتم به- أن يردعه عن كل معصيه كبيره يستشعنه الذوق الدينى كقتل النفس عدوانا و أكل مال اليتيم ظلما و الزنا و اللواط، و عن كل ما ينكره الطبع السليم و الفطره المستقيمه ردعا جامعا بين التلقين و العمل.

و ذلك أنه يلقيه أولا بما فيه من الذكر الإيمان بوحدانيتها تعالى و رساله و جزاء يوم الجزاء و أن يخاطب ربه بإخلاص العباده و الاستعانه به و سؤال الهدايه الى صراطه المستقيم متعوذا من غضبه و من الضلال، و يحمله ثانيا على أن يتوجه بروحه و بدنه الى ساحه العظمه

ص : ٧٦٠

و الكبرياء و يذكر ربه بحمده و الثناء عليه و تسيحه و تكبيره ثم السلام على نفسه و أتراه و جميع الصالحين من عباد الله.

مضافا الى حملة إياه على التطهر من الحدث و الخبث فى بدنه و الطهاره فى لباسه و التحرز عن الغضب فى لباسه و مكانه و استقبال بيت ربه فالإنسان لو داوم على صلاته مده يسيره و استعمل فى إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك فى نفسه ملكه الارتداع عن الفحشاء و المنكر البته، و لو أنك و كلت على نفسك من يربيه صالحه تصلح بها لهذا الشأن و تتحلى بأدب العبوديه لم يأمرك بأزيد مما تأمرك به الصلاه و لا روضك بأزيد مما تروضك به.

و قد استشكل على الآيه بأنا كثيرا ما نجد من المصلين من لا يبالي ارتكاب الكبائر و لا يرتدع عن المنكرات فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء و المنكر.

فإن الذى يعطيه السياق أن الأمر بإقامه الصلاه إنما علل بقوله: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ» ليفيد أن الصلاه عمل عبادى يورث إقامته صفه روحيه فى الإنسان تكون رادعه له عن الفحشاء و المنكر فتنزه النفس عن الفحشاء و المنكر و تتطهر عن قذاره الذنوب و الآثام.

فالمراد به التوسل الى ملكه الارتداع التى هى من آثار طبيعه الصلاه بنحو الاقتضاء لا أنها أثر بعض أفراد طبيعه الصلاه كما فى الواجب الثانى، و لا أنها أثر الاشتغال بالصلاه ما دام مشتغلا بها كما فى الجواب الثالث، و لا أن المراد هو التوسل الى تلقى نهى الصلاه فحسب من غير نظر الى الانتهاء عن نهىها كأنه قيل أقم الصلاه لتسمع نهىها كما فى الجواب الرابع، و لا أن المراد أقم الصلاه لينهاك الذكر الذى تشتمل عليه عن الفحشاء و المنكر كما فى الجواب الخامس.

فالحق فى الجواب أن الردع أثر طبيعه الصلاه التى هى توجه خاص عبادى الى الله سبحانه و هو بنحو الاقتضاء دون الاستيجاب و العليه التامه فربما تخلف عن أثرها لمقارنه بعض الموانع

التي تضعف الذكر و تقربه من الغفلة و الانصراف عن حاق الذكر فكلما قوى الذكر و كمل الحضور و الخشوع و تمحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء و المنكر و كلما ضعف ضعف الأثر.

و أنت إذا تأملت حال بعض من تسمى بالإسلام من الناس و هو تارك الصلاة و جدته يضع بإضاعه الصلاة فريضه الصوم و الحج و الزكاه و الخمس و عامه الواجبات الدينيه و لا يفرق بين طاهر و نجس و حلال و حرام فيذهب لوجهه لا يلوى على شيء ثم إذا قست اليه حال من يأتي بأدنى مراتب الصلاة مما يسقط به التكليف، و جدته مرتدعا عن كثير مما يقترفه تارك الصلاة غير مكترث به ثم إذا قست اليه من هو فوقه في الاهتمام بأمر الصلاة و جدته أكثر ارتداعا منه و على هذا القياس.

□
و قوله: وَ لَمَذْكُرِ اللَّهُ أَكْبَرُ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الذِّكْرُ تَارَهُ يُقَالُ وَ يَرَادُ بِهِ هَيْئُهُ لِلنَّفْسِ بِهَا يُمْكِنُ لِلنَّاسِ أَنْ يَحْفَظَ مَا يَقْتَنِيهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَ هُوَ كَالْحَفِظِ إِلَّا أَنْ الْحَفِظَ يُقَالُ اعْتَبَارًا بِأَحْرَازِهِ وَ الذِّكْرُ يُقَالُ اعْتَبَارًا بِاسْتِحْضَارِهِ. وَ تَارَهُ يُقَالُ لِحُضُورِ الشَّيْءِ الْقَلْبَ أَوْ الْقَوْلَ وَ لِذَلِكَ قِيلَ: الذِّكْرُ ذِكْرَانِ ذَكَرَ عَنْ نَسِيَانٍ وَ ذَكَرَ لَا عَنْ نَسِيَانٍ بَلْ عَنْ إِدَامَةِ الْحَفِظِ، وَ كُلُّ قَوْلٍ يُقَالُ لَهُ ذَكَرَ. انْتَهَى.

و الظاهر أن الأصل في معناه هو المعنى الأول و تسميه اللفظ ذكرا إنما هو لاشتماله على المعنى القلبي و الذكر القلبي بالنسبه الى اللفظي كالأثر المترتب على سببه و الغايه المقصوده من الفعل.

و الصلاة تسمى ذكرا لاشتمالها على الأذكار القولية من تهليل و تحميد و تنزيه و هي باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنها بمجموعها ممثل لعبوديه العبد لله سبحانه كما قال: □ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ (الجمعه ٩/)، و هي باعتبار آخر أمر يترتب عليه الذكر ترتب الغايه على ذى الغايه يشير اليه قوله تعالى: □ وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ

و الذكى الذى هو غايه مترتبه على الصلاه أعنى الذكر القلبى بمعنى استحضار المذكور فى ظرف الإدراك بعد غيبته نسيانا أو إدامه استحضاره، أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان و أعلاه كعبا و أعظمه قدرا و أثرا فإنه السعاده الأخيره التى هيئت للانسان و مفتاح كل خير.

ثم إن الظاهر من سياق قوله: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» أن قوله: «وَلَعَدِ كُرَّ اللَّهُ أَكْبَرُ» متصل به مبین لأثر آخر للصلاه و هو أكبر مما بين قبله، فيقع قوله:

«وَلَعَدِ كُرَّ اللَّهُ أَكْبَرُ» موقع الاضراب و الترقى و يكون المراد الذكر القلبى الذى يترتب على الصلاه ترتب الغايه على ذى الغايه فكأنه قيل: أقم الصلاه لتردعك عن الفحشاء و المنكر بل الذى تفيده من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك أى من النهى عن الفحشاء و المنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير و هو مفتاح كل خير و النهى عن الفحشاء و المنكر بعض الخير.

و من المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاه من الذكر أو نفس الصلاه و الجملة أيضا واقعه موقع الإضراب، و المعنى: بل الذى تشتمل عليه الصلاه من ذكر الله أو نفس الصلاه التى هى ذكر الله أكبر من هذا الأثر الذى هو النهى عن الفحشاء و المنكر لأن النهى أثر من آثارها الحسنه و «لَذِكْرُ اللَّهِ» هو النهى عن الفحشاء و المنكر.

و قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» أى ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه و لا تغفلوا عنه ففيه حث و تحريض على المراقبه و خاصه على القول الأول.

قوله تعالى: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ لَمَّا أَمُرُ فِي قَوْلِهِ: «اتُّلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ» الخ؛ بالتبليغ و الدعوه من طريق تلاوه الكتاب عقبه بيان كيفية الدعوه فنهى عن مجادله أهل الكتاب و هم على ما يقتضيه الإطلاق

اليهود و النصارى و يلحق بهم المجوس و الصابئون-إلا بالمجادله-التي هي أحسن المجادله.

و المجادله إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظا و طعنا و إهانة، فمن حسنها أن تقارن رفقا ولينا فى القول لا يتأذى به الخصم و أن يقترب المجادل من خصمه و يدنو منه حتى يتفقا و يتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج و عناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام و الاقتراب بوجه زادت حسنا على حسن فكانت أحسن.

و لهذا لما نهى عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم، فإن المراد بالظلم بقريته السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق و اللين و الاقتراب فى المطلوب بل يتلقى حسن الجدل نوع مذله و هوان للمجادل و يعتبره تمويها و احتيالا لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجح معهم المجادله بالأحسن.

و لهذا أيضا عقب الكلام ببيان كيفية الاقتراب معهم و بناء المجادله على كلمه يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه و يتعاضدان على ظهور الحق فقال: «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ أى على تلك الصفة و هى الاسلام لله و تصديق كتبه و رسله أنزلنا اليك القرآن.

وقيل: المعنى: مثل ما أنزلنا الى موسى و عيسى الكتاب أنزلنا اليك الكتاب و هو القرآن.

فقوله: فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ الخ؛ تفریع على نحو نزول الكتاب أى لما كان القرآن نازلا فى الاسلام لله و تصديق كتبه و رسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله و تصديق كتبه و رسله، و من هؤلاء و هم المشركون من عبده الأوثان من يؤمن به و ما يجحد بآياتنا و لا- ينكرها من أهل الكتاب و هؤلاء المشركين إلا- الكافرون و هم الساترون للحق بالباطل.

و فى قوله: وَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ نَوْعِ اسْتِقْلَالٍ لِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الْمَشْرِكِينَ.

قوله تعالى: وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذْ لَأَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ التلاوه هى القراءه سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط، و المراد به فى الآيه الثانى بقرينه المقام، و الخط الكتابه، و المبطلون جمع مبطل و هو الذى يأتى بالبطل من القول، و يقال أيضا للذى يبطل الحق أن يدعى بطلانه، و الأنسب فى الآيه المعنى الثانى و إن جاز أن يراد المعنى الأول.

و ظاهر التعبير فى قوله: «وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا» الخ؛ نفى العاده أى لم يكن من عادتك أن تتلو و تخط كما يدل عليه قوله فى موضع آخر: فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ (يونس ١٦).

و تقييد قوله: «وَمَا تَخُطُّهُ» بقوله: «بِيَمِينِكُمْ» نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل:

رأيته بعينى و سمعته باذننى.

و المعنى: و ما كان من عادتك قبل نزول القرآن أن تقرأ كتابا و لا كان من عادتك أن تخط كتابا و تكتبه-أى ما كنت تحسن القراءه و الكتابه لكونك أميا- لو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يبطلون الحق بدعوى أنه باطل لكن لما لم تحسن القراءه و الكتابه و استمرت على ذلك و عرفوك على هذه الحال لمخالطتك لهم و معاشرتكم معهم لم يبق محل ريب لهم فى أمر القرآن النازل اليك أنه كلام الله تعالى و ليس تلفيقا لفقته من كتب السابقين و نقلته من أقاصيصهم و غيرهم حتى يرتاب المبطلون و يعتذروا به.

قوله تعالى: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ إضراب عن مقدر يستفاد من الآيه السابقه كأنه لما نفى عنه صلى الله عليه و آله و سلم التلاوه و الخط معا تحصل من ذلك أن القرآن ليس بكتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدر بقوله: «بَلْ هُوَ -أى القرآن- آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ».

و قوله: وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ المراد بالظلم بقرينه المقام الظلم

لآيات الله بتكذيبها والاستكبار عن قبولها عنادا و تعنتا.

قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ لما ذكر الكتاب و أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يتلوه و يدعوهم اليه به و أن منهم من يؤمن به و منهم من لا يؤمن به و هم الكافرون الظالمون أشار فى هذه الآيه و الآيتين بعدها الى عدم اعتنائهم بالقرآن الذى هو آيه النبوه و اقتراحهم على النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يأتيهم بآيات غيره و الجواب عنه.

فقوله: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضا منهم أنه ليس بآيه و زعما منهم أن النبي يجب أن يكون ذا قوه إلهيه غيبيه يقوى على كل ما يريد، و فى قولهم: لولا أنزل عليه، دون أن يقولوا: لولا يأتينا بآيات نوع سخرية كقولهم: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (الحجر ٧).

و قوله: قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ جواب عن زعمهم ان من يدعى الرساله يدعى قوه غيبيه يقدر بها على كل من أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد و كيفما شاء لا يشاركه فى القدره عليها غيره فليس الى النبي شىء إلا أن يشاء الله ثم زاده بيانا بقصر بشأن النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى الإنذار فحسب بقوله: «إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» .

قوله تعالى: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ توطئه و تمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنه ليس بآيه، و الاستفهام للانكار و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أى يكفيهم آيه هذا الكتاب الذى أنزلناه عليك و هو يتلى عليهم فيسمعونه و يعرفون مكانته من الإعجاز و هو مملو رحمة و تذكره للمؤمنين.

قوله تعالى: قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا إلقاء جواب الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم ليحييهم به و هو أن الله سبحانه شهيد بيني و بينكم فيما نتخاصم فيه و هو أمر الرساله فإنه

سبحانه يشهد في كلامه الذى أنزله على رسالتي و هو تعالى يعلم ما فى السماوات و الأرض من غير أن يجهل شيئاً و كفى بشهادته لى دليلاً على دعواى.

و ليس لهم أن يقولوا إنه ليس بكلام الله لمكان تحديه مره بعد مره فى خلال الآيات و منه يعلم أن قوله: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» ليس دعوى مجردة أو كلاماً خطابياً بل هو بيان استدلالى و حجه قاطعه على ما عرفت.

و قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الذى فيه شهادته على رساله و هم بكفرهم بالله الحق يؤمنون بالباطل و لذلك خسروا فى إيمانهم.

قوله تعالى: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَوْ لَأَجَلَ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ إشاره الى قولهم كقول متقدميهم: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، و قد حكى الله عنهم استعجالهم فى قوله: وَ لئن أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّه مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ (هود ٨٠).

و المراد بالأجل المسمى هو الذى قضاه بنى آدم حين أهبط آدم الى الأرض فقال: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (البقره ٣٦)، و قال: وَ لِكُلِّ أُمَّه أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف ٣٤).

و هذا العذاب الذى يحول بينه و بينهم الأجل المسمى هو الذى يستحقونه لمطلق أعمالهم السيئه كما قال عز من قائل: وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقاً (الكهف ٥٨)، و لا ينافى ذلك تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحه على الرسول من غير إمهال و إنظار، قال تعالى: وَ مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ (الإسراء ٥٩).

قوله تعالى: يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ يَوْمَ

يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تَكَرَّرَ «يَسْتَعْجِلُونَكَ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ جَهْلِهِمْ وَفَسَادِ فَهْمِهِمْ وَ أَنَّ اسْتَعْجَالَهِمْ اسْتَعْجَالَ لِأَمْرٍ مُؤَجَّلٍ لَا مَعْجَلَ أَوْلَا وَ اسْتَعْجَالَ لِعَذَابٍ وَقَعَ لَا صَارَفَ لَهُ عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ مُجْزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي لَا تَفَارِقُهُمْ ثَانِيًا.

وَ الْغِشَاوَةُ وَ الْغِشَايَةُ التَّغْطِيَةُ بِنَحْوِ الْإِحَاطَةِ، وَقَوْلُهُ: «يَوْمَ يَغْشَاهُمْ» ظَرْفٌ لِقَوْلِهِ:

«لَمُحِيطَةٌ» وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ (١).

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٦ إلى ٦٠]

إشارة

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَبَوَّئْتُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَيَّ رَبُّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَ كَأَيُّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)

بيان:

قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ تَوْجِيهُ لِلخَطَابِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي أَرْضِ الْكُفْرِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّظَاهَرِ بِالذِّينِ الْحَقِّ وَ الْاسْتِنَانِ بِسُنَّتِهِ وَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ذِيلُ الْآيَةِ.

وَ قَوْلُهُ: إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ الَّذِي يَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَرْضِ هَذِهِ الْأَرْضُ

ص: ٧٦٨

التي نعيش عليها و إضافتها الى ضمير التكلم للإشارة الى أن جميع الأرض لا فرق عنده في أن يعبد في أى قطعه منها كانت، و وسعه الأرض كناية عن أنه إن امتنع فى ناحيه من نواحيها أخذ الدين الحق و العمل به فهناك نواح غيرها لا يمتنع فيها ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعه على أى حال.

و قوله: **فَأَيُّ آيٍ فَاعْبُدُونِ** الفاء الاولى للتفريع على سعه الأرض أى إذا كان كذلك فاعبدونى وحدى و الفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام و الظاهر أن تقديم «إياى» لإفاده الحصر فيكون قصر قلب و المعنى: لا تعبدوا غيرى بل اعبدونى، و قوله: «فَاعْبُدُونِ» قائم مقام الجزاء.

و محصل المعنى: أن أَرْضِي واسعاً إن امتنع عليكم عبادتى فى ناحيه منها تسعكم لعبادتى اخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدونى وحدى و لا تعبدوا غيرى فإن لم يمكنكم عبادتى فى قطعه منها فهاجروا الى غيرها و اعبدونى وحدى فيها.

قوله تعالى: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** الآية؛ تأكيد للأمر السابق فى قوله: «فَأَيُّ آيٍ فَاعْبُدُونِ» و كالتوطئه لقوله الآتى: «الَّذِينَ صَبَرُوا» الخ.

و قوله: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** من الاستعارة بالكناية و المراد أن كل نفس ستموت لا- محاله، و الالتفات فى قوله: «ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» من سياق التكلم وحده الى سياق التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

و محصل المعنى: أن الحياه الدنيا ليست إلا أياماً قلائل و الموت وراءه ثم الرجوع الينا للحساب فلا يصدنكم زينه الحياه الدنيا- و هى زينه فانيه- عن التهيؤ للقاء الله بالإيمان و العمل فففيه السعاده الباقيه و فى الحرمان منه هلاك مؤبد مخلد.

قوله تعالى: **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا** الخ؛ بيان لأجر الإيمان و العمل الصالح بعد الموت و الرجوع الى الله و فيه حث و ترغيب

للمؤمنين على الصبر في الله و التوكل على الله، و التبوءة الإنزال على وجه الاقامه، و الغرف جمع غرفه و هي في الدار، العليه العاليه.

و قد بين تعالى أولا ثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ثم سماهم عاملين إذ قال: «و نَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» ثم فسر العاملين بقوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فعاد بذلك الصبر و التوكل سمه خاصه للمؤمنين فدل بذلك كله أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر في الله و توكل عليه، فعلى المؤمن أن يصبر في الله على كل أذى و جفوه ما يجد الى العيشه الدينيه سيلا فإذا تعذرت عليه إقامه مراسم الدين في أرضه فليخرج و ليهاجر الى أرض غيرها و ليصبر على ما يصيبه من التعب و العناء في الله.

قوله تعالى: الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وصف للعالمين، و الصبر أعم من الصبر عند المصيبه و الصبر على الطاعه و الصبر على المعصيه، و إن كان المورد مورد الصبر عند المصيبه فهو المناسب لحال المؤمنين بمكه المأمورين بالهجره.

قوله تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ كَأَيِّنْ لِلتَّكْثِيرِ، و حمل الرزق هو ادخاره كما يفعله الانسان و النمل و الفار و النحل من سائر الحيوان.

و في الآيه تطيب لفس المؤمنين و تقويه لقلوبهم أنهم لو هاجروا في الله أتاهم رزقهم أينما كانوا و لا يموتون جوعا فزازقهم رزقهم دون أوطانهم، يقول: و كثير من الدواب لا رزق مدخر لها يرزقها الله و يرزقكم معاشر الآدميين الذين يدخرون الأرزاق و هو السميع العليم.

و في تذييل الآيه بالاسمين الكريمين السميع العليم إشاره الى الحجه على مضمونها و هو أن الانسان و سائر الدواب محتاجون الى الرزق يسألون الله ذلك بلسان حاجتهم اليه و الله سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه و مقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَيَخِرُّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَمَا إِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلَمِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيُكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوْ لَمْ يَهَبُوا أَذًا جَعَلْنَا حَزْمًا آمِنًا وَ يَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ يَنْعَمُ اللَّهُ بِنِعْمِهِ اللَّهُ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَ مَنِ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

قوله تعالى: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ .**

خلق السماوات و الأرض من الایجاد و تسخير الشمس و القمر- و ذلك بتحويل حالاتهما بالطلوع و الغروب و القرب و البعد من الأرض- من التدبير الذى يفرع عليه كينونه أرزاق الإنسان و سائر الحيوان و هذا الخلق و التدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر.

و إذا كان الله هو الخالق و بيده تدبير السماوات و يتبعه تدبير الأرض و كينونه الأرزاق كان هو الذى يجب أن يدعى للرزق و سائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان الى غيره ممن لا يملك شيئاً و هو قوله: **«فَأَنَّى تُصَيَّرُ قُونَ»** أى فإذا كان الخلق و تدبير الشمس و القمر اليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء الى دعوته غيره من الأصنام و عبادته.

قوله تعالى: **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** فى الآية تصريح بما تلوح اليه الآية السابقة، و القدر التضيق و يقابله البسط و المراد به لازم معناه و هو التوسع، و وضع الظاهر موضع المضمرة فى قوله: **«إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»** للدلالة على تعليل الحكم، و المعنى: و هو بكل شىء عليم لأنه الله.

و المعنى: الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده و يضيقه على من يشاء- و لا يشاء إلا على طبق المصلحة- لأنه بكل شىء عليم لأنه الله الذى هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال.

قوله تعالى: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا - إِلَى قَوْلِهِ - لَا يَعْقِلُونَ** المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات فى

الربيع.

و قوله: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ أَي أَحْمَدُ اللَّهُ عَلَى تَمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِاعْتِرَافِهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُدَبِّرُ لِأَمْرِ خَلْقِهِ فَلَزِمَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَأَرْبَابِ الْأَصْنَامِ.

و قوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أَي لَا- يَتَدَبَّرُونَ الْآيَاتِ وَ لَا- يَحْكُمُونَ الْعُقُولَ حَتَّى يَعْرِفُوا اللَّهَ وَ يَمَيِّزُوا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ حَقَّ التَّعْقَلِ.

قوله تعالى: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ اللَّهُ مَا يَلْهِيكَ وَ يَشْغَلُكَ عَمَّا يَهْمُكَ فَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا مِنَ اللَّهِ لِأَنَّهَا تَلْهَى الْإِنْسَانَ وَ تَشْغَلُهُ بِزِينَتِهَا الْمَزُوقَةِ الْفَانِيَةِ عَنِ الْحَيَاةِ الْخَالِدَةِ الْبَاقِيَةِ.

و اللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظاما خياليا لغايه خياليه كملعب الصبيان و الحياه الدنيا لعب لأنها فانيه سريعه البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه و يتولعون به ساعه ثم يتفرقون و سرعان ما يتفرقون.

على أن عامه المقاصد التي يتنافس فيها المتنافسون و يتكالب عليه الظالمون أمور وهميه سرايه كالأموال و الأزواج و البنين و أنواع التقدم و التصدر و الرئاسة و المولويه و الخدم و الأنصار و غيرها فالإنسان لا يملك شيئا منها إلا في ظرف الوهم و الخيال.

و أما الحياه الآخره التي يعيش فيها الإنسان بكماله الواقعي الذي اكتسبه بإيمانه و عمله الصالح فهي المهمه التي لا لهو في الاشتغال بها و الجد الذي لا لعب فيها و لا لغو و لا تأثيم، و البقاء الذي لا فناء معه، و اللذاه التي لا ألم عندها، و السعاده التي لا شقاء دونها، فهي الحياه بحقيقه معنى الكلمه.

و هذا معنى قوله سبحانه: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» .

و في الآيه- كما ترى- قصر الحياه الدنيا في اللهو و اللعب و الإشاره إليها بهذه المفيده

ص: ٧٧٣

للتحقير وقصر الحياه الآخرون فى الحيوان و هى الحياه و تأكيده بأدوات التأكيد كإِنَّ و اللام و ضمير الفصل و الجملة الاسميه.

و قوله: لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أى لو كانوا يعلمون لعلموا أن الأمر كما وصفنا.

قوله تعالى: فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ تفریع على ما تحصل من الآيات السابقه من شأنهم و هو أنهم يؤفكون و أن كثيرا منهم لا يعقلون أى لما كانوا يؤفكون و يصرفون عن عبادته الى عباده غيره و أكثرهم لا يعقلون و يناقضون أنفسهم بالاعتراف و الجحد فإذا ركبوا، الخ.

و الركوب الاستعلاء بالجلوس على الشىء المتحرك و هو متعدّد بنفسه و تعديته فى الآيه بفى لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه، و المعنى: فإذا ركبوا مستقرين فى الفلك أو استقروا فى الفلك راكبين، و معنى الآيه ظاهر و هى تحكى عنهم تناقضا آخر و كفرانا للنعمة.

قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ اللام فى «لِيَكْفُرُوا» و «لِيَتَمَتَّعُوا» لام الأمر و أمر الأمر بما لا يرتضيه تهديد و إنذار كقولك لمن تهده «افعل ما شئت»، قال تعالى: اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (حم السجده ٤٠/).

و احتمال كون اللام للغايه، و المعنى: أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهى بهم الى كفران النعمة التى آتيناهاهم و الى التمتع، و أول الوجهين أوفق لقوله فى ذيل الآيه: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»، و يؤيده قوله فى موضع آخر: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (الروم ٣٤/)، و لذا قرأه من قرأ «وَ لِيَتَمَتَّعُوا» بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر.

قوله تعالى: أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنْخَظُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمُ الْحَرَمَ الْأَمِنَ هو مكه و ما حولها و قد جعله الله مأمنا بدعاء إبراهيم عليه السّلام و التخطف كالخطب استلاب الشىء بسرعه و اختلاسه و قد كانت العرب يومئذ تعيش فى التغاور و التناهب و لا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل و السبى و النهب لكنهم يحترمون الحرم و لا

يتعرضون لمن أقام بها فيها.

و المعنى: أو لم ينظروا أنا جعلنا حرماً آمناً لا يتعرض لمن فيه بقتل أو سبى أو نهب و الحال أن الناس يختلسون من حلوهم خارج الحرم.

وقوله: أَلَمْ يَلْبِطُوا بِاللَّهِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَلِهِ اللَّهُ يَكْفُرُونَ توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة و هي نعمه عظيمه بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام و هي باطله ليس لها إلا الاسم.

قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ تهديد لهم بالناس بتوسيمهم بأشد الظلم و أعظمه و هو افتراء الكذب على الله بالقول بالآلهه و أن الله اتخذهم شركاء لنفسه، و تكذيب الإنسان بالحق لما جاءه و الوصفان جميعاً موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام و كذبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كفرون و مثنوى الكافرين و محل إقامتهم في الآخرة جهنم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ الجهد الوسع و الطاقه و المجاهده استفراغ الوسع في مدافعه العدو و الجهاد ثلاثه أضرب: مجاهده العدو الظاهر، و مجاهده الشيطان، و مجاهده النفس كذا ذكره الراغب.

وقوله: جَاهَدُوا فِينَا أى استقر جهادهم فينا و هو استعاره كناية عن كون جهده مبدولاً فيما يتعلق به تعالى من اعتقاده و عمل، فلا ينصرف عن الإيمان به و الائتمار بأوامره و الانتهاء عن نواهي بصارف يصرفه.

وقوله: لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا أثبت لنفسه سبلاً و هي أيما كانت تنتهى اليه تعالى فإنما السبيل سبيل لتأديته الى ذى السبيل و هو غايتها فسبله هي الطرق المقربة منه و الهدايه اليه تعالى، و إذ كانت نفس المجاهده من الهدايه كانت الهدايه الى السبيل هدايه على هدايه فتطبق على مثل قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى (محمد ١٧).

و مما تقدم يظهر أن لا حاجة في قوله: «فِينَا» الى تقدير مضاف كشان و التقدير في شأننا.

□
و قوله: وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ قيل: أى معيه النصره و المعونه و تقدم الجهاد المحتاج اليهما قرينه قويه على إرادته ذلك. انتهى. و هو وجه حسن و أحسن منه أن يفسر بمعيه الرحمه و العنايه فيشمل معيه النصره و المعونه و غيرهما من أقسام العنايات التى له سبحانه بالمحسنين من عباده لكمال عنايته بهم و شمول رحمته لهم، و هذه المعيه أخص من معيه الوجود الذى ينبى عنه قوله تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (الحديد ٤).

و قد تقدمت الإشارة الى أن الآية خاتمه للسوره منعطفه على فاتحتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩